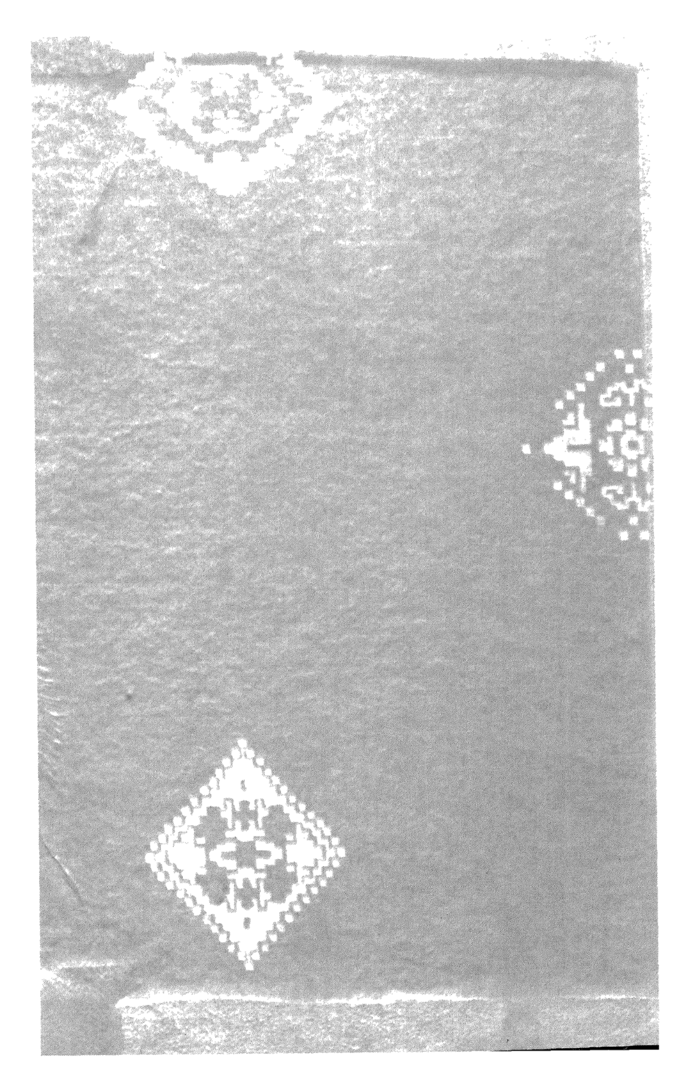
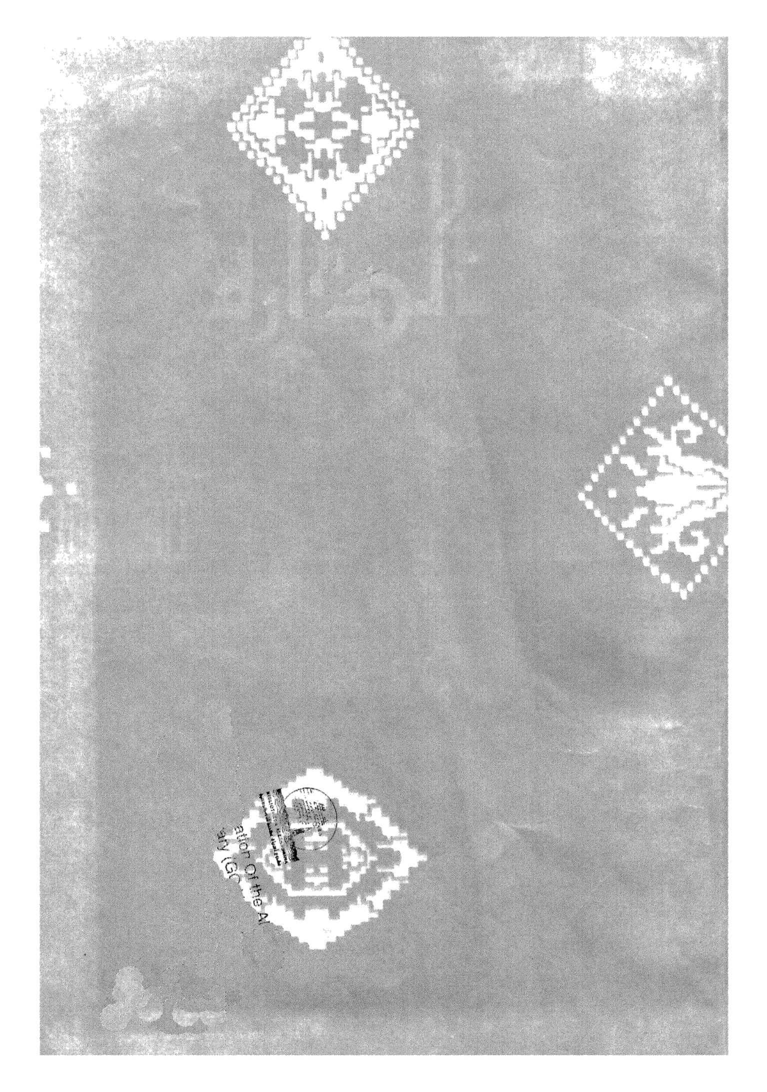
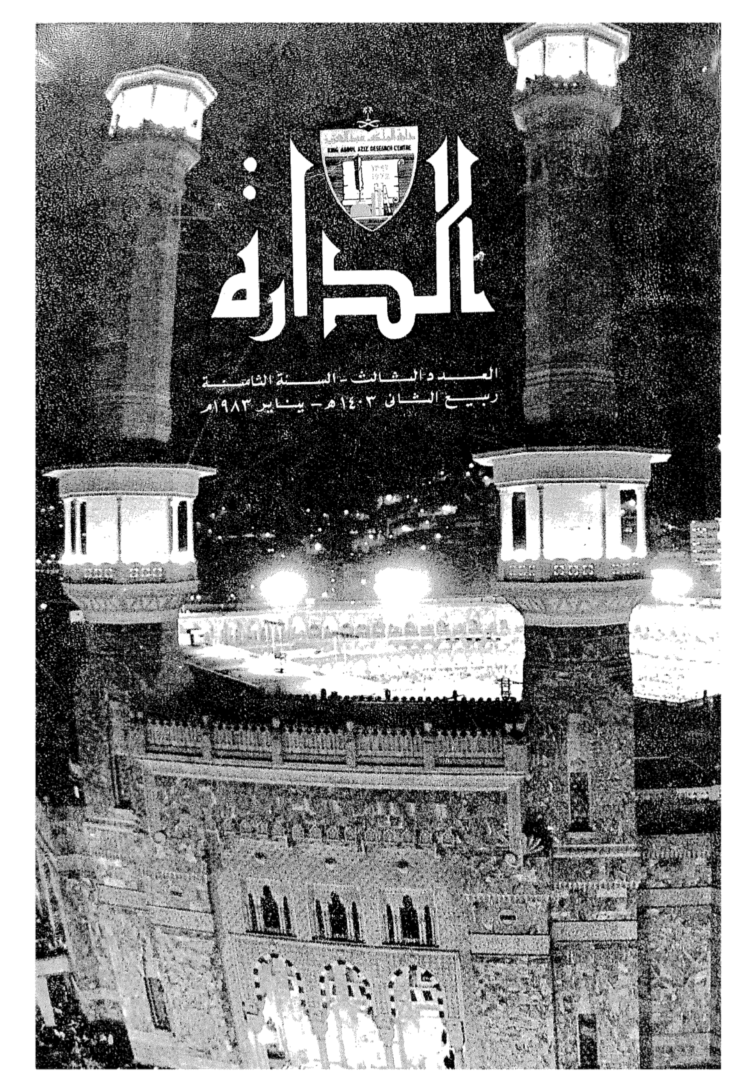







KING ABDUL AZIZ RESEARCH CENTRE
1972
الدارة
العدد الثالث - السنة الثامنة
ربيع الثاني ١٤٠٣هـ - يناير ١٩٨٣م


وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا
إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما
واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا
حامد
١٤٠٠

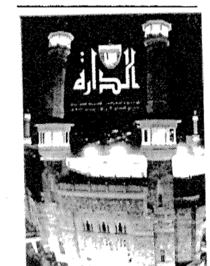


مجلة فصلية تصدر عن دارة
الملك عبد العزيز
تعنى بتراث وفكر المملكة
والجزيرة العربية والعالم العربي
والاسلامي مما له صلة بالجزيرة العربية

العدد الثالث - السنة الثامنة
ربيع الثاني - جمادى الأولى - جمادى الآخرة ١٤٠٣هـ
يناير - فبراير - مارس ١٩٨٣م

المملكة العربية السعودية - الرياض
✉ ٢٩٤٥
☎ ٤٤١٢٣١٦

في هذا العدد:



الحرم المكي الشريف في مكة المكرمة

قيمة العدد في الداخل ريالان. والاشتراك السنوي خمسة عشر ريالا. في الكويت ٢٥٠ فلسًا. في الإمارات ٤ دراهم. في قطر ٤ ريالات. في ألمانيا ٢ مارك. في المغرب ٤ دراهم. في تونس ٣٥٠ مليمًا. في مصر ٢٥ قرشًا.

في خارج البلاد العربية دولار للعدد الواحد وستة دولارات للسنة

ترسل الاشتراكات باسم (أمين عام الدارة)، أما المقالات فترسل باسم رئيس التحرير — ص. ب. ٢٩٤٥ الرياض. ترتيب المواضيع داخل العدد يخضع لأسباب فنية لا علاقة لها بمكانة الكاتب

افتتاحية العدد

بقلم: رئيس التحرير

وألزمت نفسي أن أكتب كلمة أفتتح بها العدد وفي هذه المرة سأتجنب ذكر المجلة بكلمة حامدة شاكرة وإنما أذكرها كوعاء ثقافي أحب له الأولوية في شيء من روافد التراث والثقافة. فالمثقفون لدينا كثيرون أرجو أن أستكثر بهم الكاثر وأفاخر الآخر أحب أن تنفرد شيبان بهذا اللقب والمطلب الذي أريده هو بحوث متعددة أو بحث شامل عن الإنسان الذي سكن نجد قبل العدنانية فهل أجد عند المثقف بحثاً يشرح فيه تاريخ طسم وجديس وزرقاء اليمامة وهل سكن الأنباط نجداً وهم أصحاب الرس فسميت مدينة الرس في القصيم باسمهم أو باسم الآبار التي حفروها هناك فلا زلنا ننطق



اسم البئر الرس بكسر الراء المشددة بينما
الفصحى تنطقها بفتح الراء المشددة وعندنا
في الكيان الكبير رسان رس القصيم ورس
في شمال المدينة جهلت حدوده وأين هو؟ وإن
حفظت اسمه ، حفظت ذلك حين نسبوا
بعض العلويين من الأشراف فقالوا الأشراف
الرسيون أرجو من أساتذتنا في الجامعات
ومن غيرهم أن يوافقوا المجلة بما طلبت ولا
أريد أن أزيد .

محمد حسين زيدان

محمد بن عبد الوهاب

ودعوته

إلى التوحيد

بقلم الدكتور التهامي نقرة

أجلُّ مافي الإنسان قلبه، مستقر المعرفة واليقين، وخير ما يثبت فيه، عقيدة إلٰهية يغذيها بعمله وعبادته، فتهب له أسمى ما في الحياة، وتفتح له كنوز الإيمان منبع الأحاسيس الرفيعة، ومصدر العواطف النبيلة.

ومن أطيب ثمرات هذا الإيمان صالح الأعمال كما قال ﷺ: «ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل». وما العقيدة الإلٰهية إلا عقيدة التوحيد التي بها أرسل رسله وأنزل كتبه، وجعلها وصيته في الأولين والآخرين.

فهي البدء والختام منذ رسالة نوح إلى رسالة محمد عليهما الصلاة والسلام. ولم تكن الوثنية إلا أعراضًا طارئة نفثت سمومها، ونشرت همومها.

فعن عياض المجاشي أن رسول الله ﷺ قال في إحدى خطبه : «ألا إن ربي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم. ومما علمني يومي هذا ... وأني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن لا يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا ...».

وما تزال الشياطين تقعد للإنسان بكل طريق، صادّة عن سبيل الله صارفه عن وحدانيته، داعية إلى الشرك.

فدين الله في جميع الأزمان إفراده بالربوبية والاستسلام له وحده بالعبودية. وما دام الله واحداً فلابد أن يكون الدين واحدا في العقيدة، ولكن الناس قد تطغى عليهم الأوهام والرواسب والفلسفات، فيلبسوا الحق الذي جاءت به الرسل بالباطل الذي صنعته ظنونهم وعقولهم، كما فعل اليهود والنصارى حين تأثروا بالفلسفة الإغريقية التي تعدد الآلهة.

عقيدة اليهود والنصارى :

فادعى اليهود أن لهم إلٰها خاصًا بهم، وهو إله إسرائيل، وللشعوب الأخرى آلهة أخرى ولم يخص إلٰههم من صفات الحوادث، ومن شوائب النقص والتجسيم، وقد بدأ انحرافهم وموسى بين أظهرهم حين عبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري من ذهب. وزادت عقيدتهم في الله ارتكاسا في العهد الذي ألف فيه التلمود، وهو القرون الستة الأولى بعد الميلاد.

وزعم النصارى أن المسيح عقل «سام» متولد عن الله، وكان موجودًا قبل خلق العالم، وقد تجسد ليخلص الناس من خطيئة أبيهم آدم، ولكنه مع ذلك تابع للإلٰه الأب، والثلاثة والتي هي الآب والابن وروح القدس إله واحد، رغم أن كل واحد منها مستقل عن الآخر، تعالى الله عما يقولون.

ولم تكن عقيدة التثليث هذه موجودة في العهد الجديد (الإنجيل) ولا في أعمال الحواريين وتلاميذهم، ولكن بولس هو الذي خالف عقيدة التوحيد وزعم هذا الباطل، وإنجيل برنابا مخالف لكل ذلك.

ومما يروى أن مسلمًا قال لأحد القساوسة : بلغني أن رئيس الملائكة قد مات، فقال له : هذا محض افتراء، فإن الملائكة خالدون. فقال له المسلم : كيف ، وقد كنت تقول في وعظك : إن الإلـٰه قد مات على خشبة الصليب. فكيف يموت الإلـٰه وتخلد الملائكة ! ؟

قال أحد الشعراء :

عجبا للمسيح بين النصارى — وإلى الله والدا نسبوه
أسلموه إلى اليهود وقالوا — إنهم بعد قتله صلبوه
فلئن كان ما يقولون حقًا — فسلوهم، فأين كان أبوه ؟
ولئن كان راضيًا بأذاهم — فاشكروهم لأجل ما صنعوه
وإذا كان ساخطا غير راضٍ — فاعبدوهم لأنهم غلبوه !

العرب وعقيدة التوحيد :

أما الاسلام فهو دين التوحيد الخالص، وجوهر عقيدته، ومحور عباداته، والطابع المميز له إنما هو عبودية الإنسان لله وحده. ومن ثَم كانت عنايته الكبرى موجهة إلى تحرير العقيدة من شباك الخرافات والأوهام، وإلى تحديد الصورة التي يجب أن يستقر عليها الضمير البشري في حقيقة الألوهية التي جاءت بها الأديان السماوية كلها، كما يقرر ذلك القرآن الكريم في مثل قوله تعالى : «**وما أرسلنا من قبلْكَ مِن رَّسُولٍ إلاَّ نُوحِىَ إلَيْهِ أَنَّهُ لَا إلـٰه إلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**» (الأنبياء ٢٥).

وحين جاء الإسلام كان في الجزيرة العربية ركام من باطل المعتقدات التي تسربت إليها من اليهودية والنصرانية والفرس، ومن الوثنيات القديمة. فمنهم من عبد الأصنام، إما بوصفها تماثيل للملائكة، وإما لذاتها، وكان بالكعبة التي أُقيمت قواعدها لعبادة الله الواحد الأحد نحو ثلاثمائة وستين صنما. وقد بين القرآن الكريم ألوان الشرك التي كانت سائدة في الجاهلية في عدة سور[1] وكان أكثر ما نزل منه في المرحلة المكية يهدف إلى غرس عقيدة التوحيد ونشرها بين قوم لم يكلفوا بشريعة قط ، لوجودهم في فترة من الرسل تمتد من إسماعيل إلى محمد عليهما الصلاة والسلام، وهي مدة تزيد

على ثلاثة آلاف سنة : قال تعالى لنبيه محمد ﷺ : **«لتُنذر قومًا ما أتاهم من نذير من قبلك»** (القصص : ٤٦).

وبتعاقب الأجيال والوراثة والتقليد، كان يتأصل فيهم باطل الشرك ويستحكم، حتى صار من العجب أن يقال لهم : الله واحد !. **«أَجَعَلَ الآلهة إلهًا واحدًا، إن هذا لشيءٌ عجابٌ»** (صٓ : ٤). وكم ضرب القرآن لهم من أمثال وأقام من براهين على وحدانية الله في ذاته، فلا شريك له في ملكه، وليس كمثله شيء؛ وفي صفاته، فليس لأحد من الصفات ما يُشبهها؛ وفي أفعاله، فليس لأحد مثلُ فعله !

وكم في القرآن ما يصحح الديانات المنحرفة، والأوهام الخابطة في الظلام ! ومن هنا صار كل شيء في الإسلام مقامًا على التوحيد، ومنبثقًا عنه. والمسلم يساق من باطنه، لا من ظاهره. والعقيدة هي التي يجب أن تلقي ظلها على حياته، فاعتبرها القرآن غاية سامية في ذاتها، كما قال ابن القيم:

إن كل آية في القرآن متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه ...[2] فالرجوع إلى الله وحده في التحريم والتحليل، وفي التشريع، ومنهج الحياة، وميزان القيم والاعتبارت، والتوجه إليه وحده في الطلب والعبادة والرجاء والخشية والتقوى، هو من مقتضيات توحيد الإلوهية والسلطان.

«هو الحي لا إلٰه إلا هو فادْعوهُ مخلصين له الدين» (غافر : ٦٥).

قوة التوحيـد :

وإنه لا توجد في الأرض قوة تكافيء قوة التوحيد، إذ هو يحرر النفوس من الخنوع لغير الله، والعبودية لكل ما سواه، ويصون العمل من آفة الرياء. وقد كان من عاجل ثمراته تلك النماذج البشرية الرفيعة التي ضربت أمثلة رائعة في الكمال الإنساني، تأبى نفوسهم الذلة والاستكانة، ولا ينصاعون للظالم وإن قويت شوكته وعلا في الأرض؛ يستمدون من الله العون والسند، يخشونه ولا يخشون الناس وإذ قيل لهم : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، ازدادوا إيمانًا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل.

وبذلك كتب الله لهم النصر في مواجهة الطغيان، وأخرجهم من كل محن الابتلاء ظافرين، لأن إيمانهم بالله بلغ درجة اليقين، إذ بيده آجالهم وأرزاقهم ونفعهم

وضرهم. وهذا ما غرسه النبي ﷺ في قلوبهم. وقد **قال لابن عباس وهو غلام**: «**احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك.. وإن اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**» (**رواه الترمذي**).

وبهذه العقيدة التي بثها في أصحابه وأتباعه، وصهرها في قلوبهم، هانت عليهم الدنيا، بل هانت عليهم أنفسهم، واستجابوا لله حين دعاهم لما يحييهم، ولم يغرهم نعيم الحياة الفانية لانهم واثقون بأن ما عند الله خير وأبقى.

ولم يتخل النصر عن المسلمين إلا حين اهتزت عقيدتهم، واختل إيمانهم.

خطر فساد العقيدة :

فإذا كان هذا من آثار عقيدة التوحيد في النفس والحياة، فإن الانحراف بها عدول عن منهج الدين القيم، وضلال عن سبيل الله، وتلويث للفطرة السليمة. «إنِ الحُكْمُ إلا لله. أَمَرَ ألاَّ تَعبدوا إلا إياهُ. ذلك الدينُ القيِّمُ. ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون» (يوسف : ٤٠). وأي تمزق ينشئه التصور الخاطىء في ضمير المسلم وحياته، هذا التوزع في التوجه والدعاء، والشعور والرجاء!

إن معقد الدعاء والرجاء، هو الذي يملك مفتاح العطاء، وهو واهب الحياة، وليس الذي وَهبت له الحياة!

وحس الإسلام في تمحيص القلوب، ونقد الخطرات مرهف شديد الحساسية. فكيف يسمح لمن يدين بعقيدة التوحيد الخالص أن يسلم وجهه لغير الله، أو يرجو سواه، أو ينزل في وهدة يذل فيها لمخلوق مثله ليس له من الأمر شيء؟

لذلك حذرنا من الشرك بكل صوره وأشكاله، لأن مساربه كثيرة، ومزالقه قد تدق وتخفى، فلا يكاد يراها إلا الذين قدروا الله حق قدره. وقد جاء في الأثر: الشركُ أخفى من دبيب الذر على الصفا في الليلة الظلماء.

قال يحيي بن معاذ : «إن للتوحيد نورا، وللشرك نارا، وإن نور التوحيد أحرق لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين».

ومن المسلمين من ينسى الحق إذا طال عليه الأمد، ويألف المنكر إذا كرره أو تكرر أمامه إلا من عصم الله من الأتقياء الأقوياء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يسكتون عن الحق خائفين أو مجاملين، أو مترخصين أو متأولين، وحمدُ الناس لا يغريهم، كما أن ذمهم لا يثنيهم. وفيهم من أيقظهم الله للإصلاح فانبرى كالسهم يقذف بالحق على الباطل فيدمغه، حتى يكون الدين كله لله، وإن حمَّله ذلك من أذى المبطلين ومقتهم عناءً وجهدًا وجهادًا.

ومن بين هؤلاء المجددين المصلحين **الشيخ محمد بن عبدالوهاب** الذي بايع بالإخلاص والولاء ربَّه، ونـوَّر بالعلم قلبه، وتسلّح بالإيمان واليقين، فعمل على تحرير النفوس من عنت الأهواء الجامحة، والجاهلية الغاشية، وتخليصها من شوائب المنكرات والبدع.

محمد بن عبدالوهاب الداعية المصلح :

ولد في بلدة العيينة من نجد سنة ١١١٥ هـ . وبها نشأ وحفظ القرآن الكريم وتلقى مباديء العلوم والفقه الحنبلي عن والده مفتي العيينة وقاضيها، ثم سافر في طلب العلم إلى الحجاز والبصرة حيث عكف على دراسة كتب التفسير والحديث ومؤلفات العلامة ابن تيمية، ومؤلفات تلميذه ابن قيم الجوزية، وكان تأثره بهما واضحًا في كتاباته وأفكاره وحججه.

ثم لما رجع إلى بلدة عيينة تلقاه أميرها آنذاك **عثمان بن معمر** بحسن القبول. وكان بها كثير من الأشجار والأحجار التي يعظمها أهل القرية ويذبحون لها، كقبة زيد بن الخطاب وشجرة أبي دجانة. فساءه ما رأى من خَبْط في الضلال، وخرج مع أمير البلدة في عدد من الجنود، فقطعوا الأشجار التي كان الناس يلوذون بها، وهدموا المشاهد والقباب؛ فشكوه إلى حاكم القطيف والإحساء، فأرسل كتابًا إلى عثمان بن معمر يأمره فيه بإخراج الشيخ من بلدته، فخرج منها إلى الدرعية ١١٥٨ هـ . ولما علم

به أمير الدرعية **محمد بن سعود** زاره، وجرى بينهما حديث حول ما يجري بين أهل نجد من شرك خفي أبعدهم عن عقيدة التوحيد. وكانوا ينتابون قبرا يزعمون أنه قبر ضرار الصحابي المعروف، يسألونه قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وشجرة تسمى الطرفية، يعتقدون فيها ماكان يعتقد مشركو الجاهلية في ذات أنواط. ومغارة يسمونها : مغارة بنت الأمير، ويختلف إليها النساء اللائي لم يلدن أو لم يتزوجن، وغير ذلك مما يمس جوهر التوحيد، ويجعل النفع والضر بيد غيره سبحانه.

وقد وجد من الأمير أذنا صاغية، وقلبًا واعيًا، واستعدادًا لحماية ما يعتزم القيام به من دعوة الإصلاح ومقاومة البدع، وطمس مظاهر الشرك. وليس ذلك بالأمر الهين في قوم رانت على قلوبهم أوهام وأباطيل، فاجتالتهم عن الفطرة السليمة، لتصبح جزءًا من عقيدتهم وقاعدة لتصوراتهم.

ولم تكن هذه الحركة الإصلاحية التي تجهم لها يومئذ أهل نجد سوى عقيدة صحيحة تصل الناس بربهم من غير وسطاء ولا شفعاء. فتعاهدا على جمع الكلمة، وإزالة الشبهات، ومقاومة المنكرات، وإصلاح ما فقد من العقيدة، فدان لدعوة الشيخ من دان، وثار عليه من ثار، وقد وجد من الأمير في محنته سندًا متينًا ومدافعًا أمينًا.

وفي سنة **١١٩٩ هـ توفي الإمام محمد بن سعود فخلفه ابنه البار عبدالعزيز** - رحمهما الله - في الحكم،وفي مؤازرة الشيخ ومناصرته، ففتح الرياض وتهامة وما يليها من اليمن والحجاز، ودانت له نجد، فاستقام أمر الدعوة للشيخ بعد عشرين عامًا من النضال المتواصل. وبعد مضي سبع وعشرين من ولايته توفي عن سن تناهز التسعين وذلك سنة ١٢٠٦ هـ.

دعوته إلى للتوحيـد :

وأكثر مؤلفات هذا المصلح الجليل كانت دعوته إلى توحيد الله، وهو حق الله على عباده. وكلمة التوحيد تضمنت نفي الإلهية عما سوى الله بالنسبة لمن يلوذ أو يستعين أو يستغيث أو يدعو. وذلك هو توحيد الربوبية الذي أمر الله به في كتابه العزيز كقوله تعالى :

«وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادُوا يكونون عليه لِبَدًا. قل إنما أدعوا ربي ولا أشرك به أحدًا. قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدًا. قل إني لن يجيرني من الله أحدٌ، ولن أجد من دونه ملتحدا إلا بلاغًا من الله ورسالاته» ... (سورة الجن ـ ١٩ : ٢٢).

قال ﷺ : «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، وإنما أنا عبد . فقولوا : عبد الله ورسوله».

وقال له رجل : ما شاء الله وشئت . فرد عليه قائلاً : (أجعلتني لله ندا ؟ بل ما شاء الله وحده) .

واستنادا إلى ذلك ونحوه ذكر الشيخ محمد بن عبدالوهاب في قسم العقيدة أن من الشرك الاستغاثة بغير الله أو دعاء غيره ، لأن فيه صرف خصائص الربوبية لغير الله . فليس لأحد أن يبغى على هذه الحدود فيتجاوزها، ويتوجه إلى مخلوق بما لا يجوز أن يتوجه به لغير الخالق، إذ في ذلك هضم للربوبية، ومساواة بالله رب العالمين **«أفمن يَخلُقُ كمن لا يَخلُقُ، أفلا تَذَكَّرون»** (النحل : ١٧).

وفي حديث الإفك لما نزلت براءة عائشة. وأخبرها النبي ﷺ بذلك، قالت لها أمها : قومي إلى رسول الله. فقالت : والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا إياكما (تعني أبويها) ولا أحمد إلا الله الذي أنزل براءتي .

وفي رواية بحمد الله لا بحمدك.

وأخرج البيهقي بسنده أن محمد بن مسلم قال : **سمعت حبان صاحب ابن المبارك يقول : قلت لعبد الله بن المبارك : إني لأستعظم قول عائشة للنبي ﷺ : بحمد الله لا بحمدك. فقال عبدالله : إنها أولت الحمدَ أهله.**

ثم إن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ كانوا مقرين لله سبحانه بتوحيد الربوبية ، وهو أنه لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت ولا يدبر الأمور إلا الله وحده، كما جاء في القرآن الكريم : **«قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار، ومن يُخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر فسيقولون : الله».**

ويرد الشيخ رحمه الله على ما ينتحله هؤلاء من المبررات والأعذار الواهية فيجيب : (فإن قال قائل من المشركين ، نحن نعرف أن الله هو الخالق الرازق المدبر لكــن هـؤلاء الصالحين مقربون ، ونحن ندعوهم وننذر لهم ، ونستغيث بهم ، ونريد بذلك الوجاهة والشفاعة . فقل : كلامك هذا هو مذهب أبي جهل وأمثاله ، فإنهم يدعون عيسى وعزيرا والملائكة والأولياء ، يريدون ذلك كما حكى عنهم القرآن : «والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» (الزمر : ٣).

ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون : **هؤلاء شفعاؤنا عند الله**» (يونس : ١٨) . إن الذي كفرهم أنهم لم يشهدوا بتوحيد الألوهية ، وهو ألا يدعي ولايُرجى إلا الله، ولا يُستغاث بغيره، ولا يُنذر أو يُذبح لغيره[٣] وحسب الدنيا ضلالاً أن تعمى عن إشراق التوحيد في هذا الوجود. وفي ذلك فساد العقيدة وفساد الحياة وسوء المصير.

في الحديث القدسي : (**إني والإنس والجن في نبإ عجيب . أَخلقُ ويُعبَد غيري ، وأَرزقُ ويُشكَر غيري**) .

فدعوة الشيخ إلى التوحيد الخاص تتجاوز حدود نجد إلى العالم الإسلامي كله ، وفيه من يدعون من دون الله عبادًا أمثالهم ، وينذرون لهم النذور ، ويتقربون بهم إلى الله زلفى ، وقد يجعلونهم لله أندادا.

قال ﷺ في حديث رواه البخاري عن ابن مسعود : «**من مات وهو يدعو من دون الله ندًّا دخل النار**».

تعريف للشرك :

ومن يدرس رسائل **الشيخ محمد عبد الوهاب** وخطبه في التوحيد والشرك، يجد دعوته فيها مدعومة بالحجج، وبما يقوي الإيمان ويصلح العقيدة، ويدحض الشبهات، لاستناده في الاستدلال على الكتاب والسنة، وكفى بهما حجة على الضالين والمفترين.

وهو كثيرًا ما يفترض سؤالا للاعتراض فيجيب عليه، لمزيد من الاقناع، وليلقن الدعاة ما يجب أن يتسلحوا به من أدلة النقل والعقل في دعوتهم إلى التوحيد، كقوله في الرسالة السابعة: «الأصل الجامع لعبادة الله وحده»؛ (فإن قيل: ما الجامع لعبادة الله وحدَه؟ قلتُ: طاعتهُ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. فإن قيل ما أنواع العبادة التي لا تصلح إلا لله تعالى؟ قلتُ: من أنواعها: الدعاء والاستغاثة وذبح القربان والنذر والخوف، والرجاء والتوكل والإنابة والخشية والرغبة والرهبة، والركوع والسجود والخشوع والتذلل والتعظيم الذي هو من خصائص الإلهيّة. ودليلُ الدعاء قوله تعالى «**وأنَّ المساجدَ للهِ فلا تدعوا مع الله أحداً**» (الجن: ١٨). ودليل الاستغاثة قوله تعالى: «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم..»[٤] (الانفال: ٩) وفي تعريفه للشرك ذكر له ثلاثة أنواع، وهي[٤]:

١ ـ شرك أكبر: وهو شرك العبادة والقصد والمحبة.

فشرك العبادة معروف. وشرك النية والقصد، أن يقصد بطاعته غير وجه الله.

وشرك الطاعة لا إشكال فيه وتدخل فيه طاعة الخلق في المعصية. وقد فسرها النبي ﷺ لعدي بن حاتم لما سأله. فقال: «لسنا نعبدهم. فذكَر له أن عبادتهم طاعتهم في المعصية» (رواه الترمذي).

ومن شرك المحبة قوله تعالى: «**يحبونهم كَحُبِّ الله، والذين آمنوا أشدُّ حبًا لله**» (البقرة: ١٦٥).

٢ ـ شرك أصغر وهو الرياء لقوله ﷺ في حديث رواه الحاكم: «اليسير من الرياء شرك».

٣ ـ شرك خفي قد يقع فيه المؤمن وهو لا يعلم. لذلك كان ﷺ يقول في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك أن أُشرك بك شيئًا وأنا أعلم، وأستغفرك من الذنب الذي لا أعلم».

وقد أفاض الشيخ القول في إخلاص العمل لله، وتفرغ القلب من كل ما يشغل عنه أو يُوجه إلى غيره، وهي دقائق لا يحسها إلا من مارس الإيمان، وعاش تجاربه الروحية.

من تأليف الشيخ :

وللشيخ عدة مؤلفات يجتمع فيها العقل والنقل، والفكر والعمل، والمنهج والتطبيق ، والتشريع والحكم.

فمن تآليفه القيمة : كتاب التوحيد، وكتاب أصول الإيمان وفضائل الإسلام، وكتاب أحاديث الفتن، ومفيد المستفيد في حكم تارك التوحيد، وكتاب نصيحة المسلمين بأحاديث خاتم المرسلين، ومجموع الحديث مرتبًا على أبواب الفقه. كل ذلك بالإضافة إلى مختصرات بعض المصادر الهامة، مثل مختصر زاد المعاد لابن القيم، ومختصر الإنصاف في معرفة الراجح في الخلاف، للمرداوي، ومختصر الشرح الكبير لابن قدامة المقدسي.

وقد أنجزت **جامعة الإمام محمد بن سعود** أعمالاً جليلة أَثْرتْ المكتبة الإسلامية بما حققت وطبعت ونشرت من آثار مخطوطة لهذا الداعية الكبير، والمصلح القدير فأنارت بفضل علمائها الأبرار سبيل الدارسين الذين لم تتوافر لديهم مؤلفات الشيخ العلمية ليتفادوا النقص في المعلومات، أو التهم والمغالطات التي أشيعت نحوه. كقول بعضهم : «المذهب الوهابي» في حين أن الشيخ ليس صاحب مذهب في الفقه ولا في العقيدة، ولكنه عالم مُصلح، وداعية مخلص، وحنبلي سلفي، وما قام به من دعوة إلى التوحيد، لا يعدو أن يكون إحياء لمذهب السلف الصالح الذين كانوا يرفضون القول بأن الله تعالى جعل لخواص الخلق عنده منزلة يرضى أن يلتجيء الإنسان إليهم ويرجوهم، ويستغيث بهم ويجعلهم واسطة بينه وبين الله.

« **وإذا ذُكر الله وحده اشمأزت قلوبُ الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذُكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون**» (الزمر : ٤٥).

ويعجبني في هذا الصدد ما قاله القشيري في تفسيره لقصة ابتلاء إبراهيم عليه السلام بذبح ولده : «فلما بلغ معه السعي ...» إشارة إلى وقت توطين القلب على الولد، وشدة تعلقه به. ويقال في القصة: إنه رآه ذات يوم راكبًا فرسًا أشهب، فاستحسنه ونظر إليه معجَبا بقلبه، فأمره الله بذبحه. فلما امتثل وأخرجه من قلبه وأسلمه لله، ظهر الفداء، وكأنه قيل له: كان المقصود من هذا فراغ قلبك عنه.

وقد أفاض الشيخ في كتبه القول بإخلاص العمل لله وتفرغ القلب من كل ما

يشغل عنه، أو يُوجه إلى غيره.

هذه الكتب النفيسة التي حققها علماء أجلاء بما أظهروه من صبر وأمانة وعلم وتدقيق. فجزاهم الله عن هذا الجهد المضني خير الجزاء.

وإذا أشرت إلى بعض مؤلفات الشيخ رحمه الله، فلا يفوتني أن أعرّف أيضًا ببعض أبنائه وأحفاده الذين أوقفوا حياتهم على نشر الدعوة والعلم بمؤلفات مثل:

تأسيس التقديس في الرد على داود بن جرجيس، وصباح الظلام في الرد على الشيخ الإمام: للشيخ عبداللطيف ابن الشيخ عبد الرحمن. **وتيسير العزيز الحميد، في شرح كتاب التوحيد: لسليمان ابن الشيخ عبدالله. ودورنا في الكفاح. لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ وزير التعليم العالي** أطال الله عمره في طاعته.

خاتمــة :

والحق أن جهل السواد الأعظم من المسلمين حيثما كانوا بحقيقة دينهم، وتأثير المذاهب الهدامة على شبابهم، وطغيان الطواغيت في الأرض والدعايات الإعلامية التي يروجها أعداء الإسلام ضد قيمه الخالدة، ثم تجرؤ بعض الناس على اقتحام باب الاجتهاد في الدين بدون مؤهلات لذلك، وتأثير بعض الوثنيات القديمة كرمز «الطوطم» على بعض القبائل بأفريقيا السمراء في مالي ونيجريا وغيرهما، ثم ما يرى من تفشي البدع والمنكرات في بعض الأوساط، يُحَمِّل علماء الإسلام في هذا العصر مسئوليات دينية جسيمة في مجال الدعوة والتبليغ والتبصير، حتى يعرِّفوا الناس بما يجهلون، ويذكروهم بما ينسون، ويُنَبِّهُوهم إلى ما عنه يغفلون والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الهوامش :

(١) كسورة الزمر: ٣ و ٤، والزخرف: ١٢ — ١٥، وسبأ: ٤٠ — ٤١، والصافات: ١٤٩ — ١٥٩ والنجم: ١٩ — ٢٨.

(٢) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين: ٢٨٩/٣ (ط. مصر: ١٣٣١ هـ).

(٣) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب: القسم الأول: ٣٦٣ — ٣٦٦.

(٤) مؤلفات الشيخ الإمام: قسم أول: ٣٧٩/١ — ٣٨٠.

مِيثاق الدِّرعِيَة

في اللقاء التاريخي بين الأمير محمد بن سعود بن محمَّد بن مُقرِن أمير الدرعية والإمام الشيخ محمّد بن عبدالوهاب قال الأمير:

"إنَّ هذا دِينُ الله، ودينُ رسوله صلى الله عليه وسلّم، لاشك فيه، فأبشر بالنصّرة لمادَعوْتَ إليه، وبالجهادِ في مَن يُخالِفُك، ..على أن لي شرطين وهما:

الأول: إذا نحنُ قُمْنا بنُصْرتك والجهاد في سبيل الله تعالى، وفتح الله لنا البلاد، فلا ترحلْ عنا ولا تستبدلْ بنا غيرنا.

والثاني: إنَّ لِي على أهلِ الدِّرعِية خراجًا أتناوله مِنهم وقتَ الثِّمار، فلا تمنعْني مِنْ أخْذِه".

قال الشيخ الإمام:

"أمّا عن الأول، فامْدُدْ يدكَ، فمدَّها، فَقَبضَها وقال له:

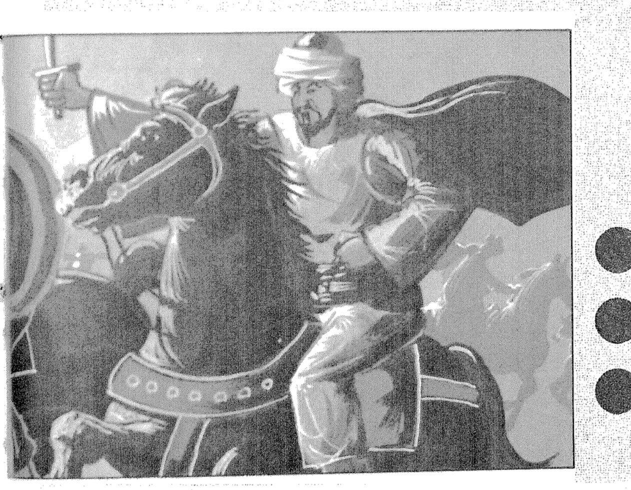
"الدّم بالدّم ... والهدم بالهدم.

وقال عن الثاني، وأما هذه فلعل الله يفتح عليك الفتوحات، فيعوّضكَ مِنَ الغنائم ما هوَ خيرٌ مِنه".

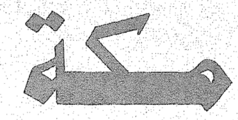
كتب الإمام إلى أهل البلدان المجاورة وقضاتهم ورؤسائهم
ومدّعي العلم فيهم للدخول في الدّعوة، فقبل بعضهم واتّبع
الحق، وأبى البعض وسخر وهزأ وصدّ الناس عن سبيلها،
فأمر الشيخ بالجهاد، فرفع أبناء الدّعوة رايته، وتكوّنت أولى
كتائب الدعوة من كل شبيبة غزت ما استطاعت وصادفت عنتًا
كبيرًا ومقاومة، وكان أول التحام لها سنة ١١٥٩ هـ مع
رجال الشعوا حول دهام ابن دوّاس صاحب الرّياض،
وكان من كبار المعاندين للدعوة المعادين لأمير الدّرعية
وتعرضت الدرعية لهجمات المعاندين ومن أخطرها هجمة «دهّام
بن دوّاس» صاحب الرياض ومعه أهل بلده والصّمدة من
بوادي الظفير، بلغ بهم «منفوحة» واستولى عليها.
ثبت لهم عليّ بن مزروع وطائفة معه وقاتلوهم قتالًا شديدًا
وأرسل إلى الدرعية يطلب المدد من أميرها محمد بن سعود،
فبعثت الدّرعية بجيش يقوده ابنه عبد الله بن محمد، وانهزم
ابن دوّاس أمام جنود ابن سعود وطلب الهدنة، وتعهّد
بإقامة شرائع الإسلام، وطلب إيفاد معلّم يعلم التوحيد لأهل
الرياض، فأوفدوا إليها الشيخ عيسى بن قاسم - ولكن هذه الهدنة
لم تدم طويلًا، وسرت الدعوة مسرى النور، شقّت طريقها
بالإقناع تارة وبإشهار السيف في وجه المعاندين تارة أخرى.
خضعت «حريملاء» سنة ١١٦٨ هـ، وقدم إلى الدرعية وفد
من أهل «القويعية» بايع على دين الله وعلى السمع والطاعة،
واتسع نطاق الدعوة سنة ١١٧٠ هـ فشمل الوشم وسدير
واستسلمت «ثادق» وندبت الدّرعية الشيخ أحمد بن سويلم
ليعلم أهلها التوحيد.

في شهر رمضان المبارك من السنة الثامنة للهجرة ، وقع فتح مكة **وهو فتح تميز بطابع خاص في سجل التاريخ الحربي الإسلامي، فهو مثال** كامل لأرقى مراتب الفكر العسكري والسياسي معًا . ليس في تاريخ الاسلام فحسب ، بل في تاريخ الإنسانية جمعاء ..

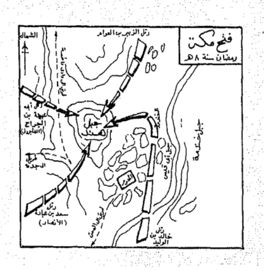
فلقد كسب الرسول القائد صلى الله عليه وسلم أكبر موقعة في تاريخ الإسلام من غير حرب ومن غير إراقة دماء ، وعاد المستضعفون الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله إلى بلدهم تحت أعلام الإسلام والنصر ، وظهرت فيها سماحة الإسلام بأجلى معانيها ، واكتملت فيها أركان النظرية الاسلامية في « إدارة الحرب »[1] ..

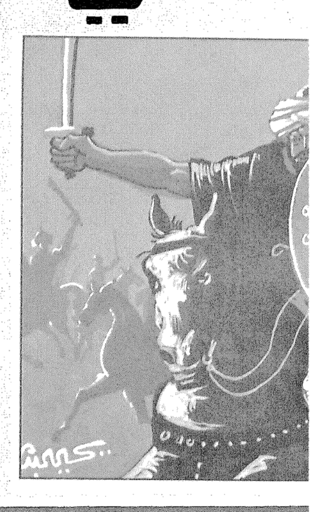


الفن الحربي الإسلامي في فتح مكة



الاستاذ / محمد جمال الدين محفوظ





الظروف الاستراتيجية قبل الفتح

وقعت خلال العامين السابقين على هذا الفتح عدة أحداث ذات أبعاد استراتيجية هي مايلي :

١ ــ صلح الحديبية

وقد وقع في ذي القعدة للسنة السادسة للهجرة وكانت أهم نتائجة :

١ ــ اعتراف قريش بالمسلمين طرفا مساويا لها ، وهذا أول اعتراف بالدولة الإسلامية من أشد أعدائها وأقواهم في الحجاز .
٢ ــ فتح المجال أمام الرسول صلى الله عليه وسلم لمحالفة القبائل التي لم تكن مطمئنة إلى محالفته لقوة قريش ولوجود الكعبة في مكة ، وبذلك قوي جانب المسلمين .
٣ ــ التفريق بين قريش وحلفائها الطبيعيين ــ يهود خيبر ــ الذين كانوا لا ينفكون يحرضون القبائل على الرسول صلى الله عليه وسلم .
٤ ــ تحقيق الاستقرار الذي أمَّن التفرغ للدعوة وانتشار الإسلام .
٥ ــ نجاح المسلمين في الحصول على الحياد المسلح : المسلمون محايدون ومحافظون على عهودهم ، بينما استمر في التعرض على قريش مُشَرَّدُو المسلمين الفارون بدينهم من قريش ، ولا يستطيع المسلمون إيواءهم بمقتضى العهد .
٦ ــ إثارة المسلمين للرأي العام ضد قريش لصدها المسلمين عن زيارة البيت الحرام وتعظيمه ، مما أكسب المسلين عطف كثير من القبائل وكثير من قريش نفسها ، وكثير من أهل المنطقة المجاورة لقريش ، مما كان له آثاره في تسهيل عملية فتح مكة عليهم فيما بعد ..

٢ ــ غزوة خيبر والقضاء على اليهود عسكريًا في الجزيرة

وقد وقعت هذه الغزوة في المحرم من السنة السابعة للهجرة وكانت نتيجتها التخلص من أقوى أعداء قاعدة الإسلام في المدينة ، وبالتالي تأمين « المنطقة الشمالية » من الجزيرة لصالح « الحركة جنوبًا » فيما بعد .

٣ ــ غزوة مؤتة

وقد وقعت في جمادي الأولى من السنة الثامنة للهجرة . وكان من نتائجها أن ازداد انتشار الإسلام بين القبائل العربية المتاخمة للشام التي نظرت إلى فِعَال المسلمين بإعجاب شديد ، وبين قبائل نجد المتاخمة للعراق .

٤ ــ اضطراب أحوال الدولة البيزنطية

وليس أدل على ذلك من أن أحد عمال هرقل ــ وقد كُلف أن يدفع للجيش رواتبه ــ أخذ يصيح في وجه عرب الشام الذين اشتركوا مع الروم في قتال المسلمين في مؤتة : « **انسحبوا ، فالإمبراطور لايجد مايدفع منه رواتب جنده إلا بمشقة ، وليس لديه لذلك ما يوزعه على كلابه** » .

ولقد ساعد اضطراب الأحوال في بيزنطة على أن ينصْرِفَ العرب عن الإمبراطور وعن جنده ، وأن يزداد ضياء الدين الجديد أمامهم نورا يهديهم إلى صدق الحقيقة السامية التي يبشر الناس بها .. لذلك دخل في الإسلام في هذه الفترة ألوف من سُليم وعلى رأسهم العباس بن مرداس ، ومن أشجع وغطفانَ الذين كانوا حلفاء اليهود **حتى نكب اليهود في خيبر، ومن عبس ومن فزارة...كل هذه العوامل كانت سببًا في** استتباب الأمر للمسلمين في شمال المدينة إلى حدود الشام ، وفي ازدياد الاسلام عزة وقوة ومَنَعة ، وفي تأمين قاعدة الانطلاق نحو الهدف الاستراتيجي [٢] الكبير : «مكة المكرمة» ..

٥ ــ أحوال قريش خلال تلك الفترة

أدى انتشار الإسلام بين قسم كبير من القبائل ومن ضمنها قريش ، وبقاء القسم الآخرعلى الشرك ، إلى تفرق كلمتها واستحالة جمع هذه الكلمة على حرب المسلمين ، ولم يبق في قريش زعيم مسيطر يستطيع توجيهها إلى مايريد حين يريد .

المسلمون لايخضعون إلا لأوامر الإسلام ، والمشركون فيها بين متطرف يدعو للحرب مهما تكن نتائجها ، ومعتدل يعتبر الحرب كارثة تحيق

بقريش .. وفقدت قريش كثيرًا من حلفائها سواء من القبائل العربية التي حالفت المسلمين بعد عهد الحديبية ، أو من اليهود ، كما أنها تصورت أن « مؤتة » تُعد هزيمة قضت على المسلمين وعلى سلطانهم حتى لم يبق إنسان يأبه لهم أو يقيم لعهدهم وزنا ، وراودها الأمل في إنهاء حالة الهدنة التي أعقبت عهد الحديبية ، وفي الإعداد لحرب المسلين ومن في عَهْدهم من غير أن تخشى من الرسول صلى الله عليه وسلم قصاصًا .

موقف الجانبين قبل المعركة

قريـــش

أراد بنو بكر حلفاء قريش أن يأخذوا بثاراتهم القديمة من بني خزاعة حلفاء المسلمين ، وحرّضهم على ذلك متطرفو قريش بقيادة عِكرمة بن أبي جهل وبعض سادات قريش ، وأمدوهم بالرجال والسلاح سرًّا ؛ فقامت بنو بكر بهجوم مباغت على بني خزاعة ، فأوقعوا فيهم بعض الخسائر في الأرواح والأموال ، ولما التجأت خزاعة إلى البيت الحرام ، طاردتهم بنو بكر مصممة على القضاء عليهم غيرَ مكترثة بعهد الحديبية ؛ وبهذا انتهت الهدنة بين قريش وحلفائها من جهة ، وبين المسلمين وحلفائهم من جهة أخرى ، وكان السبب في انتهائها قريش وبنو بكر .

لكن حكماء قريش وذوى الرأي فيها ، مالبثوا أن قدروا ما عرّضهم له عكرمة وَمَن معه من خطر ، فأوفدوا أبا سفيان إلى المدينة ليثبت العقد وليزيد في المدة ، ولعل المدة كانت سنتين فكانوا يريدونها عشرا . لكن أبا سفيان أخفق في سفارته ولم يجد إلا الصدود والإعراض من كل من لقيه ، فحين توجه إلى ابنته أم حبيبة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم وأراد ان يجلس على فراش الرسول ، طوت أم حبيبة الفراش قائلة لأبيها : «**هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت رجل مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس عليه .**» **ثم ذهب ليكلم الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليه شيئا ، فكلم أبا بكر ليكلم له النبي فأبى . فكلم عمر بن الخطاب فأغلظ له في الرد وقال** : «**أنا أشفع لكم إلى رسول الله ! ، فوالله لو لم أجد إلا الذر**(٣) **لجاهدتكم به**» .. وذهب إلى علي بن أبي طالب واستشفعه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ،فأنبأه علي في رفق أنه لايستطيع أحد أن يرد النبي عن أمر إذا هو

اعتزمه ، فاستشفع أبوسفيان فاطمة أن يجير ابنها الحسن بين الناس ، فقالت : ما يجير أحداً على رسول الله ...

واشتدت الأمور على أبي سفيان فاستنصح عليًّا ، فقال له : «والله ما أعلم شيئا يغني عنك شيئا ، لكنك سيد بني كنانة ، فقم فأجِرْ بين الناس ثم الحق بأرضك ، وما أظن ذلك مغنيًا ولكني لا أجد لك غيره ، فذهب أبو سفيان إلى المسجد ، وهناك أعلن أنه أجار بين الناس ، ثم ركب راحلته وانطلق عائدا إلى مكة وقلبه يفيض أسى مما لقى من هوان وصدود وفشل ، فلما قصّ على قومه ما لقي في المدينة وما أجار بين الناس في المسجد بمشورة عليّ ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يُجِز جواره ، قال قومه : «ويلك !! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك» .

المسلمون

سارع عمرو بن سالم الخزاعي بالتوجه إلى المدينة حاملاً أخبار نقض قريش وبني بكر لعهد الحديبية ، فلما وصلها قصد المسجد وقصّ على الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما أصاب خزاعة من بني بكر وقريش في مكة وخارجها ، فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم : «نصرت ياعمرو بن سالم» .

كذلك خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة ، حتى قدموا المدينة فأخبروا النبي صلى الله عليه وسلم بما أصابهم ، فعزم عليه السلام على فتح مكة .

تحرك المسلمين لفتح مكة

ترك المسلمون المدينة قاصدين فتح مكة ، وكان الجيش مؤلفا من الأنصار والمهاجرين وسُليم ، ومُزَينة ، وغطفان ، وأسلم ، وطوائف من قيس وأسد وتميم وغيرها من القبائل الأخرى ، في عدد لم تعرفه الجزيرة العربية من قبل (حوالي عشرة ألاف رجل) وكلما تقدم الجيش نحو هدفه ازداد عدده بانضمام مسلمي القبائل التي تسكن على جانبي الطريق إليه ..

ومع كثافة هذا الجيش وقوته وأهميته ، فقد بقي سر حركته مكتومًا لاتعرف قريش عنه شيئاً ، فإنها وإن كانت تعتقد أن الرسول صلى الله عليه وسلم في حلٍّ من

مهاجمتها ، لكنها لم تكن تعرف متى وأين وكيف سيجرى الهجوم المتوقع .

وصل الجيش مساء موضع «مرّ الظهران» على مسافة أربعة فراسخ من مكة ، فعسكر هناك ، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يوقد كل مسلم نارا حتى ترى قريش ضخامة الجيش دون أن تعرف هويّته ، فيؤثر ذلك على معنوياتها وتستسلم للمسلمين دون قتال ، وبذلك يؤمن الرسول صلى الله عليه وسلم هدفه في دخول مكة دون إراقة الدماء .

سير عملية الفتح

قسم الرسول صلى الله عليه وسلم قواته لدخول مكة من جهاتها الأربع :

* **من الشمال : رتل الزبير بن العوام .**
* **من الجنوب : رتل خالد بن الوليد .**
* **من الغرب : رتل سعد بن أبي عبادة (قوات الأنصار) .**
* **من الشمال الغربي من اتجاه جبل هند : رتل أبي عبيدة بن الجراح (قوات المهاجرين) .**

وجعل عليه الصلاة والسلام مثابة اجتماع القوات بعد الفتح في منطقة جبل هند .

ودخلت قوات المسلمين مكة دون أن تلقى مقاومة ، إلا جيش خالد بن الوليد فقد واجه مقاومة من متطرفي قريش مع بعض حلفائهم من بني بكر في منطقة «الخندمة(٤)» ، لكن خالدا لم يلبث أن فرقهم .

واستسلمت المدينة المقدسة للمسلمين وفتحت أبوابها لهم .

خسائر الطرفين

* **المسلمون** : شهيدان فقط **(من رتل خالد بن الوليد)** .
* **المشركون** : ثلاثة عشر قتيلاً وبعض الجرحى .

الدروس المستفادة

أولاً : مزية المبادرة

لقد نقضت قريش العهد الذي أقرّت بنوده في عهد الحديبية ، وذلك عمل ينطوي ولاشك على نوايا عدوانية تتجاوز إطار عملية ثأرٍ بين بني بكر وبني خزاعة ولا تنحصر فيه ؛ ولابد أن يفطن القائد المحنك إلى أن قريشا تبيّت النية لتحقيق هدفها الاستراتيجي الكبير وهو القضاء على الدين الجديد بالهجوم على قاعدته بالمدينة .

من أجل ذلك رأينا كيف أخذ الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بزمام المبادرة وقرر على الفور أن يهاجم قريشا في عقر دارها .

ثانيًا : التخطيط على أساس فتح مكة بلا قتال

كان قرار الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتم فتح مكة بلا قتال ، فعهد إلى أمرائه أن لايقاتلوا إلا من قاتلهم [٥] ، وكان عليه الصلاة والسلام حريصا على ذلك كل الحرص ، وهو ماينطق به أسلوبه صلى الله عليه وسلم في إدارته للمعركة والسيطرة على كل مرحلة من مراحلها كما سيظهر فيما بعد ؛ ولقد بلغ من حرصه صلى الله عليه وسلم على تجنب القتال أنه بلغه أن سعد بن عبادة الذي كان يقود رتلا من الأرتال الأربعة التي يتألف منها جيش المسلمين قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة » ، فأخذ الراية منه ، ودفعها إلى ابنه قيس بن سعد ، وكان رجلا ضخما لكنه كان أهدأ من أبيه أعصابًا ، وأكثر منه سيطرة على نفسه ، حتى يحول دون اندفاع سعد لإثارة الحرب .

دفع العدو إلى الاستسلام دون مقاومة

وبدهي أن التخطيط على أساس الفتح بلا قتال لا يكفي وحده لتحقيق هذا الهدف ، إذ لابد من اتخاذ التدابير التي تمنع العدو من المقاومة والقتال . وهذا هو مافعله الرسول القائد صلى الله عليه وسلم ، فكان جمعه بين الأمرين (تجنب القتال من جانبه ومنع العدو من القتال) آية من آيات حسن القيادة وإدارة الصراع على أعلى

مستوى، ولو أنه لم يجمع بين هذين الأمرين ، واكتفى بالتخطيط وإصدار الأمر لجيشه بعدم القتال ، ولم يحرص في الوقت نفسه على منع الجانب الآخر من المقاومة لما تحقق له ما أراد .. فلننظر كيف دفع عليه الصلاة والسلام قريشًا إلى الاستسلام دون مقاومة :

١ ـ استغلال الأثر النفسي للمباغتة :

اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم كل التدابير التي أمنت له مباغتة ممتازة للغاية كانت من أهم العوامل التي زعزعت إرادة قريش على المقاومة والقتال ، وتعتبر المباغتة التي تحققت في غزوة الفتح « مباغتة استراتيجية »(٦) كما يعرفها العسكريون ، ولا ينجح في تحقيقها إلا القلائل من القادة الأفذاذ :

* فقد حَرَصَ الرسول على كتمان قراره بالخروج لفتح مكة حتى عن أقرب المقربين إليه ، فلم يبح به لأبي بكر أقرب أصحابه إلى نفسه ، ولا لعائشة بنت أبي بكر أحب نسائه إليه(٧) ، وبقيت نواياه سرا مكتومًا حتى تمت جميع الاستعدادات للحركة ، فحين عزم على الخروج قال لها : « جهزينا وأخي أمرك » وقال : « اللهم خذ من قريش الأخبار والعيون حتى نأتيهم بغتة » .. ودخل أبو بكر رضى الله عنه على ابنته عائشة وهي تجهز الرسول صلى الله عليه وسلم (تصنع له طعاما) فقال : يا عائشة ، أهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغزو؟ قالت : ما أدري ، لعله يريد بني سليم ، لعله يريد ثقيفا ، لعله يريد هوازن ! !

* وحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على الحيلولة دون تسرب المعلومات عن حركته إلى قريش ، فبعث العيون والأرصاد والمفارز (**الدوريات**) داخل المدينة وخارجها لهذا الغرض ، وقد مكنت هذه التدابير من كشف أمر الرسالة التي أراد حاطب بن بلتعة إرسالها إلى قريش تحمل خبر خروج المسلمين ، فبعث عليه الصلاة والسلام على بن أبي طالب والزبير بن العوام ، فأدركا المرأة التي كانت تحمل الرسالة وأخذاها منها .

* وبقي النبي صلى الله عليه وسلم يقظا كل اليقظة حتى وصل ضواحي مكة ، ونجح بترتيباته من حرمان قريش من معرفة تدابير المسلمين حتى لقد تعذر عليها معرفة هوية الجيش الكبير الذي عسكر على أربعة فراسخ من مكة ، فقد أوقد عشرة آلاف

مسلم نيرانهم ، ورأت قريش تلك النيران تملأ الأفق البعيد ، فأسرع أبوسفيان بن حرب وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام بالخروج باتجاه النيران حتى يعرفوا مصدرها ونوايا أصحابها وأهدافهم ، فلما اقتربوا من موضع عسكر المسلمين ، قال أبو سيفان لصاحبه بديل : «مارأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرًا .. فرد عليه بديل : «هذه والله خزاعة حمشتها الحرب» ، فلم يقتنع أبو سفيان بهذا الجواب فقال : «خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها» .

* وحينما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين بالاستعداد للخروج لم يحدد الهدف ولا المهمة ، بل إنه أجرى عملية خداعية لإخفاء النوايا الحقيقية وذلك بارسال سرية أبى قتادة الأنصاري إلى بطن إضم ، وقد قال كعب بن مالك يصف أسلوب الرسول صلى الله علية وسلم في العمليات الخداعية : «ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة ، إلا ورّى بغيرها .

٢ — تجريد زعيم قريش من إرادة القتال

واستطاع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يغزو — قبل المعركة — عقل وقلب ونفس زعيم قريش حتى جرده من إرادة المقاومة والقتال . ففضلاً عما تعرض له أبو سيفان من إعراض وإهمال وهوان حين قدم المدينة ؛ فقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم عمه العباس باحتجازه في مدخل الجبل إلى مكة ، حتى يمر به جنود المسلمين ، فيحدث قومه عما رآه عن بينة ويقين ، فيقضي على أي أمل لديهم في المقاومة .. قال العباس :

«خرجت بأبى سيفان حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله ، ومرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : ياعباس ، من هؤلاء ؟ فأقول : سُلَيم . فيقول : مالي ولسليم ؟ ثم تمر به القبيلة ، فيقول : ياعباس ، من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة . فيقول : مالي ولمزينة ؟ حتى نفدت القبائل ، ماتمر به قبيلة إلا سألني عنها ، فاذا أجبته قال : مالي ولبني فلان ... حتي مر الرسول صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء[٨] وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الخدق من الحديد ، فقال : سبحان الله ! ياعباس ، من هؤلاء ؟ قلت : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار .. قال : ما لأحد بهؤلاء من قِبل ولا طاقة ! والله ياأباالفضل ، لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيما !! قال العباس :

يا أباسفيان ، إنها النبوة . قال : نعم ، إذن ؟.

عند ذاك قال العباس لأبي سفيان : النجاء إلى قومك .. فأسرع أبوسفيان إلى مكة وقال لقومة : **يامعشر قريش ، هذا محمد جاءكم فما لاقبل لكم به»** .

ومما يدل على حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على إيقاع أكبر قدر من التخويف والضغط النفسي على أبي سفيان لتجريده من إرادة المقاومة والقتال وتجريد قريش بالتالي ، اختياره صلى الله عليه وسلم «لمضيق الوادي» بالذات لوقوف أبي سفيان . فمرور الجيش في مضيق يختلف عن مروره في الأرض المكشوفة ، فالمضيق يجعل أباسفيان يرى قوة الجيش عن كثب وهي تمر عليه ، أما الأرض المكشوفة فسوف يتفرق فيها الجيش ، فلا يقع التأثير المعنوي المطلوب .

زعزعة ثقة قريش في قدرتها على المقاومة

فقد نظمّ الرسول صلى الله عليه وسلم جيش المسلمين بطريقة أضعفت الدافع لدى المشركين إلى القتال وجعلتهم يترددون في المقاومة .

فقد كان الجيش يتألف من المهاجرين والأنصار ، ومسلمي أكثر القبائل العربية المعروفة يومذاك : ألف رجل من بني سُليم ، وألف رجل وثلاثة رجال من مزينة ، وأربعمائة من بني غفار ، وأربعمائة من بني جهينة ، وأربعمائة من أسلم ، وعدد من تميم وأسد وقيس وغيرها من القبائل العربية الأخرى ..

هذا التنظيم أصاب المشركين بالتردد في الإقدام على القتال ، لأن كل قبيلة لها في جيش المسلمين عدد كبير ، بل إن كثيرًا من القبائل تعتبر نجاح هذا الجيش نجاحًا لها على الرغم من اختلاف العقيدتين ، والأكثر من ذلك ، فإن انتصار هذا الجيش لا يعتبر فخراً لقبيلة دون أخرى ، كما أن فشل أية قبيلة في التغلب عليه ، لا يعتبر عارا عليها ، لأن هذا الجيش لم يكن لقبيلة دون أخرى ، بل لم يكن للعرب دون غيرهم ، بل كان للإسلام ولمعتنقي هذا الدين من العرب وغير العرب .

ومما زاد من إضعاف قدرة قريش على المقاومة أن الرسول صلى الله عليه وسلم

جعل خطته لدخول مكة بحيث تؤمن تطويقها من جهاتها الأربع كما ذكرنا ، ويؤدي ذلك إلى تحقيق هدفين في غاية الأهمية :

١ ـــ ضمان القضاء على أية مقاومة في أية جهة من مكة في الحال لوجود المسلمين في كل جهة من جهاتها .

٢ ـــ تشتيت قوات قريش إلى أقسام لمقاومة كل رتل من أرتال المسلمين على انفراد ، مما يحرمها من تركيز قواتها وحشدها في جبهة واحدة ، ويجعلها ضعيفة في كل مكان .

إعطاء الأمان لقريش إن هي استسلمت

وكان العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم قد خرج من معسكر المسلمين ليخبر قريشا بالجيش الضخم الذي جاء لقتالها والذي لاقبل لها به ، حتى يؤثر على معنوياتها ويضطرها للتسليم دون قتال ، فيحقن بذلك دماءها ويؤمن لها صلحا شريفا ويخلّصها من معركة فاشلة معروفة النتائج سلفا ، فلقى في طريقه أباسفيان فأخبره بوصول جيش المسلمين ، ونصحه بأن يلجأ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ينظر في أمره قبل أن يدخل الجيش مكة صباح غد فيحيق به وبقومه العقاب .

فقال العباس للرسول صلى الله عليه وسلم : يارسول الله ، إن أباسفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا .. (**وكان أبو سفيان قد أسلم ليحقن دمه قبل لقائه بالرسول صلى الله عليه وسلم**) .

قال عليه الصلاة والسلام : «**نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن**» .

فلما لقى أبوسفيان قومه قال : «يامعشر قريش ، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن» .. فقالت قريش : قاتلك الله ، وما تغنى عنا دارك ؟ .. قال : «ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن» .

وهكذا كان إعطاء الأمان لقريش — على لسان زعيمها أبي سفيان — إن هي استسلمت بلامقاومة بمثابة «الضربة النفسية القاضية» على إرادتها القتالية ... وأصبحت مكة تنتظر دخول المسلمين : اختفى الرجال وراء الأبواب الموصدة، واجتمع بعضهم في المسجد الحرام ، وبقى المتطرفون مصّرين على القتال .

رابعًا : السياسة والاستراتيجية

ثم إن قريشا — بالإضافة إلى كل ماسبق — كانت تشعر بأنها تقف وحدها **لا حليف ولانصير**. وذلك لأن الرسول القائد صلى الله عليه وسلم جرّدها من الحلفاء والمناصرين نتيجة للسياسة التي اتبعها بعد الهجرة والتي قامت على عقد الاتفاقات والمعاهدات مع مختلف القبائل لكفالة حرية الدعوة وحسن الجوار والمعاملة ، فكانت النتيجة المباشرة لتلك المعاهدات حرمان قريش من قوًى كان يمكنها أن تتحالف أو تشد أزرها . أضف إلى ذلك أن انتشار الإسلام بين قسم كبير من القبائل ومن ضمنها قريش ، ينطوى على «تحييد» للقسم الأخر الذي بقى على الشرك ، وبخاصة بالنسبة للمعتدلين منهم الذين يرون أن لا جدوى من القتال ويعتبرون الحرب كارثة تحيق بهم .

خامسًا : قمة الاستراتيجية : النصر بلا قتال

لقد اتفق علماء الاستراتيجية على أن الغرض النهائي من الحرب يجب أن يكون الحصول على «سِلْمٍ أفضل» ، وأنه من الضروري أن يضع القادة في اعتبارهم — وهم يديرون دفة الحرب — «السلم الذي **يرغبون** فيه» .

ويقررون أنه عند بلوغ الهدف العسكري (**أي النصر في القتال**) فإن القادة الذين يغالون في فرض شروطهم ومطابهم تجاه الجانب الآخر لن يحصلوا على السلام الحقيقي المطلوب ، لأنهم بذلك يهيئون الأسباب لقيام «العدو» بمحاولة لقلب الاستقرار الذي حصلوا عليه .

من أجل ذلك أصبحت **مبادئ** الاستراتيجية الحقة تنادي بما يلي :

«عليك وأنت تحارب ، أن تهيئ الظروف لقيام سلم حقيقي ومستقر بعد انتهاء الحرب ، ولاتستخدم من أساليب القهر والتسلط الغاشم ، سواء في أثناء الحرب

أو بعدها ، ما يؤدي إلى أن يكون السلم مُشوَّها لاحتوائه على جراثيم حرب تالية »[٩]

* وفي التاريخ أدلة قاطعة على أن الشطط والمبالغة في إدارة الحروب لا يهيئان مناخا صالحا لقيام سلام مستقر أو دائم :

١ ــ فإن سلسلة الحروب الواسعة ــ على رأسها الحرب الثلاثينية ــ دفعت رجال السياسة في القرن الثامن عشر إلى إدراك هذه الحقيقة ، وإلى إدراك ضرورة كبح جماح أطماعهم وأهوائهم الخاصة عندما يشتبكون في حرب ، وضرورة « تحديد » الحرب وآثارها ، بمعنى تجنب الشطط والمبالغة في كل الأعمال التي قد تطيح بالآمال المعقودة على حالة مابعد الحرب . ومن ناحية أخرى فقد أدى إدراكهم هذا إلى أنهم أصبحوا أكثر استعدادا للتفاوض على السلم عندما يبدو النصر بعيد المنال[١٠] .

٢ ــ وامتدت حروب نابليون قرابة العشرين عاما دون أن تحقق سلاما أو استقرارا ، فقد كان نابليون يتصور تحقيق سِلْمٍ دائم عن طريق الحرب تلو الأخرى ، ولكن النتيجة كانت على عكس تصوره ، بل إن الأمر وصل إلى حد انهيار الإمبراطورية النابليونية .

٣ ــ وما حدث في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ــ ١٩١٨ يعتبر درسا لا ينسى في هذا المجال ، فإن المعاملة القاسية التي لقيتها ألمانيا على يد الحلفاء المنتصرين تحت شعار « ويل للمغلوب » ، والعقوبات الاقتصادية التي أثقلت كاهل الاقتصاد الألماني ، جعلت السلام الذي جاء بعد تلك الحرب « مشوها يحمل معه جراثيم حرب تالية » **(كما يقول رجال الاستراتيجية)** .. وهذا هو ما حدث فعلا .. فإن تلك القسوة بالذات ، كانت هي الدافع الأساسي لهتلر في العمل بكل الوسائل لإنهاض ألمانيا ، وبالتالي سرعة نشوب الحرب العالمية الثانية عام **١٩٣٩**[١١] .

حروب الإسلام الفاضلة

تلك كانت بعض دروس التاريخ التي تنهض دليلا على أن أساليب القهر والتسلط الغاشم في الحرب ، وأن تطبيق شعار «ويل للمغلوب» ، كلها تؤدي إلى سلام زائف غير مستقر ، وإلى نشوب حرب جديدة تكتوي البشرية بنارها .

لكن في هذا التاريخ ، صفحات مشرقة لحروب كانت «خالية من جرائم حرب أخرى» .. تلك هي حروب الإسلام .

فإن حروب الإسلام حروب فاضلة وعادلة ، لأنها مقيدة بقانون السماء ، ولا يمكن أن يبيح قانون الله انتهاك الحرمات وإهدار الكرامة الإنسانية والقهر والتسلط الغاشم :

١ — فالجهاد فضيلة إنسانية عليا ، والباعث إليه فضيلة أيضا ، إذ هو إعلاء كلمة الله ورد الاعتداء ، ويستقيم مع هذا المعنى أن تكون الفضيلة الإسلامية واجبة الرعاية في الجهاد حربا وسلما .

٢ — وحروب الإسلام بدوافعها السلمية الفاضلة وآدابها وإنسانيتها وسماحتها ، لم تنطو على ما يقطع الأمل في سلم حقيقي ومستقر ، بل كانت تجعل جراح المغلوبين تلتئم بسرعة .

٣ — والأكثر من ذلك ، أنها كانت تحول اتجاهاتهم من أشد الناس عداوة للإسلام ، إلى أحرص الناس عليه وعلى رفع راية الجهاد في سبيله وتلك صورة رفيعة انفرد بها الإسلام وليس في التاريخ ما يتسامى إليها .

٤ — وفي عصر الفتوحات سرعان ما صارت البلاد المفتوحة موئلا للإسلام وصار أهلها من دعاته وحملة لوائه ومن المجاهدين في سبيله ، ولقد لفت ذلك نظر المشير مونتجمري (في كتابه الحرب عبر التاريخ) وأثار دهشته فقال : «من العجيب أن القوة الرئيسية للجيوش الإسلامية في فتح أسبانيا بين عامي ٧١٠ — ٧١٣ كانت مشكلة من الليبيين والتونسيين» .



الفتح أرقى دروس التاريخ

* إن فتح مكة مثال كامل لحروب الإسلام الفاضلة ، التي تتجاوز مبادئها وآدابها ماقرره خبراء الاستراتيجية وتتركه وراءها عاجزا متخلفا .

إن كل الظروف كانت مهيأة أمام المسلمين لتحقيق نصر عسكري ساحق على قريش يقضي عليها قضاء لاتقوم لها قائمة بعده أبدا ، ولو كان همُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُحقِّق النصر على أعدائه دون أدنى اعتبار لما بعد النصر ، ما نفذ ذلك المخطط الذي فتح به مكة بلا قتال وجاء ناطقا بالعبقرية السياسية والعسكرية معا .

* ويعرف رجال الاستراتيجية نظرية فيلسوف الحرب المشهور **كلاوزفتز** في معنى الاستراتيجية العسكرية ، وهي النظرية التي لا ترى وسيلة واحدة لتحقيق الأهداف في الحرب وهي « **القتال** »واستخدام « **الموقعة الحربية** » وكان مما قاله **كلاوز فتز** في هذا المجال مايلي : (١٢)

١ — ان لدينا وسيلة واحدة فقط في الحرب وهي « المعركة » .
٢ — من الضروري أن تكون فكرة « القتال » أساسا لتفكيرنا .
٣ — ان المعارك العظيمة والشاملة هي وحدها التي يكون لها أعظم النتائج .
٤ — يجب أن نصم آذاننا عن القادة الذين ينتصرون « دون إراقة الدماء » .

وهكذا ساهم **كلاوز فتز** في الانهيار الذي جاء بعد ذلك للقيادة ، اذ وقع تلامذته — وهم أقل تعمقًا منه — في خطأ الخلط بين الوسيلة والغاية من الحرب ، واستخلصوا من ذلك أنه يجب في الحرب أن تخضع كل الاعتبارات الأخرى لهدف « خوض معركة حربية حاسمة » وقد أدى ذلك مثلا في الحرب العالمية الأولى إلى عمليات دموية تشبه المذابح .

ولقد كان من أخطر أقوال كلاوز فتز قوله : « قد يتصور المحبون للخير بسهولة أنه توجد طريقة بارعة لنزع السلاح الذي في العدو والتغلب عليه دون إراقة كثير من الدماء ، وأن هذا هو الاتجاه السليم لفن الحرب ، تلك غلطة يجب أن نمحوها ! ! » .

* واذا كان من شأن المنتصر أن يستبد ويملي شروطه بدافع الغيظ والتشفي والانتقام والغرور بالقوة ، فإن الرسول القائد صلى الله عليه وسلم — على الرغم مما فعلت قريش ضد الاسلام والمسلمين — لم يفعل شيئًا من ذلك ، بل كان كل همه وكل قصده ، أن يؤلف قلوب المشركين ، ويجعلها تقبل على الاسلام الذي هو دين السلام .

لقد استسلمت قريش ، التي يعرف عليه الصلاة والسلام فيها من ائتمروا به ليقتلوه ، ومن عذبوه وأصحابه من قبل ، ومن قاتلوه في بدر وفي أحد ، ومن حاصروه في غزوة الخندق ، ومن ألّبوا عليه العرب جميعا ، ومن لو استطاعوا قتله وتمزيقه إربا إربا لما توانَوْا في ذلك لحظة ! .. لقد أصبحت قريش في قبضته عليه الصلاة والسلام وتحت قدميه ، أمره نافذ في رقابهم ، وحياتهم جميعا معلقة بين شفتيه ، وفي سلطانه هذه الألوف المدججة بالسلاح تستطيع أن تبيد مكة وأهلها في رجع البصر .

لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بالرجل ولا بالقائد الذي يعرف العداوة أو يريد أن تقوم بين الناس ، وليس هو بالجبار ولا بالمتكبر ، لقد مكنه الله من عدوه ، فماذا فعل ؟

لقد نهض عليه الصلاة والسلام والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله ، حتى دخل المسجد الحرام ، فطاف بالبيت العتيق ، وطهره من الأصنام والصور ، ثم وقف على باب الكعبة وقريش تنتظر ماذا يصنع ، وقال : «يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم ! » .

قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ..

قال : «فإني أقول كما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء» ..

الهوامش

(١) إدارة الحرب اصطلاح لا يقتصر على الجانب العسكري من الصراع ، بل يشمل الجوانب الأخرى المتعلقة به كالسياسة والاقتصاد ، من أجل ذلك تتولى عملية إدارة الحرب القيادة العليا التي تجمع كل تلك الجوانب وتنسق بينها لتحقيق الغاية من الحرب .

(٢) الهدف الاستراتيجي هو الهدف الذي يسبب للعدو أثناء الصراع المسلح من الأضرار ما يؤدي إلى احداث تغييرات حادة في الموقف العسكري والسياسي ويؤثر تأثيرًا بالغا على تطور الصراع ككل .

(٣) الذَّرُّ : جمع ذرة وهي أصغر النمل .

(٤) الخندمة : جبل بأسفل مكة — راجع التفاصيل في معجم البلدان ٣ — ٤٧٠

(٥) سيرة ابن هشام ٤ — ٤٠٩

(٦) المباغة أو المفاجأة هي احداث موقف لايكون العدو مستعدا له ، فإذا أمكن اخفاء «نية الهجوم ومكانه ودقته» كانت المباغتة كاملة ويطلق عليها : «الباغتة الاستراتيجية» ، وهي ليست بالأمر الميسور تحقيقه إلا بتخطيط يكون غاية في المهارة والحذق والخداع والسرية .. وتسمى المباغتة : «مباغتة تكتيكية» اذا وقعت في نطاق محدود أو محلي مثل مهاجمة العدو من اتجاه غير متوقع أو استخدام اسلوب جديد للقتال .

(٧) سئل النبي صلى الله عليه وسلم : يارسول الله ، أي الناس أحب إليك ؟ قال عائشة ، قالوا : إنما نعني من الرجال ، قال : أبوها ..

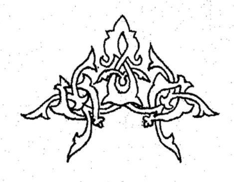
(٨) قال ابن هشام : وإنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها (سيرة ابن هشام ٣ — ٤٠٤) .

(٩) الاستراتيجية — الاقتراب غير المباشر — ليدل هارت .

(١٠) المرجع السابق .

(١١) The Causes of Wars - By Geoffrey Blainey.

(١٢) الاستراتيجية — الاقتراب غير المباشر — ليدل هارت .



الترويح

و



المجتمع

د. أبوبكر باقادر

سنحاول في هذا البحث المختصر جداً معالجة موضوع أثر الترويح في المجتمع وذلك عن طريق دراسة الأدوار والوظائف المختلفة التي يلعبها الترويح في حياة المجتمع سواء أكانت هذه الوظائف .. اجتماعية أم ثقافية أم بدنية أم اقتصادية أم سياسية ، كذلك سندرس تأثير الترويح على النسق الاجتماعي بصفته مدخلاً للتغيرات الاجتماعية أو أداة للضبط الاجتماعي .

وما نرجوه أن يكون القارىء أكثر معرفة وإدراكاً لأبعاد وأهمية الأدوار المختلفة للترويح وذلك عن طريق توضيح مفهوم الترويح في الحضارات والثقافات المختلفة وحكم الإسلام — كما أرى — تاركين مع ذلك العديد من الأسئلة والتساؤلات حول هذا الموضوع الهام .

تستند معظم التصورات الغربية عن الترويح على المفهومات اليونانية والرومانية. فالكلمة اليونانية **(Schole)** تعني التظرف والتفكير الحر (**الترويح**) والكلمة **(aschole)** تعني نفس الكلمة السابقة ويقصد بها العمل. بمعنى أن العمل يعرف بأنه ما ليس بترويح. ويعود السبب في ذلك لاعتبارات اليونان حول العمل والترويح حيث يقوم العمل الشاق على العبيد والمواطنين من الطبقات الدنيا، أما ما يهتم به الأسياد والأعيان والأشراف فهو الفن والفلسفة والرياضة والموسيقى ... ومن ثم فإن القيم العليا والحياة الراقية تدور حول الترويح وليس العمل. ونجد هذه الفكرة نفسها عند الرومان فكلمتي **(Otium)** و **(Negotium)** تعطي نفس الدلالات حيث الترويح هو مركز الاهتمام أما العمل فيعرف على أساس اختفاء أو غياب الترويح. وتتكرر الفكرة نفسها في الحضارة الصينية، إلا أننا نلاحظ معنى جديداً في وقت الإصلاح الديني في أوربا حيث أصبح استخدام تعبير العمل هو مركز النشاط وأصبح الترويح عبارة عن غياب العمل[1].

ونجد في العربية ستة جذور تغطي من زوايا مختلفة، فكرة الترويح أو غياب العمل. وهي فراغ ولعب وراح ولهو وسلا وطرف. ويركز الجذر (المعنى) الأول على مفهوم الوقت لذلك نقول «فرغت من الشغل أو العمل» وعليه تصبح النشاطات الترويحية أو الترفيهية نشاطات وقت الفراغ وفي هذا التصريح بتقسيم وقت الإنسان إلى وقت فارغ ووقت غير فارغ على اعتبار أن الوقت غير الفارغ مشغول بالأعمال. أما المفهوم الثاني فيركز على الجدية أو عدمها وهنا يتم التركيز، على أن الأساس في الاستمتاع الذاتي يقوم على نوع من التحرر من الجدية والحزم والميل نحو نوع من العبث البريء. أما المفهوم الثالث فالمراوح من ناحية اللغة يعني الرجوع إلى الدار بعد عناء يوم كامل من العمل الجاد وعليه فإنه يقصد منه الاسترخاء والراحة بعد نصب وجهد العمل الجاد، وهو بذلك يشمل دلالة المفهوم الأول في تقسيم الوقت، ومن ناحية أخرى دلالة المفهوم الثاني في التفريق بين الهزل والجد. أما المفهوم الرابع فإن اللهو هو تبديد وقت العمل فيما هو غير جدي أو مفيد وجعل الهزل مكان الجهد، ومنه ملهى بمعنى مكان

إضاعة الوقت ، ويجعل هذا المفهوم غالبا في طيه تقييماً خلقياً يقصد به الشجب والكراهة . أما المفهوم الخامس (التسلية) فهي عكس الضيق ، ويضيف هذا المفهوم الجانب النفسي إلى فكرة الترويح أو الترفيه . ويقصد بالتسلية إدخال البهجة والحيوية لحياة الفرد بعد الكآبة والضيق . أما المفهوم السادس وهو **(الظرف) فإنه يقصد به أسلوب معين من التصرف والسلوك يعكس في العادة نوعاً من المزاح غير الجاد ، ولقد قام في المجتمع الإسلامي في فترة تاريخية معينة قوم بهذا الدور يعرفون بالظرفاء لهم عبث وهزل في كل شيء ، في فكرهم وملبسهم وسلوكهم العام والخاص**[٢] . إن هذه المفاهيم المختلفة تعكس مفهوم الترويح على أساس أنه مفهوم فلسفي وخلقي ونفسي واجتماعي وصحي . هذا ما توضحه اللغة[٣] . وسنعالج بعد ذلك ما ترشدنا إليه تعاليم ديننا الحنيف فيما يتصل بهذا المجال الإنساني الهام .

ولقد عرف ماكس كابلان الترويح بأنه يعني أحد المعاني التالية :

أ ــ التحرر من العمل .

ب ــ استخدام الوقت على حسب ما يرغبه الشخص .

جـ ــ الحرية للقيام بعمل شيء معين[٤] . هذا ولقد حدد كابلان سبعة اتجاهات مختلفة لدراسة الترويح وهي : إنسانية وعلاجية وكمية وتنظيمية وعلمية واجتماعية كما توضح ذلك الدراسات التي عالجت موضوع الترويح . فيمثل الباحثين الذين عالجوا موضوع الترويح من وجهة إنسانية فلسفية دوجرازية[٥] وجوزف بابير[٦] اللذان حاولا بعث المفهوم اليوناني الذي يساوي بين الترويح والتفكير الحر المطلق بمعنى إعادة فكرة اليونان في أن أبناء الطبقة العليا لهم الاشتغال بالفلسفة والتفكير الحر ، أما العمل اليدوي فهو ما يقوم به العبيد وأبناء الطبقات الدنيا . وأما من عالجوا الترويح على أساس أنه علاج صحي ركزوا فيه على الجوانب النفسية والبدنية حيث أنهم استخدموا الترويح كعلاج للعديد من المشكلات النفسية والبدنية التي لها تأثير على عدد كبير من النشاطات الإنسانية من ناحية ، ومقاومة المرض من ناحية أخرى . أما الطريقة الكمية فإنها تدرس توزيع الوقت بين العمل والترويح ، ومن ثم إجراء موازنة لإمكانية تحسين وتوجيه استغلال وقت الفراغ للصالح العام بما

يعود على الفرد والمجتمع بكل خير. ونجد هذه الدراسات بصورة مستفيضة عند الوظائفيين من أمثال دومازدية[٧] . أما الطريقة التنظيمية فإنها تقوم بتوضيح العلاقة بين الأنظمة المختلفة مثل الأنظمة الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية .... الخ . أما الطريقة العلمية فإنها تربط النشاطات الترويحية بالافتراضات العامة في المجتمع وكذلك بوجهات النظر التحليلية والجمالية فيها ، وتنظر الطريقة الاجتماعية إلى الترويح كنموذج مثالي على طريقة ماكس فيبر[٨] .

ويحلل فيبلن[٩] الترويح من وجهة اقتصادية وطبقية حيث يرى أن الترويح قناة أخرى يستعرض فيها الأثرياء أنماط الاستهلاك الباذخ . ومن ثم فهو طريقة لتوضيح البون الطبقي الشاسع بين أفراد المجتمع . لذا يصبح الترويح عند فيبلن شيئاً تختص به طبقة معينة في المجتمع مما يعيد المفهوم اليوناني إلى الذاكرة . أما هوزينجه[١٠] فإنه يعرض لمفهوم اللعب والترويح في الأديان والحضارات المختلفة من وجهة فلسفية منتهياً بأن الترويح شيء أساسي في تركيب شخصية الإنسان بل إنه نادى بالإنسان اللعوب . (Homo Ludens)

وعلى ما يبدو أن **الفكرة الكلاسيكية** عن الترويح كما عبر فيها اليونان والرومان والصينيون معقولة إذا ما أخذنا في الاعتبار نوع الهوة التي كانت قائمة بين الخاصة والعامة . فلقد كانت العامة تجد عناء شديداً وبالغاً لتأمين احتياجاتها المادية ومن ثم كان عليها أن تكدح بلا ملل حتى تتمكن من الإبقاء على نفسها . أما الخاصة فإنهم كانوا في بحبوحة من العيش تفيض عن احتياجاتهم ولديهم من الوقت ما يكفي لقضائه في الملذات والمسرات والترويح .

ولذا نرى حتى في كتب التاريخ الإسلامي والأدب ربط الترويح في معناه البذخي الإستعراضي بقصور كبار التجار الذين كانت لديهم القدرة المالية للقيام بالحفلات الباذخة والمكلفة جداً على ما في ذلك من مبالغة[١١] . وإن كانت تذكر كتب الأدب أحياناً بعض أنواع الترويح الشعبية مثل بعض الألعاب الرياضية إلا أن هذه الأنواع كانت تتم على ما يبدو في فترات الكساد أو بعد إنتهاء مواسم الزراعة والحصاد . هذا ويمكننا أن نربط بين الرخاء الاقتصادي وانتشار الترويح في المجتمع حيث أن المجتمع حينما يغطي

إحتياجاته الأساسية الأولية فإنه يتطلع إلى استخدام وقت الفراغ كما أوضحنا سابقاً .

وفي العصر الحديث تخطت معظم المجتمعات الإنسانية مرحلة تأمين الاحتياجات الضرورية واستطاع الإنسان بفضل التقدم العلمي والتكنولوجي تأمين وقت فراغ كبير للعامل والمزارع والموظف وخلافهم ، إضافة إلى بروز مجالات عديدة للترويح إما مزاولة أو مشاركة أو استمتاعاً أو مشاهدة وتشجيعاً ، وسهلت التطورات العظيمة في صناعات الاتصال الجماهيري من تيسير وسهولة تداولها بتكلفة زهيدة مما جعل إمكانية الاستمتاع بالترويح متاحة لأكبر عدد من الناس في صورة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً .

نجد المجتمعات الإسلامية — وهي في هذا تشارك معظم المجتمعات البشرية المعاصرة — نفسها أمام نوعين من أنواع الترويح : ترويح ينبع من الأعراف والتقاليد والقيم المحلية ، ونوع آخر قادم من خارج حدود المجتمعات الإسلامية وأعرافها وقيمها ، بعضه يعارضها وبعضه قد لا يعارضها . والمجتمعات الإسلامية كغيرها لا تقوى إلا على تقييم هذا التيار القادم حيث لا يمكن في عصرنا تجاهل ما هو في غير مجتمعنا . فالعالم كله أصبح قرية واحدة كما يقولون[١٢] بفضل وسائل الإتصال الجماهيري ومن ثم يقودنا هذا إلى عدة تساؤلات منها :

كيف يمكن تحديد ما هو صالح أو غير صالح من أنواع الترويح المحلية والوافدة على حد سواء ؟ هل يؤثر الترويح على السلوك الاجتماعي العام ؟ وهل يؤثر على أداء الشعائر الدينية عامة ؟ هل يؤثر الترويح على معدلات الإنفاق لدى الأشخاص ؟ وهل يؤدي ذلك إلى تجاهل بعض الواجبات الاجتماعية والعائلية لإشباع غريزة أو رغبة فردية ؟ هل يؤثر الترويح على تغيير بنية وقيم المجتمع ؟ إذا كان للمجتمع أن يختار بين أنواع الترويح التي تغزو المجتمعات الإسلامية اليوم ، فمن الذي يحدد شرعية نوع ما من أنواع الترويح ؟ وهل للإسلام تحبيذ أو نهي أو منع لأنواع معينة من أنواع الترويح أم أنه وقف موقفاً محايداً ؟ وما هي الإيجابيات والسلبيات التي يمكن أن يجرها الترويح للمجتمع الإسلامي ؟ وأخيراً ما هي وظائف الترويح الاجتماعية ؟

كما ذكرت في بداية هذا البحث فإنني لا أحاول في هذا البحث المتواضع جداً أن أقدم إجابات نهائية على هذه الأسئلة — التي في نظرنا مهمة وملحة على المجتمع الإسلامي اليوم — ولكن سنحاول إن أمكن بلورة هذه الأسئلة بصورة تجعلها مثار تفكير وجدل بين العلماء.

فأعتقد بأن تحديد الصالح من غير الصالح في أنواع الترويح تقوم على عدة اعتبارات أولها: الاعتبار الشرعي فما ذكرت حرمته أو كراهيته في القرآن وما صحت روايته عن النبي صلى الله عليه وسلم فإنه لا مكان للنزاع أو النقاش فيه. ثانيهما الإعتبار الخلقي والقيمي فما يؤدي إلى التعارض مع الخلق الإسلامي أو القيم الإسلامية فإنه يجب تجنبه إتقاء الفتنة وسداً للذريعة، وثالثها الاعتبار الوظيفي أي ما يقوم به الترويح من أعمال داخل النسق الاجتماعي مثل إستبدال عادات بعادات أو ممارسات سيئة بأخرى أفضل أو أقل منها شرًّا ومعصية.

وعلى أساس هذه الاعتبارات فإنني أرى خروج القمار ولعب الميسر وكل ما حرمه الإسلام عن دائرة الترويح المقبول في الإسلام مع وجوب تشجيع السياحة وركوب الخيل وألعاب الفروسية وألعاب القوى لما ورد فيها من تشجيع في أحاديث المصطفى (ص) وأقوال صحابته الكرام، أما بالنسبة للاعتبار الثاني فإنه يجعلنا نتحفظ على كل ما يؤثر على أخلاقنا مثل اختلاط الجنسين في الرياضة أو عدم التقيد بالواجبات الإسلامية والمقتضيات الشرعية في الملبس أو خلافه. وفي رأيي أنه يمكننا أن نوجه الترويح بما يلائم أخلاقنا وأعرافنا وليس العكس. أما الإعتبار الثالث فيركز على أهمية فهم ضروريات الحياة العصرية والعمل على إيجاد البدائل. من حيث أن الترويح يقوم على تقديم وظائف اجتماعية هامة، فلا يكفي أن نستبعد أو أن ننتقد بل يجب أن نستبدل وأن نقدم ما هو أفضل وأحسن.

أما بالنسبة لمدى تأثير الترويح على سلوك الإنسان الاجتماعي فمعظم أنواع الترويح جماعية وقليل جداً ما هو فردي منها، مما يبرز عامل تأثير الرفاق والصحبة. فكلما هبط نوع الترويح كلما كان أصحابه في غالبيتهم من الهابطين الساقطين والعكس صحيح، وكذلك يؤثر الترويح إن زاد عن حده ومقداره على ضآلة إهتمامات الفرد فيغدو

شخصاً ميالاً للاهتمام بما هو جانبي أو غير ذي بال . وأعتقد أنه يؤثر على ممارسة الإنسان للشعائر ، فلقد كان النبي (ص) ينادي بلالاً لإقامة الصلاة قائلاً «أرحنا بها يا بلال» ، مما يعني أنه كان يشير للراحة النفسية . فإذا وجد الشخص راحته النفسية أو تفريغ همومه ومشكلاته في أنواع أخرى من أنواع الترويح ولم يراع فيها حسن توزيع الوقت فإنها لا شك تلهيه عن أداء الصلوات المكتوبة مما يؤدي لا قدر الله إلى ضعف التدين العام . هذا ولعله من الطريف أن نذكر أن عدداً من علماء الإجتماع الذين يهتمون بدراسة الرياضة من أمثال روبرت بله[١٣] يعقدون مقارنة بين نوعية الطقوس الاحتفالية في داخل الملعب والكنيسة موضحين كيف أن بعض الألعاب الرياضية تحولت مع الزمن إلى ما يشبه الممارسات الدينية التي تتم داخل الكنيسة حيث يستبدل العراف اللاعبين ويصبح التشجيع والهتاف والعاطفة ما يقوم به العُبّاد داخل الكنيسة . بمعنى أن السلوك الترويحي أصبح يقوم بوظيفة اجتماعية أخرى .

أما بالنسبة لتأثير الترويح على الإنفاق فإنني أكاد أجزم بأن الإنسان الحديث ينفق الكثير في كمالياته ومن أهمها الجوانب الترويحية أكثر بكثير مما ينفق على الضروريات اللازمة لحياته العادية . ولقد ساعدت أيديولوجية الإستهلاك والتي وقعت معظم بلاد المسلمين فيها فريسة لها مع الأسف توسيع هذه الجوانب فأصبح للأطفال إهتماماتهم الترويحية الخاصة والتي تستهلك مبالغ لا بأس بها وكذلك الشباب والرجال والنساء .. الخ . وبذلك أصبحت تكاليف ما ينفق على الترويح تشكل عبئاً على ميزانية الأسرة قد يدعوها — كما هو حاصل الآن في بعض الدول العربية — إلى محاولة تخفيض الإنفاق على الأساسيات من مأكل ومشرب وملبس ومسكن . فكيف عالجت المجتمعات الإسلامية هذه الظاهرة ؟ قد لا أكون مغالياً إن قلت أن مجتمعاتنا الإسلامية تعاني من نفس الأمراض والمتاعب فلقد أصبحت متطلبات وتكاليف الترويح باهظة وتكلف ميزانية معظم الأسر الشيء الكثير ، مما يؤدي إلى مضاعفة الجهد والعمل الإضافي حتى يتسنى للأسرة أن تلبّي طلباتها العديدة التي أصبحت مع الأيام شبه ضرورية . طبعاً قد يؤدي هذا — وذلك لمحاولة

التشبه بالجيران والأصدقاء — إلى محاولة الحصول على المال اللازم بأي طريقة أو وسيلة . ولو أردنا أن نحسب المبالغ المصروفة الخاصة والعامة في مجتمع ما على بعض أنواع الترويح فقط مثل الفيديو والرياضة بأنواعها والتليفزيون والسياحة لكانت المبالغ أحياناً أعلى مما يصرف على قطاعات هامة كالتعليم أو الصحة أو الزراعة مثلاً وليس هذا في مجتمع معين ما أو في كتلة معينة ما ، بل أن الظاهرة تكاد تكون مماثلة في جميع أنحاء العالم مما يدلل على أهمية وخطورة الترويح على الأقل إقتصادياً .

بل إن أهمية الترويح أحياناً تصل إجتماعياً وثقافياً إلى أن تكون أهم من بعض الأحداث السياسية الهامة . بل إننا سمعنا بأن بعض الدول في أمريكا اللاتينية دخلت الحرب بسبب الرياضة ، ونجد أن عدداً من المدن التي تقيم الألعاب الألومبية على أرضها تفلس بسبب المبالغ الباهظة التي تصرف على التجهيزات والاستعدادات ... إذن فالموضوع في غاية الخطورة والأهمية إقتصادياً واجتماعياً بل وأحياناً سياسياً .

إذا كان الوضع كما قلنا فمن الذي يحدد شرعية نوع ما من الترويح ؟ أعتقد أن الإجابة على هذا التساؤل تقودنا إلى السؤال عن الكيفية التي يتم بها الإختيار الإجتماعي لنوع ما من أنواع الترويح .. وأعتقد أن في ذلك قنوات عدة هي التي يتم عن طريقها الإختيار منها الإتصال والاقتباس الثقافي. من المجتمعات الأخرى سواءً أكان هذا عن طريق التقليد أو التعليم المباشر أو عن طريق الترويح والتحبيذ عن طريق وسائل الاتصال أو عن طريق القرار الحكومي أو بعض الأفراد . وفي إعتقادي أن من أهم ما يكسب نوعاً ما من أنواع الترويح الشرعية ثلاثة مصادر هي : مدى إنتشاره والإقبال عليه من الجمهور وعدم معارضة العلماء له وسماح الأجهزة الرسمية للحكومة به وهذه الصورة تصدق في معظم البلدان . طبعاً نستخدم في عملية الرفض أو القبول المعايير أو الإعتبارات التي ذكرناها سابقاً .

هذا وفي إعتقادي أن الإسلام حض على بعض أنواع الترويح بشيء من الإهتمام والأهمية ومن أهمها ما يلي :

(أ) الأعياد حيث جعل هذه

المناسبات التي يحتفي فيها أفراد المجتمع بالفرحة ويتمتعون فيها بأنواع الترويح البريئة فرضاً دينياً يجب على كل مسلم ومسلمة أن يشارك فيها جماعة المسلمين أفراحهم وبهجتهم . وكذلك أمر النبي (ص) الاحتفال بالأعراس ، ومن السنة عمل العقيقة عند الولادة ، وحث النبي (ص) المسلمين على الاحتفال بيوم الجمعة مما يربط الترويح ببعض المظاهر الدينية وجعل الروح الاحتفالية مرتبطة ببعض الشعائر(١٤) .

(ب) الحث على الألعاب الداعية إلى الكمال الجسماني وتهيئة المواطن المسلم للقدرة على مقابلة الأوضاع القاسية أو الطارئة ولذلك شجع على السباحة والرماية وركوب الخيل وغيرها من الألعاب .

(جـ) وكذلك فإنه بارك الألعاب الداعية إلى تنشيط العقل وإن كان ذلك مواطن خلاف — مثل الشطرنج وخلافه — وحقر من الألعاب التي تقوم على الحظ فقط ، وذلك لأن المسلم مدعوّ إلى إستخدام ذكائه في كل شيء .

(د) الحث على الألعاب المؤدية إلى البهجة والسرور وتغير المزاج وخاصة ما كان يتعلق بإدخال السرور على أفراد العائلة مثل الجري أو بعض الألعاب المسلية البريئة(١٥) .

ونرى بذلك أن الإسلام أدرك أهمية وفعالية الترويح في المجتمع وأنه وجه أنظار المسلمين للإستفادة منها . على أن ذلك لا ينسينا أن بعض الإنحرافات قد حدثت فعلاً في المجتمعات الإسلامية منها :

(أ) الخلاعة والمجون والتبذل الخلقي .

(ب) الإسراف والاستهلاك الباذخ جداً .

(جـ) التراخي والدعة والضعف مما أدى إلى ذهاب القيم والعزة السياسية والعسكرية .

(د) الجهل أو الخلط في الأولويات(١٦)

ومع ذلك فإن الترويح يستخدم في العديد من دول العالم للقيام بعدة وظائف سياسية واجتماعية هامة منها :

(أ) توجه حماسة وطاقة الشباب لما هو مفيد .

(ب) إستقرار المجتمع سياسياً وذلك عن طريق توجيه الرأي العام

بعيداً مما يمزق الوحدة والشمل .

(جـ) إدخال بعض التغييرات الاجتماعية دونما خلق مقاومة ذات بال .

(د) تحقيق نوع من التعادلية بين جهد العمل والترويح عن النفس .

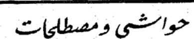
وفي الختام أود أن أبدي الملاحظات والمقترحات التالية :

(أ) ينبغي على المجتمعات الإسلامية وخاصة القيادات الدينية والفكرية منها أن تطور وتقدم بدائل ترويحية وترفيهية إسلامية ملائمة للعصر الحديث ومتطلباته على أن تكون هذه البدائل للجنسين ولكافة الأعمار .

(ب) لا بد من إستثمار إمكانيات تكنولوجيا العصر ومنجزاته لتقديم معانٍ جديدة تبرز فيها القيم والمثل الإسلامية في إطار ترويحي ملتزم موجه .

(جـ) لا بد من تطوير الأطر النظرية ودراسة الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية للترويح بوحي من تراثنا الإسلامي الفني وذلك عن طريق الحلقات العلمية المتصلة مما سيثرى الفكر الإسلامي الحديث (١٧) .

(د) إدراك أهمية الترويح الاجتماعية وما تقوم به من وظائف عديدة ومن تم الإهتمام به كرافد مهم وحيوي يمكن تطويعه لما فيه خير المجتمع وقيمه والله أعلم .



حواشي ومصطلحات

(١) نستخدم هنا مفهوم (Leisure) الأجنبي كما هو معروض ومشروع في الكتب الاجتماعية المعنية بهذا الموضوع . ولقد رأينا أن هذا المفهوم يوازي مفهوم الترويح .

(٢) أنظر كتاب د. صلاح الدين المنجد «الظرفاء» والشحاذون في بغداد وباريس» دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٨٠م .

(٣) إعتمدنا في توضيح المفاهيم اللغوية على بعض المعاجم اللغوية مثل لسان العرب وتاج العروس والصحاح وغيرهم .

(٤) Kaplan, Max: Leisure: Theory and Practice, Willey & Sons, Inc; N. Y. 1975.

(٥) De Grazia, S.: Of Time, Work and Leisure, Twentieth Century, Fund: N. Y., 1962.

(٦) Pieper, Joseph Leisure: the Basis of Culture, The New American Library, N. Y., 1963.

(٧) Dumazedier, Goffre Sociology of Leisure, Elsevier Scientific Publishing Co., Amsterdam, 1974 & Towards A Society of Leisure, Free Press, N. Y., 1967.

(٨) نقصد بنموذج مثالي (Ideal Type) التي تكلم عنها ماكس فيبر كطريقة علمية.

(٩) Veblen, Thorstein : The Theory of the Leisure Class. Modern Library, Inc., N. Y., 1934.

(١٠) Huizinga, Johan : Homo Ludens, Eeacon Press, Boston, 1955.

(١١) د. صلاح الدين المنجد «بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي» دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٠م.

(١٢) هذه فكرة نادى بها ماكلهون.

(١٣) Bellah, Robert : The Civil Religion, University of Chicago Press, 1974.

(١٤) أنظر د. أبو بكر أحمد باقادر «الأعياد في الإسلام»، المجلة العربية، شوّال ١٤٠١هـ وكذلك
Grunebaun, Gustave E. Von : Muhammaden Festivals, Henry Schurman, Inc., N. Y., 1951.

(١٥) الأدلة والاستشهادات يمكن مراجعتها في معظم الأبحاث المقدمة لحلقة الترويح في المجتمع الإسلامي الأولى المنعقدة في ١٦ جمادى الثاني ١٤٠٢هـ. بجدة بالسعودية.

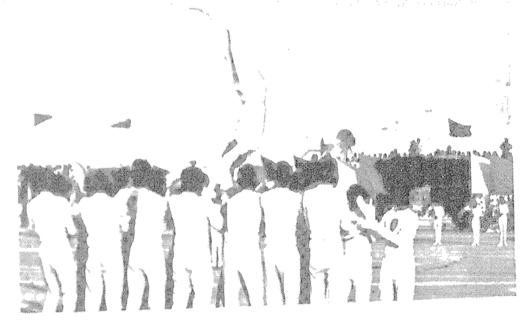
(١٦) د. صلاح الدين المنجد في كتابيه «السابقين».

(١٧) للأسف تفتقر المكتبة العالمية إلى الدراسات الميدانية الجادة عن الترويح في الشرق الأوسط، والدراسات التي أعرفها أحدها عن إسرائيل وهي :

Katz, Elhu, and Michael Currentch : The Secularization of Leisure : Culture & Communication in Israel, Faber and Faber Limited, London, 1970.

وهي دراسة أوصت بها وزارة الثقافة عندهم والأخرى عن مكة قام بها المؤلف وهي :

Bagader, Abubaker : Leisure and Social Change in the City of Mecca, unpublished M. S. Thesis, University of Wisconsin, Madison, 1978.







د. محمد
عبد الحميد
عيسى



وقد يكون العالم كله مهتمًا بدرجات متفاوتة بالحضارة العربية وثقافتها ، لكن أسبانيا ـ على وجه الخصوص ـ أصبحت مركزًا أساسيًا لنشر هذه الحضارة في أوروبا وأمريكا اللاتينية ، وقد لا يعلم القارىء العربي بأنه في أسبانيا حاليًا مجموعة من مراكز الدراسات العربية والإسلامية ، تلعب دورًا كبيرًا في إحياء الحركة الثقافية ، وتمتد هذه المراكز مع مراكز العمران الرئيسية في أسبانيا ، فمنها ما هو قائم في أقصى الشمال في إقليم قطالونيا ومنها ما هو في أقصى الجنوب في إقليم غرناطة ، وتستحق منا ـ نحن العرب ـ دراسة خاصة على الأقل لنطلع القاريء عامة والمثقف خاصة بهذا النشاط الكبير وهذا الجهد الرائع ، وحيث أن هذه الدراسة ليست موضوعي الحالي فلا بأس من الإشارة إليها إسميًا حتى يتاح لي تقديم تعريف وافٍ بها إلى القاريء العربي.

يتسنم قمة هذه المؤسسات المعهد الأسباني العربي للثقافة ، وهو مؤسسة تمد نشاطها إلى مجالات واسعة وعميقة ، وتلعب دورًا مؤثرًا في مجال تشييد العلاقات الثقافية بين أسبانيا والعالم العربي ويضم قسمًا للنشر والمطبوعات ، يتولى تقديم الفكر العربي للقاريء الأسباني والفكر الأسباني للقاريء العربي ، ويهتم بالتراث نفس اهتمامه بالمعاصرة . وهناك مدرسة للدراسات العربية في كل من مدريد وغرناطة ، وهما اللتان صدرت عنهما مجلة الأندلس الخالدة ، والتي تحمل الآن اسم **القنطرة** .

أقسام اللغة العربية وتاريخ الإسلام المنتشرة في جامعات أسبانيا وهي حوالي عشرة أقسام رئيسية يتولاها أساتذة متخصصون في فرع من فروع اللغة والتاريخ . معهد الدراسات الإفريقية ، ومعهد الدراسات الشرقية وكلاهما يتطرق بالدراسة من حين لآخر لبعض الموضوعات العربية والإسلامية ، وعلاوة على ذلك فإن بعض المؤسسات البلدية والمحلية تصدر دراسات إقليمية عن بعض العواصم الأندلسية القديمة .

وفي أسبانيا صرح ثقافي وعلمي يرجع تاريخه إلى عام ١٩٥١ ، وهو المعهد المصري للدراسات الإسلامية الذي افتتحه الدكتور طه حسين حين كان وزيرًا للمعارف ومازال يواصل رسالته العلمية ويصدر حوليته منذ ذلك الحين .

وليس من المبالغة أن هذه المراكز العلمية والثقافية ، قد لعبت دورًا هامًا في الحركة الثقافية المعاصرة ، وصدر عنها كم هائل من المؤلفات العلمية والثقافية يصعب

حصرها وعرضها ويكفي أن نشير إلى هذا الكتاب القيم الذي نشر بالعربية والأسبانية وهو قطعة حية من تاريخنا الإسلامي ، نود أن تكتمل حلقاتها .ويتم ظهور باقي أجزاء مقتبس ابن حيان الأندلسي .

أبو مروان بن حيان القرطبي :

شيخ مؤرخي الإسلام ، بل هو أعظم مؤرخ أنجبته العصور الوسطى عامة ، كتب التاريخ وهو على وعي كامل بفلسفته ومبادئه ، ويعد مفخرة لأمتنا الإسلامية ، وإن لم نوفه حقه من العناية والتكريم ، وقد يرجع ذلك إلي قلة ما وصلنا من إنتاجه وإلى نزارة ما أفردته كتب التاريخ الحديث عنه .

هو حيان بن خلف بن حسين بن حيان ، ولد في قرطبة سنة ٣٧٧ هـ/ ٩٨٧ ـ ٩٨٨ م ، وتوفي بها في سنة ٤٦٩ هـ الموافقة لسنة ١٠٧٦ م .

تتنوع مؤلفات ابن حيان ، حيث ينسب له كتابات في الشعر والأدب والدين ولكن يجمع كافة من كتبوا عن ابن حيان قديمًا وحديثًا ، أن التاريخ كان صنعته الأولى وفنه الأساسي .

وأشهر كتابين لابن حيان هما « **المقتبس** » و « **المتين** » وفي أولها يتناول **ابن حيان تاريخ الأندلس منذ الفتح العربي لهذه البلاد في عام ٩١ هـ/ ٧١١ م حتى عصر المؤلف تقريبًا** ، ولقد أشار **ابن حزم** إلى هذا الكتاب في رسالته عن فضل الأندلس قائلاً : ومنها كتاب التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس ، تأليف ابن مروان بن حيان ، نحو عشرة أسفار ، أجلّ كتاب ألف في هذا المعنى .

وثانيهما « **المتين** » لم تصلنا منه أجزاء مكتملة ، لكن كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة **لابن بسام الشنتريني** ، قد احتفظ بنصوص كثيرة قيمة ، أضحت موضوعًا لرسالة دكتوراه ، قام بها **الباحث المصري الدكتور عبدالله جمال الدين** وقدمها **لجامعة مدريد في عام ١٩٧٨ م** ، ويتناول الكتاب عصر الدولة العامرية والفتنة الكبرى وجزءًا من تاريخ ملوك الطوائف ، أو بصورة أدق ، تسجيلات المؤلف لأحداث عصره وشواهده .

ما نجا من المقتبس :

يتألف هذا الكتاب من عشرة أسفار كبيرة فقدت في معظمها ، ولم تصل إلينا منها إلا بعض القطع ، علاوة على النصوص التي نقلها منه المؤرخون الذين اقتبسوا منه ، والقطع التي وصلت إلينا من المقتبس هي :

قطعة كبيرة في حدود ١٨٨ ورقة تتناول عصر **الأمير الحكم بن مروان (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ/ ٧٩٧ ـ ٨٢١ م)** وشطرًا كبيرًا من إمارة **الأمير عبدالرحمن الأوسط (٢٠٦ ـ ٢٣٢ هـ/ ٨٢١ ـ ٨٤٦ م)** وكانت في حوزة المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال ، ثم فقدت منه عام **١٩٥٧ م** ، ولم تظهر بعد ذلك . وهناك أخبار مؤكدة عن وجودها بمكتبة **الدكتور عبدالحميد العبادي** التي أضيفت إلى مكتبة كلية الآداب هناك ، وأن أساتذة الجامعة هناك يعملون على نشرها بجامعة الإسكندرية .

قطعة ثانية تتناول السنوات الأخيرة من عصر **عبدالرحمن الأوسط ومعظم عهد ابنه الأمير محمد، وتشتمل على خمس وتسعين ورقة قام بنشرها الدكتور محمود علي مكي في بيروت عام ١٣٩٣ هـ/ ١٩٧٣ م** .

قطعة تتناول **عصر الأمير عبدالله بن محمد (٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ ـ ٩١٢ م)** وتبلغ حوالي مائة وسبع ورقات ، نشرها الراهب الأسباني المستشرق **ميلتشور أنطونيا بباريس ١٩٣٧ م** .

أما أكبر القطع فهي التي نقدمها في هذه العجالة ، فهي تتناول الأعوام الثلاثين الأولى من حكم الخليفة عبدالرحمن الناصر والذي حكم بالأندلس خلال الفترة من **(٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١ م)** ، والكتاب يتناول الأعوام من **٩١٢ إلى ٩٤٢ م** ، وقام بتحقيقها كل من الأساتذة **بدرو شالميتا** ، **وفيدريكو كورنيطي ومحمود صبيح** ، **ونشرها المعهد الأسباني العربي للثقافة سنة ١٩٧٩ م** ثم قام مرة أخرى بنشرها باللغة الأسبانية في عام **١٩٨١** ترجمة الدكتور **فيدريكو كورنيطي والدكتورة ماريا خيسوس فيغيرا** .

وهناك جزء آخر صغير يتناول خمس سنوات من عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله والذي خلف والده على حكم بلاد الأندلس خلال المدة من **(٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ/**

٩٦١ ـ ٩٧٧ م) والقطعة تتناول الأعوام من ٣٦٠ ـ ٣٦٤ هـ/ ٩٧٠ ـ ٩٧٤ م ، قام بنشر نصه العربي في بيروت ١٩٦٥ الدكتور عبدالرحمن علي الحجي ثم نشر ترجمة له بالأسبانية في مدريد ١٩٦٧ م الدكتور اميليو غارثيا غوميث .

السفر الخامس من المقتبس :

تحمل المخطوطة الوحيدة المعروفة لهذا النص في العالم رقم ٨٧ من ترقيم الخزانة الملكية بالرباط وهي مبتورة من بدايتها ، ولا يعرف أحدكم من الصفحات ضاعت منها وحالتها العامة سيئة ، وإن تم ترميمها بقدر الإمكان . ولقد أشار إلى وجودها منذ أعوام طويلة الأستاذ محمد عبدالله عنان ونشر عنها مقالة بمجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية والتي تصدر في مدريد (**العدد ١٣**) ، وكانت هذه المقالة هي التي حملت البشرى بوجودها حيث نوه بحجم المخطوطة وبيان محتوياتها ومسطرتها . ومنذ ذلك الحين والمخطوطة موضع استشارة الباحثين في الأندلسيات واقتبس منها كثيرون نصوصًا قاموا بنشرها في مواضع مختلفة من كتابات التاريخ والأدب الأندلسي ، دون أن ينهض أحد بنشرها كاملة .

والنص عظيم القيمة ، بالغ الأهمية ، حيث يغطي فترة من تاريخ الأندلس تلاحقت فيها الأحداث المثيرة التي تركت آثارها محفورة على جبين التاريخ الأندلسي .

إن دارسي التاريخ **يعلمون** أن عصر الإمارة الأندلسية كان قد تهاوى تمامًا مع نهايات حكم الأمير عبدالله بن محمد ، وأن تاريخ الأندلس قد تميز خلال هذه الحقبة بثلاثة عوامل رئيسية هي :

١ ـ الصراع بين أفراد البيت الأموي نفسه .
٢ ـ الصراع بين عناصر المجتمع الأندلسي ، وكثرة الثورات ضد مدينة قرطبة .
٣ ـ انتهاز الدول المسيحية في شمال أسبانيا الفرصة لتوسيع رقعتها على حساب الدولة الإسلامية هناك .

وكان على **عبدالرحمن الناصر** ـ حين صعوده العرش ـ أن يتصدى لهذه المشاكل وأن يواجهها بحسم شديد ، ونجح فعلاً ، خلال عشرين عامًا في أن يوحد بين أفراد

الأسرة ، وأن يقضى على جميع الثائرين والمتمردين والخارجين على طاعته وأن يؤدب ممالك الشمال ، ويجعلها تركن إلى الاستكانة ، وأن يرتفع بالأندلس إلى قمة عظمته السياسية والعسكرية .

ويفصل لنا **ابن حيان** ـ في هذا الجزء من المقتبس ـ جهود الناصر في هذه المجالات ، فيتناول كل سنة بأحداثها وما جرى فيها .

وما لدينا من المخطوطة يبدأ بذكر النساء ، حيث يطل بنا على حريم الناصر لنرى تحايلهن على كسب قلب الأمير ، ومن ثم الانفراد بالسيطرة عليه ، وما يترتب على ذلك من تمهيد مستقبل أبنائهن ووصولهم إلى الخلافة ، وفي هذا المجال فإنه يبين لنا كيف تمكنت «**مرجانة**» الرومية من الكيد لزوجته الحرة القريشية ، فاطمة بنت المنذر ابن محمد ، بطريقة لم يسمع بها عقل بشري من قبل ، مستغلة هذر النساء ولعبهن في الوصول إلى هذه المكانة .

ويتعرض الكتاب بعد ذلك لسياسة الناصر مع أولاده ، وكيف أنه أقطعهم بعد ذلك قصورًا وضياعًا ليقيموا فيها بعيدًا عنه ، ولم يستثن منهم إلا الحكم المستنصر ولي عهده ، فأبقاه معه في قصر الإمارة حيث تعهده شخصيًا بالإعداد والتدريب .

الخليفة وابن مسـرة :

محمد بن عبدالله بن مسرة ، أحد أوائل الأندلسيين الذين تكلموا في الاعتزال على أرض الأندلس ، ولم يسلم من اضطهاد **الأمير عبدالله جد الناصر** ، ومات في أوائل عهد الناصر ، لكن دعوته ذاعت بعد موته ، وقام تلاميذه بنشرها ، مستغلين فرصة انشغال الناصر بحروب أهل الخلاف حتى كثر القول في شأنه ، فذعر أهل السنة من أهل قرطبة إلى الناصر ، فعمد إلى إصدار بيان إلى الشعب الأندلسي ، يندد بآراء ابن مسرة وأتباعه ويوصي باضطهادهم والتنقير عليهم أينما وجدوا ، وقرىء ذلك على الناس بالمسجدين الجامعين بالحضرتين قرطبة والزهراء .

وتتجلى نزاهة التاريخ **عند ابن حيان** حين يتعرض لأعمال الناصر الدينية وشمائله الطيبة ، متبعًا لها ببعض ما يؤخذ عليه من تغليظ العقوبات وتهوينه بالدماء وقسوته على النساء ، واتخاذه الأسود إرهابًا لعذابه ، كما كان يفعل الجبابرة من ملوك الشرق .

ينتقل ابن حيان بعد ذلك إلي ذكر الأحداث على نسق التاريخ في سنى دولة الخليفة الناصر لدين الله عبدالرحمن بن محمد الفسيحة المقارنة للسعادة حيث بدأ بالتصدي للخارجين عليه ، والإنتصار عليهم ، وتعليق رؤوسهم على أبواب القصر ، «وكان أول من وردت رأسه هو محمد بن أرذبلش صاحب مدينة فتح ، حيث علقت على باب السدة ، فكان أول رأس لمارق رفع في هذه السنة ، فتهافتت رؤوس المارقين بعده تهافت الدر انقطع سلكه» .

ولم يكتف الناصر بإرسال قواده للقضاء على المارقين فحسب ، بل نهض بنفسه لمنازلتهم ولم تمض السنة الثالثة من حكمه حتى انفذ الكتب إلى عمال الكور والنواحي المقيمة على طاعته بالاحتشاد والاستعداد للنهوض معه ، فكان أول من استجاب له جند كورة البيرة الذين استمعوا إلى نصيحة قاضيهم بترك الخلاف والاستئناس بعصمة الخلافة وخرج الناصر لأول غزوة ، وتعرف باسم غزاة المنتلون ، وكانت أولى الغزوات المؤذنة بسعده ، واستمر في منازلة أعدائه ، واستنزالهم من حصونهم لأكثر من ثلاثة أشهر ويقول ابن عبد ربه في ذلك :

في غزوة ماثتا حصن ظفرت بها ... في كل حصن غواة للعناجيج
ما كان ملك سليمان ليدركها ... والمبتنى سد يأجوج ومأجوج

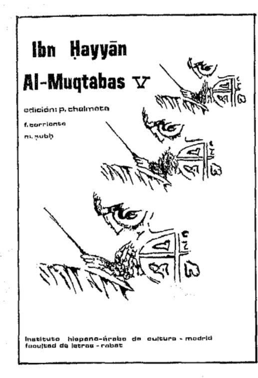
كما قال أيضا :

في نصف شهر تركت الأرض ساكنة ... من بعد ما كان منها الظهر قد ماجا
لما رأوا حومة الشاهين فوقهم ... كانوا بغاثا حواليها ودراجا

ويبدأ **الناصر** التصدي لأكبر الخارجين وأشدهم خطرًا ، وهو **عمرو بن حفصون** الذي ـ يقال ـ أنه ارتد عن الإسلام ، وتسمى بصموئيل ، وبدأ ثورته ضد قرطبة منذ أواخر عهد **الأمير محمد بن عبدالرحمن** ، واستمر في ثورته طوال عهد **الأمير بن المنذر وعبدالله** ، وفي السنة الثالثة من تسنم الناصر للخلافة افتتح حصن «**شبيلش**» وقتل فيه خمسة وخمسين رجلاً من أصحاب **عمرو بن حفصون** ، وتابع الناصر التضييق على عمرو بن حفصون ورجاله ، حتى توفي عمرو ، واستسلم أبناؤه من بعده بعد كثير من المفارقات والضروب إلى أن تمكن الناصر من حصن ببشتر معقل الثائر ، وسجد لله شكرًا على تمكنه من هذا المعقل الحصين .



الغلاف الخاص بالنسخة العربيّة



نفس الغلاف باللغة الأسبانية

ويفصل ابن حيان كيفية إعادة مدينة أشبيلية إلى أمر الجماعة وحصن الطاعة وشجاعة الناصر في هذا المجال ، وكيفية القضاء على تمرد آل إبراهيم من حجاج المالكين في هذه المدينة ، ومن أشبيلية بادرت قوات الناصر بالتجول في كور الأندلس تستعيدها إلى حصن الجماعة ، وتنزل العصاة من معاقلهم .

كفاح الناصر للنصــارى :

ولم يقتصر كفاح الناصر على المدن الإسلامية الخارجة على طاعته وإمرة العاصمة قرطبة فحسب ، وإنما وجه همته أيضًا منذ بداية حكمه إلى الممالك الأسبانية الشمالية وهي الممالك التي كانت انتهزت فرصة التمزق الذي أصاب الدولة الإسلامية ، لكي تلم شملها وتوسع من رقعتها ، وتتمادى في انتصاراتها على ما جاورها من الأقاليم الإسلامية ، حيث قام **الملك** «**أردون بن أذفونش**» ملك الجلالقة باجتياح مدينة يابرة من بلاد غربي الأندلس ، وقتل أهلها ، واستحل نساءهم وذراريهم حيث لم ينج منهم إلا عشرة رجال فقط ، ويصف ابن حيان شناعة المأساة حين يصور لنا منظر القتلى نساءً ورجالاً فيقول : **ولقد كان الداخل إليها بعد خروج العدو بمدة ،**

يدخل إليها فيأتي ذلك المأزق الذي ضم إليه المسلمون عند الإحاطة بهم ولم يجدوا عنه منفذًا ، فينظر إلى عقرى جاثمين قد ركب بعضهم الرجال والنساء ، قد همدت جثثهم سافا بعد ساف في سمك قامة وقامتين صعد إلى حائط السور ، فيرى منظرًا موحشًا شنيعًا ، وهولاً هائلاً فظيعًا .

ولم يكتف ملك الجلالقة بما أحدثه في مدينة يابرة ، بل إن ذلك أطمعه فعاد مرة أخرى ليضرب في بلاد المسلمين ، ويهاجم بلادهم ، يحرق ويدمر ، ولا يخشى للمسلمين بأسا ، حتى اضطر المسلمون إلى مهادنته ومهاداته .

مضت أربع سنوات من حكم الناصر ، عاث فيها الجلالقة ببلاد المسلمين ، وحسبوا أن صغر سن الناصر ، عامل من عوامل استصغار شأنه والتقليل منه ، وما لبث الناصر أن أرسل جيوشه وقواده لمهاجمة بلاد المشركين « فوطىء العسكر أطراف المشركين ، وروع قلوبهم على طول عهد بالأمنة ، وجال في نواحيهم وأداخ بلادهم » .

وتواصلت بعوث الناصر وجيوشه إلى شمال أسبانيا لتحد من شوكة الدويلات المسيحية القائمة هناك ، ثم خرج بنفسه على رأس جيوشه محققًا انتصارات مدوية مدمرًا حصونهم ، ومحطمًا لمعاقلهم .

ويفصل **ابن حيان** جميع غزوات الناصر ، سواء المحلية أو الخارجية ، تفصيلاً كبيرًا ، يتناولها عامًا بعد عام ، معرجا على النظم الإدارية والسياسية وأسماء القادة والوزراء ، وعلاقات الناصر ببلاد المغرب وقبائله ورجاله وحكامه .

ولا ينسى ابن حيان الإشارة إلى الروايات التاريخية المعينة التي ينقل منها ، فيشير إلى عريب بن سعيد ، وإلى صاعد الطبقي ، وإسحق ابن مسلمة ، والرازي وغيرهم .

التلقب بالخلافة :

في سنة ٣١٦ هـ/ ٩٤٨ م وجد الناصر أنه ارتقى إلى مكانة عالية ، وحقق الكثير من الانتصارات ، في الوقت الذي كان خلفاء بني العباس أُلعوبة في أيدي مواليهم من الأتراك ، ومن هنا سمت نفسه إلى التلقب بإمرة المؤمنين ، وعدم الاكتفاء

بالألقاب التي كان يستعملها آباؤه وأجداده في الأندلس ، فرأى أن **يستكمل** «مرتبة الخلافة» ، واستتم ميسمها بتسميته أمير المؤمنين وأخذه رعيته بذلك في جميع مايجرى منه ذكره ، وإنفاذ كتبه بها في أقطار مملكته ، وقطعه على استحقاقه لهذا الاسم ، الذي هو بالحقيقة له ، ولغيره بالاستعاره . وأصدر الناصر مرسومًا لعماله ونوابه لكي يكاتبوه وينادوه بإمرة المؤمنين ، وبدأ بذلك عصر الخلافة في الأندلس الذي ظل قائمًا حتى سقوط الدولة الأموية .

وينتقل **ابن حيان** إلى الحديث عن مدينة الزهراء ، إلى وصول أبي علي القالي إلى الأحداث الجمة التي تواكبت بين الناصر ، وملوك النصارى ، والتي انتهت بأن أصبح الناصر لدين الله ، سيد شبه الجزيرة الأيبيرية دون منازع ، يهابه الملوك وتهاديه السلاطين ، وتصله رسل القسطنطينية .

وتتوقف المخطوطة التي بين أيدينا ، عند سنة ثلاثين وثلاث مائة . وفي هذه السنة يحدثنا ابن حيان عن كيفية استعادة الناصر لمصحفه الذي فقده في الهزيمة الوحيدة التي لقيها في حياته أمام جلالقة الشمال الأسبان ، عن صلاة الاستسقاء ، عن رصف الرصيف إلى مدينة الزهراء ، عن رؤية هلال رمضان ، عن الوزراء والعمال .. إلخ .

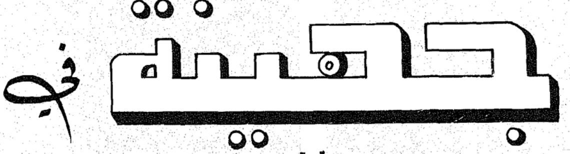
ولقد قدم المحققون للدارسين في التاريخ الإسلامي خدمة جليلة بجسارتهم على طبع النص وجعله سهلاً مقروءًا وتركوا لمهمة أخرى قضية التحقيق العلمي للأسماء والأماكن وإن كانوا قد ألحقوا بالكتاب فهرسًا لأسماء الأعلام والأمم والقبائل وفهرسًا بأسماء البلدان والأماكن والأنهار .

ولقد قام كل من الأستاذ الدكتور فيدريكوكورنيطس ، رئيس قسم اللغة العربية بسرقسطة ، والأستاذة الدكتورة ماريا خيسوس فبغيرا بترجمة النص إلى الأسبانية ، ونشره بمدينة سرقسطة في نهايات عام ١٩٨١ م .



الاستاذ إبراهيم محمد الفحّام

مع جهينة في مصر و السّودان



كان لانتشار القبائل العربية في أرجاء العالم الإسلامي (مع الفتوح ثم في أعقابها) أثر عظيم في تقريب كثير من شعوبه ، وتوثيق روابط القرابة فيما بينهم .

وقد تكاثر أبناء بعض هذه القبائل ، وانقسموا إلى عشائر تضاخمت أحجامها ، واشتُهرت بأسمائها الخاصة ، حتى طغى اسم العشيرة — مع الزمان — على اسم القبيلة الأم ، فلم تعد تُذكر إلا في معرض التأريخ لهذه العشائر ، وبحث أصولها وأنسابها .

ولكن بعض هذه القبائل العريقة ، ظلت تحتفظ باسمائها الأولى ، برغم تعدُّد بطونها ، وتفرُّق فروعها في أكثر من وطن من أوطان العالم العربي . ومن هذه القبائل (جهينة) التي ظلَّ اسمها هذا باقيًا في المملكة العربية السعودية ، مثلما بقى في مصر والسودان .

● **جهينة في مصر** ●

كانت جهينة إحدى القبائل الأربعة عشر التي أُطلق عليها (أهل الراية) لاجتماعها تحت راية واحدة، في الجيش الذي قاده عمرو بن العاص لفتح مصر. وظلَّت تلك القبائل مدوَّنةً معًا في ديوان الجند في التدوين الأول الذي قام به عمرو في سنة **٤٣** هـ كما ظلَّت مشتركةً معًا في خطة واحدة، عند تحديد الخطط التي أُعدَّت لإقامة القبائل التي شاركت في الفتح بالفسطاط. أما باقي القبائل فقد حاربت كل منها تحت راية خاصة، وأُفردت لها خطة خاصة، ودُوِّنت على حِدة بالديوان.

ثم انفصلت جهينة عن أهل الراية، ودُوِّنت على حدة بالتدوين الرابع الذي أجراه بشير بن صفوان سنة **١٠٢** هـ. وذلك بسبب تضخم تعداد أفرادها لكثرة من إنضمَّ إليهم، ممن وفد إلى مصر من جموع الجهنيين بعد الفتح.(١)

وقد اعتادت تلك القبائل جميعًا — ومنها جهينة — الارتباع في الريف المصري، أي الخروج بدوابهم، في فصل الربيع من كل عام للرعي، ثم إستقرت في مناطق إرتباعها بعد ذلك.

وكان إستقرار جهينة في منطقة الأشمونين (التي تقع في جنوب محافظة المنيا الآن) ثم أجلتهم عنها قريش بمساعدة الفاطميين في القرن الثالث للهجرة، فخلصت لها تلك المنطقة وأُطلق عليها (بلاد قريش) بينما إتجهت جهينة جنوبًا حتى استقرت في منطقة أخميم والتي تتبع محافظة سوهاج الآن) ولكنها إنتشرت شمالاً وجنوبًا، حتى قال الحمداني عن جهينة: (وهم أكثر عرب الصعيد بالديار المصرية. ولهم بلاد منفلوط وأسيوط، وبها أقوام منهم) وذكر واقعة نزوحهم إلى الجنوب فقال: (وكانت مساكنهم أولاً ببلاد قريش — يقصد بها منطقة الأشمونين — فنقلهم الخلفاء الفاطميون منها إلى بلاد أخميم، فسكنوا أعلاها وأسفلها) ثم قال: (ويقال إن بليًّا — يقصد قبيلة بلي — وبطونها كانت بهذه الديار — أي بلاد أخميم — وكانت جهينة بالأشمونين جيرانًا مع قريش — كما هم بالحجاز — فوقع بينهم واقعٌ أدَّى إلى دوام الفتنة، فلما أتى العسكر المصري لإنجاد قريش على جهينة (يقصد عسكر الفاطميين) خافت بلي فانهزمت إلى أعلى الصعيد إلى أن أُديلت (**أي غلبت وانتصرت**) قريش وملكت

أماكن جهينة ، ثم حصل بينهم جميعًا الصلح على مساكنهم ، وزالت الشَّحناء من بينهم ، ثم اتفقت جهينة وبلي على أن يكون لجهينة من المشرق من عقبة قاو الخزاب إلى عيذاب ولبلي من جسر سوهاج إلى قريب من قمولة .)[٢]

وقد إستمرت بعض البطون الجهنية في الاتجاه جنوبًا حتى استقرت في بلاد النوبة وتزوج بعض رجالها من بنات ملوكها . ولما كان من عادة أولئك الملوك أن يورِّثوا ابن البنت وابن الأخت ، فقد توصَّل بعض الجهنيِّين إلى اعتلاء عرش النوبة . وبرغم استقرار بعضهم ، فقد ظلَّت الغالبية العظمى على بداوتها .

وقد أسهم الجهنيون مع ربيعة في فتح بلاد البجة جنوبي مصر ، كما أسهموا في تفكُّك مملكة النوبة المسيحية ، وتحولها نحو الإسلام . كما إتجهت بطون منهم نحو الغرب ، حيث أقامت مع بطون من بلي وبني مدلج وغيرهم في الرمادة من أعمال لوبية . ونزح الكثير منهم غربًا إلى أفريقية مع الفتح الإسلامي لتلك البلاد .[٣]

والي مصر عقبة بن عامر الجهني :

ومن الجهنيين الأُوَل في مصر ، الصحابي الجليل عقبة بن عامر الجهيني الذي قدم مصر مع الجيش الفاتح ، ثم عُيِّن واليًا عليها من قبل معاوية بن أبي سفيان من سنة ٤٤ إلى سنة ٤٧ هـ . وتوفي بمصر سنة ٥٨ هـ . وكان من رواة الحديث . وروى عنه من الصحابة جابر وابن عباس وأبوأمامة ومسلمة بن مخلد . وأما رواته من التابعين فكثيرون . كما كان أحد من جمعوا القرآن الكريم. وتنسب إليه قرية (ميت عقبة) التي صارت الآن حيًّا من أحياء مدينة الجيزة . وكانت تلك القرية تضم أرضًا كان معاوية قد منحه إيَّاها .[٤]

إستقرار جهينة وتوطنها في مصر :

من أهم العوامل التي ساعدت على توطن القبائل العربية في مصر ، واندماجها في المجتمع المصري ، وتخلِّيها عن حياة البداوة ذلك الأمر الذي وجّهه الخليفة المعتصم العباسي إلى واليه على مصر في الحلقة الثانية من القرن الثالث بإسقاط العرب من الديوان ، وقطع أعطياتهم ، فازداد إنتشارهم في أنحاء الريف ، واشتغالهم بالزراعة

والتجارة وغيرها من وسائل الكسب التي كانوا يترفعون عن الاشتغال بها من قبل ، فضاعفت ذلك حركة التعريب ، ونشر الإسلام ، وبدأت ألقاب العرب تعبرٌ عن المناطق التي سكنوها بدلاً من أسماء القبائل التي ينتمون إليها .(٥)

وبرغم إنتشار الكثير من العائلات الجهينية في أنحاء مختلفة من البلاد ، فقد آثرت كثير منها أيضًا أن تعيش في تجمعات سكنية ، ظلت تحمل اسم (جهينة) إلى أيامنا هذه . وتوجد بالمحافظات التالية :

أولاً : محافظة سوهاج :

يُعَدُّ (مركز جهينة) أحد المراكز (أي التقسيمات الإدارية الرئيسية) التي تضمها محافظة سوهاج بالصعيد .

وكانت مساكن جهينة في تلك المحافظة (وهي نواة ذلك المركز) تُعَدُّ من توابع قرية المراغة (التي صارت قاعدة لمركز المراغة بتلك المحافظة فيما بعد) .

ثم إنفصلت تلك المساكن مع نطاقها الزراعي من قرية المراغة ، وصارت قريةً مستقلة في القرن العاشر الهجري . وهي تعد أقدم مابقى من التجمعات السكنية الجهنية .(٦)

وقد أسهم الجهنيون في التصدّي لقوات الاحتلال الفرنسي ، في زمن الحملة الفرنسية على مصر . وقد آزرتهم بعض الجماعات المسلحة التي قدمت من ينبع عبر البحر الأحمر ، في المعركة التي دارت بينهم وبين بعض الفرق التابعة للجنرال ديزيه في ١٠ أبريل سنة **١٨٩٩** م .(٧)

ويقول **علي باشا مبارك** في معرض حديثه عن قرية جهينة هذه في كتابه (الخطط التوفيقية) : « **وأهلها أكثر من عشرة آلاف نسمة من عرب جهينة القبيلة المشهورة ، ولهم كرم زائد ، وشهامة ، وفصاحة لسان ، وذكاء وفطنة ، وثبات جنان** » . وذكر أنهم أصبحوا يعاملون معاملة الفلاحين — أي لم يعودوا يُعاملون معاملة البدو الذين كان يُطبق عليهم نظام إداري خاص — إلى أن قال : « ولهم خبرة تامة بفلاحة الأرض ، ويقتنون جياد الخيل ، وفاره الحمير ، وعراب الإبل » وذكر عائلتها المشهورة في زمنه وهي (بيت البِسَّة ، وبيت أبي خبر ، وبيت الحويج) .(٨) ومن **عائلاتها** التي ذكرها محمد الهاشمي في كتابه (الدرر الذهبية في أصول أبناء الامة العربية) آل واصل ، وآل الضبع ،



وآل عاصم ، وآل عامر ، وقد نزح بعض هذه العائلة الأخيرة إلى حيث كوَّنوا قرية جديدة بمركز المراغة أطلق عليها (عامر)[9]

وفي سنة ١٩١٣ أنشئت قريةٌ جهنيَّةٌ أخرى بالقرب من تلك القرية ، فعُرفت القرية القديمة باسم (**جهينة الغربية**) وعُرفت القرية الجديدة باسم (**جهينة الشرقية**) وصارتا تابعتين لمركز طهطا .

وقد تكونت جهينة الشرقية من ضم أربع قرى صغرى متجاورة إلى بعضها وهي قرى (أبو الخير وأولاد حمد وحسام الدين وبني رماد) وتحمل كل منها اسم عائلة من العائلات الكبرى ، التي تضم كلٌّ منها مجموعة من الأسر الجهنية .[10]

وظلت جهينة القديمة ، أي (جهينة الغربية) قرية تابعة لمركز طهطا بمديرية جرجا (التي عُرفت بعد ذلك باسم مديرية سوهاج ، وهي محافظة سوهاج الآن) حتى تكاثر عدد سكانها ، واتَّسع نطاقها العمراني ، فاتُّخذت في سنة ١٩٦٣ قاعدة لمركز جديد بهذه المحافظة أُطلق عليه (مركز جهينة) ويضم القرى الآتية فصلاً من مركز طهطا :[11]

١ — جهينة الغربية .
٢ — جهينة الشرقية
٣ — نَزَّة .
٤ — نَزَّة الحاجر .
٥ — نَزَّة المخرمين.
٦ — الطليحات .
٧ — نجوع البوص .
٨ — الحرافشة .
٩ — عنيبس .
١٠ — نزلة علي .

ثانيًا : محافظة الشرقية :

ومن القرى التي يضمها مركز فاقوس بمحافظة الشرقية قريتا (**دوَّار جهينة**) و (**جهينة البحرية**) .

وقد تكوَّنت أولى هاتين القريتين قبل الأخرى . وكانت تُدعى قبل ذلك باسم (**لُبينة**) أو (لُبينى) ثم اتَّسع نطاق التجمع السكاني لجهينة في نطاق تلك القرية فعُدِّل اسمها إلى (دوَّار جهينة) والدوَّار في التعبير المصري يعني المكان الذي يُتَّخذ مقرًّا لعمدة القرية أو القبيلة ، ويباشر مسئولياته الإدارية فيه .

كما تكونت في نطاق هذا المركز ايضًا قرية (**جهينة البحرية**) أي الشمالية[12] .

محافظة القليوبية :

من القرى التي يضمها مركز شبين القناطر بمحافظة القليوبية قرية (**نزلة عرب جهينة**). وكانت تُعدُّ قديمًا من توابع قرية (**زفيتة مشتول**) حتى إكتملت مقوِّماتها كقرية مستقلة ، فانفصلت عنها سنة ١٩٣٠ . (١٣)

غير أن وجود قرى تحمل اسم جهينة ، لايؤكد أن جميع سكانها من سلالة هذه القبيلة ، إذ قد تعيش الكثرة من العائلات الجهنية عائلات تنتمي إلى بطون من جماعات قبيلة أخرى عريقة الصلة بجهينة مثل بلي وحرب والعقيلات وغيرها . كما أن كثيرًا من العائلات الجهنية تعيش في مدن وقرى غير تلك التي تحمل اسم جهينة ، وخاصة في الصعيدين الأوسط والأعلى . ومن أمثلة ذلك عائلة (**علُّوبة**) المعروفة بمحافظة أسيوط . وقد أشار إلى هذه الحقيقة محمد علي علوبة باشا الذي أسهم بنصيب وافر في الحركة الوطنية المصرية ، وعُرف باهتمامه بالقضايا العربية عامة ، وبقضية فلسطين بوجهٍ خاص ، وتولَّى عدة مناصب وزارية في مصر ، كما عُيِّن سفيرًا لها في أكثر من دولة إسلامية . وقد تحدَّث عن أصل عائلته في مقاله الذي نشر بعدد سبتمبر سنة ١٩٥١ من مجلة الهلال تحت عنوان (أنا عربي جهيني)

ويذكر علي باشا مبارك في (الخطط التوفيقية) اسماء العائلات الكبرى بمدينة طهطا فيقول (ومنهم بيت من مشايخ عرب جهينة يُسمىً بيت الكشكى ، وهو بيت عمدتها إلى الآن) (١٤)

وفي الوقت نفسه قدمت جماعات جهنية أخرى من الجزيرة العربية تباعًا ، وفي عصور متأخرة ، واستقرت في نواحٍ مختلفة ، وعُرف بعضها باسماء البطون التي تنتمي إليها وليس باسم القبيلة الأم . وتحمل بعض العائلات التي تنتمي إلى هذه الجماعات ألقابًا تخلد اسماء البطون الجهنية المعروفة بالجزيرة العربية ، أو أتخاذ هذه البطون .

وبرغم تحضُّر الجهنيين جميعًا ، واستقرارهم في أنحاء البلاد ، وتخلِّيهم تمامًا عن مظاهر الحياة البدوية ، وخاصة بعد إلغاء النظام القبلي في المحافظات غير الصحراوية سنة ١٩٦٠ ، فقد ظلَّت تجمعهم روابط القربى ، والمصالح المشتركة ، ووحدة الذكريات .

● جهينة في السودان ●

يُعدُّ الجهنيون أحد الأقسام الرئيسية الثلاثة التي تنقسم إليها القبائل العربية في السودان وهي : [١٥]

اولاً : مجموعة القبائل الجعلية :

ثانيًا : مجموعة القبائل الجهنية :

ثالثًا : الكواهلة :

وبينما تمثل القبائل الجعلية الأرومة العدنانية ، تمثل القبائل الجهنية الأرومة القحطانية في السودان .

وقد امتدَّت مواطن الجعليين في أواسط السودان من دنقلة شمالاً إلى أراضي الدنكا في الجنوب الشرقي ، وكان إنتشارها على طول هذا المحور الممتد من الشمال إلى الجنوب ، وإذا ابتعدوا عنه شرقًا وغربًا فإن ذلك يكون على هيئة فروع متصلة بالمصدر الأصلي .

أما مواطن الجهنيين فقد وُزِّعت بين شرق السودان وغربه من حوض العطبرة شرقًا إلى أقاصي دارفور غربًا . وتُعدُّ هجرة القبائل الجهنية الشرقية مستقلة عن هجرة القبائل الجهنية الغربية .

وهناك من يرجِّح أن معظم القبائل الجهنية في شرق السودان وغربه قدمت من الشمال الشرقي ، واستقر بعضها في الشرق بينما إندفع البعض الآخر نحو الغرب ، ولكن يغلب أن بعضها قدم من الشمال الشرقي . بينما قدم البعض الآخر من الشمال الغربي .

وتنقسم القبائل الجهنية من حيث مواطنها على النحو التالي :

أولاً : القبائل الشرقية :

ومواطنها جميعًا في أقاليم النيل الأزرق والبطانة شرقي السودان . وتضم القبائل الآتية :

١ ـــ رفاعة (أو الشعبة الرفاعية)

وهي كثيرة العدد ، واسعة الانتشار ، وتعيش على جانبي النيل الأزرق ، وعلى الأخص في النصف الجنوبى إلى الرصيرص .

وينقسم الرفاعيون إلى شطرين ، أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب .

وقد استقر الشماليون في قرى يشاركهم في كثير منها أعداد غير قليلة من عناصر غريبة عنهم ، بينما ظلت هناك قرى أخرى كثيرة تقتصر على الرفاعيين . وهم يمارسون الأنشطة

المستقرَّة كالزراعة والتجارة . أما الجنوبيون فتغلب عليهم حياة البداوة ، وكثيرًا ما يغلب عليهم اسم (جهينة) وليس (رفاعة)

وينقسم هؤلاء الجنوبيون من حيث مواطنهم إلى شعبتين :

الأولى : رفاعة الشرق : ويقيمون شرقي النيل الأزرق .

والثانية : رفاعة الغرب :

ويُطلق على كل من هاتين الشعبتين اسم الأسرة التى ظلَّت تحكمها زمنًا طويلاً . فيقال للأولى (ناس أبي جن) وللأخرى (ناس أبي روف) .

وتضم رفاعة بصفة عامة أربع عشرة قبيلة صغرى مثل (القواسمة — والعركيين — والطوال — والهلالية — وبني حسن — وبني حسين — وجهينة) وتعيش القبيلة الأخيرة التي تحتفظ باسم (جهينة) في الجنوب الغربي من البطانة ، بالقرب من المجرى الأسفل لنهر رهد .

وقد تفرعت من القواسمة قبيلة أخرى هي (العبد للاب) وقد تركَّز أبناؤه' حول حلفاية الملوك والخرطوم بحري . ووُزِّعت جماعات منها على ضفاف النيل الأزرق بين رفاعة والخرطوم ، حيث تحترف الزراعة والرعي . وتنتسب العبد للاب إلى رجل يدعى (عبدالله جماع) الذي أسهم في القضاء على مملكة (سوبة) وتأسيس مملكة (سفَّار) وكان العضد الأكبر لتلك المملكة في الإقليم الشمالى . وكان أصله من قرِّي شرقي خانق سبلوقة ، وظلت قرِّى عاصمة له ولخلفائه مدةً من الزمن ، ثم إنتقل مقرهم إلى حلفاية الملوك ، وظلَّت أسرته تتوارث الحكم في مملكة ستار ، وكان اللقب الرسمي لأمراء العبد للاب (منجل) .

ولم يكن العبد للاب مجرد زعماء للشعبة الشمالية من رفاعة ، بل كانوا كذلك حكامًا إقليميِّين ، لهم السلطة الكاملة على جميع القبائل التي تعيش في الشطر الشمالي ومملكة سنار .

٢ — اللحويون :

ويعيشون في البطانة .

٣ — الحلويون :

ويعيشون في الجزيرة حول بلدة حصاحيصا .

٤ — العوامرة :

٥ — العمارنة :

٦ — الفادفية :

٧ — الخوالد :

وتعيش هذه القبائل الأربعة الأخيرة في الجزيرة ، وتغلب عليها حياة الرعي ، وإن كانت تمارس بعض الزراعة .

الشكرية : ويعيشون في إقليم البطانة .

ثانيًا : قبائل تعيش في الجهات الشرقية والوسطي من كردفان :

ويُطلق على هذه القبائل اسم (بني فزارة) وتضم هذه المجموعة الفزارية القبائل الآتية :

١ — دار حامد

وكانت هذه القبيلة تحيا حياة البداوة ، وتتعيش من رعي الإبل ، غير أن القسم الأكبر منها استقرَّ في منطقة الخيران شمالي الأُبيض ، وقد تفرع منها قسمان صغيران يعيشان عيشة البداوة ، إلتحق أحدهما بالكبابيش والآخر بالكواهلة .

٢ — بنو جرار :

وكان لهم فيما مضى شأن كبير في كردفان ودارفور ، حيث كانوا — هم والحمر — أعظم القبائل ، التي تنافس الكبابيش في النصف الشمالي من كردفان إلى حدود وبلاد النوبة . غير أنهم إضطروا للرحيل عن دارفور ، فعاشوا في إقليمين محدودين في كردفان ، الأول بالقرب من النيل الأبيض ، حيث يستقرون في قرى كثيرة يمارسون فيها الزراعة ، والأخرى في أواسط كردفان ، حيث يرعون الإبل وصغار الماشية .

٣ — الزيادية :

وكانت أوطانهم فيما مضى موزعة بين دارفور وكردفان ، وكان أكثرهم المقيمون في دارفور . ولكن نسبة كبيرة منهم إضطرت للحاق بإخوانهم في كردفان ، وصار أكثرهم رعاة إبل بالقرب من مواطن دار حامد

٤ — البزعة :

وهي قبيلة صغيرة العدد ، يتصل نسبها ببني جرار ، ولها قرى تنتشر في إقليم الصمغ شرقي كردفان ، وجنوب

بلدة أم دم ، ومنها شعبة ترعى الإبل غربي كردفان .

٥ ــ الشنابلة :

وهم شعبتان ؛ تمارس الأولى رعي الإبل في إقليم دار حامد والكواهلة بينما تحيا الأخرى حياة أكثر استقرارًا على النيل الأبيض . وقد إندمج بعضهم في قبيلة الحمر ، واكتسبوا ثروة كبيرة من الإبل ، كما انضم فريق منهم إلى الكبابيش ومن الراجح أن هناك صلة قرابة بينهم وبين الشنابلة الذين يعيشون في الضفة الشرقية للنيل بصعيد مصر ، والذين تنسب إليه قرية (**عرب الشنابلة**) بمركز أبنوب بمحافظة أسيوط .

٦ ــ المعاليا :

وتعد من أكبر قبائل فزارة ، وكانت أوطانها موزعة بين دارفور وكردفان ، وكان أكثرها يقيم في دارفور ، ولكنهم فضلوا النزوح إلى كردفان ، واستمر بعضهم في الرحيل إلى الجنوب ، حتى جاوزوا الزريقات ، ثم أخذت جماعات منهم في العودة إلى شمال دارفور ، في أواخر الحرب العالمية الأولى . وتنظم أوطانهم في الغرب من دار حامد ، كما أن بعضهم يعيش في مركز النهور والأُبيض والدلنج وأم روابة : وظل يغلب على أسلوب حياتهم رعي الإبل ، وإن كانت جماعات منهم قد استقرت في القرى ، بينما اشتغل البعض الآخر برعي البقر بالجنوب الشرقي من دارفور والجنوب الغربي من كردفان .

ثالثًا : قبائل تنتشر في كردفان ودارفور :

وإن كان لبعضها أوطان أخرى في غير هذه المنطقة .

وهذه القبائل هي :

الدويحية :

ويعيش بعضهم في إقليم النيل الأزرق ، وتغلب عليهم حياة الاستقرار ويتعيشون من الزراعة ، غير أن نسبة كبيرة منهم تمارس رعي الإبل في أواسط كردفان ، حيث يصاحبون الكواهلة ، ويتنقلون معهم .

٢ ــ المسلمية :

ويسمى كثير منهم انفسهم بالبكرية . وهم يعيشون في الجزيرة (حيث أُطلق اسمهم على أحد مراكزها)، وعلى ضفتي النيل الأبيض

وقد استقر معظمهم ومارسوا الزراعة ومنهم شعبة في البطانة، تحيا حياة البداوة.

٣ ـــ الحَمَر : (بفتح الحاء والميم) :

وهي تتألف من الشعب الثلاث الآتية (**العساكرة والدقاقمة والغريسية**)وكانت هذه الشعب مستقلة إلى عهد قريب ، يرأس كُلاًّ منها ناظر خاص ، وإن كانت جماعات مختلفة منها تعيش أحيانًا في قرية واحدة .

وقد أُعيد تنظيم (**الحمر**) من سنة ١٩٢٨ بحيث جُعلت سلطة قبيلة عُليا عليها تتمثل في الشيخ الأكبر للقبيلة الذي يطلق عليه (ناظر عموم الحمر) إلى جانب وجود ناظر لكل من هذه الشعب الثلاث . وقد أدَّى هذا إلى تماسك القبيلة وتوطيد أواصر التعاون بين شُعَبها .

ويعيش الحمر بشُعَبهم الثلاث في الأطراف الغربية لكردفان على حدود دارفور ، ومعظمهم يتعيش من الزراعة ، وجَمع الصَّمغ من أشجاره ، وإن كان بعضهم لايزال يرعى الإبل .

وفي شمال دارفور مجال لرعاية الإبل ، وهو يمتد إلى واداى وإلى مابعد حدود السودان الغربية . وفي هذا الإقليم بطون من قبائل جهينة منهم الماهرية والمحاميد والنوايبة وتجاورهم في أوطانهم الشمالية وحدات أخرى من جهينة مثل العريقات والعطيفات .

٤ ـــ الكبابيش :

وتعد من أعظم قبائل الأَبَّالة (**أي رعاة الإبل ، في السودان**) وأكثرها عددًا ، كما أنهم يمتلكون من الضأن أضعاف مايملكون من الإبل ، وتمتد مواطنهم جنوبًا إلى تخوم البقَّارة . وقد استوعبت تلك القبيلة عناصر أخرى مختلفة مثل (الفونج) سكان السودان القدامى ، والبجة والنوبة ، ولكن الكثرة العظمى من الكبابيش تنتمي إلى أصول عربية **جهنية** خالصة ، ولاتكاد نسبة الجماعات غير العربية التي إندمجت فيها تتجاوز نسبة ٣٠ ٪ من تعدادها .

٥ ـــ المحاميد

٦ ـــ الماهرية

٧ ـــ المغاربة

٨ ـــ البقَّارة

وقد سُمُّوا بذلك لاشتغالهم برعي البقر ، ولايُطلق هذا الاسم على القبائل الأخرى التي ترعى البقر ، بل تختص به هذه القبيلة الجهنية التي تعيش في جنوب كردفان ودارفور ، وتحترف رعي البقر .

ويمتد موطن البقارة هؤلاء من جهة الغرب إلى جوار بحيرة تشاد أي إلى إقليم واداى وبرنو .

ومن البقارة في كردفان

أ ــ بنو سليم

ويعيشون على النيل الأبيض . وتمتد أطانهم إلى كاكا أي إلى حدود قبائل الشلك .

ب ــ أولاد حميد :

ويعيشون شمالي تقلى ، وجنوب أم رابة ، أي أول أقاليم كردفان ، من الشرق .

جـ ــ الهبانية :

ويعيشون إلى الجنوب من بلدة الرهد ، وهم أكثر البقارة ميلاً إلى الاستقرار ، ويعيش بعضهم في دارفور .

د)ــ الحوازمة :

ويعيشون جميعًا في دارفور ، وهم قبيلة كثيرة العدد .

هـ ــ المسيرية والحَمْر (بفتح الحاء وسكون الميم) :

وكانت هاتان القبيلتان قبيلة واحدة تسمى (المسيرية) ثم إنقسمت إلى قسمين : (المسيرية الزرق) و(المسيرية الحمر) ثم كثر الحمر فانفصلوا في قبيلة خاصة في أوائل القرن التاسع عشر . ولاتزال أوطانهما متجاورة .

ومن القبائل الشديدة القرابة من السيرية ، وتعد فرعًا منها مستقلاً (الثعالبة) ويعيش معظمها في دارفور إلى جوار من يعيش فيها من المسيرية .

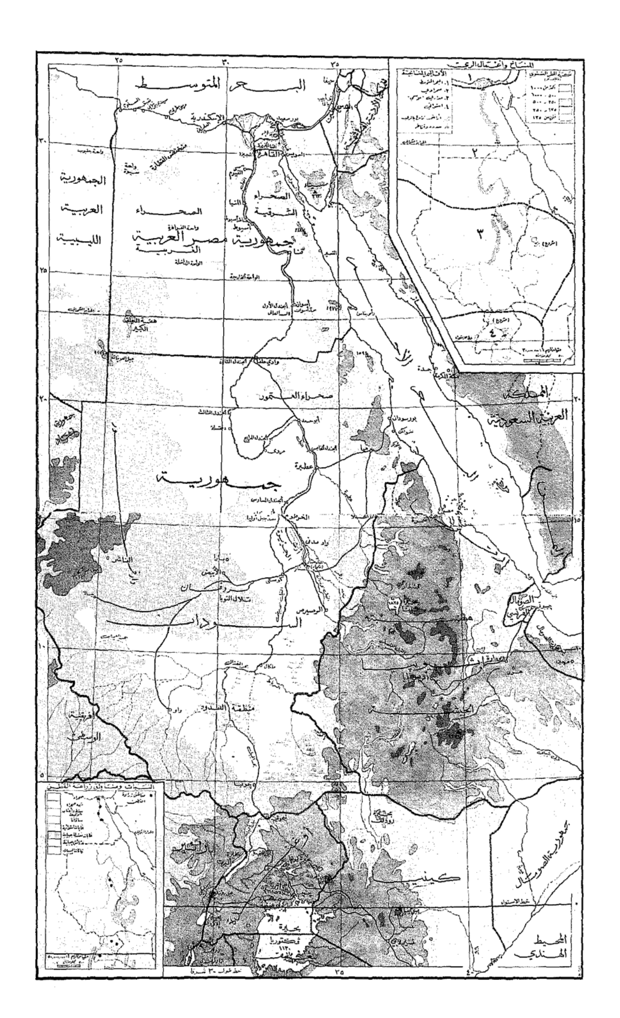
ومن البقارة في دارفور

أ ــ الرزيقات :

وتقع أوطانهم في أقصي الجنوب الشرقي من دارفور ، وينقسمون إلى ثلاثة أقسام هي (**الماهرية والمحاميد والنوايبة**) وهي ثلاث قبائل تكونت من إتحادها الرزيقات .

ب ــ الهبانية :

ويعيش معظمهم في دارفور والباقون في كردفان.


البحر المتوسط
الجمهورية العربية الليبية
الصحراء الغربية
جمهورية مصر العربية
الصحراء الشرقية
الإسكندرية
القاهرة
أسوان
صحراء العتمور
جمهورية السودان
الخرطوم
المملكة العربية السعودية
جدة
بورسودان
منطقة السدود
كينيا
المحيط الهندي
جمهورية الصومال
خط الاستواء
المناخ واتجاه الرياح

التعايشية :

وهم يجاورون الهبانية ، ويعدون أقرب قبائل البقارة نسبًا إليهم . ومنهم عبدالله التعايشي خليفة محمد أحمد المهدي . وقد جلب آلافًا من قومه هؤلاء إلى أم درمان ، ليتخذهم سندًا له . ويقدر سلاطين باشا عدد من جُلب منهم بنحو ٢٤ ألف محارب بنسائهم وأطفالهم ، فسيطروا على جهات هامة مثل دنقلة ، ثم عاد كثير منهم إلى ديارهم بعد إنتهاء عهده ، بينما بقيت أعداد صغيرة منهم في مديرية كسلا وسنار ، وعلى النيل الأبيض ، وفي كثير من المدن الرئيسية .

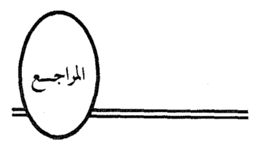
د ــ بنو هلبة :

وهم يجاورون التعايشة ، ولهم فروع فيما وراء الحدود الغربية للسودان ، حيث تعيش فروع من قبائل جهينة أخرى ، معظمها في واداي .

الهواوير :

يعتبر بعض النسَّابة (**الهواوير**) من القبائل الجهنية بالسودان ، وهم في الحقيقة من قبيلة (الهوارة) المعروفة بالصعيد الأعلى في مصر ، والتي تمتد أنسابها وروابطها القبلية إلى بلاد المغرب ، وقد نزحت جماعات متتالية منهم إلى السودان في عصور مختلفة .

وقد يرجع الحاق الهواوير بمجموعة القبائل الجهنية ، إلى ما يراه بعض النسَّابة من إنتمائهم إلى الأرومة القحطانية ، التي تنتمي إليها جهينة فهي أقرب إلى الجهنيين منهم إلى الجعليين الذين ينتمون إلى الأرومة العدنانية .



١ ــ الدكتور عبدالله خورشيد البري (القبائل العربية في مصر، في القرون الثلاثة الأولى للهجرة) ــ دار الكاتب العربي ــ القاهرة سنة ١٩٦٧ ص ٢١٧.

٢ ــ أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (خلاصة الجمان ، في التعريف بقبائل عرب الزمان) تحقيق إبراهيم الإبياري ــ دار الكتب الحديثة ــ القاهرة سنة ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣ م .

ص ٤٤ وقال الخراب من القرى التي اندثرت وتعرف آثارها الآن بكوم قاو الخراب وسُمِّيت قاو الكبرى ثم العثمانية ، وهي الآن من قرى مركز البدارى بمحافظة أسيوط . وعيذاب ثغر على ساحل البحر الأحمر . أما قولة فهي قرية تُسمى الآن الأوسط قولا وتتبع مركز قوص بمحافظة قنا ، وقد تفرعت منها ثلاث قرى أخرى هي البحري قامولا بنفس المركز ، والقبلي قولا والغربي قولا بمركز الأقصر بنفس المحافظة .

٣ ــ أحمد لطفي السيد (قبائل العرب في مصر) طبع على نفقة جمعية عربان العقيلات ــ القاهرة سنة ١٣٥٤ هـ ١٩٣٥ م . ص ٤٩ .

٤ ــ علي باشا مبارك (الخطط التوفيقية) المطبعة الأميرية ــ القاهرة سنة ١٣٠٦ هـ جـ ١٦ ص ٧٢ ، وانظر أيضًا وصفه للمسجد الذي يُنسب إليه بالقاهرة جـ ١ ص ٥١ .

٥ ــ سيدة إسماعيل الكاشف (مصر في فجر الإسلام) دار الفكر العربي ــ القاهرة سنة ١٩٤٧ م . ص ٢٥٧ .

٦ ــ محمد رمزي (القاموس الجغرافي للبلاد المصرية) مطبعة دار الكتب ــ القاهرة سنة ١٩٦٣ م القسم الثاني ــ جـ ٤ ص ١٤٢ و ١٤٧ .

٧ ــ أحمد حافظ عوض (فتح مصر الحديث : أو نابليون بونابرت في مصر) ــ مطبعة مصر القاهرة سنة ١٩٢٥ ص ١٨٧ .

٨ ــ الخطط التوفيقية جـ ١٠ ص ٦٩

٩ ــ محمد أحمد عيد الهاشمي (الدرر الذهبية في أصول أبناء الأمة العربية) مطبعة حسَّان ــ القاهرة سنة ١٩٧٥ ص ٢٠٤ .

١٠ ــ القاموس الجغرافي للبلاد المصرية القسم الثاني جـ ٤ ص ٤٢ و ٤٧ .

١١ ــ الأوامر العمومية لوزارة الداخلية ــ الأمر العمومي رقم ٤٩٤ في ٢٩/ ٨/ ١٩٦٣ ويتضمن نص قرار وزير الداخلية رقم ٧٢ في ٢٤/ ٨/ ١٩٦٣ بإنشاء مركز جهينة .

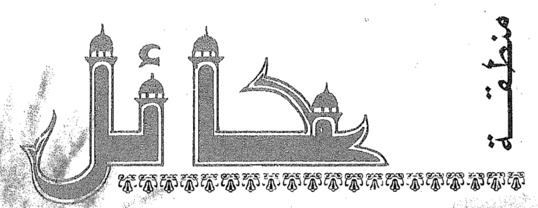
١٢ ــ القاموس الجغرافي ــ القسم الثاني جـ ٣ ص ١١٥ .

١٣ ــ المرجع السابق ص ٤١ .

١٤ ــ الخطط التوفيقية جـ ١٣ ص ٥١ .

١٥ ــ أحمد بن على المقريزي (البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب) تحقيق وتعليق الدكتور عبد المجيد عابدين ــ عالم الكتب ــ القاهرة سنة ١٩٦١ ص ١٤٠ ومحمد عوض محمد (السودان الشمالي : سكانه وقبائله) لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة سنة ١٩٥١ ص ٢٠٨ و د. محمد محمود الصياد و د. محمد عبد الغني سعودي (السودان : دراسة في الوضع الطبيعي ، والكيان البشري ، والبناء الأقتصادي) مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة سنة ١٩٦٦ ص ١٦١ .

منطقة



اعتمدت هذه الدراسة من حيث مادتها العلمية على المعلومات التي جمعت وصنفت وحللت من أجل عمل الفيلم السينمائي «حائل» الذي أنتجته جامعة الملك سعود بالتعاون مع إمارة حائل سنة ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م).

د. عبدالرحمن سيت السيت

د. طه عثمان الفرا

د. عبدالرحمن سعود الهواري

منطقة حائل إحدى مناطق المملكة العربية السعودية الهامة، خاصة وأنها كانت ولا تزال تمثل حلقة اتصال هامة بينها وبين بادية الشام والعراق. أضف إلى ذلك تاريخ تلك المنطقة الحافل بالعادات العربية الأصيلة التي جعلت لسكانها مكانة مرموقة في الأزمان الغابرة وبعد ظهور الاسلام، ولقد أسهمت الظروف الطبيعية المختلفة في نسج تاريخ تلك المنطقة في إطار المملكة العربية السعودية بحيث أطلق عليها اسم جوهرة الشمال، زد على ذلك أن أحوالها المناخية المتباينة في ظل سهولها وأوديتها وجبالها، جعلت من بعض أجزائها مهدًا لحضارات قديمة تركت لمساتها على سفوح جبال لا تزال تحدثنا عن جزء حافل من ماضٍ عريق في دنيا الحضارة والشعر والكرم.

وتعيش منطقة حائل اليوم تطورًا شاملاً تمتد أهدافه عبر آفاق سلاسلها الجبلية وحوافها الصخرية وتكويناتها الرملية وأوديتها الكثيرة ، ان هذه الطفرة لم تأت عفوًا كما أنها لم تكن وليدة هذه الايام ، ولكنها جاءت جزءاً من تخطيط متكامل على مستوى الوطن تعددت أهدافه وأرسيت قواعده منذ أيام **المرحوم الملك عبدالعزيز** طيب الله ثراه . ثم جاءت الخطتان الخمسيتان للدولة السعودية فبلورت هذه الأهداف وشرعت في تحقيقها .

الموقع

تؤكد بعض الآثار التاريخية التي عثر عليها في منطقة حائل ، أن هذه المنطقة يمكن اعتبارها أحد مراكز الحضارة القديمة التي عاصرت الآشوريين والبابليين ، وقد عثر في هذه المنطقة على كتابات ورسوم منقوشة في الصخر في جانين وياطب وغيرهما (**شكل ١**) .

تقع منطقة حائل في الجزء الشمالي من هضبة نجد ، ولقد كان لموقعها هذا أهمية كبيرة في الأزمان الماضية نظرًا لمرور قوافل الحجاج والتجار عبر أراضيها . وقد اهتم المسلمون بنشر الاسلام في هذه المنطقة ، ولا عجب في أن نجد الرسول عليه الصلاة والسلام قد وَكَل إلى علي بن أبي طالب أمر إدخال منطقة حائل في حوزة الاسلام ، ولقد كان درب زبيدة يخترقها من أقصاها إلى أقصاها . وعلى طول هذا الطريق أنشئت برك وصهاريج أرضية للماء ، أمرت بانشائها السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد . ولا تزال آثار البرك والصهاريج موجودة . ولقد قامت الحكومة السعودية بتحديد أماكن هذه البرك وترميمها أو تجديدها بقصد الاستفادة من المياه التي تتجمع بها أيام المطر ، وكان حجاج بيت الله الحرام القادمون من العراق وإيران وبعض أجزاء من بادية الشام يتركون جزءًا من مؤنهم في بعض قرى حائل أمانةً يأخذونها عند عودتهم من الحج لكي يستعملوها أثناء سفرهم إلى ديارهم وذلك لوقوع المنطقة في منتصف الطريق تقريبًا بين مكة المكرمة وبين بلادهم التي أتوا منها .

ويحد منطقة حائل من الشمال منطقتا الحدود الشمالية والجوف ومن الجنوب منطقة القصيم ، وتشترك في حدودها الشرقية مع كل من منطقة الرياض والمنطقة

الشرقية . أما من جهة الغرب فإنها تواجه منطقة تبوك ومنطقة المدينة المنورة (شكل ٢).

وبالرغم من أن الجزء الشمالي من منطقة حائل يحتل جزءًا من صحراء النفود الكبير ، إلا أن ذلك لم يعزل الإقليم في الماضي عن الأقاليم المجاورة له من الشمال وبلاد الشام. ويرجع السبب في ذلك إلى أن وسيلة الاتصال في الماضي كانت سفن الصحراء (الجمال) . بالإضافة إلى ذلك فان تلك الصحراء ليست جرداء بل تغطي أجزاء واسعة منها الشجيرات طوال أيام العام والحشائش خلال فصل الربيع . وفي النفود بعض التجمعات السكانية الصغيرة مثل «جبه» ذات مناظر طبيعية جميلة (**شكل ٣**). وهناك أيضًا بعض الجماعات الرعوية بها .

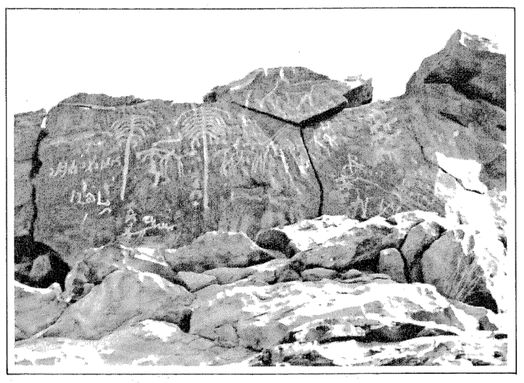
التضـــاريس

يتميز سطح منطقة حائل بالتباين الملحوظ بالنسبة لكمية ونوعية المعالم التضاريسية المختلفة من سهول وجبال وممرات وتكوينات رملية ومنخفضات وحافات صخرية ويمكن تقسيم هذه المنطقة إلى الأقاليم الآتية (**شكل ٤**) :

إقليم السهول والحافات الصخرية :

يغطي هذا الاقليم الجزء الشمالي الشرقي من المنطقة ، **ومن أهم ما يميز الاقليم انبساط أرضه التي تتخللها بعض الحافات الصخرية والمرتفعات المنعزلة والأودية المختلفة كما أن ارتفاعه يتراوح ما بين ٨٠٠ و ١٠٠٠ متر فوق سطح البحر ، وينحدر هذا الاقليم باتجاه الشرق والشمال الشرقي بوجه عام** ، ولا عجب في أن تجد أن غالبية الأودية هنا تجرى في هذين الاتجاهين ، ومن أشهر الأودية التي تجرى نحو الشرق : وادي الجحفة ، وادي العدوه ، وادي البحزه ، في حين أن أهم الأودية التي تجرى نحو الشمال الشرقي هي : وادي العش ، وادي حميان ، وادي المليحة ، وادي الرشاوية ، وادي ياطب ، وادي عريجا .

والجدير بالذكر أن كلا من وادي العش والبحره ، والخوى ، يتصل بوادي العدوة غربي منطقة رك . وبعد ذلك يتصل وادي العدوه بوادي حميان بعيدًا عن أقدام سلسلة جبال سلمى شمال شرق منطقة رك .



(شكل ١) بعض الكتابات والرسوم الثمودية القديمة في جبل ياطب

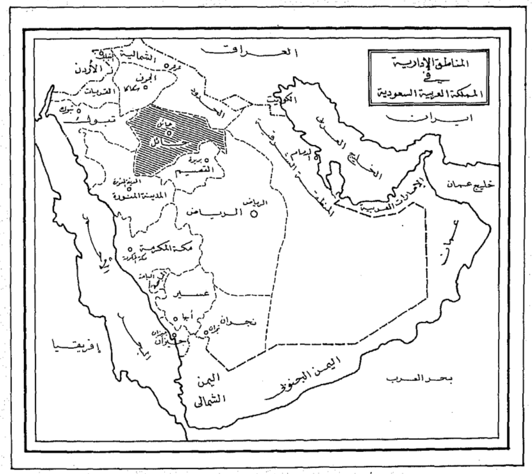
ومما يلاحظ أن معظم أودية هذا الأقليم تنتهي عند مقدمات بعض الحافات الصخرية والجيلان (جحال) ، مثل جال الاسودة ، جال الطراق ، جال الأجفر ، جال العيار ، جال الطينيات . وعند مناطق الانتهاء هذه تتكون بعض السبخات والملاحات والتي من أشهرها سبخة بقعاء . أما الأودية التي لا يكتب لها اللقاء مع الحافات الصخرية فانها تستمر في جريانها أثناء وفرة مياهها إلى أن تنتهي مع بعض العروق الرملية في شمال شرق الاقليم ، ومن العروق المعروفة هنا عرق حداجة ، عرق الابيتر ، عرق نواظر وعرق المظهور .

في هذا الاقليم بعض الجبال المكونة من الصخور الرسوبية . وتبدو مثل هذه الجبال بوضوح في المنطقة الواقعة بين جبل الجدر ، شمال سلسلة جبال سلمى ، وحافة العلب ، ومن أشهر هذه الجبال : جبل جلدية ، جبل جانين ، جبل ياطب ، وجبل الصندوق بالقرب من مدينة حائل. وبعض هذه الجبال فيه كهوف ، كما هي الحال في جبل جانين ، وكتابات ورسومات قديمة ، وكما في كل من جبل جانين وجبل ياطب .

ونظرًا لأن تكوينات هذا الاقليم رسوبية وترتكز على قاعدة من الدرع العربي فإننا كثيرًا ما نجد بعض أجزاء ذلك الدرع قد كشفتها عوامل التعرية وبدت وكأنها قمم قباب منبسطة جرداء مرتفعة قليلاً عن سطح الأرض ، وتبدو هذه الظاهرة بكل وضوح بالقرب من جبل ياطب والدرع العربي (**شكل ٥**).

اقليم التكوينات الرملية :

تغطي الرمال الأجزاء الشمالية الشرقية ، والشمالية ، والشمالية الغربية من إقليم حائل وتتألف هذه التكوينات من العروق الرملية والنفود الكبير . ومن أهم العروق الرملية هنا عرق المظهور وعرق لزام ، وعرق جدعان . وكان درب زبيدة يقطع الأماكن الضيقة من بعض هذه العروق متجهًا عبر إقليم السهول والحافات الصخرية



شكل رقم «٢» المناطق الإدارية في المملكة العربية السعودية

إلى بلدتي فيد وسميرا ثم إلى المدينة المنورة . ومن المعروف أن هذا الدرب كا يعج بالحجاج والمسافرين القادمين من العراق وبلاد فارس والمتجهين إليهما ، وتضم منطقة حائل جزءًا كبيرًا من النفود الكبير .

وعلى حافات هذه التكوينات الرملية بعض السلاسل الجبلية القصيرة والجبال المنعزلة ، مثل جبال الطوال ، جبل اللقيطة ، جبل نهادة ، وجبل قاعد . ونتيجة لحركة الرمال المستمرة فإن الأجزاء السفلى من تلك الجبال وغيرها تغمر وتندثر في تلك الرمال . ونظرًا لأن لون الجبال يكون داكنًا ، كما أن الرمال يغلب عليها اللون الوردي الفاتح ، فان منظر منطقة التقاء الجبال مع الرمال من أجمل المناظر الطبيعية وبخاصة في الصباح وقبيل الغروب . وفي هذا الإقليم بعض الحيوانات البرية مثل الظباء والارانب (**شكل ٦**).

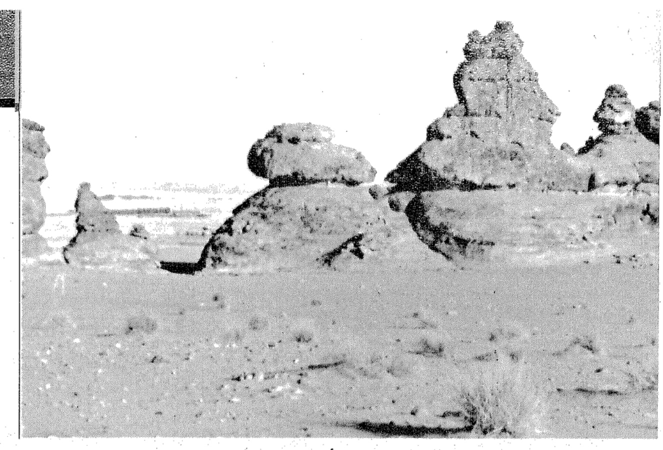
وهنالك بعض القرى الزراعية والتجمعات السكانية بالقرب من منطقة التقاء المرتفعات مع التكوينات الرملية . ومن أمثلة هذه القرى والتجمعات : النيصية ، الجثامية ، الخطة ، أم القلبان ، قنا ، الجفير ، وموقق (**شكل ٧**).

إقليم المرتفعات :

يتكون هذا الإقليم من صخور نارية قديمة ، هي جزء من الدرع العربي ومعظم هذه الصخور مكونة حجر الغرانيت الوردي اللون. ويغطي الإقليم الجزء ين الغربي والجنوبي من منطقة حائل . ويتميز إقليم المرتفعات بكثرة سلاسله الجبلية وجباله المنعزلة ، وتتخلل هذا الاقليم مجموعة من الأودية الهامة والسهول الفيضية وتنتشر في سهوله بطون وأودية كثير من المدن والقرى الزراعية ، ومن أهم هذه المرتفعات ما يلي :

* سلسة جبال سلمى .
* سلسلة جبال آجا .

وسوف نقوم بدراسة كل من هاتين السلسلتين بشيء من التفصيل .



(شكل ٣) جزء من جبل أم سلوان في جبة

سلسلة جبال سلمى :

تذكر بعض الأساطير أن هذه السلسلة سميت نسبة إلى فتاة كانت تقيم مع أهلها الذين كانوا يقيمون في تلك المنطقة أو يترددون عليها . كما تذكر أن سلسلة جبال آجا سميت باسم شاب كان يقيم في مكان ما من تلك السلسلة . تروى قصة حب عذرى نشأت بين كل من «أجا» و«سلمى» تناول الرواة خبرها ونسج الرواة والشعراء حولها قصصًا شتى .

وهناك أسطورة أخرى تقول إن أجا بن عبدالحي ، كان يحب فتاة من قبيلته حبًا عذريا ، ولما اكتشف أمر هذا الحب هرب المحبان على أمل الزواج ، ولكن سيوف القبيلة ادركتهما قبل إتمام مراسيم العرس . وعرفت السلسلة الجبلية التي لجأ إليها كل منهما باسمه فيما بعد .

وهناك من يذكر أن **عنترة بن شداد كان يقيم في سلمى في حين أن حاتم الطائي كان يقطن أجا** ، وفي ذات يوم اقتسما قطيعا من الابل ، وبعد أن عزل نصيب كل منهما على حدة بقيت ناقة وفصيلها نتيجة هذه القسمة ، قال عنترة : اختر يا حاتم ... إما أن تأخذ الفصيل وتترك لي الناقة ، وإما أن تأخذ الناقة وأنا آخذ

الفصيل . فكر حاتم مليا وغلب كرمه وعطفه على الفصيل أن يحرم من أمه ، وتنازل لعنترة عن نصيبه في الناقة وفصيلها .

ولربما يكون الاسم مشتقًا من الفعل (سلم) ، نظرًا لأن هذه السلسة تقع في وسط مكان منبسط إذا ما طورد به ظبي أو انسان أو خلافهما واحتمى في واحد من جبال السلسلة ، فانه يسلم من أذى المطاردة . والمطاردين.

وعلى كل حال ومهما يكن من أمر التسمية إلا أن الصور الجوية المأخوذة عنها مجموعة من الخرائط الطبوغرافية لمنطقة حائل توضح الشكل العام لهذه السلسلة على هيئة قبضة يد ومعصم تمتد لمسافة ٥٥ كم تقريبًا وترتفع بعض قممها إلى أكثر من ألف متر فوق سطح البحر . وتبدو هذه القبضة وقد مالت قليلاً في اتجاه الشمال الشرقي ، وتوضح تلك الصور كذلك معصم اليد هذه وقد تحلى ببعض الأودية التي يتجه بعضها إلى منطقة الجحفة وطابة شرقًا ، ووادي العش غربًا ، وتزين بعض أصابع اليد مناطق زراعية مثل : منطقة النعي ، أو فوهات بركانية. ومن أهم المناطق المنخفضة هنا تلك المنطقة الواقعة بين الشنان والنعي . ويصل عمق هذا المنخفض إلى أكثر من خمسين مترًا . ومما يذكر أن قبر عنترة موجود بالقرب من بلدة النعي .

ومن أهم المناطق الزراعية في سلسلة جبال سلمى وما جاورها منطقة الشنان الواقعة عند أقدام الجزء الشمالي الشرقي من السلسة ، وهناك مناطق زراعية أخرى مثل طابة ، وفيد ، والجب . وتوجد إلى الشرق من هذه السلسلة مجموعة من الجبال المنعزلة مثل : جبل أم اذن ، جبل الرتيق ، وجبل أم هروج ، ولقد كان درب زبيدة يعبر في الماضي هذه الجبال المنعزلة، حيث تستوى الأرض وتتوافر المياه والآبار.

ويوجد إلى الشمال الغربي من سلمى ، بعض المرتفعات التي تتخللها سهول شبه منبسطة وفياض وجبال منعزلة . ومن أهم هذه الجبال ، جبل فتق ، جبل الحفاظية ، جبل صابحة ، وجبل نوف . وتقع هذه الجبال في وسط المنطقة الفاصلة ما بين سلمى وأجا .

بالإضافة إلى ذلك ، فإن مجموعة من الحرات تقع إلى الشرق من سلسلة سلمى وأهمها ما يلي :

* حرة الرشيد .
* حرة عيضة .
* حرة الهتيمة .

ومما يجدر الإشارة إليه وجود بعض فوهات بركانية في حرة الهتيمة والمناطق المجاورة لها . ومما يلاحظ هنا أيضًا انتشار المناطق الزراعية على السفوح الشرقية لجبال سلمى والأماكن المجاورة لها .

سلسلة جبال أجـا :

تمتد هذه السلسلة في اتجاه شمال ـ جنوب لمسافة ٨٠كم تقريبًا ـ وتظهر هذه السلسلة في الصور الجوية على هيئة ثمرة كمثرى يشير عنقها إلى جهة الجنوب ، ويمكن أعتبار جبال حيفان والطريف ونادرة بمثابة الجزء الجنوبي من السلسلة ، وتشكل هذه الجبال الثلاثة فك كماشة يحيط بأحد الجبال المنعزلة في المنطقة يعرف باسم جبل جزع .

وتنحدر هذه السلسلة تدريجيًا باتجاه الغرب إلى أن تغيب تحت رمال النفود في حين أن انحدارها يكون شديدًا إذا ما اتجهنا نحو الشرق ، كما وترتفع أعلى قمتها إلى ما يزيد عن ألف وخمسمائة متر فوق سطح البحر ، ويجرى بمحاذاة الحافة الشرقية لسلسلة جبال أجا ، وادي الديرع والذي يطلق عليه أحيانًا اسم وادي حائل . ومن أهم الفروع الجنوبية لوادي الديرع وادي الشنان ، ووادي براجه ، وتزين هذا الوادي وفروعة مجموعة من المدن والقرى الزراعية والبساتين الجميلة مثل مدينة حائل (**شكل ٨**) ، البدائع ، قفار ، السويفلة ، الودي ، اللقيطة ، سديس ، نقبين ، القرنين ، قصر العشروات ، والجزعة .

وتتخلل هذه السلسلة مجموعة من الأودية يتجه بعضها إلى الشرق مثل: نقبين نشار ، السلف ، الودي ، كما أن بعضها يتجه إلى الشمال والتي من أهمها : وبيره ، مقمز الفرس ، والسفن . أما بالنسبة للأودية التي تجرى للغرب فأهمها ، توارن ، صيحان ، وقرى. ويعتقد بأن المجرى الأعلى لوادي توارن يضم قبر حاتم الطائي . ومن

المعروف أن غالبية الأودية التي تتجه للغرب ترفد وادي الديرع الذي بدوره يتجه إلى الشمال الشرقي حيث ينتهي إلى أرض منبسطة شمال غرب بقعاء بالقرب من صحراء النفود .

وفي هذه الأودية تنشط حركة الرعي وبخاصة في فصل الربيع وبداية فصل الصيف حيث تتوفر الأعشاب وتخضر الأشجار .

المناخ

يعم المناخ القاري منطقة حائل نظرًا لأسباب عدة أهمها البعد عن الحيطات المائية ويتميز هذا النوع من المناخ بارتفاع درجة حرارته أثناء فترة الصيف وانخفاضها أثناء وقت الشتاء ، كما أن الفارق الحراري أثناء اليوم الواحد كبير ، ولكن نظرًا لوقوع منطقة حائل في الجزء الشمالي من المملكة إذا ما قورنت بغيرها من المناطق الواقعة في هضبة نجد ، بالإضافة إلى ارتفاع هذه المنطقة ارتفاعًا ملموسًا ، عن مستوى سطح البحر ، فإننا نجد أن درجات الحرارة فيها صيفًا قليلاً ماتتعدى الأربعين درجة مئوية ، في حين أن تلك الدرجة كثيرًا ما تهبط إلى دون درجة التجمد ، وتسقط الأمطار عادة خلال فصل الشتاء كما أن سقوط البرد شيء مألوف . أما سقوط الثلج فهو نادر جدًا كما حدث في ربيع سنة ١٤٠٢ هـ (١٩٨٢ م) .

أصل تسمية حائل

لقد اختلف الباحثون في اصل تسمية «حائل» وإليك بعض المعاني والتفسيرات التي أعطوها لهذه التسمية :

* الحاجز أو الحاجب .
* الشيء المتحرك .
* الأنثى من مواليد الإبل ساعة ولادتها .
* الناقة التي توقفت عن الحمل لمدة سنة واحدة أو أكثر .
* الشيء المتغير اللون .

وهذه التعليلات أخذوها من المعاني المعجمية المختلفة للفظة (حائل) .

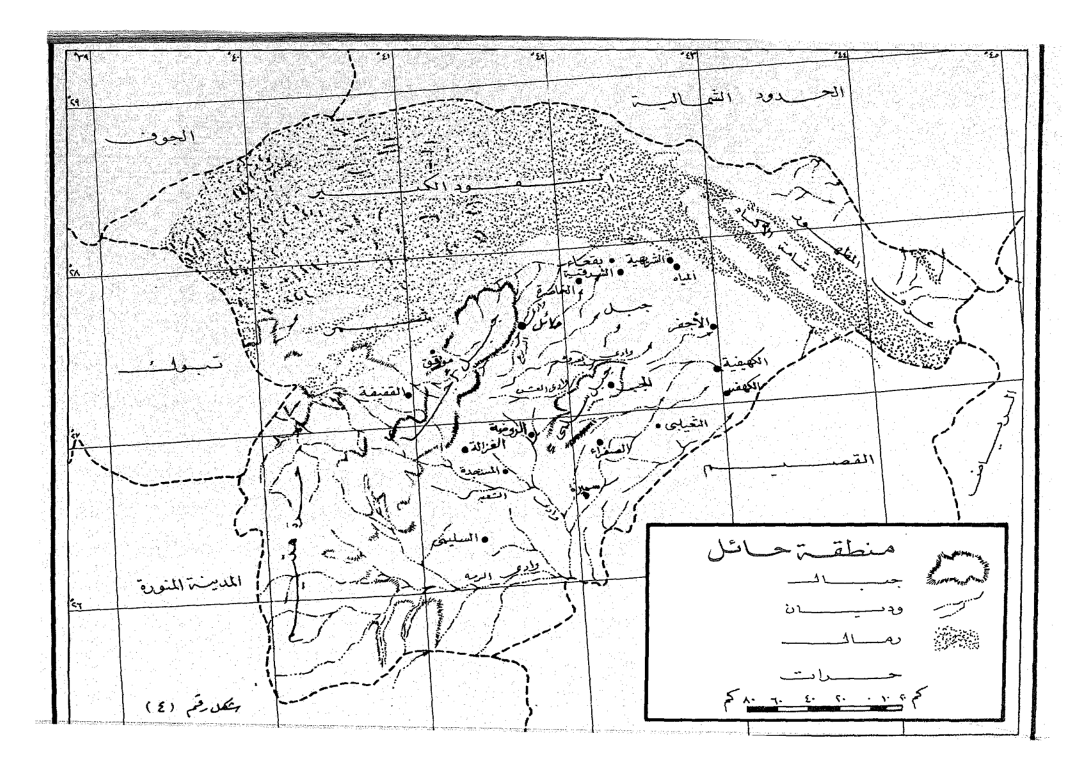
وبالرغم من عدم وجود دليل قاطع على عدم صحة أي من هذه التفسيرات وغيرها فانه من المحتمل أن التفسير الأول هو أقربها إلى الصحة، وهو أن «**حائل**» تعني الحاجز أو الحاجب . وعلى كل حال فإنه مهما يكن من أمر هذه التسمية ، إلا أنه في ظل الاعتبارات الجغرافية المختلفة يمكننا الأخذ بأسباب هذا الافتراض ، ومما يؤيد ذلك ما ذكر في مستهل هذا البحث أثناء الكلام عن تضاريس المنطقة ، لقد ذكرنا بأن الجزء الشمالي والشمالي الشرقي من منطقة حائل تغلب على طبيعة أرضه صفة الاستواء أما الأجزاء الباقية من المنطقة فهي تعج بالحواجز الطبيعية من سلاسل جبلية وحرات وجبال منعزلة وغيرها ، ناهيك عن صحراء النفود الكبير في الشمال وصحراء الدهناء في الشرق. ، لقد كانت تلك الحواجز بمثابة أسوار عظيمة حمت المنطقة ضد الغارات المحلية أو الاعتداءات الخارجية .

بالإضافة إلى ذلك فإن هناك احتمال أن يكون الاسم قد جاء إلى حيز الاستعمال نتيجة لكثرة الحواجز الطبيعية في المنطقة والتي تحول بين نظر الانسان ورؤيا ما وراء تلك الحواجز ، ومن المعروف أن الاختلافات الناجمة عن معرفة أصل اسم حائل راجع إلى أن التسمية جاءت منذ زمن بعيد وقبل فجر الاسلام بكثير ولم يذكر الاقدمون بشكل مباشر السبب الذي يكمن خلف تلك التسمية .

السكان

كان يسكن منطقة حائل في الماضي مجموعة من القبائل العربية أهمها طيئ ، بنو أسد ، بنو تميم ، عنزة ، وحرب ، وكانت قبيلة شمر من أهم افخاذ طيئ وقد عرفت منطقة حائل بعدة اسماء من أهمها : بلاد طيئ وجبل شمر ، ولا تزال بعض تلك القبائل تعيش في هذه المنطقة .

ولقد ذكرت سجلات مصلحة الاحصاءات العامة حديثًا في بياناتها التفصيلية التي جمعت سنة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤) أن مجموع سكان منطقة حائل هو (٢٦٥,٢١٦) نسمة ، منهم (١٣٠,٧٠٩) ذكور ، والباقي إناث ، كما أن نسبة غير السعوديين منهم وصلت إلى حوالي (٢٪) من عدد السكان . ويقيم في مدينة حائل والقرى التابعة لها حوالي (٦٠) ألف نسمة أي حوالي خمس سكان المنطقة . ويليها


الحدود الشمالية
الجوف
النفود الكبير
تبوك
القصيم
المدينة المنورة
جبل
الشرهية
بقعاء
الشرقية
المياه
الأجفر
حائل
الكهفة
الكهفة
الكهفس
الجبل
الروضة
الغزالة
المستجدة
الصفراء
التغيلى
السليمي
وادي الرمه
موقق
القفيفة
منطقة حائل
جبال
وديان
رمال
حرات
٨٠ ٦٠ ٤٠ ٢٠ ٠ ١٠ ٢٠ كم

شكل رقم (٤)

في عدد السكان امارة بقعاء (٢٩,٨١٨) نسمة ، وامارة موقق (٢٣,١٥٤) نسمة ، والسليمي (١٤,٦٨٦) نسمة . وتأتي بعد ذلك امارات الحليفة ، الحايط ، وسميرا ، وغيرها من الامارات .

وأكبر الجاليات العربية والإسلامية في المنطقة من حيث العدد هم من أبناء اليمن الشمالي (٣٠٢٩) نسمة ، مصر (٥٣٣) نسمة ، اليمن الجنوبي (٤١٠) نسمة . ويأتي بعد ذلك الأردنيون والفلسطينيون ثم جنسيات أخرى[١] .

والمهنة الرئيسية في المنطقة هي الزراعة ويزيد عدد العاملين فعلاً بها دون أفراد اسرهم عن (٤٥) ألف نسمة . أما عدد العاملين بالرعي فهو أقل من ذلك ، وأما بالنسبة لعدد البدو الرحل في المنطقة ، فإنه يزيد على (١٣٧) ألف نسمة ، أي ما يعادل حوالي ٥٠ ٪ من عدد السكان . وتصل الكثافة السكانية في منطقة حائل إلى (٢,٣) نسمة/كم^{٢} . ومما يلاحظ أن عدد السكان في ازدياد مستمر في المنطقة ويذكر أن عددهم وصل حاليًا إلى حوالي (٤٥٠) ألف نسمة .

بعض نواحي التطور الحالي في منطقة حائل ...

تشهد المنطقة فجر حركة تطور شاملة في المجالات كافةً ، ومن أهم الميادين التي شملتها هذه الحركة مايلي :

التعليم :

*** الطلاب :**

كان التعليم في الماضي محدودًا في هذه المنطقة ومقصورًا على تعليم القرآن الكريم والعلوم الدينية وأصول اللغة العربية ، ولقد أشرف على تعليم هذه الموضوعات نخبة من المشايخ ورجال الدين ، كما وأن التدريس كان يتم في بيوت الله ، وكان إقبال الدارسين على تلقي العلم في بداية الأمر محدودًا واختياريًا ، وضرب القادرون والراغبون في إرسال أبنائهم لتلقي العلم في تلك الأيام المثل الأعلى لغيرهم من أهالي المنطقة في دفع عجلة طلب العلم إلى الأمام .

ومن أهم المساجد التي كانت تقام بها حلقات الدراسة ما يلي :

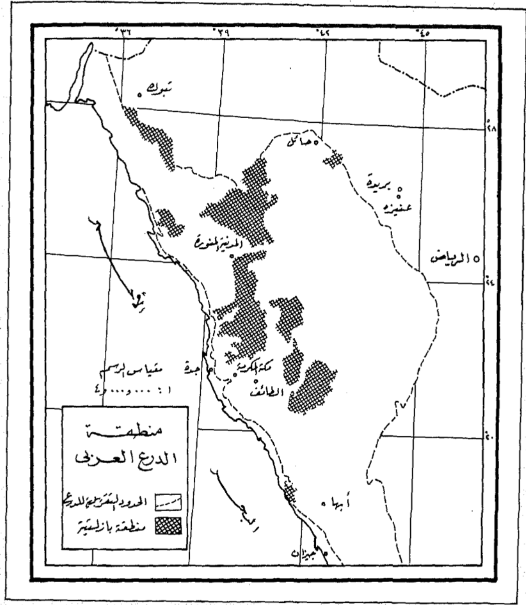
* مسجد الشيخ حمود الحسين الشغدلي الموجود في حارة لبده بمدينة حائل .
* مسجد الشيخ علي الشامي والمعروف حاليًا باسم مسجد عيسى .
* مسجد الشيخ صالح الزريقي .

بالإضافة إلى هذه المساجد ، كان هناك مشايخ يقومون بالتدريس في المنازل ومن أشهر الذين قاموا بالتدريس في منازلهم : الشيخ سليمان السكيت ، ولا يزال هذا المربي الفاضل يقيم في مدينة حائل ، وكانت مدرسة الشيخ سليمان من حيث نظامها ومناهجها الدراسية وإعطاء فترات استراحة بين الحصص وتحديد وقت كل حصة تشبه إلى حد كبير مدارسنا في الوقت الحاضر ، ومن أهم المواد التي كانت تدرس فيها بالإضافة إلى العلوم الدينية : الحساب ، اللغة العربية بفروعها ، العلوم ، والتربية البدنية .

وبأمر من جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود « طيب الله ثراه » أُنشئت أول مدرسة حكومية في مدينة حائل عام ١٣٥٦ هـ وعرفت باسم : المدرسة السعودية .

ثم أخذ عدد المدارس الابتدائية يزداد عامًا بعد عام في المنطقة ، وفي سنة ١٣٧٣ هـ افتتح معهد للمعلمين كان يقبل فيه الطلاب بعد تخرجهم من المدارس الابتدائية وبعد ذلك بعامين ، أي في سنة ١٣٧٥ هـ افتتحت أول مدرسة متوسطة في منطقة حائل ويوضح الجدول التالي أنواع وأعداد المدارس والطلاب في هذه المنطقة .

المرحلة	العدد	عدد الطلاب	ملاحظات
إبتدائية	١٩٣	١٣٣٠٦	
متوسطة	٢٩	٢٨٩٧	يضاف إليهم ٦٠٠ طالب دراسات مسائية
ثانوي	٥	٧٠٠	يضاف إليهم ١٨٠ طالب دراسات مسائية
مدارس تحفيظ القرآن	٢	١٩٠	
معهد معلمين ثانوي	١	٣٥٠	
مدارس محو الأمية	١٣٤	٣٢٧١	



(شكل ٥)

وبالنسبة لمباني المدارس ، فإن في منطقة حائل ٤٦ بناية حكومية حديثة من الأسمنت المسلح . ويضاف إلى هذا العدد ٦٢ وحدة من المباني الجاهزة ، أما بقية المباني فهي مستأجرة .

ونظرًا لأهمية الوسائل التعليمية والمختبرات للطلاب ، فقد زود كثير من المدارس بالمختبرات والأجهزة اللازمة ، وبلغ عدد المختبرات ٢٩ في المدارس المتوسطة وفي كل من المدرسة الثانوية ومعهد المعلمين مختبر واحد .

في مدينة حائل مبنى إدارة التعليم وبيت حديث للطلاب يضم (٨٠) سريرًا وهذا البيت مزود بكل الامكانات المطلوبة ، ويقوم باستقبال الطلاب والكشافة من جميع أنحاء المملكة الذين يقومون بزيارة المنطقة .

وهناك نشاطات غير صيفية متعددة تقام في مدارس المنطقة من أهمها :

— إجراء مسابقات بين المدارس في الصحافة المدرسية .
— تنظيم مسابقات في كتابة المقالات الاجتماعية من أجل تشجيع الطلاب على القراءة والبحث .
— إعداد رسائل دورية بواسطة التوجيه الاجتماعي تذاع على الطلاب بقصد توعيتهم سلوكيًا وعلميًا .
— تكريم المتفوقين من الطلاب في التحصيل العلمي وتقديم جوائز قيمة لهم .
— تنظيم إقامة بعض المعارض للتربية الاجتماعية والفنية .

الطالبـات :

لا شك أن تعليم الفتاة أحد دعائم المجتمع ، إن بنات اليوم هن أمهات المستقبل ، كما أن أي قدر من التعليم تحصل عليه الفتاه حاليًا هو خدمة لها ولاسرتها وللمجتمع كله ، ويلاحظ أن تعليم البنات في حائل أخذ حاليًا في الزيادة يومًا بعد يوم ،كما أن إقبال الطالبات على تلقي العلم يسير على قدم وساق بعكس ما كان عليه الماضي .

ولقد افتتحت أول مدرسة ابتدائية للبنات في حائل سنة ١٣٨١ هـ ، ولم يكن الاقبال على الالتحاق بتلك المدرسة مرضيًا ، وذلك لأن أولياء أمور بعضهن كانوا يعتقدون أن مجال عمل الفتاه يجب أن لا يتعدى المنزل ورعاية الاسرة ومساعدة الوالدين في الزراعة والرعي ، ولكنهم شعروا فيما بعد بأن تعليم الفتاه مهمة وطنية وأن مشاركة الفتاة في بناء مجتمع صالح أمر لا يمكن إغفاله أو التهاون فيه . وما هي إلا فترة محدودة وتمر ثم يطالب الأهالي أنفسهم بفتح مدارس لبناتهم في حاضرة المنطقة والقرى والهجر المختلفة . ومرت السنون وجاء عام ١٤٠٢ هـ لكي يصبح في منطقة حائل ٥٢ مدرسة ابتدائية ، منها ١٣ داخل المدينة ، و٢٧ موزعة في أرجاء المنطقة ، أضف إلى ذلك مدرستين متوسطتين في مدينة حائل وأربع متوسطات أخرى في

قرى : الروضة ، الحائط ، سميراء ، وفيد . ومدرسة ثانوية ومعهد للمعلمات في مدينة حائل .

وسينشأ في منطقة حائل أربع مدارس متوسطة أخرى ، ومدرسة ثانوية ثانية قبل نهاية العام الحالي ، بالإضافة إلى كلية متوسطة سيتم افتتاحها في العام المقبل .

وفي المنطقة ٣٨ مدرسة من مدارس محو الأمية لتعليم الكبيرات ، وأما بالنسبة لأعداد الطالبات في مختلف المراحل ، فهي كما يلي :

المرحلة	عدد المدارس	عدد الطالبات	ملاحظات
الإبتدائية	٤٠	٤٩٦٣	
المتوسطة	٦	١١١٠	
ثانوية	١		
معهد معلمات	١	٤٢٤	
محو الأمية	٣٨	٦٩٨	

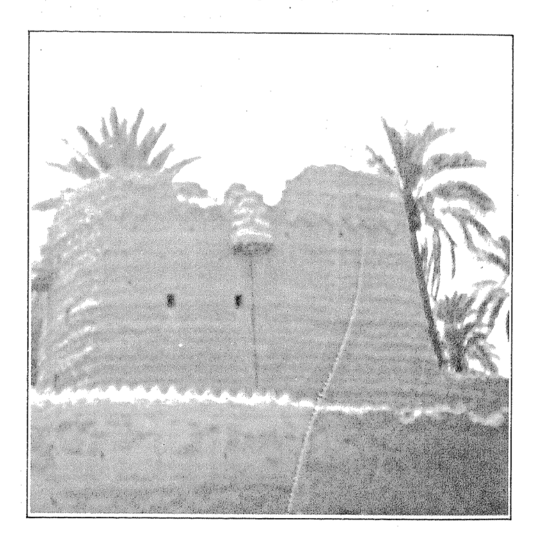
في مدينة حائل روضة للأطفال واحدة أهلية تعتمد على أحدث أساليب التربية الحديثة ، ويشرف على هذه الروضة مكتب الاشراف في حائل ، وتتلقى مساعدات مادية من الرئاسة العامة لتعليم البنات ، ويتم الإعداد حالياً لتنفيذ مشروعين لدور الحضانة ، ومن أهم أهداف مثل هذه الدور رعاية أطفال العاملات في مدارس الرئاسة في المدينة ، بالإضافة إلى ذلك فانه تقرر افتتاح روضة وحضانة أطفال حكومية كبيرة في المستقبل القريب بمشيئة الله .

ومن المعروف أنه يوجد حاليًا اكتفاء ذاتي في ١٣ مدرسة داخل مدينة حائل حيث يعمل بها ١٩٨ مدرسة سعودية . وتعين الرئاسة العامة لتعليم البنات بعض خريجات المرحلة الثانوية من السعوديات لكي يعملن في المدينة والقرى ، كما تقدم لهن بعض الحوافز المادية .



ظبي من النفوذ الكبير
(شكل ٦)

قلعة كنعان القائد في موقق (شكل ٧)



الصحـــة :

أقامت وزارة الصحة عددًا من المستوصفات في المنطقة منذ مدة طويلة ويبلغ عدد المستوصفات الموجودة فيها الآن ٣٥ مستوصفًا ، بالإضافة إلى ١٤ نقطة صحية . ولقد أنشأت تلك الوزارة أيضًا مستشفى طاقته خمسون سريرًا وذلك في عام ١٣٧٩ هـ ونتيجة للتزايد الطبيعي للسكان ، بالإضافة إلى قدوم بعض العاملين في القطاع العام أو الخاص للعمل في المنطقة ، مع مرور الزمن أصبح المستشفى يستوعب مائة وثمانين سريراً ، وتجري حالياً إضافات كثيرة لهذا المستشفى لكي ترتفع من أهميته وتزيد فوائده وتسهل أمور تشخيص وعلاج الامراض المختلفة وإجراء العمليات والاسعافات اللازمة في المنطقة عامة والمدينة خاصة .

في مدينة حائل أكثر من ستين طبيبًا من منسوبي وزارة الصحة ، وهم يشملون غالبية التخصصات ، بالإضافة إلى ذلك هنالك بعض الاطباء العاملين في قطاعات أخرى مثل : البلدية ، المستوصفات الخاصة ، الحرس الوطني ، رئاسة تعليم البنات ، والصحة المدرسية .

ولقد افتتح في بداية العام الحالي مستشفى حائل التخصصي ويضم العديد من الاقسام الصحية والوسائل الترفيهية ومواقف للسيارات ، ولقد حول المستشفى القديم إلى عيادات للأطفال وقسم للولادة . هذا ولا تزال وزارة الصحة تواصل جهودها في نشر المستوصفات وبث روح الوعي الصحي بين المواطنين .

والجدير بالذكر أنه سيفتح معهد صحي في مدينة حائل في العام المقبل .

المواصلات :

ومما يلفت النظر في منطقة حائل وجود كثير من الطرق المهدة وقليل من الطرق المرصوفة ، ولعل هذه الظاهرة كانت تعاني منها غالبية المناطق الصحراوية فيما مضى ويبدو أنه نظرًا لوقوع حائل شمالي المحور الواصل بين ميناء الدمام في الشرق وميناء جدة في الغرب عبر مدينة الرياض ، فإن مسألة ربطها بطرق مرصوفة مع أجزاء المملكة قد جاء متأخرًا بالإضافة إلى ذلك فإن عملية شق الطرق عبر جبال نارية شديدة الصلابة أمر ليس باليسير .

ولكن ما إن جاء عام ١٣٩٣ هـ حتى احتفلت حائل بمناسبة سعيدة ، هي إيصالها بالرياض وببقية أرجاء المملكة عبر طريق مرصوف يصلها بمنطقة القصيم .

ونظرًا للموقع الجغرافي الهام للمنطقة ومما تتمتع به من كثافة سكانية وبناء على ما تهدف إليه خطة التنمية ضمن تطوير كل أجزاء المملكة ، فلقد رأت وزارة المواصلات ضرورة الاسراع بربطها ببقية المناطق بعدة طرق .

ولقد بدأت وزارة المواصلات في تنفيذ طريق : حائل ـــ الحناكية ، وذلك في عام ١٣٩٥ هـ ، ويبلغ طول هذا الطريق أكثر من ٣٠٠ كم ، وهو يربط منطقة حائل بالمدينة المنورة مباشرة وكذلك بكل من القصيم ، الرياض ، والمنطقة الشرقية ، ويبقى بعد ذلك وصل منطقة حائل بمنطقة الجوف عبر النفود الكبير كما هو مخطط له .

ولقد كانت أهم وسيلة للمواصلات السريعة بين حائل وغيرها من كبريات المدن هي : الطائرات ، وفي الماضي كان في جنوبي حائل مطار ترابي تهبط به طائرات صغيرة متجهة إلى الرياض أو جدة . وكان بالمطار عدد محدود من الموظفين والآليات وبراميل وقود للطائرات . **وأخيرًا أقيم مطار حديث له مدرجات مرصوفة ومبان حديثة في جنوبي مدينة حائل يستقبل الطائرات الصغيرة والكبيرة على حد سواء . وقد افتتح في شهر شعبان سنة ١٤٠٠ هـ .**

البلديـة :

جاءت بلدية حائل إلى حيز الوجود عام ١٣٨٢ هـ .

وتقوم بلدية حائل بكل أعمال تجميل شوارع المدينة ، وبناء الارصفة الخاصة بالمشاة وزراعة الأشجار في الممرات وعلى جوانب الطرق والمتنزهات ، ومن المعروف أن البلدية قد أنشأت أربعة «متنزهات في مدينة» حائل ، ولقد قطعت البلدية شوطًا كبيرًا في كل نشاطاتها ومن المتوقع لها المزيد من النجاح في نشاطات وانجازات آتية كزيادة مواقف السيارات وعمل المزيد من المتنزهات.

ولقد قامت بلدية حائل بانجازات كثيرة من أهمها :

إقامة غابة سياحية ، تشجير شوارع المدينة ، إنشاء مبنى للبلدية وكراج

ومستودعات ، تسوير المقابر ، انشاء حدائق عامة ، حفر آبار ارتوازية ، بناء مسلخ جديد ، إنشاء مبنى سوق اللحوم ، بناء سوق مركزي للخضروات والفواكه ، وعمل محطة السفريات ، البداية في إنشاء برج ومركز تجاري في وسط المدينة .

أهم المباني والمشاريع الحكومية

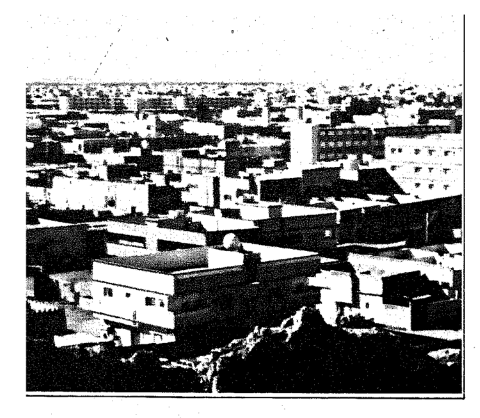
* : ولقد فرغ العمل منها مؤخرًا ، وتضم هذه المدينة غالبية المتطلبات والأدوات والمنشآت الرياضية وهي تتسع لما يقرب من خمسة عشر ألف متفرج في وقت واحد . وهذا المشروع من أهم المشروعات التي قامت بها الرئاسة العامة لرعاية الشباب وأضخمها .

* **مبنى الإمارة** : في الحقيقة يمكن اعتبار هذا المشروع وحدة متكاملة لأن المباني والمنشآت الحكومية يكمل بعضها البعض الآخر ، كما أن الهدف من اقامتها هو خدمة المواطن في شتى المجالات ، وأهم هذه المنشآت ، مبنى الامارة الجديد الشامخ البنيان الذي بني بطريقة عملية من حيث طراز البناء والموقع ونوعية المواد الخام وعدد غرفه وصالاته .

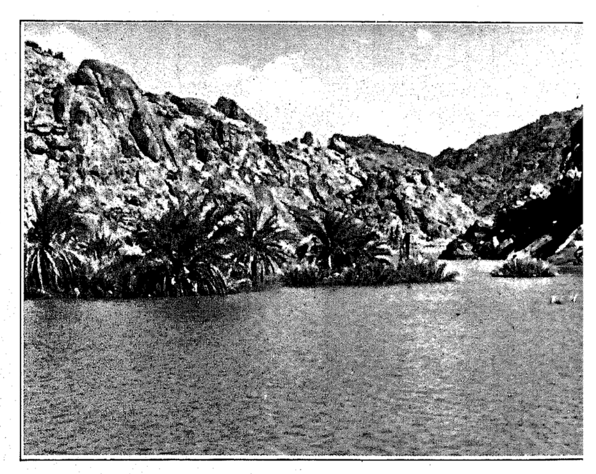
والتكييف في هذا الصرح مركزي . وأما تكاليف المشروع فإنها وصلت إلى حوالي ٨٠ مليون ريال .

وفي حائل مبان حكومية عديدة منها ، ما تم انجازه ، ومنها ما هو تحت الإنشاء ، ومن أهمها : مبنى إدارة التعليم ، الشرطة ، البريد ، البرق والهاتف ، الخطوط السعودية والدفاع المدني .

* **مشروع مياه الشرب** : هناك على يمين الطريق المؤدي إلى بقعاء وعلى مسافة حوالى أربعين كيلو مترًا شمال شرقي مدينة حائل ، أقامت وزارة الزراعة والمياه مشروع مياه لتزويد مدينة حائل بمياه للشرب والاستعمال المنزلي .



منظر من مدينة حائل كما يبدو
من قلعة أعيرف



(بعض مياه السيول وقد تجمعت خلف سد عقدة في جبل أجا)

ويعتبر هذا المشروع الأول من نوعه في المنطقة ، ولقد تم حفر ثلاثة آبار تجريبية وأقيمت بعض الصهاريج والمنشآت الأولية في الموقع ، وبدأت أعمال مد الأنابيب وإقامة وحدات خاصة بضخ المياه ، كما أن مدينة حائل سوف تشرب أيضًا من مياه التحلية في المستقبل بإذن الله .

الزراعــة :

يرتكز اقتصاد منطقة حائل على قاعدة ثلاثية تتمثل أهم أركانها في الزراعة والرعي والإنفاق الحكومي ، ولقد اهتمت وزارة الزراعة بهذه المنطقة حيث أنشأت مديرية الشئون الزراعية في حائل ، وتقوم هذه المديرية بعمل المزارع التجريبية وإرسال المرشدين إلى المزارع المختلفة في المنطقة لمساعدة المزارعين وتوجيههم ، ولكن يبدو أن طاقة هذه المديرية محدودة نظرًا لاتساع المنطقة من جهة وتعدد الحيازات الزراعية من جهة أخرى . هذا بالإضافة إلى صعوبة المواصلات وعدم توافر الطرق المرصوفة ، ومن الملاحظ في هذه المنطقة أن الأراضي الزراعية تكون في بطون وعلى جوانب الأودية وبالقرب من أقدام الجبال حيث التربة الغرينية والمياه ، ولقد قامت في المنطقة بعض المزارع بالقرب من حافة النفوذ الجنوبية ، مثل مزارع الخطة . ونظرًا لقرب الطبقة الصخرية الصماء غير المسامية إلى سطح الأرض في الخطة وبعض الاماكن الأخرى فإن ماء الري هنا لا يتسرب بسرعة إلى باطن الأرض . وهذا يعني أن الفائدة تكون كبيرة ومضمونة .

ومن الملاحظ أن التوسع الزراعي في حائل هو في طريقه إلى شمال شرقي المنطقة وفي هذا الجزء تتوافر الاراضي الزراعية البكر والمياه الجوفية ، كما تكثر المراعي ويقع هذا الجزء من المنطقة على حواف تكوينات ساق حيث المياه الجوفية الوفيرة ، ومن المعروف أن أقرب المناطق الرعوية إلى المزارع أمر مفيد جدًا لأن الزراعة والرعي وبخاصة في منطقة حائل توأمان، وتقوم وزارة الزراعة والمياه بتشجيع المزارعين في استغلال الأراضي الزراعية في هذه المنطقة عن طريق دفع جزء من قيمة الآلات والأدوات الزراعية ، بالإضافة إلى ذلك فإن الدولة تعطي مساعدات لإنتاج القمح وتوفر الأسمدة الكيماوية ومواد رش الحشرات الضارة للمزارعين .

ونظرًا لحلول فترات جفاف في المنطقة والرغبة في المحافظة على الثروة الحيوانية وبخاصة في البادية ، فإن الدولة تقوم بصرف أعلاف للماشية بأثمان زهيدة .

وبالرغم من هذه التشجيعات القيمة ، إلا أن هناك خطوات إيجابية أخرى يجب اتخاذها من قبل المزارعين والرعاة من جهة ومن قبل وزارة الزراعة من جهة أخرى .

ومن أهم الحاصلات الزراعية الحبوب وأشجار الفاكهة : كالرمان ، والعنب ، والخضروات . وبما أن القاعدة الاقتصادية لمنطقة حائل ترتكز على الزراعة والرعي بالإضافة إلى الانفاق الحكومي فإن من الواجب زيادة الاهتمام بهاتين الحرفتين لكي يتسنى لهذه المنطقة الاستفادة من ثرواتها الطبيعية .

وتقوم مديرية الزراعة والمياه بمنطقة حائل بخدمات جليلة في هذه المنطقة ، ويمكن تلخيص هذه الخدمات تحت العناوين التالية :

* **خدمات الإرشاد الزراعي** : تتلخص هذه الخدمات في تطوير الزراعة وتثقيف المزارعين وتعليمهم الخبرات الزراعية الحديثة والعمل على حل مشاكلهم التي يمكن أن تعوق عملهم وتؤثر على إنتاجهم .

الخدمات الوقائية : يقوم جهاز الوقاية بالمديرية بزيارة المزارعين في مزارعهم والاستفسار منهم عن المزروعات المصابة ومساعدتهم في أعمال وقاية مزروعاتهم من الآفات والحشرات الضارة .

* **المزرعة النموذجية** : كانت للمديرية مزرعة نموذجية في جنوبي حائل ، ونظرًا لانخفاض منسوب المياه الباطنية أسست مزرعة جديدة في شمال تلك المدينة . وتتلخص أهداف المزرعة في :

* نشر الوعي الزراعي بين المزارعين ، توفير الشتلات والفسائل لهم ، إقامة البيوت الزجاجية والبلاستيكية لتمكين المزارعين من مشاهدتها والاقتناع من جدواها ، تدريب المزارعين على المتطلبات المختلفة للزراعة وتعويدهم الاعتماد على أنفسهم ورفع مستوى الزراعة في المنطقة .

* نشاط الخدمات البيطرية بالمديرية :

نظرًا لاتساع منطقة حائل ووفرة مراعيها وبخاصة خلال السنوات المطيرة ، فان تربية الأغنام والماشية والإبل قد جذبت أعدادًا كبيرة من سكان البادية للعيش بهذه المنطقة ولذلك فإنه كان من الواجب على وزارة الزراعة والمياه بذل جهد كبير من أجل الحفاظ على الثروة الحيوانية في مثل هذه المناطق .

والخدمات البيطرية هي أهم النشاطات التي تقوم بها مديرية الزراعة والمياه في منطقة حائل . ولا تقتصر هذه الخدمات على علاج حالات الاصابة بالمرض أو الوقاية ضد الاصابة فقط ، ولكنها تتعدى ذلك إلى نشر الوعي الصحي والإرشاد البيطري وتعليم مربي الماشية الطرق الفنية الحديثة في تربية ماشيتهم .

هذا وتقوم الخدمات البيطرية بخدمة مزارع الدواجن المنتشرة في المنطقة عن طريق الزيارات اليومية وتقديم النصائح الضرورية ومعالجة الأمراض العامة والوبائية والتحصين الدوري ضد الأمراض الفتاكة بالدواجن من أجل المحافظة عليها والاستفادة من إنتاجها . وقد لوحظ مدي فعالية الخدمات البيطرية في زيادة الإنتاج الحيواني كمًّا ونوعا في الأسواق المحلية . وهناك خدمات أخرى من أهمها خدمات إعانة الحبوب والأعلاف والمواشي، خدمات إكثار زراعة النخيل، وخدمات مشروع إكثار زراعة القمح .

وبالإضافة إلى ما تقدم ، فإن المديرية تقوم بتوزيع الأراضي الزراعية على المزارعين . وخلاصة القول فإنه لابد من أن نشيد هنا بما يقوم به كل من الوحدة الزراعية والبنك الزراعي في تنمية الإنتاج الزراعي والحيواني وتحسين مستواه في كل أرجاء منطقة حائل .

وحدة الدفاع المدني في حائل :

نظرًا لقيام وتوسيع المدن وزيادة حركة الانشاء والتعمير ، شعرت الدولة بضرورة إنشاء وحدة للدفاع المدني في حائل .

وتتلخص وظيفة هذه الوحدة في مكافحة الأخطار الناجمة عن الكوارث الطبيعية مثل الأمطار الغزيرة ، أو المصائب البشرية كالنيران والحرائق ، ولقد باشر

أفراد هذه الوحدة عملهم سنة ١٣٨٠ هـ في نطاق مدينة حائل فقط آنذاك، ثم تطورت هذه الوحدة من حيث معداتها وكمية ونوعية العاملين بها بخطى سريعة بحيث يمكنها الآن العمل على مستوى المنطقة الإدارية ككل.

ولا تنحصر مهمة الدفاع المدني في مكافحة الكوارث فقط، ولكنها تعمل على منع الحوادث قبل وقوعها، ولقد أوجدت في كل إدارة ومركز شعبة للسلامة والأمن الصناعي وتقوم الشعبة عادة بدور وقائي للمراقبة والتأكد من الأمور الفنية اللازمة لسلامة المؤسسات الصناعية في المنطقة.

مرور حائل:

في منطقة حائل أكثر من ٩٠ ألف سيارة، وهذا يعني وجود بعض الحوادث هنا وهناك داخل هذه المنطقة، وتتعاون بلدية حائل مع إدارة المرور في تجهيز اشارات المرور ويوجد في مدينة حائل اشارات اتوماتيكية.

وتحاول إدارة المرور في حائل التعاون مع الإدارات المختلفة في نشر الوعي بين الناس من أجل الحد من الحوادث المرورية المختلفة، ويوجد في مدينة حائل مدرسة لتعليم القيادة.

رعاية الشباب:

لقد اهتمت حكومة جلالة الملك بشباب هذه الأمة اهتمامًا ملموسًا في كل الميادين إيمانًا منها بأن الشباب هم عماد الأمة وحماة الديار والدين، ولقد بذلت رعاية الشباب في منطقة حائل جهدًا كبيرًا من أجل رفع مستوى شبابها رياضيًا وثقافيًا واجتماعيًا. ويعتبر المركز الرياضي أهم منشآت مكتب رعاية الشباب. وعن طريق هذا المكتب تقام المسابقات الرياضية والانشطة الثقافية والاجتماعية، ولقد قام المكتب خلال العام الماضي بدعوة ٢٨ من رجالات الأدب والفن والفكر، جاءوا من خارج المنطقة لإلقاء المحاضرات والاشتراك في ندوات، وبالمنطقة ٦ أندية هي: الطائي، الجبلين، الغوطة، اللواء، جبة، والحائط وفيد والسمرة. وتقوم هذه الأندية بنشاطات ملموسة في عالم الرياضة والأدب والتربية.

البرق والبريـد والهاتـف :

تتصل حائل بجميع أرجاء المملكة وكثير من دول العالم الخارجي سلكيًا ولا سلكيًا وفي هذه المنطقة حوالي عشرة آلاف خط هاتف ، بها حوالي ٥٠ هاتفًا عامًا (هاتف عملة) . ويجرى حاليًا توسيع الخدمة الهاتفية .. وهذه التوسعة تتضمن خمسة آلاف خط جديد ستكون قيد الاستعمال — بإذن الله — خلال النصف الثاني من عام ١٤٠٢ هـ ، وفي المنطقة كذلك ثلاث (كبائن) للمكالمات الخارجية ، وأما عدد المشتركين في الصفر الدولي فإنه يصل حوالى ٥٠ شخصًا .

أن من أهم مايميز المشتركين هنا تعاونهم الوثيق مع إدارة الهاتف ، ولقد انعكست آثار هذا التعاون بصورة إيجابية على نوعية الخدمات التي تقدمها إدارة الهاتف للجمهور . أما عن العاملين في هذه الإدارة من إداريين وفنيين — فإنهم جميعًا إما من أهالي حائل أو من أجزاء أخرى من المملكة .

التليفزيون والإذاعة :

في منطقة حائل محطة تقوية تليفزيونية بالإضافة إلى محطة تقوية إذاعية ولقد ساعد ذلك أهالي المنطقة على الاستفادة من البرامج الاذاعية والتليفزيونية.

المناطق السيـاحيـة :

نظرًا لوجود تباين في تضاريس المنطقة بالإضافة إلى وجود مواقع أثرية متعددة ، فإن كثيرًا من المناطق يمكن الاستفادة منها في النواحي السياحية ، ومن أشهر هذه المناطق : النعي ، فيد ، الخطة ، عقدة ، توارن ، الكشرية ، جبة ، تربة ، والحائط الشمالي ، وسميراء.



الخاتمـة :

تتمتع منطقة حائل بموقع جغرافي هام ، كما أنها تضم بين جنباتها عدة أقاليم تضاريسية مختلفة وثروات طبيعية متعددة ، ولقد أدى ذلك إلى قدم استيطانها من قبل عدة قبائل عربية منذ فجر التاريخ ، بالإضافة إلى ذلك فإن الاحوال المناخية

السائدة في تلك المنطقة قد شجعت غالبية تلك القبائل على الاستقرار بها .

ويعتمد اقتصاد منطقة حائل على الانفاق الحكومي والزراعة والرعي. ولقد دأبت الحكومة السعودية، وبخاصة في الآونة الأخيرة على تطوير كل أسباب الحياة والنشاطات المختلفة في شتى المجالات، مثل التعليم والصحة والزراعة والمواصلات، أضف إلى ذلك أن بلدية حائل والمجتمعات البلدية في المنطقة تقوم بدور كبير في تقديم الخدمات المختلفة للمواطنين هناك.

المقابلات الشخصيّة والمراجع

(أ) المقابلات الشخصية

* إبراهيم عبدالرحمن البليهي .
* تركي خليف العنزي .
* حمـد الجاسر.
* حمود الحسين الجراد .
* عبدالرحمن بن صالح الموسى .
* عبدالكريم ناصر الخياط .
* محمد إبراهيم الراجحي .
* سليمان حمد السكيت .
* صالح علي الطويرب .
* أحمد حمد الفقيه .
* سليمان محمد القريشي .

(ب) المراجـع

— **بلنت** ، ليدى آن ، **رحلة إلى بلاد نجد** ، ترجمة محمد أنعم غالب (الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٩٦٧ م) .

— **ابن بشير**، عثمان ، **عنوان المجد في تاريخ نجد** ، تحقيق عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ ، الطبعة الثانية (الرياض : وزارة المعارف ، ١٩٧١ م) .

— **ابن خميس** ، عبدالله ، **المجاز بين اليمامة والحجاز** ، (الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٩٧٠) .

— **ابن عيسى** ، إبراهيم بن صالح ، **تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ووفيات بعض الأعيان وانسابهم وبناء بعض البلدان من ٧٠٠ هـ — ١٣٤٠ هـ)** (الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٩٦٦) .

ـ **الجاسر** ، حمد ، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ـ شمال المملكة : امارات حائل والجوف وتبوك وعرعر والقريات** (الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٩٧٧ م) .

ـ **الشريف** ، عبدالرحمن صادق ، **جغرافية المملكة العربية السعودية جـ ١** (الرياض : دار المريخ للنشر ، ١٩٧٧ م) .

ـ **الشويعر** ، محمد سعد ، «**حائل ... مدينة وتاريخ**» محاضرة مطبوعة (حائل : الرئاسة العامة لرعاية الشباب ، المكتب الرئيسي ، ١٩٧٩ م) .

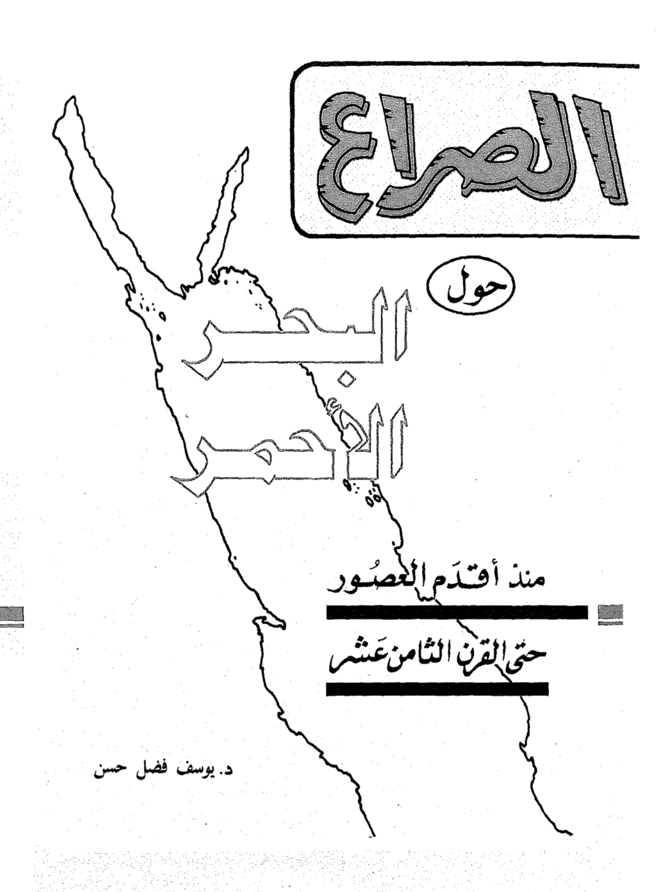
ـ **الهمداني** ، الحسن بن أحمد بن يعقوب ، **صفة جزيرة العرب** ، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي ، أشرف على طبعه حمد الجاسر (الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٩٧٢ م) .

*** هوامش ***

(١) التعداد العام للسكان ، البيانات التفصيلية لمنطقتي القصيم وحائل (الرياض : مصلحة الاحصاءات العامة ، وزارة المالية والاقتصاد الوطني ، المملكة العربية السعودية ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م).

أريد رجالا يعملون بصدق وعلم واخلاص، حتى اذا أشكل علي أمر من الأمور، رجعت اليهم في حله، وعملت بمشورتهم فتكون ذمتي سالمة وتكون المسئولية عليهم وأريد الصراحة في القول..

«عبد العزيز آل سعود»


الصراع
حول
البحر
الأحمر
منذ أقدم العصور
حتى القرن الثامن عشر
د. يوسف فضل حسن

منذ فتح قناة السويس في سنة ١٨٦٩ زادت أهمية البحر الأحمر كمعبر دولي يتوسط بلاد الشرق الأوسط ذات المضمون الاستراتيجي العظيم في حلبة التنافس بين الدول العظمى. وخلال العقد الأخير كثر الحديث عن «أمن البحر الأحمر»، ورددت كثير من الدوائر العربية شعار أن «البحر الأحمر عربي». وفي نفس الوقت تفاقمت حدة التنافس بين الدول العظمى على كسب ود البلاد المطلة عليه والسعي للسيطرة عليها. وأخذ هذا التنافس أو الصراع مظاهر مختلفة، منها الثقافي والأيديولوجي والاقتصادي والعسكري. وحقيقة الأمر أن أهمية البحر الأحمر والصراع المحتدم عليه ليست جديدة بل ترجع إلى عشرات القرون.

بدأت أهمية البحر الأحمر حين استغله قدماء المصريين لبلوغ بلاد البونت (أو الصومال) لجلب العطور والبخور والأخشاب منذ عشرين قرناً قبل ميلاد المسيح، ثم اخترقه الفراعنة جنوباً حتى بلغوا بلاد الهند بقصد التجارة في العطور والتوابل وغيرها من منتوجات الشرق في الألف سنة الأولى قبل الميلاد. وأصبحت الاستفادة من البحر الأحمر في نقل شتى أنواع التجارة من اليمن، والهند وشرقي أفريقيا، والتي تشق طريقها حتى حوض البحر الأبيض المتوسط ثم أوربا الغربية، السمة الغالبة على مناشطه.

ومع أن مصر قد نجحت في بسط نفوذها السياسي والتجاري على أجزاء كبيرة من سواحل البحر الأحمر لفترات طويلة، إلا أن هذا المعبر الهام كان مسرحاً لصراعات حادة بين الممالك المطلة عليه من جهة، وبين القوى الأوربية الوافدة كالبطالمة والرومان الذين سعوا لبسط نفوذهم عليه والتحكم في التجارة التي تنقل عبره منذ عهود مبكرة. ومنذ قيام الخلافة الإسلامية ظل المسلمون يسيطرون على هذا الطريق البحري الهام سيطرة تامة امتدت حتى المحيط الهندي، ويحتكرون ما يحمل عليه من تجارة الشرق التي تأخذ طريقها إلى أوربا محققين من ذلك أرباحاً كبيرة. ومنذ انتهاء الحروب الصليبية أخذت أوروبا تسعى لكسر هذا الاحتكار الإسلامي، وإضعاف الدول الإسلامية، وقد تهيأ لها ذلك على يد البرتغاليين الذين دخلوا في صراع طويل مع المماليك حكام مصر، ثم مع الدولة العثمانية التي آلت إليها السيادة على الممتلكات المملوكية.

عرف هذا البحر بأسماء متعددة كالبحر الفرعوني، والبحر الحبشي، وبحر القلزم وأخيراً البحر الأحمر. والإسمان الأولان يشيران إلى أسماء أمم غلبت أجزاء منه أو كله، ويشير الإسم الثالث إلى ميناء، بينما تصف كلمة الأحمر لون مائه.

وقد اشتهر البحر الأحمر منذ زمن بعيد بصعوبة الملاحة لكثرة الصخور والشعب المرجانية التي تعترض مجراه وما يهب عليه من رياح وأعاصير، وراجت بعض الأساطير عن وجود صخور من المغناطيس تتسبب في تحطيم السفن المثبتة بمسامير من الحديد. وقد عرفت هذه الأسطورة في العالم القديم. ولعل أول من أشار إليها هو الكاتب الهندي مهوجا. وأبان بروكويوس خطل هذه الأسطورة ذاكراً أن سفن البطالمة والرومان المثبتة بالحديد كانت تمخر عباب البحر الأحمر دون أن يصيبها أي مكروه. وظلت هذه الأسطورة تثير الرعب في نفوس الملاحين حتى عهود متأخرة، ولذا كانت السفن تتجنب الإبحار فيه ليلاً. وعزا القزويني ذلك إلى «**خوف الملاحين من جبال المغناطيس**». وحتى يتجنبوا هذا الخطر فإنهم يخيطون السفن عند صنعها بنوع خاص من الحبال المتينة. ويصفها الإدريسي بقوله «**ومراكب هذا البحر كلها مؤلفة بالدسر ومخروزة بحبال الليف مجلفطة بدقيق اللبان ودهن كلاب البحر**» ويصف البحر بقوله «والمسافرين في هذا البحر يأوون منه في كل ليلة إلى مواضع يسكنون بها ويلجأون إليها خوفاً من معاطبه، وينزلون بها ليلاً ويقلعون عنها نهاراً. وهو بحر مظلم، كريه الروائح، وحش الجزائر لا خير في ظاهره ولا في باطنه وليس كبحر الهند والصين الذي في بطنه اللؤلؤ النفيس، وفي جباله الجواهر وفي مدنه أصناف الطيب وفي سواحله محلات الملوك ومدنها».

ويؤكد وصف **الإدريسي** هذا حقيقة هامة وهي أن الطبيعة القاحلة لمعظم سواحل البحر الأحمر لم تساعد على إنتاج صادرات ذات قيمة تجارية عدا بلاد اليمن كما أن عائد ثروتها الطبيعية كان قليلاً في ذلك الوقت، فإذا ما بعدنا من الساحل نجد أن منطقة الظهير، وبخاصة في الساحل الإفريقي، كانت تمد الموانىء القليلة، التي نشأت في ساحل البحر الأحمر بشتى المنتوجات الزراعية والمعدنية والتي غالباً ما تستغل في التجارة المحلية، إلا أن ثراء المرافىء الرئيسية مثل عدن وجدة وعيذاب والقلزم يرجع إلى اعتمادها على التجارة الهندية. ولعل هذا العامل الجغرافي يفسر قلة المالك التي ارتبط تاريخها بالبحر الأحمر باستثناء مصر واليمن اللتين لعبتا دوراً هاماً في

تجارة التوابل والعطور. وفي هذا السياق يمكن ذكر الحبشة التي ارتبط تاريخها إلى حد ما بالبحر الأحمر.

وكان موقع مصر الجغرافي الممتاز على سواحل البحرين الأحمر والأبيض المتوسط. وما نشأ على أرضها من حكومات قوية سبباً في اهتمامها بالبحر الأحمر وارتباط تاريخها التجاري والحربي بتاريخه فترات طويلة. ففي عهد الملك رمسيس الثاني استولى الأسطول المصري على أجزاء كبيرة من سواحل البحر الأحمر واشتبك مع السفن الهندية التي كانت تتحرش بالسواحل المصرية. وفي عهد الملكة حتشبسوت بلغت الأساطيل التجارية بلاد البونت. ومنذ ذلك التاريخ صارت السفن المصرية تمخر عباب البحر الأحمر تحمل شتى أنواع المنتوجات الإفريقية كالعطور والعاج والأبنوس. ولتسهيل مهمة السفن التجارية شقت قناة في وادي الطلمات لتربط بين النيل والبحر الأحمر وقد أعيد حفرها مرات. وكانت السفن الحربية تحرس الأساطيل التجارية في رحلاتها.

وبعد الغزو الإفريقي لمصر سارت دولة البطالمة على نهج سياسة الفراعنة في البحر الأحمر، فاهتمت برعاية الأساطيل التجارية التي كانت تمثل مورداً اقتصادياً هاماً. وكانت السفن المصرية تبحر حتى عدن وربما جاوزتها إلى الهند. ولم تقف جهود البطالمة على المناشط التجارية وتوسيع ممتلكات الدولة، بل اهتموا بجمع معلومات دقيقة عن سواحل البحر الأحمر وأجزاء من المحيط الهندي. وكان ما جمعوه من حقائق عن السواحل وسكانها وموارد ثروتها يمثل ثروة علمية عظيمة ساعدتهم على السيطرة على البحر الأحمر وأفادتهم.

وتم إنشاء موانىء جديدة مثل برنيس، وليوكوس ليمون وأديوليس في الساحل الغربي للبحر الأحمر، جنوب مصوع وأرسينوي عند بوغاز باب المندب. وقد ساعدت كل هذه المدن في تنشيط التجارة. وربما كان اهتمام البطالمة بالكشف الجغرافي امتداداً طبيعياً لعمليات الاستكشاف التي ابتدرها الفراعنة. ومن أشهر هذه الرحلات البعثة التي أرسلها ناخو أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين لاكتشاف السواحل الإفريقية. فأبحرت البعثة من مدينة القلزم وعادت عن طريق جبل طارق سنة ٦١٦ ق.م.

ولم تتحقق هذه الزعامة البحرية دون صراع شديد مع دولة سبأ اليمنية (**٧٥٠ق.م/ ١١٥ق.م**) التي كانت تسيطر على اليمن وتتحكم في مدخل البحر الأحمر الجنوبي، كما أن غزارة الأمطار وخصوبة الأرض جعلتها مصدراً هاماً للعطور والبخور كما كانت على صلات تجارية مع شرق أفريقيا والهند. وأتاح هذا الموقع المانع لليمنيين السيطرة على جنوب البحر الأحمر والساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية والساحل الإفريقي المواجه لبلادهم. ولذلك تسنى لهم احتكار تجارة التوابل والعطور وغيرها من السلع القديمة التي يجنون منها أرباحاً كثيرة. وتجنباً لمخاطر البحر الأحمر كان التجار اليمنيون ينقلون هذه السلع على قوافل برية تسير محاذية لساحل البحر الشرقي عن طريق مكة إلى الشام ومصر. وكانوا على صلات حميمة مع دولتي الأنباط وتدمر اللتين تسيطران على أجزاء من شمال الجزيرة العربية والشام. ولما كانت القوافل اليمانية تتمتع بحماية حكام تلك الدول صاروا شركاء لهم في الثراء الذي تحققه تلك التجارة. فلما آل الأمر إلى البطالمة سعوا لفك الاحتكار اليمني للتجارة الشرقية ونجحوا في كسر شوكته لسيطرتهم على البحر. ومما ساعدهم على ذلك اضمحلال مملكة سبأ وانهيارها في سنة ١١٥ ق.م، إلا أن اليمن ظلت تحت زعامة الدولة الحميرية (**١١٥ق.م. — ٣٠٠م**) تمثل محوراً هاماً في التجارة الشرقية. وقد تبددت هذه السيطرة بدخول الرومان حلبة السباق.

وفي سنة **٣٠ق.م**. استولت الدولة الرومانية على دولة البطالمة، وتبنت سياستها الرامية للسيطرة على تجارة البحر الأحمر. وكان هدف الإمبراطور أغسطس أن تنال روما نصيبها من الثراء الذي تحققه التجارة الشرقية، فقرر كسر الاحتكار اليمنى لتلك التجارة وتحويل مسارها للموانىء المصرية، واهتم أغسطس بفرض «**السلام الروماني**» على البحر الأحمر وتطهيره من القراصنة الذين زاد خطرهم بتدهور دولة البطالمة. كما قرر إحكام قبضته على الدول الواقعة على البحر الأحمر، وبخاصة ممالك حمير والأنباط والحبشة وتقليم أظافرها الواحدة تلو الأخرى، واتبع الرومان طرقاً مختلفة لتحقيق هذا الهدف، وكان إرسال حملات عسكرية واحداً منها.

وبدأ أغسطس بدولة حمير اليمنية، فأرسل جيشاً كبيراً بقيادة جاللوس والي مصر لغزو بلاد اليمن ولإرهاب باقي العرب والأنباط. وأقلعت الحملة من مصر سنة ٢٥ ق.م. متجهة نحو الساحل الشرقي فتابعته نحو أسبوعين إلا أن صعوبة الملاحة

كبدتها كثيراً من الخسائر في السفن والأرواح، ثم تابعت الحملة مسيرتها عبر الطرق الصحراوية حتى بلغت نجران. ثم سارت إلى ماريابا (**مأرب**) وضربت حولها حصاراً، ولكن الجيش الروماني لم يصمد طويلاً، بسبب الخسائر في الجند والعتاد وقلة المؤن وما تعرض له من مقاومة شديدة. وعادت الحملة الى مصر دون أن تحقق نصراً عسكرياً، إلا أن إرسال ذلك الجيش الأوربي كان بمثابة مظاهرة استعراضية لقوة روما العسكرية في جزء لم تبلغه أوربا من قبل، وحققت الحملة فوائد علمية وسياسية واقتصادية. فقد عرف الرومان ذلك الإقليم وكتبوا عنه، كما أنهم عقدوا بعض الاتفاقيات مع أمراء تلك المناطق، ومهدت الحملة لزيادة النفوذ الروماني وكسر الاحتكار العربي للتجارة الشرقية.

ومما ساعد أيضاً في تحويل التجارة الشرقية للموانىء المصرية التي قام الرومان بتحسينها وربطها بطرق آمنة الاستفادة من الرياح الموسمية.

عند استتباب الأمر للرومان في منطقة البحر الأحمر. ومن استقراء الواقع في ذلك الحين نصل إلى أن سياسة الرومان نحو بلاد الحبشة وميناء عدول (**المنفذ الرئيسي لدولة أكسوم الناشئة**) كان يسودها شيء من التفاهم والتعاون الاقتصادي. إلا أن الرومان اتبعوا مع بلاد النوبة سياسة مغايرة لتلك التي انتهجت تجاه بلاد الحبشة. إذ أن الرومان قاموا بإجراءات تأديبية ضد بلاد النوبة لتأمين سير التجارة وبخاصة على المناطق الساحلية.

ونتيجة لكل هذه الإنجازات أصبح الرومان يسيطرون على البحر الأحمر ويتمتعون بدخل اقتصادي كبير، إلا أن السيادة الرومانية لم تدم طويلاً. فخلال القرنين الثالث والرابع بدأ الضعف يدب في كيان الإمبراطورية من الداخل. وانتهى بانقسامها إلى شطرين: بيزنطة في الشرق، وروما في الغرب. وقد ورثت بيزنطة نفوذ الإمبراطورية الرومانية في البحر الأحمر، وفي الخارج ظهرت على مسرح الأحداث قوتان جديدتان: الأولى الامبراطورية الساسانية، والثانية مملكة أكسوم المسيحية. ففي سنة **٢٥٥ م**. نشأت الإمبراطورية الساسانية في أعقاب المملكة البارثية واعتبرت نفسها الوريث الشرعي لمملكة الأخمينيين التي هزمها الإسكندر المقدوني منذ ستة قرون، وفي عهدها سعت لإحياء حضارة الفرس وقوميتهم التي ذبلت، فركزت نفوذها في منطقة ما بين النهرين، وأحيت الصراع التقليدي بين الفرس والرومان في

الأقاليم الواقعة بين الأمبراطوريتين ونادت بطرد الروم من الشرق كله. ومما عمق هذا الصراع أن الفرس يدينون بالزرادشية بينما يعتنق الرومان المسيحية.

وعمل **الفرس** للفكاك من هيمنة الرومان على التجارة الشرقية في المحيط الهندي، فأنشأوا الموانىء وتعاونوا مع عرب جنوب شبه الجزيرة العربية في نقل السلع بين الخليج الفارسي والبحر الأحمر. ووجد الفرس في عرب اليمن، الذين اعتنقوا اليهودية، خير معين لهم في صراعهم ضد الدولة البيزنطية وحليفتها دولة اكسوم.

أما الدولة الثانية فهي **اكسوم الحبشية**، التي كان البيزنطيون يراقبون نفوذها المتزايد بشيء من الحذر وبخاصة بعد أن غزت بلاد أصدقائهم ملوك مروى، وبعد أن بدأت تساهم في تجارة البحر الأحمر وأخذت تطمع في السيطرة على اليمن لزيادة نصيبها من تلك التجارة. ومع ذلك كله فإن البيزنطيين كانوا يعتبرونها خير حليف لهم في ذلك الركن النائي. وبخاصة بعد أن انتشرت المسيحية في ربوعها. ومن ثم توطدت الصلات بين البلدين وصارت اكسوم تنوب عن بيزنطة في نقل تجارتها وتدافع عن سياستها في تلك المنطقة.

●●●●●

وفي نحو سنة **٣٠٠م**. تمكن **الحميريون** من توحيد دويلات جنوب غرب شبه الجزيرة العربية تحت زعامة دولة حمير الثانية، التي استمرت مزدهرة، إلا من غزو حبشي قصير، حتى سنة **٥٢٥م**. ولم يقف الصراع حول اليمن على المجال الاقتصادي، بل وجد عمقًا عقائديًا : فبعد أن انتشرت المسيحية واليهودية بين الوطنين دخل أتباعها في صراع حاد استغله كل من الفرس والرومان لصالحها خلال القرنين الخامس والسادس. ولما اعتنق **ذو نواس** آخر ملوك حمير، اليهودية وسعى للقضاء على المسيحية في نجران، استنجد المسيحيون بالإمبراطور **جستنيان الأول**، حامي الكنيسة. فأشارت بيزنطة على نجاشي الحبشة بغزو بلاد اليمن ففعل ذلك سنة **٥٢٥م**. ولا شك أن دوافع هذا الغزو لم تكن دينية بحتة، وإنما كانت تخفي وراءها مطامع بيزنطة لبسط نفوذها السياسي على القبائل العربية تحت ستر التدخل الحبشي. وأن تحارب بهم النفوذ الفارسي المتزايد . والدليل على ذلك أن الأحباش لم يغادروا البلاد بعد نجدة المسيحيين بها بل ظلوا يجثمون على صدرها خمسين عاماً، **ثارت «الجبهة الوطنية»** ممثلة في اليهود والوثنيين خلالها مرات. ويرجح بعض المؤرخين أن

الأحباش كانوا يهدفون إلى إنشاء مركز ديني في الجنوب العربي يستطيع منافسة مكة المكرمة ويجذب منها بعض الحجيج الذين يهرعون للكعبة. وفي هذا الإطار يمكننا فهم بعض دوافع أبرهة لغزو الكعبة سنة **٥٧٠م**.

واستنجدت الجبهة الوطنية بقيادة **سيف بن ذي يزن** بالعاهل الفارسي، **كسرى أنو شروان**، فأسرع الفرس بإرسال جيش سنة **٥٧٥م**. وطردوا الأحباش. ولكن فرحة عرب الجنوب لم تطل، إذ ضم السيد الجديد بلادهم إلى الإمبراطورية الفارسية. وبذلك انتهت **دولة حمير** وتحول البحر الأحمر مرة أخرى إلى ميدان صراع بين قوتين عالميتين: **فارس الزرادشتية في الشرق وبيزنطة المسيحية (بالتعاون مع الحبشة)** في الغرب. وظل الفرس يحكمون اليمن حتى سنة **٦٢٨م**. الموافقة للسنة السادسة من الهجرة النبوية حيث أعلن باذان الحاكم الفارسي إسلامه ودخل أهل اليمن الإسلام أفواجاً. وأسدل الستار على حقبة طويلة من صراع أخذ شكلاً اقتصادياً بين ممالك البحر الأحمر، ولكنه سرعان ما جذبته القوى العالمية، فلونته بأنماط اقتصادية ودينية وسياسية. معتمدة على أعوان محليين يديرون لها معاركها. وما أشبه الليلة بالبارحة.

●●●●●

وانتهت هذه الحقبة بظهور الإسلام الذي وضع حداً للتدخل الأجنبي وانتقل مركز الثقل من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى شمالها حيث احتل الحجاز مركز الصدارة في المرحلة الأولى. وبعد أن دانت شبه الجزيرة العربية لدولة المدينة المنورة خرجت الجيوش الإسلامية صوب الشرق والشمال، والشمال الغربي عبر الصحاري فانتشرت على فارس ودوخت بيزنطة. فأصبح البحر الأحمر بحيرة عربية بعد أن دانت له كل البلاد الواقعة على سواحله الشرقية ومصر. كما امتد نفوذ المسلمين حتى عم بلاد الحبشة، إلا أن بلاد الحبشة ظلت بعيدة عن السيطرة الإسلامية الكاملة. وبما أن المسلمين الأوائل لم يهتموا بركوب البحر، سيراً على السياسة الحذرة التي اختطها الخليفة عمر بن الخطاب في التعامل معه فإنهم لم يلتفتوا إلى تسخيره لمصالحهم. واستغل القراصنة الأحباش هذا الضعف فهاجموا ميناء جدة سنة **٦٤٠م**، ورد عليهم المسلمون بتخريب ميناء عدول. وعادوا بعد أن فقدوا ثلاثاً من سفنهم الأربع. **وفي سنة ٧٠٢م. أمر الخليفة سليمان بن عبد الملك باحتلال أرخبيل دهلك لوضع حد لهجماتهم. ولما كرر الأحباش هجماتهم على جدة سنة ٧٦٨م. تعقبهم الخليفة أبو جعفر**

المنصور وفرقهم.

واقتصر دور البحر الأحمر حتى قيام الدولة العباسية على المناشط التجارية وحمل البريد، ونقل الحجيج من الجزء الشمالي إلى الحجاز. فلما قامت الدولة العباسية انتقل مركز الثقل التجاري من البحر الأحمر إلى منطقة الخليج والهلال الخصيب، وبهذا استرد الطريق الشرقي أهميته بعد الاضمحلال الذي أصابه إثر الحروب التي اجتاحت المنطقة بين الفرس والبيزنطيين، وصارت بغداد حاضرة العالم الإسلامي سياسياً وتجارياً. ومن ثم لم يبق لمصر التي تقلصت مكانتها إلى مجرد مقاطعة في الخلافة العباسية، سوى جزء يسير من التجارة الشرقية، وسعى الوالي العباسي أحمد بن طولون، عند محاولته الاستقلال بإدارة مصر لاسترداد جزء من تلك التجارة ولكن دون جدوى. **فلما آل أمر مصر للدولة الفاطمية (٩٦٩ — ١١٧١) نجحت في تحقيق تلك الخطة.** وكانت التجارة واحدة من الأسلحة التي اتخذتها تلك الدولة الشيعية لمحاربة منافسيها في بغداد بقصد إضعافهم اقتصادياً. ودخل الفاطميون في صلات تجارية وثيقة مع الشرق والغرب. واستطاعوا بمساعدة أعوانهم في اليمن الاستفادة من خبراته البحرية في تحقيق هذا الهدف. وبإحكام قبضتهم على التجارة الشرقية امتدت سيطرتهم على العديد من موانىء البحر الأحمر بما فيها عيذاب ذات الموقع الجيد. وفي وقت وجيز ازدهرت عيذاب حتى صارت من أحفل الموانىء الإسلامية. وكانت السلع الهندية والصينية تنقل إلى عدن أولاً ثم إلى عيذاب حيث تحمل على ظهور الإبل عبر الصحراء إلى قوص وقفط. وكان تجار الهند واليمن وزنزبار والحبشة يترددون عليها. وكانت السلع الشرقية تستبدل بالحرير والنحاس والقصدير والكيماويات الواردة من مصر وشمال أفريقيا وأوربا أو بالذهب المستخرج من المعادن الواقعة شرق بلاد النوبة. ومنذ استشراء الخطر الصليبي أصبحت عيذاب ميناء الحجيج الوافد من مصر وشمال أفريقيا وبلاد السودان.

وكان الأسطول الفاطمي يجوب البحر الأحمر لحراسة السفن التجارية وتطهيره من القراصنة إلا أن تلك الإجراءات لم تردع حاكم مكة من تخريب عيذاب ونهبها سنة ١١١٨م. ورد عليه الوزير فاضل الجمالي بمنع الحجيج ووقف المؤن عن الحجاز وتجهيز جيش لمعاقبته. فما كان من حاكم مكة إلا أن عجل بالاعتذار ورد كل ما اغتصبه.

وحقق الفاطميون هدفيهما الأساسيين **أولاً**: تحويل التجارة الهندية من منطقة الخليج العربي إلى البحر الأحمر مما أدى إلى ضعف الكيان الاقتصادي للخلافة العباسية التي سقطت أخيراً على أيدي المغول. وساعدت هذه التغيرات ليستمر البحر الأحمر طريقاً رئيسياً للتجارة الشرقية، إلى أن أحكم البرتغاليون قبضتهم على منافذه في أول القرن السادس عشر. **ثانيًا**: ترتب على هذا كله أن صارت التجارة الشرقية مصدر دخل هام للدولة الفاطمية وما خلفها من حكومات على مصر، وكانت عدن وعيذاب تمثلان محورين هامين في هذه التجارة.

وفي العهد الأيوبي الذي وقع على ملوكه عبء مكافحة الخطر الصليبي، صار البحر الأحمر واحداً من جبهات ذلك الصراع. فالحروب الصليبية ليست إلا مظهراً واحداً من مظاهر الصراع الطويل الدائر بين الشرق والغرب، أو بين أوربا وآسيا. وكانت الحروب الفارسية الرومانية واحدة منها، كما كان الاستعمار الأوربي الحديث آخرها. ويمثل الغزو الصليبي رد الفعل المسيحي للدين الإسلامي الأسيوي الذي كان في توسع مستمر منذ القرن السابع الميلادي. وكان تزايد نفوذ دولة السلاجقة في آسيا الصغرى وتهديدها للقسطنطينية حاضرة الإمبراطورية البيزنطية، السبب المباشر الذي دفع الصليبيين إلى دخول هذه الحرب دفاعاً عن مصالحهم الدينية وانتقاماً من أعدائهم. وكانت الحروب الصليبية تهدف لاسترداد القدس من المسلمين. ومع أن المظهر الفكري الديني كان غالباً على هذه الحروب فإن الواقع الاقتصادي كان متوفراً أيضاً.

ونقل الصليبيون المعركة إلى البحر الأحمر عندما قام **أرنولد دي شاتيون صاحب الكرك سنة ٥٧٨/ ١١٧٤ بتشييد سفن حربية في البحر الأبيض المتوسط**، ثم نقلها براً إلى البحر الأحمر، حيث أكمل تزويدها بالجند والعتاد الحربي. وكان هدف أرنولد دي شاتيون قطع الحج وغزو الحرمين الشريفين.



ولكن ثراء عيذاب شجع **أرنولد دي شاتيون** على غزوها فحرق ستة عشر مركباً وأسر سفينتين قادمتين من اليمن وصادر مؤناً كانت معدة للشحن للحجاز وهاجم قافلة الحجيج بين قوص وعيذاب: «**وقاتل الجميع وأحدثوا حوادث لم يسمع الإسلام**

بمثلها» وعلى ضوء هجوم أرنولد دي شاتيون لميناء عيذاب يمكننا أن نربط هجوم داود ملك بـلاد النوبة المسيحية لعيذاب وتخريبها في سنة **١٢٧٢** بنفس المخطط الصليبي الذي كان يستهدف إضعاف دولة المماليك اقتصادياً بحرمانها الدخل الاقتصادي الكبير الذي يدره ميناء عيذاب.

فلما سمع السلطان صلاح الدين الأيوبي بالخبر وكان في الشام وجه نائبه بمصر لتعقب الحملة الصليبية. «فأدرك لؤلؤة الحاجب المعتدين ولم يبق بينهم وبين المدينة وعلى ساكنها أفضل الصلاة والسلام إلا مسافة يوم وكانوا ثلثمائة» .. فأسرهم وساقهم إلى القاهرة حيث لاقوا حتفهم.



وذكر **القاضي الفاضل** أن الإفرنج استهدفوا «قطع طريق الحج وضرب العالم الإسلامي بغزو الحرمين الشريفين والسيطرة على تجارة اليمن وأكارم عدن» وبذلك يمكنهم احتلال أيلة في الشمال وقفل عدن من الجنوب فتتحقق لهم بذلك السيطرة على التجارة الشرقية وقفل البحر الأحمر في وجه أعدائهم.

وقع على دولة المماليك (**١٢٥٠ ــ ١٥١٧**) التي خلفت السلطنة الأيوبية في مصر والشام أعباء جسام وبخاصة بعد أن اجتاحت جحافل المغول مدينة بغداد وسقطت الخلافة العباسية سنة **١٢٥٨**. وبسقوط الدولة العباسية صارت مصر المملوكيـة التي أوت الخليفة العباسي، مركز الثقل السياسي والحضاري والاقتصادي للأمة الإسلامية والمدافعة عن مقدساتها. فسار المماليك على نهج الأيوبيين في مقاومة الصليبيين والقضاء على جيوبهم. وأخذوا على عاتقهم حماية الحرمين الشريفين. ونتيجة لهذه التطورات أخذت سياسة مصر نحو البحر الأحمر أبعاداً ثلاثة متداخلة دينياً وسياسياً واقتصادياً.

أولاً ــ البعد الديني: أصبح البحر الأحمر بحراً مقدساً إذ حرّم المماليك على غير المسلمين دخوله حماية للحرمين الشريفين (إلا بإذن خاص من السلطات المصرية) وأضاف المماليك إلى ألقابهم لقب «خادم الحرمين الشريفين». وتولى سلاطين المماليك حماية قوافل الحجيج. وترتب على هذه المسئولية (ولأسباب اقتصادية تتعلق بميناء جدة) ضم إقليم الحجاز لدولة المماليك.

* **ثانياً**: أما العامل السياسي فينبع من صلات مصر مع دول البحر الأحمر، فالحجاز والساحل الغربي من البحر الأحمر حتى عيذاب كانا جزءاً من سلطنة المماليك ثم ضم السلطان بيبرس ميناء سواكن إلى دولة المماليك خوفاً من أن تنافس عيذاب (ثم جدة التي آلت إليها الزعامة الاقتصادية)، ومن بين الأسباب التي حتمت ضم سواكن تلك السياسة التي انتهجها حاكمها الشريف علم الدين استبعاني، والتي تقضي بمصادرة ممتلكات من يموت من التجار.

وكانت اليمن وإمارات «**الطراز الإسلامي**» السبع الواقعة على الساحل الجنوبي الغربي للبحر الأحمر وشرقي أفريقيا تدين بالولاء لسلطنة المماليك بحسبانها القوة الإسلامية الكبرى في ذلك الوقت. وكان وضع إمارات «**الطراز الإسلامي**» يتأرجح بين التبعية لمملكة الحبشة والاستقلال عنها. وقد شهدت المنطقة حروباً بسبب التنافس حول المراكز التجارية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر.



أما الصلات بين مملكة الحبشة المسيحية ومصر فقد تأرجحت بين الصداقة والعداء: نظراً لأن الكنيسة الحبشية كانت تابعة للكنيسة القبطية وكانت مصر تمد الكنيسة الحبشية بالمطارنة من وقت لآخر. وقد تردت علاقات الود هذه إلى تهديدات بسبب وقوف كل بلد مع الأقلية الدينية التي تتبع له. وكان الأحباش يلوحون بقتل مسلمي الحبشة أو تحويل مجرى النيل عن مصر. كما كانوا يتآمرون مع القوى الصليبية لتطويق مصر. ويعتقد بعض المؤرخين أن غارة **بطرس لوزجيان** على الإسكندرية سنة **١٣٦٥** قد نفذت باتفاق مع الأحباش ليشنوا حرباً من الجنوب. وبعد احتلال المماليك لجزيرة قبرص اتصل جبرا صقل بملوك أوروبا للقيام بحملة مشتركة ضد مصر، وكان الوسيط في هذه الاتصالات التاجر نور الدين على التبريزي، ولكن اكتشاف أمره سنة **١٤٢٩** أفسد المشروع.

* **العامل الاقتصادي**: اتسم العهد المملوكي باتجاه الدولة نحو ضمان سير التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر وإحكام قبضة مصر عليها. فاهتم المماليك بتطوير ميناء جدة وجعله صالحاً لاستقبال عدد كبير من السفن. واتخذ هذا القرار على حساب ميناء عيذاب. إذ منع المماليك السفن الهندية من التوقف فيه، على أثر تزايد هجمات الأعراب على قوافل المماليك التجارية. ولما تمت سيطرة الدولة على ميناء جدة والحجاز عملت على تركيز كل تجارة البحر الأحمر فيه، وطبقت عليه تنظيمات إدارية ومالية دقيقة كانت تستهدف احتكار التجارة الشرقية. وبما أن اليمن كانت تتحكم في مداخل البحر الأحمر، ويقوم ميناء عدن بدور هام في نقل التجارة. سعى المماليك لاسترضاء ملوكها وكسب ودهم. وبلغت تلك التنظيمات ذروتها عندما احتكرت الدولة في عهد السلطان برسباي تجارة البحر الأحمر وصار سلطان مصر التاجر الرئيسي لتجارة التوابل. وظل هذا النظام معمولاً به حتى نهاية دولة المماليك. فجنت الدولة أرباحًا طائلة من احتكار التجارة ومن الضرائب التي تجنيها.

وكان تجار الإسكندرية يبيعون سلعهم إلى المدن الإيطالية التي كانت تحتكر نقل السلع الشرقية إلى أوروبا منذ القرن الثالث عشر، وبما أن هذه التجارة كانت تدر أرباحاً طائلة فكان التنافس عليها شديداً بين تجار تلك المدن وبخاصة بين جنوة

والبندقية التي كانت تسيطر على الجزء الأوفر منها. وزاد هذا الوضع من حنق جنوة فوضعت كل خبراتها وما جمعته من حقائق عن الشرق أمام ملك البرتغال الذي كان يسعى للوصول إلى الهند عبر البحر.

●
●

لم تنس أوربا المسيحية ما لحق بها من هزائم انتهت بطرد الصليبيين من العالم العربي. ومنذ ذلك الحين كانت تسعى سعياً حثيثاً لإيجاد طريق يمكنها من تطويق العالم الإسلامي من الجنوب والسيطرة على التجارة الشرقية مصدر رخائه وقوته. وكانت البرتغال (بسبب قربها من مسرح الصراع بين المسلمين والمسيحيين في أسبانيا ووقوعها تحت تأثير تجار جنوة) أكثر الدول اهتماماً بهذا الأمر. وحاولت استغلال فكرة الدوران حول القارة الإفريقية التي روج لها الجنوبيون.

وفي سنة **١٤٢١م**. أبحرت أول رحلة اكتشافية على الساحل الإفريقي بتوجيه من الأمير هنرى الملاح المهتم بالكشوف الجغرافية، وكبير «جماعة المسيح العسكرية» (The Governor of the Military Order of Christ)، وبعد خمس وثلاثين سنة منح البابا «جماعة المسيح العسكرية» السلطة الروحية وحرية الاتجار حتى بلاد الهند. وفي نفس الوقت أبدى البرتغاليون اهتماماً كبيراً بالأخبار المتداولة عن القس يوحنا الذي يحكم منطقة واسعة فيما «بين الصين وغامبيا» (على حد ظنهم) بقصد التحالف معه ضد المسلمين. والراجح أن القس المقصود هو ملك الحبشة.

وفي ١٤٨٨ أرسل يوحنا الثاني ملك البرتغال بعثة اكتشافية بقيادة بدرو دي كوفلهام للبحث عن مملكة الحبش وجمع معلومات عن المناطق المنتجة للتوابل والطرق المؤدية لها، وزار دي كوفلهام ملك الحبشة لاستقطابه في جهد مشترك. وزار الهند ومنها عاد إلى ساحل إفريقيا الشرقي — واستغل ملك البرتغال المعلومات الثمينة التي أرسلتها هذه البعثة في استئناف الرحلات البحرية الموجهة للهند.

ومع أن التجارة الشرقية كانت سبباً هاماً في القيام بهذه الرحلات إلا أن المحرك الأساسي كان دينياً. بل إن بعض المؤرخين يصفون هذه الرحلات بأنها موجة جديدة في سلسلة الحروب الصليبية، وقد أجمل عمانوئيل الثاني ملك البرتغال (١٤٩٥ —

١٥٢١) هذه الدوافع عند وصفه لأسباب رحلة فاسكودي غاما الأولى للهند بقوله: إن الغرض من اكتشاف الطريق البحري إلى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق.

وأبحر فاسكو دي غاما في ٨ يوليو ١٤٩٧ على رأس أسطول مكون من أربع سفن، وكانت سفينته تحمل مدفعاً وقد علق على ساريتها علم رسم عليه صليب كبير. وسار الأسطول عن طريق رأس الرجاء الصالح (**الذي اكتشف قبل عشرة أعوام**) حتى بلغ ساحل أفريقيا الشرقي. وتمكن بمساعدة الملاح أحمد بن ماجة من الوصول إلى كاليكوت أهم موانىء ملبار، الساحل الغربي للهند، في **٢٠ مايو ١٤٩٨. ومع أن فاسكو دي غاما فشل في إقامة علاقات تجارية أو سياسية مع السامري وحاكم كاليكوت بسبب موقف التجار المسلمين، إلا أن الرحلة قد حققت هدفها الرئيسي وهو اكتشاف الطريق البحري إلى الهند.**

وفي مستهل القرن السادس عشر (**١٤٩٩ — ١٥٠٩م**) توالت الرحلات البرتغالية في المحيط الهندي فارضة وجودها وسيطرتها في منطقة كان النشاط التجاري فيها قاصراً على العرب، وكان البرتغاليون يعمدون لإبعاد التجار العرب عن المراكز التجارية في الهند وشرق أفريقيا وتعقب سفنهم وإغراقها أو مصادرتها. وفي نحو سنة **١٥٠٢م** عهد فاسكودي غاما إلى أسطول برتغالي صغير بحراسة مدخل البحر الأحمر ومهاجمة السفن العربية ومنعها من المتاجرة في المحيط الهندي إلا بتصريح خاص منه، وفي الهند سعوا إلى تأليب الحكام الهنود ضد العرب والمسلمين، وبفضل تفوقها العسكري وامتلاكها لسفن مزودة بالمدافع والبنادق والتي لم تعرف من قبل في تلك الأقاليم، تحقق للبرتغال في زمن وجيز احتكار التجارة الشرقية والسيطرة على مصادرها في الهند. وجنى البرتغاليون أرباحاً طائلة بلغت أحياناً خمسة أضعاف تكلفة الرحلات التي كانوا يبعثونها، وتوجوا ذلك كله بإقامة أول حكومة استعمارية أوروبية في الشرق الأقصى لتأمين هذه المكاسب، ومنذ البدء حرص البرتغاليون على التبشير بالدين المسيحي في المناطق المحيطة بمراكزهم التجارية.

وقد أدى تحول التجارة الشرقية إلى طريق رأس الرجاء الصالح إلى إضعاف دور البحر الأحمر في تلك التجارة، وتقلص الأهمية الاستراتيجية للبلاد الواقعة عليه، وأدى ذلك إلى توجيه ضربة قاضية لاقتصاد البلاد العربية المستفيدة منها وبخاصة مصر واليمن، وكان هذا الحدث فاتحة لصفحة جديدة من الصراع بين العرب والقوى الاستعمارية الجديدة في المحيط الهندي.

عند فترة الضعف التي أصابت دول البحر الأحمر في التجارة الشرقية بعد أن تحولت إلى طريق رأس الرجاء الصالح والذي كان فاتحة لصفحة جديدة من الصراع. وفي غضون تلك الفترة أبدت اليمن ومصر اهتماماً شديداً بالغزو البرتغالي ولكن إمكاناتهما البحرية كانت ضئيلة. فالدولتان لا تملكان أسطولاً حربياً يقوى على مواجهة الخطر البرتغالي. وفي سنة ١٥٠٧ غامر السلطان عامر بن عبد الوهاب الذي كان مشغولاً ببعض الفتن الداخلية، بحملة واحدة مكونة من أربع عشرة سفينة وستمائة مقاتل، بعضهم من الطلاب المتطوعين لحرب البرتغاليين في الهند ولم يعرف شيء عن مصير تلك الحملة. ومن قبلهم سعى المماليك لمواجهة البرتغاليين لفك الحصار الذي فرضوه على السفن والتجارة العربية في المحيط الهندي، وتلبية لاستنجاد ملك اليمن بهم. وكانت خطتهم تقوم على تقوية الحكم المملوكي في البحر الأحمر وتحصين سواحله بما في ذلك ميناء جدة، وبخاصة بعد أن أعلن البرتغاليون عزمهم على مهاجمة الحرمين الشريفين وتخريبهما. وفي **سنة ١٥٠٥** بعث السلطان قنصوه الغوري بأسطول حربي بقيادة حسين الكردي. فشيد تحصينات جيدة في ميناء جدة، لرفع كفاءتها الدفاعية ثم استولى على سواكن وزار بعض الموانيء اليمنية ثم عدن. ثم خرج لمواجهة البرتغاليين حيث اصطدم بهم أمام ديو، وتمكن بمعاونة بعض الإمارات الهندية من إحراز نصر جزئي لم يدم طويلاً، إذ حلت الهزيمة به **في فبراير ١٥٠٩**. فانسحب إلى البحر الأحمر، تاركاً المحيط الهندي تحت سيطرة البرتغاليين الذين زادت جرأتهم.

ونقل القائد البرتغالي البوكيرك المعركة إلى السواحل العربية فاحتل جزيرة سقطرة، الواقعة عند مدخل البحر الأحمر، لإحكام إغلاقه أمام السفن العربية، كما هاجم وضرب الساحل الممتد من عدن حتى هرمز. وفي سنة **١٥١٣** أرسل حملة إلى عدن اضطرت إلى الانسحاب بعد أن استبسل أهلها استبسالاً رائعًا، ومنها اتجه البوكيرك

شمالاً نحو باب المندب واستولى على **جزيرة كمران** وأحكم تحزينها. وكان هدفه الرئيسي ميناء جدة التي لم يتمكن من الوصول إليها بسبب ريح عاتية. فعاد إلى كمران ومنها هاجم ميناء زيلع ورشقها بالمدافع وكرر صنعه هذا في عدن، ومنها عاد إلى الهند. ومع أن الرحلة لم تحقق نصراً عسكرياً حاسماً في البحر الأحمر إلا أن توغل **البوكيرك** في تلك المنطقة، ساعد في التعرف على طبيعتها ورسم خطة العمل فيها لسد مضايق البحر، والسيطرة على عدن. وفي **عهد البوكيرك** تم الاتصال بين الحبشة والبرتغال، بقصد تنسيق الجهود ضد المسلمين، وبخاصة المماليك الذين يمدون يد العون للإمارات الإسلامية في منطقة الطراز. وتوجت هذه الاتصالات بإرسال أول سفارة دبلوماسية برتغالية إلى بلاط ملوك الحبشة سنة ١٥٢٠. وكانت استراتيجية ملوك الحبشة تهدف إلى استقطاب الدول الأوربية مثل البرتغال وفرنسا وأسبانيا لاحتلال أحد المواقع الهامة في البحر الأحمر مثل زيلع ومصوع وسواكن، ثم الانقضاض منها على المدن الإسلامية الهامة. أما البرتغاليون فكانوا يرمون إلى اتخاذ الحبشة قاعدة عسكرية، ولاستغلال ثرواتها، ثم تحويل الأحباش من المذهب الأرثوذكسي إلى المذهب الكاثوليكي. ولما تكشفت هذه النوايا وانهار الحلف وعمل الأحباش على التبرؤ من ارتباطهم مع البرتغاليين والسعي لطردهم وبخاصة بعد أن ظهر الأتراك العثمانيون كقوة إسلامية كبرى في البلاد العربية والبحر الأحمر. فخاف الأحباش بأسهم وتمكنوا من طرد البرتغاليين في أوائل القرن السابع عشر.

ولما تكررت الاعتداءات البرتغالية على البحر الأحمر استنجد قنصوه الغوري، الذي كان يعد العدة لمواجهة أخرى مع البرتغاليين في الهند، **بالسلطان العثماني بايزيد الثاني (١٤٨١ ــ ١٥١٢)** يطلب منه مده بالأخشاب والعتاد فأمده بايزيد بما يحتاج إليه هدية مضافاً إليها نحو ألفين من البحارة بقيادة **سلمان الريس** أو **سلمان الرومي للمساعدة في تشييد السفن والمشاركة في «حملة الهند» وأبحرت الحملة المكونة من عشرين سفينة وستة آلاف جندي بقيادة سلمان الريس**. وعند وصولها إلى جدة تولى القيادة نائب السلطان حسين الكردي. وقرر المماليك قبل مواجهة البرتغاليين في المحيط الهندي إحكام التحصينات الدفاعية على السواحل اليمنية وبخاصة عدن أولاً، وانشاء قاعدة بحرية تتحكم في إغلاق البحر أمام البرتغاليين ثانياً: وعند وصول الأسطول إلى جزيرة كمران بقصد تحصينها طلب المماليك من السلطان عامر تقديم ما وعد به من

عون على هيئة مال ومؤن. وتردد السلطان في الاستجابة لذلك الطلب خوفاً من أن يكون بداية لسيطرة مملوكية جديدة على اليمن. وأمر ولاته في الساحل بعدم الاستجابة لطلبات المماليك. ونزل المماليك إلى الساحل اليمني وأخذوا ما يحتاجون إليه من مؤن وأخشاب عنوة. ووجد المماليك بعض التشجيع والعون من العناصر المناوئة للسلطان عامر في منطقة تهامة. وساءت العلاقات بين المماليك والسلطان وترددت إلى حرب سافرة احتل حسين الكردي على أثرها بعض المدن التهامية مثل زبيد، وبعد تعيين الأمير برسباي حاكماً على مدينة زبيد وقائداً للجيوش المملوكية في تهامة، تابعت الحملة سيرها فاستولت على زيلع، ثم بدأت في مهاجمة عدن التي استبسلت في الدفاع عن نفسها، وردت المماليك عنها مرتين فاضطروا للانسحاب في **١٩ أغسطس ١٥١٦**. وأدى فشل المماليك في احتلال عدن إلى تأجيل «**حملة الهند**» واتخذوا سواحل تهامة اليمن خط دفاع أول لهم، وجعلوا جدة مركز دفاعهم الثاني. ولم يطل العهد بحسين الكردي، إذ سقطت دولة المماليك أمام **جحافل العثمانيين سنة ١٥١٧**. أما المماليك الذين بقوا في زبيد تحت قيادة برسباي فاستمروا في حربهم ضد الطاهريين حتى قتلوا السلطان عامر في **١٥ مايو ١٥١٧**، واحتلوا صنعاء. وبذلك انتهى الوجود المستقل لدولة اليمن وسارع مماليك اليمن بالاعتراف بالدولة العثمانية، وهكذا فعل شريف مكة.

وبدخول العثمانيين القاهرة **في ١٣ أبريل ١٥١٧**، طويت صفحة عهد رائع من أنبل العهود الإسلامية، كللت فيها مساعي المماليك بالنصر على المغول والصليبيين، ولكنها أخفقت في رد عادية البرتغاليين، وورث العثمانيون دولة المماليك وتبنوا سياستها في مواجهة الخطر البرتغالي والدفاع عن البحر الأحمر، وحماية الحرمين الشريفين.

وبسبب اشتغاله بحروب البلقان ومد النفوذ العثماني في فارس والعراق لم يلتفت السلطان سليمان القانوني (**١٥٢٠ ـــ ١٥٦٦**) للخطر البرتغالي تواً، رغم توالي هجماته ولم يقم العثمانيون بجهد حربي ضدهم حتى عام **١٥٣٨**.

وفي هذه الأثناء واصل البرتغاليون حملاتهم لتحقيق مطامعهم في البحر الأحمر، ففي **فبراير ١٥١٧** خرج نائب الملك البرتغالي في الهند، لوبو سوريز على رأس حملة قاصداً جدة. وسارت الحملة دون أن تتعرض لعدن التي أمدتهم بالمؤن اللازمة

وببعض المرشدين من البحارة اليمنيين، ليجنبوها مخاطر الشعب المرجانية، وعند وصولها إلى جدة فشلت في احتلالها بسبب مناعة التحصينات التي أعدها المماليك. كما أن انتقال السلطة للعثمانيين جعلهم يعجلون بالرحيل. وتعقبهم سلمان الريس وتمكن من أسر سفينة برتغالية. وكرر البرتغاليون صنيعهم مرة ثانية عام **١٥٢٠**، إلا أن الرياح صدتهم عنها، ونجحت نفس الحملة في إنزال أول بعثة دبلوماسية في الحبشة كما نوهت من قبل، وفي **سنة ١٥٢٥** تعرضت عدن لقصف بالمدافع وحصار برتغالي. وفي **فبراير ١٥٣٨** توج البرتغاليون محاولاتهم بفرض معاهدة على عدن. ولذلك أصبحت عدن جزءاً من «**أملاك**» البرتغال والتزمت عدن بدفع جزية سنوية، مع إعطاء سفنها حرية الملاحة بشرط عدم توجهها إلى جدة. ولكن المعاهدة لم تدم طويلاً، إذ بذل العدنيون محاولات جادة للخلاص من السيطرة البرتغالية واستنجدوا بالسلطان سليمان القانوني، معلنين الدخول في طاعته.

وفي عام **١٥٣٧** بدأ والي مصر بتوجيه من السلطان العثماني في إعداد السفن اللازمة في السويس لحملة بحرية لإخضاع اليمن ولمحاربة البرتغاليين. وتصاعد اهتمام السلطان سليمان القانوني بهذا الأمر بعد فتح العثمانيين للعراق **(١٥٣٤)** وامتداد نفوذهم لسواحل الخليج العربي الشمالية المجاورة للنفوذ البرتغالي في جنوب الخليج. ويروي أن السلطان بلّغه أن البرتغاليين كانوا على صلة بالفرس وأنهم قد أمدوهم ببعض المعونات الحربية. ولم تقف الاستنجادات بالعاهل العثماني على العدنيين؛ **ففي سنة ١٥٣٧** طلب سلطان كجرات الهندي دعماً عسكرياً حتى يتمكن من الصمود في وجه البرتغاليين. وأبحرت الحملة من السويس **في يونيو ١٥٣٨**. وكان قوامها ثمانين سفينة وعشرين ألف مقاتل **بقيادة سليمان باشا** الخادم الذي كانت خبرته بالبحر ضئيلة، وأجرى سليمان باشا بعض الاتصالات مع أمراء اليمن قبل بدء الحملة مسيرتها مما سهل مهمته وتمكن من الاستيلاء على ميناء عدن، بعد أن غدر بحاكمها عامر بن داود الذي أحسن استقباله. وقد أساء هذا الفعل المشين بسمعة العثمانيين في تلك المنطقة، وتابعت الحملة رحلتها إلى الهند حيث حاصرت قلعة ديو بالتعاون مع جيش كجرات، وبعد شهر رفع سليمان باشا الحصار وأقلع نحو السواحل العربية لإكمال إخضاعها للسيطرة العثمانية. وتم له إخضاع المنطقة الممتدة من الشحر في الجنوب حتى جيزان في الشمال وفي زبيد ثم نقل السلطة من المماليك إلى موظفين عثمانيين ولكنه

لم ينجح في الاستيلاء على المناطق الداخلية التي بقيت تحت حكم الزيديين وظلت تتحدى الخضوع للدولة العثمانية للسيطرة عليها عشرات السنوات.

وعاد سليمان باشا إلى مصر دون أن تحقق حملته هدفها في الهند، ولكن في اليمن تم لها السيطرة على عدن وزبيد والسواحل اليمنية. وعلى أثر هذه الهزيمة تجرأ البرتغاليون بإرسال حملة توغلت حتى مشارف السويس **سنة ١٥٤١**. ولكنها لم تحاول ضرب الأسطول العثماني الموجود فيها، بل اكتفت بتخريب بعض السفن في الطور والقصير، وهاجمت سواكن ودهلك. ثم عادت إلى الموانىء الحبشية، وترتب على هذين الحدثين ـ فشل الحملة إلى الهند والتوغل البرتغالي في البحر الأحمر ـ أن هجر العثمانيون سياستهم الهجومية واكتفوا بالدفاع عن البحر الأحمر وإغلاقه أمام السفن البرتغالية. بل حرموه على سائر السفن الأوربية خوفاً من أن تتسلل إلى البحر الأحمر بحسبانه الطريق الرئيسي للأماكن المقدسة، وتمكن العثمانيون من تحقيق هذا الهدف بدعم قواعدهم البحرية في اليمن وإحكام قبضتهم الإدارية عليه ومد نفوذهم إلى السواحل الحبشية.

وفي اليمن قام العثمانيون بخطوات إدارية وحربية لدعم سلطتهم في الأماكن التي خضعت لهم على السواحل، وبدأوا في مد نفوذهم على الأقاليم الداخلية، ومع أن الجيوش العثمانية استولت على أغلب تلك الأقاليم وتمكن ازدمير باشا من توحيد اليمن تحت السيطرة العثمانية في **سنة ١٥٥٥م** إلا أن المقاومة اليمنية كانت تطل برأسها من وقت لآخر، وتجمعت المقاومة حول أتباع الإمامية الزيدية وتابعت كفاحها حتى انهارت السلطة العثمانية. وأرسلت الدولة العثمانية حملة كبيرة **بقيادة سنان باشا** لاسترداد السيطرة العثمانية على اليمن **سنة ١٥٦٩**. وتتضح أهمية هذه الحملة من التوجيه الذي أصدره السلطان سليم الثاني لسنان باشا «استردادنا لمملكة اليمن وان كان ذلك مما يتعين علينا لأنها ميراث أبينا المقدس، لكن جل قصدنا من ذلك إنما هو حفظ ثغر عدن صونا للحرمين الشريفين على (من) الكفار الملاعين» وتمكن الجيش العثماني فرض السيطرة العثمانية مرة ثانية إلا أن روح المقاومة لم تضعف بل زادت حدة فكثرت الثورات بقيادة الأئمة الزيديين حتى نجحوا في إجبار العثمانيين على الجلاء عن اليمن **سنة١٦٣٥**. وهكذا وقف العرب في وجه الأتراك، وكان اليمن أول بلد عربي ينسلخ من الحكم التركي.

في نهاية القرن السادس عشر بدأ الوهن يدب في أوصال الامبراطوريتين العثمانية والبرتغالية لأسباب كثيرة. يكفي أن نذكر أن ضعف أساطيل الدولتين كان أهم مظاهرها، ويجدر أن نذكر أن البرتغاليين رغم نجاحهم شبه الكامل في السيطرة على الملاحة في المحيط الهندي فإنهم - فيما يبدو لي - لم ينجحوا بنفس القدر في السيطرة على التجارة الشرقية، إذ ظل جزء يسير من هذه التجارة يجد طريقه إلى البلاد العربية. وحقيقة الأمر أن النشاط التجاري في موانىء البحر الأحمر لم يصب بالركود التام كما يظن البعض، إذ أن التجارة المحلية كانت تسير على نمطها العادي، إلا أن ما حققه البرتغاليون من مكاسب نتيجة احتكارهم لهذه التجارة دفع جيرانهم من الدول الأوربية ليجربوا حظهم في هذا المضمار.

وكان أول من وصل إلى مياه المحيط الهندي عن طريق رأس الرجاء الصالح هم الهولنديون الذين كسروا ذلك الاحتكار في **سنة ١٥٩٥** وتبعهم الانجليز في سنة **١٦٠٣**. وكان دخول هاتين الدولتين في المحيط الهندي بداية لمنافسة حادة للاستئثار بتجارة الشرق. وكان الصدام المسلح من سمات هذه المنافسة، ولم يكد ينتصف القرن السابع عشر حتى كانت البرتغال قد فقدت سيطرتها على المحيط الهندي وسواحله ولم يبق لها منه سوى بضعة جيوب على الساحلين الافريقي والهندي.

ومنذ بداية القرن السابع عشر بدأت هذه القوة الجديدة تطرق سواحل البحر الأحمر بقصد إقامة علاقات تجارية مع موانئه والاستفادة منه كطريق تجاري هام. وكانت علاقات العثمانيين بالقادمين الجدد يشوبها كثير من الحذر. ففي البدء سمحوا للسفن الأجنبية بالتعامل مع ميناء «**مخا**» الواقعة على الساحل الشرقي، ولكنهم صدوها عن التوغل في داخل البحر الأحمر، وسمحوا للسفن العربية بنقل السلع التي تجلبها تلك السفن للموانىء الشمالية. وينبع هذا الاجراء من سياسة **العثمانيين**، كحماة للحرمين الشريفين في المحافظة على البحر الأحمر «كبحيرة إسلامية»، ولعل الضعف الذي أصاب الأسطول العثماني كان سبباً في إصرارهم على تنفيذ هذا الإجراء.

وكان البريطانيون أول من سعى لإقامة علاقات تجارية مع الجزيرة العربية، ففي **عام ١٦٠٩** طلب الكابتن الاسكندر «**شاربي**» السماح له بالتجارة في ميناء مخا. وقد سمح له حيناً وحرم حيناً آخر، وأرسلت شركة الهند الشرقية البريطانية في العام التالي بعثة تجارية برئاسة «هنري ميدلتون» لنفس الغرض فزار عدن أولاً ثم مخا. وقوبلت

هذه البعثة بعداء واستنكار شديدين من السلطات العثمانية التي أبدت تعجبها من جرأة أولئك «الصليبيين» الذين يسعون للاقتراب من الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية. وبعد محاولات متعددة من الانجليز سمح لهم في **عام ١٦١٨** بالمتاجرة في حرية تامة في مخا، والمناطق الواقعة جنوبها، ولذلك صارت بريطانيا الدولة الأوربية الوحيدة التي منحت هذا الامتياز.

●

ولعل مما دفع العثمانيين لاتخاذ هذا الاجراء تأكدهم من خفة حدة التنافس القائم بينهم وبين البرتغاليين، ورغبتهم في تنشيط التجارة لتحسين وضع اليمن الاقتصادي. ولا شك أن قيام الدولة الزيدية بعد طرد العثمانيين سنة **١٦٣٥**، قد دفع اليمنيين لاقتحام مجال التجارة الشرقية وتشجعهم على التعاون مع الأوربيين، وفي هذه الفترة انتشرت زراعة البن وكثر الاقبال على شرائه حتى صار من أهم الصادرات اليمنية. وكان البن سلعة رائجة في الشرق الأوسط وأوربا وأمريكا، ومن ثم كان يُصدَّر عن طريق البحر الأحمر وطريق رأس الرجاء الصالح في وقت واحد، وكان لتجارة البن أثر كبير في إنعاش طريق البحر الأحمر التجاري.

ووجدت شركة الهند الشرقية البريطانية، التي كانت تحتكر التجارة الشرقية مجالاً طيباً في اليمن، فأنشأت عدداً من الوكالات التجارية بالتعاون مع التجار الهنود الذين انتشروا في البلاد وحققت أرباحاً طائلة بعد أن غادر الهولنديون اليمن في **سنة ١٧٦٢**. وصار الإنجليز يسيطرون على تجارة البن وغيرها من السلع اليمنية، وحرصت شركة الهند الشرقية على مساندة الأئمة الزيديين بعد انتهاء الحكم العثماني. ووجدت فيهم خير نصير لتسهيل التبادل التجاري. وكان الود يسود هذه العلائق رغم تحذيرات السلطان العثماني الذي أزعجه تزايد النشاط الأوربي التجاري في المياه اليمنية.

ولا شك أن تصدير جزء كبير من البن عن طريق رأس الرجاء الصالح قد أضر بدخل الدولة العثمانية في مصر. فبعث السلطان العثماني سفيراً إلى إمام اليمن **سنة ١٧١٢** يحذره من الاستمرار في التعامل التجاري المباشر مع الدول الأوربية ويرجوه قصر تصدير البن اليمني إلى مصر فقط عن طريق البحر الأحمر، ورفض الإمام تحقيق تلك الرغبة التي تضر بوضع بلاده الاقتصادي. واستمر في معاملاته التجارية مع الأوربيين.

وفي الوقت الذي كانت السفن الانجليزية تطرق أبواب اليمن تسلل الهولنديون بقصد إقامة وكالات تجارية في اليمن، وكانت محاولاتهم الأولى سنة **١٦١٤** عندما وصل «فان دي بروك» إلى عدن متسلحاً بتصريح من الباب العالي ليسمح له بالمتاجرة في جميع أنحاء الدولة العثمانية. ومع أنه قد رحب به في أول الأمر إلا أن معارضة التجار المقيمين له، خشية منافسته لهم، أجبرته على الرحيل. وباءت محاولته في مخا بالفشل بسبب تخوف الحاكم من تسربهم إلى المدن المقدسة وإزاء هذه المعارضة ركز الهولنديون نشاطهم التجاري على الساحل الجنوبي، ولم يحاولوا التوغل في البحر الأحمر لإقامة مراكز تجارية، وكانت تجارة البن تمثل جزءاً هاماً في تعاملهم التجاري مع اليمن، فلما نجحوا في نقل زراعة البن إلى جزر الهند الشرقية، وصعب عليهم توسيع دائرة أعمالهم التجارية في اليمن غادروه **عام ١٧٦٢**.

وفي عام ١٧٠٩ نجحت بعثة فرنسية في عقد معاهدة تجارية مع حاكم مخا سمح لهم بمقتضاها بفتح وكالة تجارية، ورغم اعتراض السلطات العثمانية على تزايد النفوذ الأوربي الذي أشرنا إليه، فإن النشاط الفرنسي زاد اتساعاً وجرأة. ففي سنة **١٧٣٨** تمكنت الشركة الفرنسية بعد أن ضربت ميناء مخا، من اقناع حاكمها بتخفيض العوائد الجمركية المفروضة عليها من ٣٪ إلى اثنين ونصف بالمئة.

وخلال قرن من انحسار النفوذ العثماني في اليمن تمكنت الشركات الأوربية من تدعيم وجودها التجاري عن طريق الوكالات المنبثقة في سواحل البحر الأحمر الجنوبية، ثم اندفعت نحو الجزء الشمالي لتحقيق أهدافها التجارية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وشهدت هذه الفترة سباقاً شديداً بين الانجليز والفرنسيين من أجل الانفراد بالوكالات التجارية. وكان التنافس على أشده في مصر التي تتحكم في الجزء الشمالي من البحر الأحمر، فاهتمت شركة الهند الشرقية بالسوق المصرية التي كان الفرنسيون يتمتعون فيها بامتيازات تجارية. في **سنة ١٦٩٧** عينت إنجلترا قنصلاً لها في الاسكندرية ومنحهم **السلطان مصطفى الثاني** امتيازات مماثلة للامتيازات الفرنسية، وازداد الاهتمام البريطاني بمصر وبطريق البحر الأحمر بعد صلح باريس **سنة ١٧٦٣** في محاولة للربط بين مصر والممتلكات البريطانية في الهند. ومما مهد السبيل لهذا التطور أن الرسوم الجمركية كانت تمثل جزءاً هاماً من دخل الدولة. وحقيقة الأمر أن حكام المناطق المطلة على البحر الأحمر مثل الأئمة في اليمن والاشراف في مكة

«والمماليك» في مصر كانوا يسعون لتشجيع التعامل التجاري مع الأوربيين حتى يزداد دخلهم من الضرائب التي تجبى من التجار المترددين على موانئها.

وفي مصر عقد محمد بك أبو الذهب اتفاقية مع الانجليز لتنشيط التجارة بين مصر والهند وأثار هذا التصرف المستقل من حكام مصر حفيظة السلطات العثمانية، خشية من تزايد النفوذ الأوربي. وحذر السلطان العثماني القائمين على أمر مصر من عواقب التمادي في مثل ذلك الاجراء، وذكرهم بما حدث في الهند التي رحبت بالتجار الانجليز ففقدت استقلالها وصارت مستعمرة بريطانية.

ولكن هذه التحذيرات لم تكن لتؤثر على «مماليك» مصر بسبب العائد الكبير الذي يجنونه من تلك التجارة. وفي السبعينات من القرن الثامن عشر استطاعت السفن البريطانية أن تصل السويس والقصير والطور وفي نفس الفترة توسعت دائرة النشاط التجاري الفرنسي فعقد الفرنسيون اتفاقية **مع مراد بك سنة ١٧٨٥** تبيح للسفن الفرنسية التردد على ميناء السويس واكتمل لها بذلك حق الملاحة في البحر الأحمر والاتجار في موانيه.

وكان التنافس التجاري حول البحر الأحمر، بين انجلترا وفرنسا، يخفي وراءه صراعاً سياسياً حاداً. وكان كل من الدولتين يعرف قيمة البحر الأحمر في الوصول إلى الشرق الأقصى وكان ينظر إلى تحركات الطرف الآخر بحذر شديد. وقد أبانت حملة نابليون بونابرت على مصر **في مايو ١٧٩٨** إدراك الفرنسيين لأهمية البحر الأحمر. وباحتلالهم لمصر دخل البحر الأحمر في مرحلة تاريخية حديثة.

وكانت انجلترا تخشى أن تستغل فرنسا هذا الطريق المائي القصير للوثوب للهند درة التاج البريطاني.

ولم يقف الانجليز مكتوفي الأيدي بل رتبوا أمرهم بقفل منافذ البحر الأحمر أمام الفرنسيين فاحتلوا جزيرة بريم عند بوغاز باب المندب في **سنة ١٧٩٩** ودعموا ذلك الاحتلال بعقد عدد من معاهدات الصداقة مع سلطان الحج ومشائخ القبائل في جنوب شبه الجزيرة العربية وختموا هذا التدخل باحتلال عدن سنة **١٨٣٩**. وظلت انجلترا تسعى جاهدة لإبعاد أي منافس لها في البحر الأحمر الذي أضحى منذ بداية القرن التاسع عشر وإدخال السفن البخارية أقصر طريق يلائم الثورة الاقتصادية التي

اجتاحت العالم، كما أن شدة الصراع السياسي حول المستعمرات الجديدة كان يستلزم اتخاذ قرارات سريعة بالتشاور مع العواصم الأوربية. وعليه لم يعد طريق جبل طارق — رأس الرجاء الصالح البحري، يواكب كل هذه التطورات.

واسترد البحر الأحمر أهميته، كما استردت البلاد الواقعة عليه أهميتها الاستراتيجية مما جعل الدول المتنافسة تهدف لعقد أحلاف معها تسعى للسيطرة على منفذه في عدن والجنوب العربي والقرن الأفريقي ومصر. وكان فتح قناة السويس **سنة ١٨٦٩** أحد مظاهر هذا الصراع بين الدول الأوربية الاستعمارية التي صعَّدت معركتها من مجرد تكثيف نشاطها التجاري إلى السيطرة على مصادر المواد الخام بل والبلاد ذاتها.

يتضح من هذه الملاحظات أن الصراع حول البحر الأحمر ظاهرة قديمة تتجدد عبر العصور. في البدء كانت بين الدول المطلة عليه، ثم دخل الرومان وتبعهم الفرس، واستغل هؤلاء الدول المحلية لتنفيذ مخططاتها، وهكذا فعل غيرهم في عصور أخرى.

ثم آل الأمر إلى القوى الإسلامية، التي جعلت منه بحيرة إسلامية دهراً طويلاً ولكن سرعان ما نافستهم عليه القوى الصليبية، وفتحت البرتغال عهداً جديداً من الصراع كانت السفن البخارية والأسلحة النارية دعامته الأولى. ووقف العثمانيون في وجه الخطر البرتغالي وحرموا ارتياد البحر الأحمر على غير المسلمين. ولكن دولاً جديدة دخلت حلبة الصراع. وبدأ فجر جديد من الصراع كان امتداداً لمحاولات أوربا القديمة في السيطرة على البحر الأحمر كما كان مسرحاً للتنافس بين بعض الدول الأوربية نفسها مثل إنجلترا وفرنسا.

وبافتتاح قناة السويس تمكنت أوروبا من إحكام قبضتها على منافذه. واستطاعت أوروبا خلال القرنين الماضيين أن تبسط نفوذها العسكري والسياسي والاقتصادي والتقني والثقافي على أجزاء كبيرة من المعمورة كان البحر الأحمر واحداً منها. وصارت حضارة الغرب هي الحضارة الطاغية في عالم اليوم، وأخذ الغرب يسعى ليبسط سلطانه بكل الوسائل سلمية كانت أم عسكرية. وكانت السيطرة على مصادر الطاقة آخر الوسائل لتحقيق هذا الهدف، وما الحديث عن «أمن البحر الأحمر» إلا رد الفعل العربي الإسلامي، لزحزحة هذا الكابوس.

ثبت المصادر والمراجع

١ ـــ **أبو شامة**: عبد الرحمن بن اسماعيل الروضتين في أخبار الدولتين، بيروت (بدون تاريخ) ج٢.
٢ ـــ **أحمد رمضان**: مصر والبحر الأحمر، ندوة البحر الأحمر، جامعة عين شمس، ١٩٧٩.
٣ ـــ **الادريسي محمد بن أحمد**: كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نابولي، ١٩٧٠.
٤ ـــ **ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف**: النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٢٩.
٥ ـــ **ابن إياس**: بدائع الزهور من وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ج٤، ١٩٦٠.
٦ ـــ **محمد زغلول عبد ربه**: البرتغاليون والبحر الأحمر، ندوة البحر الأحمر، جامعة عين شمس القاهرة.
٧ ـــ **السيد مصطفى سالم**: الفتح العثماني الأول لليمن، ١٥٣٨ ـــ ١٦٣٥، القاهرة، ١٩٧٤.
٨ ـــ **سيد أحمد علي الناصري**: الرومان والبحر الأحمر، ندوة البحر الأحمر في التاريخ جامعة عين شمس، ١٩٧٩.
٩ ـــ **عاشور، سعيد عبد الفتاح**: بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية المجلد ١٤ (١٩٦٨) ـــ ١ ـــ ٤٣.
١٠ ـــ **عبد الرحيم عبد الرحمن**: النشاط والتجارة في البحر الأحمر في العصر العثماني ١٥١٧ ـــ ١٧٩٨، ندوة البحر الأحمر، جامعة عين شمس ١٩٧٩.
١١ ـــ **فاروق عثمان أباظة**: التنافس البريطاني الأمريكي في جنوب البحر الأحمر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ندوة البحر الأحمر، جامعة عين شمس، ١٩٧٩.
١٢ ـــ **فائق بكر الصواف**: أهمية شعر جدة في النصف الأول من القرن العاشر الهجري (١٤ م). ومصطفى محمد رمضان: ندوة البحر الأحمر، جامعة عين شمس، ١٩٧٩.
١٣ ـــ **القزويني**: عجائب المخلوقات.
١٤ ـــ **قاسم عبد قاسم**: علاقات مصر بعالم البحر الأحمر في عصر سلاطين المماليك، ندوة البحر الأحمر، جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٧٩.
١٥ ـــ **محمد أحمد أنيس**: الدولة العثمانية في الشرق العربي، القاهرة (بدون تاريخ).
١٦ ـــ **محمد أمين صالح**: تجارة البحر الأحمر في عصر المماليك الحراكة: ندوة البحر الأحمر، جامعة عين شمس، ١٩٧٩.
١٧ ـــ المسعودي علي بن أحمد: مروج الذهب ج٢، باريس ١٨١.
١٨ ـــ المقريزي، علي بن أحمد: الإلمام عما بارض الحبشة من ملوك الإسلام، القاهرة ١٨٨٥.
١٩ ـــ (٢) كتاب السلوك في معرفة دول الملوك ج٤، القاهرة، ١٩٣٧.

الشمال والجنوب

للدكتور أحمد محمد الحوفي

يبدر إلى الذهن أول وهلة أن الناس جميعاً يعرفون الشمال ويعرفون الجنوب ، لأنهما الجهتان الأصليتان اللتان تكملان الجهات الأصلية الأربع ، وهي الشرق والغرب والشمال والجنوب .

وقد يتساءل بعض الناس عن السبب في تخصيص الشمال والجنوب بدراسة ، بل قد يعجب من هذا التخصيص .

فما الداعي إذن لبحثٍ عن الشمال وعن الجنوب ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال أضيف إلى العجب من دراسة الشمال والجنوب عجباً آخر هو أن كلمتي الشمال والجنوب لم تردا في معاجم اللغة بمعنى الجهتين أو الناحيتين المعروفتين ، بل وردت كل منهما على أنها إسم لنوع من الرياح هي الشمال والجنوب .

فلنستشر علماء اللغة ، ثم علماء الجغرافية ، ثم نعقبُ بالرأي .

أولاً
في معاجم اللغـة

المعاجم كلها تذكر أن الشرق هو الجهة التي تشرق منها الشمس ، والغرب هو الجهة التي تغرب فيها الشمس .

لكنها لم تذكر — في مادة شمل وجنب — أن الشمال والجنوب جهتان ، بل ذكرت أنهما ريحان[١] .

— ١ —
الشمـال

قال ابن دريد ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) الريح الشمال معروفة ، ويقال لها شَمال وشَمْأَل وشامُل بلا همز[٢] .

وقـال الأزهـري ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) :

الشمال : ريح تهب من قِبَل الشام عن يسار القبلة ، والشمأل لغة فيها ، ويقال شأْمل وشَوْمَل وشَمْل وشَيْمَل .

وأشْمَلَ يومنا : إذا هبت فيه الشمال .

وغدير مشمول : شملته ريح الشمال أي ضربته فيبرد ماؤه .

ونقل المادة عن أبي عُبَيْد وأبي عُبَيْدة وأبي زيد والأصمعي والكسائي والليث وأبي حاتم وابن السِّكِّيت وابن حَبيب[٣] .

وقـال الـزمخشري ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) غدير مشمول : تضربه الشَّمال ، وليلة مشمولة : باردة ذات شَمال ، ونوى مشمولة : مفرِّقة بين الأحبـة ، لأن الشَّمال تـفـرّق السحاب[٤] .

وقال ابن منظور ٧١١ هـ (١٣١١ م) : الشَّمال الريح التي تهب من ناحية القطب ، ونقل عن المحكم لابن سيدة وعن ثعلب وعن ابن الأعرابي ما سبق أن نقله الأزهري ، وقال إنها تكون اسماً وصفة[٥] .

ولم يخالف الفيروز ابادي ٨١٧ هـ (١٤١٤ م) في شيء من هذا ، وزاد عليه أنها لا تكاد تهب ليلاً[٦] .

ثم جاء الزَّبيدي ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) فردَّد ما سُبق به[٧] .

— ٢ —
الجنـوب

أما الجنوب فقد ذكر ابن دُرَيْد أنها ريح معروفة[٨] .

وقال الأزهري : الجنوب من الرياح حارة ، وهي تهب في كل وقت ، ومَهَبُّها ما بين مهبتي الصبا والدبور .

ونقل عن ابن بُزرج وعن الأصمعي وعن ابن السكيت وعن عُمارة[٩] .

وقال الزمخشري إنها ريح[١٠] .

وذكر ابن منظور أنها ريح ، ونقل عن ثعلب وعن ابن الأعرابي وعن الأصمعي وعن عُمارة وعن التهذيب للأزهري وعن الصحاح للجوهري ما يدل على أنها ريح ، وأنها عند سيبويه اسم وصفة ، وعارض الفارسي في هذا[١١] .

وذكر الفيروز ابادي أن الجنوب ريح تخالف الشَّمال ، مهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا[١٢] .

وقال الزبيدي إن الجنوب على وزن صبور ريح تخالف الشَّمال ، تأتي من يمين القبلة[١٣] .

ثم ردد المعجم الكبير ما ذكرته المعاجم السابقة ، ولم يذكر أن الجنوب جهة[١٤] .

كذلك اتفق شراح القصائد الطوال الجاهلية المسماة بالمعلقات على أن الشمال والجنوب ريحان ، في شرحهم لبيت امرىء القيس :

فتوضح فالمقراة لم يَعْفُ رسْمُها
لما نَسَجَتْهَا من جَنوبٍ وشَمْأَلِ

أي لم يدرس رسمها لما نسجته من الجنوب والشمال ، فهو باق .

وكان الأصمعي يذهب إلى أن الريحين إذا اختلفا على الرسم لم تُعْفياه ، ولو دامت عليه واحدة لعفته ، لأن الريح الواحدة تسفى على الرسم فيدرس ، وإذا اعتورته ريحان فسفت عليه إحداهما فغطته ثم هبت الأخرى كشفت عن الرسم ما سفت الأولى .

في نسجت ذكر الريح ، لأنه لما ذكرت المواضع والنسج والرسم دلت على الريح ، فكني عنها لدلالة المعنى عليها[١٥] .

— ٣ —

ولكن في لسان العرب وفي تاج العروس تعبيراً آخر جديراً بالانتباه إليه والحرص عليه ، هو : هذا أمر لأهل المدينة ومن كانت قبلته على ذلك

السمت ممن هو في **جهتَيْ الشَّمال والجنوب**[16] .

في هذا النص اللغوي الفريد دلالة على أن الشمال جهة ، وعلى أن الجنوب جهة .

وسيتضح من أقوال الجغرافيين جميعاً أن الشمال والجنوب جهتان ، كما أن الشرق والغرب جهتان .

ثانيـاً
في مؤلفات الجغرافيين والمؤرخين

أما علماء الجغرافية — وهم ذوو الاختصاص — فقد نقلت آراء طائفة منهم ، مرتبة ترتيباً زمنياً ، لتتبين دلالة كل من الكلمتين منذ استعملوها .

١ — قال ابن خرداذبة ٢٨٠ هـ (٨٩٣ م) : ...... وهو من القطب **الشّمالي** عن يساره إلى وسط المشرق ...[17] .

وقال : حد القسطنطينية من الجنوب بحر الشام ، ومن **الشّمال** بحر الخزر ... وحد تراقية من المشرق السور ومن **الجنوب** عمل مقدونية ، ومن **الشّمال** بحر الخزر .

وعمل مقدونية حدة من المشرق السور ومما يلي **الجنوب** بحر الشام[18] .

وقال : رومية لها ثلاثة جوانب ، منها الشرقي **والجنوبي** والغربي في البحر والجانب **الشمالي** يلي البحر[19] .

وهذه نصوص قديمة فيها كلمة الشمال والشمالي والجنوب والجنوبي للدلالة على الجهة .

٢ — وقال الهمداني — أبو عبدالله أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه — حوالي ٢٩٠ هـ — (٩٠٣ م)[20] .

عرض الأرض من القطب الجنوبي ... إلى القطب **الشمالي** ...[21] .

وقال : والبحر **الجنوبي** ...[22] .

وقال : اليمامة واديان يصحبان من مهب الشمال ويفرقان في مهب الجنوب[23] .

فوصف القطبين بأنهما شمالي وجنوبي .

ووصف البحر بأنه جنوبي .

وعين واديين بأنهما ينبعان من مهب الشمال ، ويصبان في مهب

الجنوب ، ولا معنى للمهب إلا أنه مكان الهبوب أي الجهة .

٣ ــ وذكر ابن جرير الطبري في تاريخ الاسكندر المقدوني أنه دخل الظلمات مما يلي القطب الشمالي والشمس جنوبية[٢٤] .

٤ ــ وقال الهمداني ٣٣٤هـ (٩٤٥م) أبو محمد الحسن بن أحمد ابن يعقوب :

فجنوبها اليمن ، وشماليها الشام[٢٥] .

وقال : تظهر على أهل الجنوب كواكب لا يراها **أهل الشمال** ، ويظهر على **أهل الشمال** ما لا يراه **أهل الجنوب**[٢٦] .

وقال : فإذا مالت الشمس في **الشمال** ... سقطت الأظلال بها إلى **الجنوب** ، وإذا مالت ... سقطت أظلالها **إلى الشمال**[٢٧] .

٥ ــ وقال المسعودي ٣٤٦هـ (٩٥٧م) :

وأما أهل الربع ــ ربع الأرض ــ **الشمالي** ، وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين في **الشمال** كالصقالبة والإفرنجة ... ومن كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليهم ...

وأما أهل الربع الجنوبي كالزنج ...[٢٨] .

قسمت الحكماء الأرض إلى جهة المشرق والمغرب **والشمال والجنوب** ... فوجدوا العمران من موضع خط الاستواء إلى ناحية **الشمال** .... فيعرض ما بين **الشمال والجنوب**[٢٩] .

وقال : فما كان من الفلك آخذاً من **الجنوب إلى الشمال** يسمى العرض ، وما كان آخذاً من الشرق إلى الغرب يسمى الطول[٣٠] .

٦ ــ وقال الاصطخري ٣٤٦هـ (٩٥٧م) :

وقسمة الأرض على الجنوب والشمال ... فما كان في حد **الشمال** من هذين القسمين فأهله بيض ، وكلما تباعدوا **في الشمال** ازدادوا بياضاً ... وما كان مما يلي **الجنوب** من هذين القسمين فإن أهله سود ، وكلما تباعدوا في **الجنوب** ازدادوا سواداً[٣١] .

٧ ــ وقال المقدسي ٣٧٥هـ (٤٠٥م) :

.... **القطب الجنوبي** .... **إلى الشمال** ، .... فالخلق على الربع **الشمالي** من الأرض ، **والربع الجنوبي** خراب[٣٢] .

٨ ـ وقال أحمد بن محمد المرزوقي الأصفهاني ٤٢١ هـ (١٠٣٠م) :

أحد السماكين **جنوبي** وهو الأعزل ، والآخر وهو الرامح **شمالي** ... ... متحدرة من الجنوب ...

ونقل عن الفراء قوله : البوارج الرياح الصيفية ، وسميت بذلك لأنها هي السموم التي تأتي من الشمال .... وجهة القطب **الجنوبي** وجهة القطب **الشمالي** ... ... والتي تهب من جهة القطب **الجنوبي** هي الجنوب ، والنعامى وهي تهب من جهة **القطب الشمالي** وتسمى الشمال[٣٣] .

وتكرر هذا في مثل قوله : ولكني أعني **بالشمال والجنوب** اللذين هما عن جانبي خط الاستواء[٣٤] .

فترددت في كتابه كلمة الشمال والشمالي وكلمة الجنوب والجنوبي .

٩ ـ وقال البيروني ٤٤٠ هـ (١٠٤٨م) :

.... عند تناهي قرب الشمس من القطب **الشمالي**[٣٥] .

وقال ... البلاد المصاقبة لمقرهم في مشارق الأرض وشمالها[٣٦] .

١٠ ـ وقال الإدريسي ٥٦٠ هـ (١١٦٤م) :

والخلق بجملته على الربع **الشمالي** من الأرض ، وأيضاً فإن الربع **الجنوبي** غير مسكون[٣٧] .

وقال : إلى **شمال** التيه ... إلى **جنوب** وسطها ... فيمر في جهة **الشمال** ... فيتصل من جهة **الجنوب** بأرض هرقلية[٣٨] .

١١ ـ وقال ياقوت الحموي ٦٢٦هـ ١٢٢٨م) :

الخلق في **الربع الشمالي** من الأرض ، والربع **الجنوبي** خراب .... العمران في **الجانب الشمالي من الأرض أكثر منه في الجانب الجنوبي** ، ويقال إن في **الشمالي** أربعة آلاف مدينة ، وإن كل نصف من الأرض ربعان ، فالربعان **الشماليان** هما النصف المعمور ... فهذا الربع غربي **شمالي** ... فهذا الربع شرقي **شمالي** ، وكذلك النصف

الجنوبي فهو ربعان : شرقي **جنوبي** ... وربع غربي لم يطأه أحد(٣٩) .

واختلف قوم في هذه الأقاليم السبعة : في **شمال** الأرض **وجنوبيها أم في الشمال دون الجنوب** . وذهب الأكثرون إلى أن الأقاليم السبعة في الشمال دون الجنوب ، لكثرة العمارة في **الشمال** وقلتها في **الجنوب** ، ولذلك قسموها في الشمال دون الجنوب(٤٠) .

١٢ — وقال ابن سعيد المغربي (علي بن موسى) ٦٨٥هـ (١٣٨٦م) :

عرض المعمور أقصاه في **الجنوب** إلى أقصاه في **الشمال** ٨٠ درجة ، وما بعد ذلك في **الجنوب** لا يسكن ، لقوة حرارة الشمس ...

وما بعده في **الشمال لا يسكن** ، لقوة البرد والجمد .

ومجموع المعمور مقسوم على تسعة أقسام ، المعمور خلف خط الاستواء **إلى الجنوب** ... إلى أقصى العمارة **في الشمال**(٤١) .

وقال : المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب عرضه ١٦ درجة ، لا يظهر فيه البحر المحيط من المغرب الأقصى ، ولا في الجنوب ..

وقال : كما تدخل إليها خمسة أنهار من **الجانب الشمالي**(٤٢) .

وقال : وتحتها بمصر نيل مقدشو الخارج في شمال الخط ... **ومجالات** أكراو في شمالها(٤٣) .

وقال : المعمور من الأرض في **شمالي الأقاليم** السبعة(٤٤) .

ولقد ردد ابن سعيد الدلالة على **جهة الشمال** وعلى جهة **الجنوب** بقوله **الشمال والجنوب تارة** ، **والشمالي والجنوبي تارة** ، كما فعل كثير من سابقيه .

١٣ — واجتزئ من أبي الفداء ٧٣٢هـ (١٣٣٠م) بقوله :

خط الاستواء يفصل الأرض بنصفين ، أحدهما **شمالي** ، والآخر **جنوبي** ... أحد الشماليين هو الربع المسكون ... وأما جنوب المغرب فإنه لم يصل أحد فيه إلى البحر ، وكذلك شمال المشرق(٤٥) .

١٤ — وهكذا ترددت كلمة الشمال والشمالي والجنوب والجنوبي في

نهاية الأرب للنويري ٧٣٢هـ (١٣٣٠م)[٤٦] .

وفي مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري[٤٧] ٧٤٨هـ (١٣٤٦م) .

وفي رحلة ابن بطوطة ٧٧٩هـ (١٣٧٧م)[٤٨] .

وفي مقدمة ابن خلدون ٨٠٨هـ (١٤٠٦م)[٤٩] .

وفي صبح الأعشى للقلقشندي[٥٠] ، وقد ذكر أهل مصر يسمون جهة الجنوب القبلية ، لأنها في جهة قبلتهم ، ولهذا يبدأون بها في التحديد[٥١] .



•• النتيجة ••

لعل فيما سبق ما يعزز الصواب في إطلاق كلمة الشمال وكلمة الجنوب على الجهتين المكملتين للجهات الأربع ، ولأنه ليس في اللغة ما يمنع هذا الإطلاق ، على الجهة وعلى الريح التي تهب منها .

وإذا كانت كل من الكلمتين قد سمي بها نوع من الريح فإن هذا لا يمنع من أن الريح سميت بالجهة التي تهب منها ، فالشمال جهة ، والشمال أيضاً الريح التي تهب من تلك الجهة ، وكذلك الجنوب .

١ — وإنه ليزيد هذا تعزيزاً أن ابن منظور والزبيدي ذكرا في مادة شرق أن الشمال والجنوب جهتان .

٢ — وقد نقل المرزوقي الأصفهاني في كتابه (الأزمنة والأمكنة) عن الفراء قوله : البوارح الرياح الصيفية ، وسميت بذلك لأنها هي السموم التي تأتي من الشمال .

فجاءت كلمة الشمال في هذا النص دالة على الجهة[٥٢] .

٣ — جاء في لزوميات أبي العلاء قوله :

فيا دار الخسار ألا خلاصٌ فأذهب في الجنوب أو الشمال
كذاك الدهر إظلام وصبحٌ وريح من جنوب أو شمال(٥٣)

٤ ـــ ثم إن علماء الجغرافية أجمعوا على أن كلا من الشمال والجنوب جهة معينة ، وترددت في مؤلفاتهم كلمات الشمال والشمالي والجنوب والجنوبي كما سبق .

وعجيبٌ أنه لم يرد في المعاجم اللغوية إطلاق الشمال والجنوب على الجهتين ، كما جاء إطلاق الشرق والغرب ، مع أن مؤلفي هذه المعاجم منذ ابن دريد مؤلف الجمهرة ٣٢١هـ (٩٣٣م) والأزهري مؤلف التهذيب ٣٧٠هـ (٩٨٠م) إلى الزبيدي مؤلف تاج العروس ١٢٠٥هـ (١٧١٠م) عاصروا الجغرافيين الذين أطلقوا كلمتي الشمال والجنوب على الجهتين(٥٤) ، أو عاشوا بعدهم ، وكان من البديهي أن يطَّلعوا على مؤلفاتهم ، وأن يطلقوا الشمال والجنوب على الناحيتين المعروفتين كما أطلقوا الشرق والغرب ، أو ينقلوا عن علماء الجغرافية هذا الإطلاق ، وربما كانت المشكلة تبدو أهون وقعاً وأقل تعقيداً لو أن اللغويين لم يُطبقوا جميعاً على أن الشمال والجنوب ريحان ، على حين أن علماء الجغرافية أجمعوا على أن الشمال والجنوب ناحيتان أو جهتان .

ولكن هذا التعقيد سرعان ما يزول إذا ما دللنا بكلمة الشمال على الجهة المعروفة ، وعلى الريح التي تهب منها ، فهي الريح الشمال ، أو هي الشمال ، وإذا ما أطلقنا كلمة الجنوب على الناحية وعلى الريح التي تهب منها ، فهي الريح الجنوب ، أو هي الجنوب(٥٥) ، لأنها اسم وصفة كما سبق وإن عارض في هذا الفارسي .

ولهذا يصح تفسير بيت أمرىء القيس :

فتوضح فالمقراة لم يَعْفُ رسْمُها لما نَسَجَتْها من جَنُوب وشَمْألِ

بأن رسم الطلل باق لأنه معرض لريحين متقابلتين تهبان عليه هما الريح الجنوب والريح الشمال ، أو هما الجنوب والشمال ، لأن إحداهما تعرى الوسم والأخرى تكسوه .

هوامش

(١) ما عدا المعجم الوسيط فقد ذكر في مادة شمل أن الشمال الجهة التي تقابل الجنوب ، والريح التي تهب من تلك الجهة ، والجنوب الجهة المقابلة للشمال ، والريح التي تهب منها .

(٢) الجمهرة لابن دريد ٧١/٣ .

(٣) التهذيب للأزهري ٣٧١/١١ .

(٤) أساس البلاغة للزمخشري مادة شمل .

(٥) لسان العرب لابن منظور مادة شمل .

(٦) القاموس المحيط للفيروز ابادي مادة شمل .

(٧) تاج العروس للزبيدي مادة شمل .

(٨) الجمهرة ٢١٥/١ .

(٩) التهذيب ١١٩/١١ .

(١٠) أساس البلاغة مادة جنب .

(١١) لسان العرب مادة جنب .

(١٢) القاموس المحيط مادة جنب .

(١٣) تاج العروس مادة جنب .

(١٤) أصول المعجم الكبير المخطوطة مادة جنب .

(١٥) شرح القصائد السبع الطوال . ابن الأنباري ٣٢٨هـ (٩٣٩م)
وشرح القصائد السبع للزوزني ٤٨٦هـ (١٠٩٣م) .
وشرح القصائد العشر للتبريزي ٥٠٢هـ (١١٠٨م) .

(١٦) لسان العرب وتاج العروس مادة شرق .

(١٧) المسالك والممالك لابن خرداذبة ٥ .

(١٨) السابق ١٠٥ .

(١٩) السابق ١١٣ .

(٢٠) الهمذاني بالذال المعجمة لم تعرف سنة وفاته ، ولكن المعروف أنه انتهى من تأليف كتابه (البلدان) سنة ٢٨٩هـ عقب وفاة الخليفة المقتصد . وهو كتاب ضخم في خمسة أجزاء في حوالي ألفي صفحة ، بين أن ينافيه مختصره الذي عمله علي الشيرازي سنة ٤٠٣هـ (١٠٢٢م) راجع بروكلمان ٢٣٨/٤ والأدب الجغرافي العربي تأليف : أغناطيوس كراتشكوفسكي ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ١٦٢ ومعجم الأدباء ١٩٩/٤ ، والأعلام للزركلي ، والفهرست لابن النديم ٢١٩ وذكر معجم المؤلفين أنه توفي سنة ٣٦٥هـ .

(٢١) البلدان للهمذاني ٥ (بالذال المنقوطة) .

(٢٢) السابق ٧ .

(٢٣) السابق ٥٨ .

(٢٤) تاريخ الطبري ٥٧٨/١ .

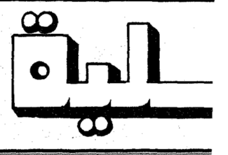
(٢٥) صفة جزيرة العرب للهمداني (الهمداني بالدال المهملة .

(٢٦) السابق ٣ .
(٢٧) السابق ١١ .
(٢٨) التنبيه والإشراف للمسعودي ٢٢ .
(٢٩) مروج الذهب للمسعودي ١/٨٦ .
(٣٠) السابق ١/٨٩ .
(٣١) المسالك والممالك للاصطخري ١٦ .
(٣٢) أحسن التقاسيم للمقدسي ٥٩ .
(٣٣) الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ١/٢١٦ .
(٣٤) السابق ٢/٨٥ .
(٣٥) الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني ٨ .
(٣٦) السابق ٣٦ .
(٣٧) نزهة المشتاق للإدريسي ٨ .
(٣٨) السابق ١١ .
(٣٩) معجم البلدان لياقوت ١/١٩ .
(٤٠) السابق ١/٢٥ .
(٤١) بسط الأرض في الطول والعرض لابن سعيد ١١ .
(٤٢) السابق ١٢ .
(٤٣) السابق ١٣ .
(٤٤) السابق ١٣٣ .
(٤٥) تقويم البلدان لأبي الفداء ٥ .
(٤٦) نهاية الأرب ١/٢٣٣ ، ٢٣٧ .
(٤٧) مسالك الأبصار ١/٢٤ ، ٢٥ ، ٢٩ .
(٤٨) رحلة ابن بطوطة في مواضع متفرقة .
(٤٩) مقدمة ابن خلدون ٤٢٥ ، ٤٣٤ ، ٤٥٠ ، ٤٨٦ .
(٥٠) صبح الأعشى ٣/٢٢٤ .
(٥١) يقصد تحديد الأرض الزراعية وغيرها .
(٥٢) الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ١/٢١٦ .
(٥٣) اللزوميات ٢/٢٣٦ ، ٢٣٧ .
(٥٤) مثل ابن خرداذبة ٢٨٠هـ والهمداني ٣٣٤هـ والمسعودي ٣٤٦هـ والاصطخري ٣٤٦هـ والهمذاني ٣٦٥هـ والمقدسي ٣٧٥هـ والمرزوقي الأصفهاني ٤٢١هـ والبيروني ٤٤٠هـ .
(٥٥) الشمال والجنوب اسم وصفة كما سبق .




القب
مَع دراسة تطبيقيّة
على
سيَاسة المغفور له
الملك عبد العزيز
١٤٠

بقلم: الدكتور بكر عمر العمري

 ونظرية الذوبان الاجتماعي

نالت «القبلية» كظاهرة ومبدأ من اهتمام الدارسين والباحثين نصيبًا كبيرًا من الدراسة والبحث خلال العقود الثلاثة الماضية. ويتضح للدارس في تاريخ ما يسمى بأمراض مبدأ القبلية "The Ills of Tribalism" أن القيادات السياسية والعلمية للكثير من الدول الأفريقية بوجه خاص قد وجهوا اهتمامًا كبيرًا أو ظاهرًا إلى دراسة هذه العلل. ومحاولة ايجاد علاج لها. ويرجع هذا على الاغلب إلى ظروف أفريقيا التي ورثت الانظمة السياسية للقوى الاستعمارية الأوروبية قد مهدت الطريق أمام هؤلاء الزعماء الافارقة لكي يسعوا إلى ايجاد وسيلة للتعايش وللحياة بين مجموعاتهم الوطنية المختلفة. وهي في الواقع مهمة صعبة وشاقة للغاية فمشاعر القبلية مرض مزمن .. وهي تجد بالإضافة إلى أزماتها هذا تشجيعًا من بعض زعماء هذه

الدول الذين يجنون فائدتهم ومصلحتهم الخاصة في اثارة المشاعر القبلية لمواطنيهم. لهذا كانت ظاهرة الفوضى السياسية مظهرًا عامًا للحياة الاجتماعية في هذه الدول التي وجدت في ابنائها أنفسهم معوقًا من معوقات بنائها القومي نتيجة تمسكهم بالمصالح الخاصة التي يزكيها في أنفسهم تعصبهم القبلي.

القبلية في الدول النامية :

إن اختلاف معدلات النمو بين الاقاليم المتقدمة والاقاليم النامية في غالبية مناطق أفريقيا وفي المناطق القبلية الاخرى يتضح أساسًا في التباين الاقتصادي الناجم عن الفوارق الاجتماعية بين هذه الاقاليم. وتعتبر العوامل الطبيعية من الاسباب الهامة لهذا التفاوت بسبب عدم استطاعة بعض هذه الاقاليم استغلال مواردها استغلالاً كاملاً. كما تعتبر العوامل السياسية أيضًا من أسباب الانهيار الاقتصادي والاجتماعي بين هذه المجتمعات، إما لعدم التجانس الناتج عن التمسك بالحياة القبلية ذات التقاليد والعادات ـــ وأحيانًا اللهجات ـــ المختلفة أو نتيجة لعدم اندماج الهياكل الاجتماعية بسبب الضغوط الخارجية والداخلية حتى في داخل الدولة الواحدة. يضاف إلى هذا عامل هام هو سوء توزيع النشاط الاقتصادي وانخفاض مستويات المعيشة وانتشار الامراض.

كل هذه العوامل مجتمعة تزيد من صعوبة تحديد مفهوم ما نحن بصدد محاولة وضع مفهوم له وهو القبلية ... فمن هنا نشأت الصعوبة في تحديد هذا المفهوم ونشأ التضارب والتخبط وعدم الاتفاق بين الدارسين والباحثين في تعريف ماهية القبلية. ولكن يمكننا أن نجمع هذه الدراسات وهذه المحاولات في ثلاث مدارس قطعت كل منها شوطًا لا بأس به في تعريف القبلية :

أولاً : ترى أن القبلية عبارة عن حيلة يستخدمها البرجوازيون Bourgeoisie من أجل جعل حياتهم اكثر سعادة واكثر رخاء. حيث يجدون مصلحتهم في الابقاء على القبيلة بأوضاعها الراهنة[٢].

وثانيهما : وهي المدرسة التي يقودها الاستاذ الأفريقي آرشي مافيجى وتعرف القبلية على أنها فكرة قام بتسويقها علماء الاجتماع الغربيون ثم وظفت كأيديولوجية

تخدم المصلحة الشخصية لمجموعة من القادة الافريقيين[٣].

أما ثالث هذه المدارس فترى أنها تمثل حقيقة الوضع القائم في أفريقيا تلك الحقيقة التي حاول بعض الزعماء الافارقة تجنبها بغير مبرر.[٤].

مواصفات الحياة القبلية :

غالبًا ما تتكون القبيلة من مجموعة كبيرة أو صغيرة من الأفراد تجمعهم مواصفات واحدة ـــ فهم جميعًا توجد بينهم درجة عالية من القرابه كما أن الأرض التي يسكنون عليها غالبًا ما تكون لهم جميعًا وليست ملكًا لأفراد منهم وقد يسمى هذا النوع من الملكية الملكية العائلية والقبلية للأرض.

وتتم العلاقات بين **أفراد القبيلة** بصفة مباشرة أي عن طريق الاتصال المباشر ـــ وهي في علاقاتها بالمجتمعات الخارجية تكاد تكون منعزلة نتيجة لافتقارها إلى طرق المواصلات أو وسائل الاتصال اللازمة، ولهذا غالبًا لايعرف الكثير من أفراد القبيلة إلا مجتمعهم ولا علم لهم بشئون المجتمعات الاخرى كما أن تبادل الخبرات بين أفراد القبيلة وأفراد القبائل الاخرى يكاد ينعدم. ومعنى هذا أن «حضارة» هذه القبيلة تكون محلية تمامًا ومن إنتاج أفرادها دون أن تؤثر عليهم عناصر الحضارات أو المجتمعات أو القبائل الاخرى إلا فيما ندر.

كما يسيطر على مجتمع القبيلة نوع من العادات التي يكسبها أفرادها على مر الزمان لمواجهة احتياجات معينة يرى قادة القبيلة ضرورة تنفيذها، وقد يكون بعضها غير منطقي أو غير مسبب إلا أن أفراد القبيلة جميعًا ملزمون بممارسة هذه العادات والتقاليد نتيجة معيشتهم في حدود ونطاق مجتمع القبيلة رغم ما قد يكون من عدم اقتناع البعض بها. ولكن الاساس في اقتناع أفراد القبيلة بهذه العادات والتقاليد هو التجربة والممارسة العملية، ومن الصعب بعد ذلك تغييرها أو التعديل منها أو تهذيبها نظرًا لعدم احتكاك أفراد القبيلة بالمجتمعات الاخرى والبطء الشديد الذي يتميز به التغير الاجتماعي في مثل هذه المجتمعات البدائية وتعوّد أفرادها على ممارسة هذه العادات دون تغيير أو تطوير فيها نقلاً عن والأجداد والآباء.

ومن هنا نستطيع القول إن أفراد القبيلة الواحدة تصبح ثقافتهم واحدة وعادتهم وتقاليدهم واحدة وقد يمارسون مهنة واحدة، سواءكانت الزراعة أو الصيد أو الرعي ومن هنا تنشأ صفات عديدة لتجانس أفراد القبيلة الواحدة وينشأ فيها نوع من التوزيع البدائي للعمل وبخاصة بين الرجال والنساء.

وتغلب القيم الروحية في مجتمع القبيلة على القيم المادية فأفراد القبيلة غالبًا متدينون وهم يربطون جميع الظواهر الاجتماعية والمادية التي تمر بهم بالمعتقدات الدينية وتعتمد الروابط والعلاقات الاجتماعية التي تنشأ بينهم على العرف والتقاليد والقيم الدينية وعلى الاتفاق الشفوي وكلمة الشرف. أما التخلف الحضاري في حياة القبيلة فهو ناشئ عن تغلب الجانب غير المادي على الجانب المادي وقد يساء فهم بعض المعتقدات الدينية ولهذا غالبًا ما تنشأ الخرافات والبدع والتزمت ومحاربة كل جديد.

ومصدر النظام في القبيلة هو العادات والتقاليد فكلمة كبير السن لها تقديرها واحترامها من الجميع وهو قضاة القبيلة اذا ما نشأ خلاف بين أفرادها وكلمة الشخص القوي كبير السن منهم هي النافذة.

الزعماء الأفارقة وتحديدهم لمفهوم القبلية :

وقد استمرت هذه الاوضاع قائمة بالنسبة للحياة القبلية في أفريقيا حتى في القرن العشرين . ورغم ظهور قيادات واعية ومتعلمة ومثقفة لبعض هذه القبائل وبخاصة في أفريقيا، إلا أن تعليم وثقافة هذه القيادات غالبًا ماكان موجهًا بواسطة أصحاب الكلمة العليا في المناطق التي تقطنها هذه القبائل ألا وهم المستعمرون. وكما ظهرت مدارس فكرية تحاول وضع وتحديد مفهوم للقبيلة من علماء غربيين وشرقيين نجد أن بعض زعماء هذه القبائل بما توفر لهم من تعليم لديهم آراء مختلفة بالنسبة للقبيلة : فالقبيلة في نظر **كوامي نكروما** (٥) **Kwame Nkrumah** هي شرح لميول عدم **الذوبان الاجتماعي** **Social Disintegration** ، لذلك نجد أن دعوة نكروما لحل مشكلة القبيلة في غانا تنادي باستخدام الجهد التام أو الكامل للحد من النزعة القبلية للرجل الأفريقي القبلي. وفي سبيل ذلك فان نكروما يجد أن نظام الحزب الواحد يمثل الوسيلة أو الاداة الوحيدة التي يمكن بها القضاء على التركيبات القبلية والعمل على بناء

اتصالات متناسقة فعالة بين العناصر الغانية ذات الاصول والجذور القبلية المختلفة (٦).

وبالإضافة لفهم **كوامي نكروما**، فان الباحث سوف يجد نظرية أخرى تعالج فكرة القبلية وتحمل اسم الزعيم الأفريقي المعروف **كوفي بوسيا** **Kufi Busia** أحد الزعماء الأفارقة والتي تعالج فكرة القبلية. ويؤمن **بوسيا** بأن القبائل تمثل قوى يجب أخذها في الاعتبار وأن الزعماء الأفريقيين يجب عليهم عدم محاولة خمد القبلية ولكن يجب عليهم البحث عن طرق لضمها في اطار نظرية البناء القومي.

وفي الحقيقة، فان الفرق بين **نكروما** و**بوسيا** إنما هو نموذج مضغر للاختلاف الكبير والواسع بين الزعماء الأفريقيين حول مشكلة علاج القبلية. فمثلاً هناك زعماء يشعرون بأن القبائل وفكرة الشعور القبلي التي نتجت عنها يجب القضاء عليها من خلال بناء تنظيمات الحزب الواحد (٧). ان هؤلاء الزعماء يمثلون الفئة التي تعتبر أشد عداء لحراس الشخصية القبلية. بينما نجد أيضًا في الطرف المقابل لهذه الفئة المحافظين على الشخصية القبلية، وهذه المجموعة تعتبر في حالة دفاع دائم عن فكرة القبلية وأثرها، في سياسات المجتمع الأفريقي، ومن هذا المنطلق الفلسفي فهي تبنى دفاعها عن الشخصية القبلية بأن معظم الناس، أفريقيين وغير أفريقيين يسيئون فهم قصدهم بالدفاع عن الشخصية القبلية، لذلك فهم يقولون بأن القبائل يمكن أن توجد وتعيش في المجتمع الأفريقي بدون بناء وتنمية فكرة القبيلة.

ان هذين الوضعين اللذين يسيطران على الفكر الأفريقي في الوقت المعاصر بالنسبة لفكرة القبلية له مزاياه ومساوئه عندما ينظر إليه من خلال نظرة البناء القومي. لذلك فإنه يمكن القول بأن وجهة معارضي فكرة القبلية صحيحة، لان تشجيع الشعور القبلي يفتح باب المشاكل، الذي يشمل محتويات خطيرة ومميته للدولة الناشئة. ان هذا القول صحيح لانه إذا كان أعضاء القبائل المختلفة غير متساوين اقتصاديًا، فان فرص القبائل الاكثر حظًا للسيطرة على غيرها من القبائل سوف تزداد. وتحت هذه الظروف، فإننا نجد القبلية تضع الوطن في حالة حصار، لذلك فان الخلافات والنزعات المستمرة ستنمو إلى درجة تهدد أسس الدولة، وستختفي بذلك جميع الآمال لتوحيد هذه القبائل وتموت. في الحقيقة فاننا نجد في هذه الحالة، أن القبائل

الاقل حظًا ستستخدم القبلية فقط كقناع تخفي خلفه الموضوع الرئيسي الذي يشغل بالها، والذي سيكون محوره الاقتصاديات.

اذا نظرنا إلى فكرة القبيلة من وجهة نظر مؤيديها أو أنصارها فان الفرد يمكن له القول أيضًا بأن وجهة نظرهم تحتوي على نقطة تستحق التفكير والدراسة. إن الحقيقة العلمية التي تقول بأن الانسان يعيش في عالم يشتهر **بالابعاد المتعددة Multi-dimensionality** تجعل من الضروري أن يكون **له هوايات متعددة Compartmentalized Identities**. وماذا يقصد من هذا القول إن الانسان يمكن أن يكون **ايبو Ibo ونيجيريا Nigerian** معًا[٨].

وفي ضوء هذه المنافسة فاننا نستطيع الذهاب في القول بأنه لا يمكن **للرجل القبلي The Tribal Man أن يفصل بين التزاماته القبلية والتزماته للدولة فان حالته الذهنية حينئذ لن تكون أبدًا مسرحًا للمشاعر المتنازعة. ولكن لكي يمكن الوصول إلى هذه الحالة النفسية السليمة، فان تنظيات الدولة يجب أن تقام على أسس ادارية متينة.** بمعنى آخر، **فان كل جزء من أجزاء المجتمع**، مهما كان صغيرًا، يجب أن يجد دورًا يلعبه في بناء الامة، وأن جميع الاجزاء يجب أن تتعاون من اجل دفع عجلة التقدم والتطور تحت الزعامة الرشيدة. ان مجموعة هذه النقط النظرية التي شرحتها سبق أن تم معالجتها وصدر بصددها دراسات علمية مستفيضة في الماضي من علماء مثل **بنتلي Bentley**، **سيمور مارتن ليبست Seymour M. Lipset**، **كوسر Coser**، **والبروفسور ارند ليبجفهارت Arend Lijphart**. ان العلماء الثلاثة الأوائل، **بنتلي، سيمور مارتن ليبست وكوسر**، يحدثونا بأنه في المجتمع الكبير الواسع الاستقرار ينمو فن الحقيقة التي تقول بأن كل عضو في المجتمع له **انتماءات متعددة Multiple Affiliations**. فبالنسبة لهؤلاء العلماء، فان مثل هذا التنظيم يسهل عملية **الذوبان الاجتماعي Social Integration** حتى تحاول العمل على تحييد الفرد وتمنعه من استخدام طاقاته الجسمية الذهنية والعاطفية لتقوية انتماء معين[٩].

غير أننا نجد أن دراسات البروفسور ليبجفهارت لها احتمالات تطبيق في المجتمعات المنقسمة قبليًا. ان هذا العالم الامريكي يقول في نظريته إن مثل هذه المجتمعات يمكن

لها أن تكون مستقرة فقط لو أن الاعيان والقادة استطاعوا ممارسة عملية الاخذ والعطاء على المستوى القيادي. ولكن في سبيل شرح نظريته، فإن البروفسور ليبجنهارت يضع شروطًا كثيرة. فهو يشترط أن الوحدات الصغيرة في هذه المجتمعات الكبيرة يجب أن تتمتع بنوع من اللامركزية الإدارية، أي أن قادة هذه الوحدات الإدارية يصبحون اداة الربط بين مركز الدائرة والوحدات، أي أن ولاءهم للنظام القائم يصبح غير مشكوك فيه(١٠).

وفي ضوء هذه الافتراضات النظرية للعلماء الذين أشرنا إليهم، يستطيع الباحث أن يصل إلى نقطة يرى منها القبائل الأفريقية في ضوء جديد. فلو أن رجال القبائل الأفريقيين يرغبون في المحافظة على كل من **ذاتهم القبلية** National Identity، **وذاتهم القومية** Tribal Identity فانه يجب عليهم أن يتكلموا اللغة التي يطلق عليها **البروفسور ارند ليبجفهارت .. الديمقراطية المزدوجة** Consociational Democracy ولو أن أعداء القبلية مثلاً، يرغبون في القضاء على قواعد وركائز القبلية في مجتمعاتهم، فانه يجب عليهم أيضًا تطوير **القاعدة الاقتصادية الاجتماعية** Socio- Economic Base لمجتمعاتهم بسرعة، لانه فقط خلال التعديل الجذري لهذه القاعدة يمكن للانتماءات المتعددة من أفراد شعوبهم أن تتطور.

القبلية : بناءً على ذلك. ليست بمرض لا يوجد له شفاء، فهناك يوجد كثير من الطرق الجراحية التي يمكن استخدامها. فلو أن الأفريقيين يريدون أن يريحوا أنفسهم من خطر وجود هذا الشبح، فانه يجب عليهم العمل في ضوء مقترحات الجراحين السياسيين. غير أنه يوجد هناك عامل آخر لا يجب اهماله، وهذا العامل هو خطورة الموضوع وحساسية العملية. فلو أن الأفريقيين يودون النجاح في هذا الميدان من ميادين التطور التي يعيشها العالم المعاصر، فانه يجب عليهم أن يعملوا أحسن من الأوربيين، الذين كان عليهم أن يقاتلوا حروبًا رئيسة لكي يخلصوا مجتمعاتهم من هذا السرطان.

ولقد اهتم **ليفين**(١١) بالكشف عن القوى التي تؤثر على المجتمع القبلي واستخدم الاسلوب التجريبي العملي في الوصول إلى نظريته عن ديناميات الجماعة القبلية، وقد

استطاع ليفين أن يدرس بعمق ديناميات الجماعة القبلية كقوى وحقائق وعوامل تتصل بوجودها الواقعي مثل عوامل تكوين القبيلة وعوامل تشكيل سلوك أفرادها وجماعاتها وعوامل تماسك أفرادها وتلاحمهم والصراعات التي قد تنشأ بينهم والمعايير والقيم التي يمكن البحث عن وسائل تجعل منها أمورًا ذات فاعلية في تحديد مستقبل القبلية.

ومن هنا تنشأ في ذهن الباحث مجموعة من التساؤلات الاساسية عن حياة المجتمع القبلي ... ومن هذه التساؤلات :

ــ ماهي الاسس التي تحدد الظروف التي تنتج آثارها الفعالة في تكوين حياة القبيلة ؟

ــ ما الذي يدعو إلى مقاومة التغيير في حياة القبيلة وفي عادات أفرادها وفي تقاليدهم المتوارثة ؟

ــ كيف يمكن أن نحدث تغييرًا في حياة أفراد القبيلة وماهي الضمانات الكفيلة بنجاح مثل هذا التغيير؟

ــ ما هي أنماط القيادة التي تمارس في مجتمع القبيلة سلطاتها التي لا حدود لها وتجعل كلمتها هي الوحيدة النافذة ؟

ــ ما هي العوامل التي تدعو إلى ترابط أفراد القبيلة وتماسكهم ؟

كيف يمكن أن نصل إلى مخطط واضح المعالم لتنفيذ عمليات الصهر والاذابة للمجتمع القبلي في المجتمعات المستقرة أو المتحضرة ؟

ويقصد الباحث من **الانصهار أو الذوبان** **Integration** أن الذوبان القومي تعني اقامة **شبكة اتصال اجتماعي** **Social Communication Network** ان المتحدث العظيم لهذه المدرسة **كارل دويتس** **Karl Deutsch** ، البروفسور الجليل بجامعة هارفارد. ان عملية الذوبان الاجتماعي بالنسبة للبروفسور دويتش هي حالة وخطوات. فهي حالة تمثل في حد ذاتها الإنتاج النهائي للانصهار الذي يظهر بعد عدة عمليات متسلسلة. في كتابه : **Nationalism and Its Alternatives** **الصادر في عام ١٩٦٩ م**، نجد **البروفسور دويتش** يستخدم الوثائق بأسلوب علمي أخاذ، ليرينا

كيف أن الاوربيين تطوروا إلى دول قومية منفصلة (١٢). فهو يحثنا في هذا الكتاب على ان الانصهار الوطني يصبح ممكنًا بعد اتخاذ ست خطوات أو عمليات بين مجموعة من السكان يقيمون على منطقة معينة من الأرض، وفي ضوء هذا نجد **البروفسور كارل دوبتش يسجل الخطوات الست كما يلي :**

(أ) تطوير الـدول.
(ب) تطوير وسيلة الاتصال الغير منظورة — أي اللغة.
(جـ) علمية الذوبان الاجتماعي للقادة.
(د) عملية الذوبان الاجتماعي للقبائل.
(هـ) عملية تطوير فكرة الامة من خلال الاتصال الاجتماعي.
(و) عملية الذوبان السياسي للاداة الحكومية.

لذلك نجد أن فكرة الاتصال الاجتماعي تصبح حجر الاساس لفهم نظرية البروفسور كارس دوبتش عن الانصهار أو الذوبان الاجتماعي. ان هذا العالم يؤمن بأن فكرة الاتصال الاجتماعي تكون القاعدة الاساسية للذوبان السياسي للمجتمع. إن عملية كهذه تجعل من الممكن لاعضاء المجتمع أن يتصلوا ببعضهم البعض في موضوعات ذات أبعاد واسعة. كما أنها تعطيهم أيضًا الاحساس بشعور المحبة المتبادل الذي بالتالي يدعم عادة الاتصال الاجتماعي. ان الانصهار الاجتماعي في نظر **الاستاذ كارل دوبتش**، عبارة عن عملية مستمرة أي أن المجتمعات تختلف في مراحل تطورها وتقدمها لشبكة الاتصال الاجتماعي (١٣).

وإلى جانب المدرسة التي يمثلها **البروفسور كارل دوبتش**، فانه يوجد علماء آخرون عالجوا هذه المشكلة. فالمدرسة الثانية، تضم علماء مثل **سيمور مارتن ليبست Seymour M. Lipset**، **جيمس كولمان James Coleman** وغيرهم، نرى أن الأنصهار أو الذوبان الاجتماعي يمكن تحقيقه عندما يتمتع أفراد المجتمع بالانتماءات أو العضوية المتعددة، ويوافقون أيضًا على قوانين اللعبة السياسية، فمثلاً نجد **سيمور مارتن ليبست** في كتابه **التحرك الاجتماعي في المجتمع الصناعي Social Mobility in Industrial Society الصادر في عام ١٩٦٢ م**، يقول إنه يجب

الاعتناء بفكرة الانتماءات المتداخلة في المجتمع ، لانه يعمل بالافتراض بأن الذوبان السياسي يتم بنجاح عندما يتم ربط أعضاء المجتمع مباشرة بالنظام السياسي عن طريق عملية الانتماءات المتعددة(١٤).

أما المدرسة **الثالثة**، والتي يرأسها **البروفسور أرتد ليبجفهارت**، ترى أن الذوبان يمكن تحقيقه كنتيجة لسياسة الاخذ والعطاء بين غالبية المجتمع عند مستوى القيادة. ان **البرفسور ليبجفهارت** يناقش نظريته في كتابه سياسات **الأخذ والعطاء The Politics of Accomodation الصادر في عام ١٩٦٨ م**، فيقول بأن الذوبان الاجتماعي يمكن تحقيقه اذا ما استعملنا **النموذج الديمقراطي المزدوج**(١٥) **Consociational democrary model**

بعد القيام بهذه الرحلة السريعة بين أعضاء عائلة الانصهار الاجتماعي حيث امكن لنا أخذ فكرة سريعة عن مدارسها المختلفة ، فاننا الآن سنعيد عدسة جهازنا مرة أخرى لنسلطها على تاريخ المملكة العربية السعودية لكي نتمكن من شرح التجربة السعودية لانها تتصل بطريق مباشر بمشكلة الذوبان الاجتماعي في أفريقيا وفي أي دولة اخرى نامية.

غيرأن هناك مجتمع واحد استطاع أن يتعامل مع هذه المشكلة بطريقة حاسمة وشاملة. **أن المملكة العربية السعودية تم تأسيسها كدولة متطورة متقدمة تحت زعامة المغفور له الملك عبد العزيز في سبتمبر عام ١٩٣٢ م. ان الدارس لتاريخ المملكة العربية السعودية في ذلك الوقت يجد أنها كانت تتألف من أربعة مناطق جغرافية وعدد كبير من القبائل الرئيسية والفرعية. لكن طالب تاريخ المملكة العربية السعودية المعاصر سيجد أنه لا يوجد هناك أي مشاكل قبلية كما أنه لم يكن هناك أيضًا أية إبادة جماعية للقبائل ، كما نعرفها في دراستنا لنظام الحكومات المقارنة ونقرأ عنها في صحف العالم المختلفة. ان عملية الذوبان الاجتماعي كما يعرفها علماء العلوم السياسية اليوم ، قد تمت بنجاح في المملكة العربية السعودية إلى درجة أن الادارة الحكومية Bureaucracy قد ملئت بأبناء المناطق الأربع بما فيها جميع القبائل، وأن جميعهم قد تم تعليمهم بدرجة متشابهة بل وشجعوا عليه. إن تحول Transformation مجتمع الجزيرة العربية من حالته السابقة التي اتصفت بالتفرقة**



والارتباك إلى شعب اليوم المستقر الآمن والمتماسك يمكن أن يرجع فضله إلى المغفور له الملك عبد العزيز والقيادات السياسية المتعاقبة. ولكن لكي يمكن لنا أن نفهم التجربة السعودية في هذا الميدان، فانه يجب أن تدرس الخطوات التي اتخذت في اطار نظرية الذوبان وكيف تم انشاء المملكة العربية السعودية، لربما أن هذه الدراسة التحليلية ستساعد أخواني الافريقيين، علماء وقادة.

التجربــة والسعوديــة :

ولكي نفهم هذه التجربة فهمًا عميقًا وصحيحاً فانه يجب علينا التحدث عن موضوعين مهمين أولها: عبقرية المغفور له **الملك عبد العزيز**، وثانيهما عملية الذوبان القومي التي تمت خلال حياة هذا القائد العبقري.

أولاً : عبقرية الملك عبد العزيز :

ان التاريخ يحدثنا ان **الملك عبد العزيز قد توفرت فيه جميع معايير** Criteria **الزعيم العبقري** Charismatic Leader **أن ماكس ويبر** Max Weber **العالم الألماني الذي كتب كثيرًا عن هذه النظرية، يعرّف العبقرية في كتابه المشهور العبقرية والبناء الإداري** On Charisma and Institutions-Building **الذي ترجم إلى الإنجليزية بواسطة اس. ان. ايزن استادت** S. N. Eisenstadt **في عام ١٩٦٨، فيقول بأنها صفة معينة لشخصية فرد ما التي بفضلها أصبح مميزًا عن الرجل العادي وعومل طبقًا لذلك وكأنه منح مزايا استثنائية**(١٦). ان هذا التعريف يقودنا إلى الاعتراف بأن إنجازات المغفور له **الملك عبد العزيز** جعلت منه عملاقًا بين الرجال.

إن قدرته الباهرة للتعامل بنجاح مع الموضوع العظيم الذي يهدف إلى توحيد عناصر الجزيرة العربية المحبة للحروب والغير أليفة رشحته فضلاً لدور الانسان الذي تجاوز حدود الانسان العادي. ان هذا الجانب المضيء من حياة المغفور له الملك عبد العزيز قد ناقشه مؤرخون كثيرون امثال **أمين الريحاني**(١٧) Ameen Rihani، **العالم السوري — الامريكي، في كتابه صانع الجزيرة العربية الحديثة** Maker of Modern Arabia، **جون فيلي** John Philby **في كتبه العديدة والتي منها كتاب المملكة العربية السعودية** Saudi Arabia (١٨) **وفان در ميلون** Van der Meulen، **الدبلوماسي الهولندي الذي كتب كثيرًا عن التجربة السعودية والذي من بينها كتابه وصايا ابن سعود**(١٩) **The Wills of Ibn Saud**، ومن دراسة أعمال هذه الاسماء العظيمة المتخصصة في دراسات الشرق الأوسط نستطيع أن نقول إن جوهر العبقرية يمكن تحديده في ضوء قدرتها على تضييق الفجوة بين الغايات العامة للقائد المؤسس وبين الوسائل المحددة المتاحة له. بمعنى آخر أن القائد العبقري يمكن أن يكون عاملاً حاسمًا في عملية البناء القومي.

إن البروفسور **دانكورت روستو** Dan Kwart Rustow **يخبرنا في كتابه فلاسفة وملوك: دراسات في القيادة** Philosophers and Kings: Studies In Leadership أن الزعيم الناجح يجب أن يعرف الماضي ويكون قادرًا أيضًا على استخدام الماضي البعيد كحليف ضد الماضي المباشر(٢٠). فمثلاً عندما ندرس حياة المغفور له **الملك عبد العزيز**

نجد أنه عرف دروس التاريخ معرفة جيدة، وأنه مثلاً استخدم **تاريخ الاسرة السعودية البعيدة لكي يتحدى ادعاءات الغير للاستيلاء على الحكم في نجد بل في الجزيرة العربية بأسرها.**

ان دراسات **البروسور دانكورت روستو** تشير إلى أنه يوجد هناك عدة طرق ووسائل تساعد القائد والزعيم على تنظيم جهود الآخرين وهذه الوسائل هي : **البعد Detachment، المساهمة والمشاركة Involvement ، الاتصال Communication ، الاختراع أو الابتكار Innovation تصور التغير المستمر Perception of Ongoing Change.**

وفي ضوء رأي **البروفسور دانكورت روستو** يمكن لنا تطبيق الوسائل التي أشار إليها في ضوء المعلومات التاريخية عن المغفور له **الملك عبد العزيز.**

فترة البعد والاغتراب :

ان هذه الفترة كما يحدثنا التاريخ، كانت عبارة عن تلك الفترة التي قضاها جلالة **الملك عبد العزيز** في صباه، خارج بلاده بعيدًا عن عشيرته وأنصار عائلته، حيث قادته إلى التأمل والتفكير العميق في المجد الضائع لعائلته، مما خلق في نفسه تصميمًا قويًا على استعادة ذلك المجد الزاهي، وبذلك أدت هذه الخطوة إلى مرحلة المساهمة أو المشاركة.

الاتصـــــال :

ان هذه الوسيلة كانت في بداية نضال **الملك عبد العزيز** لاسترداد ملك أجداده، وتأسيس حكم يُرجع إلى الجزيرة العربية عز ماضيها، في شعور واحساس الصحراء، عن طريق الرحلات والخطابات الشفهية. ولكن هذه الوسيلة سرعان ما تطورت وأخذت شكل الآلات الحديثة في عالم الاتصال، وهذه تتمثل في الاستخدام الواسع للتليفون، التلغراف والسيارة، الاختراع أو الابتكار.

ان هذه الوسيلة قد ناقشها كثير من المؤرخين وأساتذة العلوم السياسية كما اني سأتحدث عنها خلال مناقشتي لعملية الذوبان الوطني للتجربة السعودية. على أية

حال، فان التركيز سيكون على مشروع تعليم أبناء الجزيرة العربية الذي يهدف إلى تجسيد قدراتهم وتحويلها إلى اداة فعالة في بناء صرح الامة السعودية.

التصور للتغير المستمر :

ان الكاتب الانجليزي **جون فيلي** كتب منذ سنوات طويلة بأن المغفور له **الملك عبد العزيز** كان دائم التفكير والتأمل، غير قانع باتباع الطرق العادية كما يفعل الكثيرون. من هذه العبارة نستطيع أن نستنتج أن **الملك عبد العزيز** كان دائمًا مستعدًا ومتأهبًا للظروف التي تملي الحاجة للتغيير.

ثانيًا : عملية الذوبان الوطني والجزيرة العربية :

ان التاريخ يحدثنا تفصيليًا عن الوضع السياسي في الجزيرة العربية قبل استيلاء الملك عبد العزيز عليه، فيصفه بعدم الاستقرار الناتج عن الحروب القبلية المستمرة. بمعنى آخر أن الحروب كانت عادة ولم تكن استثناءً. كل قبيلة كانت مستعدة لأن تستخدم كل قوتها التدميرية ضد الاخرى لتحقيق مصلحتها القبلية. لذلك يقول المؤرخون السياسيون بأنه لم تكن هناك سلطة مركزية قادرة على اقامة نظام مستقر قائم على اتباع القانون (**الشريعة**) في ذلك الجزء من العالم. لكن العبقرية التي تمتع بها المغفور له **الملك عبد العزيز** جعلت من الممكن لعرب الجزيرة العربية أن يتطوروا إلى أمة بطريقة آمنة بناءة. إن قصة نجاح **الملك عبد العزيز** تقوم على الاجراءات التالية التي قام باتخاذها :

١ ـــ استخدام عبقريته في جميع العناصر التي تؤيده لاقامة ميكانيكية سياسية يمكن لها تطويق شعور عدم الراحة للبدو.

٢ ـــ بعد إقامة اجهزة الدولة وتنظيمها إداريًا فان المغفور **الملك عبد العزيز استطاع أن يطهر المناطق الجغرافية المختلفة في اطار مملكته عن طريق جمعها تحت سقف سياسي واحد.**

٣ ـــ **ان جهود الملك عبد العزيز** في بناء الدولة قادت إلى اقامة انظمة

للتعليم والمواصلات التي كان دورها بالتالي فعّالاً وذا أبعاد واسعة على التركيب الحكومي الحالي.

نظام التعليم كعامل فعال في عملية الذوبان القومي :

إن تاريخ التعليم في الجزيرة العربية، قبل عهد **الملك عبد العزيز**، يشير إلى أنه لم يكن يوجد هناك إدارة للتعليم بمعناها الحديث في الجزيرة العربية. فالتعليم الحديث كان مركزًا في المدارس الخاصة، كما يقول **الأستاذ خير الدين الزركلي** في كتابة الجزيرة العربية في عهد **الملك عبد العزيز**، وأن هذه المدارس كانت مقامة في منطقة الحجاز[٢١]، غير أنه تم انشاء أول إدارة للتعليم في مكة عام ١٩٢٦م.

وقد مرت الثورة التعليمية التي فجر طاقاتها المغفور له **الملك عبد العزيز** في الجزيرة العربية بمراحل متعددة، كان من نتائجها بصفة عامة ان ظهرت بالمملكة أربعة أنواع من التعليم :

١ ــ مدارس رسمية في المدن والقرى.
٢ ــ مدارس دينية في أماكن توطين البادية والقبائل.
٣ ــ بعثات تعليمية في الخارج لتلقي المواد التي لم تتيسر في الداخل.
٤ ــ مدارس خاصة.

ان الجدول التالي سوف يعطينا صورة واضحة عن أبعاد هذه الثورة التعليمية التي نعيشها اليوم. لقد اخترت المدة ما بين عام **١٩٥٠** وعام **١٩٥٣** لانها في نظري تمثل ذروة الثورة التعليمية في عهد **الملك عبد العزيز** رحمه الله.

السنة	مدارس	مدرسون	طلاب
١٩٥٠	١٤٦	٦٤٣	١٦٠٢٩
١٩٥١	١٩٦	٩٤٣	٢٣٨٣٥
١٩٥٣	٣٢٦	١٦٥٢	٤٣٧٣٤



ان افواج المتعلمين من **الشباب السعودي** قد أعطى الآن الإدارة الحكومية فرصة لأن تتطور وتصبح أداة فعالة لتحقيق الذوبان القومي في المملكة العربية السعودية.

الإدارة الحكومية والذوبان القومي :

يجمع المؤرخون على أن **جلالة الملك عبد العزيز كان مسيطرًا تمامًا على الجزيرة العربية قبل عام ١٩٣٢**. ولكن اتساع حكمه جعل من الصعب على رجل واحد أن يدبر إدارة حكومية واسعة. وعندما بدأ يبحث عن أشخاص لتملأ الإدارة الحكومية، فإن **جلالة الملك عبد العزيز** بدأ يواجه مشكلة النقص في السعوديين الاكفاء. لذلك يقول المؤرخون إنه اضطر إلى توظيف بعض الخبراء من الدول العربية. ومهما تكن قدرة هؤلاء الخبراء. فإن **جلالة الملك عبد العزيز** عرف تمامًا أنه من الضروري جدًا العمل على وضع ابناء أمته الجديدة في امكنتهم. وكان التوسع في التعليم هو حله الوحيد لهذه المشكلة.

وكما يعرف القارئ الكريم أن المناطق الأربعة المكونة للمملكة، **نجد، الحجاز، المنطقة الشرقية وعسير،** كانت تختلف إداريًا، غير أنها وحدت طبعًا عن طريق ولائها للملك عبد العزيز، الذي تم تحقيقة بفضل صفاته العبقرية. وقد تنبه جلالته إلى أن غالبية أعضاء الإدارة الحكومية التي لم تأت من الخارج جاءت من الحجاز لان جميع المدارس في البلاد كانت موجودة في تلك المنطقة. لهذا عمل على تفادي ذلك بانشاء المدارس الابتدائية والثانوية في المناطق الأخرى لمحاولة رفع المستوى التعليمي لابنائها، لكي يجعلهم يبدأون رحلتهم على طريق التقدم والتطور.

غير أن **المجتمع السعودي** بدأ يأخذ طريقًا إداريًا جديدا وهو سائر على طريق التطور والتقدم عندما بدأ الزيت في الإنتاج وتصديره إلى الخارج وبالتالي تدفق المال إلى الداخل. ان هذا التطور يمكن ملاحظته في اقامة الوزارات الحكومية. فمثلاً قبل عام ١٩٥٠ كان يوجد في المملكة ثلاث وزارات : المالية، الخارجية، والدفاع. ولكن خلال الفترة من ١٩٥٠/١٩٥٣ تم اضافة خمس وزارات هي : **الداخلية،**

المواصلات، الصحة، التعليم، والزراعة، بالإضافة إلى مديرتي شئون الزيت والمعادن والعمل والعمال.

من الدراسة السابقة يمكننا القول بأن الانصهار القومي هو العنوان الرئيسي الذي يتضمن جميع اشكال الذوبان القومي. لذلك فان الذوبان القومي هو العملية التي تؤدي إلى ربط العناصر المختلفة في داخل مجتمع ما بالانظمة السياسية، الاقتصادية، الثقافية والاجتماعية للمجتمع.

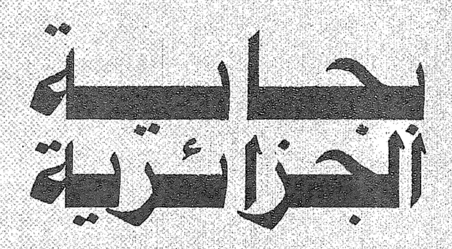


الهوامـش :

1. W. E. Abraham: **The Mind of Africa,** (London, 1962).
2. J. S. Mbiti: **African Religions And Philosophies, (New York, 1963).**
3. Archie Mafeji: **The Ideology of Tribalism,** Journal of Modern African Studies (1971).
4. Mbiti: op. cit.
5. Kwame Nkrumah: **Africa Must Unite,** (New York Praeger, 1963).
6. I. Wallerstein: **Africa, The Politics of Independence,** (New York, Vintage, 1961).
7. Ali Mazrui: **Political Values And The Educated Classes in Africa,** (Berkeley University of California Press, 1978).
8. Seymour Martin Lipset: **Political Man,** (New York, Doubleday, 1968).
9. Arend Lijphart: **The Politics of Accommodation, (Berkeley** University of California Press, 1968).
10. Kurt Levine: **Field Theory In Social Science,** (New York, Harber & Bros., 1951).
11. Karl Deutsch: **Nationalism & Social Communication,** (Cambridge MIT Press, 1966).
12. Karl Deutsch: **The Nerves of Government,** (New York Free Press, 1963).
13. Lipset, op. cit., James Coleman and Gabriel Almond: **The Politics of The Developing Areas,** (Princeton: Princeton University Press, 1960).
14. Lijphart, op. cit.
15. Max Weber: **On Charisma And Institution Building,** ed. S. N. Eisenstadt, (Chicago: University of Chicago Press, 1968).
16. Ameen Rihani: **Maker of Modern Arabia,** (Boston Houghton Miflin, 1928).
17. H. St. John Philby: **Saudi Arabia,** (New York Praeger, 1955).
18. D. Van Der Meulen: **The Wills of Ibn Saud,** (New York, F. Praeger, 1957).
19. Dan Kwart Rustow: **Philosophers & Kings,** (New York, George Braziller, 1970).

(٢٠) خير الدين الزركلي، **شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز،** (بيروت : مطابع دار القلم، ١٩٧٠ م).

(٢١) م. ت. صادق، **تطور الحكم والإدارة في المملكة العربية السعودية،** (الرياض ١٩٦٥ م).



ورثة القيروان
وحاضرة المغرب العربي لثلاثة قرون

دكتور عبد الحليم عويس

الحديث عن «بجاية» كواحدة من حواضر حضارتنا الإسلامية يتطلب التعريف — ولو بإيجاز — بالدولة الحمادية التي تنتسب إليها بجاية في التاريخ.

والدولة الحمادية دولة جزائرية إسلامية ظهرت في التاريخ كحركة انشقاق. أو استقلال. عن بني زيري الذين ينتسبون إلى قبيلة صنهاجة الشمال ... والذين خلفوا الفاطميين في حكم المغرب العربي. بعد رحيل المعزّ لدين الله الفاطمي إلى مصر سنة (٣٦١هـ).

وقد استقل بنو حماد بالجزائر. وامتدوا أحياناً إلى حكم بعض أقاليم من تونس التي كان عليها أبناء عمومتهم من بني باديس الزيريين.

وامتدَّ حكمهم من سنة (٤٠٥ — إلى — ٥٤٧هـ) أي أن دولتهم قد استمرت قرابة قرن ونصف القرن.

وكان مؤسس دولتهم، وأول حكامها هو (حماد بن بلكين بن زيري الصنهاجي) — أما آخر حكامهم فهو (**يحي بن العزيز**) الذي استسلم للموحدين وانضوى تحت لوائهم على أمانٍ أعطاه له عبد المؤمن بن علي الموحدي ! !

وكان من أعظم أمرائهم (**الناصر ابن علنياس**) (**٤٥٤ — ٤٨١ هـ**) وهو الذي أسس بجاية، بعد أن ضاقت العاصمة الأولى (قلعة بني حماد) عن الوفاء بما تتطلبه مرحلة الازدهار الحضاري التي تحققت على يد هذا الأمير الحمادي العظيم.

بجاية في التاريخ :

تمثل مرحلة بجاية في تاريخ الدولة الحمادية مرحلة التحضر والانفتاح والهدوء والاتساع، كما أنها تمثل الشوط الأخير الذي انتهى بسقوط الدولة، ذلك الشوط الذي امتد سبعة وثمانين عاماً.

ويرجع التفكير في بناء بجاية لدى الناصر — الأمير الحمادي الخامس — إلى عدة أسباب اختلف حولها المؤرخون، لكن الطابع العام لها هي أنها أسباب ترجع إلى ظروف طارئة وليست أسباباً خاضعة لتخطيط مسبق.

ويرى الرأي الأول — في تعليل بناء بجاية — أن النتائج التي أسفرت عنها موقعة سبيبة — غربي القيروان — التي هزم فيها **الناصر بن علناس — الحمادي** — سنة **٤٥٧هـ (١٠٦٤)م** أمام أبناء عمومته الزيريين أصحاب تونس، ونتيجة خيانة القبائل العربية له. كانت هي السبب في التفكير في بناء بجاية، ويذهب إلى هذا الرأي ابن الأثير[١] والنويري[٢]، وصاحب كتاب الاستبصار[٣]، وبعض المتأخرين[٤].

ويضيف (ابن الأثير وياقوت) إلى هذا السبب رأيهم في أن بناء بجاية مرتبط بقصة الصلح بين الناصر الحمادي، وتميم بن المعزّ بعد موقعة (سبيبة)، وبقصّة خيانة ابن البعبع أحد رجال تميم — له، وتآمره مع الناصر. فإن الناصر كان قد ندم على تورطه في الحرب ضد بني عمومته، ومال إلى الصلح معهم، وشاور في ذلك وزيره أبا بكر بن أبي الفتوح الذي كان يميل إلى هذا الرأي قبل موقعة (سبيبة)، فقرر الوزير إرسال رسول إلى تميم يطلب الصلح وتحسين العلاقات، وقد قابل تميم بن المعزّ

العرض بموقف إيجابي، فأرسل أحد رجاله ويدعى محمد بن البعبع لتميم مع ابن عمه (**الناصر بن علناس**) شروط الصلح، لكن ابن البعبع خان تميماً، وانضم إلى الناصر ووعده بالمساعدة في امتلاك بلاد تميم، وأظهر له مواطن ضعفها، واقترح عليه بناء بجاية في موقعها الذي كان يمر به وأعجبه، لتكون على الساحل، ولتكون قريبة من أفريقية[٥] الزيرية. ويرى رأي ثالث، أن الناصر بن علناس، الذي تولى الأمر بعد قتله للأمير السابق له: بلقين بن حماد، فذكره مجاورة بني حماد الذين يميلون إلى بلقين في القلعة، إذ كان يسكنها من فرسان صنهاجة إثنا عشر ألف فارس[٦]) وثمة آراء أخرى يرى بعضها أن بناء بجاية يرجع إلى مجرد الخوف من غزوات الهلاليين[٧]. ويرى بعضها أن بناء بجاية يرجع إلى الصدفة، إذْ أن الناصر كان يمرّ في طريقه إلى القلعة فأعجبته ضيْعة صغيرة لصنهاجة تدعى بجاية[٨].

وفي تصورنا أن الرأي الأول الذي يرجع الأمر إلى خراب القلعة كنتيجة لموقعة سبيبة، كان هو الباعث على التفكير في بناء عاصمة جديدة يمكن أن تلعب دوراً جديداً تتطلبه ظروف الدولة[٩]، بيد أن هذا الرأي يمكن أن يتصل بسائر التعليلات التي وردت بعد ذلك، ولا يوجد ثمة تنافر بينهما، ففي فترة التفكير في موقع العاصمة الجديدة، يمكن أن تكون قصة ابن البعبع قد حدثت ونحن نرجح صحة حدوثها، ويمكن أن يكون الناصر قد شارك ابن البعبع الرأي، وتفقد المكان بنفسه، كما أنه لا شك أن من أهداف العاصمة الجديدة، حماية الدولة الحمادية من غارات الهلاليين، وإتاحة مكان أفضل لها بالنسبة لمنافسيها في تونس[١٠]. ولا نجد أكثر وضوحاً وإيجازاً في إبراز سبب تعمير بجاية من عبارة الإدريسي «**وأما مدينة بجاية في ذاتها فإنها عَمُرت بخراب القلعة التي بناها حماد**»[١١].

موقع بجايـة :

كان المكان الذي تقع فيه بجاية موقعاً لمدينة أسسها الفينيقيون تعرف باسم «صلدة» ثم انتقلت إلى الرومانيين وعرفت باسم SALDAEA — (**صلداي**) ثم خربت بعد ذلك ولم يعرف تاريخ اندثارها، ولكن الشيء الثابت أنها كانت من أهم مدن «نوميديا» وقد أقام بها الامبراطور «أوغست» جالية رومانية، وكانت بها

أسقفية إلى أوائل القرن الخامس الميلادي [١٢].

وفي العصر الإسلامي. لم يكن لها شأن. وربما كانت على شكل قرية صغيرة مغمورة على عهد الناصر الحمادي. وكانت تسكنها قبيلة تسمى بجاية أو (**بوجي**) يبدو أنها فرع صغير لإحدى القبائل الكبرى المنتشرة في المغرب. ويبدو أن بجاية كانت معروفة قبل تعميرها على يد الحماديين كمرسى [١٤]. فإن حوقل المتقدم عن الحماديين يذكرها بهذه الصفة [١٥]. وقد فهم «جوتين» — خطأ — أن ابن خلدون يحكي قصة تأسيس بجاية كأن لم يكن لها ماضٍ [١٦] على أن ابن خلدون ذكر أنها كانت قبل الناصر محلة مسكونة بقبيلة بربرية تحمل نفس الاسم [١٧].

خصائص مدينة بجاية :

ومن الواضح أن اختيار الناصر لبناء بجاية في هذا المكان لم يكن إلا نتيجة لما تتمتع به من موقع ومناخ استحوزا على إعجابه، فهي على شكل مثلث قاعدته الميناء أو البحر الذي تقع على ساحله، حيث تقوم كفاصل من الفواصل الكثيرة بين إفريقية (**تونس** و**المغرب**) [١٨] لكنها مع ذلك على حرف حجر متكيء من جهة الشمال على جبل يسمى مسيون صعب المرتقى [١٩]. وليس لها طريق سهل إلا من ناحية الغرب، وباقي طرقها شرقاً وجنوباً على أوعار كما أنها تقع بين مدينتين هما الجزائر وقسنطينة، وتطل على خليج يحميها من ثورة البحر ولهذا كانت المدينة في القديم مجرد ميناء أو مرسى [٢٠].

وتتمتع المدينة بنهر كبير يسمى «**الوادي الكبير**» **هو منتزهها وعليه بساتينها وقصورها** [٢١] وهو يأتيها من جهة المغرب من نحو **جبال جرجرة** وهو نهر عظيم على بعد ميل منها وكلما بعد عن البحر كان ماؤه قليلاً، ويجوزه من شاء في كل موضع منه. وأما عند فم البحر الأبيض فيجاز بالمراكب [٢٣] وعلى شاطىء هذا النهر تقام البساتين والمنتزهات [٢٣].

والمدينة قطب لكثير من البلاد كسطيف وبانماية وقلعة بشر وتيفاس وقالمه وتبسه ودور مدين والقصرين وطنبة [٢٤].

وتمتاز بجاية إلى جانب الموقع — بمناخ معتدل جداً في الصيف، ويكثر

سقوط المطر الغزير في منطقتها — لا سيما في الشتاء — كما أن البحر الأبيض المتوسط يلطف دائماً من جوها، ويعطيها كل مميزات خصائص المدن الساحلية.

سكان بجاية:

وعندما شرع الناصر في بنائها سنة ٤٦٠ هـ — ١٠٦٧ م اجتذب إليها عدداً كبيراً من السكان، إذ كان يعفى جميع السكان الجدد من الضرائب، وكان يجبر الأهالي على بناء المساكن، كما كان يفرض على كل من يدخل هذه المدينة أن يجلب معه حجراً أو يدفع قطعة من الذهب[٢٥]

ولما تم بناؤها أطلق عليها الناصر اسمه فأصبح اسمها الرسمي «**الناصرية**» لكن لم يقدر لهذا الاسم أن يحظى باستعمال الناس، إذ غلب على المدينة اسمها القديم المنتسب إلى أشهر قبيلة سكنتها هي قبيلة بجاية.[٢٦]

وفي العام التالي **٤٦١ هـ (١٠٦٨ م)** انتقل الناصر إليها، وبدأ يقوم بعملية تحضير شاملة لها، فأنشأ بها داراً للصناعة والأساطيل والمراكب وإنشاء السفن والحرابي حتى صارت عين بلاد بني جماد[٢٧]، ونسقها تنسيقاً بديعاً، إذ استغل النهر القريب منها، وأحاطه بكثير من البساتين والجنات، وصنع عليه نواعير تسقى من النهر[٢٨].

ومن أنف الجبل الخارج من البحر والمتصل بالمدينة ابتنى الناصر مجموعة من القصور كان أشهرها قصر اللؤلؤ الذي كان — من أعجب قصور الدنيا[٢٩]. والذي نرجحه أن المنطقة كلها سميت باسمه لشهرته، ويبدو أنه جعل من هذه المنطقة التي ابتنى بها قصوره منطقة خاصة أرستقراطية شبيهة بتلك الأحياء الراقية المعروفة بالأندلس، وقد وصف صاحب الاستبصار قصورها بأنها قصور لم ير الراؤون أحسن منها، ولا أنزه موضعاً، وذكر أن بها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديد والأبواب المخرمة المحنية، والمجالس المقرصة والمبنية حيطانها بالرخام الأبيض[٣٠].

كما ابتنى رصيفاً ممتداً في البحر، ومناظر معلقة لجر المياه، وأحاط المدينة كلها بسور به أبراج للمراقبة[٣١].

تطور الدور التاريخي لبجاية:

وفي عهد خليفة الناصر (**المنصور ابن الناصر**) استمرت عملية تحضير المدينة[٣٢] ونقل إليها كثيراً مما كان

بالقلعة[٣٣]. وقد ساعد على إعطاء مدينة بجاية أهمية خاصة منذ إنشائها، أنها كانت، بتحضرها الذي ذكرناه، الملجأ الذي وفد إليه كثير من الهاربين من إفريقية بعد خراب القيروان وهزيمة المعزّ بن باديس أمام الهجمة الهلالية.

ولما كانت سنة ٥٣٨ اقتلع (**يحي الحمادي**) من القلعة كل ما كان بها من أدوات الزخرف، ونقلها إلى بجاية فزينها بها، ويعتبر عهد **يحي الحمادي** (**٥١٥ — ٥٤٧**) قمة ما وصلت إليه بجاية من تطور حضاري، وإن كان هذا التطور قد حمل في طياته جراثيم انهيار الدولة.

وفي العهد الأخير لبجاية في العصر الحمادي كان المرابطون الذين توغلوا إلى تلمسان من أرض الجزائر سنة ٤٧٤ هـ، واحتلوا الغرب المغربي كله، يعانون من عوامل السقوط، وكانوا قد فقدوا وجودهم الحقيقي كقوة تهيمن على المغرب والأندلس، وفي الفترة نفسها كان الزيريون — أبناء عمومة الحماديين — في تونس، قد فقدوا القيروان منذ سنة (٤٥٤) هـ — ١٠٦٢م وسادت بلادهم الفوضى بفعل الهجمات التي شنّتها القبائل العربية التي أرسلها الخليفة الفاطمي المستنصر انتقاماً من المعزّ بن باديس، وبفعل الاضطرابات والحروب الدائمة بينهم وبين الحماديين، وبينهم وبين النورمان.

وقد أعطت كل هذه الظروف فرصة عظمى للحماديين، ليحتلوا مركز الصدارة في المغرب العربي، ولقد احتله الحماديون فعلاً، نظراً لضعف القوى المحيطة بهم، أكثر منه لقوتهم الذاتية، فقد كان الحماديون أنفسهم يعانون من بعض هذه العوامل التي عانى منها الزيريون، إلى جانب أسلوب بعض حكامهم في الحكم.

ومع كل **هذه** الظروف — فقد كانت حدود الحماديين على عهد بجاية، هي أكبر حدود وصلت إليها الدولة، لا سيا من الناحية الشرقية، إذ قدر لها أن يصل نفوذها إلى القيروان وتونس، كما أنها — بقوتها النسبية— قد أوقفت المرابطين عند تلمسان، واضطروا إلى التراجع عن وهران وتنس بعد أن وقفوا على مشارف مدينة الجزائر، وتم عقد سلام أدبي بين المرابطين والحماديين، لا سيا بعد بداية اضمحلال المرابطين بعد سنة **٥٠٠هـ** (**١١٠٦م**)، وموت يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين الكبير.

وانتهى ذلك كله بظهور الموحدين



الذين قضوا على كل القوى التي تحكم المغرب، وتمكنوا من لم شعثه تحت قيادتهم على مشارف النصف الثاني من القرن السادس الهجري (**الثاني عشر الميلادي**).

حضارة بجايــة:

كان للحياة الهادئة والمترفة التي حققها الحماديون لأنفسهم منذ (**الناصر ابن علناس**) أثرها في إبداع المجتمع الحمادي في كثير من الفنون.

وإذا كان الإبداع الفني نتيجة من نتائج ازدهار المجتمع ورخائه، وخلوّه من المشاكل الخارجية والداخلية المهددة لحياته، إذا كان هذا فإن السياسة الحمادية التي قامت — إلى حد كبير — على أساس البناء الداخلي، وتوطيد العلاقات السلمية بشتى السبل مع الجهات الخارجية، كانت أبرز عامل في الازدهار الفني الذي تمتعت به دولة بني حماد في أكثر من نصف عمرها.

وحيث كان المجتمع الحمادي مفتوحاً يتلقى كل الباحثين عن مرفأ آمن، فقد استطاعت الفنون الحمادية أن تأخذ وتعطي، وأن تتبادل التأثير والتأثر مع الأندلس ومع المشرق العربي، محتفظة لنفسها بخصائص مستقلة، وبحق التصدير في كثير من نواحي الإبداع الفني — وبخاصة فنّ الهندسة المعمارية والزخرفة — «إن شهرة بني حماد قد ذاعت حتى طارت إلى الأندلس، ولقد شاع إيواؤهم للمغلوبين على أمرهم والمطرودين[٣٤].

ولئن كان **المنصور الحمادي — كما يقول الدكتور سعد شلبي — قد جعل بلاطه أندلسياً تشبه فيه صاحبه بملوك الأندلس، فعاش عيش المترف المولع بالنساء**[٣٥]، فإن الأندلس كذلك قد اقتبست من إفريقية والمغرب أوضاعاً من الأدب، وأصنافاً من الفن وطرائق من الغناء العربي[٣٦] «**إلى جانب أن ثمة طرائق من التعبير الزخرفي قد ظهرت في القلعة قبل ظهورها في حوض البحر الأبيض المتوسط بزمن طويل**[٣٧].

ومن البديهي أن بجاية التي تمصرت بخراب القيراون، قد ورثت جزءاً كبيراً من حضارة تونس — بخاصة[٣٨] — وقد أملت عليها الظروف أن تقوم بالعبء الذي كان مطروحاً عليها وعلى القيراون .. فأصبحت العاصمة الحضارية للمغربين الأوسط والأدنى.

لقد سارت الموسيقى والغناء شوطاً بعيداً في ظلال الحماديين «**ولقد أصبح الملوك والأمراء الحماديون يعنون بالمغنين وأرباب الفن، فيستخدمونهم بقصورهم ويجلسون إليهم**(٣٩)» وأغلب الظن أن هذه الموسيقى متأثرة إلى حد كبير بالموسيقى الأندلسية، إذ كان الأندلسيون — هم سادة هذا الفن — في الجناح الغربي من العالم الإسلامي، وربما كانت هناك تأثيرات شرقية كذلك. ولا نظن أن الحماديين قد جاءوا فيه بجديد» وقد حذت حذو الأغنية العربية أغنية محلية شعبية تغنى بها البدو والبربر في جبالهم عدا ما كان من الأناشيد الحماسية التي ابتكرها العرب الهلاليون(٤٠) «الذين أصبحوا عنصراً ثقافياً من عناصر الثقافة الحمادية».

وكان الخط والحفر والرسم والنقش والنحت والزخرفة من الفنون التي عنى بها الحماديون، وقد تطورت هذه الفنون الحمادية مع تطور الدولة وارتبطت كذلك بالظروف الاجتماعية والاقتصادية والحضارية للمجتمع الحمادي، فثمة خلاف بين فن القلعة وفن بجاية، (**فنحن لا نستطيع أن نجد في بجاية فناً متجانساً كذلك الذي وجد في القلعة**) فالخزف والصيني الذي وجد في القلعة للأمراء الصنهاجيين، كان متجانساً بطريقة جلية، ومردّ ذلك التجانس إلى أن المدينة قد نشأت ونمت وفقدت كل أهميتها السياسية وتقريباً كل نموها وكل نشاطها العسكري تقريباً في أقل من قرن، ولم تنهض بعد ذلك أبدا، أما بجاية فعلى العكس من ذلك، كانت موجودة من قبل أن يستوطنها الأمراء الحماديون، وتواتر عليها من بعدهم حكام كثيرون وأجناس عديدة، وقد كانت بحكم موقعها كميناء بحري على اتصالات مستمرة بعالم البحر الأبيض، فليس غريباً إذن أن تكون قطع الخزف والصيني التي عثر عليها في بجاية تنتمي إلى أصول عديدة(٤١).

لقد خلف الحماديون نماذج متعددة متنوعة من فنونهم الصناعية، كالرخام والخشب المنحوت الرائع، والرسوم الزخرفية، والبرونز والزجاج والخزف والصيني، والمخطوطات الزخرفية.

وبالنظر إلى صورة الحجر الحمادي الذي كان معلقاً على واجهة أحد القبور في بجاية والموجود في متحف بجاية الحديث(٤٢)، نجد نمطاً من الخط الحمادي يدلنا على أن ذلك الخط كان قريباً من الخط الكوفي المشتبك المشهور

في العصر الحمادي كله[٤٣]، وثمة خطوط أخرى اكتشفت في حفريات (بجاية) سواء تلك التي اكتشفت على حجارات القبور أو على أقواس الأبواب[٤٤] وكلها خطوط كوفية، وبالمقارنة بين هذه الخطوط يتبين لنا أن ثمة تطوراً هائلاً بين كتابات القلعة ذات المظهر البسيط، وبين تلك الأخرى التي عثر عليها في بجاية[٤٥]. مما يؤكد التطور الحضاري الذي بدأ بعهد بجاية والناصر في الدولة.

ومن الأجزاء التي وجدت أثناء الحفريات يتبين أن هناك فناً زخرفياً أنيقاً ومليئاً بالأصالة[٤٦] في السقوف المخصصة على هيئة مربعات، وفي البلاط ذي الأشكال المختلفة، وفي التحف المذهبة أو المفضضة أو الدنان والأكواز والصحاف والأواني والأوعية والمحابر والمصابيح وزجاجات العطور، وفي القصور على وجه الخصوص، في كل ذلك برز فن الزخرفة الحمادي[٤٧]، كفن متقدم ذي ملامح إسلامية عربية وبربرية، يدل على تقدم كبير في هذا الفن، وفي غيره من الفنون المتعلقة به كالرسم والنحت والحفر والنقش[٤٨].

لقد عرف الحماديون فن هندسة تخطيط المدن، وكانت مساحة بجاية تقدر على هذا العهد بمائة وخمسين هكتارًا أي ١٥,٠٠٠ متر مربع، وتجزأ إلى ٢١ حياً مشتملة على ٧٣ مسجداً، وتضم من السكان ما يزيد على ١٠٠,٠٠٠ نسمة[٤٩].

وفضلاً عن الشروط التي كان البربر يوفرونها في الموقع الذي يختارونه لبناء مدنهم، من ضرورة توفر مياه الشرب، وكثرة العيون الجارية، وإشراف المدينة على منطقة واسعة لاكتشاف العدو من بعيد[٥٠]، ومراعاة أن يوفر المكان للعاصمة قدراً من الحماية الذاتية، ... فضلاً عن ذلك فقد كانوا يراعون في تخطيطاتهم للمدن أن تكون العيون داخل أسوار المدينة، ويستحسن أن تكون العيون في الجهات العلوية من المدينة حتى يسهل عن طريق الجاذبية بناء السواقي وإدخال المياه إلى المنازل[٥١].

ومن الملاحظ في تخطيطات الحماديين للمدن اهتمامهم بتخصيص أماكن للأسواق، واهتمامهم بالبساتين المحيطة بالقصور، والحدائق العامة[٥٢] فضلاً عن الجداول والأنهار التي كانت تخترق المدينة[٥٣]، ويبدو أن أحياء ارستقراطية خاصة كانت تقام في

داخل المدينة تسكنها الطبقة الحاكمة وأتباعها، ويبدو كذلك أن أحياء خاصة كانت تقام للجاليات الأجنبية والمسيحية واليهودية، كما أن مدن وأماكن الحماديين لم تكن تخلو من الفنادق والمساجد الضخمة ودور العلم وأماكن للحفلات والمعارض. وغيرها من مستلزمات المدن المتقدمة.

لقد كان الفن المعماري أو الهندسة المعمارية أشهر ما عرف من نواحي التقدم الحمادي، فعبر كثير من القصور والمساجد التي أبدعت الحضارة الحمادية في تشييدها، أثبتت الحفريات التي قام بها «بلاتس وبيليه وفولفان» والحفريات الرسمية الجزائرية، مدى التقدم الذي أحرزه الحماديون في هذا الفن.

* * *

وقد ازدهرت حركة التقدم العمراني في بجاية، وعكس هذا التقدم صورة لون آخر من ألوان ازدهار الحضارة الحمادية في بجاية.

وقد كان للناصر بن علناس وابنه المنصور الأثر الكبير في تحقيق ازدهار بجاية العمراني.

ويعتبر قصر اللؤلؤة الذي أنشأه الناصر من أعجب قصور الدنيا(٥٤) «في عصره، وقد بني حوالي سنة ٤٧٠ هـ — ١٠٧٧ م(٥٥) ويبدو أن قصر اللؤلؤة هذا كان أكثر من قصر يضمها سور، على غرار «**دار البحر**» في القلعة، لأن صاحب الاستبصار يتحدث عنه على أنه «موضع به قصور، لم ير الراءون أحسن منها بناء، ولا أنزه موضعاً، فيها طاقات مشرفة على البحر، عليها شبابيك الحديد والأبواب المخرمة المحنية، والمجالس المقرصة المبنية حيطانها بالرخام الأبيض من أعلاها إلى أسفلها، وقد نقشت أحسن نقش وأنزلت بالذهب واللازورد، وقد كتبت فيها الكتابات المحسنة، وصورت فيها الصور الحسنة، فجاءت من أحسن القصور وأتمها منتزهاً وجمالاً(٥٦).

كما بنى المنصور قصر بلّارة، نسبة إلى عروسه بلّارة بنت تميم بن المعز(٥٧) وقصر العروسين(٥٨).

والحق أن الأمير **المنصور** بن الناصر كان — كما يصفه **ابن خلدون** — جماعة مولعا بالبناء، وهو الذي حضّر ملك بني حماد، وتأنّق في اختطاط المباني والمصانع، واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين(٥٩)

«وبصرف النظر عن مآثره المعمارية في القلعة التي اهتم بها على الرغم من أنه نقل العاصمة السياسية — إلى بجاية — واستقر بها، فقد كانت له مآثر في بجاية من أبرزها قصره الذي وصفه **ابن حمديس الصقلي**، وتحدث عن ساحاته المرخمة وتربه المخضب بالدر، وأضوائه التي تحول ليله نهاراً، وأسوده التي يخرج الماء من أفواهها على جانبي الأحواض، وثمراته البديعة، وأشجاره الذهبية الساحرة، وصهاريجه وأبوابه المصحفة المزخرفة وسفنه ذي النضرة السماوية[٦٠]. ويبدو أن هذا القصر كان ينسب إلى المنصور، وأنه سوى قصوره الأخرى المقامة ببجاية، وهي قصور الخلاص والنجمة والميمون[٦١]. وقد حاولت من تتبع أوصاف هذه القصور ومن تتبع الأوصاف التي ذكرها ابن حمديس أنْ أصل إلى أنه أحد هذه القصور، لكن لم توجد أية قرائن جازمة — من ناحية الأوصاف — ترجح أحدها، على الرغم من ورود بعض الأبيات في قصيدة ابن حمديس ترجح أنه قصر النجمة كقوله:

فلك من الأفلاك إلا أنه
حقر البدور فأطلع المنصورا
أبصرته فرأيت أبدع منظر
ثم انثنيت بناظري محسورا

وعلى الرغم من وصف «**كتالوج بجاية**» له نقلاً عن «مخطوط البجاوي» بأنه قصر مشرق يشبه إشراق الشمس مرسلة حزمها الضوئية، وأنه كان ذا أبواب تسعة كل واحد منها بمصراعين من الخشب المحفور بإتقان[٦٢]. وهي أوصاف وردت — على نحو ما — في قصيدة **ابن حمديس الصقلي** — لكنها أوصاف ليست جازمة في تحديد أنه قصر النجمة، ومن المحتمل وجودها في قصوره كلها.

وقد ابتنى المنصور في بجاية مسجداً زينته منارة ارتفاعها ستون قدماً وبواجهته سبع عشرة باكية.

ولا زالت أطلال كثيرة من هذه الآثار باقية في خرائب بجاية. وهي شاهد حيّ على ما كان لبجاية الحمادية من شأن في التاريخ الجزائري الإسلامي، ذلك التاريخ العظيم الذي انتصر على كل عوامل التغريب والفرْنسة ... وعاد — بعد معركة مجيدة — يستأنف رحلته الكريمة في طريق الحضارة الإسلامية العريق والخصب والممتد..



هوامش

(١) الكامل ٤٦/١٠.

(٢) نهاية الأرب ٦٧/٢٢ (المجلد الثاني).

(٣) الاستبصار ١٢٨، ١٦٨.

(٤) تاريخ الجزائر للميلي ٢٢٥/٢. وتاريخ الجزائر العام للجيلالي ٣٧٠/١.

(٥) ابن الأثير في الكامل ٤٧/١٠، وياقوت في معجم البلدان ٦٢/٢، (مادة بجاية).

(٦) ابن الخطيب أعمال الأعلام ٦٤/٣.

(٧) دائرة المعارف الإسلامية ٣٥١/٣ ورابح بونار المغرب العربي ص ٢١١.

(٨) المجتمع المغربي للدكتور ابراهيم العدوى ٢٧٣.

(٩) يذهب الدكتور ابراهيم العدوى إلى أن بناء بجاية كان بسبب خطة رآها الناصر لمواجهة النورمان (أنظر المجتمع المغربي ٢٨٠)، وبالنظر إلى أن بناءها كان سنة ٤٦٠ هـ بعد هزيمة الناصر في سبيبة وتهديد دولته بالضياع على يد العرب الذين عاشوا فيها، وبالنظر إلى أن الحماديين كانوا يواجهون بقوى متعددة داخل الإطار المغربي كالزيريين وزنانة والقبائل العربية بالإضافة إلى المرابطين، بالنظر إلى هذا نستبعد أن يكون الحماديون قد مدوا الطرف إلى هذا الأفق — السياسي البعيد — أيْ بناء بجاية لمواجهة النورمان — في هذه المرحلة على الأقل، وهذا لا يمنع أن تكون بجاية قد حققت أهدافاً في مواجهة النورمان.

(١٠) يذهب صاحب الاستبصار (ص ١٢٨) ويوافق عبد الهادي التازي محقق المنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة (ص ١٣٠ هامش) إلى أن المنصور هو الذي بنى بجاية وأنها سميت المنصورية، والمنصور لم يكن له إلا فضل الامتداد العمراني والانتقال — بدوره — إلى بجاية، بدلاً من القلعة، والغريب أن الاستاذ التازي ذكر أنه اعتمد في ذلك على ابن خلدون — (٣٥٧/٦) وبالرجوع إلى نفس الصفحة من نفس الطبعة — وُجد أن ابن خلدون ذكر أن بانيها هو الناصر، وأنها سميت الناصرية !!!

(١١) صفة المغرب ص ٩٠ للإدريسي.

(١٢) دائرة المعارف الإسلامية ٣٥٠/٣ مادة بجاية، موجز التاريخ العام للجزائر الكعاك ٢٥٩، وكتاب الجزائر للمدني ١٨٤ وكتالوج بجاية ١٦، ١٩.

(١٣) أنظر

(١٤) أنظر:

(١٥) صورة الأرض لابن حوقل ص ٧٧.

(١٦)

(١٧) العبر ٣٥٧/٦.

(١٨) كتالوج بجاية وزارة الأخبار الجزائرية سنة ١٩٧٠ ص٨، ومعجم البلدان ٦٢/٢ (مادة بجاية).

(١٩) أنظر صفة المغرب ٩٠.

(٢٠) معجم البلدان ٦٢/٢، والقاموس الإسلامي المجلد الأول ٢٧٣ — أحمد عطية الله.

(٢١) تقويم البلدان ١٣٧، المعجب للمراكشي.

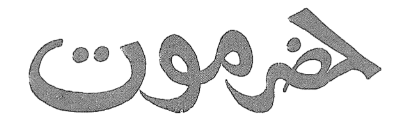
(٢٢) أنظر صفة المغرب ٩٠

(٢٣) كتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي ١٤٢.

(٢٤) أنظر صفة المغرب للإدريسي ٩١.

(٢٥) دائرة المعارف الإسلامية ٣٥١/٣ (مادة بجاية) وكتالوج بجاية ١٤.
(٢٦) أنظر معجم البلدان ٦٢/٢، ودائرة المعارف ٣٥١/٣، كتاب الجزائر للمدني ١٨٤.
(٢٧) صفة المغرب ص ٩٠ والاستبصار ١٣٠.
(٢٨) الاستبصار ١٣٠.
(٢٩) الاستبصار ١٣٠، دائرة المعارف ٣٥١/٣ وتحفة الزائر ١٩.
(٣٠) الاستبصار ١٣٠.
(٣١) دائرة المعارف الإسلامية ٣٥١/٣.
(٣٢) دائرة المعارف الإسلامية ٣٥١/٣.
(٣٣) كتاب الجزائر للمدني ١٨٤.
(٣٤) دكتور سعد شلبي (ابن حمديس الصقلي) ١٦٩.
(٣٥) المكان السابق.
(٣٦) الورقات: الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ٢٢٥/٢.
(٣٧) كتالوج بجاية ٥١.
(٣٨) أنظر الورقات للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ٢٦٦/٢.
(٣٩) موجز التاريخ العام للجزائر للكعاك ٢٩١ وانظر: الهلالي الميلي تاريخ الجزائر ٢١٢/٢.
(٤٠) موجز التاريخ للكعاك ٢٩١ وجدير بالذكر هنا أننا — من جهة تاريخية — نرصد الواقع. ولا يعنى هذا أننا نؤيد ما فيه من مظاهر اجتماعية ربما كانت مظاهر انحرافية.
(٤١)
(٤٢) كتالوج بجاية (٢١) (صورة الحجر) وانظر ص (٣١) صورة أخرى.
(٤٣) أنظر مجلة الأصالة عدد نوفمبر ١٩٧١ ص ٩٧ وتاريخ الجزائر العام للجيلالي ٣٩١/١.
(٤٤) أنظر كتالوج بجاية ٦٣.
(٤٥) المكان السابق نفسه.
(٤٦) أنظر كتالوج «المساجد في الجزائر» ص ٨ طبع مدريد ١٩٧٠ بإشراف الدكتور رشيد بورديبة عميد كلية الآداب بجامعة الجزائر.
(٤٧) أنظر كتالوج بجاية ٦٢ وانظر كتالوج المساجد في الجزائر ١٩٥٨م.
(٤٨) أنظر كتالوج بجاية صفحات ٢٢، ٣٥. ٤٧. ٥١، (نماذج من فن الزخرفة والتصوير والرسم والنحت) وانظر الصفحات المرفقة بكتاب بيليه:
(٤٩) كتالوج بجاية ص ٨ وانظر: تاريخ الجزائر العام ٣٨٧/١.
(٥٠) مجلة الأصالة عدد ذي الحجة ١٣٩١ مقال الأستاذ عبد القادر الحليمي بجامعة الجزائر عن: أثر التضاريس في تخطيط مدينة الجزائر «٨٠».
(٥١) المكان السابق نفسه.
(٥٢) أنظر موجز التاريخ العام للجزائر للكعاك ص ٢٦٢.
(٥٣) لا زال هذا الطابع موجوداً في المدن الجزائرية. ارتفاعاً وتوفيراً للبساتين والجداول الصغرى.
(٥٤) العبر ٣٥٧/٦ وقد ذكر أن المنصور هو الذي بناه والصحيح أنه الناصر ويحتمل أن المنصور قد أضاف بعض التحسينات!
(٥٥) تاريخ الجزائر للهلالي الميلي ٢١٣/٢.





المنشورة بمجلة
«الدارة»
العدد الثالث
السنة السابعة
ربيع الآخر ١٤٠٢هـ
فبراير ١٩٨٢م

تعقيب : الأستاذ سَقاف علي الكاف

أبدأ مقالي بقول الشاعر :

«أتى شقيق عَارِضاً رُمْحَه * إن بني عمك فيهم رماح»

عندما وقعت على المقالة المذكورة أعلاه في مجلتنا الغراء التي أثرت وتثرى التراث في جزيرة العرب وأمة الإسلام عامة عجبت من هذه المقالة التي وضعت كوثيقة من وثائق تاريخ حضرموت التاريخ الذي ينصع كل جانب من جوانبه بصفحات مشرقة عربياً وإسلامياً قديماً وحديثاً فوجدت هذه الوثيقة المزعومة تتنافى حتى مع أبسط معلومات التاريخ العام لحضرموت فضلاً عما في أوساط المحققين وهي وثيقة منطلقة من تعصب قبلي بحت داعية لنبش فرقة اصطلت بنارها حضرموت بين القبائل الكثيرية والقبائل اليافعية التي طالت رحا الحرب بينهما سنين عديدة وزعمت هذه الوثيقة مزاعم عدة نبين أهمها سائلين الله أن يسدد مقالنا ويجعله غيرة على الحق والمعرفة .

١ ــ ورد في **السطر السادس من الصفحة الأولى من الوثيقة** عن موضع حضرموت فقالت الوثيقة «قطعة حضرموت الواقعة في جهة شرقي شمالي جزيرة العرب» وكلنا يعرف أن حضرموت من الأقطار القديمة التي رسمت خارطتها لكونها محطة من محطات التجارة الدولية في العصور الغابرة فضلاً عن العصور القريبة فموقعها في جنوب الجزيرة العربية راجع أبسط خارطة لجزيرة العرب ويراجع دوائر المعارف الآتية «**الإسلامية ــ البريطانية**» مادة حضرموت .

وهذا مما يدلل على أن الوثيقة ليست بقلم عالم وليست وثيقة تاريخية حيث ذكرت كتب التاريخ الحضرمي التي بين أيدينا موقع حضرموت بالخط والدرجة ولا يخفاكم ما قاله ابن ماجد في طرق سير الملاحة البحرية وكما هو الواقع والمشاهد .

●●

٢ ــ زعمت الوثيقة في **السطر الثامن** أنه ليس لحضرموت مصادر تاريخية يرتكز عليها علماً بأن حضرموت تكاد أن تكون من الأقاليم الأولى التي أفردت لها مصنفات في التاريخ كمصنف قلائد النحر لبامخرمه . تاريخ حضرموت لشنبل ــ المشرع الروى لمحمد بن أبي بكر الشلي ــ الجوهر الشفاف لعبد الرحمن الخطيب وكل هذه الكتب معلنة ومنتشرة في أقطار الإسلام وعلى الأخص في تركيا ومصر فلتنظر في كشف الظنون وفهرس دار الكتب المصرية[١] والذي ورد بالوثيقة غير علمي ومتعارض على الأقل مع مصادر التاريخ الحضرمي مما يسقط قيمة الوثيقة التاريخية إذا صحت أن تكون تاريخية كما زعم .

●●

٣ ــ زعمت الوثيقة زعماً غير منطقي وغير علمي ويتنافى مع التاريخ والواقع ومشجر الأنساب لقبيلة آل كثير وكتب تاريخ حضرموت حيث أوردت في **السطر الخامس إلى السطر الثامن من الصفحة الخامسة** بأن آل كثير تقلبوا في الحكم والسيطرة على حضرموت من تاريخ دخول الإسلام حضرموت أي من عهد الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام إلى تاريخ تحرير هذه الوثيقة المزعومة فنقول إن آل كثير تأسست دولتها على يد **علي بن عمر بن جعفر** وهو أحد أجداد السلطان بدر

أبو طويرق الكثيري وذلك بعد عام ٨١٧هـ الموافق ١٤١٤م بعد أن انتزع السلطة من سلطنة **آل يماني** وكل كتب التاريخ الحضرمي العام[٢] والخاص كتبت عن دول حضرموت وحكوماتها فيما قبل الكثيري من عهد الفتح الإسلامي ولم يذكر أحد أن آل كثير كانوا يحكمون قبل هذا التاريخ سالف الذكر وقد أفرد لهذه السلطنة مؤلف يحمل اسم تاريخ السلطنة الكثيرية للأستاذ محمد بن هاشم طبع منه الجزء الأول ومازال الثاني مخطوطاً فليرجع له ليستقي منه الحقيقة .

كما بين **الأستاذ محمد أحمد الشاطري في كتابه أدوار التاريخ الحضرمي نشأة دولة آل كثير وبداية حكمها** وهو مطبوع ويقع في مجلدين فليرجع له ولزيادة المعلومية بأن حضرموت لم تخضع بالكامل لسلطان الكثيري سوى في عصر السلطان بدر أبو طويرق وقد مرت السلطنة الكثيرية من بعد هذا التاريخ بعدة عصور، وتصنف هذه العصور إلى ثلاثة عصور :

العصر الأول والأوسط والأخير وفي العصر الأخير تم إحياء السلطنة الكثيرية على يد السلطان غالب بن محسن الكثيري سنة ١٢٨٢ هـ الموافق ١٨٦٥ م . وكان المذكور ضابطاً بجيش حيدر آباد ـــ الدكن ـــ الهند فتطلع لتاريخ أجداده وأقام السلطنة الكثيرية المعاصرة وكان ضمن ثلاثة ضباط يشغلون وظائف عليا في جيش نظام حيدر أباد وهم غالب بن محسن الكثيري وعمر بن عوض القعيطي[٣] وعبدالله بن علي العولقي[٤] حيث عمل كل واحد منهم على إقامة دولة له بحضرموت وكان يطمع في أن تدين حضرموت له فقد فاز السلطان غالب بن محسن الكثيري بقصب السبق في تأسيس سلطنته قبل الإثنين وذلك بمساعدة آل كثير والسادة العلويين والشنافر ولكن عمر بن عوض القعيطي وعبدالله بن علي العولقي أقاما سلطناتهما بعد ذلك كما سنبين عند الكلام عن عمر بن عوض القعيطي وخلف السلطان غالب بعد وفاته على السلطنة ابنه منصور بن غالب سنة ١٢٨٧ هـ الموافق ١٨٧٠ م ولم يكن يحكم آل كثير سوى في بعض المدن الداخلية وبواديها من حضرموت .

●●

٤ ـــ نريد أن نبين في هذه النقطة شيئاً عن قبائل يافع وموقعها حتى يتضح للباحث والقارىء من هم آل يافع ومدى ارتباطهم بالسلطنة الكثيرية .

موقع يافع في الجزء الجنوبي الغربي من حضرموت ويدخلها المؤرخون في حضرموت الكبرى التي تصل حدودها من عدن غرباً إلى عُمان شرقاً وآل يافع يعدون من بوادي حضرموت ومن أهم قبائلهم الموسطى والمفلحي والضبي وعشائرهم وقبائل آل سعد وغيرهم واشتهر آل يافع بحب الجندية وهم قبائل يغلب عليهم الجهل والأمية في الماضي وبدأ ارتباطهم بالسلطنة الكثيرية حيث جند أحد أحفاد السلطان بدر أبو طويرق وهو بدر بن عبدالله أعداداً منهم في سلطنته في حربه ضد بدر بن عمر فوقعت السلطة العسكرية بيد آل يافع فاستغل هؤلاء العسكريون ضعف السلطنة الكثيرية وفرض كل واحد منهم نفوذه في منطقة من مناطق الأقليم الحضرمي وعلى سبيل المثال «غرامة وابن همام وابن عبد القادر» وسيطروا على منطقة تريم ونواحيها كما سيطر «ابن بريك» و«الكسادي» على ساحل حضرموت وعندما أقام السلطان غالب محسن مستنصراً بقبائل الشنافر وآل كثير والسادة العلويين سلطنته وجه ضربته إلى عساكر آل يافع المسيطرين على المدن والقرى والأودية الحضرمية حتى كثر في آل يافع القتل فجمعوا فلولهم واستنصروا بالسلطان عمر بن عوض القعيطي الآتي ذكره ومن هنا وقعت الضغائن والحروب الطويلة بين قبائل آلا يافع وآل كثير وعلى إثر هذه الحرب التي حقق فيها آل يافع إنتصارات عدة بمساعدة البريطانيين في عدن حاصروا السلطنة الكثيرية في الداخل ويتضح بأن آل يافع حضارم وليسوا غرباء على القطر الحضرمي كما ورد في الوثيقة **بالسطر الثاني من الصفحة السادسة**.



٥ ـــ ورد بالوثيقة **من السطر الثالث إلى السطر الرابع من الصفحة العاشرة والتعليق رقم إثنين على نفس الصفحة** خلط كبير في التواريخ والأشخاص والحوادث ونحب أن نبين هذا الأمر من كتب التاريخ الحضرمي في شأن تأسيس السلطنة القعيطية ومؤسسها وسلاطينها . مؤسس السلطنة القعيطية هو عمر بن عوض القعيطي وآل القعيطي بطن من بطون يافع الذين استوطنوا قرية لحروم بوادي عمد وبها ولد ونشأ عمر بن عوض القعيطي الأول انتقل منها وهو فقير يتيم إلى شبام ثم هاجر إلى الهند وهو يافع حيث انتظم في سلك أحد مهراجات الهند فحاربه البريطانيون وسلم «المهراجا» ولكن القعيطي «عمر بن عوض» الذي هو أحد قواده لم

يسلم فصالحه البريطانيون على أن يهاجر هو وجنوده وأتباعه بعتادهم وما في خزينة الدولة من نقود فذهب بكل هذا إلى حيدر آباد حيث انتظم قائداً «جمعدار» ولهذا هو أغنى الثلاثة الذين تنازعوا سلطة حضرموت كما تقدم ولمعت شخصيته وعلى أثر تعرض آل يافع في حضرموت للضرب من قبل السلطان غالب بن محسن الكثيري لجأ آل يافع إلى السلطان عمر بن عوض القعيطي كي يكون زعيماً وقائداً لهم فلبى رغبة قبائل آل يافع وحلفائهم من آل تميم وغيرهم وأرسل ابنه عوض إلى حضرموت وجهز جيشاً والتقى جيش القعيطي والكثيري بقيادة غالب بن محسن الكثيري في موقع يقال له «المحايل» واستمات فيها جيش الكثيري وفرق جيش القعيطي ولكن استعانة القعيطي ببريطانيا مكنته من المحافظة على مواقع أقدامه وأعلن السلطان عمر بن عوض القعيطي سلطاناً على السلطنة القعيطية التي اتخذت من المكلا عاصمة لها ولكن السلطان عمر بن عوض لم يأت إلى حضرموت وكان ينوب عنه في السلطنة إبنه عوض وتم تأسيس سلطنته عام ١٢٦٧ هـ لا في عام ١٢٣٠ هـ كما ورد بالوثيقة وتعاقب نسله على السلطنة إلى آخر سلطان فيهم هو غالب بن عوض بن صالح الذي انتهت سلطنته عام ١٣٨٧ هـ الموافق ١٩٦٧ م ومازال حياً . فيتضح من هذا التحقيق أن السلطان عمر بن عوض لم يشغل وظيفة محافظ منطقة القطن كما ورد بالوثيقة وسافر إلى الهند وهو حدث كما سبق أن بينا .

وأما عمر بن عوض بن عمر القعيطي المشار إليه بالتعليق بهامش الوثيقة هو حفيد عمر الأول وتولى السلطنة عام ١٣٤٠ هـ بعد وفاة أخيه غالب لا في عام ١٣٣٧ هـ كما ورد بالتعليق راجع أدوار التاريخ الحضرمي للأستاذ محمد بن أحمد الشاطري وفي سبيل الحكم للأستاذ محمد عبد القادر بامطرف وهذا مما يدل على أن الوثيقة تتعارض مع الواقع المشهود حيث أن الذين كتبوا وسجلوا تاريخ السلطنة القعيطية عاصروا نشأتها وقد يكون البعض مازال حياً إلى حينه وقد تم إبرام صلح المسنده لتقسيم حضرموت بين السلطنتين الموقع عليها من قبل السلطان منصور بن غالب الكثيري وعبدالله بن عمر القعيطي وذلك عام ١٢٩٧ هـ والمسنده موقع بالقرب من مدينة تريم وشهد هذا التقسيم عدد من أعيان وسادة حضرموت. انظر كتاب في سبيل الحكم للأستاذ/ محمد عبد القادر بامطرف .

●●

٦ ــ وقد ورد **في السطر الخامس من الصفحة الرابعة والعشرين** بأن آل القعيطي

يحملون مذهبا باطنيا وهذا خلاف للواقع حيث حكم آل القعيطي قرابة قرن ولم ينشروا أي مذهب سوى مذهب أهل حضرموت وهو المذهب الشافعي فقد حُكمت حضرموت طيلة عهد السلطنة القعيطية وكذا السلطنة الكثيرية بالمذهب الشافعي في المحاكم والدوائر والبلديات إلى أن أسقط الشيوعيون في عام ١٣٩٠هـ الموافق ١٩٧٠م الشريعة الإسلامية من كل إقليم حضرموت ولم نشهد للقعيطيين دعوة مخالفة لهذا المذهب ولم يتصف القعيطيون أو أحد سلاطينهم بالعلم والتصنيف سوى السلطان صالح بن غالب القعيطي وإن كانوا يتمتعون بصفات حميدة وقد حكم السلطان صالح إلى عام ١٣٥٤هـ الموافق ١٩٣٥م .

هذا ما أردنا إيضاحه والرد عليه في هذه الوثيقة والحقيقة بنت البحث والغرض إبراز الحق فنرجوا الكاتب أن يسفر عن نفسه وأن يثبت لنا مصدر هذه الوثيقة ومكان وجودها حتى نسبرها سبراً يبين قيمتها ومكانتها في التاريخ الحضرمي .

---

(١) وأصول هذه الكتب بمكتبة الأحقاف بتريم حضرموت .

(٢) أنظر كتاب تاريخ حضرموت للسيد/صالح بن علي الحامد .

(٣) وهو عمر بن عوض القعيطي الأول ويلقب بالحاج «عمر» ويسميه الهنود «النقرة» أي الأعرج .

(٤) حاول ولم يوفق في إقامة سلطنته حيث انضوت تحت نفوذ القعيطي .

من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في الاستسقاء

«اللهم اسقنا غيثا مريئا مريعا غدقا مجللا عاما ، طبقا سحا دائما . اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين».

اللهم إن بالعباد والبلاد والبهائم والخلق من اللأواء والجهد والضنك ما لا نشكوه إلا إليك .. اللهم انبت لنا الزرع وأدر لنا الضرع ، واسقنا من بركات السماء ، وانبت لنا من بركات الأرض.

اللهم ارفع عنا الجهد والجوع والعرى واكشف عنا من البلاء ما لا يكشفه غيرك .. اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفارا ، فارسل السماء علينا مدرارا.».

«اللهم اسق عبادك وبهائمك ، وانشر رحمتك ، واحيي بلدك الميت».

«اللهم اغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم اغثنا ..».

«اللهم لا إله إلا أنت ، أنت الغني ونحن الفقراء أنزل علينا الغيث ، واجعل ما أنزلت علينا قوة وبلاغا إلى حين».

تعـــــليق

على دراســـة الدكتورة

نوال إسماعيل

التغير في المنطقة المركزية لمدينة الرياض

د. عبدالله الصالح العثيمين

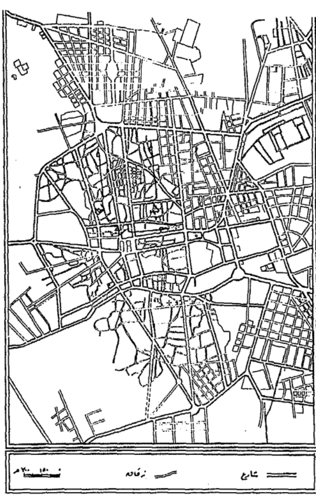
الدراسة التي أعدتها الدكتورة نوال محمد عبد الله إسماعيل عن التغيّر في المنطقة المركزية لمدينة الرياض من الدراسات الجيدة[1]. ولعل من مظاهر جودتها ما ورد فيها من إحصائيات ومقارنات وخرائط. ومع ذلك فإنها لا تخلو من أمور ينبغي التعليق عليها. على أن هذا التعليق لا يتناول صلب الدراسة، الذي هو من شأن ذوي الاختصاص الدقيق، وإنما يتناول أشياء ذات صبغة توثيقية أو تاريخية.

فيما يتعلق بالتوثيق يلاحظ أن الكاتبة الكريمة أوردت قائمة بأسماء مصادر في نهاية الدراسة، لكنها لم تشر إلى أمكنة اعتمادها عليها. والإشارة إلى أمكنة الاستشهاد ضرورية في البحث العلمي لأنها تسهل للقارىء التأكد من صحة ما ورد في الدراسة من معلومات وصحة فهم الكاتب للمعلومات التي استقاها من المصادر.

وقد أوردت الكاتبة الكريمة خريطة لمدينة الرياض القديمة (شكل ١)؛ مشيرة إلى أنها من عمل فيلبي سنة ١٩١٩ م[٢]. ويبدو أن فيلبي قد كتب الأسماء الواردة فيها بحروف لاتينية. ولذلك وقعت الكاتبة الكريمة في أخطاء حينما نقلتها إلى حروف عربية. فسمّت باب الثميري «باب الثمير»، وباب المَذْبَح «باب المذابح»، وباب آل سويلم «باب سويلم». وعدم ذكرها للمكان الذي نشر فيلبي فيه الخريطة يجعل من الصعب على القارىء أن يرجع إلى الأصل للتأكد من صحة ما أوردته من أسماء.

ووضعت الكاتبة الكريمة خريطة لبعض أحياء الرياض (شكل ٦). والمتأمل في هذه الخريطة يلاحظ بعض الأخطاء في مواقع الأحياء. من ذلك وضع حي السلامة مجاورًا لحي العليا من الجهة الشرقية، وحي الروضة مجاورًا لحي العليا وحي السلامة من الجهة الشمالية. ومعروف أن حي السلامة وحي الروضة بعيدان عن حي العليا.

أمّا ما يتعلق بالنواحي التاريخية فمنه ما



الشوارع المفتوحة والحارات في المدينة القديمة للرياض (عن خريطة مدينة الرياض ١ : ١٥٠٠٠ - ١٩٧١ م)

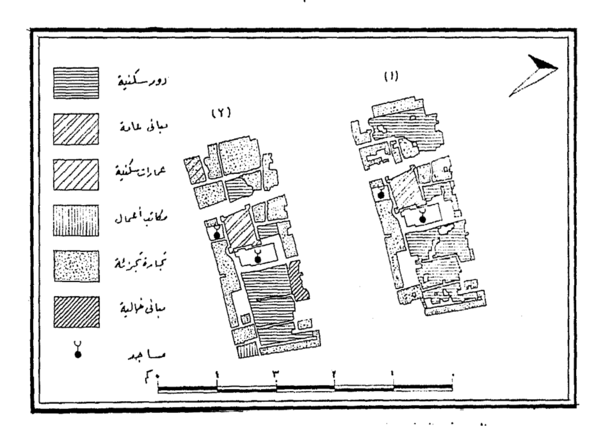
ذكرته الكاتبة الكريمة من أن مدينة الرياض «لا يرجع تاريخها إلى أبعد من النصف الثاني للقرن التاسع عشر. قامت في موضع بعض الحلّات إلى جوار وادي حنيفة في هضبة نجد. أما عن وجود مدينة في العصور الوسطى في نفس هذا الموضع فالثابت أن الصلة بينها وبين الرياض الحالية قد انقطعت»[٣]

وما ذكرته الكاتبة الكريمة من «ثبوت» انقطاع الصلة بين المدينتين المذكورتين أمر لم تمدّ القارىء بما يقنعه بصحته. وتكوّن مدينة الرياض من محلّات كان بعضها مستقلاً عن

البعض الآخر في فترات تاريخية معينة لا يعني عدم وجود صلة بين تلك المحلات وبين المدينة بعد أن أصبحت تضمها كلها. ولقد أطلق اسم الرياض على جزء من هذه المدينة، على الأقل، في بداية القرن الثامن عشر الميلادي. ذلك أن الشيخ أحمد المنقور المتوفي سنة ١١٢٥ هـ (١٧١٣ م) قد ذكرها بهذا الاسم في تاريخه[٤]. وبعد وفاته بحوالي ربع قرن وحّد دهام بن دواس أجزاء المدينة تحت قيادته وأحاطها بسور منيع[٥]. ومنذ ذلك الوقت وهي تعرف بهذا الاسم. ثم أصبحت قاعدة لنشاط الإمام تركي بن عبدالله وعاصمة للدولة منذ أن استقرت الأمور له في المنطقة سنة ١٢٤٠ هـ. ولم يكن اتخاذه لها عاصمة يعني إنشاءها أو قيامها. لأنها كانت قائمة قبل ذلك. ولم يدخل عليها ذلك الإمام ولا خليفته من العمران ما غيّر ملامحها السابقة. بل ظل القصر الذي بناه دهام بن دواس هو قصر الحكم. وظل السور الذي بناه ذلك الأمير هو سور المدينة[٦]. وهكذا يتضح أن ما ذكرته الكاتبة الكريمة من أن تاريخ مدينة الرياض لا يرجع إلى أبعد من النصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي غير دقيق.

ثم ذكرت الكاتبة الكريمة أن «الظروف الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية التي صاحبت تكوين المدينة — في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حسب رأيها — ونموها فرضت عليها نموذجاً يختلف عن العصر الذي نشأت فيه»[٧].

والواقع أن تكوين مدينة الرياض، مهما اختلفت الآراء في تاريخه، لا يختلف عن تكوين البلدان النجدية من حيث وجود الجامع وقصر الحكم وبيوت علية القوم والمتاجر في وسط المدينة. وهذا ما حتمته الظروف الدينية والأمنية بصفة أساسية في أكثر المدن الإسلامية على مرّ العصور.



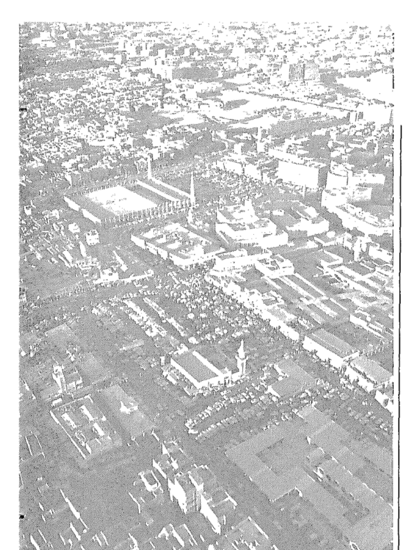
ثم ذكرت الكاتبة الكريمة أن موقع الرياض «معزول عن بقية الأجزاء المعمورة في الدولة لنقص الطرق والمواصلات الجيدة من ناحية وصعوبة التضاريس وطول المسافات القاحلة من ناحية أخرى»[٨].

ولعله من الواضح أن ليست هنالك تضاريس صعبة تعزل الرياض عن بقية البلدان التابعة لها. بل كانت طرق القوافل سالكة؛ خاصة إذا توفرت الوسائل الأمنية. ومن المعروف أن هذه المدينة كانت ذات صلة تجارية قوية مع الأحساء[٩]، وأن بلداناً نجدية لا تختلف عنها من حيث الموقع التضاريسي، مثل بلدان القصيم، كانت تتبادل التجارة مع الشام وفلسطين ومصر[١٠]، ناهيك عن أقاليم الجزيرة العربية الداخلية.

ثم قالت الكاتبة الكريمة:

«فإذا نظرنا إلى مدينة الرياض نجد أنها كانت عاصمة لدولة ناشئة مفككة منذ قرون طويلة. لذا فإن مجالها لم يكن يتعدى القرى القريبة منها في إقليم نجد وهو إقليم يعيش في ظل اقتصاد الكفاف بمستوياته الدنيا من زراعة بدائية ورعي متجول وصيد أوّليّ، وهو أقصى ما تنتجه الطبيعة الصحراوية للمنطقة».[١١]

والبلاد التي شملتها دولة آل سعود في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي لم تكن مفككة منذ قرون طويلة. ذلك أنها شهدت وحدة قوية زمن الدولة



(الرياض من الجو)

السعودية الأولى، التي انتهت سنة ١٢٣٣ هـ (١٨١٨ م). ولم تمرّ سنوات قليلة على هذا التاريخ حتى عادت الدولة السعودية الثانية لتشمل أجزاء كبيرة من مناطق الدولة السابقة. ولم يكن مجال الرياض محصورًا في القرى القريبة منها. بل كان لها تعامل تجاري مع بعض بلدان نجد ومع بلدان المنطقة الشرقية، كما سبق أن ذكر. ومع أن اقتصاد نجد لم يكن مزدهرًا ولا قريبًا مما أصبح عليه بعد تدفق واردات النفط في المملكة فإن إنتاج هذا الإقليم من الثروة الحيوانية كان عظيمًا مما جعل أهله يصدرون آلاف الإبل ومنتجات الأغنام سنويًا إلى الشام وفلسطين

ومصر والحجاز[١٢].

ومن الواضح أن الكاتبة الكريمة خلطت في حديثها السابق بين فترتين تاريخيتين. فبينما كانت تتكلم عن الرياض في زمن الدولة السعودية الثانية قفزت إلى ذكر أشياء لم تحدث إلا بعد أن أصبحت الحجاز جزءاً من الدولة السعودية الثالثة.

وذكرت الكاتبة الكريمة أنه «من البديهيات المسلَّم بها أن اختيار الرياض كعاصمة كان قرارًا يمثل القوة السياسية التي ترقد فوق الشعور الديني. فالمدينة خليفة للدرعية القريبة منها، مركز الدعوة السلفية. والحكومة ثيوقراطية تعتنق هذه الدعوة وتنادي بالعودة إلى الأصول الأولى للدين الإسلامي والحياة الإسلامية. وقد انعكس هذا بقوة على العاصمة الناشئة على نشاطاتها وطرق الحياة فيها وعلى المدينة نفسها بدءاً من الوحدة الأولية فيها وهي الدار حتى تخطيط المدينة. لذا فإن الرياض التي قامت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت لا تختلف عن المدن العربية التي اختطت في القرون الأولى للإسلام»[١٣].

وفي الكلام السابق عدة نقاط. الأولى اختيار الرياض عاصمة للدولة السعودية. ولعلّ ذلك الاختيار عائد إلى أمور من أهمها أن عاصمة آل سعود الأولى، الدرعية، كانت حينذاك مهدّمة. وكانت إعادة بنائها تتطلب أموالاً طائلة. ومن أهمها أن الرياض كانت مدينة غنية بمزارعها قوية في تحصيناتها التي كان قد بناها دهام بن دواس. وأنصار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذين كانوا يكنّون ودًّا لمركز الدعوة الأول. لن يشكوا في شعور قادة الدولة الجدد وإن اتخذوا الرياض، التي مثلت في فترة من الفترات الخصم الألد لهذه الدعوة، عاصمة لهم لأن هؤلاء القادة من آل سعود سلاح الدعوة المذكورة. وبالإضافة إلى ما تقدم فإن تركي بن عبد الله قد عيّن أميرًا في الرياض من قِبَل مشاري بن سعود. فعرف المدينة وعرف أهلها. وحين قام ابن معمّر بانقلابه على مشاري ونجح تركي في القضاء على ابن معمّر لم ير تركي مانعًا من اتخاذ المدينة التي كان أميرًا فيها عاصمة لدولته؛ خاصة وقد توفرت العوامل الأخرى المذكورة من قبل.

والنقطة الثانية من كلام الكاتبة الكريمة السابق وصف حكومة آل سعود بأنها «ثيوقراطية». وقد يطلق هذا الوصف عليها من لا يعرف حقيقة دعوة الشيخ محمد التي قامت على أساسها تلك الحكومة؛ خاصة بعض الغربيين. وفي ذلك تجاوز. فالوصف المذكور ينطبق على حكومة البابا وما تقوم عليه من نظم دينية معروفة. والفرق واضح بين الحكومتين ونظاميهما. ولعله من المستحسن أن لا يندفع الباحثون في استعمال تعبيرات أجنبية قد تكون ممثلة للواقع في مجتمعات دون أخرى.

والنقطة الثالثة من كلام الكاتبة الكريمة السابق ما ذكرته من تأثر الرياض بدءاً بالدار حتى تخطيط المدينة بالعامل الديني الخاص.

وقد سبقت الإشارة إلى أن القادة السعوديين لم يخططوا الرياض وإنما اتخذوها عاصمة وهي مدينة كانت قائمة من قبل. ولم يكن لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أثر في تخطيطها بل كانت بشكلها الذي كانت عليه، الخصم الألد لتلك الدعوة.

وحينما تكلمت الكاتبة الكريمة عن انتقال الملك عبد العزيز وحاشيته للسكن خارج أسوار مدينة الرياض القديمة قالت :

«وقد نتج عن عملية الجلاء — هكذا — هذه زيادة مساحات الفراغ من ناحية وتقلص في القوة السياسية في المركز من ناحية أخرى». (١٤)

ومن غير المسلَّم به أن الانتقال المذكور قد نتج عنه تقلص في القوة السياسية في مركز مدينة الرياض. وذلك أن الانتقال كان انتقالاً في السكن. أما الإدارة فبقيت في الداخل. وذهاب الكاتبة الكريمة إلى ما ذهبت إليه في هذا الموضوع ناتج — فيما يبدو — عن محاولة تطبيق نظريات جغرافية من المشكوك فيه أن تنطبق على كل المجتمعات والأنظمة.

ويبدو أن انتقال الملك عبد العزيز وحاشيته للسكن خارج أسوار مدينة الرياض القديمة من أقوى أسبابه استتباب الأمن في البلاد. ففي الماضي كان من الضروري أن يكون القادة في داخل البلدة لئلا يتعرضوا لهجمات الخصوم. لكن حينما استتب الأمن في البلاد لم يعد هناك مانع من السكن داخل أسوار المدينة أو خارجها. وتوفّر المال كان مشجعًا على بناء بيوت سكنية خارج المدينة أحسن من البيوت التي كانت تسكن داخلها.

ومرة أخرى أكرر القول بأن دراسة الدكتورة نوال إسماعيل من الدراسات الجيدة ورغم الملاحظات الواردة في هذا التعليق.

والله الموفق،،

الهوامـش :

(١) نشرت هذه الدراسة في مجلة **الدارة**، العدد الثاني، السنة الثامنة، محرم ١٤٠٣ هـ، ص ص ٦ — ٦٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ص ٦ — ٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧.

(٤) **تاريخ الشيخ أحمد بن محمد المنقور**، تحقيق ونشر الدكتور عبد العزيز الخويطر، الطبعة الأولى، الرياض ١٣٩٠ هـ، ص ص ٣٠ و٦٥.

(٥) حمد الجاسر، **مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ**، دار اليمامة، الطبعة الأولى، ١٣٨٦ هـ، ص ص ٩٢ و٩٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ص ١٠٤ و١٠٨. ويؤيد ذلك قول عبيد بن رشيد مخاطبًا الإمام فيصل بن تركي :
مِتْولع يا نور قصر ابن دواس   عليك يا معطي الرمك بالعداد
انظر **الأزهار النادية في أشعار البادية**، نشر محمد كمال، القاهرة، دون ذكر لسنة الطباعة، الجزء الثالث، ص ٥٧.

(٧) «الدراسة»، ص ٧.

(٨) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٩) انظر عن هذا الموضوع **لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب**، تحقيق وتعليق عبد الرحمن آل الشيخ، الدارة، ١٣٩٤ هـ ؟، ص ٣٢. و **دليل الخليج، القسم الجغرافي**، تأليف لوريمر وترجمة مكتب أمير قطر، الطبعة المنقحة، الدوحة، دون ذكر لسنة الطباعة، الجزء الخامس، ص ص ١٦٩٦ — ١٦٩٧.

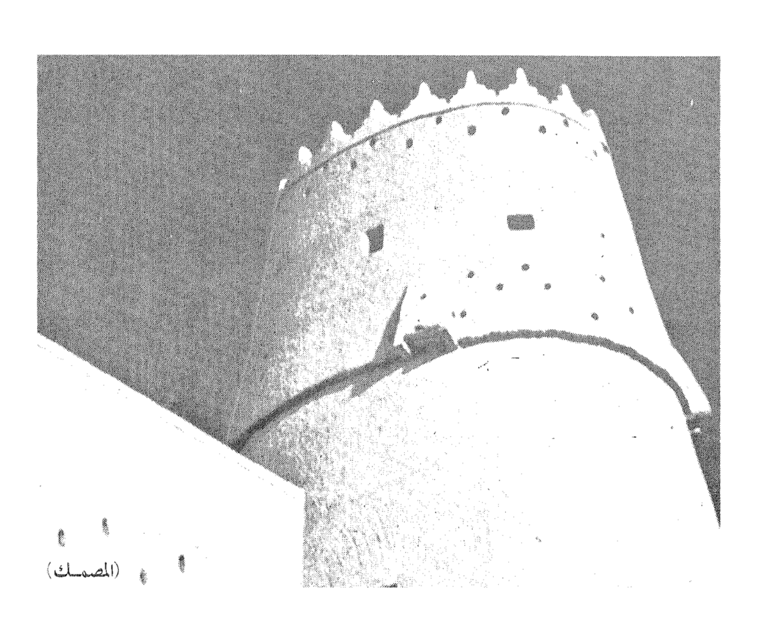
(١٠) وكان يطلق على هؤلاء التجار اسم «عقيل». وقد استمرت تلك التجارة إلى فترة غير بعيدة.

(١١) «الدراسة» ص ٨.

(١٢) وكانت نجد، لكثرة إنتاجها للإبل، تسمّى «أم البل». انظر

(١٣) «الدراسة»، ص ٩.

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٢.



(المصمك)

الأستاذ محمد كمال جمعة

تصحيح وإيضاح

عن مقال للدكتور محمد عمارة
في مجلة «الهلال»
بعنوان
دعوات التجديد السلفية

تفضل معالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ وزير التعليم العالي ورئيس مجلس إدارة دارة الملك عبد العزيز بالإيعاز إلى الدارة أن تقوم بنشر هذا التصحيح والإيضاح والذي سبق أن أعدته الدارة في مجلتها «الدارة» وبهذا يعم النفع الذي ينشده الجميع. والدارة إذ تستجيب فإنها تشكر لمعاليه اهتمامه بها وبمجلتها، وحرصه على إحقاق الحق.

في مقال بعنوان «**دعوات التجديد السلفية**» نشر في مجلة «**الهلال**» في عدد ابريل ١٩٨٢ بقلم الدكتور «محمد عمارة» تعرض الكاتب «للوهابية». وإذا تجاوزنا عن تسمية دعوة وحركة **الشيخ محمد بن عبد الوهاب** بهذا الاسم فإنا نجد الكاتب قد أنصف الدعوة حين قال:

«**وكان التوحيد الخالص، كما بشّرت به الوهابية إسهاماً في إعادة روح التميّز والاستقلال إلى البناء الحضاري لأمتنا على جبهة العقائد والشعائر الدينية**». وحين قال:

«**والوهابية كامتداد للفكر السلفي الرافض لتأثيرات الفلسفة اليونانية في حضارتنا قد تبنّت إبداع أعلام السلفية**».

وحين قال:

«وعلى هذه الجبهة الفكرية كانت الوهابية كامتداد للفكر الفلسفي إسهاماً في الجهد المبذول كي تستعيد الأمة هذه القسمة من قسمات استقلالها الحضاري».

غير أن كاتب المقال قد أساء إلى «الوهابية» بغير حق في سياق نفس المقال:

* فمثلاً حين عرض كاتب المقال لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وذكر أن الشيخ قد هاجم «القياس» حتى لو كان صحيحاً، ورفض أن يحتكم لغير النصوص كان الواجب على كاتب المقال أن يبرز أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد فتح باب الاجتهاد الذي كان معلقًا — ولو أنه كان اجتهادًا مقيّدًا — ويعتمد على نصوص القرآن والسنة الصحيحة.

* وحين تحدث الكاتب عن الجبهة الفكرية وعن «الوهابية» كامتداد للفكر السلفي قال: «... إن تكن بداوة بيئتها وفقر الفكر الفلسفي عند أعلامها قد جعل إسهامها على هذه الجبهة متمثلاً في رفض التبعية، مع العجز عن الإبداع في بلْورة البديل!» فهل هناك بديل أحق وأشرف وأنبل من إعادة صبغ الحياة بنفس الصبغة الإسلامية القديمة أيام الإسلام الأولى والسلف الصالح؟

* وقد ألصق كاتب المقال «بالوهابية» تهمة هي بريئة منها حين قال: «... وجاءت الوهابية محكومة بأوضاع بيئتها البدوية فرفضت «التمدن» عامة، كجزء من

رفضها ذلك التمدن الغربي الذي كان يتسلل إلى عالم الإسلام».

والحق أن «الوهابية» حتى من أيام الدولة السعودية الأولى لم ترفض ما يسميه كاتب المقال بالتمدن رفضاً مطلقاً، وإنما رفضت منه — وما زالت ترفض — ما يتعارض مع تعاليم ديننا الحنيف. وديننا — كما هو معلوم — لا يرفض ارتقاء الإنسان بوسائل حياته المادية بل هو يشجع عليها طالما هي لا تبعد الإنسان عن جوهر الدين.

فإذا أخذنا جانباً واحداً من جوانب «التمدن» وهو أساليب القتال مثلاً فإنا نرى أن جيوش «الوهابيين» حتى من أيام الدولة السعودية الأولى كانت تستخدم في القتال — ضمن ما تستخدم — البنادق التي تضرب بالفتيلة، وهي سلاح (غربي)، بل إنهم حينما غنموا بعض المدافع في حروبهم ضد «محمد علي» فإنهم قد حاولوا استخدامها في حروبهم ضده.

وإذا كان الكاتب في هذا الصدد قد استشهد بالنسبة لما يسميه بسلبية «الوهابية» على جبهة العقلانية والتمدن بعبارة للشيخ محمد عبده فأغلب الظن أن هذه السمعة قد لحقت «بالوهابيين» في أنحاء العالم الإسلامي نتيجة للتشويه الذي كان في كثير من الأحيان متعمداً لأسباب سياسية، وفي أحيان أخرى نتيجة لتطرف بعض زعمائهم في فهم الدين مما أدى بهم إلى الخطأ في فهمه كما حدث بعد ذلك مثلاً من رفض بعض زعماء «الإخوان» عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م استخدام السيارات والتلغرافات والتليفون باعتبار أنها من أعمال السحر، وغني عن البيان أن هؤلاء كانوا قلة، ولم يكونوا متفقهين في الدين بقدر ما كان يقودهم الحماس لما ظنوه الدين الصحيح بدليل أن المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود قد استطاع بعد هذا أن يقيم دولة ناهضة على أساس من الدين القويم، ومن الإنجازات المدنية العصرية التي أيّده فيها العلماء المتفقهون في الدين.

أما قول كاتب المقال بأن ما دفع بالوهابية إلى الإيغال في درب رفض التمدن إنما هو خلطها الشديد بين ما هو «دنيا» وما هو «دين» فتلك نظرة علمانية تفصل بين الدين والدنيا. وهي ليست من الإسلام الحق. وثمة أخطاء تاريخية وقعت في المقال وننبّه إليها:



عبد العزيز أقام دولة ناهضة على أساس من الدين القويم والانجازات المعاصرة

ـــ جاء أن سنة ميلاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالتاريخ الميلادي هي سنة ١٧٠٠ والصحيح أنها سنة ١٧٠٣م.

ـــ ذكر كاتب المقال بأن **عثمان بن معمر** قد تعهد للشيخ بأن ينصر دعوة لا إله إلا الله، وأن يسخر قوته لاقتلاع عقائد الشرك ورموزه مقابل أن « يملكه الله نجداً وأعرابها ». ورغم أن **عثمان بن بشر** في تاريخه «عنوان المجد» قد أورد هذه المقالة إلا أنه أوردها بصيغة أخرى وهي أن الشيخ عندما قدم إلى العيينة **ودعا عثمان بن معمر** إلى اتباع ما قام به ودعا إليه، وقرر له التوحيد، وحاوله على نصرته (أي حثّه على نصرته) قائلاً (أي الشيخ) : «**إني لأرجو إن أنت قمت بنصرة لا إله إلا الله أن يظهرك الله تعالى وتملك نجداً وأعرابها..**».

فإذاً الكلام كان مجرد أمل للشيخ، ورجاء منه إلى الله سبحانه أن يعلي قدر ابن معمر إذا قام بنصرة «لا إله إلا الله».

وليس المراد أن عثمان بن معمر قد تعهد للشيخ بأن ينصر دعوة لا إله إلا الله، مقابل أن يملّكه الله نجداً وأعرابها، كما أورد كاتب المقال. ذلك لأن الشيخ لم يكن

يملك من أمر نفسه شيئاً حتى يعد ابن معمر بملكية نجد وأعرابها، وإنما كل ما يملكه هو أن يتوجه إلى الله بالدعاء والرجاء أن يفتح الله على ابن معمر ويعلي قدره ويملك نجداً وأعرابها إذا نصر دعوة التوحيد.

ـــ لا نقبل قول كاتب المقال إنه بعد تحالف الشيخ محمد بن عبد الوهاب مع الأمير محمد بن سعود أخذ يعرض دعوته على حجاج بيت الله وزوار قبر الرسول فمثل هذه الصيغة في القول ونعني بها «عرض دعوته» تنطبق على رسول الله الكريم وحده، فضلاً عن أن في هذا القول خطأً تاريخياً كذلك فالصحيح أن الشيخ محمد ابن عبد الوهاب كان في مكة المكرمة والمدينة المنورة قبل هذا التحالف بفترة، وإن كان هذا لا يمنع أن الشيخ كان قد صرّح في هذين المكانين الكريمين ببعض أفكار دعوته وبخاصة رفضه للبدع الشركية.

وأما بعد أن تم هذا التحالف فقد كان أكبر الجهد مبذولاً في تبصير أهل الأماكن ـــ التي أخذ الجيش السعودي يغزوها ـــ بالإسلام الحق، وهؤلاء بدورهم تحوّلوا إلى مجاهدين.

ـــ لا نستطيع أن نقرّ كاتب المقال وهو يقول: إن **الشيخ محمد بن عبد الوهاب** كان يقود الجهاد بنفسه في طليعة جيش ابن سعود، والصحيح أنه ـــ رحمه الله ـــ هو الذي كان يجهّز الجيوش ويبعث السرايا.

ـــ ومن الخطأ قول الكاتب بأن «الوهابية» قد بقيت دعوة تسعى لإقامة الدولة حتى تيسّر لها ذلك في العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين أي في زمن الإمام الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ـــ غفر الله له ـــ فهذه هي الدولة السعودية الثالثة. ومعلوم أنه بنهاية الدولة السعودية الأولى قامت الدولة السعودية الثانية لفترة بدأت من عهد **الإمام تركي بن عبدالله** ثم ابنه **فيصل بن تركي** حين قدم إلى الجبل هارباً من مصر، ثم حاصر الرياض بعدها ودخلها عام ١٢٥٩ هـ/ ١٨٤٣ م.

ـــ ويحتاج إلى المناقشة قول الكاتب بأن «الوهابية» في المجال الفكري «قد شجّعت ـــ إسلامياً ـــ شرعية ولاية العثمانيين على العرب، عندما تبنّت وأبرزت موقف أغلب فقهاء الإسلام ـــ ومنهم فقهاء السلفية المنحاز لضرورة توافر شرط

العروبة القرشية فيمن يتولى منصب الخليفة والإمام... » في مجموعة الرسائل والمسائل النجدية أوضح أحد أتباع الشيخ موقف **الشيخ محمد بن عبد الوهاب** من موضوع الإمامة وفيه جاء ــ ضمن ما جاء ــ إن الإمام المثالي يجب أن يكون حراً ذكراً عادلاً يعرف الشريعة، ويقدر على إدارة الشئون الاجتماعية للأمة وإذا توافرت هذه الصفات في واحد من قريش فإنه أولى بها ... بمعنى أن دعوة الشيخ السلفية لم تشترط أن يكون الإمام قرشياً. كما أن مجموعة التوحيد النجدية قد أثبتت رأي **الشيخ محمد بن عبد الوهاب** نفسه في أن طاعة الحاكم واجبة وإن كان جائراً أو فاسقاً، وأن أمره يجب أن يتبع ما دام لم يأمر بمعصية، كما أن دعوته للجهاد يجب أن تلبّى دون تردد.

فالدعوة السلفية. إذاً ــ لم تصطدم بالعثمانيين لمجرد أنهم عثمانيون غير عرب بل لأن العثمانيين قد أجازوا كثيراً من البدع الشركية التي قامت الدعوة من أجل محاربتها، ثم لأن العثمانيين هم الذين بدأوا الدولة السعودية الأولى والدعوة السلفية بالقتال. فالمعروف تاريخياً أنه لم يكن هناك أي وجود حقيقي للعثمانيين في نجد أيام قامت الدعوة بل ربما أن العثمانيين لم ينتبهوا أو يهتموا بقيامها، ولكن حين رأوها تنشط وتتوسع خافوها، فحرضوا ولاتهم في العراق والشام على محاربتها، فلما عجزوا كلفت الدولة العثمانية واليها على مصر «محمد علي» بذلك.

ومن الخطأ المطبعي ما وقع في كتابة اسم أمير العيينة على أنة عثمان بن أحمد بن معمر وصحته **«عثمان بن حمد بن معمر»**.

وأياً كان فإن المقالة في جملتها ليس بها ما يشين أو يسيء للدعوة ولأئمتها ومن ناصروها عن قصد، وأن ما ورد بها من أخطاء يبدو أنها اجتهادات شخصية غير متعمدة من الكاتب.

والجدير بالذكر أنه قد صدر لنفس الكاتب وهو **الدكتور «محمد عمارة»** كتاب جديد نشرته دار الهلال كذلك في سلسلتها الشهرية المسماة بكتاب الهلال بعنوان **«تيارات اليقظة الإسلامية الحديثة»** في شوال ١٤٠٢ هـ/ أغسطس ١٩٨٢.

ويبدأ الكاتب كتابه هذا بالحديث عن تيارات التجديد السلفية: الوهابية والسنوسية والمهدية.

ويقول وهو يعرض لأول هذه التيارات بعنوان «الوهابية ... الإسلام العربي ... الخلافة العربية». عن **عثمان بن حمد بن معمر** رئيس العيينة — بعد أن كان قد استجاب لدعوة الشيخ ونصره في هدم قبة زيد بن الخطاب في الجبيلة: (على صفحة ٣٠ من هذا الكتاب) «... ثم أعقبت هدمها هزة نفسية في صفوف الأعراب، هددوا بها حاكم «العيينة» بالتمرد على سلطانه إن هو ناصر دعوة ابن عبد الوهاب، فوزان الحاكم بين ما بيده من السلطة وبين ما وعده ابن عبد الوهاب منها في المستقبل وبين الثواب عند الله، فاختار العاجل على الآجل، والدنيا على الآخرة، وتخلّى عن نصرة التجديد والتوحيد، أو بالأحرى تخلّى عن الأسلوب العنيف لابن عبد الوهاب في نصرة الدعوة، وطلب إليه أن يغادر العيينة فراراً بنفسه قبل أن يفتك به الغاضبون لهدم قبة زيد بن الخطاب».

والحق أن المصادر الأصلية عن تاريخ **الشيخ محمد بن عبد الوهاب** ودعوته ونعني منها هنا «**عنوان المجد في تاريخ نجد**» للمؤرخ الشيخ **عثمان بن عبدالله بن بشر** و«**روضة الأفكار والأفهام...**» **للشيخ حسين بن غنام** تجمع على أن السبب الذي جعل **عثمان بن معمر** يطلب إلى الشيخ **محمد بن عبد الوهاب** مغادرة العيينة إنما هو أمر **سليمان بن محمد رئيس بني خالد والأحساء لعثمان** بقتل الشيخ أو إجلائه عن بلده ولم تكن لعثمان طاقة على مخالفة أمر سليمان بن محمد أو قدرة على حربه، ثم إننا لا نفهم معنى لقول الكاتب الدكتور محمد عمارة «... أو بالأحرى تخلي عن الأسلوب العنيف لابن عبد الوهاب في نصرة الدعوة...» فهل يقصد الكاتب بهذا الأسلوب العنيف ما قام به الشيخ من هدم القباب وقطع الأشجار التي كان الناس يتبركون بها أو حتى رجم الزانية المحصنة التي اعترفت بجرمها غير مكرهة. وواضح بالطبع أن هذا كله إنما يدخل في باب التطبيق العملي للدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وإعمال التوحيد الحق على النحو الذي جاء به الإسلام الحق فواضح أن القيام بمثل هذه الأعمال لا يسمى استخدام أسلوب عنيف.

ويقول الدكتور محمد عمارة في آخر هذا المبحث «الوهابية: الإسلام العربي... والخلافة العربية» على ص٣٣ من الكتاب «.. لكن دعوة ابن عبد الوهاب لم تمت بهزيمة دولتها فلقد عاشت، بل وعادت في مرحلة تالية فأقامت دولتها من جديد، ولكنها ظلت، دعوة ودولة في شبه الجزيرة العربية وحدها، ودون أن تتعداها ... لقد

كانت تجديداً للإسلام، وطليعة يقظة أهله على عتبة العصر الحديث، والدعوة إلى عروبة الخلافة والدولة بعد أن استأثر بها الأتراك قرابة ثلاثة قرون ... ولكن آفاقها المحدودة، وفكريتها المحافظة، وأساليبها البدوية العنيفة قد أبقت عليها حركة تجديد ويقظة لأعراب شبه الجزيرة وحدهم، فاختصت بهم، واختصوا بها، وانفردوا وحدهم بهذا الشرف من دون المسلمين!.

وفي هذا القول ما هو صحيح وما هو غير صحيح. فالصحيح أن دعوة الشيخ لم تمت بهزيمة الدولة السعودية الأولى، وأنها عادت في مرحلة تالية فأقامت دولتها من جديد. والصحيح أنها كانت تجديداً للإسلام، وطليعة يقظة أهله على عتبة العصر الحديث. وأما أنها كانت دعوة إلى عروبة الخلافة والدولة بعد أن استأثر بها الأتراك قرابة ثلاثة قرون فقد سبق وأن ناقشنا هذه النقطة في مقالنا هذا.

وأما غير الصحيح فهو وصف الدكتور محمد عمارة لآفاق الدعوة بأنها كانت محدودة وأن فكريتها كانت محافظة. نعم عنيت الدعوة بموضوع رئيسي هو إعمال التوحيد ونشر الإيمان به إيماناً راسخاً مبرءاً من كل شائبة، إلا أن التطبيق السعودي الحالي لهذا قد أثبت عملياً وبما لا يقبل الشك أن هذا لا يحول دون الإفادة من ثمرات العلم الحديث وتطبيقاته، والارتفاع بمستوى حياة الإنسان مادياً بدون التضحية بطبيعة الحال قيد أنملة بحياته الروحية، والقول بأن فكريتها كانت محافظة لا يعيبها إذا كانت المحافظة تعني المحافظة على الإسلام: نصًا وروحًا. وأما عن وصف أساليبها بأنها بدوية عنيفة، فقد سبق لنا هنا إيضاح تهافت هذا الوصف.

ومن الخطأ قول الكاتب الدكتور «محمد عمارة» بأن الدعوة كانت حركة تجديد ويقظة لأعراب شبه الجزيرة وحدهم، فاختصت بهم، واختصوا بها، وانفردوا وحدهم بهذا الشرف دون المسلمين. ولعل الكاتب إذا رجع إلى المصادر والمراجع التي أرّخت للدعوة يتبين له أنها بالفعل قد انتشرت خارج الجزيرة العربية بالرغم من العوامل السياسية الكثيرة التي كانت تقف ضد هذا الانتشار فظهر أثرها الواضح في شبه القارة الهندية، وفي أندونيسيا، وفي غرب أفريقيا، كما ظهر أثرها في بعض أرجاء العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه، بل وأثّرت في الحركات الدينية التي لحقتها مثل السنوسية والمهدية .. وثمة كتاب أصدرته دارة الملك عبد العزيز بعنوان «انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب خارج الجزيرة العربية» يمكن أن يكون فيه ما يعين الدكتور محمد عمارة على تصحيح مفهومه هذا عن انتشار الدعوة. والله الموفق...



د. رسمية علي خليل

أصبح العالم اليوم أكثر من الأمس في أشد الحاجة إلى الفهم العالمي خصوصًا مع زيادة التطور الصناعي والتكنولوجي والعمراني، وما تبع ذلك من حدة التوتر بين الدول في التسابق على التسليح والبحوث النووية إلى درجة كادت أن تُعطِّل اجتماعات الأمم المتحدة ومجلس الأمن ... بل كثيرًا ما أغلقت كل سبل الاتصال Communication بين الدول المتطورة منها والنامية على السواء.

والسلوك العام Behavior والسلوك الإنساني بوجه خاص هو كل نشاط يقوم به الإنسان ويمكن ملاحظته أو ملاحظة نتائجه وبمعنى آخر هو كل ما يصدر عن الإنسان من استجابات عقلية وحركية واجتماعية ونفسية ظاهرة أو غير ظاهرة، واضحة للرائي أو مبهمة .. ومن هنا كانت الإشارات والتلميحات وحركات اليدين وإيماءة الرأس سلوكا ولغة يهتم بها الآن علماء اللغة وعلماء النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا على حدٍ سواء.

والفهم العالمي International Understanding هو القدرة على تكوين وجهة نظر معقولة ومتزنة عن أي بلد من بلاد العالم، وعن علاقة هذا البلد بالبلدان الأخرى ثم علاقته بالعالم ككل. ويساعدنا في ذلك دراسة تاريخ البلدان وثقافاتها ومكونات تلك الثقافات من المواريث الاجتماعية والعادات والتقاليد والمعايير والقيم والاتجاهات ... وغيرها. هذا بالإضافة إلى الحاجات النفسية الأساسية **Human Basic Psychological Needs** ولا تختلف هذه الحاجات النفسية الأساسية من شخص لآخر سواء أعاش في أوربا أو أمريكا، في إفريقيا أو الوطن العربي والإسلامي، ولكن هناك معايير ومحددات أخرى للسلوك في اللغة والدين والقيم تؤثر في السلوك الاجتماعي لأفراد شعب دون الآخر، وتنعكس آثارها في عملية الفهم والتفاهم والعلاقات الدولية إلى درجة دعت إحدى أستاذات علم النفس في جامعة ميامي بولاية فلوريدا بالولايات المتحدة الأمريكية إلى تقنين اختبار ذكاء للفهم العالمي تعكس أسئلته أكثر ما تعكس مدى الفهم ومن ثم الاحترام لعادات الشعوب وتقاليدها ونواميس الحياة فيها.

(انظر: **Edith Lord, Queen of Sheba's Heirs. Acropolis Books, (Washington, D.C., U.S.A. 1970.** وهو كتاب «ورثة ملكة سبأ». للدكتورة إيديث لورد.

واتجهت كثير من الدول نحو دراسة الوسائل المختلفة التي تساهم في تحقيق العلاقات الإنسانية والعلاقات بين الدول على وجه الخصوص. وظهر أن التعليم الدولي **International Education** أحد هذه الوسائل الهامة، خصوصًا بعد الحرب العالمية الثانية ومع ضرورة تحسين العلاقات بين الدول غالبة أو مغلوبة، ولتأمين الناس من الحرب الباردة والحرب النفسية والإشاعات. كما استخدم التدريب والتبادل الثقافي والابتعاث للطلبة وللموظفين في الخدمة ... وغيرها كوسائل هامة لتحقيق السلام الدولي ومن ثمّ نشطت حركة التأليف لوضع مناهج عن الفهم العالمي لجميع المستويات من الحضانة إلى الجامعة. كما ظهرت كتب توضح أهمية الأغاني والأراجيز وأغاني الطفولة على وجه الخصوص والأناشيد الوطنية والفلكلور بأنواعه كأسس هامة للتعرف على الشعوب المختلفة وعاداتها وطريقة حياتها اليومية وألعاب الأطفال وملابسهم. وتبودلت العرائس بين أطفال العالم بملابسها الوطنية الزاهية

والتي تحكي قصص شعوب بأكملها. وأصبحت هناك موضوعات شيّقة تُدرّس في المدارس ويُعدُّون لها المعارض الفنية سنويًا ويسمونها بأسماء الشعوب والبلدان، فهذا يوم اليابان وذاك عن الهند أو باكستان وآخر عن أمريكا أو إفريقيا أو الشعوب العربية والإسلامية الصديقة والشقيقة، وعن جيراننا دول الخليج.

وهكذا يتعرّف الناس أفرادًا وجماعات على كل شعب على حدة ولو في نبذة بسيطة عن تاريخة وجغرافيته وعادات سكانه وملابسهم وأكلاتهم الشعبية وأغانيهم الفلكلورية وأناشيد أطفالهم وألعابهم وما تعكسه الغنوة والحدوتة والفزورة ـ أو الحزيرة ـ من حاجات نفسية وقيم اجتماعية.

ولقد أفصحت أغاني الأطفال في بحوث كثيرة عن القيم الدينية والأماني والآمال لبلد وآخر، بل للبلد الواحد في مناطقه المختلفة: في البادية والحضر وفي المدينة والقرية، وفي المناطق الداخلية والساحلية كما نلاحظ بوضوح في أغانينا الدينية وفي أناشيد الأطفال في المدارس وفي العُرس والرحماني أو ما نسميه بيوم السُبُوع أو يوم التسميَه.

ومن أمثلة ذلك:

نحنُ بنو الكرامِ نعتزُّ بالإسلامِ
أركانُهُ الجَليلة دعائم الفضيلة
وهيَ الشِهَادتَانِ قاعدةُ الإيمانِ
والصومُ والصلاة والحج والزكاة
تكفُلُ عِزَّ الدُنيا والدرجاتِ العُليا
وتسعدَ المجتمعَ في الدينِ والدُنيَا معًا

* * *

يا إلٰهي يا إلٰهي يا مجيبَ الدَعواتِ
اجْعل اليومَ سعيدًا وكثيرَ البَركاتِ
وأَنِرْ قلبي وعقلي بالعلومِ النَافعاتِ
واجعلِ التوفيقَ حظي ونصيبي في الحياةِ
واحْمني واحمِ بِلادي من شرورِ الحَادثاتِ

يـــا إلَــهي يــا إلَــهي		يــــا مجيب الـــدَعواتِ

* * *

عــريسْنَـا يــا بـدْرِ بَادِي		تــمّتْ لــيـالـيكَ السُـرور
عــريسْنَـا يا عِـطرِ زاهِي		غَـلَبْ على كـلِّ الـعُطُور
أخْـــذتــهَـا وأنتَ الموفَّقْ		حُوريَـة من بلاد الـنُّور
والخـتْمُ صلِّينا على مُحمدّ		نـبـيِّـيـنا مـدَى الـدُهُور
هـاتُـوا الـزهورْ رشُّوا العُطور		لـعـريسْـنـا بـدْر الـبُـدُور

* * *

يـــــا ربُّ يـــا رحْماني		بــاركْ لِـنَـا في الـغُلامِ
يــا ربُّ يــا بــرِّيــه		يِـحْـفَـظْ لِـنَـا الـبُـنـيـة
المْولى أسـعـدنَـا وهـنَّـانَـا		وأعـطـانـا مـولـودْ جـديـد
من فـرحِ قـلـوْبنَـا غـنينـا		مــبـرُوك سـابـعْ سَـعـيـد
بْبَخُـور جَاوِي ومسْك وعنْبَر		سمِّيناك من كـلِّ حَسُود
لا تبْكِ ولا يـومْ تتحسَّر		داحُبَّك في قـلـوْبنَـا يـزِيد
يـا صلاةِ الـزينْ الله أكبْر		مـولـودْنَـا زيـنِ الـمَوَالـيـد

* * *

نَـامي نَامي يـا مَلاَكـي		في أمـــانِ الـــلِّى رَعَـــاكِ
يـا مُـنى قـلبي وعْيَنيّهَ		كـــلِّ شِيْءْ هَـايـنْ عَـليَّ
وأنْتِ نَـاْيمَـه بِيْن إيديّه		نَـامي نَـامي نَـامي هُوهْ

* * *

ويهدف ذلك كله إلى فهم الناس واحترامهم وحبهم بعد فهم عاداتهم وثقافاتهم، كما يهدف إلى الوصول إلى التشابه الموجود بين الناس ـ فالطفل هو الطفل في كل مكان وزمان، وحبّ الطفل والغناء له سيظل في كل وطن وقطْر. فالإنسان هو الإنسان في كل بلد ومدينة وقرية وإن اختلفت الثقافات والحضارات، إذ يجمع الكلَّ سلوكٌ إنساني هو أقرب إلى التشابه منه إلى الاختلاف. لذلك استعانت المدارس والجامعات بالوافدين عليها كمصدر هام لثقافتهم وعاداتهم وعقدت الندوات للتعرف

على الشعوب وأهلها وبحث مشكلات العالم، وإمكانية زيادة التفاهم العالمي بين الشعوب ومن ثم تحقيق التضامن والسلام. وإن أولى الخطوات لذلك هو فهم السلوك الإنساني، فهم سلوك الأفراد والجماعات ... لماذا يسلك الفرد هذا السلوك دون ذاك ؟ وما هي الأسس النفسية والاجتماعية وراء سلوك الناس بوجه عام ؟ وقامت لذلك دراسات نفسية وأنثروبولوجية للتعرف على الظواهر الواضحة في سلوك الفرد أثناء التخاطب، بل أكثر من ذلك الكشف عن ظواهر اللغة الصامتة **Silent Language** والعوامل الشعورية واللاشعورية المؤثرة في ذلك. بمعنى آخر الاهتمام بكيفية انتقال الأفكار والمعاني ـ عبر اللغة طبعًا ـ والإشارات والتلميحات أيضًا أي عبر اللغة الصامتة ـ وماذا يحدث حينما يتكلم الناس ؟ فإذا تحدّث زيدٌ إلى عَمْرو ... هل يصل ما يعنيه زيد إلى ذهن عمرو تمامًا ؟ أم أنه رغم وضوح مخارج اللفظ من زيد لا يفهم عمرو ما قصده زيد بل قد يفهم عكسه ونقيضه أحيانًا. ماذا حدث إذن وأدى إلى هذه النتيجة غير المتوقعة ؟

إن في اللغة كلمات Words وأنماط Patterns لكن بين هذه وتلك إشارات وفواصل وحركات Isolates كثيرًا ما تظهر في الحديث لا شعوريًا وهذه في الحقيقة هي المحتوى الأساسي للغة الصامتة ... وفي رأينا أن الناس كثيرًا ما يفشلون في تعاملهم اليومي نتيجة عدم معرفتهم أهمية اللغة الصامته ... فكثيرًا ما يبعث المدير الخوف في نفوس مرءوسيه نتيجة حديثه بصوت عال، أو ضرب كف بكف فجأة، أو الخبط بشدة على المكتب لتأكيد وجهة نظره .. وأحيانًا تكفي إشارة اليد فتقوم بما يشبه التهديد خصوصًا إذا كانت اليد قريبة من وجه المتحدَّث إليه.

وحين يصل الزوج إلى بيته قادمًا من عمله، تظهر في الدقائق الأولى لوصوله إشارات وحركات ـ أي لغة صامتة غير متحدثة ـ تُلقي الكثير من الضوء على ما كان من يومه من أحداث سارة أو غير سارّة وأمثلة لذلك : طريقة دخوله إلى البيت، وهل كان هادئًا أم منفعلاً؟ وماذا كان من صوته عند قوله «**السلام عليكم**» هل في نبرات الصوت فرح أم حزن ؟ ارتياح أم غضب ؟ إن ذلك كله يعكس حالته النفسية بل وتنعكس آثاره على زوجته وأولاده ... وإن أرادت الزوجة إيضاحًا جلست إلى جواره تنتظر، وإن لم تُردْ وأرجأت شرح وتفسير حالته تركته لإعداد طعام الغداء. ويحدث ذلك كله في ثوانٍ معدودات دون أن يتحدث كل منهما للآخر بكلمة

واحدة. وتعكس اللغة الصامتة هنا القيم الدينية الواضحة في الآية الكريمة :

« ومِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لكُمْ مِنْ أَنفسكم أَزْواجًا لتسكُنُوا إليهَا وجَعَل بَينكمْ مودةً ورحمة إنّ في ذَلك لآيات لقوم ٍ يَتَفكرَون » [الروم : **٢١**].

كما توضح بعض القيم الاجتماعية مثل رعاية الأسرة وحمل المسئولية وتفقد ساعة طعام الزوج ومنامه والعمل على راحته. والأمثلة كثيرة لا في محيط الأسرة فقط، بل وعلى المستوى الدولي. وهناك حالات كثيرة تدرسّ كأمثلة في برامج تدريب الدبلوماسيين وتثقيفهم وتعريفهم بأحوال البلاد المختلفة كوسيلة للفهم العالمي أيضًا .. أذكر على سبيل المثال لا الحصر حالة الخبير الزراعي الذي زار إحدى الدول العربية يومًا ما للإشراف على برامج تدريب الفلاحين على استخدام طرق الزراعة الحديثة والميْكنة الزراعيه. واستفسر الخبير ـ عبر المترجم ـ من أحد الفلاحين عما يمكن أن يجنيه الفلاح من غيطه في تلك السنه مقدرَّةً بالقناطير... وهنا ظهرت علامات الضيق الشديد على وجه الفلاح وتمتم بكلمات مبهمة فهمها المترجم على الفور وتكهرب الموقف !! وعجب الخبير وراح يفكر فيما قاله مما قد يسبب الأذى النفسي للفلاح. وبكياسة وفطنة حاول المترجم إزالة القلق والتوتر وطمأن الفلاح بسلامة نية الخبير، وتوجه إلى الخبير قائلاً : إن الفلاح في معظم بلاد العالم لا يحب بحال من الأحوال أن يُسأل عما سيجني من غلةٍ غدًا فهو ينثر الحب وعليه اتباع أحسن القول «إعقلها وتوكّل» والعلم بعد ذلك عند الله عزَّ وجل ... وهو يعمل ويجتهد لكنه لا يُقدِّر فتضحك الأقدار فالغيب يعلمه الله «وعِنْدَهُ مَفاتِحِ الغَيْب لا يعْلَمُها إلاَّ هُو» ومن جدَّ وجد، وكل شيء عند الله بمقدار... وهكذا يكون لعدم معرفة الخبير بأصول الثقافة وعواملها والأمثال الشعبية والشرائع السماوية للبلد المضيف أثر كبير في عدم فهم السلوك الإنساني ومن ثم عدم تحقيق الفهم العالمي.

وأمثلة أخرى كثيرة حدثت في أوربا وأمريكا اللاتينية وإفريقيا ... بل في معظم الدول النامية، حيث جهل المبعوثون إليها ثقافة البلد المضيف وعاداته وتقاليده. ويجب أن نضع في الاعتبار أن ما يراه السائح أو الخبير في بلد ما ـ حسب معاييره الاجتماعية وقيم بلده ـ كثيرًا ما يكون على خلاف ذلك في البلد المضيف ... **لذلك كله يجب على كل فرد في مجال عمله، المدرس والمرشد النفسي ورجل الأعمال والإداري**

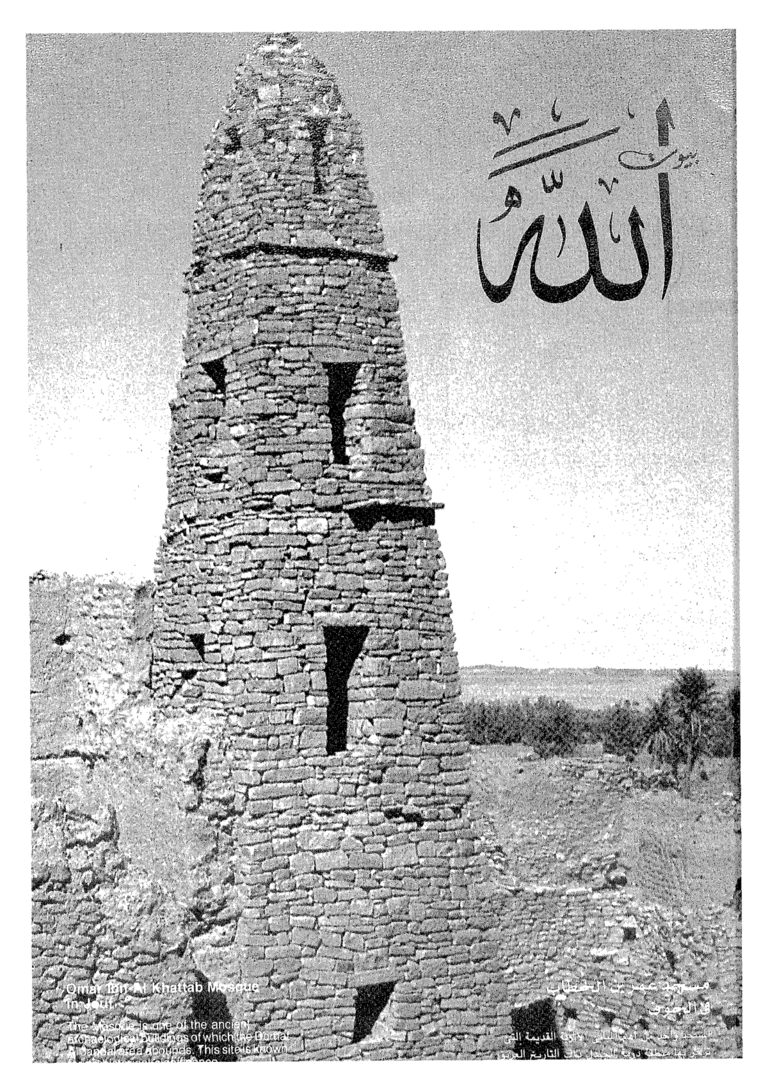
والأخصائي الزراعي والكاتب والأديب .. يجب على كلٍ منهم أن يهتم بدراسة ثقافات الدول المختلفة وما أمكنه من لغتها والتعرف على فنونها وأمثالها الشعبية وقصص الأدباء وأغاني الصغار والكبار وفهم مغزاها وما ترمي إليه وما تحوى من قيم وأمثال شعبية وما تحثّ عليه من سلوك مرضيٍّ عنه اجتماعيًا وخلقيًا وما تعكسه من سلوك يومي ... ومحاولة فهم أصول وقواعد هذا السلوك الإنساني ولغته الصامتة والمتحدَّثة كوسيلة هامة لتحقيق الفهم بين الدول ولتحقيق السلام العالمي.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

صدق الله العظيم

(سورة الروم: ٢١)


بيوت الله
Omar Ibn Al Khattab Mosque in Jouf.
The Mosque is one of the ancient archaeological buildings of which the Dumat Al Jandal area abounds. This site is known
مسجد عمر بن الخطاب في الجوف



شمس الدين الذهبي

شهد القرن الثامن الهجري حركة ضخمة كبرى لبروز أعلام في الثقافة الإسلامية، كان من بينهم مؤرخون أجلاء، اكتسبوا مكانة مرموقة ضخمة بين المسهمين في الفكر التاريخي الإسلامي العربي، وكان ممن حفظ له تاريخ الإسلام مكانة جلية مؤرخ الإسلام شمس الدين الذهبي.

ولمدينة دمشق المجيدة أن تفخر بأنها قدمت للتاريخ الإسلامي أعلاماً أجلاء من بينهم الذهبي. الذي قدم للتاريخ الإسلامي مكانة كبيرة وحظي فيه بأكبر الأثر وأعظم الآثار.. ومن ثم استحق الذهبي أن يكون مؤرخاً للإسلام ويصل إلى مكانة لم يصل إليها غيره..

ومع شمس الدين الذهبي نتأمل حياته .. وثقافته .. وآثاره ومكانته العلمية.

بقلم الأستاذ / معالي عبد الحميد حمودة

من هو شمس الدين الذهبي؟

أبو عبدالله: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبدالله الذهبي. ولد في شهر ربيع الآخر سنة ٦٧٣ هجرية[١] كان من أسرة تركمانية الأصل، تنتهي في ولائها لبني تميم، سكنت هذه الأسرة مدينة (ميافارقين) من أشهر مدن ديار بكر[٢].

عرف مؤرخ الإسلام بابن الذهبي نسبة إلى صنعة أبيه[٣]، ويبدو أن مؤرخنا قد امتهن صنعة أبيه في بدء حياته لذا عرف لدى بعض معاصريه بالذهبي مثل صلاح الصفدي[٤] وتاج الدين السبكي[٥] وابن كثير[٦] وغيرهم.

عاش **شمس الدين الذهبي** طفولته بين رعاية عائلة طيبة متدينة عالمة، فكانت مرضعته عمته[٧] (**الحاجة أم محمد**) وكان خاله[٨] طلب العلم ورواه على يد كثير من الشيوخ والعلماء. أما زوج[٩] خالته فاطمة، فقد كان رجلاً ديناً يحمل كتاب الله.

اعتنت هذه العائلة بابنها ونشأ الذهبي في هذا الجو العائلي الطيب المنبت المتدين، فكان هو ثمرة طيبة لهذه البيئة التي تعرف الله وتعرف الدين وتعرف العلم.

اتجه الطفل الوليد ـ الذهبي ـ إلى أحد المؤدبين المعروف بالبصبص[١٠] وكان من أحسن الناس خطا وأعرفهم بتعليم الصبيان، وخلال هذا كان عم شمس الدين يعلمه على النطق بالراء تقويمًا للسانه.

بعد هذا اتجه الذهبي إلى شيخه (**مسعود بن عبدالله الصالحي**) فلقنه جميع القرآن ثم قرأ عليه نحواً من أربعين ختمة، وبدأ الصبي في الحضور إلى مجالس الشيوخ ليسمع كلامهم ولما قدم (**عز الدين الفاروثي**) عالم العراق إلى دمشق سنة ٦٩٠ هجرية ذهب الفتى الذهبي وسلم عليه وحدثه وبدأ الذهبي يرتقي خطوات العلم والدرس والبحث والفقه.



بدء عناية شمس الدين الذهبي بالعلم

عندما بلغ الذهبي الثامنة عشرة من عمره شاء الله تعالى له أن يضع أقدامه في طريق العلم وتوجهت عناية الذهبي إلى القراءات والحديث الشريف فاهتم بقراءة القرآن المجيد واعتنى عناية فائقة بدراسة علم القراءات فاتجه عام **٦٩١ هجرية** إلى شيخ القراء (**الفاضلي**)[١١] الذي شرع عليه بالجمع الكبير[١٢].



بعد أن توفي الفاضلي قرأ الذهبي على الشيخ (**ابن غالي المقرئ الدمشقي**)[١٣] وما لبث الذهبي أن أصبح على معرفة جيدة بالقراءات وأصولها ومسائلها وهو لمّا يزل فتى لم يتجاوز العشرين من عمره.

بلغ من براعة الذهبي في القراءات أن تنازل له شيخه (**محمد الدمياطي**) عن حلقته بالجامع الأموي في أواخر سنة **٦٩٢ هجرية** وكان هذا أول منصب علمي يتولاه الذهبي.

بيد أن أكثر ما شغف به شمس الدين الذهبي هو علم الحديث فقد مال إليه واعتنى به عناية[١٤] فائقة تامة، وانطلق في هذا العلم حتى طغى على تفكيره واستولى على كل حواسه، فسمع في هذا ما لا يحصى من الكتب والأجزاء، ولقي كثيراً من الشيوخ وتلقى علم الحديث فصار بارعاً براعة لم يصل إليها أحد في وقته.

رحلات الذهبي لطلب العلم

إيماناً بأن العلم لا يأتي بل يتجه المرء إليه.. فقد شرع مؤرخ الإسلام في تطبيق هذا القول عملياً .. لكن قبل أن يشرع الذهبي في رحلاته كان ما يحزّ في نفسه أن والده لم يشجعه على هذا بل منعه من الرحلات ولقد قبل الذهبي هذا على أساس أن من آداب طلب العلم تقتضي من الصغير استئذان الأبوين. ويبدو أن الذهبي كان وحيد أبويه بحيث كانا يخافان عليه مثل هذا الخوف.

وأخيراً سمح له والداه بالرحلة حين بلغ العشرين من عمره وذلك سنة **٦٩٣ هجرية**.

رحل الذهبي إلى داخل البلاد الشامية وكانت أول رحلة إلى (**بعلبك**) في نفس السنة، ثم رحل إلى (**حلب**) و(**حمص**) و(**حماه**) و(**طرابلس**) و(**الكرك**) و(**بصرى**) و(**نابلس**) و(**الرملة**) و(**القدس**) و(**تبوك**) .. ولقد نهل الذهبي من هذه الرحلات نهلاً عظيماً في مختلف علوم الدين الحنيف.

رحل بعد ذلك إلى الديار المصرية في رجب سنة **٦٩٥ هجرية** وكان أول ما فعله في مصر أن سمع على الشيخ (**ابن الظاهري**)[١٥].

سمع بعد ذلك عن جماعة كبيرة من أشهرهم مسند الوقت أبو المعالي بن الأبرقوهي وشيخ الإسلام قاضي القضاة ابن دقيق[١٦] والعلامة ابن خلف الدمياطي وغيرهم. **ورحل بعدها**

الذهبي إلى الاسكندرية وسمع من علمائها الكثير ورحل بعدها إلى (بلبيس) وسمع بها. [١٧]

الذهبي في بيت الله الحرام

كتب الله تعالى لهذا المؤرخ الكبير أن يتلقى علومه وأن يزور بيت الله الحرام فسافر الذهبي في **سنة ٦٩٨ هجرية** إلى بيت الله بعد وفاة والده وأدى فريضة الحج وسمع بمكة المكرمة وعرفة ومنى والمدينة في مجموعة من شيوخها الأجلاء.

وهكذا بدأت رحلات الذهبي في طلب العلم والقراءات وعلوم الحديث والتراجم بدءاً من الشام وانتهت بالبقعة الطاهرة التي وضع الله تعالى فيها بيته المجيد.

منهج الذهبي العلمي

أنفق شمس الدين الذهبي سنوات عمره في الدراسة والسماع لا يشغله عنهما شاغل ولقد كانت دراسة الذهبي وسماعاته متنوعة، لم تقتصر على القراءات والحديث، فقد عني بدراسة النحو فسمع (**الحاجية**) في النحو على شيخه (**ابن النصيبي البعلبكي**)[١٨] ثم درس على شيخ العربية وإمام أهل الأدب في مصر (**ابن النحاس**).[١٩].

اهتم الذهبي بالكتب التاريخية فسمع كثيراً في المغازي والسيرة والتاريخ العام ومعجمات الشيوخ والمشيخات وكتب التراجم الأخرى.

إلا أن الجهد الأكبر الذي بذله شيخ الإسلام الذهبي كان منصباً على الحديث فقد سمع مئات الكتب والأجزاء الحديثية طيلة حياته في طلب العلم، بل إنه قرأ أعداداً هائلة من الأحاديث النبوية الشريفة.

وإجمالا لمنهج الذهبي العلمي؛ فقد عني بالعلوم الدينية عموماً والعلوم المساعدة لها كالنحو واللغة والأدب والشعر، كما أنه اطلع على بعض الكتب الفلسفية.

الذهبي مع العمالقة

كان الاتصال بالعمالقة في العلم والأدب من أهم الأهداف التي يسعى إليها طالب العلم فطالب العلم يجب عليه ألا يقنع بما يحصل عليه من علوم عن طريق الدراسة والتحصيل، ولكن عليه أن يبحث وينقب ويناقش ويتلاقى مع من سبقوه إذا يسرت له



الحياة ذلك .. ولقد كان الذهبي نجيباً في هذا المقام فكان في عصره ثلاثة من العمالقة لهم شأن كبير، أولهم المزي الشافعي[٢٠] والعملاق الشيخ الإمام ابن تيمية[٢١] والشيخ علم الدين البرزالي[٢٢] وكان للقائه بهم أثر كبير في تحصيل الذهبي للعم فترافق معهم طيلة سنوات من عمره، وكان الذهبي أصغرهم سناً ولكنه كان تلميذاً نجيباً، إذ انتفع بعلومهم ونصائحهم إلا أنه انبهر تماماً بشخصية الإمام المجدد ابن تيمية ذلك أن ابن تيمية كانت شخصيته قد اكتملت وأصبح مجتهداً له أراؤه التي تقوم في أصلها على اتباع آثار السلف فكان ابن تيمية يقيم الحدود بنفسه ويحلق رؤوس الصبيان[٢٣] ويحارب المشعوذين من أدعياء التصوف ويمنع من تقديم النذور[٢٤] ويدور هو وأصحابه على الخمارات والحانات ويريق الخمور[٢٥] ويقاتل بعض من يعتقد فساد عقيدته وبلغ الأمر به في إحدى المرات أن دخل السجن وأخرج صديقه المزي منه بنفسه[٢٦].

وظهرت شخصية ابن تيمية السياسية في الحرب الغازانية (**٦٩٩هـ وما بعدها**) لاسيا في سنة ٧٠٢ هجرية، حيث لعب دوراً كبيراً في انتصار المماليك على التتار في وقعة (**شقحب**)[٢٧]، هذا كله جعل الذهبي ينبهر بالإمام ابن تيمية وقال فيه بعد أن مدحه مدحاً كبيراً:

(وهو أكبر من أن يُنبّه مثلي على نعوته فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله ولا والله ما رأى هو مثل نفسه في العلم)[٢٨].

مناصب الذهبي العلمية

بدأ أول منصب للذهبي في سنة **٧٠٣ هجرية** الخطابة بمسجد (**كفر طنا**)[٢٩] وظل مقيماً بها إلى سنة **٧١٨ هجرية** وفي هذه القرية الهادئة ألف الذهبي خيرة كتبه ومما ساعده على ذلك أنه تفرغ تماماً للتأليف.

في شوال ٧١٨ هجرية توفي (**ابن الشريشي الوائلي**) شيخ دار الحديث بتربة أم الصالح وتولى الذهبي دار الحديث هذه ويقول الحافظ ابن كثير موضحاً ذلك في حوادث سنة ٧١٨هـ:

(**وفي يوم الاثنين العشرين من ذي الحجة باشر الشيخ شمس الدين محمد ابن عثمان الذهبي المحدث الحافظ بتربة أم الصالح عوضاً عن كمال الدين بن الشريشي... وحضر عند الذهبي جماعة**

من القضاة)[٣٠].

وفي يوم الأربعاء السابع عشر من جمادى الآخرة سنة **٧٢٩ هجرية** تولى الذهبي دار الحديث بالظاهرية[٣١] بعد الشيخ (**شهاب الدين أحمد بن جهبل**) ونزل عن خطابة كفر طنا[٣٢].

وعندما توفي العملاق علم الدين البرزالي سنة **٧٣٩ هجرية** تولى الذهبي تدريس الحديث بالمدرسة النفيسية وإمامها عوضاً عنه وكتب له تلميذه صلاح الدين الصفدي توقيفاً بذلك.

وفي نفس السنة كمل تعمير دار الحديث والقرآن التنكزية[٣٣] وباشر الذهبي مشيخة الحديث فيها.

مصنفات ومؤلفات شمس الدين الذهبي

لم يترك الذهبي شيئاً من العلوم إلا دخله وها هو ذا تاج الدين السبكي في الطبقات يصف الذهبي لبراعته في علم الحديث فيقول (**فدخل في كل باب من أبوابه**).

وبلغ اعتراف الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني بفضل الذهبي وبراعته إلى حد أن ابن حجر شرب ماء زمزم سائلاً الله تعالى أن يصل إلى مرتبة الذهبي في الحفظ والفطنة[٣٤].

ومصنفات الذهبي كلها كانت مستندة إلى حصيلة دراسته الضخمة والمتنوعة في كل علوم الإسلام .. وبراعته في علم الحديث ثم اقتداره في التاريخ الإسلامي، كما لا يمكن أن نغفل مهارته في النقد والتحقيق والمختصرات لمؤلفات العمالقة الذين سبقوه[٣٥].

إلا أننا كما ذكرنا فإن منتهى براعة واقتدار الذهبي كانت في دراسته لعلم الحديث حتى أن الحافظ ابن حجر العسقلاني قال عنه (**كان أكثر أهل عصره تصنيفاً**)[٣٦] هذه البراعة والتثبت في علم الحديث جعلت الذهبي ينطلق في التجريح والتعديل والتفريع والتصحيح والتعليل وغيره في فروع وتحقيق علم الحديث.

وعن مصنفات ومؤلفات شمس الدين الذهبي نجد قائمة طويلة ضخمة منها:

- التلويحات في علم القراءات[٣٧].
- الأربعون البلدانية[٣٨].
- الثلاثون البلدانية.
- الكلام على حديث الطير.
- المستدرك على مستدرك الحاكم[٣٩].



- الزيادة المضطربة.
- طرق أحاديث النزول.
- العذب السلسل في الحديث المسلسل.
- أحاديث الصفات[٤٠].
- الأربعون في صفات رب العالمين.
- جزء في الشفاعة.
- جزءان في صفة النار.
- الرسالة الذهبية إلى ابن تيمية.
- الروع والأوجال في نبأ المسيح الدجال.
- كتاب رؤية الباري.
- كتاب العرش.
- كتاب الكبائر.
- كتاب ما بعد الموت.
- كتاب تحريم أدبار النساء.
- جزء في صلاة التسبيح.
- جزء في الخضاب.
- حقوق الجار.
- أخبار السد[٤١].
- أخبار قضاة دمشق.
- الإشارة إلى وفيات الأعيان والمنتقى من تاريخ الإسلام[٤٢].
- الإعلام بوفيات الأعلام.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (**أعظم مؤلفات الذهبي وأوسعها**).
- تذكرة الحفاظ.
- دول الإسلام[٤٣].
- سير أعلام النبلاء.
- ذيل سير أعلام النبلاء.
- العبر في خبر من غبر.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال[٤٤].
- أخبار أبي مسلم الخراساني.
- أخبار أم المؤمنين عائشة «رضي الله عنها».
- التبيان في مناقب عثمان «رضي الله عنه».
- ترجمة أبي حنيفة.
- ترجمة أحمد بن حنبل.
- ترجمة الخضر.
- ترجمة الشافعي.
- ترجمة مالك بن أنس.
- سيرة عمر بن عبدالعزيز.
- مناقب البخاري.

وغير ذلك من المؤلفات التي يصعب حصرها في هذا المقام فعلى من يود البحث في كافة مصنفاته ومؤلفاته فليرجع في ذلك إلى أماكنه[٤٥].



بلغ شمس الدين الذهبي مكانة ضخمة في القرن الثامن الهجري بل إن تاريخ الإسلام حفظ له مكانًا كبيرًا وجليلاً لم يشغله أحد من بعده لِما قدمه للتاريخ ولعلم الحديث والفقه والقراءات والتراجم بما استتبع أن نقول أن لقب مؤرخ الإسلام يناسب شمس الدين الذهبي لاقتداره وبراعته وتدينه وخلقه الطيب ..

وهذا تلميذه الصلاح الصفدي يقول عنه:

(لم أجد عنده جمود المحدثين ولا كودنة[٤٦] النقلة بل هو فقيه النظر، له دربة بأقوال الناس ومذاهب الأئمة من السلف وأرباب المقالات)[٤٧].

●

ويقول عنه تاج الدين السبكي واصفاً علمه وتبحره في علم الحديث:

(فدخل في كل باب من أبوابه)[٤٨].

●

ويحدد ابن حجر العسقلاني مكانة الذهبي فيقول:

(كان أكثر أهل عصره تصنيفاً)[٤٩].

●

واعتبره شمس الدين السخاوي من أعظم مؤرخي القرن الثامن الهجري الذي لا ينافسه أحد[٥٠].

ويعاود السخاوي فيصف الذهبي في علم نقد الرجال والجرح والتعديل بقوله: (وهو من أهل الاستقراء التام في نقد الرجال)[٥٢].

●

ويعتبره **جلال الدين السيوطي** على رأس طبقات العمالقة والحفاظ المحدّثين المؤرّخين[٥١].

ويقول تلميذه: تقي الدين ابن رافع السلامي المتوفي سنة ٧٧٤ هجرية:

(كان — أي الذهبي — خيّراً صالحاً متواضعاً حسن الخلق حلو المحاضرة غالب أوقاته في الجمع والاختصار والاشتغال بالعبادة. له ورد بالليل وعنده مروءة وعصبية وكرم) (٥٣).

وقال عنه الزركشي صاحب عقود الجمان:

(مع ما كان عليه من الزهد التام والإيثار العام والسبق إلى الخيرات والرغبة بما هو آت).

ويصفه صديقه وشيخه علم الدين البرزالي فيقول:

(رجل فاضل صحيح الذهن اشتغل ورحل وكتب الكثير وله تصانيف واختصارات مفيدة وله معرفة بشيوخ القراءات) (٥٤).

ويقول تلميذه صلاح الدين الصفدي:

(حافظ لا يجارى ولافِظٌ لا يبارى، أتقن الحديث ورجاله ونظر علله وأحواله وعرّف تراجم الناس وأزال الإبهام في تواريخهم. ذهن يتوقد ذكاؤه ... أكثر من التصنيف ووفر بالاختصار مئونة التطويل في التأليف ... اجتمعت به وأخذت عنه كثيراً من تصانيفه) (٥٥).

ويقول عنه تاج الدين السبكي:

(... وكنز هو الملجأ إذا نزلت المعضلة أمام الوجود حفظًا وذهب العصر معنى ولفظًا وشيخ الجرح والتعديل ورجل الرجال في كل سبيل ... وهو الذي خرجنا في هذه الصناعة وأدخلنا في عداد الجماعة)(٥٦).

وقال أيضاً:

(وسمع منه الجمع الكثير وما زال يخدم هذا الفن إلى أن رسخت فيه قدمه وتعب الليل والنهار وما تعب لسانه وقلمه، وضربت باسمه الأمثال وسار اسمه ولقبه كالشمس إلا أنه لا يتقلص إذا نزل المطر ولا يدبر إذا أقبلت الليالي. وأقام بدمشق يُرحل إليه من سائر البلاد وتناديه السؤالات من كل ناد)(٥٧).

وقال عنه تلميذه الحافظ ابن كثير:

(الشيخ الحافظ الكبير مؤرخ الإسلام وشيخ المحدثين ... وقد ختم به شيوخ الدين وحفاظه)[٥٨].



وفاة الذهبي ... والذرية الصالحة

أصيب شمس الدين الذهبي في أواخر أيام حياته بماء في عينيه فكان يتألم ولقد قيل له أن يتداوى ليعود إليه بصره فكان يتأذى من هذا القول ويقول: هذا ليس بماء وأنا أعرف نفسي لأنني ما زال بصري ينقص قليلاً إلى أن تكامل عدمه.

وفي يوم الاثنين الثالث من ذو القعدة قبل منتصف الليل سنة ٧٤٨ هجرية لفظ مؤرخ الإسلام أنفاسه الأخيرة وتوفي بتربة أم الصالح ودفن بمقابر باب الصغير وحضر الصلاة عليه جمع غفير، وصلى عليه جمع من العلماء ورثاه غير واحد من تلامذته منهم الصلاح الصفدي والتاج السبكي وغيرهما.

خلف الذهبي ذرية صالحة فترك ثلاثة من أولاده عرفوا بالعلم والخلق الطيب هم ابنته أمة العزيز وأجاز لها غير واحد وابنه أبو الدرداء عبدالله الذي ولد سنة ٧٠٨ هجرية وأسمعه أبوه شمس الدين الذهبي في خلق كثير، وابنه شهاب الدين أبو هريرة عبد الرحمن وسمع مع والده أجزاء من الحديث كثيرة..



فتلك كانت وريقات عن مؤرخ الإسلام شمس الدين الذهبي، رجل اعتنى بدين الله فأعطاه الله من أسرار وعلوم الدين واهتم بالحديث والقراءات وتاريخ الإسلام فحفظ له التاريخ مكاناً لم يصل إليه أحد من بعده.

وصار شمس الدين الذهبي بحق مؤرخ الإسلام وعالم الحديث الحافظ المؤرخ، وما نأخذه من سيرته هذه أن الرجل تسلح بالإيمان بالله عز وجل وسعى في طلب العلم متحلياً بالأمانة والخلق الطيب فصار كما صار عملاقاً مؤرخاً محدّثاً متمكناً.

ولا نجد شيئاً نقوله إلا أن نخاطب أبناء ديننا الحنيف أن يقبلوا على دراسة هؤلاء العمالقة والتأمل في سيرتهم وعلينا التسلح بالإيمان والعلم، ووقتها سيعود مجد الإسلام العظيم على أيدي أبنائه المؤمنين والعلماء.



هوامش

١ — انظر طبقات القراء للذهبي والوافي بالوفيات.

٢ — معجم البلدان لياقوت.

٣ — كان أبوه يعمل في صنعة الذهب المدقوق وعرف بالذهبي وقد طلب العلم فسمع صحيح البخاري سنة ٦٦٦ هجرية وحج في أواخر عمره وكان ديناً يقوم من الليل.

٤ — الوافي بالوفيات ج ٢

٥ — طبقات الشافعية الكبرى ج ٩.

٦ — البداية والنهاية ج ١٤.

٧ — ست الأهل بنت عثمان ولدت سنة ٦٥٣ هجرية وتوفيت سنة ٧٢٩ هجرية تلقت علوم الدين والأحاديث عن شيوخ وعلماء عديدين. أنظر الذهبي ومنهجه في تاريخ الإسلام.

٨ — علي بن سنجر بن عبدالله الموصلي الدمشقي الذهبي ولد في سنة ٦٥٨ هجرية وتوفي في الثالث والعشرين من رمضان ٧٣٦ هجرية وكان رجلاً ديناً ورعاً وعالماً كبيراً — أنظر معجم الشيوخ للذهبي (نقلاً عن د. بشار عواد معروف).

٩ — أحمد عبد الغني بن عبد الكافي الأنصاري الذهبي المعروف بابن الحرستاني سمع الحديث ورواه وكان حافظاً للقرآن الكريم كثير التلاوة له وتوفي بمصر سنة ٧٠٠ هجرية.

١٠ — علاء الدين علي بن محمد الحلبي.

١١ — جمال الدين أبي اسحاق إبراهيم بن داود العسقلاني. صحب الشيخ علم الدين السخاوي سنة ٦٤٣ هجرية وهو الذي انتهت إليه رياسة الاقراء في زمانه. توفي الفاضلي سنة ٦٩٢ هجرية متأثراً من إصابته بالفالج.

١٢ — انظر معجم الشيوخ للذهبي.

١٣ — جمال الدين أبي اسحاق إبراهيم بن غالي المقرىء الدمشقي المتوفي سنة ٧٠٨ هجرية.

١٤ — أنظر طبقات الحفاظ للسيوطي.

١٥ — جمال الدين أبي العباس أحمد بن محمد بن عبدالله الحلبي المعروف بابن الظاهري (٦٢٦ — ٦٩٦ هجرية) كان والده محمد مولي الملك الظاهر صاحب حلب فنسب إليه.

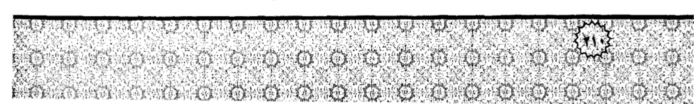
١٦ — تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي المعروف بابن دقيق عيد القشيري توفي سنة ٧٠٢ هجرية أنظر الوافي بالوفيات.

١٧ — المصدر السابق.

١٨ — موفق الدين أبي عبدالله محمد بن أبي العلاء النصيبي البعلبكي المتوفي ٦٩٥ هجرية.

١٩ — بهاء الدين محمد بن إبراهيم المعروف بابن النحاس المتوفي سنة ٦٩٨ هجرية.

٢٠ — جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزي الشافعي (٦٥٤ — ٧٤٢ هجرية). أنظر النجوم



الزاهرة لابن تغري بردي وشذرات الذهب لابن العماد.

٢١ ـــ تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم المعروف بابن تيمية الحراني (٦٦١ ـــ ٧٢٨ هجرية) أنظر ابن تيمية للإمام محمد أبو زهرة وغيره من المصادر.

٢٢ ـــ علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد ألبرزالي (٦٦٥ ـــ ٧٣٩ هـ) أنظر البداية والنهاية لابن كثير والنجوم الزاهرة وشذرات الذهب.

٢٣ ـــ البداية والنهاية لابن كثير ج ١٤.

٢٤ ـــ المصدر السابق.

٢٥ ـــ نفس المصدر.

٢٦ ـــ نفس المصدر.

٢٧ ـــ المصدر السابق.

٢٨ ـــ نقلاً عن الدرر الكامنة لابن حجر (ج ١).

٢٩ ـــ قرية بغوطة دمشق.

٣٠ ـــ البداية والنهاية ج ١٤ وقد اتخذ الذهبي هذه البقعة سكناً له ثم مات فيها بعد ذلك.

٣١ ـــ أسسها الملك الظاهر بيبرس البندقدارى سنة ٦٧٦ هجرية وفي المدرسة الظاهرية وهي اليوم مقر دار الكتب الظاهرية الواقعة أمام المجمع العلمي العربي بدمشق.

٣٢ ـــ البداية والنهاية ج ١٤.

٣٣ ـــ منسوبة إلى الأمير تنكز نائب الشام ووليها سنة ٧١٢ هجرية.

٣٤ ـــ يلاحظ من استقراء تاريخ علماء التاريخ والحديث أن الإيمان بالله عز وجل كان رائدهم وأن شرب ماء زمزم استناداً إلى حديث الرسول صلى عليه وسلم (ماء زمزم لما شرب له) جعلهم يأخذون جميعاً بسنة النبي صلى الله عليه وسلم فهذا الخطيب البغدادي يشرب ماء زمزم ليكون حافظاً للتاريخ وهذا ابن حجر العسقلاني كما شرحنا والحاكم النيسابوري المتوفي سنة ٤٠٥ هجرية يقول (شربت ماء زمزم وسألت الله أن يرزقني حسن التصنيف) وغيرهم كثيرون.

٣٥ ـــ كانت المختصرات التي قام بها الذهبي لعيون الكتب وأمهاتها مثل اختصاره لكتاب أسد الغابة لابن الأثير (ت. ٦٣ هـ) ومسند الإمام أحمد (ت ٢٤١ هـ) وطبقات ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ) وتاريخ دمشق لابن عساكر (ت ٥٧١ هـ) وكتاب السنن الكبرى للبيهقي (ت ٤٥٨) وتلخيصه من كتاب العلل لابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) ومختصر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) وغير ذلك مما يضيق المجال بذكره.

٣٦ ـــ الدرر الكامنة (ج٣).

٣٧ ـــ المنهل الصافي لابن تغري بردى.

٣٨ ـــ القصد من هذه التسمية أن يجمع المحدث أربعين حديثاً في موضوع معين أو أسانيد معينة أو بلدان معينة. أنظر الذهبي ومنهجه في تاريخ الإسلام لبشار معروف.

٣٩ ـــ انظر المنهل الصافي.

٤٠ ـــ ذكره ابن العماد في شذرات الذهب.

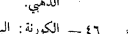
٤١ ـــ يقصد السد الذي بناه ذو القرنين وجاء ذكره في القرآن الكريم (سورة الكهف آية ٩٣ وما بعدها).

٤٢ ـــ نقل ابن تغري بردى منه كثيراً في كتابه النجوم الزاهرة.

٤٣ — طبع في مصر بمعرفة الهيئة العامة للكتاب (١٣٩٤ هجرية) تحقيق فهيم شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم.

٤٤ — طبع أكثر من مرة وآخرها طبعة دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٩٦٣ م وهذا الكتاب يمثل قمة معلومات الذهبي في النقد جرحاً وتعديلاً وهو الذي أكسبه شهرة عظيمة في هذا العلم.

٤٥ — ارجع إلى المنهل الصافي لابن تغري بردى — الوافي بالوفيات للصفدي — عقود الجمان للزركشي — الطبقات الكبرى للسبكي — شذرات الذهب لابن العماد — كشف الظنون لحاجي خليفة والإعلان للسخاوي ورونق الألفاظ لسبط بن حجر وهدية العارفين للبغدادي وقد أتت هذه المصادر بكل مؤلفات الذهبي.



٤٦ — الكورنة: البلادة.

٤٧ — الوافي بالوفيات ج ٢.

٤٨ — طبقات الشافعية ووصفه أيضاً بأنه (محدث العصر).

٤٩ — الدرر الكامنة.

٥٠ — الإعلان.

٥١ — طبقات الحفاظ.

٥٢ — الإعلان.

٥٣ — رونق الألفاظ لسبط بن حجر.

٥٤ — المصدر السابق.

٥٥ — الوافي بالوفيات ج٢.

٥٦ — طبقات الشافعية ج ٩.

٥٧ — المصدر السابق.

٥٨ — البداية والنهاية (ج ١٤).

المصادر والمراجع

١ — البداية والنهاية/ ابن كثير — مكتبة المعارف — بيروت لبنان.

٢ — النجوم الزاهرة/ ابن تغري بردى — القاهرة.

٣ — المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي/ ابن تغري بردى — القاهرة (الجزء الأول فقط).

٤ — الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة/ ابن حجر العسقلاني — طبعة القاهرة ١٩٦٦.

٥ — دول الإسلام/ شمس الدين الذهبي (ج٢) طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة.

٦ — طبقات الشافعية الكبرى/ تاج الدين السبكي — القاهرة (مكتبة بلدية اسكندرية).

٧ — الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ/ شمس الدين السخاوي (مطبوع ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين).

٨ — طبقات الحفاظ/ جلال الدين السيوطي — طبعة بيروت لبنان.

٩ — شذرات الذهب في أخبار من ذهب/ ابن العماد الحنبلي — القاهرة.

١٠ — الوافي بالوفيات/ صلاح الدين الصفدي.

١١ — معجم البلدان/ ياقوت الحموي — القاهرة ١٣٢٥ هجرية.

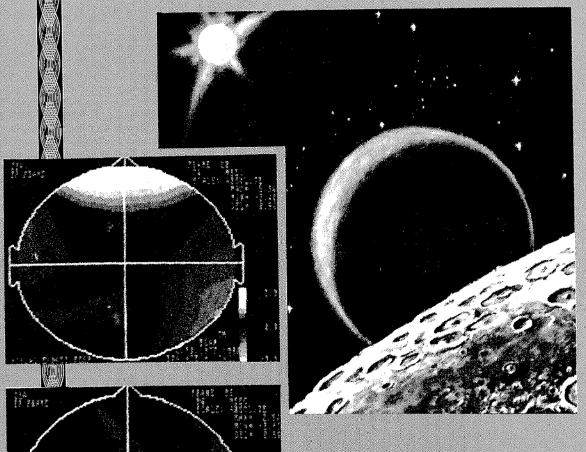
١٢ — الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام/ د. بشار عواد معروف — رسالة دكتوراه من جامعة بغداد. طبعة البابلي الحلبي بالقاهرة/ ١٩٧٦م.

١٣ — علم التاريخ عند المسلمين/ د. فرانز روزنثال — ترجمة د. صالح أحمد العلي بغداد (مكتبة بلدية الاسكندية).

١٤ — ابن تيمية/ الإمام محمد أبو زهرة — طبعة القاهرة.



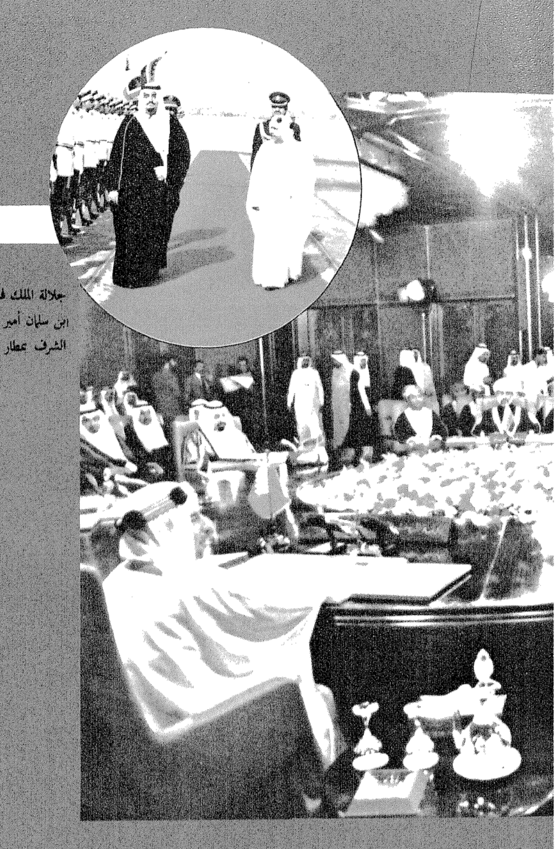
هــذا الباب
ننشر فيه كل جديد من الآداب والعلوم والفنون
نحن في هذا الباب معكم وبكم
وهو لذلك منكم وإليكم



إعــداد
الأستاذ مصطفى أمين جـاهين



اجتماع قادة دول مجلس التعاون الخليجي لانجاز
أعمال القمة الخليجية الثالثة بدولة البحرين



جلالة الملك فهد وسمو الشيخ عيسى ابن سلمان أمير البحرين يتفقدان حرس الشرف بمطار المنامة.

البحرين في التاريخ



تمهيد

دولة البحرين منذ أقدم الأزمة بموقع جغرافي هام، فهي نقطة الاتصال التجاري بين أقطار عديدة، وعاصمتها «المنامة»، وهي تتكون من ثلاث وثلاثين جزيرة، وتبعد عن الساحل الشرقي للمملكة العربية السعودية حوالي ٢٠ ميلاً، وبحوالي نفس المسافة عن شبه جزيرة قطر، كما أنها تبعد ما يقرب من ١٥٠ ميلاً عن ساحل إيران.

ودولة البحرين عريقة في حضارتها حيث توصلت بعثة التنقيب الدنماركية إلى كشوف تعود إلى العصور الحجرية والبرونزية، ثم ازدهرت فيها الحضارة والتجارة في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد حيث كانت تسمى «**دلمون**» آنذاك، ثم أصبحت موطن قبائل بكر وتميم من ربيعة في العصر الجاهلي، ودخلها الإسلام بعدئذ في العام السادس الهجري «٦٨٢ ميلادية» على يد القائد العربي المسلم «**العلاء بن الحضرمي**».

وقد تجاذبها تيار الردة بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، وتأثرت به قبائل بكر وتميم، إلا أن «الجارود بن عبد القيس» ثبت على اسلامه إلى أن أنجدهم «العلاء بن الحضرمي» وتغلبوا على المرتدين وانتصر الاسلام، وظلت «**البحرين**» تتبع الدولة الإسلامية بعد الخلفاء الراشدين، والدولة الأموية، والدولة العباسية، ثم انفصلت بعدئذ عن الدولة العباسية حيث احتلها صاحب الزنج في عام ٢٤٩ هـ، وجاء القرامطة بعد ذلك.

وعندما بدأت سفن الاستعمار الأوربي تجوب سواحل الخليج العربي، احتل البرتغاليون البحرين «١٥٢١ : ١٦٠٢ م» ثم استولى عليها بعد ذلك أحد رعايا شاه إيران، وأصبح الفرس يبسطون نفوذهم على البحرين لفترات متقطعة عن طريق حكام عرب، ثم استولى عليها عرب «عتبة» الذين جاءوا من الساحل الغربي، فأصبحوا حكامًا مستقلين عن نفوذ دولة الفرس، ومن عرب «عتبة أو عتب» **أسرة «آل خليفة»** التي لاتزال تحكم البلاد بعد سلسلة من الاتفاقيات مع بريطانيا من عام ١٨٢٠ م، حتى الخامس عشر من شهر أغسطس عام ١٩٧١ م، حيث أعلنت البلاد استقلالها، وانتهت المعاهدات والاتفاقيات البريطانية.

ومن أشهر حكام **دولة البحرين الشيخ سلمان بن حمد بن عيسى الذي توفي إلى رحمة الله في الثاني من شهر يناير عام ١٩٦١ م**، فتولى مقاليد الحكم من بعده نجله وولي عهده **الشيخ عيسى بن سلمان أمير البلاد** الحالي «حفظه الله» وأما ولي عهده فهو نجله الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة، الذي يمتاز بالكفاءة والحيوية، وقد

تخرج في الكليات العسكرية البريطانية والأمريكية، كما أنه أصبح وزيرًا للدفاع لجيش البحرين.

هذا وقد اجتمع قادة دول مجلس التعاون الخليجي في دولة البحرين في أواخر شهر محرم ١٤٠٣ هـ لانجاز أعمال القمة الخليجية الثالثة، واصدروا بيانًا هامًا بالقرارات والتوصيات التي تشمل قضايا أمنية وسياسية واقتصادية ووسائل اقليمية وعربية بالإضافة إلى القرارات الخاصة بتطوير التعاون والتنسيق بين الدول الأعضاء.



لقطات في المنامة

مشروع دليل الشخصيات المعاصرة في الخليج والجزيرة العربية

في مجال تنفيذ المشروعات المشتركة للدورة السادسة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية القاضية بتشكيل لجنة من أعضاء الأمانة العامة، للنظر في مشروع دليل الشخصيات العلمية في الخليج والجزيرة العربية، ووضع الأسس والمواصفات التي تنطبق على الشخصية المترجم لها والاتفاق على الاسم المناسب لهذا المشروع ... وبناء على الدعوة الموجهة من مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ـــ فقد اجتمع في دولة الكويت كل من : **الشيخ عبد الملك آل الشيخ ـــ د. محمد مرسي عبد الله ـــ د. مصطفى النجار ـــ د. عبد الله الغنيم ـــ د. محمد صفي الدين أبو العز.** وبدأ الاجتماع باستعراض جهود المؤسسات المختلفة التي لها مشاريع مشابهة لهذا المشروع، مثل : مكتب التربية للحليج العربي، ومؤسسة تهامة، وبعض الجامعات في منطقة الخليج والجزيرة العربية.

وقد تم التوصل إلى ما يلي :

١ ـــ أن يكون اسم المشروع «**دليل الشخصيات المعاصرة في الخليج والجزيرة العربية**».

٢ ـــ والشخصية المراد الترجمة لها هي تلك الشخصية البارزة من أبناء المنطقة، التي تندرج ضمن النخبة العلمية والثقافية والسياسية والاقتصادية والإدارية وغيرها. ويدخل في ذلك العلميون من رجال الجامعات والادباء والمثقفون البارزون والوزراء السابقون ومن في مستواهم واعضاء المجالس النيابية والشورى ومن في حكمهم ويترك لكل مركز تقدير الشخصية المناسبة من هؤلاء مع مراعاة التنسيق بين الفئات.

٣ ـــ يتضمن الدليل بعض الشخصيات العربية التي قدمت عطاء بارزًا للمنطقة، ويترك لكل مركز تقدير ذلك.

٤ ـــ تضم الترجمة البيانات التالية : الاسم ـــ سنة الميلاد ـــ المؤهل ـــ التخصص ـــ الوظيفة ـــ الخبرات ـــ أهم الانجازات ـــ

٥ ـــ يقوم كل مركز بعمل دليل الشخصيات الخاصة بالدولة التي ينتمي إليها.

٦ ـــ يعرض المشروع بعد اكتماله على الأمانة العامة للمراكز والهيئات

من سيدني فيشر
٢٢١ سان انطوان
ويرثنجتون/ اوهايو
الولايات المتحدة
١٤ نوفمبر ١٩٨٢ م

إلى الأستاذ محمد حسين زيدان **«رئيس تحرير مجلة الدارة»**

تسلمت عدد أكتوبر من مجلة الدارة. وقد لمست من جديد مدى جهود هيئة التحرير معكم في إخراج عدد جميل. إنني أجد كل عدد من أعداد المجلة أجمل من سابقه. كيف يتسنى لكم ذلك ؟

إن صور **مدينة الرياض** من الروعة بحيث جعلتني أفهم الآن السبب وراء تعلق أحد طلبتي السابقين من حملة الدكتوراه، وهو الدكتور **راسل سميث**، بالحياة فيها. انه يكتب لي واصفًا مدى روعة المدينة. إنه يعمل بالقسم الاقتصادي لسفارة الولايات المتحدة. وقد كتب رسالة دكتوراه ممتازة عن المرحلة الأولى من حياة **سعد زغلول باشا في مصر**. ونعود للرياض التي تبدو مدينة غاية في الحداثة. إن ما قرأته عنها من مقالات لا يتساوى مع جمال الصور التي ظهرت في المجلة. إن **الرياض** قد تكون أحدث مدن العالم.

شكرًا جزيلاً على إرسال هذه الأعداد من المجلة حيث أني أحبها كثيرًا.

المخلص

Sydney N Fisher

سيدني فيشر

Sydney N. Fisher
221 St. Antoine
Worthington, Ohio 43085

November 14, 1982.

Mr. Mohammad Hussein Zeidan,
Editor-in-Chief,
ADDARAH,
King Abdul Aziz Research Centre,
P. O. Box 2945,
Riyadh, Saudi Arabia.

Dear Mr. Zeidan,

Your October, 1982, number of **Addarah,** has arrived and again you and your staff have put together a lovely issue. Each number as it comes is more beautiful than the one before. How do you do it?

The pictures of Riyadh are superb. I can now understand how one of my former doctoral students, Dr. Russell Y. Smith, loves to live there for he writes me what a marvelous city Riyadh is. He is connected with the Economic branch of the United States Embassy. He wrote a fine doctoral dissertation on the early career of Saad Zaghlul Pasha of Egypt. But Riyadh looks like a most modern city. I have read articles about it but none as fine as you have shown here. Riyadh might just be the most modern city in the world.

Thank you so much for sending me these issues of **Addarah.** I love them very much.

Sincerely Yours,

Sydney N Fisher

(Sd.) **Sydney N. Fisher**

الكتاب : السكان وتنمية الموانئ السعودية على البحر الأحمر.

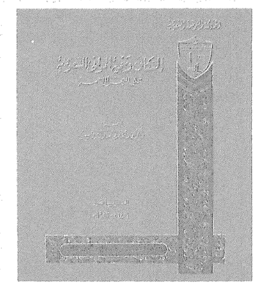
المؤلف : د. محمد أحمد الرويثي.

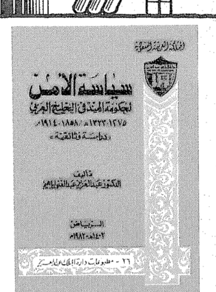
يستعرض **الباحث** كثيرًا من الموضوعات المتعلقة بالنهوض بموانئ ومرافئ الساحل الغربي متفاعلة مع الظهير المقابل في الداخل مراعيًا في ذلك عوامل الجذب السكاني وتوزيعه.

في **المبحث الأول** يستعرض الخصائص السكانية لمنطقة الساحل السعودي الغربي.

وفي **المبحث الثاني** يبدأ دراسته بالصور الحالية للموانئ، أما مقومات تنمية الموانئ فقدمها في **المبحث الثالث.**

وفي النهاية قدم المؤلف نتائج دراسته وأبحاثه.





من أهم القضايا التي استحوذت على الانتباه، وشغلت الرأي العام العالمي، شعوباً وحكومات، «أمن الخليج العربي لكونه الشريان الحيوي الذي يمد معظم دول العالم بما تنبض

يرمى كتاب «هكذا دخل الاسلام ٣٦ دولة» إلى تتبع انتشار الاسلام منذ عهد النبي ﷺ ، وكيف سرت مبادئه وأخلاقه بين القبائل والشعوب، يتلقاها الجميع بالإذعان والقبول، لأنها تخاطب العقل وتحدّث الوجدان، ترعى حرية الفرد واحترامه، وتؤلف بين الجماعة في تراحم وتلاحم وتعاطف.

ولا عجب أن رأينا الكثيرين يأخذون على عاتقهم نشر العقيدة

به حياتها.

والمؤلف عالج موضوعاً تاريخياً يخص الخليج العربي في ظل حكومة الهند البريطانية خلال الفترة «**١٨٥٨ : ١٩١٤م**».

وهذه الدراسة الوثائقية تقع في **سبعة فصول**، ففي «**الفصل الأول**» ناقش المؤلف المجهودات البريطانية للحفاظ على أمن البحر في الخليج العربي وكفاح حكومة الهند البريطانية في سبيل الاحتفاظ بمياه الخليج تحت سيطرتها الكاملة

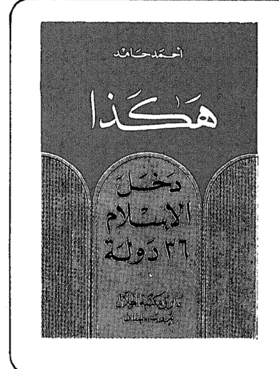
أما «**الفصل الثاني**» فيعنى بدراسة مكافحة تجارة الرقيق في المنطقة، وفي «**الفصل الثالث**» ناقش المؤلف تطور مسألة الاتجار في السلاح ومكانها في الاستراتيجية الأمنية لحكومة الهند والخطوات التى اتخذتها تلك الحكومة لمكافحة تجارة السلاح.

«**والفصل الرابع**» عنى فيه المؤلف بدراسة علاقة الهند في تسخير تلك العلاقة لخدمة هدفها الرئيسي «**أمن الهند**»، وقد كانت سياسة هذه الفترة بمثابة مقدمات لما تبعها من سياسة ربط المنطقة بالهند عن طريق الاتفاقيات والتعهدات، وقد عالجه أيضاً في «**الفصلين السادس والسابع**»، أما في «**الفصل الخامس**» فقد استعرض المؤلف التأثيرات التي أحدثها البخار والبرق في سياسة الهند وبريطانيا.

الإسلامية معرَّفين بها بين شعوب الأرض باسطين تعاليمها السهلة الميسرة فتتلقاها النفوس الحائرة المضطربة بالقبول والرضا، وتجد فيها راحتها وأمنها وسعادتها.

وبرغم ما لاقى هؤلاء الدعاة من مصاعب، وما واجهوا من عقبات في سبيل نشر هذه الدعو ة إلا أن العاقبة كانت لهم.

وهكذا دخل الكثير من الأمم والشعوب في دين الله أفواجا، وارتفعت راية الاسلام خفاقة عالية.

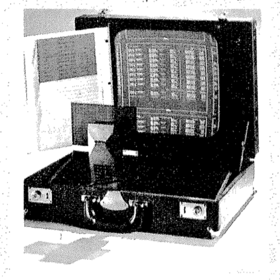


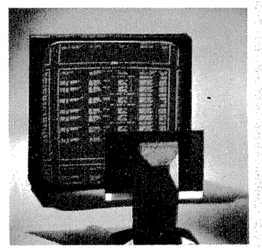

مقدمة في
الحاسبات
الالكترونية
الأستاذ محمد ابرا



ما هو إلا آلة حاسبة تستطيع أن تقرأ البيانات وتكتبها وتقوم بعمليات حسابية وعمليات منطقية، ويمكنه أيضًا تخزين كميات هائلة من البيانات بحيث يتم استرجاعها كلها أو جزءًا منها عند الحاجة إليها.

والحاسب الإلكتروني عبارة عن مجموعة من الحواس أو الطاقة الصناعية التي تكوِّن فيما بينها قدرات تعجز عن



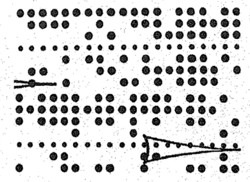


تحقيقها الحواس والطاقة البشرية إلا أنه مهما كانت قدراته وإمكاناته فما هو إلا آلة من صنع الإنسان، فالإنسان صانعه وسيده والمتحكم فيه ولذلك يفضل أن يطلق مصطلح الحاسب الإلكتروني علميًا للدلالة على الترجمة العربية للمصطلح الإنجليزي (Computer) بدلاً من المصطلح « العقل الإلكتروني » كما يحلو للبعض أن يطلق عليه وذلك لعديد من الأسباب التي من أهمها: أن الحاسب الإلكتروني ما هو إلا مجموعة من التجهيزات الآلية التي تقوم بتنفيذ العمليات طبقًا لما يقدم لها من بيانات وتعليمات، وهذه التجهيزات الآلية ليست قادرة « بالطبع » على التفكير والابتكار وهي من أهم الصفات التي ينفرد بها العقل البشري.

التطور التاريخي لظهور الحاسبات الإلكترونية :

إنها قصة طويلة تلك التي تمثل كفاح الإنسان الدائم من أجل تنمية مواهبه الحسابية وقدراته على حل المسائل والمعادلات وقدراته على اختزان الأرقام والمعلومات خارج رأسه الصغير ليستعين بها وقت الحاجة، وهي

قصة يرجع أقدم فصولها إلى الإنسان الأول وهو يحاول استخدام أصابعه أو بعض الحصى المميز.. أو الخيوط المعقودة في العد والحساب.



أما أحدث فصولها فيقع الآن تحت سمعنا وبصرنا ونحن نشاهد على شاشات التليفزيون الإنسانَ يخطو على سطح القمر بفضل الأجهزة الحاسبة الإلكترونية. أمّا الفصول الأخيرة في هذه القصة التي تبدو وبلا نهاية فلا تزال في طيات المستقبل يشترك آلاف من العلماء والمهندسين في صياغتها وهم يطوِّرون الأجهزة الحاسبة الإلكترونية، هذه الآلات المدهشة، ليضيفوا لها مزيداً من القدرات.

ونحن الآن أبناء هذا الجيل، لا يمكننا تصور ما سوف تضيفه هذه الأجهزة من تغيير في حياة أحفادنا وإن كانت بعض الدلائل يمكن أن نلمسها في الدور المتزايد في الأهمية الذي تلعبه هذه الأجهزة في حياة الإنسان، هذه الأجهزة التي أصبحت اليوم تدير المصانع وتقود القاطرات والطائرات بدون الحاجة إلى العنصر البشري، وتكتمل الصورة قليلاً بنظرة إلى معامل الأبحاث التي تقوم الآن بمحاولات لجعل هذه الأجهزة قادرة على تمييز الأشكال وقراءة الحروف المكتوبة بخط اليد، وأيضًا محاولات لجعلها قادرة على تمييز الأصوات البشرية والتعرف على المعلومات التي يشملها الحديث، ذلك إلى جانب محاولة تصميم أجهزة لمحاكاة الصوت البشري بحيث يمكن للجهاز الحاسب أن يعبر عن قرارات في صورة صوت مسموع .. تلك بعض الملامح المتوقعة لتطور تلك الأجهزة في مجتمع المستقبل.

ونظرًا لأهمية الدور الذي تلعبه الأجهزة الحاسبة الإلكترونية في حياة البشر اليوم فإنه أصبح لزامًا على إنسان هذا القرن أن تكون لديه فكرة علمية واضحة ومبسطة عن طبيعة ووحدات ومكونات هذه الأجهزة وكيف تقوم بأعمالها في ترتيب وسرعة يمكنها من الظهور بمظهر الإتيان بالمعجزات، وهذه الفكرة لازمة أيضًا لتبديد حالة الغموض والتقديس التي شاركت

أجهزة الإعلام في صنعها حول هذه الأجهزة.

الحاسبات الإلكترونية لم تظهر فجأة ولكنها جاءت بعد تطورات عديدة ومرت بمراحل مختلفة إلى أن وصلت إلى الشكل الذي هي عليه الآن من مقدرة وكفاءة. ويعتبر تاريخ الحاسبات الإلكترونية بحق هو التاريخ الحقيقي للتطورات التي حدثت في نظم العد (Number Systems) ويُرجع الكثير من الكتاب والباحثين هذا التاريخ إلى المحاولات الأولى للإنسان للوصول إلى طريقة تمكنه من عدِّ وإحصاء مقتنياته من الأشياء أو عند قيامه بالمقايضة مع غيره.

وقد بدأ الإنسان في حل هذه المشكلة عن طريق استخدام أصابع يديه ثم قدميه، وعندما لم تساعده هذه الطريقة في عد الأشياء الكثيرة بدأ يستخدم الحَصَى والأحجار بدلاً من أصابعه ثم تطور به الأمر إلى استخدام العقد التي تطورت معه إلى وضع نظام معين يوفر به عدد العقد وبعد أن كان يرمز لكل مفردة بعقدة بدأ في عقد عقدة في شكل آخر ليمثل بها مجموعة من المفردات، ويقال إنه منذ هذا التاريخ بدأت نظم العد تظهر إلى حيز الوجود.

وبانتقال الإنسان إلى عصر الكتابة والتسجيل لأفكاره على الحجر والجلود وأوراق البردي بدأ باستخدام رموز معينة تساعده في العد والحصر وتطورت هذه الرموز على يد العرب والهنود إلى الوصول إلى الأرقام التي نعرفها الآن وهي الأرقام (٠، ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩).

وبعد ذلك بدأ استخدام الوسائل الآلية في هذا المجال ويعتبر الإطار الحاسب (**العداد** Abacus) بحق هو أول وسيلة تستخدم لتنفيذ عمليات الجمع والطرح، ويشبه تمثيل الأعداد في الإطار الحاسب تمثيل الأرقام في كثير من الآلات والحاسبات الحديثة، ويتكون إطار الحاسب من إطار خشبي مستطيل الشكل يحتوي على عدد من الأسلاك الأفقية يمر خلالها عدد من الكرات الخشبية المثقوبة وتعطي قيم مختلفة لكل سلك ... فمثلاً تعتبر الكرة في السلك الأول ذات قيمة ثابتة هي (١) بينما تعتبر الكرة في السلك الثاني ذات قيمة ثابتة وهي (١٠) وفي السلك الثالث ذات قيمة ثابتة هي (١٠٠) .. وهكذا.

واعتمادًا على فكرة الإطار الحاسب بدأ ظهور العديد من الآلات اليدوية والكهربية التي تقوم بإجراء عمليات الجمع والطرح وذلك اعتمادا على فكرة الترحيل (Carry) وتطورت هذه الآلات بحيث أمكن بعد ذلك إجراء عمليات الضرب (عن طريق الجمع المتتالي) وعمليات القسمة (عن طريق الطرح المتتالي).

وتلى ذلك تطورات سريعة في تصميم الآلات الحاسبة بدأها **بسكال** (Bascal) **عام ١٩٤٢م** باختراعه الآلة الحاسبة التي أمكن بها احتساب ضرائب الدخول في فرنسا في ذلك الوقت، ولكن يُرجع الكثير من الكتاب الفضل الأول في تصميم أول آلة حاسبة إلكترونية إلى الرياضي الإنجليزي **تشارلس باباج** (Charles Babbage) **الذي بدأ بتصميم آلة الفروق** (Difference Engine) **عام ١٨١٢م** والتي اعتمد في تصميمها على الجداول الرياضية الخاصة بفروق الأعداد ومربعاتها والتي تلاها بالآلة التحليلية (Analytical Engine) **عام ١٨٣٣** والتي تعتبر أول حاسب آلي متعدد الأوراق حيث كانت تتغذى بالبيانات والتعليمات عن طريق بطاقات مثقبة وعدد من العدادات اليدوية.

ومع التقدم العلمي والتكنولوجي أمكن إجراء العديد من التطورات والتحسينات على الآلات التقليدية (Conventional Machines) التي تستخدم البطاقات والأشرطة الورقية كوسيط لتغذية الآلة بالبيانات، وتطور الأمر إلى أن أمكن تصميم ما يمكن أن يطلق عليه اسم الذاكرة (Memory) أو ما يقصد به مكان تخزين الأوامر والتعليمات (Data Instruction)

وفي هذا المجال يمكن أن يلاحظ أن هذه التطورات قد مرت بأربع مراحل حتى الآن كنتيجة للتطورات والتقدم العلمي والتكنولوجي بصفة عامة وهذه المراحل تعرف بما يطلق عليه اسم أجيال الحاسبات الإلكترونية (Computer Generations) والتي يمكن أن نلخصها في الآتي:

الجيل الأول من الحاسبات

بدأ الإنتاج التجاري لحاسبات هذا الجيل عندما قامت شركة **رمنجتون راند** (Remington Rand) **بإنتاج أول حاسب وكان ذلك عام ١٩٥١/٥٠م حين تم تصميم وبناء الجهاز الحاسب** (Univag) **باستخدام**

الصمامات الإلكترونية المفرغة، وقد أسندت في ذلك الوقت شركة «أ. ب. م» إلى أحد خبرائها «وهو من أصل عربي» يدعى - جرير حداد - مهمة تصميم حاسب ذى ذاكرة لتخزين البيانات وقدرة حسابية عالية السرعة مع تشغيل تلقائي تستخدم فيه لوحات التوجيه (Control Panel) ويعتبر الحاسب الإلكتروني في تلك المرحلة باكورة الآلات التي تعمل بالبرامج المعبأة Stored Program System التي تعمل في هداها كل عمليات التجهيز وفيه يتم تخزين برامج التشغيل في ذاكرة ذاتية معنونة (Addressable)، وأدخلت على هذا الحاسب تعديلات فبعد أن كان يستخدم ذاكرة ذات صمامات تعمل بأشعة كاتشود (Cathod Ray) المعروفة باسم صمامات وليامز ظهرت الذاكرة ذات الخلايا الممغنطة.

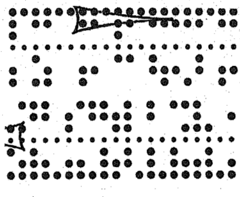
(Magnetic Core Memory)

يتميز الحاسب الإلكتروني من الجيل الأول بالآتي:

١ ـ إحلال الصمامات المفرغة (Vacume Tubes) محل وحدات الترحيل الكهربية.

٢ ـ أصبح المقياس الزمني لعمليات التجهيز يحسب بالثانية وأجزاء من الثانية بعد أن كان يحسب بالدقيقة في النظام التقليدي.

٣ ـ لوحات التوصيلات التي حلت محلها البرامج المعبأة لم تختف من حاسبات الجيل الأول فإلى جانب البرامج المعبأه كانت هناك توصيلات سلكية معينة كان لابد من إجرائها حتى



تقوم وحدات الحاسب بالعمل المطلوب منها.

الجيل الثاني من الحاسبات الإلكترونية:

يمثل الجيل الثاني من الحاسبات الإلكترونية تطورًا فنيًا في تكوين الحاسب وقدراته واستخدامه حيث ظهر هذا الجيل من الحاسبات في عام **١٩٥٩م** حين تم استخدام عناصر الترانزستور التي ظهرت في ذلك الوقت في بناء الدوائر الخاصة بالأجهزة الحاسبة الإلكترونية.

يتميز هذا الجيل من الحاسبات بالآتي:

١ ـــ اختفاء لوحات التوصيل الكهربائية.

٢ ـــ تركيز تعليمات التجهيز في البرامج المعبأة.

٣ ـــ اختفاء الصمامات المفرغة.

٤ ـــ إحلال لوحات الترانزاستور محل الصمامات المفرغة.

تتميز دوائر **الترانزستور** المستخدمة في حاسبات الجيل الثاني بسرعة التشغيل مع أقل مستوى من التيار الكهربي بسرعة عالية جدًا تقل عن جزء من المليون من الثانية، وتمتاز لوحات الترانزستور المستخدمة في هذا النوع من الحاسبات بأنها أصغر حجمًا وأقل وزنًا من الصمامات المفرغة وقد أثر ذلك على تصميم الآلات والدوائر الكهربائية فأصبحت أقل حجمًا وأكثر إحكامًا.

الجيل الثالث من الحاسبات الإلكترونية

تمثل الدوائر الكهربية العناصر الوظيفية الأساسية في الحاسب الإلكتروني فهي تنتج وتتحكم وتقود الإشارات الإلكترونية التي تؤدي العمليات التي يقوم بها الحاسب، فإذا نظرنا إلى الدوائر الكهربية في حاسبات الجيل الثاني نجدها تتكون من مكونات منفصلة تلحم ببعضها البعض بأسلاك لتكوِّن في النهاية الدوائر الكهربية، ثم تعبأ تلك الدوائر في تشكيلات نمطية هي لوحات الترانزستور، وتعرف تلك اللوحات (ببطاقات المعيار النمطي)، وعند البدء في تطوير حاسبات الجيل الثاني لم يحتفظ مصممو تلك الحاسبات من المهندسين والفنيين بغير نظام الدوائر الكهربائية المطبوعة المستخدمة في الجيل الثاني من الحاسبات واستبدلت المقاومات (Resistors) والمكثفات (Condensers) والموصلات التأثيرية (Conductance Resistance) بدوائر مطبوعة (Printed Circuits) وقد ظهر هذا الجيل من الحاسبات الإلكترونية عام**١٩٦٤م حيث جاء نتيجة للتطور في صناعة الحاسبات الإلكترونية من الجيل الأول (جيل الصمامات المفرغة) (Vacume Tubes) إلى الجيل الثاني (جيل لوحات الترانزستور) ثم إلى الجيل الثالث (جيل الدوائر الكهربائية المتكاملة) (Integrated Circuits) وترتبط حاسبات هذا الجيل بالتطور**

التكنولوجي والوصول إلى ما يعرف باسم الدوائر المطبوعة (Printed Circuits) والتي بدأ استخدامها جنبًا إلى جنب مع الدوائر المتكاملة في تصميم وبناء الحاسبات الإلكترونية.

الجيل الرابع مع الحاسبات الإلكترونية :

وقد تبلورت أبحاثه في بداية عام **١٩٨٠** حيث أعلنت كل من الشركات اليابانية العاملة في هذا المجال وشركة أ. ب. م. الأمريكية عن توقع كل منهما إنتاج حاسبات من هذا الجيل في هذا التاريخ وينتظر أن يعتمد هذا الجيل في تصميمه على الدوائر المتكاملة كبيرة المدى. (Very Large Scale Integrated Circuit) (V. T. S. I.) بجانب التطور الكبير في برامج التشغيل التلقائية المستجدة.

أنواع الحاسبات الإلكترونية

ليس هناك نوع واحد من الحاسبات الإلكترونية ـ كما يعتقد البعض ـ ولكن هناك العديد من أنواع الحاسبات الإلكترونية، وقد اتفق كثير من الباحثين في هذا المجال على أن تحديد نوع الحاسب الإلكتروني يخضع لثلاثة مستويات للتصنيف هي :

١ ـ الغرض من الاستخدام.

٢ ـ طريقة العمل (الوسيلة التي يعتمد عليها الحاسب في تشغيله).

٣ ـ الحجم.

الغرض من الاستخدام:

تقسم الحاسبات الإلكترونية حسب الغرض من استخدامها إلى النوعين الآتيين:

١ ـ حاسبات إلكترونية متخصصة.

٢ ـ حاسبات إلكترونية متعددة الأغراض.

ويعتبر الحاسب الإلكتروني متخصصًا إذا كان تصميمه لا يسمح إلا باستخدامه لغرض معين بالذات ومن أمثلة النوع الأول، تلك الحاسبات التي تستخدم في العمليات العسكرية وفي أبحاث الفضاء وفي محطات توليد وتوزيع الكهرباء وفي

العمليات الصناعية ذات الصبغة الخاصة، أما النوع الثاني من الحاسبات الإلكترونية فنعني به الحاسبات الإلكترونية التي تقوم بتنفيذ كافة التطبيقات سواء العلمي منها أو التجاري.

طريقة العمـــل:

ويقصد به الوسيلة التي يعتمد عليها الحاسب في تشغيله، هل هي الأرقام أو المقادير الطبيعية أو خليط منها ؟

وعلى ذلك تقسم الحاسبات الإلكترونية إلى الأنواع الثلاثة الآتية :

١ ــ حاسبات إلكترونية رقمية :

وهي تلك الحاسبات التي تعتمد في تشغيلها على الأرقام فقط ـ بمعنى أنها تقوم فقط بإجراء العمليات الحسابية المختلفة وبعض العمليات المنطقية (Logical Operation) على هذه القيم الرقمية ويطلق على هذا النوع من الحاسبات أيضًا اسم الحاسبات الإلكترونية متعددة الأغراض.

٢ – حاسبات إلكترونية وصفية (تناظرية) :

وتعنى تلك الحاسبات الإلكترونية التي تعتمد في تشغيلها على تسجيل التغيرات المستمرة في المقادير الطبيعية (Physical Measurements) وذلك اعتمادًا على وسائل القياس المختلفة من أمبيرات وعدادات قياس للضغط والحرارة والمسافة والزمن وغيرها من وسائل قياس التغيرات الطبيعية، وتعمل الحاسبات الإلكترونية من هذا النوع في الزمن الحقيقي (Real Time) أي بصورة فورية .. بمعنى أن الإشارة الناتجة تظهر فور توافر الإشارات التي يتم تغذية الحاسب في التحكم والتوجيه المطلوب تبعًا للأغراض التي صمم من أجلها الحاسب.

٣ ــ حاسبات إلكترونية مختلطة:

وهي تلك الحاسبات الإلكترونية التي تجمع بين خصائص الحاسبات الإلكترونية الرقمية والوصفية (التناظرية).

الحجـــم:

يقصد به حجم الحاسب سواء من ناحية عدد الوحدات (Peripherals) التي يتكون منها أو حجم ذاكرة التخزين الداخلية

(Internal Memory) وتنقسم الحاسبات الإلكترونية طبقًا لهذا المعيار إلى :

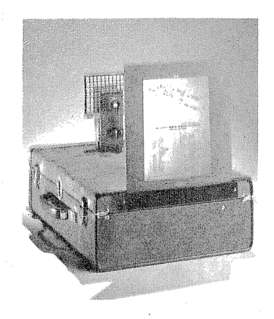
* حاسبات إلكترونية كبيرة الحجم.
* حاسبات إلكترونية متوسطة الحجم.
* حاسبات إلكترونية صغيرة الحجم.

استخدامات الحاسبات الإلكترونية

كان لقيام الثورة الصناعية آثارها الفعالة في انتشار استخدام الوسائل الآلية في مجال الأعمال الصناعية والتجارية، وارتبط تطور الوسائل الآلية بالتقدم العلمي في مختلف المجالات العلمية والفنية، وانعكس كل ذلك علي قدرات وطاقات هذه الوسائل الآلية، فاستخدمت الآلات الحاسبة الرقية والأبجدية لتأدية عمليات التسجيل والترحيل واستخراج الأرصدة وتحقيق النتائج كما استخدمت آلات تسجيل النقد (Cash Registers) لمراقبة المتحصلات النقدية وتسجيلها وآلات التحليل (Machines Analysis) للحصول على بيانات تفصيلية عن النتائج التي يحققها المشروع في نواحي النشاط المختلفة، وكذلك استعانت إدارات المخازن والمشتريات بالوسائل الآلية لتسجيل عمليات الشراء والتخزين والصرف ومتابعة المخزون السلعي وأصبح تسجيل الوقت الذي يقضيه العاملون في الأقسام المختلفة يتم باستخدام آلات تسجيل الزمن Time Clocks وقد ساعد ذلك أقسام وإدارات الأجور بالمشروعات الصناعية الكبرى على الاعتماد على الآلات في إعداد قوائم الأجور (Pay Roll) وإعداد كشوف الحسابات والتقارير الخاصة بالضرائب والتأمينات الاجتماعية.

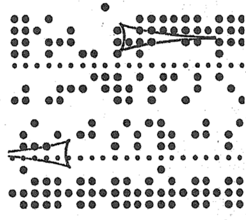
ومع التعدد في الأغراض والتشعب في الأهداف تعددت أنواع الآلات المستخدمة مما ساعد على زيادة الأبحاث والدراسات في غضون الخمسين سنة الأخيرة، وقد ترتب على ذلك ابتكار أنواع جديدة من الآلات تتميز بسرعة الأداء والكفاية العالية والبساطة في الاستخدام حتى يمكن تدريب الأفراد على استخدامها وتشغيلها بعد فترات تدريبية قصيرة نسبية.

وقد ترتب على دخول الحاسبات الإلكترونية عدة مشاكل نذكر منها :



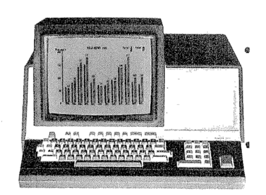
١ — كيفية تصميم المستندات والسجلات المحاسبة وطرق عمليات التسجيل ودرجة التفصيل والإجمال في إعداد البيانات بما يتلاءم مع استخدام الآلات لها.

٢ — مدى إمكان الاعتماد على الوسائل الآلية في تحقيق أهداف الرقابة الداخلية.



٣ — يترتب على استخدام الوسائل الآلية تعديل برنامج المراجعة بما يتناسب مع خصائص النظام الآلي الذي يتبعه المشروع في إعداد الحسابات واستخراج النتائج.

٤ — يترتب على إحلال الوسائل الآلية محل الطرق اليدوية في إجراء العمليات الحسابية والمكتبية (Office Automation) إعادة تنظيم تسلسل العمليات والإجراءات الادارية ورسم السياسة المناسبة لتدريب الأفراد على استخدام هذه الوسائل الآلية وتحديد أسلوب الإشراف على أعمالهم وقياس كفاياتهم.



٥ — يترتب على استخدام الوسائل الآلية ضرورة تحديد كيفية تدفق

البيانات بين الإدارات المختلفة داخل المشروع بما يتفق وسرعة تداولها وعدم الازدواج فيها وبما يتلاءم مع استخدامها في الوسائل الآلية بطريقة متكاملة (Integrated Data Flow) وبالنظر إلى الأسباب التي أدت إلى دخول الوسائل الآلية إلى مجال الأعمال التجارية يمكن أن نلاحظ أنها ترجع أساسًا إلى النمو المطرد في أحجام المشروعات واتساع نطاق أعمالها وقد ترتب على ذلك نتائج أهمها ما يأتي:

- ترتب على تعدد أنواع العمليات المحاسبية والمالية صعوبة إنجازها بالوسائل اليدوية التقليدية في وقت قصير، مع الاطمئنان إلى صحة النتائج المأخوذ منها.

- أدى اتساع نطاق النشاط الصناعي إلى زيادة عدد العاملين مما استلزم معه ضرورة استخدام الوسائل الآلية لتسجيل أوقات العمل وإعداد كشوف الأجور والتسويات المتصلة بها، ولا سيما إذا اتبعت أنظمة الأجور الحافزة (Incentive Wages Systems) أو إذا كانت الأجور تصرف على فترات دورية متقاربة. (مرة كل أسبوعين مثلاً) بحيث تزداد العمليات الحسابية اللازمة لتحديد الأجور المستحقة وتصبح الفترة المحددة لإعداد قوائم الأجور قصيرة نسبيًا، فمن الواضح أن اتباع الأنظمة الآلية في هذه الحالات يؤدي إلى إمكان إنجاز هذه الأعمال في الوقت المحدد لها.

- يساعد استخدام الوسائل الآلية في حصر وتبويب الآلات وتحليل عناصر التكاليف وإمكان قياس التكلفة وإعداد القوائم والتقارير باتباع نظم التكاليف المتطورة.

- أدى اتساع نطاق الأعمال التي يؤديها المشروع إلى زيادة الاهتمام بالمراقبة الداخلية ولما كانت هذه العمليات تتم بسرعة كبيرة فقد ظهرت الحاجة إلى استخدام الآلات كوسيلة لمراجعة نتائجها وإحكام الرقابة عليها بسرعة تفوق إنجازها لتلك العمليات.

- لكي تتمكن إدارة المشروع من رسم السياسات الإنتاجية والتسويقية فإنها تحتاج إلى بيانات تحليلية تتخذ أساسًا لرسم هذه السياسات، فمثلاً يحتاج رسم السياسات التسويقية ومتابعة

تنفيذها إلى تحليل أرقام المبيعات الإجمالية والتنبؤ بالطلب على أسس متعددة منها: أنواع المبيعات ومناطق التوزيع ونشاط كل من وكلاء البيع وتحليل أذواق المستهلكين والعملاء.

— يساعد استخدام الوسائل الآلية في إمداد الإدارة بالتقارير المالية والفنية على فترات دورية متقاربة وذلك لاتخاذها كأساس لحل المشاكل واتخاذ القرارات الإدارية، ومن الواضح أن هذه البيانات التحليلية تفقد كثيرًا من أهميتها إذا تأخر تقديمها، ومن ثم فقد دعت الحاجة إلى استخدام الوسائل الآلية حتى يتسنى استخراج البيانات المطلوبة وعرضها في الوقت المناسب للاستفادة منها.

ومن أهم مجالات الاستخدام المتعددة للحاسبات الإلكترونية نذكر الآتي :

١ — المجالات التجارية والعلمية والصناعية والهندسية.

٢ — أبحاث الفضاء والتحكم في الأقمار الصناعية.

٣ — المجالات المالية والاقتصادية «البنوك — الاستثمارات — الميزانية».

٤ — التنبؤات ودراسة الأسواق.

٥ — المجالات العسكرية ونظم الدفاع.

٦ — التعليم والأبحاث الصحية ونظم إدارة المستشفيات.

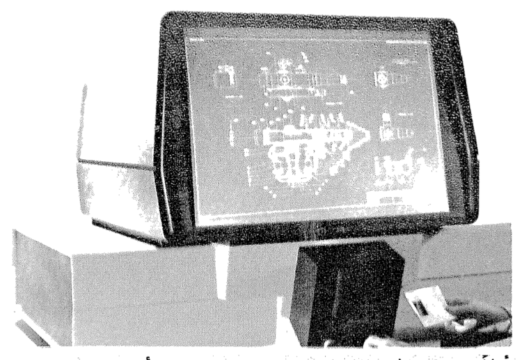
٧ — الأبحاث الاجتماعية والجنائية والقانونية.

٨ — الرقابة واتخاذ القرارات في المشروعات الاقتصادية.

حيث يكون دور الحاسبات الإلكترونية في هذا المجال هو الرقابة على المشتريات والمخزون والإنتاج والمبيعات والفروع والرقابة على الدورة المستندية وأعمال المراجعة ثم التخطيط للمشروع ووضع الموازنة العامة.

ولكي ندرك مدى ضخامة العدد من المجالات التي تستخدم فيها الحاسبات الإلكترونية والتي تجاوز عددها حتى الآن ٢٨٥٠ مجالاً بخلاف المجالات العسكرية والأبحاث السرية للدول الكبرى والعمل في مجالات الفضاء والأقمار الصناعية. سنتناول هنا كمثال فقط استخدامات الحاسبات الإلكترونية في مجال الطب وما يتصل به من أنشطة :





أولاً : إدارة المستشفيات :

١ — رقابة الإدارة.

٢ — حساب فواتير النزلاء.

٣ — بنوك الدم.

(أ) كل ما يتعلق بشئون إدارتها والإشراف عليها.
(ب) جردها وبحث احتياجاتها.
(جـ) تنظيم الاستخدامات.

٤ — تحليل الملاحظات الطبية.

٥ — تخزين وتحليل بيانات البحوث الطبية.

٦ — تشخيص وعلاج الأمراض فوريًا.

٧ — الفحوص الصحية العامة على مدار السنة..

٨ — تنظيم دخول المستشفيات الخاضعة للتأمين الصحي.

٩ — جرد المستشفيات.

١٠ — برامج وأبحاث مرضى العيادات الخارجية:

(أ) اختبارات واختيار وتعيين الموظفين والأطباء ومتابعتهم.
(ب) إنشاء وإعداد وتعديل السجلات الخاصة بهم.
(جـ) تنظيم حركات التنقلات.

١١ — تخطيط قوائم التغذية.

١٢ — كل ما يتعلق بسجلات المرضى من حيث تحليلها ومطابقتها وتلخيصها.

١٣ — تسجيل وإعداد التقارير عن حالة المرضى أثناء إجراء العمليات الجراحية.

١٤ ــ دراسات كميَّة حول الشروط والظروف الخاصة بأداء أعضاء الجسم لوظائفها الفسيولوجية.

١٥ ــ مراجعة صحة تدوين تذاكر الدواء (الروشتات).

١٦ ــ المساهمة في إنشاء وإعداد سجلات الإمدادات الطبية.

١٧ ــ الاختبارات الطبية وإعداد قوائم المرضى.

١٨ ــ توزيع الأدوية وضبط المخزون منها وتجهيز وطباعة أوامر الشراء آليًا بصفة دورية.

١٩ ــ طعام المرضى من حيث حساب التكلفة وإعداد قوائم التغذية وضبط القيم الغذائية للوجبات.

٢٠ ــ التقارير العملية من حيث تقارير الإدارة وتسجيل بيانات المرضى وطباعة منشورات الأطباء.

٢١ ــ غرفة العمليات من حيث تنظيم الجدول الزمني واختيار المستخدم من كل نوع من أنواع العمليات الجراحية وإصدار أوامر وتعليمات التجهيز.

٢٢ ــ سجلات المرضى وملفاتهم الدوائية.

ثانيًا : الطب والفسيولوجيا :

١ ــ تحليل الدم بأنواعه المختلفة.

٢ ــ حساب التركيب الإنشائي لبللورات العظم.

٣ ــ السرطان من حيث تشخيصه وإعلاء مسير تاريخي للمرض لكل مريض وعلاجه ومحاكاة نمو الخلايا السرطانية.

٤ ــ التحليل الإحصائي للبيانات الطبية.

٥ ــ التشخيص الطبي من حيث التعليق على النتائج وإعداد قوائم بها والتوصيات.

٦ ــ العقاقير من حيث تحليل مدى تأثيرها واسترجاع المعلومات عنها والتنبؤ باستجابة الجسم للعقاقير الجديدة.

٧ ــ أبحاث أمراض وجراحة القلب.

٨ ــ القلب من حيث عمليات الكسترة والتفريغات الكهربية وتحليل ضربات القلب وتصوير الأفلام السينمائية للقلب الحي وإنتاج صور بالصبغات الملونة وتصوير ثلاثي الأبعاد للقلب المريض.

٩ ــ الفحص الجماعي للكشف عن مرضى القلب.

١٠ ــ ومرضى القلب من حيث حساب ضغط الدم في الشرايين وحساب ضغط الدم المركزي في الأوردة المركزية وحساب معدل فتح الدم في القلب.

١١ ــ المخ البشري من حيث حساب موجات المخ البطيئة ودراسة وظائفه ودراسة مراكز الإحساس بالألم والاستجابة للضوء والمحاكاة ودراسة مراكز الاتزان ودراسات تحديد الحياة.

١٢ ــ الأذن البشرية من حيث محاكاة تحليل السمع وتحليل الأصوات.

١٣ ــ تحليل اختبارات مدى الفقد في السمع والأذن الوسطى والقصور السبحى عند الأطفال.

١٤ ــ العين من حيث دراسة عضلات العين وتحليل وظائفها وميكانيكية الرؤية واستجابة المخ والشبكية للأضواء.

١٥ ــ الكشف المبكر عن الإصابة بالعمى وتحديد العلاج.

١٦ ــ دراسات النمو والإصابات الوراثية في الأطفال وأبحاث الإرهاق.

١٧ ــ سرطان الدم والفحص التشريحي للمهبل والدم.

١٨ ــ تحليل الدم وتصوير خلاياه ودراسة حركة الدم وسريانه وحساب حجم الكرات الحمراء والبيضاء وبحوث علم وظائف الشرايين والجلطة ... إلخ .

١٩ ــ التخدير وحساباته وآثاره الجانبية.

٢٠ ــ التحكم بأشعة إكس والتصوير الإشعاعي الآلي وتحديد الأورام والكسور والفراغات ... إلخ .

٢١ ــ العلاج بالأشعة وبالنظائر المشعة.

٢٢ ــ أمراض وقروح المعدة من حيث الكشف عنها واكتشاف النزيف الداخلي وتحليل نتائج المنظار.

٢٣ ــ اكتشاف متاعب الكليتين والمثانة والبروستاتا وتشخيصها.

٢٤ ــ اكتشاف أمراض ومتاعب الصدر والرئتين والحجاب الحاجز.

٢٥ ــ اكتشاف الأمراض الجلدية والتناسلية وتحديد مواضع الأنسجة الفاسدة.

٢٦ ــ أمراض الأنف والأذن والحنجرة.

٢٧ ــ دراسة خصائص الأعصاب.

٢٨ ــ محاكاة الأوبئة وتحديد الأغذية المضادة.

٢٩ ــ تشخيص أمراض الغدة الدرقية وتحديد الجرعات الإشعاعية وتحليل الصدمات الإشعاعية.

٣٠ ــ تحليل بيانات وتأثير السموم. (كل ماذكر على سبيل المثال وليس الحصر).

خاتمـــة :

منذ أن تم إنتاج أول حاسب إلكتروني وحتى يومنا هذا والحاسبات الإلكترونية تستخدم في تنفيذ العديد بل الآلاف من التطبيقات العلمية والتجارية حتى لقد أصبحت تغطي أغلب ما نحتاج إليه من خدمات في مختلف الاغراض والمجالات. ولايزال استخدام هذه الأجهزة المتطورة يتسع يومًا بعد يوم ليس كبديل عن النقص في القوة البشرية أو الجهد البشري فحسب بل لتدخل البشرية إلى آفاق وأقطار لم يكن من المقدر لها أن تدخلها إلا بسلطان العلم.

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة الرحمن:

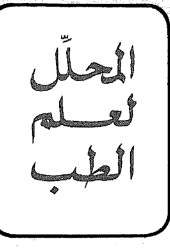
«يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان، فبأي آلاء ربكما تكذبان».

«صدق الله العظيم»

● ● ●

* المراجع *

* مجلة الحاسبات الإلكترونية الأعداد من ٦٢ إلى ٦٨ .
* النشرة الإحصائية للجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء.
* مقدمة الحاسبات الإلكترونية مرجع رقم ٩٠/ ٢٤١٠٠/ ٨٠.
* من مذكرات الجامعة الأمريكية
* كتالوج إعلامي ونشرة من (I B M S C II)



عليّ بن عبّاس الأهوازي

بقلم : د. علي عبد الله الدفاع

أبو الحسن علي بن عباس المعروف باسم المجوسي، حرف الغرب اسمه فاشتهر باسم هالي عباس (Hally Abbas). ولد أبو الحسن في مدينة أهواز في الجنوب الغربي من إيران بالقرب من جند يسابور ولم يعرف بالضبط تاريخ ولادته، ولكنه توفي عام ٣٨٤ هجرية (٩٩٤ ميلادية). والجدير ذكره أن أبا الحسن على بن عباس جاء من عائلة زرادشتية، أما هو فكان من أئمة الإسلام، لذا نرى أن لقب المجوسى قد حذف من اسمه، إكتفاءً بالأهوازي، لأن مسقط رأسه مدينة أهواز، وكثير من علماء العرب والمسلمين ينسبون في كثير من الأحيان إلى مسقط رءوسهم. ذاع صيت علي بن عباس في الطب في أرجاء المعمورة، حتى صار الأطباء والمرضى يأتون من كل فج لزيارته وللاستفادة من ارشاداته الطبية. يقول جلال مظهر في كتابه : «حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي» : كان على بن عباس المتوفي عام ٩٩٤ م واحدًا من أهم الأطباء العرب الذين عرفهم الأوروبيون واتخذوا كتاباته أساسًا لدراسة الطب... وربما يكون علي بن عباس أول طبيب مسلم عرفه الغرب اللاتيني».

لم يكن **علي بن عباس الأهوازي** من الأطباء الذين اشتهروا بكثرة مصنفاتهم، لكنه كتب كتابًا بعنوان: «**كامل الصناعة الطبية**» صار مرجعًا لجميع الأطباء في الشرق والغرب على السواء. وقد اعتمد في مؤلفه المذكور على **المشاهدات العملية** وحاول أن يطبق كل النظريات الطبية في غرفة العمليات. يذكر إسماعيل محمد هاشم في كتابه: «**محاضرات في نصيب العرب في تقدم العلم والحضارة**»، أن **عليًّا بن عباس** استند في مؤلفه الملكي المعروف بكامل الصناعة الطبية على مشاهداته العملية في المستشفيات لا على مجرد الدراسة النظرية. أما إدوارد ج. براون فيقول في كتابه «**الطب العربي**»: «علي بن عباس المجوسي المعروف في أوروبا في العصور الوسطى باسم **هالي عباس** (**Hally Abbas**) طبيب بارع كامل الصفات فارسي الأصل، تابع دراسته بنفسه واطلع على كل ما كتبه القدماء. **وقد ألف كتابه المسمى** «الملكي» **للملك عضد الدولة البويهي**[1] **وضمنه طريقته في الطب**، وهو كتاب بديع وذخيرة تحتوي على علم الطب والتطبيب مرتبة خير ترتيب، وهو أسهل كتب الطب العربية العظيمة منالاً وأكثرها صلاحية للقراءة».

بقي كتاب كامل الصناعة الطبية لعلي بن عباس المرجع الوحيد الذي استمد منه علماء العرب والمسلمين في الطب معلوماتهم. والجدير بالذكر أن هذا المؤلف سيطر على مكتبات الأطباء في العالم حتى ظهر كتاب القانون لابن سينا، الذي لم يحل محله، بل كان إضافة جيدة، لأن ابن سينا تناول في هذا المصنف الناحية النظرية والفلسفية في حقل الطب مع تقديمه لكثير من الأفكار الطبية العملية. ويذكر محمود دياب في كتابه «الطب والأطباء **في مختلف العصور الإسلامية**»: «**أن كتاب كامل الصناعة الطبية لعلي بن عباس المجوسي والذي ألفه للأمير عضد الدولة فناخسرو بن بويه كان مؤلفًا يمتاز بتبويبه وشروحه المفصلة في علم الطب، لذا صار مصدر علم علماء الطب إلى أن ظهر في حيز الوجود كتاب القانون لابن سينا**»، لذا يمكن القول أن الملكي (**كتاب كامل الصناعة الطبية**) في العمل أبلغ والقانون في العلم أثبت. **وأضاف سامي حداد في محاضرة ألقاها في جمعية (العروة الوثقى) بجامعة بيروت الأمريكية تحت عنوان «مآثر العرب في العلوم الطبية» أما كتاب علي بن عباس المجوسي (الملكي) ويعرف (بكامل الصناعة الطبية) فهو تحفة نفيسة جدًا وأثر جليل من الآثار العربية التي وصلت لنا من القرن الرابع الهجري. وهو بترتيبه أقرب إلى**

الكتب الطبية الحديثه من سواه مما أتى قبله أو بعده، وبنظرى أنه أفضل ما ألفه العرب في العلوم الطبية بلا استثناء. فهو كما يدل عليه عنوانه كامل في وضعه وموضوعه شامل لعلم الطب وعمله. قسمه المؤلف إلى عشرين مقالة وكل مقالة إلى أبواب.

ويظهر لنا من تعليق كثير من علماء الطب أن كتاب كامل الصناعة الطبية موسوعة طبية كاملة يرجع إليها الأطباء لمعالجة جميع الأمراض ليتمكنوا من فهم العلل وأسبابها وأعراضها وتشخيصها ووصف الدواء المناسب لعلاجها. ومن الممكن جدًّا أن نقول أن **علي بن عباس الأهوازي يعتبر نابغة عصره بعلمه وطبه، ويعتبر الكثيرون من علماء الطب أن كتاب كامل الصناعة الطبية أفضل من كتاب القانون لابن سينا**. يقول أحمد شوكت الشطى في كتابه: **تاريخ الطب وآدابه وأعلامه**: «**ألف علي عباس المجوسي الأهوازي كتابه الشهير بكامل الصناعة الطبية للملك عضد الدولة البويهي** ... والحق أن هذا الكتاب من أحسن الكتب الطبية، إذ جمع فيه فن الطب بكامله في ذلك العصر... ولقد ذاعت شهرة هذا الكتاب، إذ يمتاز عن غيره بتنظيمه ودقته وبما جمع من أصول فن الطب ونظرياته ... ويعد الكثيرون ممن قارنوا بين كتابه (**الكامل**) وكتاب ابن سينا (**القانون**) رجحان الأول على الثاني».

ولأهمية كتاب كامل الصناعة الطبية لعلي بن عباس الأهوازي ظلت أوروبا تحاول ترجمته من اللغة العربية إلى اللاتينية. وأخيرًا وافق علماء أوروبا في الطب أن يتمكنوا من الحصول على المعلومات الطبية الواردة في كتاب كامل الصناعة الطبية عبر ترجمة قسطنطين الأفريقي(٢). ويذكر التيجاني الماحي في كتابه: **مقدمة في تاريخ الطب العربي**: (أن قسطنطين الأفريقي قد ترجم كتاب كامل الصناعة الطبية بين عامي (١٠٧٠ — ١٠٧٨ ميلادية) ويشتمل الكتاب على أبواب عديدة، ولكنه قسم إلى عشرين مقالة. أما المقالتان الأولى والثانية فهما مقتصرتان على فصول في التشريح، فكانت المرجع الرئيسي لهذا العلم في سالرنو بإيطاليا والعالم أجمع. **ومن المؤسف حقًا أن قسطنطين الأفريقي عندما ترجم كامل الصناعة الطبية نسبه لنفسه وأهمل تمامًا المؤلف**، فكان متأثرًا بالمنهج الذي كان يتبعه علماء أوربا أنذاك. **والجدير ذكره أن عليًّا ابن عباس الأهوازي انتقد كلا من مؤلفات أبقراط وجالنيوس وأوربيازيوس وأوضح أغلاطهم في مجال الطب، كما وصف أبقراط بالإيجاز والغموض وجالنيوس**

بالإسهاب والتوسع غير الضروري. أما نشأت الحمارنة فيذكر في مجلة (الكحال) : «أن كتاب كامل الصناعة الطبية لعلي بن عباس من أحسن الكتب التي ألفت في القرن العاشر الميلادي. ترجمه من اللغة العربية إلى اللاتينية قسطنطين الأفريقي في القرن الحادي عشر الميلادي دون أن يذكر اسم المؤلف، وانتشر الكتاب في أوربا، ولم يعرف الدارسون من ألفه إلا بعد أن ترجمه مرة ثانية «إتيان الأنطاكي (Etienne the Antioch) وذلك في أول القرن الثاني عشر الميلادي. لذا نجد أن معظم نظريات ابن عباس الأهوازي سبق وأن نسبت إلى علماء أوروبيين.

لقد سخر الله تبارك وتعالى اتيان الانطاكي أن يترجم مرة ثانية كامل الصناعة الطبية سنة ١١٢٧ ميلادية في انطاكية، والسبب الذي دفعه إلى القيام بعمل كهذا بعض الملاحظات التي شك فيها، كما أنه استغرب مقدرة قسطنطين الأفريقي أن يؤلف مثل هذا الكتاب، فلجأ الانطاكي إلى البحث عن مخطوط هذا الكتاب فوجده، وترجمه وأعطى المؤلف حقه فنسبه لصاحبه علي بن عباس الأهوازي وانتقد قسطنطين نقدًا قاسيًا، ومنذ ذلك الحين عرف كتاب (كامل الصناعة الطبية) أخيرًا باسم مؤلفه الحقيقي، ويذكر جلال مظهر في كتابه: «أثر العرب في الحضارة الأوروبية» : «أن علي بن العباس الأهوازي أول طبيب عربي عرفه الغرب اللاتيني إذ ترجم قسطنطين الأفريقي كتابه الملكي (Liber Regal's)، إلا أن قسطنطين كعادته نسب العمل لنفسه، وأغفل تمامًا ذكر المؤلف الأصلي غير أن هذه الترجمة مع سوئها أثرت على أية حال تأثيرًا كبيرًا في دراسة الطب في الغرب اللاتيني».

لقد أعطى الطبيب المشهور علي بن عباس الأهوازي بعض الإرشادات والمؤشرات التي يجب على الإنسان اتباعها لحفظ صحته، كما قدم أدلة قاطعة في هذا المجال. ويذكر عمر رضا كحالة في كتابه : «العلوم العملية في العصور الإسلامية» : «أن علي بن عباس المجوسي من مسلمي فارس، من أهل الأهواز المتوفي سنة ٣٨٤ هجرية (٩٩٤ ميلادية) اشتهر بالطب والتصنيف في هذا المجال، فكانت بحوثه تبرز حفظ الصحة التي هي في حد ذاتها أجل من معالجة المرض. وقد قسم بحث حفظ الصحة إلى ثلاثة أقسام الأول حفظ صحة الأبدان الصحيحة، والثاني حفظ صحة الأبدان الضعيفة التي تحتاج إلى إنعاش، والثالث حفظ صحة الأبدان التي كادت أن

تقع في الأمراض. كما حث علي بن عباس المجوسي في كثير من مؤلفاته على الرياضة وأنها من أفضل ما يستعمله الإنسان في حفظ الصحة، وأعظمها منفعة إذا كانت قبل الغذاء، وذلك لأنها تقوي الأعضاء وتصلبها وتحلل الفضول التي تبقى في الأعضاء من الغذاء، وكلما كانت الرياضة أقوى كان الهضم أجود وأسرع، ويذكر دليلاً على ذلك ما يرى من صحة الأبدان أصحاب الكد والتعب وقلة ما يعرض لهم من الأمراض. ويوصي ابن العباس بعدم اللجوء إلى الرياضة بعد الأكل مباشرة، وعندما يكون الطعام في المعدة لئلاً ينحدر إلى الأمعاء قبل انهضامه جيدًا».

ولقد تناول علي بن عباس الأهوازي فروع الطب المختلفة في كتابه (كامل الصناعة الطبية) وخصص لكل فرع حصته، فتناول هذه الشطور المختلفة بعمق أدهش الكثير من أطباء العالم. يقول جمهرة من المؤلفين العرب في كتابهم **الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب** : «**ألف علي بن عباس في الطب كتابه (الملكي) أو كامل الصناعة الطبية في عشرين مقالة، كل منها مقسم إلى عدد من الأبواب. وتتناول المقالات العشر الأولى النواحي النظرية، أما المقالات العشر الأخرى فتتناول صناعة الطب، وقد خص منها مقالة في صميم العمل باليد وهي تشمل (١١٠) فصلاً في الجراحة.** وهو يصف علاج قطع الشريان والورم المسمى (أنورسما Aneurysm)، ويصف طريقة علاج جرح الشريان العضدي الذي كثيرًا ما يصاب أثناء عملية الفصد، ويوصي بأنه إذا لم تفد القابضات والكي يشرح الشريان ويربط من الناحيتين ويقطع بين االرباطين».

ولقد درس مرض الصرع (**افيلبسيا**) بكل تعمق حتى أنه وصل إلى نتائج بقيت مرجعًا عبر العصور لما فيها من أصالة وعمق في مجال الطب. يقول أوسل تمكن في كتابه : «**تاريخ افيلبسيا من عصر اليونان إلى ظهور دراسة الجهاز العصبي الحديث**» : «بدون الدعاية والمفاخرة عرف أطباء العصور الوسطى مرض الصرع (**افيلبسيا**) وعلى رأسهم علي بن عباس المجوسي الذي شرح بكل جدارة ووضوح أسباب مرض الصرع، وذلك بقوله أن تعوق المخ ناتج من الضغط عليه وذلك من تمزق النسيج اللين في الرأس، الذي يصحبه مرض مزمن».

لقد كان علي بن عباس الأهوازي من علماء الإسلام الأفاضل، فقد أحاط بجميع فروع الطب بمصنفه (كامل الصناعة الطبية) وعمله في عيادته. فقد عانى

عرب الجزيرة العربية من مرض العيون الكثير، فاستعمل أطباء العرب والمسلمين بعض الأدوية **القابضة والمحللة والمنضجة والمخدرة للعين**. لذا نجد أن عليًّا بن عباس الأهوازي قد كرس جهده لهذه المشكلة العويصة. يقول في كتابه المذكور: «العين عضو ذكي الحس لم يجز أن تستعمل فيها أدوية قوية ولا تورد عليها أدوية كثيرة دفعة. انظر فاذا كان السبب باديًا أعني من حر الشمس والغبار والدخان فإن برأه يكون أولاً بزوال تلك الأسباب».

وقد اهتم علي بن عباس الأهوازي بطب الأسنان اهتمامًا بالغًا، مما جعله يقدم دراسة متكاملة عن هذا الموضوع في كتابه كامل الصناعة الطبية. فعلى سبيل المثال لا الحصر شرح شرحًا كاملاً كسر الفك الأسفل إلى درجة أن هذه المعلومات بقيت معتمدة عبر العصور. ويجدر بنا أن نذكر نص ما قاله في كتابه كامل الصناعة الطبية «متى انكسر اللحى الأسفل من خارج، ولم يفصل ما انكسر فينبغي أن تنظر، فان كان الكسر في الفك الأيسر فينبغي أن تدخل الأصبع الوسطى من اليد اليسرى والسبابة في الفم وترفع بهما الحدب الحادث في الفك إلى خارج حتى يستوي وتسويه على شكله من خارج باليد اليمنى. وإذا كان الكسر في الفك الأيمن فأدخل اصابع اليد اليمنى وافعل بها مثل ما ذكرت لك، وأنت تعرف رجوع الفك إلى حاله، من استواء الأسنان التي فيها ورجوعها إلى أصلها الطبيعي. فان انكسر اللحي واندار ما انكسر فينبغي أن تستعمل المد من الناحيتين بمعاونة بعض الخدم لك حتى ترده إلى حقه وشكله وينبغي أن تشد الأسنان التي في اللحي المكسور برباط من ذهب أو فضة بعضها إلى بعض إن أمكن ذلك فان لم يمكن فتربط بخيوط من ابريسم مفتولة فتلا جيدًا ثم تستعمل الرباط الذي ينبغي أن يربط وهو أن تصير وسط الرباط على القفا وتمد الطرفين من الجانبين وتمر بهما على الأذنين إلى أن يصير اللحى إلى محله».

لقد تعرض علي بن عباس الأهوازي لوظيفتي الإنقباض والإنبساط في دراسته لعلم الطب، التي قادته إلى أهمية الدورة الدموية في الأوعية الشعرية. لذا كان علي بن عباس الأهوازي من العلماء في الإسلام الذين لهم السبق في دراسة هذا الموضوع المهم. ومن أسف أن علماء الغرب استطاعوا أن يضللوا الناس بزعمهم أن العالم الإنجليزي المشهور هارفي [٣] هو صاحب هذه الفكرة. **يقول أمين أسعد خير الله في كتابه: «الطب العزبي»إن «علي بن عباس المجوسي سبق هارفي في وصف الدورة**

الدموية في الأوعية الشعرية أثناء كلامه عن وظيفتي الإنقباض والإنبساط وعن وظائف الجسم الحيوية وهذا الوصف أقرب جدًا من الحقيقة». وأضاف أحمد شوكت الشطي في كتابه : **تاريخ الطب وآدابه وأعلامه** قائلاً : «**يعد علي بن العباس أول من ذكر وجود شبكة شعرية بين العروق النابضة وغير النابضة أي بين الشرايين والأوردة.**

لقد كان التدرن الرئوي (**السل**) من الأمراض المنتشرة في العالم في ذلك الوقت فقد أدلى العالم المسلم علي بن عباس الأهوازي بدلوه حتى أنه وفق في الوصول في بحوثه إلى معرفة صعوبة شفاء مرض السل معللاً ذلك أن الرئة دائمة الحركة، فهزاتها المستمرة تحول دون التحام القرحة. يقول أحمد شوكت الشطي في كتابه : **تاريخ الطب وآدابه وأعلامه** : «**يعتبر علي بن عباس المجوسي أول من نبه إلى صعوبة شفاء السل الرئوي، بسبب حركة الرئة**».

لقد لقب علي بن عباس الأهوازي بالمحلل لعلم الطب، لذا نجده قد قدم ملاحظاته العلمية على مؤلفات كل من أبقراط وجالينوس وبولس وغيرهم ممن اشتهر بإنتاجه في هذا المجال. كما ذاع صيت علي بن عباس الأهوازي بنقده العادل البناء. لذا نجد أن جلال مظهر يذكر في كتابه : (**أثر العرب في الحضارة الأوروبية ـــ نهاية عصور الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة**) أن عليًّا بن عباس الأهوازي كان ناقدًا أيضًا للقدماء فأشار في إنتاجه العلمي إلى ما اعتقد من الأغاليط في كتب كل من أبقراط وجالنيوس وأوريبازيوس وبولس الأجنيطي. فعلى سبيل المثال وصف علي بن عباس أبقراط بالإيجاز والغموض وجالنيوس بالتوسع والتطويل.

وقد أولى الأهوازي اهتماماً بالغًا بحركة الرحم. يقول في هذا الصدد عمر فروخ في كتابه : **تاريخ العلوم عند العرب : أن علي بن عباس المجوسي له نظريات متطورة في علم حركة رحم المرأة ما نصه : «وفيه أيضًا كلام على حركة الرحم، وذلك أن الجنين لا يخرج من تلقاء نفسه، ولكن الرحم هي التي تدفعه إلى الخروج». ولم يكتف بهذا القدر بل تكلم عن تطور الجنين في رحم المرأة بطريقة عملية مخبرية متطورة أدت إلى الإستغراب بين علماء العصر الحديث، ويتضح ذلك من قوله في كتابه كامل الصناعة الطبية «الجنين إنما يتم بامتزاج مني الذكر بمني الأنثى، ومن شأن الرحم أن**

تنضم من جميع نواحيها وتمسكه، ويمتزج المنيان ويصيران إلى تجويف الرحم، ويتكون منهما الغشاء الذي يحيط بالجنين، إلى أن تتصل ما به من العروق والشرايين بأفواه العروق والشرايين التي تعبر إلى الرحم. ويقال لهذا الغشاء المشتبك فيه العروق والشرايين بالمشيمة. أما تكوين الجنين نفسه فيحدث نفاخات إذا خالط المنيان أحدهما الآخر من حرارة الدم، وتجتمع النفاخات إلى تجويف عظيم وتجتمع في هذا التجويف مقدار من الروح، ثم يبدأ ظهور أعضاء الجنين. وأول شيء تبدأ به القوة المصورة الأعضاء التي هي الأصول لأكثر الأعضاء وهي الدماغ والقلب والكبد وسائر الأعضاء اللحمية وسائر الأعضاء الباقية التي في الجنين الكامل. وعند ذلك يبدأ الجنين يتحرك. ويتم خروج الجنين إما في الشهر السابع أو في الشهر التاسع. وأضاف علي بن عباس قوله: «ان احتاجت الحامل في بعض الأوقات إلى الفصد أو شراب الدواء المسهل بسبب بعض العلل، فلا ينبغي أن تقدم على ذلك في أول الأمر إلى أن يصير لها أربعة أشهر، وتفعل ذلك في الخامس والشهر السادس والسابع وتتجنب ذلك في الشهر الثامن والتاسع لأن الأربعة الشهور الأولي يكون الجنين فيها ضعيفًا محتاجًا إلى الغذاء، والاستفراغ ينقص من غذائه فيموت. وفي الشهر الثامن والتاسع يكون الجنين قد كبر ويحتاج إلى غذاء أكثر، فإذا استفرغت المرأة قل غذاء الجنين ولم يبق حيًا».

ومن العجيب أن علي بن عباس الأهوازي تكلم عن السرطان في رحم المرأة وأعطى تشخيصًا علميًا ممتازًا يدل على طول باعه في مجال الأورام الخبيثة، التي كانت من الموضوعات غير المتطورة آنذاك. ولعل ما قاله جمهرة من المؤلفين في كتابهم: «**الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب**» نقلاً عن علي بن عباس الأهوازي: «عدم الحبل إما من قبل المرأة يكون إما عن سوء فراج[٤] الرحم (كذا)، وإما عن مرض آلي، وإما خلط مصبوب في تجويفه. والذي من قبل الرجل إما من رداء فراج[٥] المني (كذا)، وإما من مرض آلي مثل تعويج مجرى القضيب. وأضاف ربما كان السرطان مع تقرح أو من غير تقرح، فمن كان من غير تقرح فيستدل عليه بالوجع الشديد أسفل البطن والعانه. أما إذا كان مع تقرح نفس الأعراض السابقة وكثيرًا ما يسيل منها رطوبة مائية».

لقد اشتهر علي بن عباس الأهوازي في فن الجراحة فأجرى عمليات جراحية عدة

على جميع أجزاء جسم الإنسان تقريبًا. لقد كان مفخرة لعلماء العرب والمسلمين حين قام بعملية شق واخراج الحصاة بطريقة جراحية متطورة. يذكر أحمد عيسى بك في مقالة بعنوان: «آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب» التي ألقاها على أعضاء المجمع العربي بدمشق بمناسبة انتخابه عضوًا: «أن علي بن عباس المجوسي قد شرح شرحًا وافيًا عملية الشق العجاني للحصاة بطريقة جراحية تدل على تفننه في ميدان علم الجراحة».

لقد اهتم علي بن عباس أيضًا بعملية اللوزتين اللتين كانتا تعالجان بالعقاقير المتنوعة، فقد أجرى عدة عمليات، وكان النجاح حليفه في هذا الموضوع. كما هو مشروح شرحًا مفصلاً في كتابه «كامل الصناعة الطبية» بقوله: «ورم اللوزتين إذا عظم وطالت مدته وعسر على صاحبه البلع ولا تنجح فيه الأدوية والغرغرة وما يجرى هذا المجرى فينبغي أن يستعمل فيها القطع. والسبيل إلى ذلك أن تأمر العليل أن يقعد بين يديك مقابل الشمس وتأمره أن يفتح فاه وتأمر الخادم أن يمسك برأسه إلى الخلف وتأمر خادمًا آخر أن يمسك لسانه ويكبسه إلى أسفل بالآلة التي يكبس بها اللسان، ثم تأخذ سناره وتغرزها في أحد اللوزتين وتخرجها إلى الخارج، من غير أن تجذب معها شيئًا من الأغشية والأجسام التي هناك ثم تقطعها من أصلها بالآلة التي تصلح لذلك. وبعد أن تقطع إحداهما تقطع الأخرى أيضًا وتغرغر العليل بماء ورد وخل مبرد فإن عرض من ذلك نزف فينبغي أن تغرغره بماء السُّماق».

لقد أولى علي بن عباس الأهوازي للعاملين بمهنة الطب، حين قدم عدة نصائح للأطباء، فيقول في كتابه: «كامل الصناعة الطبية»: «ينبغي للطبيب أن يكون طاهرًا ذكيًا ديّنا، مراقبًا لله عز وجل، رقيق اللسان، محمود الطريقة، متباعدًا عن كل نجس ودنس وفجور، وأن لا يفشي للمريض سرًا ولا يطلع عليه قريب أو بعيد فان كثيرًا من المرضى يعرض لهم أمراض يكتمونها عن آبائهم وأهاليهم ويفشونها للطبيب ... ومما ينبغي لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازمًا للبيمارستان ومواطن المرضى، كثير المداولة لأمورهم وأحوالهم مع الحُذّاق من الأطباء، كثير التفقد لأحوالهم والأعراض الظاهرة فيهم متذكرًا لما كان قد قرأه من تلك الأحوال ومما يدل عليه من الخير والشر، فانه إذا فعل ذلك بلغ من هذه الصناعة مبلغًا حسنًا، ووثق به الناس ومالوا إليه ونال المحبة والكرامة.

أما زكي علي فيقدم في كتابه : «رسالة الطب العربي وتأثيره على مدنية أوربا» ملخصًا لبعض النصائح التي تتردد على لسان الأهوازي في مؤلفه «**كامل الصناعة الطبية» لطلابه منها :**

١ ــ الحث على ملازمة المستشفيات كي يسهل الاتصال به في حالة الضرورة.
٢ ــ زيارة منازل المرضى.
٣ ــ بذل العناية في دراسة الحالات التي في المستشفيات بصحبة أساتذتهم.
٤ ــ تذكر اختلاف الأعراض التي تعتري المريض.
٥ ــ محاولة كسب ثقة المريض حتى تزداد فائدته.
٦ ــ ينبغي أن يكون كثير المداولة لأمور المرضى مع زملائه وأساتذته حُذَّاق الاطباء.

وخلاصة القول أن عليًّا بن عباس الأهوازي يعتبر علمًا من أعلام المسلمين الذين ذاع صيتهم في حقل الطب. ولقد اكتفى من التأليف بكتابه كامل الصناعة الطبية الذي كان بمثابة موسوعة علمية في الطب النظري والكلينيكي. والجدير ذكره أن علماء عصره اهتموا بكثرة المصنفات واشتهروا بذلك، لكن علي بن عباس الأهوازي حسب علمنا لم يؤلف إلا كتابه المذكور الذي جمع فيه استنباطاته الطبية التي لم يسبق إليها أحد، حتى كان الكتاب المذكور مرجعًا ضروريًا للطبيب الباحث والكلينيكي على السواء. وقد اتضح جليًا بين علماء تاريخ العلوم أن كتاب كامل الصناعة الطبية فيه بحوث أصلية كانت المعول المتحرك الذي وجه أوربا إلى تقدم طبها. ولا شك أن أوربا مدينة لعلماء العرب والمسلمين في العلوم بعامة وفي حقل الطب بخاصة. **فلولا علي بن عباس الأهوازي والرازي وابن سينا وابن زهر والزهراوي وغيرهم من علماء الطب في الحضارة العربية والإسلامية لبقيت أوروبا ترزح في ظلامها الحضاري الدامس.**

حقًا إن **عليًّا بن عباس الأهوازي** كان بصيرًا بعلم الطب منصرفًا لهذا العلم من العلوم بارعًا ومتقنًا له. لذا نجده ذا مكانة علمية مرموقة بين معاصريه، فلم يجرؤ أن ينازعه منازع في حقل الطب النظري والكلينيكي حيث أنه كان محيطًا بمعرفة دقائقه وغوامضه. ومما لا يقبل الجدل أنه كان من بين العلماء في الإسلام الذين اعتكفوا واستغلوا وقتهم في البحث والتنفيذ والكد في سبيل تطوير علم الطب في جميع فروعه. لقد خلف علي بن عباس الأهوازي تركة مليئة بالمبتكرات والاستنتاجات الطبية التي

عادت على الأمة الإسلامية في غابرها وحاضرها بالخير والنفع. إن الأمة العربية والإسلامية لفخورة بأن تنجب عالمًا كابن عباس الأهوازي.

لقد اشتهر طبيبنا علي بن عباس الأهوازي بالتواضع والعطف على الفقراء. فقد صقل علمه روحه مما جعله من عظماء العالم أجمع. إن إخلاصه وتفانيه سيطرا على جميع أعماله. حتى عرف بين علماء تاريخ العلوم بزهده ونزاهته وإعلانه للحق ولو على نفسه ومحاربته الغرور والفساد. وطبيعي أن هذه الأمور لم تخف على علماء الغرب، فقد كرسوا جهودهم لترجمة إنتاجه في الطب من اللغة العربية إلى اللغات المختلفة الأوربية وعلى رأسها اللاتينية.

البصر وهي رطوبة مستديرة الشكل في وسطها تفرطح يسير صافية نيرة
وهي موضوعة في وسط الطبقات ويقال لها الرطوبة الجليدية وجعلت
مستديرة لتبعد من بعض الاشكال من قبول الآفات واما التفرطح الذي
فيها فليلقى من المحسوس مقدارا كثيرا ولتكون متمكنة في موضعها غير
مضطربة لانها لو كانت مستديرة لتلقى من المحسوس لاشياء يسيرة ولو تعذر
المركز الذي في وسطها لكانت مع ذلك مضطربة غير متمكنة لان الشكل
الكري لا يكاد يستقر على مركز وان استقر كان مضطربا وجعلت صافية
نيرة لتستحيل الى الالوان بسرعة وجعلت في الموضع الاوسط ليكون سائر
الاجزاء التي عددت من اجلها محيطة بها فاما الاجزاء التي عددت نافع ينتفع
بها فمنها رطوبتان وسبع طبقات اما الرطوبتان فاحدهما موضوعة من خلف
وهي موضوعة فيها الى النصف وهي رطوبة بيضاء شبيهة بالزجاج الذائب
اعدتها الطبيعة لتغتذي الرطوبة الجليدية منها اذ كانت تحتاج الى غذاء
يقرب من طبيعتها ليسهل عليها تغييره واحالته الى طبيعتها وذلك انه لما
كانت الاعضاء كلها تغتذي من الدم وكان الدم بعيدا من طبع الرطوبة
الجليدية جعلت الرطوبة الزجاجية لتحيل الدم وتقلبه الى طبيعتها

(هذه صفحة من مخطوط كامل الصناعة الطبية لعلي بن عباس المجوسي)

ولا يفوتنا أن ننوه بحقيقة أن هناك مجموعة من علماء الغرب حاقدة على الإسلام غرتهم أنفسهم ,بأن يستولوا على بعض نظريات علي بن عباس الأهوازي المهمة في الطب وينسبوها لأنفسهم أو لبعض علماء الغرب المشهورين في حقل الطب، وأمثال ذلك وليم هارفي عندما نسب لنفسه اكتشاف الدورة الدموية والذي تطرقنا لذكره آنفًا. وعلى كلٍّ فإن هناك في هذه الأيام مجموعة من العلماء في الشرق والغرب مهتمين بتحقيق التراث العلمي العربي الاسلامي محاولين إرجاع الحق إلى أهله.

ولو أننا عدنا قليلاً إلى كتاب كامل الصناعة الطبية لوجدنا أنه امتاز بأسلوبه العلمي السلس وأفكاره العلمية الواضحة الجلية، لهذا نجد أن علماء تاريخ العلوم في العالم أعطوه أهميه كبرى، وذلك لما له من وثيق الصلة بجميع فروع الطب، فقد استعرض مؤلفه جميع أنواع العمليات الجراحية التي بالإمكان إجراؤها للإنسان. كما كان من العلماء الذين لهم صلة وثيقة بعلم العقاقير، ملمًا إلمامًا جيدًا بجميع أنواع الأدوية التي يمكن أن يتناولها المريض. حتى انه أفرد جزءًا كبيرًا في كتابه لعلم العقاقير وأهميتها.

●●

* المصادر والمراجـع *

*** روعي في ترتيب أسماء المؤلفين اعتبار الحرف الأخير من الاسم.**

(١) **عباس الأهوازي** : كامل الصناعة الطبية.

(٢) **إدوارد ج. براون** : الطب العربي.

(٣) **أحمد عيسى بك** : آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب.

(٤) **أوسل تمكن** : تاريخ أفيلبسيا من عصر اليونان إلى ظهور دراسة الجهاز العصبي الحديث.

(٥) **جمهرة من المؤلفين العرب** : الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب.

(٦) **محمود دياب** : الطب والأطباء في مختلف العصور الإسلامية.

(٧) **سامي حداد** : مآثر العرب في العلوم الطبية.
(٨) **نشأت الحمارنة** : الكحــال.
(٩) **أمين أسعد خير الله** : الطب العربي.
(١٠) **أحمد شوكت الشطي** : تاريخ الطب وآدابه وأعلامه.
(١١) **زكي علي** : رسالة الطب العربي وتأثيره على مدينة أوروبا.
(١٢) **عمر فروخ** : تاريخ العلوم عند العرب.
(١٣) **التيجاني الماحي** : مقدمة في تاريخ الطب.
(١٤) **جلال مظهر** : أثر العرب في الحضارة الأوروبية.
(١٥) **جلال مظهر** : حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العلمي.
(١٦) **إسماعيل محمد هاشم** : محاضرات في نصيب العرب في تقدم العلم والحضارة.



* الهوامــش *

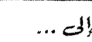
(١) الملك عضد الدولة البويهي فناخسرو بن ركن الدولة حسن بن بويه الديلمي الذي حكم في المدة من ٣٣٧ هجرية إلى ٣٧١ هجرية (من ٩٤٩ ميلادية إلى ٩٨٢ ميلادية) والمؤسس للمستشفى العضدي في بغداد. ولد في أصفهان ومات في بغداد، وكان مغرمًا بالعلوم محبًا للفقراء بشاهنشاه.

(٢) قسطنطين الأفريقي من القطر التونسي، دينه الإسلام ولغته العربية، تلقى علمه في بغداد، وتوفى عام ١٠٧٨ ميلادية. فهو من الذين أسهموا في إنقاذ أوروبا، وذلك بترجمته لكتب الطب من اللغة العربية إلى اللاتينية. بل الأصح أن معظم المؤرخين يعتبرونه أول من نقل إلى اللغة اللاتينية مصنفات العرب الطبية.

(٣) وليم هارفي إنجليزي الأصل، اشتهر في حقل الطب وبخاصة الدورة الدموية وعلم التشريح. ولد هارفي عام ١٥٧٨ ميلادية، كان والده من كبار رجال الأعمال في لندن. توفى هارفي عن عمر يناهز الثمانين سنة.

(٤، ٥) هكذا بالأصل الذي نقلنا عنه أو لعله تصحيف لكلمة خراج بمعني (افراز).

> **عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :**
> **«ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».**
>
> «متفق عليه»



إلى ...

كتاب "الدارة" الكرام !!

ترجو مجلة الدارة من كتابها الكرام أن يبعثوا إليها بحوثهم وموضوعاتهم ومقالاتهم وقصائدهم باسم رئيس التحرير ص.ب / ٢٩٤٥

الرياض - المملكة العربية السعودية

١ - أن تكون مكتوبة بخط واضح أو مطبوعة على الآلة الكاتبة حتى تخرج سليمة من الأخطاء.

٢ - أن يزودوا المجلة بالصور والخرائط الأصلية أو الشرائح الملونة، - إذا احتاج البحث ذلك - حتى تخرج البحوث والموضوعات بصورة جيدة ترضي القراء.

٣ - ألا يزيد صفحات البحث الواحد عن عشرين صفحة للتنوع ونشر أكبر عدد ممكن من البحوث والموضوعات، وكذا تلخيصا للبحث في عشرة أسطر، وترجمتها إلى اللغة الإنجليزية - إن أمكن -

٤ - أن تزود المجلة بصورتين شمسيتين وبيانات عن حياة الكاتب العلمية، وذلك لمرة واحدة إذا كان الكاتب دائم الكتابة بالمجلة.

٥ - أن يكون عنوان وهاتف الكاتب واضحا ومفصلا للاتصال به عند اللزوم. ولإرسال مطبوعات الدارة

٦ - ألا يبعثوا بنسخة أخرى من البحث إلى مجلة أو جريدة أخرى.

٧ - البحث أو الموضوع أو المقال الذي يتم إجازته، يخطر كاتبه بذلك. أما البحث الذي لم يتم إجازته لا يرد له، ولكن يخطر أيضا بذلك.

٨ - في حالة "عرض كتاب ما ..." نأمل تزويد المجلة بنسخة منه أو بصورة واضحة للغلاف.

'... a physician has to be pure, intelligent, religious and observant of God's rules. He has to be good mannered, far from all uncleanliness, disgrace and dissolution. The secrets of his patients have to remain hidden from any person whoever he is. He has to stay permanently under call whether at his hospital or for home visits. He should discuss the cases of his patients with other clever colleagues.." "... Once he observes all this a physician would make a successful career and people would trust him and he would be loved and honoured.'

In brief we can safely state that **Ali Bin Abbas Al-Ahwazi** was an outstanding Moslem authority in the medical field. He left no much writings but his renowned book was encyclopaedic in theoretical and clinical medicine. With its original unprecedented findings the book was a driving force for the development of European medical science. But for **Al-Ahwazi, Al-Razi, Avicenna** and others in the **Arab** and **Islamic civilization Europe** would have remained in its dark ages.

Noteworthy to say as well that Al-Ahwazi was famous for his modesty and his charity to the poor. His wide learning has refined and ennobled his soul until he came out as a distinguished scientist of all times. His sincerity and devotion have stamped all his deeds. He was known for his piety, his righteousness, moral courage and his refutation of all vanities and debauchery. Western scientists were well aware of this when they spared no effort in translating his medical writings from Arabic into different European languages especially Latin. **His book was characterised by its smooth scientific style and its clear objective ideas, qualities that contributed to the great importance the book has reached.**

●●



He also had a developed theory in the movement of a woman's uterus. To him the developed foetus does not come out spontaneously at birth but is expelled outward by the mother's uterus. He also wrote on the development of the foetus inside the mother's womb in such a scientific and experimental way that aroused the astonishment of modern scientists.

It is curiously enough to know that Al-Ahwazi had written on cancer in a woman's uterus. He gave an excellent scientific diagnosis of malignant tumours which hinder pregnancy whether the afflicted is the father or mother.

In the field of surgery Al-Ahwazi towered above so many others. He performed several surgical operations including nearly all parts of the human body. It was a pride for the Arab and Moslem physicians when he succeeded by surgery, in getting out a calculus. He wrote a detailed explanation of the operation.

On tonsilitis he wrote extensively and did many surgeries in the field. Interesting enough is his description of the operation: "... the patient has to sit with his face towards the sun. He has to open wide his mouth, a servant to pull back the patient's head and another to press down his tongue with a tool. Next you pierce a hook into one of the tonsils and pulls it out without doing any harm to the membranes around, then you have it cut with the suitable tool. The same is to be done with the second. **Immediately** after the operation the patient has to gargle his mouth by cooled rose water and vinegar."

On the morals of the medical profession Al-Ahwazi gave many advices:



given, he continues, than to notice the good health of hard working people and their higher relative immunity against diseases. However, Ibn Abbas recommends that sports should not be practised directly after meals.

Al-Ahwazi studied epilepsy thoroughly until he came to remarkable findings that remained valid throughout the ages.

In Arabia the population used to suffer severely from eye diseases, and, for cure, physicians used to prescribe strong medicines that could harm the eyes. Ibn Abbas attended to that serious problem. The eye, in his opinion, is a highly sensitive human organ that should not be medicated with strong, variant or successive drugs. If the reason behind the sick eye comes from heat, dust or smoke then the first curative step depends upon the removal of the causes.

As **to dentistry Al-Ahwazi made contributions.** He gave a detailed explanation of how to bring back to normal a broken lower jaw.

Although he was a pioneer Moslem scientist to discover the importance of blood circulation in blood vessels the discovery was misleadingly attributed to **William Harvey,** the famous English physician **(born in 1578 and died 80 years later).**

During his time tuberculosis was a very widespread disease. **Al-Ahwazi** realized the difficulty of any curative measures. To him the cause lay in the continuous movement of the lungs, that movement which prevents the healing of the ulcerated area. This point, in itself, was a pioneering idea by Al-Ahwazi.

monumental Arabic remains handed down to us from the fourth century Hidjira. It's classification into parts and sub-parts brings it nearer to modern medical books than to older ones". In his view that book is the best Arabic one in its field.

So many comments by eminent medical scientists agree that Al-Ahwazi's book is a comprehensive medical encyclopaedia that came to be a reference source consulted by physicians to understand diseases, their causes, symptoms, diagnoses and prescription of suitable therapy.

The importance of the book brought in many European attempts to have it translated from Arabic into Latin. At last **Constantine the African** did it between 1070-1078 A.D. But, unfortunately, Constantine attributed the authorship to himself and dropped the original writer's name altogether. The book became so widespread in Europe and not until the beginning of the twelfth century A.D. when **Etienne the Antioch** managed a new translation of the book that scholars came to know about the real author. The reason behind the new translation was due to Etienne's doubts in some remarks made in the former translation together with other suspicions in Constantine's ability to write such a book. He started a search for the manuscript until he found it. The new translation came bearing the original author's name and including a bitter attack on Constantine.

In this famous book Al-Ahwazi stressed the importance of health protection as prior to health treatment. He encouraged sport playing as the best protective means of man's health especially before meals. In his view sports strengthen and harden the human body, improve and quicken digestion and help to analyse the food remnants through the digestive system. No clearer example can be

He is Abu Al-Hassan Ali Bin Abbas **Al-Ahwazi, known in the west as Hally Abbas. He was born in Al-Ahwaz city in Iran and died in 384 A.H. (994 A.D.).**

Ali Bin Abbas was most famous as a doctor. Physicians as well as patients flocked to him for medical teaching as well as medical treatment.

In his book **'The Islamic Civilization and Its Effect Upon World Development' Galal Mazhar** says that Ali Bin Abbas was one of the most outstanding Arab physicians known to Europe and his medical writings came to be studied as reference books in the teaching of medicine. He may be the first Moslem physician known to the Latin west.

Al-Ahwazi left no much writings. But one single book of his titled The Complete Medical Profession **(Kamil Al-Sina'a Al-tibbiyya)** came to be widespread in the east and the west alike. Beside its theoretical value the book was based upon medical practice in the operation room itself.

Edward G. Brown wrote a book titled 'The Arab Medicine' where he says that Hally Abbas was a brilliant physician and a self-taught scientist who read widely in his field... "His book is a treasure both for medical science and medical treatment. It is well classified... the best readable and most useful of the great Arabic medical writings".

The authority of this book remained unchallenged until the appearance of Avicenna's book 'Canon of Medicine **(Kanun fi'l-tibb)**. The second was not a substitute for the former but an excellent addition to it.

Samy Haddad, in a lecture at the American University of Beirut said that Al-Ahwazi's book is "one of the

ALI BIN ABBAS AL-AHWAZI

The Analyser of The Medical Science

by
Dr. Ali Abdullah Al-Daffa[c]

Abridged and Translated by
Mr. Said Abdul Aziz Abdullah



Quarterly Journal

Notice:

- All Correspondences should be directed to the Editor-in-Chief

P. O. Box 2945—RIYADH

- Articles are arranged technically, regardless of the writers' prestige.

- This English section contains summaries of some of the essays written in Arabic.

— Saudi Arabia :	Price 2 Riyals, Annual subscription 15 Riyals.
— Kuwait :	Price 250 Fils.
— Bahrain :	Price 500 Fils.
— Arab Emirates :	Price 4 Dirhems.
— Qatar :	Price 4 Riyals.
— West Germany :	Price 2 Deutsch Marks.
— Morocco :	Price 4 Dirhems.
— Tunisia :	Price 350 Mills.
— Egypt :	Price 25 Piastres.
— Other Countries :	Price one U.S. $ Annual subscription 6 U.S. $.



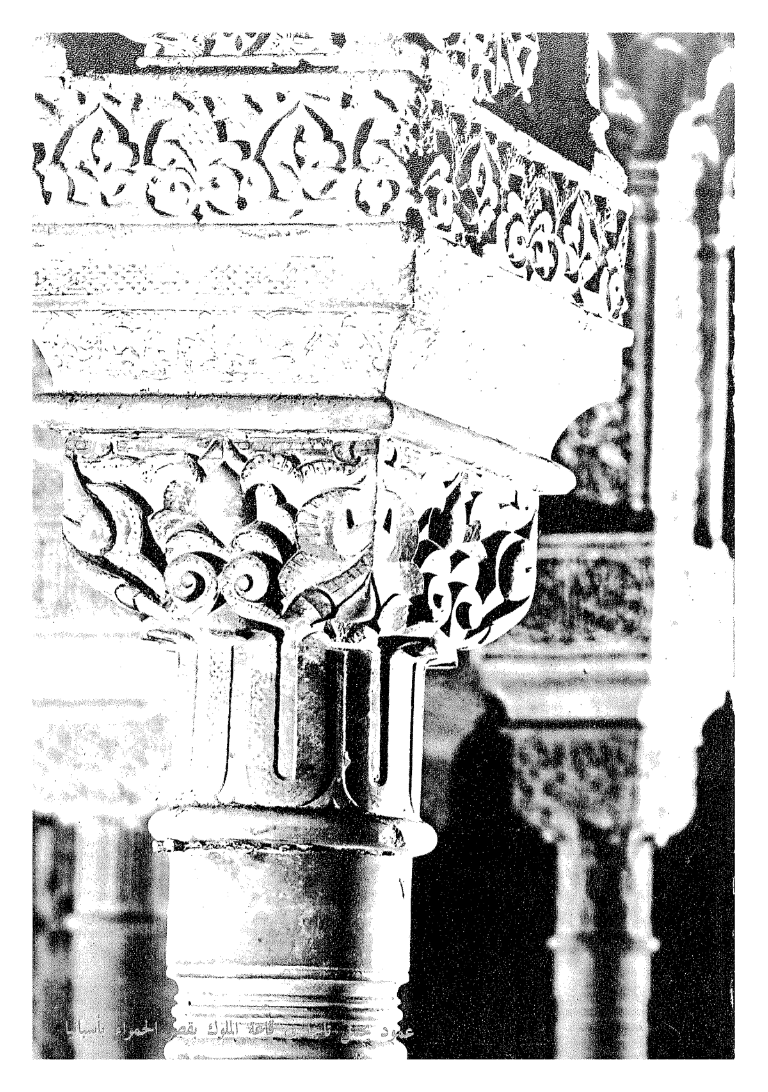
by
King Abdul Aziz Research Centre
Concerned with
the Intelletual and Historical Heritage
of the Kingdom and the Islamic World.

RABI THANI 1403 A.H. EIGHTH YEAR
JAN. 1983 A.D. No. 3
P. O. Box 2945 RIYADH
Tel.: 4412316 KINGDOM OF SAUDI ARABIA

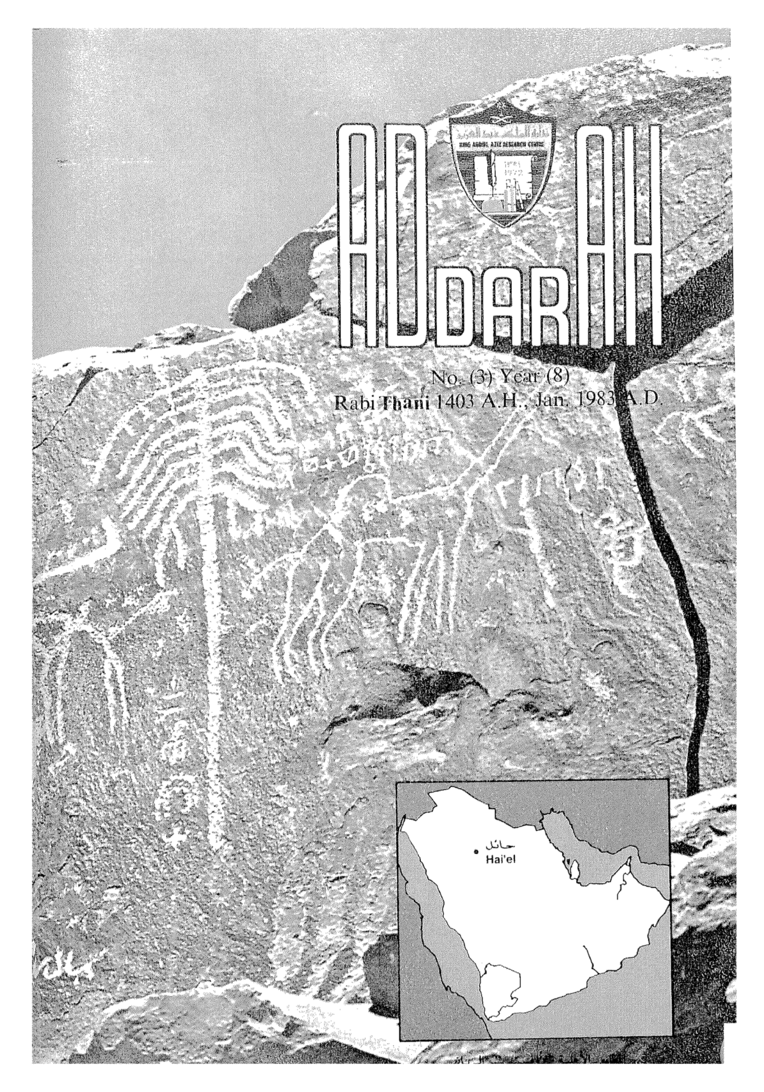


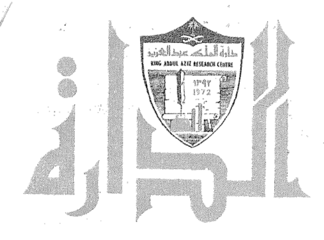
IN THE
NAME OF ALLAH,
THE MERCIFUL,
THE BENEFICENT

المطابع الأهلية للأوفست — الرياض
National Offset Printing Press-Riyadh



عمود يحمل تاجاً ، قاعة الملوك بقصر الحمراء بأسبانيا


ADDARAH
KING ABDUL AZIZ RESEARCH CENTRE
No. (3) Year (8)
Rabi Thani 1403 A.H., Jan. 1983 A.D.
حائل
Hai'el



العدد الرابع - السنة الثامنة - رجب ١٤٠٣هـ - ابريل ١٩٨٣م

الدّولة العثمانيّة والولايات العربيّة.

تراث الفردوس المفقود «الفن الأندلسي».

كشاف «الدارة».

بسم الله الرحمن الرحيم

شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن

هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان

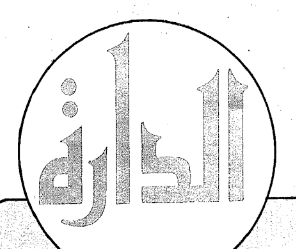
فمن شهد منكم الشهر فليصمه

ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر

البقرة - ١٨٥

صدق الله العظيم





بسم الله الرحمن الرحيم



مجلة فصلية تصدر عن دارة الملك عبد العزيز

العدد الرابع | السنة الثامنة | رجب ١٤٠٣هـ ابريل ١٩٨٣م

دارة الملك عبد العزيز

أنشئت بمقتضى المرسوم الملكى الكريم
رقم م/ ٤٥ في ٥ / ٨ / ١٣٩٢ هـ كهيئة مستقلة،
ذات شخصية اعتبارية، يديرها مجلس إدارة
له كافة الصلاحيات اللازمة لتحقيق أهدافها.
والغرض من إنشائها: خدمة تاريخ المملكة،
وجغرافيتها، وآدابها، وآثارها الفكرية والعمرانية
بخاصة، والجزيرة وبلاد العرب والاسلام بعامة، وذلك
عن طريق انجاز البحوث ونشرها، وجلب الوثائق
والمخطوطات وتحقيقها، واصدار مجلة تحمل اسمها كما أنها
«المركز الوطني للوثائق والمخطوطات» بمقتضى الموافقة السامية
رقم ٥ / ١٢٦٠٨ في ٢٠/ ٥/ ١٣٩٦ هـ.

ص.ب ٢٩٤٥ الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية

ترسل الاشتراكات باسم الأمين العام للدارة
☎ ٤٤١٤٦٨١

الادارة والتحرير
☎ ٤٤١٢٣١٦ - ٤٤١٢٣١٧



ترسل المقالات باسم رئيس التحرير
☎ ٤٤١٧٠٢٠

مدير التحرير
☎ ٤٤١٣٩٤٤

صـــورة الغـلاف

من داخل مسجد السلطان
أحمد الثالث (١٦٧٣:١٧٣٦م)
استانبول ـ تركيا

آراء الكتاب لا تعبر
بالضرورة عن رأي المجلة

ترتيب الموضوعات داخل العدد يخضع لأسباب فنية لا علاقة لها بمكانة الكاتب

لاترد البحوث إلى أصحابها سواء
نشرت أو لم تنشر...



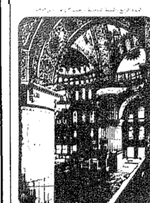
١٥ ريالاً للاشتراك السنوي داخل المملكة العربية السعودية ـ وفي البلاد العربية ما يعادل القيمة ـ ٦ دولارات خارج البلاد العربية.

قيمة العـدد: السعودية ٢ ريال ـ الكويت ٢٥٠ فلسًا ـ
الإمارات العربية ٤ دراهم ـ قطر ٤ ريالات ـ مصر ٢٥ قرشًا ـ
المغرب ٤ دراهم ـ تونس ٣٥٠ مليمًا ـ ألمانيا ٢ مارك
خارج البلاد العربية دولار للعدد

الموزعــون

- **السعودية**: مؤسسة الجريسي للتوزيع
  ص.ب ١٤٠٥ الرياض ـ ت ٤٠٢٢٥٦٤.
- **الكويت**: شركة الربيعان ـ الصفاة
  ص.ب ٢٥٤٠١. ت ٤٤٩٩٩٨.
- **أبو ظبي**: مكتبة المنهل
  ص.ب ٣٧٧٨ أبو ظبي ـ ت ٣٢٣٠١١.
- **دبي**: مكتبة دار الحكمة
  ص.ب ٢٠٠٧ ت ٢٢٨٥٥٢.
- **قطر**: دار الثقافة
  ص.ب ٣٢٣ ت ٤١٣١٨٠.
- **البحرين**: مؤسسة الهلال للتوزيع
  ص.ب ٢٢٤. المنامة ت ٢٦٢٠٢٦.
- **مصر**: مؤسسة الأهرام للتوزيع
  شارع الجلاء ـ القاهرة ت ٧٥٥٥٠٠.
- **تونس**: الشركة التونسية للتوزيع
  ٥ نهج قرطاج.
- **المغرب**: الشركة الشريفية للتوزيع
  ص.ب ٦٨٣ الدار البيضاء ٠٥





الدولة العثمانية والولايات العربية. تراث الفردوس المفقود «الفن الأندلسي». كشاف «الدارة».

في هذا العدد



وَمن خط المجَلة حرصُها ألا تنشر مَقالاً نشر في غيرها، وَمن تقاليد المجَلة أن تعنى بالوثائق، فالعناية بالوثيقة قد دَعتني أن أنشر أسماء الأبطال الذين رافقوا **الإمام البطل السّلطان الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود** هؤلاء الذين رافقوه في استرجاع الريَاض فأسّسُوا قاعدة هذا الكيان الكبير: "المملكة العربيّة السّعوديَة" فقد كانوا سيوفًا في يَد المُجمّع الموحِّد صَانع الوحدة الأنمُوذج **عبدالعزيز**، تغمدَه الله برحمته.

إنّ هؤلاء السَّبعة والأربَعين أعتبر نشر أسمائهم في المجَلة وثيقة، حِفظًا للتّاريخ وتقديرًا للأستاذ سعد بن عَبدالعَزيز الرّويشد الصّديق الذي تعلّمت منه كثيرًا، فقد كان إذا تحدَّث تأخذه عاطفة شامخة كأنّه قد تقمّص بُطولة هَؤلاء الأبطال، لم يصْنع ذلك تظاهرًا أو تظرّفًا، وإنما صَنع ذلك حبًا لأرضِه، صَونًا لتراثه، عشقًا لما وَصلنا إليه. وَلقد مَضى وقت عَلى مثلي - وقد كلفت برئاسة تحرير المجَلة



بقلم : رئيس التحرير

وكلفت بتتبع تاريخ البطل .فعرفت بعضًا من هذه الأسماء المحجّلة بغرة النّصر . كانوا خيلاً على غير خيل ، وكانوا قلّة في العدد كثرة في المدد ، حبّهم لعبدالعزيز لم يُفرض عليهم وإنما هو حبّ عبدالعزيز لهم عطاء بعطاء . رجال عيشهم التمر ، ودفؤهم الجمر، وفطرتهم أن يطلبوا النصر حماية لعقيدة، استرجاعًا لحق، فوجدتني أنشر أسماءهم في مجلة الدارة كوثيقة يعلمها القاصي والداني .

إنّ سعد الرويشد كان واحدًا من الذين حفظوا فلم يبخل، وأمد الله في عمره حتى يجود ، ومضى غيره من العارفين علمنا منهم بعض ما تناثر في أحاديثهم ويؤلمنا أن مَا يعرفونه لم يُدوّن، ولعل بعضه قد دُوّن وما زال في الخفاء فأرجو من عنده مثلما عند سعد الرويشد عن تاريخ عَبد العزيز أن ينشره فليس هُنالك معنى للتخفية ، ولا مجال للخوف ، فالخوف أن يذهب بعض العلم الذي يشرف به تاريخنا

أمام التلجلج أو باللجاجة .

أنشر ذلك وثيقة تاريخية رغم أنها نشرت في جريدة الجزيرة في العدد ٣٧٢١ بتاريخ ١٢ صفر ١٤٠٣هـ الموافق ٢٧ نوفمبر ١٩٨٢م.

اقتصر على نشر الأسماء كما حددها الأستاذ سعد الرويشد يرحم الله الجميع :

١ ـ الأمير محمد بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود (توفي بالرياض عام ١٣٦٤هـ).
٢ ـ الأمير فهد بن جلوي بن تركي آل سعود (قتل عام ١٣٢٠هـ في وقعة مع قحطان).
٣ ـ الأمير عبد العزيز بن جلوي بن تركي آل سعود (قتله ابن عجل صبرًا في معقلا الماء المعروف بين الرياض والكويت عام ١٣٢٤هـ).
٤ ـ الأمير عبد الله بن جلوي بن تركي آل سعود (توفي في الاحساء عام ١٣٥٤هـ).
٥ ـ الأمير عبد العزيز بن مساعد بن جلوي بن تركي آل سعود (توفي عام ١٣٩٧هـ وهو آخر من توفي من المرافقين) بالرياض .
٦ ـ الأمير عبد العزيز بن عبد الله بن تركي آل سعود (توفي بالاحساء عام ١٣٥٦هـ).
٧ ـ الأمير فهد بن ابراهيم بن مشاري آل سعود (قتل في وقعة البكيرية عام ١٣٢٢هـ).
٨ ـ الأمير عبد الله بن سعود بن صنيتان آل سعود.
٩ ـ الأمير ناصر بن سعود بن فرحان آل سعود.

١٠ـ الأمير سُعود بن ناصر بن فرحان آل سُعود.

١١ ـ فهد بن عبد العزيز بن معمر (من كبار المعامرة أهل سدوس قتل عام ١٣٤٠هـ بالقرب من بلدة حائل).

١٢ ـ صالح بن سبعان (من أهل الرياض جرح وقت الاحتلال).

١٣ ـ سعيد بن بيشان (من أهل الدرعية).

١٤ ـ مطلق بن عجيبان (من أهل الرياض).

١٥ ـ إبراهيم بن عبد الرحمن النفيسي (من اهل الرياض جرح وقت الاحتلال).

١٦ ـ مسعود آل مبروك (من أهل الرياض).

١٧ ـ سطام أبا الخيل (من قبيلة الجبلان مطير).

١٨ ـ زيد بن محمد بن زيد من أهل الرياض (قتل وقت الاحتلال).

١٩ ـ فهد بن الوبير (من قبيلة العجمان قتل وقت الاحتلال).

٢٠ ـ حزام بن خزام العجالين الدوسري (من أهل الأفلاج).

٢١ ـ ثلاب بن حمد العجالين الدوسري (من أهل الأفلاج).

٢٢ ـ عبد الله بن شنار الدوسري (من أهل الأفلاج).

٢٣ ـ عبد الله بن عسكر الملقب بالسيد (من أهل الرياض).

٢٤ ـ معضد بن خرصان (من آل شامر آل شايقة العجمان).

٢٥ ـ عبد اللطيف المعشوق الملقب بالشليقي (من أهل الرياض قتل في البكيرية عام ١٣٢٢هـ وهو حامل الراية).

٢٦ ـ فهد المعشوق (من أهل الرياض).

٢٧ ـ محمّد المعشوق الملقب أبوعبيد (من أهل الريَاض).

٢٨ ـ عَبد الله بن صَالح بن مشخص الملقب عويبيل (من أهل الرياض قتل في البكيرية عام ١٣٢٢هـ).

٢٩ ـ يوسف بن صَالح بن مشخص أخو عويبيل (من أهل الرياض قتل في البكيرية عام ١٣٢٢ هـ).

٣٠ ـ مسلم بن مجفل السبيعي (من الصملة سبيع قتل في وقعة الطرفية عام ١٣٢٥هـ).

٣١ ـ سعد بن عبد الله بن عبيد (من أهل ملهم).

٣٢ ـ سَعد بن بخيت آل تركي (من أهل الرياض) والده بخيت مولى للأمير تركي بن الإمام عبد الله ابن فيصل بن تركي.

٣٣ ـ عبد الله بن عثمان الهزاني (من بني هزان أهل الحريق).

٣٤ ـ عبد الله بن حسين بن جريس (من أهل العمارية).

٣٥ ـ ناصر بن عبد الله بن شامان المليحي (من أهل العمارية).

٣٦ ـ محمد بن هزاع (من أهل الدرعية قتل في البكيرية عام ١٣٢٢هـ).

٣٧ ـ خليفة بن بديع (من أهل الدرعية).

٣٨ ـ عبد الله بن خنيزان (من أهل الرياض).

٣٩ ـ منصور بن محمد بن حمزة (من أهل الرياض قتل في بلدة ثرمدا في سرية مع عبد الله بن جلوي عام ١٣٢١هـ).

٤٠ ـ منصور بن فريح (من موالي الملك عبد العزيز قتل في البكيرية عام ١٣٢٢هـ).

٤١ ـ محمّد بن شعيل (من أهل الدرعية).

٤٢ ـ مطلق المغيزبي (من أهل الرياض).

٤٣ ـ ماجد بن تركي بن مرعيد (من قبيلة الظفير وهو حليف للجمالين سبيع).

٤٤ ـ فرحان آل سُعود (من موالي آل سُعود).

٤٥ ـ فيروز آل عبد العزيز (من موالي الملك عبد العزيز).

٤٦ ـ مناور العنزي (من قبيلة عنزة).

٤٧ ـ نافع الحربي (من قبيلة حرب).

محمد حسين زيدان



«المصمك»



د. عبد الفتاح لاشين السيد

ألفاظ القرآن الكريم

تمتاز الكلمة القرآنية بأنها خفيفة على السمع ، سهلة على النطق ، تدل على المعنى بيسر وسهولة .

والقرآن الكريم حينما يستعمل كلمة مّا في تعبير ، يقصد من استعمالها بعينها دون غيرها معنى لايوجد في سواها ، وقد يظن صاحب الفطرة النقية ، والسليقة العربية أنه بالإمكان التغيير والتبديل ، ولكن هذه قدرة بشر – مهما بلغت – فأين هي من قدرة الله ؟ ، وأين هذا من صنعه ؟ « صُنْعَ اللَّه الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْء ، إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُون » (النمل ٨٨) .

ولقد زعمت الأعراب – يوما – الإيمان ، ويحكي القرآن الكريم قولهم فيقول : « قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا » ولكن الله – سبحانه – يرشدهم إلى التعبير الصحيح ، ويدلهم على الكلمة التي تفصح عما في نفوسهم ، وتكشف عما في صدورهم ، فيقول : « قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ، ولكِنْ قُولُوا : أَسْلَمْنَا ، وَلمَّا يدْخُلِ الإيمانُ في قُلُوبكم» (الحجرات ١٤) .

فالدقة في التعبير ، والحيطة في استعمال الكلمة ، مطلب قرآني حرص عليه ، ونبه الفطر السليمة إليه ، حتى لا تضل المعاني في الأفهام ، ويضيع المقصود بين الاحتمالات .

وسنرى من خلال كلام ابن القيم مايوضح هذا ، فإلى حديث ابن القيم .

حديث ابن القيم عن اختيار اللفظ ، واصطفاء الكلمة في القرآن حديث يطول ، ولتحديد الفائدة ، سيكون حديثنا مقصورا على نقطتين :**أولاهما** – الكلمة المعرفة أو المنكرة ، ثانيتهما – اللفظ إذا وقع مفردا أو مثنى أو مجموعا .

أولاً : الكلمة المعرفة أو المنكرة

لفظ (السلام) تعريفه أو تنكيره :

تحدث ابن القيم تحت عنوان (**مسألة**) عن تحية الإسلام « سلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ، وقال : إن في هذا التسليم ثمانية وعشرين سؤالاً ، وقد استغرقت إجابته

عن هذه الأسئلة مايقرب من سبعين صفحة من كتابه «بدائع الفوائد» .

وها نحن نمعن النظر ، ونمتع السمع بما حوته هذه الإجابات من أسرار للتعريف أو التنكير في كلمة «السلام» ، يقول : (١)

«ما الحكمة في ابتداء «السلام» بلفظ النكرة ، وجوابه بلفظ المعرفة ، فنقول : سلام عليكم ، ويقول الراد: عليكم السلام» ؟ .

وقبل أن يجيب يذكر مقدمة وتمهيدًا يصل عن طريقه إلى السر في ذلك ، فيقول : «الجواب عنها بذكر أصل تمهده نرجع إليه مواقع التعريف والتنكير في السلام وهو : أن (السلام) دعاء وطلب ، وهم في ألفاظ الدعاء والطلب ، إنما يأتون بالنكرة إما مرفوعة على الابتداء ، أو منصوبة على المصدر ، فمن الأول : ويلٌ له ، ومن الثاني : خيبةً له وجَدْعًا ، وعَقْرًا ، هذا في الدعاء عليه ، وفي الدعاء له . سقياً ورَعْيًا ، وكرامةً ومسرَّةً» .

ثم جاء بالجواب ، وأتى بالسر في تنكير السلام ، فقال : «فجاء (سلام عليكم) بلفظ النكرة ، كما جاء سائر ألفاظ الدعاء» .

ثم تعرض للسر في تعريف لفظ (السلام) من جانب الراد ، فقال :

«**وأما تعريف (السلام) في جانب الراد ، فنذكر أيضًا أصلاً يعرف به سره وحكمته ، وهو : أن الألف واللام إذا دخلت على اسم (السلام) تضمنت أربع فوائد .**

إحداها : الإشعار بذكر الله تعالى ، لأن (السلام) المعرف من أسمائه .

الثانية: الإشعار بطلب لمعنى السلامة منه للمسلم عليه .

الثالثة : أن الألف واللام يلحقها معنى العموم في مصحوبها ، والشمول فيه .

الرابعة : أنها تقوم مقام الإشارة إلى المعين ، كما تقول : ناولني الكتاب ، واسقني الماء ، وأعطني الثوب ، لما هو حاضر بين يديك ــ فإنك تستغنى بها عن قولك : هذا ، فهي مؤدية معنى الإشارة .

وإذا عرفت هذه الفوائد الأربع ، فقول الراد : وعليك السلام ـ بالتعريف متضمن للدلالة على أن مقصوده من الرد مثل ما ابتدئ به ، وهو هو بعينه ، فكأنه قال : ذلك السلام الذي طلبته مردودٌ عليك ، فلو أتى بالرد منكرًا لم يكن فيه إشعار بذلك ، لأن المعرف وإن تعدد ذكره ، واتحد لفظه ، فهو شيء واحد ، بخلاف المنكر.

ومَن فهم هذا ، فهم معنى قول النبي — صلى الله عليه وسلم — « لن يغلب عُسرٌ يُسْرَيْن » مشيرًا إلى قوله تعالى : « فَإِنَّ معَ العُسرِ يُسرًا * إِنَّ مَعَ العُسرِ يُسرًا » (الشرح ٥ ، ٦) فالعسر وإن تكرر مرتين ، وتكرر بلفظ المعرفة فهو واحد ، واليسر تكرر بلفظ النكرة فهو يسران ، فالعسر محفوف بيسرين : يسر قبله ، ويسر بعده ، فلن يغلب عسر يسرين.

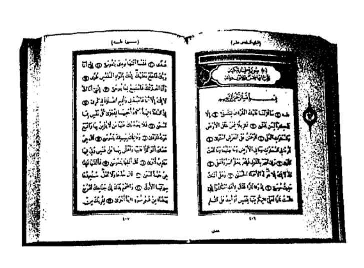
وفائدة ثانية : وهي أن مقامات رد السلام ثلاثة : مقام فضل ، ومقام عدل ، ومقام ظلم ، فالفضل : أن ترد عليه أحسن من تحيته ، والعدل : أن ترد عليه نظيرها ، والظلم : أن تبخسه حقه ، وتنقصه منها ، فاختير للراد أكمل اللفظتين، وهو المعرف بالأداة التي تكون للاستغراق والعموم كثيرًا ، ليتمكن من الإتيان بمقام الفضل.

وفائده ثالثة : وهي أن المناسب تقديم (المسلم عليه) على (**السلام**) ، فلو نكره ، وقال عليك سلام ، لصار بمنزلة : (**عليك دين ، وفي الدار رجل**) فخرج مخرج الخبر المحض ، وإذا صار خبرا بطل معنى التحية ، لأن معناها الدعاء والطلب ، فليس بمسلِّم من قال : عليك سلام.

فتعريف (السلام) في الرَّادِّ باللام إشعار بالدعاء للمخاطب ، وأنه راد عليه التحية ، طالب له السلامة من اسم (السلام).

استبانة وجوابها :

وإذا كان تعريف لفظ (السلام) هو الأبلغ في الرَّد ، والأحسن في التحية ، فلماذا جاء (السلام) من الله تعالى بلفظ النكرة فقال تعالى في جزاء المتقين :



« جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ من آبائهم وأزْوَاجهم وذُرِّيَّاتِهم ، والمَلاَئِكَةُ يدْخُلُونَ عليْهِم مِنْ كلِّ بابٍ ، سَلاَمٌ عَلَيْكُم بما صَبَرتُم ...» (الرعد ٢٣ ، ٢٤) ؟

يقول ابن القيم في الإجابة عن هذا السؤال :[٢]

« قد تقدم أن لدخول اللام في (السلام) أربع فوائد ، وهذا المقام مستغن عنها ، لأن المتكلم بالسلام هو الله تعالى ، فلم يقصد تبركا بذكر الاسم كما يقصده العبد ، فإن التبرك استدعاء البركة واستجلابها ، والعبد هو الذي يقصد ذلك .. وهو غير لائق هنا ، لأن سلامًا منه تعالى كاف من كل سلام ، ومغن عن كل تحية ، ومقرب من كل أمنية ، فأدنى سلام منه يستغرق الوصف ، ويُتم النعمة ، ويدفع البؤس ، ويطيب الحياة ، ويقطع موارد العطب والهلاك ، فلم يكن لذكر الألف واللام هنا معنى .

وتأمل قوله تعالى · « وعد اللهُ المُؤْمِنينَ والمُؤْمِناتِ جنَّاتٍ تَجْري من تَحْتِها الأَنْهَارُ خالدين فيها ، ومساكنَ طيِّبةً في جنات عَدْنٍ ، ورِضْوَانٌ من الله أَكْبَر» . (التوبة ٧٢) .

كيف جاء بـ (رضوان) مبتدأ مخبراً عنه بأنه أكبر من كل ما وعدوا به ، فأيسر شيء من رضوانه أكبر من الجنات ، ومافيها من المساكن الطيبة وماحوته ، ولذلك لما يتجلى الله لأوليائه في جنات عدن ، ويمنيهم أي شيء يريدون ؟ .

فيقولون: رَّبنا ، وأي شيء نريد أفضل مما أعطينا ؟ .

فيقول تبارك وتعالى : «إن لكم عندي أفضل من ذلك ، أحل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعده أبدا» .

ولأن (السلام) مادام من الله تعالى فهو يكفي عن كل تحية ، ويغني عن كل دعاء ، وقليل من الله تعالى لايقال له قليل ، لهذا جاء التنكير في سلام الله تعالى ليحيي — عليه السلام — في قوله : « وسلامٌ عَلَيْه يَوْمَ وِلدَ ويَوْمَ يَمُوتُ ويَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا » (مريم ١٥) ، وعرف (السلام)[٣] عندما سلم المسيح على نفسه في قوله تعالى حكاية عنه : « والسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ ويَوْمَ أمُوتُ ويَوْمَ أبْعَثُ حَيًّا » (مريم ٣٣) .

ثم إن ابن القيم يأتي بسؤال عن سبب تنكير لفظ (السلام) في أول رسالة يبعثها الرسول صلى الله عليه وسلم لهرقل — عظيم الروم — يقول فيها :

« من محمد — رسول الله — إلى هرقل — عظيم الروم — سلام على من اتبع الهدى »

وتعريف لفظ (السلام) في قول موسى — عليه السلام — لفرعون ، في قوله تعالى : « والسَّلاَمُ عَلَى مَن اتَّبَعَ الهُدَى » (طه ٤٧) ، وما السر في ذلك . ؟ .

ويجيب ابن القيم عن هذا السؤال بقوله :[٤]

«في تنكير لفظ (السلام) مافي تنكير (سلام) من الحكمة — يشير إلى أن التنكير : المراد منه : الدعاء ، كما في قولهم : (ويلٌ له ، وخيبةً له ، وسقْيًا له ، ورَعْيًا) — كما تقدم بيانه.

وأما قول موسى — عليه السلام — «والسَّلاَمُ عَلَى مَن اتَّبَعَ الهُدَى» فليس بتحية ، فإنه لم يبتدئ به فرعون ، بل هو خبر محض ، فإن من اتبع الهدى ، له

(السلام) المطلق ، دون من خالفه ، فإن موسى قال لفرعون : «فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيل ولاَ تُعَذِّبْهُم ، قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ من رَبِّكَ ، والسَّلاَمُ عَلَى مَن اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ العَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وتَوَلىَّ» (طه ٤٧ ، ٤٨) .

أفلا ترى أن هذا بتحية ، فليس (السلام) في ابتداء الكلام ولا خاتمته ، وإنما وقع متوسطا بين الكلامين إخبارا محضا عن وقوع السلامة وحلولها على من اتبع الهدى ؟ .

ففي ذلك استدعاء لفرعون وترغيب له ، بما جبلت النفوس على حبه وإيثاره من السلامة ، وأنه إن اتبع الهدى الذي جاء به فهو من أهل السلامة .

وهكذا نرى ابن القيم يحلق في الأجواء القرآنية ، ويستخرج من أسرار التعبير في تحية الإسلام «سلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ، ويورد ثمانية وعشرين سؤالا ، ويجيب عنها ، ويطوف في علوم العربية أجمع ، ويتعرض في خلال إجابته لأسباب التعريف والتنكير للفظ (السلام) ، والأسرار البلاغية لكل منهما ، ويقلب الأمر ظهرًا لبطن بإيراد الأمثلة ، وإبراز الشواهد القرآنية التي توضح مايريد ، ويدخل على القارئ الطمأنينة والانشراح ، ويمتع القارئ بما وصل إليه من نتائج ، وحصل عليه من لطائف وطرائف .

● ● ●

وفي تتبعنا لابن القيم في كتابه (بدائع الفوائد) وجدنا أنه قد عاد لمثل هذا الحديث وأتى بما يدعو إلى البحث والتدبير ، فقال : (٥)

«وهنا نكتة بديعة ينبغي التفطن إليها ، وهي أن (السلام) شرع على الأحياء والأموات بتقديم اسمه تعالى على المسلم عليهم ، لأنه دعاء بخير ، والأحسن في دعاء الخير أن يتقدم الدعاء به على المدعوله ، كقوله تعالى :

«رَحْمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه عَلَيْكُم أَهْلَ البَيْت» (هود ٧٣) .

«سَلاَمٌ عليكُم بِمَا صَبَرْتُمْ» (الرعد ٢٤) .

«سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِى العَالَمِينَ» ، « سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ » ، « سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ » (الصافات ٧٩ ، ١٠٩ ، ١٣٠) .

وأما الدعاء بالشر فيقدم فيه المدعو عليه على المدعو به — غالبًا — كقوله تعالى لإبليس :

« وإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى » (ص ٧٨) .

« وإِنَّ عَلَيْكَ الَّلعْنَةَ » (الحجر ٣٥) .

« عَلَيْهِم دَائِرَةُ السَّوْء » (الفتح ٦) .

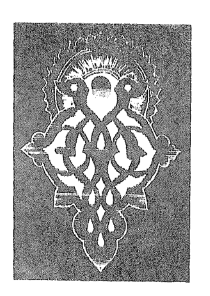
« فعَلَيْهِم غَضَبٌ » (النحل ١٠٦) .

وسر ذلك — والله أعلم — أن في الدعاء بالخير قدموا اسم الدعاء المحبوب الذي تشتهيه النفوس وتطلبه ، ويلذ للسمع لفظه ، فيبدأ السمع بذكر الاسم المحبوب المطلوب ، فيحصل له من السرور والفرح ما يبعث على التواد والتحاب والتراحم الذي هو المقصود بالسلام .

وأما في الدعاء عليه ، ففي تقديم المدعو عليه إيذان باختصاصه بذلك الدعاء ، وأنه عليه وحده ، كأنه قيل لك : هذا عليك وحدك لا يشركك فيه السامعون ، بخلاف الدعاء بالخير فإن المطلوب عمومه ، وكل ماعم به الداعي كان أفضل » .

فهذه التحية — تحية الإسلام — لا ينبغي أن تكون حشدا من الكلمات ، يؤتي بها كما اتفق ، يقدم هذه ، ويؤخر هذه ، أو يعرف تلك وينكر تلك دون نظام أو رباط — كلا —

بل في تلك التحية ، وفي نظامها — في التعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير — لطائف طريفة ، وأسرار عظيمة ، مكنونة بين السطور ، أظهرها ابن القيم ، وأخرجها من مكانها ، ولو تعقلها كل بادئ بالسلام أو رَادٌّ عليه ، لأدخل على القلب السرور ، وملأه بالبشر والحبور ، وأشاع في نفسه معنى السلام والوئام .



ثانيًا : اللفظ إذا وقع مفردا ، أو مثنى ، أو مجموعًا

إذا أمعنا الفكر في الألفاظ عند استعمالها في أساليب القرآن الكريم ، ودققنا النظر في آيات الذكر الحكيم ، واستوفينا الكشف عنها في التعبير الرباني ، وقفنا على أسرار عظيمة ، ووجدنا لطائف عجيبة ، ورأينا أنه يذكر في كل موضع مايلائمه منها ، ويوضع كل لفظ في محله الذي يليق به .

والمشاهد في تعبيرات القرآن الكريم أنه تارة يستعمل لفظ المفرد دون جمعه ، وتارة أخرى يستعمل لفظ الجمع دون مفرده ، ولو حاولنا التغيير والتبديل ، أو إحلال أحدهما محل الآخر ، فسد التعبير ، وذهبت حلاوته ، وفاتته طلاوته .

السماء والأرض :

والباحث في ألفاظ القرآن يلاحظ أنه حيث ذكر (الأرض) فإنه يجدها مفردة دائمًا ، فيقال :(أرض) ، ولم تأت جمعًا ، ولذلك لم نجد في القرآن (أرَضُون) ، وحينما جاءت في الأسلوب القرآني جمعا قال : « اللَّهُ الذِى خَلَق سَبْعَ سَمٰوٰاتٍ وِمِنَ الأرْضِ مِثْلَهُنّ » (الطلاق ١٢) فأتى القرآن بثلاثة ألفاظ تدل على الجمع بدلاً من (أرَضُون) ، وهذا بخلاف (السماء) ، فقد وردت في القرآن تارة بصيغة المفرد ، وأخرى بصيغة الجمع .

وهذه الظاهرة في الأسلوب القرآني لفتت نظر الجاحظ ، فعلق عليها ، فقال : [٦] «قد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها... ولفظ القرآن الذي عليها أنه إذا ذكر (سبع سموات) لم يقل (الأرضين)، ألا تراه لايجمع (الأرضين) على (أرضين) ، ولا (السمع) على (أسماع) ، والجاري على أفواه العامة خلاف ذلك» .

فالجاحظ لاحظ هذه الظاهرة في الأسلوب القرآني ، وأن العامة تخطىء حينما تشذ عن ذلك ، ولكنه لم يعلل لها .

لكن ابن القيم التمس لهذه الظاهرة العلة ، وبين السبب ، فقال : [٧] «فإن قلت : لم جمعوا (السماء) فقالوا : (السموات) ، وهلا راعوا فيها ماراعوا في الأرض فإنها مقابلة ، فما الفرق بينهما ؟»

ويجيب على هذا السؤال ، فيقول :

«قيل : بينهما فرقان ، فرق لفظي ، وفرق معنوي .

فأما اللفظي : فإنهم لو جمعوا (أرضا) على قياس جموع التكسير لقالوا (أَرْضُض) كأفْلُس ، أو (أراض) كأجمال ، أو (أُرُوض) كفُلُوس ، فاستثقلوا هذا اللفظ ، إذ ليس فيه من الفصاحة والحسن والعذوبة ما في لفظ (السموات) ، وأنت تجد اللفظ ينبو عنه بقدر ما نستحسن لفظ (السموات) ولفظ (السموات) يلج في السمع بغير استئذان لنصاعته وعذوبته ، ولفظ (الأراضي) لا يأذن له السمع إلا على كره ، ولهذا تفادوا من جمعه إذا أرادوه بثلاثة ألفاظ تدل على التعدد ، كما قال تعالى « خَلَق سَبْعَ سَموات ٍوَمِنَ الأَرْض مِثْلَهُنَّ » . كل هذا تفادياً من أن يقال : (أراض ، أو أُرُض) .

وأما الفرق المعنوي : فإن الأرض هي دار الدنيا التي هي بالإضافة إلى الآخرة كما يدخل الإنسان أصبعه في اليم ، والله تعالى لم يذكر الدنيا إلا مقللاً لها محقرًا لشأنها ، وأما السموات فهى مقر ملائكة الرب تعالى ، ومحل دار جزائه ، ومهبط ملائكته ووحيه » .

ولكن متى يُفرد لفظ (السماء) ومتى يُجمع في أساليب القرآن ؟

يجد ابن القيم لذلك السؤال جوابًا ، ويلتمس له سبباً، فيقول[8] :

« إذا أريد الوصف الشامل للسمٰوات ـــ وهو معنى العلو والفوق ـــ أفردوا ذلك بحسب مايتصل به من الكلام والسياق ، ويعبر عنها بلفظ الجمع إذا كان المقصود ذواتها ـــ لا مجرد العلو والفوق » .

ثم يأتي بالشواهد الكثيرة من القرآن الكريم ليؤكد ذلك ، فيقول :

« **فتأمل قوله تعالى : « أَأَمِنْتُم مَنْ فى السَّماءِ أنْ يَخْسِفَ بكُم الأرْضَ ، فإذا هِيَ تَمُورُ ، أمْ أمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أنْ يُرْسِلَ عليْكُم حَاصِبًا » (الملك ١٦ ، ١٧) ، كيف أفردت هنا ؟ ، لما كان المراد الوصف الشامل ، والفرق المطلق ، ولم يرد سماء معينة مخصوصة .**

وكذا قوله تعالى : « ومَا يَعْزُبُ عنْ رَبِّك مِنَ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فى الأَرْضِ ولا فى السَّماء » (يونس ٦١) .

بخلاف قوله تعالى : « **عَالمِ الغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْه مِثْقَالُ ذرّة فى السَّمَوات ولاَ فى الأَرْض** » (**سبأ ٣**) **فإنه** ذَكَر ـــ سبحانه ـــ سعة ملكه ومحله ـــ وهو السموات كلها والأرض ـــ ولما لم يكن في سورة يونس ما يقتضي ذلك أفردها للجنس .

وتأمل كيف أتت مجموعة في قوله تعالى : « **وهُوَ اللّهُ في السَّمواتِ وفى الأرْض يَعْلَمَ سِرَّكُمْ وجَهْرَكُم** » «**الأنعام ٣**) فإنها أتت مجموعة هنا لحكمة ظاهرة ـــ وهي تعلق الظرف بما في اسمه تبارك وتعالى من معنى الإلهية ، فالمعنى : هو الإله المعبود في كل واحدة واحدة من السموات ، ففي كل واحدة من هذا الجنس هو الإله المعبود ، فذِكْر الجمع هنا أبلغ ، وأحسن من الاقتصار على لفظ الجنس الواحد » .

وبناء على هذا الفهم في قوله تعالى : « **وهُوَ اللّهُ في السَّمواتِ وفى الأَرْض** » يُخطِّئ ابن القيم بعض المتسننة في الوقوف على لفظ (السموات) ، ثم يستأنف الكلام بعد ذلك ، فيقول : « ولما عزب هذا المعنى عن فهم بعض المتسننة فسر الآية

بما لا يليق بها ، فقال : الوقف التام على (السموات)، ثم يبتدئ بقوله : «وفي الأرض يعلم سركم» .

وغلط في فهم الآية ، وإن معناها ما أخبرتك به ، وهو قول محققي أهل التفسير» .

ثم يستأنف ابن القيم الاستشهاد بالآيات القرآنية ، فيقول :

« وتأمل كيف جاءت (السماء) مفردة في قوله تعالى : « **فَوَرَبِّ السَّماءِ والأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُم تَنْطِقُون** » (**الذاريات ٢٣**) إرادة لهذين الجنسين ، أي رب كل ماعلا ، وكل ما سفل ، فلما كان المراد عموم ربوبيته أتى بالاسم الشامل لكل مايسمى سماء ، وكل ما يسمى أرضا .

وانظر كيف جاءت مجموعة في قوله «يُسَبِّح لِلَّه مَا فِى السَّمٰوَاتِ ومَا فِى الأَرْض » (الجمعة ١) في جميع السور(٩) ، لما كان المراد الإخبار عن تسبيح سكانها على كثرتهم ، وتباين مراتبهم ، لم يكن بد من جمع محلهم .

ونظير هذا جمعها في قوله : « **وَلَهُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ ومَنْ فِى الأَرْض ومَنْ عِنْدَهَ لاَ يَسْتَكبِرُون عن عِبَادَتِه ولاَ يَسْتَحْسِرُون** » (**الأنبياء ١٩**) .

وكذلك جاءت في قوله : « **تُسَبِّح لَهُ السَّمواتُ السَّبْعُ** » (**الإسراء ٤٤**) مجموعة ، إخبارا بأنها تسبح له بذواتها وأنفسها على اختلاف عددها ، وأكد هذا المعنى بوصفها بالعدد ، ولم يقتصر على السموات فقط ، بل قال : السبع .

وانظر كيف جاءت مفردة في قوله تعالى : « **وَفِى السَّماءِ رِزْقكُم ومَا تُوعَدُون** » (**الذاريات ٢٢**) فالرزق : المطر ، وما وعدنا به : الجنة ، وكلاهما في هذه الجهة ، لا أنهما في كل واحدة واحدة من السموات، **فكان** لفظ الإفراد أليق بها.

ثم تأمل كيف جاءت مجموعة في قوله : « **قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ في السَّمواتِ والأَرْضِ الغَيْبَ إلاَّ اللَّه** » (**النحل**) لما كان المراد نفي علم الغيب عن كل من هو في واحدة واحدة من السموات أتى بها مجموعة .

وتأمل كيف لم يجئ في سياق الإخبار بنزول الماء منها إلا مفردة حيث وقعت، لما لم يكن المراد نزوله من ذات السماء بنفسها، بل المراد الوصف.

وبعد أن يصل ابن القيم إلى هذه النتائج الطيبة ، ويكشف عن تلك الأسرار العظيمة ، ويلتمس الأسباب لجمع لفظ (السموات) وإفرادها ، يجد أن هناك آيتين من القرآن الكريم يبدو أنهما في المعنى سواء ، لكن إحداهما جاء فيها السماء مفردة ، وفي الثانية جاءت مجموعة .

فالآية الأولى قوله تعالى : « **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِن السَّماءِ والأرْضِ أمْ مَنْ يَمِلكُ الأَسْمَاع والأَبْصَار ، ومَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ من المَيِّتِ ، ويُخْرِجُ المَيِّتَ من الحَيِّ ، ومَنْ يُدَبِّرُ الأَمْر؟ ، فسَيَقُولُون اللّه** » . (**يونس ٣١**) .

والآية الثانية: «**قل منْ يَرزُقكُم من السَّمواتِ والأرض، قُلْ الله**» (**سبأ ٢٤**).

وقد التمس ابن القيم سببا لهذا الاختلاف ، وتوجيها لطيفا له ، فقال :

« قيل : هذا من أدق المواضع وأغمضها وألطفها فرقا ، فإن الآيات التي في يونس سيقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به ، ولم يمكنهم إنكاره من كون الرب تعالى هو رزاقهم ، ومالك أسماعهم وأبصارهم ، ومدبر أمورهم . ومخرج الحي من الميت ، والميت من الحي ، فلما كانوا مقرين بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم ... ولهذا قال بعد أن ذَكَر أنَّ ذلك من شأنه تعالى : « فسيقولون الله » أي لابد أنهم يقرون بذلك ولا يجحدونه .

فالمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء التي يشاهدونها بالحس ، ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى تنتهي إليهم ، ولم يصل علمهم إلى هذا ، فأفردت لفظ (السماء) هنا ، لأنهم لا يمكنهم إنكار مجيء الرزق منها ... فخوطبوا بما هو أقرب الأشياء إليهم بحيث لا يمكنهم إنكاره .

وأما الآية التي في سبأ ، فلم ينتظم بها ذكر إقرارهم بما ينزل من السموات ، ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها ، ولم يذكر عنهم أنهم هم المجيبون المقرون

فقال : « قُلْ مَنْ يَرزُقُكم مِن السموات والأرْضِ؛ قل : اللّه » ولم يقل : فسيقولون الله ، فأمر تعالى نبيه (ﷺ) أن يجيب بأن ذلك هو الله وحده الذي ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السموات السبع » .

وهكذا نجد أن التعبير في القرآن الكريم لم يجمع لفظ (أرض) واستغنى عن جمعه بثلاثة ألفاظ استبعادا للجمع الذي لا يورث الكلام حسنا ، ولا يصفه بالصفاء والنقاء .

وعندما يستعمل القرآن لفظ (السماء والأرض) مفردا أو جمعا فإنما يستعملها في محلها اللائق بها ، وفي موضعها المناسب لها ، ولو حاولنا التغيير أو التبديل أو إحلال المفرد محل الجمع أو الجمع محل المفرد ، تبدل المعنى ، وانعكس المقصود .

الريح والرياح :

وبعد أن ينتهي من الكشف عن الأسرار البلاغية لإفراد لفظ (السماء) وجمعها ، أضاف إلى ذلك ألفاظا أخرى وردت في آيات الذكر الحكيم ، تفرد وتجمع لأسباب بلاغية ، يتذوقها السامع عند البحث والدراسة ، منها (الريح والرياح) ، فيقول :[(١١)]

« ومن هذا الباب ذكر (الرياح) في القرآن جمعا ومفردا ، فحيث كانت في سياق الرحمة أتت مجموعة ، وحيث وقعت في سياق العذاب جاءت مفردة .

وسر ذلك : أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمهابّ والمنافع ، وإذا هاجت منها ريح أنشأ لها مايقابلها ، ومايكسر سورتها ، ويصدم حدتها ، فينشأ من بينهما ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات، فكل ريح منها في مقابلها ما يعد لها، ويرد سورتها ، فكانت في الرحمة رياحا .

وأما في العذاب : فإنها تأتي من وجه واحد ، لايقوم لها شيء ، ولايعارضها غيرها ، حتى تنتهي إلى حيث أمرت ، لايرد سورتها ، ولايكسر شرتها ، فتمتثل ما أمرت به ، وتصيب ما أرسلت إليه ، ولهذا وصف ـــ سبحانه ـــ الريح التي أرسلها على عاد بأنها عقيم ، فقال : « وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم الرِّيحَ العَقِيم » (الذاريات

٤١) ، وهي التي لا تلقح ولا خير فيها ، والتي تعقم مامرت عليه »

وحينما نستقريء أساليب القرآن الكريم نلاحظ لفظ (الريح) يأتي مفردًا وجمعًا ، ولكل كلمة منها مقام ، فحيث ذكرت (الريح) في سياق الرحمة جاءت مجموعة ، كقوله تعالى :

« **اللَّهُ الذَّى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِير سَحَابًا** » (الروم ٤٨)
« **ومِنْ آياتِه أنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ** » (الروم ٤٦) .
وأرْسَلْنَا الرِّيَاح لَوَاقِح » (الحجر ٢٢) .

وحيث ذكرت في سياق العذاب أتت مفردة ، كقوله تعالى :

« **فأرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي أيَّامٍ نَحِسَاتٍ** » (فصلت ١٦) .
« **فأرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا وَجُنُودًا لمْ تَرَوْهَا** » (الأحزاب ٩) .
« **وأمَّا عَادٌ فأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ** » (الحاقة ٦) .

ولهذا قال النبي ﷺ فيما رواه ابن عباس ، يقول : هاجت ريـــح أشفق منها رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فاستقبلها وجثا على ركبتيه ، ومد يديه إلى السماء، ثم قال : «اللهم اجعلها رياحا ، ولاتجعلها ريحا ، اللهم اجعلها رحمة ، ولا تجعلها عذاباً». (١٢)

وقد اطرد ذلك في القرآن الكريم ، ولم يشذ إلا في آية واحدة ، وهي قوله تعالى : « **هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُم فِي البَر والبَحْرِ حَتَّى إذَا كُنْتُمْ فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ** » (يونس ٢٢) .

فقد ذكر في الآية (ريح) الرحمة بالإفراد ـــ على عكس القاعدة ـــ فقال : «بِرِيحٍ طَيِّبَة» ، فلماذا هذا الاختلاف ؟ .

يعلل ابن القيم لهذا الاختلاف في الآية تلك بقوله : (١٣)

«لأن تمام الرحمة هناك ـــ يقصد في البحر ـــ إنما تحصل بوحدة الريح ، لا باختلافها ، فإن السفينة لاتسير إلا بريح واحدة من وجه واحد سيرها ، فإذا

اختلفت عليها الرياح، وتصادمت، وتقابلت، فهو سبب الهلاك، فالمطلوب هنا ريح واحدة لا رياح، وأكد هذا المعنى بوصفها بالطيب دفعاً لتوهم أن يكون ريحاً عاصفة، بل هي مما يفرح بطيبها».

ونحس بسروره الشديد لاهتدائه إلى هذه الأسرار، وتوفيقه في تلك التوجيهات، ووقوفه على تلك اللطائف، ووقوعها على السمع موقع القبول، وعلى السامع موقع الرضا، فيقول: «فلينزه الفطن بصيرته في هذه الرياض المونقة المعجبة التي ترقص القلوب لها فرحا، ويتغذى بها عن الطعام والشراب، والحمد لله الفتاح العليم.

فمثل هذا الفصل يعض عليه بالنواجذ، وتثنى عليه الخناصر، فإنه يشرف بك على أسرار وعجائب تجتنيها من كلام الله، والله الموفق للصواب».

وحق لابن القيم أن يفخر بما وفقه الله من التوصل إلى هذه اللطائف العجيبة، والطرائف الغريبة، والتي ينبغي أن ينزه الإنسان نظره فيها، ويمتع قلبه وعقله بالسماع إليها، ونظره بقراءتها، كما يجب الحرص عليها، إذ هي مما يعض عليها بالنواجذ، وتثنى عليه الخناصر.

الظلمات والنور، سُبُل الباطل وسبيل الحق، الشمائل واليمين:

هناك ألفاظ أخرى تجمع وتفرد في أساليب القرآن الكريم، ولجمعها وإفرادها في مواضعها أسرار ولطائف يتذوقها السامع أو القارئ عند البحث، أو الإمعان في الدراسة.

فتجمع كلمة (الظلمات)، وتفرد كلمة (النور)، يقول تعالى: «**الحَمْدُ لِلَّه الَّذِي خَلَقَ السَّموات والأَرضَ وجَعَلَ الظُّلُماتِ والنُّورَ، ثُمَّ الَّذِين كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُون**» (الأنعام ١).

وتجمع (سُبُل الباطل)، ويفرد (سبيل الحق)، يقول تعالى: «**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مسْتَقِيما فاتَّبِعُوهُ ولاَ تَتَّبِعُوا السُّبُل فَتَفَرَّق بِكمُ عَنْ سَبِيله**» (الأنعام ١٥٣).

وجمع الله جهة (الشِّمال) ، وأفرد جهة (اليمين) ، يقول تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ من شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ اليَمِينِ والشمائل سُجَّدًا لِلَّه وهُمْ دَاخِرون » (النحل ٤٨) .

فما السبب في جمع لفظ (الظلمات) وإفراد لفظ (النور) ، وجمع (سُبُل الباطل) وإفراد (سبيل الحق) ، وجمع (الشَّمائل) وإفراد (اليمين) في تلك الآيات الكريمة ؟ .

يقول ابن القيم في بيان تلك الأسباب : (١٤)

« الجواب عنها يخرج من مشكاة واحدة ، وسر ذلك — والله أعلم — أن طريق الحق واحد ، كما قال تعالى : « هَذَا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيم » (الحجر ٤١) ، قال مجاهد : الحق طريقه على الله ، ويرجع إليه ، كما يقال : طريقك عليَّ ، ونظيره قوله : « وعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيل » (النحل ٩) في أصح القولين ، أي السبيل القصد الذي يوصل إلى الله ، وهي طريق عليه ، قال الشاعر :

فهنَّ المَنَايَا ،أيّ وادِ سَلكته عليها طَرِيقي ، أو عَلَيَّ طَرِيقُها

والمقصود : أن طريق الحق واحد ، إذ مرده إلى الله الملك الحق ، وطرق الباطل متعددة ، ومتشعبة ، فإنها لاترجع إلى شيء موجود ، ولاغاية لها يوصل إليها ، بل هي بمنزلة بنيات الطريق ، وطريق الحق بمنزلة الطريق الموصل إلى المقصود ، فهي وإن تنوعت فأصلها طريق واحد .

ولما كانت الظلمة بمنزلة طرق الباطل ، والنور بمنزلة طريق الحق ، بل هما هما ، أفرد النور ، وجمعت الظلمات ، وعلى هذا جاء قوله : « **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ، يُخْرِجُهُم من الظُّلُماتِ إلى النُّورِ ، والذَّينَ كفرُوا أوْلياؤُهُم الطَّاغُوت ، يُخْرِجُونَهم من النُّور إلى الظُّلُمَات** » (البقرة ٢٧٥).

فوحد (ولي الذين آمنوا) وهو الله الواحد الأحد ، وجمع أولياء (الذين كفروا) لتعددهم وكثرتهم ، وجمع (الظلمات) وهى طريق الضلال والغي لكثرتها واختلافها ، ووحد (النور) وهو دينه الحق ، وطريقه المستقيم الذي لاطريق إليه سواه .

ولما كانت (اليمين) جهة الخير والفلاح ، وأهلها هم الناجون أفردت ، ولما كانت (الشِّمال) جهة أهل الباطل وهم أصحاب الشمال جمعت في قوله « عَن اليَمينِ والشَّمائِلِ » .

وهناك من آيات القرآن الكريم من ألفاظ (الشمال واليمين) ماخرج عن هذه القاعدة ، فقد أفردت لفظة (الشمال) في قوله تعالى في وصف مشهد من مشاهد يوم القيامة « وأصْحَابُ الشِّمالِ ما أصْحَابُ الشِّمَاَل » (الواقعة ٤١) ، وفي قوله تعالى : « **وَنَحْنُ أقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الوَرِيد ، إذْ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ عن اليَمين وعَن الشِّمال قَعِيد** » (ق ١٦ ، ١٧) .

وجمعت لفظه (اليمين في قوله تعالى حكاية عن إبليس : « **ثُمَّ لآتينهم منْ بَيْن أيْدِيهم ، ومِنْ خَلْفِهم ، وعَنْ أيْمَانِهِم ، وعَنْ شَمَائِلِهم** » (الأعراف ٧٧) .

فلماذا أفردت لفظة (الشمال) وجمعت لفظة (اليمين) في الآيات السابقة، وما هي الأسرار التي دعت إلى هذا التغيير؟.

يقول ابن القيم في الإجابة عن الآية الأولى : [١٥]

«قيل : جاءت (الشمال) مفردة ، لأن المراد أهل هذه الجهة ومصيرهم ومآلهم إلى جهة واحدة وهي جهة الشمال، فلا يحسن مجيئها مجموعة، لأن طرق الباطل وإن تعددت فغايتها المرد إلى طريق الجحيم وهي جهة الشمال».

وعن الآية الثانية ، قال :

«لما كان المراد أن لكل عبد قعيدين ، قعيدا عن يمينه ، وقعيدا عن شماله ، يحصيان عليه الخير والشر، فلكل عبد من يختص بيمينه وشماله من الحفطة ، فلا معنى للجمع هنا» .

وعن الآية الثالثة ، يقول :

« الجمع هنا في مقابلة من يريد الشيطان إغواءهم ، فكأنه أقسم أن يأتي كل واحد واحد من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، ولا يحسن هنا عن يمينهم وعن شمالهم ، بل الجمع هنا في مقابلة الجملة بالجملة المقتضى توزيع الأفراد ،

ونظيره قوله تعالى : « فَاغْسِلُوا وجُوهَكُم وأَيْدِيَكُم إلى المَرَافِقِ » (المائدة ٦) .

وبهذا نرى أن لفظ القرآن الكريم (اليمين أو الشمال) حينما يأتي في تعبير مّا مفردا أو جمعا فإنما يكون كل لفظ في محله اللائق به ، وفي موضعه المناسب ، فإذا طرأ أدنى تعبير في وضعه ، تغير المعنى وفسد الأسلوب ، وضاع الغرض المراد .

المشرق و (المشرقين) والمشارق :

والباحث في ألفاظ القرآن الكريم يلاحظ أن لفظه (المشرق والمغرب) تارة تأتي مفردة، وثانية مثناة، وثالثة جمعا.

في حالة الإفراد يقول تعالي : «**رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً** » (المزمل ٦) .

وفي التثنية جاء قوله تعالى « **رَبُّ المَشْرِقَيْن ورَبُّ المَغْرِبَيْن** » (الرحمن ١٧) .

وفي الجمع يقول سبحانه : « **فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ المَشارِق والمَغَارِب ، إنَّا لَقَادِرُونَ ، عَلَى أنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهم ومَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِين** » (المعارج ٤٠ ، ٤١) .

يقول ابن القيم في أسباب ذلك التبديل ، وبيان الأسرار التي أدت إلى تغيير العبارة والحكمة في وجود هذه الآيات على تلك الصورة ؟ .

«تأمل هذه الحكمة البالغة في تغاير هذه المواضع في الإفراد والتثنية والجمع بحسب مواردها يطلعك على عظمة القرآن وجلالته ، وأنه تنزيل من حكيم حميد .

فحيث أفردا كان المراد أفقي المشرق والمغرب .

وحيث ثنيا كان المراد مشرق صعودها وهبوطها ، ومغربيهما ، فإنها تبتدئ صاعدة حتى تنتهي إلى غاية أوجها وارتفاعها ، فهذا مشرق صعودها ، وينشأ منه فصلا الخريف والشتاء ، فجعل مشرق صعودها بجملته مشرقا واحدا ، ومشرق هبوطها بجملته مشرقا واحدا ، ويقابلها مغربها .

وحيث جمعت كان المراد مشارق الشمس ومغاربها .

فهذا وجه اختلاف هذه في الإفراد والتثنية الجمع » .

ولكن ما وجه اختصاص كل موضع من (الإفراد والتثنية والجمع) بما وقع فيه في آيات القرآن السابقة ؟ .

يجيب ابن القيم عن هذا التساؤل إجابة تصدر عن اعتزازه بنفسه ، وثقته بعلمه ، وبما انفرد به من تعمق في البحث ، واستقصاء في النفوذ إلى أعماق المعاني ، فيقول :

« وأما اختصاص كل موضع بما فيه فلم أر أحداً تعرض له ، ولا فتح بابه ، وهو يحمد الله فيما بين من السياق.

فتأمل وروده مثنى في سورة الرحمن لما كان مساق السورة مساق المثاني المزدوجات . فذكر أولاً نوعي الإيجاد — وهما الخلق والتعليم — فقال [١٧] : « خَلَقَ الإنْسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ » ثم ذكر سراجي العالم ومظهره — وهما الشمس والقمر — فقال : « الشَّمس والقَمَرُ بحُسْبَان » .

ثم ذكر نوعي النبات ، فإن منه ماهو على ساق ، ومنه ما انبسط على وجه الأرض — وهما النجم والشجر — فقال : **النَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدَان** » .

ثم ذكر السماءوالأرض ، فقال « **والسَّمَاء رَفَعَهَا .. والأَرْضَ وَضَعَها** » فأخبر أنه رفع هذه ووضع هذه ، ووسط بينهما ذكر الميزان .

ثم ذكر العدل والظلم في الميزان ، فأمر بالعدل ، ونهى عن الظلم ، فقال : « **وأَقِيمُوا الوَزْنَ بالقِسْطِ ولاَ تُخْسِرُوا المِيزَان**» .

ثم ذكر نوعي الخارج من الأرض — وهما الحبوب والثمار — فقال : « فِيهَا فَاكِهَةٌ والنَّخْلُ ذَاتُ الأَكمَام ، والحَبُّ ذُو العَصْفِ والرَّيْحَان » .

ثم ذكر نوعي المكلفين — وهما الإنسان ، ونوع الجان — فقال : « خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كالفَخَّار ، وخَلَقَ الجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَار » .

ثم ذكر نوعي المشرقين والمغربين، فقال : « **رَبُّ المَشْرِقَيْنِ ورَبُّ المَغْرِبَيْن** » .

ثم ذكر بعد ذلك نوعي البحر الملح والعذب — فقال : «**مَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَان** » .

ثم قال ابن القيم بعد ذلك :

« فتأمل حسن تثنية المشرق والمغرب في هذه السورة وجلالة ورودهما لذلك ، وقَدِّرْ موضعهما اللفْظَ مفردا ومجموعا تجد السمع ينبو عنه ، ويشهد العقل بمنافرته للنظم » .

وأما ورودهما مفردين في سورة المزمل ، فقال فيهما ابن القيم :

« ثم تأملْ ورودهما في سورة المزمل ، لما تقدمها ذكر الليل والنهار ، فأمر رسوله بقيام الليل ، ثم أخبره أن له في النهار سبحا طويلا ، فلما تقدم ذكر الليل وما أمر به فيه ، وذكر النهار ومايكون منه فيه ، عقب ذلك بذكر المشرق والمغرب اللذين هما مظهر الليل والنهار ، فكان ورودهما مفردين في هذا السياق أحسن من التثنية والجمع .

وأما ورودهما مجموعين في سورة المعارج ، فيقول ابن القيم :

ثم تأمل مجيئهما مجموعين في سورة المعارج في قوله «**فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ المَشَارِقِ والمَغَارِب إِنَّا لَقَادِرُون عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُم وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِين** » .

لما كان هذا القَسَم في سَعة ربوبيته ، وإحاطة قدرته ، والمقسم عليه : إذهاب هؤلاء والإتيان بخير منهم ، ذَكَر المشارق والمغارب لتضمنهما انتقال الشمس التي هي أحد آياته العظيمة الكبيرة ، ونقله — سبحانه — لها ، وتصريفها كل يوم في مشرق ومغرب ، فمن فعل هذا ، كيف يعجزه أن يبدل هؤلاء ، وينقل إلى أمكنتهم خيرا منهم .

وأيضا فإن تأثير مشارق الشمس ومغاربها في اختلاف أحوال النبات والحيوان أمر مشهور ، وقد جعل الله تعالى ذلك بحكمته سببا لتبدل أجسام النبات ، واحوال الحيوان ، وانتقالها من حال إلى غيره ، وتبدل الحر بالبرد ، والبرد بالحر ، والصيف بالشتاء ، إلى سائر تبديل أحوال الحيوان والنبات والرياح ، والأمطار والثلوج ، وغير ذلك من التبدلات الواقعة في العالم بسبب اختلاف مشارق الشمس ومغاربها ،

فكيف لا يقدر مع ما يشاهدونه من ذلك على أن يبدل خيرا منهم ، وأكد هذا المعنى بقوله : «وما نحن بمسوقين» — فلا يليق بهذا الموضع سوى الجمع » .

وحينا اكتفى التعبير القرآني بذكر (المشارق) دون (المغارب) في سورة الصافات كان ذلك لحكمة بليغة ، وسر لطيف ، يفصح عنه ابن القيم ، فيقول :

« ثم تأمل كيف جاءت أيضًا في سورة الصافات مجموعة في قوله : « ربُّ السَّموات والأرْضِ ومَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المَشَارِقِ » (الصافات ٥) لما جاءت مع جملة المربوبات المتعددة وهي السموات والأرض وما بينهما ، كان الأحسن مجيئها مجموعة ، لينتظم مع ما تقدم من الجمع والتعدد.

ثم تأمل كيف اقتصر على (المشارق) — دون المغارب — لاقتضاء الحال لذلك ، فإن المشارق مظهر الأنوار ، وأسباب انتشار الحيوان وحياته ، وتصرفه ومعاشه وانبساطه ، فهو إنشاء مشهور ، قدمه بين يدى الردِّ على منكري البعث ... فكان الاقتصار هنا على ذكر (المشارق) في غاية المناسبة للغرض المطلوب ».

وهكذا وجدنا أن للفظ القرآني (المشرق والمغرب) حينا استُعمل مفردا كان في محل يليق به ، وعندما جاء مثنى كان في موضع يطلبه لفظ التثنية ، وحينا أتى به مجموعًا كان ذلك في مكان يناسب لفظ الجمع .

وبعـــد :

فهذه روضة من رياض ابن القيم ، متعنا النظر فيها ، والعقل بها ، كان يتمتع بحاسة نفاذة استطاع بها أن يستشف كنوز المعرفة ، وأسرار البلاغة ، ولطائف اللغة من بين الألفاظ ، ومن خلال الكلمات .

وضع يده على تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في اختيار كلماته . واصطفاء ألفاظه اصطفاء يتجلى فيه وجه الإعجاز ، فمنذ نزول القرآن الكريم إلى اليوم وقد مرت قرون وقرون ، ومضت أجيال وأجيال ، وكل جيل يفهم منها ما يناسب تفكيره ، ويلائم ذوقه ، ويوائم معارفه ، وتأتي أجيال أخرى تفهم من هذه الألفاظ بعينها غير ما فهمته أجيال القرون الأولى .

ولو حاول أي مفكر أو لغوي أن يستبدل بألفاظ القرآن الكريم تلك ألفاظا غيرها لم يصلح القرآن لخطاب الناس ، مما يدل على أنه كلام الله وحده ، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدًا .

وهكذا جاء فكر ابن القيم في ألفاظ القرآن الكريم ، وترك فيه آثارًا تتلى ، فانتفع ونفع ، وأروى بها نفوساً عطشى ، وأحيا بها قلوبًا ظمآى ، فرحمه الله وجعل الجنة مثواه .



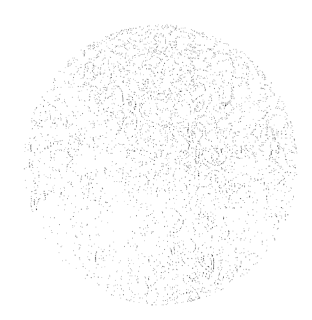


أولاً :

● القرآن الكريم

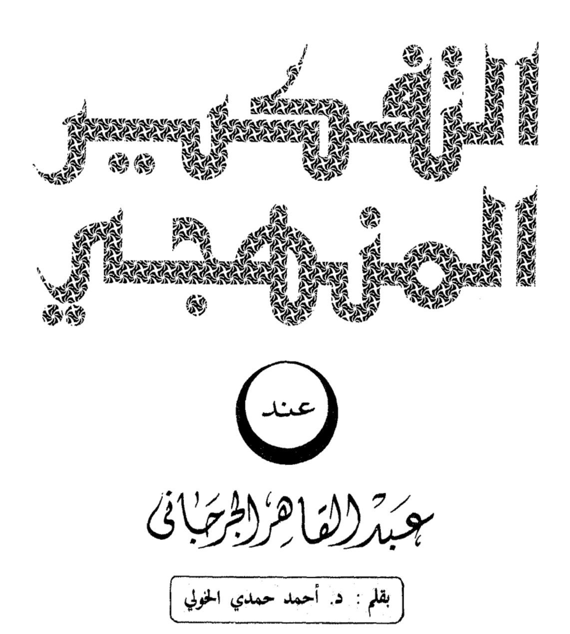
ثانيًا :

● الإتقان في علوم القرآن/للسيوطي — القاهرة ١٣٧٠ هـ .
● بدائع الفوائد/ لابن القيم — بيروت — بدون .
● البرهان في علوم القرآن/ للزركشي — تحقيق محمد أبو الفضل — القاهرة ١٣٧٧ هـ .
● البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن/ للزملكاني — تحقيق د. أحمد مطلوب — بغداد ١٣٩٤ هـ .
● البيان والتبيين/ للجاحظ — تحقيق عبدالسلام هارون — القاهرة ١٩٧٥ م .
● التفسير القيم/ لابن القيم — جمع أويس الندوي — القاهرة ١٣٦٨ هـ .
● الطراز/ للعلوي — القاهرة ١٣٢٣ هـ .
● فقه اللغة وسر العربية/ للثعالبي — القاهرة — بدون .
● معترك الأقران في إعجاز القرآن/ للسيوطي — تحقيق علي البجاوي — القاهرة ١٩٦٩ م .
● ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن الكريم/ للمبرد — تحقيق الميمني .
● المرتجل/ لأبي محمد بن الخشاب — تحقيق علي حيدر — دمشق ١٣٩٢ هـ .




(١) بدائع الفوائد جـ ٢ ص ص ١٥٤ — ١٥٥ .
(٢) بدائع الفوائد جـ ٢ ص ٦٦ .
(٣) وعرف لفظ (السلام) في حق عيسى — عليه السلام — إذ هو ليس وارد على سبيل التحية ، وإنما حاصل من جمعه نفسه على سبيل الدعاء ، وإشعار بذكر الله ، فقد قصد في دعائه الرمز إلى ما اشتق من اسم الله تعالى .. ومن ثم كان اختتام الصلاة بـ (السلام) المعرف باللام لكونه اسما من أسمائه ، كما كان افتتاحها باسم من أسمائه سبحانه (انظر البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ١٣٧ ، الطراز جـ ٢ ص ١٧ ، المرتجل ص ٢٩٩) .
(٤) نفسه جـ ٢ ص ١٦٩ .
(٥) بدائع الفوائد جـ ٢ ص ١٧٤ .
(٦) البيان والتبيين جـ ١ ص ٤٠ .
(٧) بدائع الفوائد جـ ١ ص ١٤٤ وما بعدها .
(٨) بدائع الفوائد جـ ١ ص ١١٥ .
(٩) يقصد أوائل سور الحديد «سبح لله مافي السموات والأرض» ، والحشر «سبح لله ما في السموات وما في الأرض» والصف مثلها ، والتغابن «يسبح لله ما في السموات والأرض» .
(١٠) بدائع الفوائد جـ ١ ص ١١٧ .
(١١) بدائع الفوائد جـ ١ ص ١١٨ .
(١٢) انظر ذلك في البرهان جـ ٤ ص ٩ ، الإتقان جـ ١ ص ١٩٤ ، المعترك جـ ٣ ص ٥٩٦ ، فقه اللغة ص ٥٧٣ ، ما اتفق لفظه واختلف معناه ص ١٦ .
(١٣) بدائع الفوائد جـ ١ ص ١١٩ .
(١٤) بدائع الفوائد جـ ١ ص ١١٩ وموجود في البرهان جـ ٤ ص ١٢ ، ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد ص ١٩ ، الاتقان جـ ١ ص ١٩٤ ، المعترك جـ ٣ ص ٥٩٧ .
(١٥) بدائع الفوائد جـ ١ ص ١٢٠ .
(١٦) بدائع الفوائد جـ ١ ص ١٢١ .
(١٧) هذه الآيات من (خلق الإنسان) إلى (مرج البحر ..) أثبتها لتوضيح الشواهد وليست في كلام ابن القيم وإنما تفهم من قوله .

رأي في


التفكير
المنهجي
عند
عبد القاهر الجرجاني
بقلم : د. أحمد حمدي الخولي

للمسلمين من غير العرب دور بارز في اللغة العربية وآدابها. وقد وضح هذا الدور منذ أن دخلوا في دين الله أفواجًا، وأقبلوا على العربية يتعلمونها لدوافع دينية وأخرى دنيوية.

وتحت راية الإسلام ظهرت هذه الجمهرة التي أسدت خدمات جليلة للعربية لغة وأدبًا وبلاغة. ومن هؤلاء عبد القاهر الجرجاني[١] الذي ولد في أسرة فارسية بمدينة جرجان[٢]. **وتوفي بها عام ٤٧١ هـ أو ٤٧٤ هـ**[٣]، **تاركًا عدة كتب بالغة القيمة منها أسرار البلاغة، دلائل الاعجاز، كتاب الجمل المعروف بـ (جورجانية) نسبة إلى مسقط رأسه، المغني في شرح إيضاح أبي علي، مختصر المغني أو المقتصد، العمدة في الصرف، شرح الجمل في توضيح كتاب الجمل السابق ذكره**[٤].

هذه الكتب التي تناولت علوم النحو والبلاغة والنقد تدل على أن عبد القاهر كان متكاملاً في المعرفة من ناحية وسليمًا في الذوق من ناحية أخرى.

وتكامل المعرفة وسلامة الذوق لدي عبد القاهر يعتمدان على أساس ديني بالدرجة الأولى؛ إذ أن الإسلام قد خلقه خلقًا جديدًا إلى جانب استعداد فطري طيب. ولا غرابة في الاثنتين؛ فالإسلام بالأصل هو دين الفطرة؛ ومن خلال فطرة عبد القاهر السليمة وإسلامه الحسن، وعقله المنظم جاء تفكير عبد القاهر في كتاباته منهجيًا وعلميًا وعقلانيًا مما أعطاه حق الريادة فيا كتب.

والعقل عند عبد القاهر أمر مهم، فهو الذي يصطنع الفكرة وينظمها وينسقها، وبعد أن تأخذ الفكرة مكانها من العقل في ترتيب وتنسيق تهبط على القلم كتابة، وعلى اللسان شعرًا وخطابة.

— ٢ —

وبالنسبة لقضية الذوق، يذهب عبد القاهر في التفرقة بين الاقناع بالنظم والاقناع بالجمال إلى القول[٥] :

«وهذا موضع في غاية اللطف لا يبين إلا إذا كان المتصفح للكلام حساسًا يعرف وحي طبع الشعر، وخفي حركته التي هي كالهمس، وكمسرى النفس في النفس».

أما عن عدم هذا الذوق الموهوب فلا فائدة ترجى. يقول[٦] : (... واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعًا من السامع، ولا يجد لديه قبولاً، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن لما يومئ إليه من الحسن واللطف أصلاً، وحتى يختلف الحال عليه، عند تأمل الكلام، فيجد الأريحية تارة، ويعرى منها أخرى، وحتى إذا عجبته عجب، وإذا نبهته لموضع المزية انتبه).

«فأما من كانت الحالان والوجهان عنده أبدًا على سواء، وكان لا يتفقد من أمر النظم إلا الصحة المطلقة، وإلا إعرابًا ظاهرًا، فما أقل ما يجدي الكلام معه، فليكن منهاجه صفته بمنزلة من عدم الإحساس بوزن الشعر، والذوق الذي يقيمه به، والطبع الذي يميز صحيحه من مكسوره، ومزاحفه من سالمه، وما خرج من البحر مما لم يخرج منه، في أنك لا تتصدى له، ولا تتكلف تعريفة، لعلمك أنه قد عدم الأداة التي معها تعرف، والحاسة التي بها تجد» [٧].

إذن فعبد القاهر يجعل الذوق والفطرة وسيلة إلى إدراك الجمال من جهة، وأن الذكاء اللماح يؤدي إلى تبين الفروق الدقيقة التي تمتاز بها العبارات، وتختلف من خلالها المعاني من جهة أخرى .

وهو كواضع لأسس المنهج التحليلي في دراسة البيان أو المعاني العقلية لم يتخل عنه الذوق الأدبي الذي يجعل القارئ متلمسًا لصفات الجمال في العمل الأدبي عندما لا تجدي القاعدة ولا ينفع القياس، يقول في ذلك : «انك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر، ولو كانت الكلمة إذا حسنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة في الماضي لما اختلف بها الحال، ولكانت إما أن تحسن أبدًا، أو لا تحسن أبدًا».

— ٣ —

ومن سلامة الذوق عند عبد القادر أنه قاوم تيار اللفظية أشد مقاومة فنراه يذكر[٨] (...**الألفاظ خدم للمعاني**) كما أنه يرى[٩] : (... **أن في كلام المتأخرين**

كلامًا حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم في البديع، أن ينسى أنه يتكلم ليفهم، ويقول ليبيّن، ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء، وأن يوقع السامع من طلبه خبط عشواء، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعني وأفسده، كمن يثقل العروس بأصناف الحلي حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها».

وعند عبد القاهر أن المثل الذي يجب أن يحتذي ليس أصحاب السجع، بل أبا عمرو الجاحظ في مقدمات كتبه. وهنا يقول: [١٠]

«انك لا تجد تجنيسًا مقبولاً، ولا سجعًا حسنًا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغى به بديلاً ولا تجد عنه حولا، ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقه بالحسن وأولاه، وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه وتأهب لطلبه، أو ما هو لحسن ملاءمته — وان كان مطلوبًا — بهذه المنزلة وفي هذه الصورة».

وهنا نقول إن عبد القاهر قد وصل في العلوم اللغوية إلى مذهب يشهد لصاحبه بعبقرية لغوية منقطعة النظير، وعلى أساس هذا المذهب كون مبادئه في إدراك (**دلائل الاعجاز**).

فالكلمة المفردة لا قيمة لها قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي يفيض بها الكلام غرضًا من أغراضه في الأخبار والأمر والنهي والتعجب، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة وبناء لفظة على لفظة، وليس بين اللفظتين تفاضل في الدلالة، حتى تكون إحداهما ادل على معناها الذي وضعت له من الأخرى.

والألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة ولكن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة كمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق بصريح اللفظ، وما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر[١١].

هل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: «وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء

أقلعي، وغِيض الماء وقُضي الأمر، واستوت على الجودي. وقيل بُعداً للقوم الظالمين».
فتجلى لك منها الاعجاز وبهرك الذي ترى وتسمع، أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذا الكلم بعضًا ببعض، وان لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة ؟ .

وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها، وأن الفضل تناتج ما بينها، وحصل من مجموعها ؟

إذا شككت فتأمل : هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها، وأفردت لأدّت من الفصاحة ما تؤديه، وهي في مكانها في الآية؟ قل **(ابلعي)** واعتبرها وحدها من غير أن ننظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها وكذلك فاعتبر سائر ما يليها، وكيف بالشك في ذلك؟ ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت، ثم كان النداء بـ **«يا»** دون «أي» نحو يأيتها الأرض، ثم إضافة الماء إلى المكان، دون أن يقال ابلعي الماء، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل:«وغيض الماء» فجاء الفعل مبنيًا للمجهول، وتلك الصيغة تدل على أنه لم يغض إلا بأمر آمر، وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقديمه بقوله تعالى **(وقضي الأمر)** ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور؟ وهو «استوت على الجودى» ثم إضمار السفينة قبل الذكر، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابل **(قيل)** في الخاتمة : **«قيل»** في الفاتحة.

أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالاعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقًا باللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النطق، أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب !

مثل هذا الأسلوب التحليلي يوصل عبد القاهر إلى ما يريد من تقرير ما أسلف من أن الشأن للنظم كاملاً، ولا شيء من الاعتبار للفظ وحده قبل أن يدخل في هذا النظم ..

وهنا نقول:إن عبد القاهر قد وصل في العلوم اللغوية إلى مذهب يشهد لصاحبه بعبقرية لغوية منقطعة النظير؛ وعلى أساس هذا المذهب كون مبادئه في ادراك (دلائل

الاعجاز).

ومذهب عبد القاهر هو أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوربا في أيامنا هذه هو **مذهب العالم السويسري الكبير فردناندي سوسير المتوفي ١٩١٣ م. ولا يهمنا من هذا المذهب الخطير إلا طريقة استخدامه كأسٍ لمنهج لغوي «فيلولوجي»** في نقد النصوص(١٢).

— ٤ —

لقد فطن عبد القاهر إلى أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ، بل مجموعة من العلاقات. **إذ يقول** : (١٣) «اعلم أن هنا أصلاً أنت ترى الناس فيه في صورة من يعرف من جانب وينكر من آخر، وهو أن الألفاظ المفردة التي من أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد. وهذا علم شريف وأصل عظيم، والدليل على ذلك أنّا إن زعمنا أن الألفاظ التي هي أوضاع اللغة إنما وضعت ليعرف بها معانيها في أنفسها لأدى ذلك إلى مالا يشك عاقل في استحالته، وهو أن يكون قد وضعوا للأجناس الأسماء التي وضعوها لها لتعرفها بها، حتى كأنهم لو لم يكونوا قالوا فعل ويفعل لما كنا نعرف الخبر في نفسه ومن أصله، ولو لم يكونوا قد قالوا افعل لما كنا نعرف الأمر من أصله ولا نجده في نفوسنا، وحتى لو لم يكونوا قد وضعوا الحروف لكنا نجهل معانيها، فلا نعقل نفيًا ولا نهيًا ولا استفهامًا ولا استثناء. كيف والمواضعة لا تكون ولا تتصور إلا على معلوم، فمحال أن يوضع اسم أو غير اسم لغير معلوم ولأن المواضعة كالإشارة، فكما أنك اذا قلت خذ ذاك لم تكن هذه الإشارة لتعرف السامع المشار إليه في نفسه، ولكن ليعلم أنه المقصود من بين سائر الأشياء التي تراها وتبصرها. كذلك حكم اللفظ مع ما وضع له، ومَن هذا الذي يشك أنّا لم نعرف الرجل والفرس والضرب والقتل إلا من أساميها؟ لو كان ذلك مساغًا في العقل تكون قد شاهدته أو ذكر ذلك بصفة. واذ قد عرفت هذه الجملة فاعلم أن معاني الكلام كلها معان لا تتصور إلا فيما بين شيئين، والأصل والأول هو الخبر واذا أحكمت العلم بهذا المعنى فيه عرفته في الجميع. ومن الثابت في العقول والقائم في النفوس أنه لا يكون خبر حتى يكون مخبر به ومخبر عنه. ومن ذلك امتنع أن يكون لك

قصد إلى فعل من غير أن تريد إسناده إلى شيء. وكنت إذا قلت «اضرب» لم تستطع أن تريد منه معنى في نفسك من غير أن تريد الخبر به عن شيء مظهر أو مقدر، وكان لفظك به — اذا أنت لم ترد ذلك — وصوت تصوته سواء».

هنا تستبين فلسفة عبد القاهر اللغوية العميقة. وعنها صدرت كل آرائه في نقد النصوص، فهو يرى أن الالفاظ لم توضع لتعيين الأشياء المتعينة بذواتها، وانما وضعت لتستعمل في الاخبار عن تلك الأشياء[١٤]. بصفة أو حدث أو علاقة. فنحن لا نقول زيد إلا إذا أردنا أن نخبر عنه بشيء، ومعنى ذلك أن الالفاظ ليست هي المهم في اللغة بل هي مجموعة العلاقات التي ينبغي أن تقام بين الأشياء بفضل الأدوات اللغوية وتلك العلاقات هي المعاني المتباينة التي نعبر عنها أو نشير إليها.

— ٥ —

كان مقياس النقد عند عبد القاهر هو نظم الكلام : ذلك أن النظم هو الذي يقيم العلاقات بين الأشياء. هذه العلاقات التي وضعت اللغات من أجل التعبير عنها يقول عبد القاهر في ذلك[١٥] ...

«هذا هو السبيل فلست بواجد شيئًا يرجع صوابه إن كان صوابًا، وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، الا وهو معنى من معاني النحو، قد أصيب به موضعه ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له. فلا ترى كلامًا قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد، وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه».

ومما سبق يتضح أن منهج هذا المفكر العميق الدقيق هو منهج النقد اللغوي، بل منهج النحو، على أن يكون مفهومًا من النحو أنه العلم الذي يبحث في العلاقات التي تقيمها اللغة بين الأشياء. يقول عبد القاهر في ذلك[١٦] : إذا نظرنا في ذلك علمنا أنه لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلاً لفعل أو مفعول، أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبرًا عن الآخر، أو تتبع

الاسم اسمًا على أن يكون الثاني صفة للأول أو تأكيدًا له أو بدلاً منه، أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفة أو حالاً أو تمييزًا، أو تتوخى في كلام هو لإثبات معنى أن يصير نفيًا أو استفهامًا أو تمنيًا، فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك. أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطًا في الآخر فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى، أو بعد اسم من الأسماء التي ضمنت معنى ذلك الحرف وعلى هذا القياس «يكون تسلسل الكلام».

وحتى تستبين هذه الفكرة نرى عبد القاهر يدلل على أن أحداً لا يخالف في أن قول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكا
أبو أمه حيٌّ أبوه يقاربه

وقول المتنبي :

ولذا اسم أغطية العيون جفونها
من أنها عمل السيوف عوامل

الطيب أنت، اذا أصابك، طيبه
والماء أنت، إذا اغتسلت، المغاسل

وفاء كما كالربع أشجاه طاسمه
بأن تسعدا، والدمع أشفاه ساجمه

وقول أبي تمام :

يدي لمن شاء رهن لم يذق جرعا
من راحتيك درى ما الصاب والعسل

فاسد في النظم، سيئ في التأليف، وسبب ذلك أن الشاعر لم يتوخ معاني النحو فيما بين الكلم، بل قدم وأخر، وحذف أو أضمر، أو فعل ما ليس له أن يصنعه، وما لا يسوغه له قوانين هذا العلم.

وكذا ثبت أن الفساد ناشئ من عدم توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم ثبت أن المزية والفضيلة في توخي معانيه وأحكامه.

— ٦ —

كان عبد القاهر حريصًا على أن يوضح أمر المعاني وكيف تتفق وتختلف؟ ومن أين تجتمع وتفترق؟ ويفصل أجناسها وأنواعها، ويتتبع خاصها ومشاعها، وأنه يبين أحوالها في كرم منصبها من العقل، وقرب رحمها منه، أو بعدها عنه، وأن يوضح كيف أن من الكلام ما هو شريف في جوهره كالذهب الإبريز الذي تختلف عليه الصور وتتعاقب عليه الصناعات، وجل المعول في

شرفه على ذاته، وان كان التصوير قد يزيد في قيمته، ويرفع من قدره، ومنه ما هو كالمصنوعات العجيبة من مواد غير شريفة، فلها — مادامت الصورة محفوظة، وأثر الصنعة باقيًا — قيمة تغلو، ومنزلة تعلو حتى إذا خانت الأيام أصحابها، وسلبتها جمالها المستفاد من طريق العرض، فلم يبق إلا المادة العادية من التصوير سقطت قيمتها، وانحطت رتبتها(١٧).

وهذا من عبد القاهر هدف كبير كان ذا قدرة على تحقيقه بل حقق بالتأكيد جزءًا كبيرًا منه فيما ساقه من حديث عن الاستعارة والتشبيه والكناية والمجاز. فقد أكثر من الموازنات وبيان أصول المعاني وفروعها.

فذكر أن المعاني تنقسم أولاً إلى قسمين عقلي وتخييلي. ومن العقلي عقلي صحيح مجراه في الشعر والكتابة والخطابة مجرى الأدلة التي يستنبطها العقلاء، ولذلك تجد الأكثر من هذا الجنس منتزعًا من أحاديث الرسول وكلام الصحابة، ومنقولاً من آثار السلف الذين شأنهم الصدق، أو ترى له أصلاً في الأمثال القديمة والحكم المأثورة عن القدماء .. وأما التخييلي فهو الذي لا يمكن أن يقال: إنه صدق، وأن ما أثبته ثابت وما نفاه منفي ..

وهو مفتن المذاهب؛ كثير المسالك، لا يكاد يحصر إلا تقريبًا، ولا يحاط به ويجيء على درجات.

وليس التخييل في واقع الأمر سوى تصوير لإحساس الأديب ومشاعره، وبه نستطيع أن نعرف وقع الشيء على نفسه، ومدى انفعال عواطفه به، والميزان الذي ينبغي أن يقاس به هو معرفة المدى الذي استطاع التخييل أن يصور عواطف الأديب ووجدانه، وإلى أي مدى كان الأديب صادق الإحساس، قوي الانفعال(١٨).



— ٧ —

إذا كان عبد القاهر قد اهتدى إلى فكرة النظم، ورأى أن البلاغة تدور عليها، فإن

هذه الفكرة لها فروع كثيرة تنطوي تحتها من مسائل التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والتعريف والتنكير، وغير ذلك من الطرق التي تصاغ عليها العبارة.

وعلى الرغم من أن جهود العلماء قبله كانت قد وصلت إلى مرحلة لا بأس بها فيما يتصل بأمر البلاغة، إلا أن عبد القاهر اجتهد جهدًا فائقًا في بناء صرح البلاغة العربية. وها هو ذا يصف حال البلاغة قبل عصره، وفي عصره، فيقول(١٩) :

«واعلم أنك لا ترى في الدنيا علمًا قد جرى الأمر فيه بديئًا وأخيرًا على ما جرى عليه في علم الفصاحة والبيان، أما البديء فهو أنك لا ترى نوعًا من أنواع العلوم إلا واذا تأملت كلام الأولين الذين علموا الناس وحدة العبارة فيه أكثر من الإشارة، والتصريح أغلب من التلويح، والأمر في علم الفصاحة بالضدّ من هذا، فانك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدت جلّه أوكله رمزًا ووحيًا وكناية وايماء إلى الغرض من وجه لا يفطن له إلا من غلغل الفكر وأدقّ النظر، ومن يرجع من طبعه إلى ألمعيته يقوى معها الغامض ويصل بها إلى الخفى، حتى كان حرامًا أن تتجلى معانيهم سافرة الأوجه لا نقاب لها. وبادية الصفحة لا حجاب دونها، وحتى كأن الإفصاح بها حرام، وذكرها إلا على سبيل الكناية والتعريض غير سائغ.

وأما الأخير فهو أنا لم نر العقلاء قد رضوا من أنفسهم في شيء من العلوم أن يحفظوا كلامًا للأولين، ويتدارسوه ويكلم به بعضهم بعضًا من غير أن يعرفوا له معنى، ويقفوا منه على غرض صحيح، ويكون عندهم أن يسألوا عنه ببيان له وتفسير إلا علم الفصاحة، فإنك ترى طبقات من الناس يتداولون فيما بينهم ألفاظًا للقدماء وعبارات من غير أن يعرفوا لها معنى أصلاً، أو يستطيعوا أن يسألوا عنها وأن يذكروا لها تفسيرًا يصح».

فمن أقرب ذلك أنك تراهم يعقلون إذا هم تكلموا في مزية كلام : على كلام أن ذلك يكون بجزالة اللفظ، وإذا تكلموا في زيادة نظم على نظم : أن ذلك يكون

لوقوعه على طريقة مخصوصة، وعلى وجه دون وجه، ثم لا تجدهم يفسرون الجزالة بشيء، ويقولون في المراد بالطريقة والوجه ما يحلى منه السامع بطائل».

لعل عبد القاهر قد تغالى إلى حد فيما ذهب إليه، فما من شك أنه قرأ لمن سبقوه وتأثر بهم، ونقل عنهم. ولكنه في كل هذه الحالات الشخصية القوية التي تنظر وتنقد يصل إلى آراء لم يصل إليها من سبقوه، ولا يقف عند ما توقفوا عنده مما جعله عالمًا مبتكرًا[٢٠]. بل إنه نجح نجاحًا كاملاً في التوفيق بين التفكير الأدبي الذوقي، والمنهج الفلسفي العلمي[٢١]. وذلك باستثارة الذوق إلى إدراك الجمال، ثم محاولة تصنيف ما يهدي إليه الذوق، ووضعه في إطار علمي ذي قواعد وقوانين[٢٢].

شاء عبد القاهر لنفسه بهذا التفكير المنهجي المتقدم في عصره والسابق على أوانه أن يكون مجالاً خصبًا لدراسة القدامى والمتحدثين، فنهضوا يعملون النظر ويقلبونه فيما قدم هذا الرجل من نظرات عميقة.

فقد فضل الأستاذ الشيخ محمد عبده

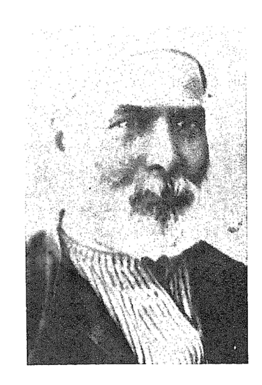


● الدكتور طه حسين ●

كتابيّ دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة على ما عداهما من كتب أخرى في البلاغة لا تؤدي إلا إلى مناقشات لفظية وجدل عقيم لا طائل تحته.

ورأى الأستاذ الدكتور طه حسين أن عبد القاهر قد وفق بين البيانين العربي واليوناني، واعتبرهما بحق أنفس ما كتب في البيان العربي.

ويذهب الأستاذ أمين الخولي إلى أن عبد القاهر «متكلم فلسفي تارة»، وهو أديب



● الشيخ محمد عبده ●

صانع كلام وناقد تارة أخرى.

ويذكر الأستاذ إبراهيم مصطفى أن عبد القاهر رسم في كتابه دلائل الاعجاز طريقًا جديدًا للبحث النحوي تجاوز أواخر الكلم وعلامات الإعراب، وبين أن للكلام (نظمًا» وأن رعاية هذا النظم واتباع قوانينه هي السبيل إلى الإبانة والإفهام وأنه إذا عدل بالكلام عن سنن هذا النظم لم يكن مفهمًا معناه، ولا دال على ما يراد منه.

وكتب **الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي** يقول بإنكار عبد القاهر لما رآه الجاحظ من أهمية الألفاظ، ثم ثورته على مذهب العسكري الذي يرى جودة الكلام تعود إلى محسنات لفظية تقف عند الشكل.

ويعد الأستاذ الدكتور بدوي طبانة عبد القاهر ناقدًا أديبًا بل في طليعة النقاد العرب بينما يشرح الأستاذ الدكتور درويش الجندي نظرية عبد القاهر في النظم وأن لها هدفين أولها : بيان أن جوهر الكلام هو المعنى القائم في النفس، وثانيهما : ربط البلاغة بالإعجاز.

أما الأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوي، فينتهي في الكتاب الذي خصصه لعبد القاهر — فأفاد به فائدة كبرى — إلى أنه الشخصية المبتكرة العميقة التفكير التي كان لجهودها أثر كبير في البلاغة العربية.

أما الأستاذ محمد خلف الله، فيرى أن عبد القاهر قد تأثر بمن سبقوه — في بعض نواحيه الفكرية في البلاغة والنقد — بالثقافة الإغريقية ولا سيما بحوث أرسطو وإن كان هذا التأثر لا ينافي الأصالة من ناحية ولا ينفي عن عبد القاهر صفة العالم المبتكر(٢٣) من ناحية أخرى.

هكذا اختلفت الآراء فيما يتصل بعبد القاهر ناقدًا كان أم بلاغيًا أم ناحيًا. والقول الفصل هو أن الآراء التي وصل إليها عبد القاهر ما نجمت إلا عن تفكير منهجي تمتع به الرجل. هذا التفكير المنهجي له أساسان هما التأثر والأصالة.

ففيما يتصل بالتأثر لا شك أن عبد القاهر كشخصية عاشت وماتت في جرجان لابد وأن يكون قد تأثر أولاً بخصائص جنسه الآري من حيث القدرة على طول الفكرة، واجتهاد الرأي، وطول الخلوة.(٢٤) ثم ساعدته بيئته بما لها من طبيعة جميلة ومناظر متنوعة وطقس متميز ورسوخ قدم في العلم وحسن حظ في تخريج طائفة من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدّثين على الاستمرار في طلب العلم واكتساب المعرفة.

⁘

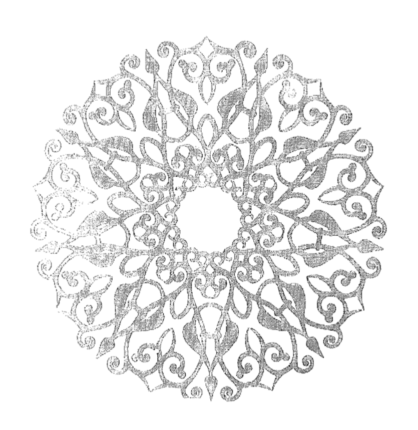
ولم يكتف عبد القاهر بطاقته المتأججة، فأخذ ينميها ويصقلها على يد شيوخ العلم في بلده مثل أبي الحسن محمد بن الحسن بن عبد الوارث الفارسي النحوي المقيم بجرجان وأبي الحسن بن عبد العزيز الجرجاني. وقد أثر كل منهما في عبد القاهر تأثيرًا بالغًا. الأول من حيث التدريس والتوجيه، والثاني بالقدوة العلمية والأسوة الحسنة. هذا في الوقت الذي كان عبد القاهر يواصل تثقيف نفسه بنفسه فيقرأ أمهات الكتب.

وعن الأصالة : فقد سعى عبد القاهر إلى أن يكون عالمًا عقلانيًا؛ومن ثم فإن فلسفته تكمن في بيان هذه الأبعاد الثلاثة: البعد الحسي والبعد العقلي والبعد الذوقي. ومن يطالع كتب عبد القاهر يدرك بجلاء أن ثمة خيطًا ساريًا في كل إنتاجه هو «العقل» وهذا الخيط هو الرباط الذي يربط أفكاره بعضها ببعض سواء أكانت نقدية أم بلاغية أم نحوية.

وعلى ذلك فلا ينبغي أن نقسم تقسيمًا حاسمًا شخصية الرجل أو بالأحرى فكره إلى ثلاثة أقسام نقدية وبلاغية ونحوية. إن تقسيمًا هذا شأنه لا يعبر البته عن طبيعة العلوم النظرية في زمانه. فلقد كانت دراسة العلوم في هذا الوقت تقوم على مبدأ التكامل في المعرفة. ولنا في أبي الريحان البيروني من أهل خوارزم الذي كتب في العلوم والرياضة

والتاريخ واللغة والقصص والأمثال والحكم والتراجم الدليل علي ذلك. هكذا كان رجال الفكر والثقافة في القرون الأولى من الهجرة، فلا عجب أن نجد عبد القاهر ينحو نحوهم، غلب عليه النحو فلقب بالنحوي، وعدّ من أكابر النحويين. وعلى معاني النحو أقام نظريته في البلاغة والبيان.

وفي النهاية فإن إبداع عبد القاهر الجرجاني سواء في إنتاجه أم في منهجه قد جاء في جملته نتاجًا للإسلام الحنيف. فقد حسن عمله لأن إسلامه قد حسن. ولا أدل على ذلك من أن كتابيه دلائل الاعجاز، وأسرار البلاغة قد قاما في الأصل على دراسات قرآنية.



الهوامش

(١) هو عبد القاهر أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني.

(٢) مدينة كبيرة ومشهورة تقع بين طبرستان وخراسان، وأهلها أحسن وقارًا، وأكثر مروءة ويسارًا ... يأخذون أنفسهم بالتأني والأخلاق المحدودة.

(٣) **محمد معين** (دكتور) فرهنك معين جـ ٥، ص ١٣٤٤، **زهره خانلري** (دكتور) فرهنك أدبيات فارسي دري، ص ١٦٠، ١٦١.

(٤) المرجعان السابقان. نفس الصفحات.

(٥) **عبد القاهر الجرجاني** : أسرار البلاغة ص ٢٦٦، الطبعة الثالثة.

(٦) **عبد القاهر الجرجاني** : دلائل الاعجاز ص ٢٢٥ وما بعدها. طبع القاهرة ١٣٣١ هـ.

(٧) **أحمد أحمد بدوي** (دكتور) : عبد القاهر الجرجاني : ص ٢٨٠ وما بعدها. الطبعة الثانية.

(٨) أسرار البلاغة ص ٥.

(٩) المرجع السابق ص ٦.

(١٠) المرجع السابق ص ٧.

(١١) دلائل الاعجاز ص ٣٥، ٣٨.

(١٢) **محمد مندور** (دكتور) : النقد المنهجي عند العرب ص ٣٣٥.

(١٣) دلائل الاعجاز : ص ٤٩.

(١٤) المرجع السابق ص ٤٤.

(١٥) أسرار البلاغة ص ١٩ وما بعدها.

(١٦) المرجع السابق نفس الصفحة.

(١٧) **أحمد أحمد بدوي** (دكتور) : المرجع السابق ص ٢٦٥.

(١٨) دلائل الاعجاز ص ٣٤٩ — ٣٥٠.

(١٩) **محمد خلف الله** : من الوجهة النفسية، في دراسة الأدب ونقده ص ١٢٥. القاهرة. طبع القاهرة ١٩٤٧ م.

(٢٠) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٢١) **أحمد أحمد بدوي** (دكتور) : المرجع السابق، ٣٧٦.

(٢٢) المرجع السابق : ص ٣٩٠ وما بعدها.

(٢٣) المرجع السابق : نفس الصفحات.

(٢٤) **الجاحظ** : البيان والتبين : جزء ٣ ص ٢٨، تحقيق عبد السلام هارون.

* * *

الجمهورية التونسية

٦ ٨ ١٠ ١٢

المتوسط
البحر
جزيرة جالطة
صقلية
مرسالا
اغريجنتو
بانتلاريا (ايطالية)
لمبيدوزا (ايطالية)
بنزرت
الرأس الأبيض
منزل بورقيبة
ماطر
طبرقة
عنابة
القالة
سكيكدة
جيجل
الميلية
قسنطينة
الخروب
سطيف
قالمة
سوق أهراس
باجة
سوق الخميس
سوق الأربعاء
جندوبة
الكاف
نبر
تبرسق
مجاز الباب
تونس
خليج تونس
رأس آدار
قليبية
منزل تميم
قربالية
سليمان
حلق الوادي
قرطاجنة
نابل
الحمامات
خليج الحمامات
زغوان
النفيضة
قعفور
سليانة
تاجروين
مكثر
القلعة الكبرى
سوسة
المنستير
المكنين
جمال
المهدية
القيروان
مساكن
سبخة سيدي الهاني
الجم
رأس قبودية
جبنيانة
العين البيضاء
باتنة
الجمهورية الجزائرية
خنشلة
٢٣٢٨
تبسة
جبال تبسة
القنطرة
بسكرة
القلعة الجرداء
تالة
حاجب العيون
جلمة
القصرين
صفاقس
جزر قرقنة
المكناسي
الغريبة
مزونة
السند
قفصة
الرديف
المتلوي
المحرس
الصخيرة
خليج قابس
شط ملغيغ
شط الغرسة
توزر
نفطة
شط الجريد
قبلي
دوز
الحامة
قابس
مطماطة
مارث
حومة السوق
جزيرة جربة
جرجيس
مدنين
بن قردان
زوارة
الزاوية
فم تطاوين
الدويرات
مغير
الوادي
تقرت
الصحراء الكبرى
الأنابيب البترول
المشهد
الذهيبات
نالوت
الجناين
سيناون
العرق الشرقي الكبير
ليبيا
حصن سان
غدامس
درج
٣٦ ٣٤ ٣٢ ٣٠
١٠
خط طول ٨ شرقاً

توزيع المطر السنوي والنبات
كيلومترات ٢٠٠
النبات
غابات جبلية
غابات السنديان الفلين
نباتات الحلفاء
سهوب صحراوية
سهوب
فوق ١٠٠٠
٥٠٠ - ١٠٠٠
٢٥٠ - ٥٠٠
دون ٢٥٠

السكان والمعادن
كيلومترات ٢٠٠
نسمة للكيلومتر المربع
فوق ٤٠
٢٠ - ٤٠
٢ - ٢٠
دون ٢
المدن
فوق ٥٠٠،٠٠٠
٥٠،٠٠٠ - ٥٠٠،٠٠٠
المعادن
خام الحديد
رصاص - زنك
فوسفات

كان ذلك ما بين ٢٤ و٢٦ سبتمبر ١٩٧٤م، وبمعهد الدراسات الشرقية بجامعة نابولي بإيطاليا حين دعيت للمشاركة في المؤتمر العالمي الأول لدراسات ما قبل العهد العثماني والفترة العثمانية: Comite International d'studes Pré- Ottomons et Ottomons (C.I.E.P.O.

وهي اللجنة التي تشكلت بمدينة بروسة بتركيا سنة ١٩٧٢م. وأذكر أيضًا أن عدد المشاركين في هذا المؤتمر كان ضيئلاً جدًا ، وأغلبهم من فرنسا وتركيا وبعض الدول البلقانية . وكنت العربي الوحيد الذي قدم بحثًا يتصل بالولايات العربية يومئذ .

حول مؤتمر الولايات العربية ومصادر وثائقها المنعقد في تونس

د . عبدالجليل التميمي

وقد برزت في هذا اللقاء العالمي أهمية وحيوية اتصال المتخصصين في تاريخ الدولة العثمانية . وزادنا ذلك اقتناعًا بجدوى هذه اللقاءات وحرصنا جميعًا على مواكبتها وإنجاحها ، باعتبارها الوسيلة الوحيدة لمعرفة الاتجاهات المستقبلية للبحث العالمي .

وقد تواصلت هذه اللقاءات حيث عقد المؤتمر الثاني بمدينة سراجيفو بيوغسلافيا والمؤتمر الثالث بمدينة هامبورغ بألمانيا . وفي سنة ١٩٨٠م، عقدت حلقة دراسية أخرى بمدينة استراسبورغ بفرنسا على هامش المؤتمر العالمي للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي لتركيا .

ونظرًا لعضويتي في اللجنة العالمية لدراسات ما قبل العهد العثماني والفترة العثمانية ، فقد تقدمت باقتراح عقد المؤتمر العالمي الرابع بتونس ، وبخاصة وأن اثنين من المؤتمرات السابقة قد تما في بلدان أوروبية ، ليس لها تمامًا أي ارتباط حضاري بالدولة العثمانية ، ولم تكونا ضمن البوتقة العثمانية . وقد شرحت يومها أن الولايات العربية كانت تشكل أربعة أخماس الإمبراطورية العثمانية ، وأنه من غير المعقول أن يستمر في تجاهل أهمية الدراسات التاريخية العربية التي ظهرت خلال السنوات العشر الأخيرة عن الولايات العربية في العهد العثماني ، وبخاصة إذا علمنا أن اللجنة العالمية تسعى إلى دراسة العهد العثماني ، دارسة منصفة وعلمية . إلا أن أغلبية الأعضاء قد صوتت إلى جانب أسبانيا لأسباب لا مجال لذكرها هنا . وبالفعل فقد عقد مؤتمرنا الخامس بمدينة كوانكا من ٣٠ يونيو إلى ٤ يوليو ١٩٨١ م .

ولدى اجتماع الهيئة المديرة **بكوانكا** ، عرضتُ من جديد اقتراح عقد المؤتمر الخامس بتونس ومدى أهمية ذلك بالنسبة للبلاد العربية والبحث التاريخي بصورة عامة . وقد صوّت أغلب الأعضاء إلى جانب اقتراحي ، وعهدت إلى مسئولية ذلك . وقد سعدت شخصيًا بهذا القرار ، وبخاصة وأن عددًا من الأعضاء كان يشكك في جدوى هذه المؤتمرات التي تتم في البلاد العربية والتي كانوا يعدونها لقاءات الموائد والزيارات والتعرف ، وأن القاعدة جرت أن يتكفل البلد العربي المضيف بتسديد كل النفقات : من تذاكر السفر والإقامة والهدايا المختلفة . وكنت أشعر يومها أن نجاح أو فشل هذا المؤتمر بتونس ، سيكون له أبعد الأثر في تغيير الصورة القائمة أو الإبقاء عليها ، وهي الصورة التي كانت تتميز بها المؤتمرات العربية نتيجة الطابع الاستعجالي

والتسييس والاعتباط في اختيار المشاركين ، وهذا ما يعكس أن حظ المؤتمرات العربية من الروح العلمية كان ضئيلاً .

وقد آلينا على أنفسنا أن لا ندعو إلى مؤتمرنا إلا العاملين الجادين والذين يهمهم تقدم البحث العلمي . وقد وجهنا الدعوة إلى أكثر من مائة وخمسين باحثًا من جميع أنحاء العالم ، لا يحدونا في ذلك الاختيار ، إلا اقتناعنا بالطابع العلمي لأبحاث الأساتذة المدعوين ، وبخاصة العناصر الشابة والمغمورة والتي كانت تعمل في ظروف صعبة جدًّا .

ومن جهة أخرى ، وكشأن المؤتمرات العلمية البحتة ، فإن كل المدعوين ، تفضلوا مشكورين ، بقطع تذاكر سفرهم وتسديد تكاليف إقامتهم بتونس . ولعل هذا هو المؤتمر الأول من نوعه الذى يتم بهذا الشكل في البلاد العربية . ولقد رفضنا الاستنجاد بأية مساعدة من الخارج على الإطلاق؛ذلك أن نجاح المؤتمرات العلمية العالمية لا تتوقف البتة على المبالغ المالية المخصصة أو المساعدات التي تأتي لمؤسسات دون غيرها .

وقد استجاب لدعوتنا أكثر من مائة باحث حضر منهم حوالي الثمانين ، وقدموا أكثر من سبعين بحثًا ، كانت جميعها في مستوى علمي متميز جدًّا . وقد كتبنا الكلمة التالية في برنامج مؤتمرنا الذي تم توزيعه على المشاركين :

«إنه لشرف للمعهد الأعلى للتوثيق ، هذه المؤسسة الجامعية التونسية الحديثة العهد ، أن تتشرف بدعوتكم لحضور المؤتمر العالمي الخامس عن الولايات العربية ومصادر وثائقها ، وهو المؤتمر الذي تنظمه بالتنسيق مع اللجنة العالمية للدراسات العثمانية .

إن تلبية الدعوة لحضور المؤتمر من طرف حوالي مائة من المتخصصين العالميين ، عربًا وأجانب ، بتونس ، بلد الطمأنينة ومهد الحضارات واللقاءات والحوار ، ليعد مكسبًا علميًا فريدًا ، فضلاً عن أنه يكتسب أهمية بالغة بالنسبة لذوي الطموح الخلاق والعاملين المؤمنين بحركية الأخذ والعطاء . على أن الذي يشد هؤلاء المؤرخين لحضور مؤتمرنا هو لا شك إخلاصهم للبحث العلمي وسعيهم لتأطير شبكة المعلومات المتناقضة عن الدولة العثمانية والبلاد العربية ،

وهذا في محاولة منهم لتحديد المقاييس والمراجع الأساسية والتي بفضلها يمكننا في المستقبل القريب ، القيام بتحليل أكثر إنصافًا وأقل تناقضًا عن الدولة العثمانية والبلاد العربية

ومما لا شك فيه أن هذا المؤتمر سوف يؤكد على مدى أهمية المصادر العثمانية والعربية وغناهما بكل ما يتعلق بالولايات العربية في العهد العثماني .

إن تنوع المحاضرات التي ستقدم أو ستقرأ وتعدد جنسيات المشاركين الذين تفضلوا بتسديد نفقات سفرهم وإقامتهم ، يجعل من هذا المؤتمر ، مؤتمرًا فريدًا من نوعه على الاطلاق .

نأمل أن ينجح هذا المؤتمر في خلق حركة علمية حقيقية ، رغبة منا في محاربة حالة الفقر الفكري للتاريخ العربي وكذلك ظاهرة تسييس المؤتمرات العديدة التي تمت حتى اليوم في الوطن العربي .

إننا نريده مؤتمرًا علميًا بحتًا .

وهذه هي قائمة الأبحاث ، التي قدمت في المؤتمر :

- د. **أبو عليه** ، عبد الفتاح حسن :
كلية العلوم الاجتماعية ـ جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية ـ الرياض .
العثمانيون وبنو خالد في الاحساء .

- د. **إحسان أوغو** ، اكمل الدين :
مدير مركز الابحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول .
اشغال المراكز العلمية لكل ما يتعلق بالتاريخ الإسلامي .

- **الحكيم ارنولاي** ، فراسنوا :
صحافة استانبول وأحداث تونس سنة ١٨٨١ م .

● **د. اريبوس بالاو** ، جامعة كنبلوتنس ـ مدريد .

حول إرسال كميات من القمح من المغرب الاقصى إلى طرابلس .

● **د. اريكان** ، مظفر :

كلية اللغات والتاريخ والجغرافيا ـ جامعة انقرة .

نقرة والعثمانيون (ت) .

● **السيدة أسين** ، آمال :

معهد أبحاث الثقافة التركية .

الأوصاف والرسوم المتعلقة بالحرمين الشريفين مكة والمدينة في المخطوطات التركية في العهد العثماني . (ف) .

● **د. اكارلي** ، انقيل :

جامعة البوغاز ـ استانبول .

١ ـ المصادر العثمانية لمتصرفية جبل لبنان ١٨٦١ ـ ٨/١٩١٥ . (ق) .

٢ ـ النظام القضائي في لبنان العثماني كحركية للدعم الاجتماعي ١٨٦١ ـ ٨/١٩١٥ . (ق) .

● **آل الشيخ** ، عبد الملك بن عبد الله :

الأمين العام لدارة الملك عبد العزيز ـ الرياض .

الولايات العربية أثناء الفترة العثمانية. (ع).

● **آل زلفه** ، محمد عبد الله :

كلية الدراسات الشرقية ـ جامعة كامبريدج .

المسألة العسيرية في الوثائق العثمانية في الفترة ما بين ١٨٤٠ ـ ١٨٧٣ . (ع) .

● **إلكسندر سكو** ـ درسكا بولغارو ، ماري ماتيلد :

معهد يورغا التاريخي لأكاديمية العلوم الاجتماعية والسياسية ـ رومانيا .

حول تمويل استانبول في القرن السادس عشر . (ف) .

● د. **اناجيك** ، خليل :

قسم التاريخ بجامعة شيكاغو .

١ ـ العرب مع الفاتحين العثمانيين للروملي سنة ١٣٥٢ . (ق) .

٢ ـ المقاييس والموازين في الإمبراطورية العثمانية . (ق) .

● د. **أوكيار** ، عثمان :

قسم الاقتصاد ـ جامعة حجتبه . انقره .

دور الدولة في اقتصاد الإمبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر . (ق) .

● د. **ايبلزا** ، ميكال دي :

جامعة إليكانت (أسبانيا) .

العثمانيون واندماج الأندلسيين المطرودين من أسبانيا في المغرب العربي خلال القرن السابع عشر . (ف) .

● د. **ايرزي** ، عدنان :

الجمعية التاريخية التركية .

بعض المصادر المهملة لتاريخ شمال أفريقيا . (ق أو ت).

● د. **بارال** ، سنشاز جوزي م :

معهد الدراسات الشرقية . جامعة مدريد الحرة .

ملاحظات حول مخطوط تركي عثر عليه في جزيرة ايبيزا (Ibiza) (ف) .

● د. **باكي ـ قرامن** ، جون لوى :

معهد الدراسات التركية ـ جامعة باريس الثالثة .

حول التشهير بتجاوزات خائر بك والي مصر العثمانية ١٥٢١ . (ت) .

● د. **براهيمي** ، دنيز :

جامعة باريس السابعة . وحدة علوم النصوص والوثائق .

خمسون سنة من وجهة النظر الأوروبية حول النزاعات العربية ـ التركية (١٧٧٠ ـ ١٨٢٠) .

● د. **برتيبي** ، بيار :
المركز الثقافي الفرنسي بقسنطينة .
الأسبانيون في مواجهتهم للخطر التركي على المغرب الأقصى ، قبيل معركة وادي المخازن . (ف) .

● د. **البشروش** ، توفيق :
قسم التاريخ ـ كلية الآداب ـ الجامعة التونسية .
بربارسك البلاد التونسية بين الاسطورة والتأويل . (ف) .

● د. **بكر** ، عبد الوهاب :
كلية الآداب ـ جامعة الزقازيق ـ مصر .
أحمد باشا الجزار ومصر : رؤية جديدة . (ع) .

● د. **بيازنا** ، كالوجيرو :

معهد الدراسات الأفريقية والشرقية ـ جامعة كاليري (إيطاليا) .
المصادر الأوربية عن تاريخ الولايات العربية في العهد العثماني . (ف)

● د. **تشاييش** ، جمال :
المعهد الشرقي بسراجيفو (يوغسلافيا) .
تأثير ابن عربي ومدرسته على الطرق الصوفية بالبوسنة والهرسك وعلم اللاهوت الصوفي لهذه الولاية اليوغسلافية . (ق)

● د. **التميمي** ، عبد المالك خلف :
قسم التاريخ جامعة الكويت .
لمحات من التاريخ الاقتصادي للمغرب العربي قبيل الاستعمار الغربي . (ع) .

● د. **تيك** ، جون بيار :

المعهد الفرنسي للدراسات العربية ـ دمشق .

الأوامر السلطانية كمصدر لتاريخ حلب في القرن الثامن عشر. (ف) .

● **جحيدر** ، عمار محمد :

مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ـ طرابلس .

العلاقات الليبية التونسية (١٨٣٥ ـ ١٨٨١) . (ع) .

● د. **جودة** ، أحمد حسن :

قسم التاريخ ـ جامعة الملك سعود ـ الرياض .

حركة الشيخ ظاهر العمر الزيداني في شمال فلسطين : دراسة ومصادر . (ع) .

● د. **جورجن** ، فرانسوا :

المركز الوطني للبحث العلمي (باريس) .

يوميات أحد بورجوازيي استانبول في أوائل القرن العشرين . (ف) .

● د. **حجي**، محمد:

قسم التاريخ ـــ جامعة محمد الخامس ـــ الرباط .

علاقة المغرب بالدولة العثمانية وولاية الجزائر في القرن السادس عشر. (ع).

● د. **الحميدان**، عبد اللطيف نصر:

قسم التاريخ جامعة الملك سعود ـــ الرياض.

مخطوطة الرحلة الحجازية لعلي بن عبدالله الموسوي كمصدر هام لتاريخ العراق وخوزستان خلال القرنين السابع والثامن عشر. (ع)

● د. **الدولاتلي**، عبد العزيز:

المعهد القومي للآثار والفنون ـــ تونس.

التأثيرات العثمانية على العمارة التونسية. (ف).

● د. **رمضان**، عبد العظيم:

رئيس قسم التاريخ ــ جامعة المنوفية ــ مصر.

التأثير الحضاري للفتح العثماني في الولايات العربية (ع).

● د. **ريمون**، اندري:

جامعة اكس أون بروفنس ــ فرنسا.

أحياء إقامة التجار والصناع المغاربة بالقاهرة في القرنين السابع والثامن عشر. (ف).

● د. **الزواوي**، على:

محافظ المعهد القومي للفنون والآثار ـ صفاقس.

التجارة الشرقية للايالة التونسية من خلال قضية محمد الجلولي ومحمد الخراط خلال القرن الثامن عشر. (ع).

● **الشعفي**، محمد سعيد:

جامعة الملك سعود.

التجارة الخارجية لجدة في منتصف القرن التاسع عشر. (ق).

● د. **سكلتير**، سوزان آن:

كلية الدراسات الشرقية ـ كامبريدج.

وثائق تهم بداية العلاقات بين انقلترا وتونس. (ق).

● د. **الشاطر**، خليفة:

قسم التاريخ ـ كلية الآداب ـ الجامعة التونسية.

الوجود العثماني بتونس بين الاسطورة والواقع. (أ و ف).

● د. **شامبرز**، ل. ريكاردو:

مركز دراسات الشرق الاوسط ـ جامعة شيكاغو.

زايده محمد: ومهمته في مصر ١٨٥٢. (ق).

● **د. الشريف** ، محمد الهادي :
قسم التاريخ ـ كلية الآداب ـ الجامعة التونسية .
وثائق محكمة الديوان القديمة وأهميتها . (ف) .

● **د. السبيعي** ، عبد الله الناصر :
جامعة الملك سعود ـ قسم التاريخ .
المفاوضات الانقليزية العثمانية حول مصر (١٨٨٥ ـ ١٨٨٧). (ع) .

● **الصفصافي** ، أحمد المرسي :
الـدارة ـ الرياض .
الدولة العثمانية والولايات العربية (ع) .

● **د. الصباغ** ، ليلى :
قسم التاريخ ـ جامعة دمشق .
الحياة الاقتصادية في فلسطين في العقد الثامن من القرن الحادي عشر/ العقد السابع في القرن السادس عشر ، (كما قدمها تاجر فرنسي) . (ع)

● **د. طربين** ، أحمد :
قسم التاريخ ـ جامعة دمشق .
مظاهر من الحكم العثماني أثناء ولاية مدحت باشا في سورية . (ع).

● **د. فانشتاين** ، جيل :
المعهد العالي للدراسات في العلوم الاجتماعية (باريس) .
ملامح حول دخول جزيرة جربة في البوتقة العثمانية . (ف) .

● **د. فرج** ، سيزار :
قسم التاريخ ـ جامعة مينيسوتا .
صراع المصالح الانقليزية ـ العثمانية في جنوب العربية في النصف الأول

في القرن التاسع عشر. (ق).

● **د. فواز**، ليلى:

قسم التاريخ ـ جامعة توفتس. الولايات المتحدة الأمريكية.

الأزمة السياسية والتحول الاجتماعي: الحرب الأهلية سنة ١٨٦٠ بجبل لبنان والوضعية الداخلية السورية. (ق)

● **د. قاسم**، جمال زكريا:

رئيس قسم التاريخ والآثار. جامعة الإمارات العربية المتحدة ـ العين.

العلاقات العثمانية ـ البريطانية في منطقة الخليج العربي قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى. (ع).

● **د. قاسمية**، خيرية محمد:

قسم التاريخ ـ جامعة دمشق.

فلسطين في العهد العثماني: المقاومة العربية للنشاط الصهيوني (١٩٠٨ ـ ١٩١٨). (ع)

● **قالوطا**، الدو:

المعهد الجامعي الشرقي (إيطاليا).

المغرب في وثائق دور إيطاليا بالبندقية وفلورنس ونابولي. (ق).

● **د. قرين**؛ ارنلد:

مركز الدراسات العربية ـ الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

ظاهرة البلديين في القاهرة وتونس. (ق).

● **د. عبد الرحيم**، عبد الرحمن عبد الرحيم:

كلية الانسانيات ـ جامعة قطر.

العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية أثناء العهد العثماني من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية. (ع)

● د. **عوض**، عبد العزيز محمد :

دائرة العلوم الإنسانية والاجتماعية ـ جامعة اليرموك ـ الأردن .

التنظيمات العثمانية وأثرها في الولايات العربية. (ع) .

● د. **كاربات** ، كمال :

جامعة وسكنسن ـ مادسن . الولايات المتحدة الأمريكية .

الهجرة من سوريا العثمانية إلى أمريكا. (ق) .

● د. **كورتبتر**، كارل ماكس :

مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة نيويورك .

الاتصالات الأمريكية الأولى مع ولايتي الجزائر وتونس. (ق) .

● د. **كريزير**، كلوس :

جامعة ميونخ ـ ألمانيا .

المصادر العثمانية الجديدة عن اليمن. (ق) .

● د. **كريسيليوس** ، دانيال :

جامعة كاليفورنيا ـ لوس أنجلوس .

مدى تأثير الوقف على ثلاثة محاكم قاهرية (١٦٥٠ ـ ١٨٠١). (ق) .

● د. **لافيرون** ، سنتال :

وثائق عن الجزائر بارشيف أسبانيا.

● د. **لسزلو** ، ناجي :

جامعة سيغد بالمجر .

شبكة معلومات المجريين عن الولايات العربية في شمال أفريقيا المنضوية تحت الإمبراطورية العثمانية أثناء فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر. (ف) .

● د. **ماليكوف** ، ايرين :

معهد الدراسات التركية بجامعة ستراسبورغ ـ فرنسا .

نظام البكتاشيين بعد سنة ١٨٢٦ . (ف) .

● **د. مراد علي :**

كلية الآداب والحضارات ـ جامعة ليون الثالثة ـ فرنسا .

النزعة التركية في النقاش الوطني بالجزائر في بداية القرن (١٩١١ ـ ١٩١٨) (ف) .

● **د. المرزوقي ،** محمد الحبيب :

قسم الفلسفة ـ كلية الآداب ـ الجامعة التونسية .

الاصلاحات النهضوية وعلاقتها بالنظريات الخلدونية . (ع) .

● **د. مزين ،** محمد :

قسم التاريخ ـ كلية الآداب ـ جامعة فاس .

الخطاب المعتمد في الكتابات التاريخية المتعلقة برصد علاقات المغرب بالعثمانيين).

● **د. مورالس ـ لزكانو ،** فكتور :

قسم التاريخ ـ جامعة مدريد الحرة .

المغرب الأقصى قبل الفترة الاستعمارية والتحضير للحماية (١٨٠٠ ـ ١٩١٢) . (ق) .

● **د. الهنية ،** عبد الحميد :

قسم التاريخ بدار المعلمين العليا ببنزرت .

السجون والمساجين بتونس خلال حكم علي باي . (ف) .

● **د. يوجال ،** ياشار :

قسم اللغات والتاريخ والجغرافيا ـ جامعة انقرة .

مصدر جديد : تاريخ فتح قلعة كنديا . (ت) .

● **د. هبـــود :**

معهد الدراسات الشرقية والأفريقية ـ لندن .

محاكم العدل التركية بولايات شمال أفريقيا في أواخر القرن السابع عشر : بعض الوثائق في دار الوثائق البريطانية . (ق) .

على أن هناك عددًا آخر من الزملاء الذين لم يتمكنوا من الحضور ، وقد وعدوا بإرسال بحوثهم لنشرها ضمن أعمال المؤتمر . وقد تبنينا طريقة عملية في إنجاح لقائنا ، وذلك بإحداث لجنتين اثنتين ، يتم إلقاء المحاضرات في لغتها الأصلية ويوزع موجز لها في لغة ثانية في الحال وأثناء الإلقاء . وقد لعبت اللغة العربية دورها الاشعاعي الطبيعي في مثل هذه المؤتمرات العالمية . وقد خصصنا لالقاء المحاضرات عدة جلسات ، لمناقشة كل المحاضرات بالنسبة للجنتين . وبالفعل فقد تبين لجميع المشاركين أن هذه الطريقة مفيدة جدًا وقد مكنت كل المدعوين من الاستفادة والمشاركة الفعالة في إدارة الحوار البناء المثمر .

إنه يستحيل علينا أن نأتي على طبيعة الأبحاث التي ألقيت في المؤتمر ولا على القيمة العلمية والمطلقة التي أبداها المشاركون والروح البناءة والاحترام المتبادل الذي تميزت به المداولات والنقاش بين جميع المشاركين ، وخصوصًا بين المؤرخين العرب والأتراك . ولعل نشر الأبحاث قريبًا سوف يعكس هذه الحقيقة . إلا أننا نؤكد أن مستقبل البحث التاريخي العربي سوف يستفيد من هذه اللقاءات العالمية ، والباحثون العرب مدعوون إلى الإسهام بدلوهم في حركية الأخذ والعطاء العالمية ، كما أنهم مدعوون إلى التعريف بنتائج البحث العربي على المستوى العالمي ، وأنه من غير المعقول أن نبقى بعيدين عن صنع تاريخ بلادنا بحجة أو بأخرى ، وبخاصة وأننا نلاحظ انعدام أخذ المبادرة من كلياتنا النائمة والحمد لله . ناهيك عن أن كليات الآداب والعلوم الإنسانية في جامعات المغرب العربي بل قل في الوطن العربي ، لم تنجح إلا في خلق التقوقع والانغلاق وضرب الصمت حول قدسيتها وحرمها والتباهي بأن بعضها يعد من أفضل الكليات علمًا وعملاً وإشعاعًا ورسوخًا في العلم ، وهي في الحقيقة والواقع تشكو الفقر الفكري الصارخ والفراغ العلمي المدهش .

إن تعداد المراكز التاريخية والوثائقية في العالم أكثر بكثير مما هو موجود في الأرض العربية ، والمتوفر اليوم في أرضنا العربية قد أُحدث بعضه أو إن شئت قل جلّه ، ليس لحاجة علمية أو تخطيط بعيد المدى لفلسفة البحث العلمي أو وضع استراتيجية مستقبلية جديدة ، ولكن مع الأسف الشديد ، أحدثت هذه المراكز لإرضاء بعض الشخصيات أو الطموحات السياسية أو ليسجل في الدفتر الشرفي لتلك الدول . إن مسئولية البحث العلمي ليست رهينة الاشخاص أو المؤسسات الحكومية ، بل هي مسئولية الباحثين العاملين جميعهم دون استثناء .

وعلى ضوء ذلك ، وايمانًا منا بوجوب المساهمة في حركية الأخذ والعطاء والسعي إلى تكتل الجهود وتنسيقها بين كل المؤرخين العرب العاملين في حقل الدراسات العثمانية ، دعونا كل الأخوان العرب أثناء مؤتمرنا هذا ، واقترحنا عليهم إنشاء **(اللجنة العربية للدراسات العثمانية» A. C. O. S. = Arab Committee for Ottoman Studies وأحطناهم علمًا بكل الخلفيات التي توجه بعض الدراسات التاريخية العالمية المعادية للعرب ، وحتمية اجتماعنا وتنظيم لقاءات دورية تتناول بالبحث والدرس أحد القضايا المهمة في تاريخ الولايات العربية في العهد العثماني . وقد اتفق الإخوان العرب على إنشاء هذه اللجنة على أن يكون مقرها تونس ، ووضع مسودة دستور وتشكيل لجنة مؤقتة**[1] لوضع اللمسات الأخيرة لمشروع الدستور ، وإقرار تنظيم أول مؤتمر عالمي في شهر يناير ١٩٨٤م بتونس ، ويكون موضوعه :

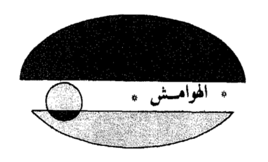
«الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصادر وثائقها في العصر العثماني» .

على أن يتلو ذلك ، مؤتمرات دورية في دول عربية أخرى . هذا وسوف ينتخب المشاركون في مؤتمر تونس المقبل ، **أعضاء اللجنة العربية للدراسات العثمانية** .

إن مشاركة عدد من المؤرخين العرب في المؤتمر الخامس للجنة العالمية لدراسات ما قبل العهد العثماني والفترة العثمانية ، كانت فرصة ثمينة لتبادل وجهات النظر بين كل المشاركين على اختلاف جنسياتهم . وقد تمكن الجانب العربي من إرساء حوار بناء ومعمق مع زملائهم الأتراك . ومن الجدير بالذكر أيضًا أن اللجنة العالمية هاته ، إيمانًا منها بأهمية دور المؤرخين

العرب ، قد قبلت مبدأ ضم عضوين عربيين في هيئتها المديرة بالإضافة إلى العضوين السابقين[٢] وهما : الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم من مصر والدكتور عماد عبد السلام رءوف من العراق .

لقد ساهم كل المدعوين الذين تكرموا بتشريفنا بحضورهم ، في إنجاح مؤتمرنا بفضل ما قدموه من بحوث رائدة وجديدة وما أبدوه من تفهم ومسئولية كان لها أبعد الأثر في إنجاح المؤتمر على جميع المستويات . كما لا يسعني إلا التنويه بكل المسئولين التونسيين الذين اتصلنا بهم وتفضلوا باستقبال المشاركين واستضافتهم[٣] .



الاصطلاحات التالية هي :

(ع) = إلقاء المحاضر باللغة العربية .

(ف) = إلقاء المحاضرة باللغة الفرنسية .

(ق) = إلقاء المحاضرة باللغة الانقليزية .

(ت) = إلقاء المحاضرة باللغة التركية .

(١) تتألف هذه اللجنة من الزملاء : د. الشعفي ، د. أحمد طربين ، د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، د. سيزار فرح ، د. عماد عبد السلام رؤوف ، د. عدنان البخيت ، د. علي الزواوي ود. التميمي رئيسًا لها .

(٢) د. عبد الكريم رافق واع. التميمي .

(٣) استقبلنا سيادة الوزير الأول الأستاذ محمد مزالي ، ووزير التعليم العالي والبحث العلمي الأستاذ عبد العزيز بن ضياء ، ووزير الثقافة الأستاذ البشير بن سلامة وشيخ مدينة تونس السيد زكريا بن مصطفى وشيخ مدينة القيروان بالنيابة ، ومدير مركز التوثيق الوطني ، الزميل عبد الباقي الدالي ؛ فاليهم جميعًا كل امتناننا العميق ، ولكل من ساهم في التعريف بالمؤتمر ومواكبته صحفيًا ، وكذلك موظفي المعهد الأعلى للتوثيق الذين تفانوا جميعهم في تقديم كل الخدمات الممكنة .

الدولة العثمانية

د. الصفصافي أحمد المرسي



ـــة والولايات العربيـــة



● السمات العامة للدولة العثمانية في الولايات العربية :

الدولة العثمانية قدر لها من بين دول الترك أن تُصبحَ إمبراطوريةً مترامية الأطرافِ ، وأن تحكم شعوبًا ، ومللاً ، ونحلاً غيرَ متجانسةٍ ، وأن تكونَ أطولَ دول الترك بقاءً ، إذ عمرت ٦٢٣ عامًا (١٢٩٩ ـ ١٩٢٢ م) واختلف على عرشها أربعون حاكمًا ، الثلاثة الأول منهم بكوات والباقي سلاطين ، ووليها من أيام السلطان سليم الأول (١٤٧٠ ـ ١٥٢٦ م) إلى انقراضها اثنان وثلاثون سلطانًا خليفةً ، جمعوا في أيديهم السلطتين الزمنية والروحية ، ودُعي لهم على منابر العالم الاسلامي السني طوال ٤٠٦ سنة[١] .

ولقد ورثت هذه الدولة حضارةَ السلاجقة ومؤسساتِهم العلمية[٢] وحضارة الدول التركية الأناضولية ، وأخذت نُظم الإدارة عن دولة المماليك والايلخانيين ، وتأثرت بالبيزنطيين والصقالبة ، ونبغ من العثمانيين في عهد سليمان طائفة من مشاهير علماء المسلمين ، أشهرهم شيخ الإسلام ابن كمال باشا صاحب المكانة المرموقة منذ أيام سليم الأول ، وأبو السعود أفندي صاحب التفسير وسلطان المفسرين[٣] واحتلت اللغة العربية المكانة الأولي في نفوس الأتراك .. وكان يُدَرّس بها كل العلوم الدينية والتطبيقية[٤] بل كان العالم التركي يضع مؤلفاته أولاً باللغة العربية وإذا أراد لها الانتشار بين بني جنسه ترجمها بعد ذلك إلى التركية[٥] .

ولقد كانت **السمة الدينية من أهم السمات** التي اتسمت بها تشريعات الدولة العثمانية ومعظم تصرفاتها ، فقد كان للهيئة الإسلامية وضعٌ معترف به . ومركزٌ مرموق ، وكان يُطلق على رئيسها «**المفتي**» أو **مفتي استانبول** ، ثم تغير هذا اللقب إلى «**شيخ الإسلام**» ، الذي كان يشرف على الهيئات القضائية والهيئات ذات الطابع والنشاط الديني ، وكان السلاطين أنفسهم حريصين على تدعيم سلطته ويعملون على استغلالها كلما حز بهم أمر أو أقدموا على مشروع خطير ، كان المفتي يصدر فتوى تجيز الحرب دفاعًا أو هجومًا ، وعقد الصلح وغير ذلك من الأحداث الجسام ، وكانت الدولة العثمانية تهتم اهتمامًا بالغًا بنشر التعبئة الروحية بين أفراد القوات المسلحة وإثارة عاطفتهم الدينية وصولاً إلى «**تسخين**» الجنود روحيًا قبل خوض المعارك[٦] .

وقد اعتمد العثمانيون المذهب الحنفي مذهبًا رسميًا للدولة ، ولعب المفتون في **استانبول** ، وفي مراكز الولايات ، دورًا هامًا في مختلف المجالات ، وكانت الأولية في بدء الدولة العثمانية

للقاضيعسكر[٧] الذي كان يرافق الجيش المحارب ، ثم أصبح المفتي رئيسًا للعلماء في عهد **السلطان سليمان القانوني (١٤٩٥ ـ ١٥٦٦ م)** وكان يلقب بشيخ الإسلام مبنيًا على الدور الذي لعبه في التوفيق بين القوانين التي اصدرها سليمان القانوني وبين الشريعة ، وكان يحق لمفتي استانبول إصدار فتوى بعزل السلطان نفسه ، كما أنه هو الذي يعين المفتين في مراكز الولايات ، أما المذاهب الأخرى فقد تركت الدولة لأفرادها حق اختيار مفتيها من بينهم[٨] .

وكانت الأولوية بين القضاة للقاضي الحنفي ، ويُعين القاضي الحنفي أيضًا في مراكز الولايات العربية من قبل قاضيعسكر الأناضول في استانبول .. ومنذ بداية القرن السابع عشر بدأ في تعيينه من بين المحليين أحيانًا وفي القرن الثامن عشر تم تعيين القاضي دائمًا من بين المحليين .. **وكان قاضي دمشق من أبرز قضاة بلاد الشام ، واعتبر في مستوى قاضي مصر على اعتبار أن المدينتين كانتا عاصمتين سابقتين للخلافة ، وقد لقب بلقب قاضي القضاة ، وأحيانًا بلقب ملاًّ أو منلا**[٩] وأقام قاضي القضاة في المحكمة الرئيسية ، وله نواب يصرفون شئون القضاء في المحاكم الفرعية ..

وهناك منصب **نقيب الأشراف**[١٠] في مركز الولاية ، ويعين من قبل نقيب الأشراف في استانبول .. ويشرف على شئون الأشراف المختلفة ..

وكان من مظاهر الطابع الديني في الدولة العثمانية ، العناية الفائقة التي أبداها السلاطين بإنشاء وتجديد العديد من المساجد الكبرى ، ورصد الاعتمادات المالية الضخمة على تشييد هذه المساجد دليل على عناية السلاطين بمراعاة الشعور الديني المتسلط على الرعايا العثمانيين ، ومن ثم قام تنافس من أجل إقامة المساجد بين السلاطين الذين تعاقبوا على عرش الدولة وحذا حذوهم الأمراء والأميرات ورجالات الدولة ويقول محمد جميل بيهم «لم يكن سبب هذا التنافس حاجة ملحة إليها بقدر ما كان الهدف هو اكتساب قلوب الشعب عن طريق الدين»[١١] .

ولم يكن اهتمام السلاطين بإنشاء المساجد مقصورًا على الأقاليم التي كانت مهدًا للعثمانيين عند نشأة دولتهم ، بل امتد الاهتمام إلى الولايات الإسلامية ، ففي مصر ـ على سبيل المثال ـ كان البشوات العثمانيون يشيدون ـ بناء على أوامر تصدر لهم في غالب الأحيان من استانبول ـ مساجد جديدة ـ **كمسجد سليمان باشا بالقلعة (١٥٢٨ م) والمحمودية (١٥٦٧ م) وسنان باشا (١٥٧١ م) والملكة صفية (١٦١٠ م)** وكان السلاطين يعهدون إلى الولاة في إصلاح وتجديد

المساجد القديمة وعلى رأسها الحرمين الشريفين والجامع الأزهر والمسجد الأموي بدمشق(١٢) .

وقد وضح الطابع الديني في التطبيق الصارم للشريعة الاسلامية ، والنص في قوانين الدولة منذ عهد السلطان القانوني على أنها تتفق مع الشريعة الاسلامية كما وضح أيضًا في المحافظة على التقاليد الدينية وإقرار عقوبات التجريس أو التشهير في حق من يرتكب جريمة الإفطار في رمضان أو ترك الصلاة ، بل وصل الأمر إلى حد الزج بالمخالف في الترسيم أي الاعتقال(١٣) .

كما أن الدولة أشرفت إشرافًا فعليًا على الحج ، واعتبرت هذا العمل واجبًا يقع على عاتقها ، باعتباره الركن الخامس من أركان الإسلام ، وأن عليها تيسير الحج أمام الراغبين فيه ، فأنشأت الآبار على طول طرق الحج ، وأقامت الحصون ، وشجعت على إقامة الخانات ، وأقامت المخافر ، وكانت تشرف على قوافل الحج الأربع(١٤) الرئيسية التي تخرج من كافة أنحاء الدولة في مواعيد محددة ، وتضع لها قوة تحرسها ، يقودها أحد كبار العسكريين الذي كان يسمى سردار الحج(١٥) وكان على رأس كل قافلة أميرٌ للحج ، وكثيرًا ما كان أمير الحج يتولى قيادة الجيش ، وبخاصة في قافلة الحج الشامي(١٦) ومما يؤخذ على الدولة العثمانية منذ نشأتها مؤازرتها للطرق الصوفية .. فقد أولت الطرق الصوفية وأربابها أهمية بالغة ، وأمدتهم بالعون المادي ، وألحقتهم بالجيش ، وانتسب السلاطين إلى الطرق الصوفية ، وكان كل منهم حريصًا على ذلك الانتساب ، وضجت الأناضول والبلقان والولايات العربية بالطرق الصوفية كالنقشبندية والمولوية والبكداشية والرفاعية أو الأحمدية والخلوتية والكازرونية أو الاسحاقية أو الرشيدية(١٧) مما شوه حقيقة الإسلام وساعد على إدخال البدع في صلب الدين ..



• السلطان محمد الفاتح •

وأخذت الدولة كذلك بنظام **الفتوة** الذي يُعد الطابع الإسلامي للفروسية العربية ، والذي

ورثته عند قيامها في الأناضول ، وقد خالطهم **ابن بطوطة** ووقف على نظامهم وتعرف على زواياهم وأسلوبهم في الحياة ، ثم تحدث عنهم في «**تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**[١٨] وقد كانوا جميعًا معتنقين للمذهب السني واستفادت منهم الدولة في حروبها مع الدويلات والثغور المتاخمة ..

كما أن الاهتمام الكبير بالحجاز كان من السمات التي حافظ عليها كل السلاطين العثمانيين ، فقد كانت تبعية الحجاز وما يحويه من أهم الأماكن المقدسة الإسلامية للدولة العثمانية مما أضفى عليها مركزًا دينيًا مرموقًا ، في جميع أرجاء العالم الإسلامي .. وقد أعفته الدولة من أداء الضرائب ، بل أقر له **سليم الأول** ثلث ما كان يجيء من مصر[١٩] كما أوقف خراج اليونان عند فتحه على الحرمين الشريفين[٢٠] . ولم يكن الاهتمام وقفًا على الأماكن بل تعداها إلى المواطن ، فقد أُعفى سكان الحجاز من التجنيد[٢١] وأبقت الدولة على الحكم الذاتي المتمثل في نظام الشرافة ، وكل ما كانت تفعله ، أن ترسل فرمانًا ، يحدد إمكانات واختصاصات وواجبات الشريف الجديد عند تعينه[٢٢] وكان أمير مكة المكرمة يتمتع ـ في التشريفات ـ بأسمى مقام في صف «الصدر الأعظم» في الأستانه و«الخديوى» في مصر[٢٣] وتُرَتَّب له العطايا من قبل السلطان[٢٤] .

ومن المفيد في هذا المجال ذكر رأي **المؤرخ العربي الجبرتي** الذي يسجل إعجابه بالدولة العثمانية واهتمام السلاطين العثمانيين بـ«إقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية ، وتعظيم العلماء ، وأهل الدين ، وخدمة الحرمين الشريفين ، والتمسك في الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع ، فتحصنت دولتهم ، وطالت مدتهم وهابتهم الملوك ، وانقاد لهم المالك والمملوك»[٢٥] .

● الفتح العثماني للبلاد العربية :

إن علاقة الدولة العثمانية بالبلاد العربية بقيت ـ حتى نهاية القرن الخامس عشر ـ علاقة مجاملة ومؤازرة عن طريق المراسلة مع تبادل الوفود والهدايا ..

وكان أول احتكاك يحدث بين الدولة العثمانية ودولة المماليك المصرية قد حدث سنة **١٤٨٩ ـ ١٤٩٠ م** عندما استولى المماليك على بعض المقاطعات العائدة إلى آل ذي القدر الذين كانوا يمتون إلى آل عثمان بصلة المصاهرة ، ولذلك جرد السلطان **بايزيد الثاني (١٤٤٧ ـ ١٥١٢ م)**



• السلطان أحمد الثالث •



• السلطان سليمان القانوني •

حملة عسكرية لإخراج المماليك من تلك المقاطعات ولكن جيشه لم يستطع التغلب على جيش المماليك ، ثم كرر الحملة في السنة الثانية أيضًا دون جدوى[٢٦] .

وعندما تولى ياووز سليم (١٤٧٠ ـ ١٥٢٠ م) العرش لم يواصل الفتوحات في القارة الأوروبية بل وجه أنظاره نحو القارة الأسيوية ، وسعى وراء توسيع حدود دولته في البلاد الاسلامية لخلق تكتل إسلامي يجابه به التكتل المسيحي الصليبي الذي كان يسعى لالتهام العالم الاسلامي ، ولينقل مركز الثقل الإسلامي إلى الترك لكي يتولوا الدفاع عن العالم الإسلامي[٢٧] .

أحرز السلطان سليم نصرًا حاسمًا في «جالديران» Çaldıran سنة ١٥١٤ فتح أمامه أبواب تبريز عاصمة الدولة الصفوية التي كانت تنازعهم السلطة في العالم الإسلامي[٢٨] واستولى فيها على العرش ..

وبعد مضي سنتين توجه السلطان سليم إلى الجنوب لمحاربة المماليك وانتصر على قنصوه الغوري «قانصو جاوري» Kansugavri في «مرج دابق» بالقرب من حلب ٢٤ أغسطس سنة ١٥١٦ الموافق ٢٥ رجب ٩٢٢ هـ ، **وبعد ذلك استولى على سوريا بأكملها** ، وعين بها ولاة

من طرفه ، وقابل العلماء ، فأحسن وفادتهم ، وفرق الانعامات على المساجد وأمر بترميم الجامع الأموي بدمشق ، ولما صلى الجمعة به أضاف الخطيب عندما دعا له هذه العبارة «**خادم الحرمين الشريفين**» فاستحسن السلطان هذه العبارة وظلت مستخدمة في الخطبة إلى انهيار الدولة العثمانية (٢٩)

وفي السنة التالية قرر الاستيلاء على مصر أيضًا ، فاجتاز صحراء سيناء ووصل إلى شواطئ النيل ، ودخل العثمانيون القاهرة بعد حروب طاحنة مع المماليك في **٨ محرم سنة ٩٢٣ هـ ٣١ يناير سنة ١٥١٧ م** ، **ووقع طومان باي Tomanbay الذي تولى السلطة بعد قنصوه الغوري ، في أيدي العثمانيين بخيانة بعض مَنْ معه وشُنق بأمر السلطان سليم في ٢١ ربيع الأول سنة ٩٢٣ - ١٣ أبريل سنة ١٥١٧ بباب زويلة** ، ودفن في القبر الذي كان قد أعده الغوري لنفسه ، وقد حزن سليم الأول على شنقه وبخاصة بعد أن رأى مشهد الشنق ، وكيف انقطع الحبل مرتين متتاليتين في إحدى مسرحيات خيال الظل التي أقيمت له أثناء مقامه في منيل الروضة (٣٠) ..

ويقول **الأستاذ محمد فريد بك** «... وبعد أن مكث **السلطان سليم** بالقاهرة نحو شهر في منيل الروضة أخذ في زيارة جوامع المدينة وكل ما بها من آثار ووزع على اعيانها العطايا والخلع السنية ، وحضر الاحتفال بفتح الخليج الناصري عند بلوغ النيل الدرجة الكافية لري الأراضي المصرية ، ثم حضر احتفال خروج قافلة الحجاج التي تُرْسل معها الكسوة الشريفة إلى الأراضي الحجازية ، وأرسل الصرة كالمعتاد إلى الحرمين الشريفين بقصد توزيعها على الفقراء ، وزادها إلى ثمانية وعشرين ألف دوكا (٣١) ..

وقد تنازل محمد المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين عن حقه في الخلافة الإسلامية إلى السلطان سليم العثماني ، وسلم الأثار النبوية الشريفة وهي البيرق والسيف والبردة ، وسلمه أيضًا مفاتيح الحرمين الشريفين (٣٢) ..

وبعد أن دعم موقفه في القاهرة تحرك بالسفن من بولاق إلى دمياط ثم إلى رشيد والإسكندرية ، وقد كان حريصًا على تدعيم صلاته بالأهالي والأعيان في كل المناطق التي زارها .. ويذكر أولياچلبي في كتابه «سيا حتنامه» أن سليم استولى على مخلفات الرسول وآماناته المقدسة ضمن خزائن قانصوه الغوري في الإسكندرية (٣٣) .

وجاء بالخطط التوفيقية بخصوص ما أجراه السلطان سليم الغازي من ترتيبات بمصر ما يلي :

«لما آخذ مصر ورأى غالب حكامها من المماليك الذين ورثوها عن ساداتهم رأى أن بعد الولاية عن مركز الدولة ربما أوجب خروج حكامها عن الطاعة وتطلب الاستقلال ، فجعل حكومة مصر منقسمة إلى ثلاثة أقسام ، وجعل في كل قسم رئيسًا وجعلهم جميعًا منقادين لكلمة واحدة هي كلمة وزير الديوان الكبير ، وجعله مركبًا من الباشا الوالي من قبله ومن بكوات الأوجاقات «المعسكرات» السبع ، وجعل للباشا مزية توصيل أوامر السلطان إلى المجلس ، وحفظ البلاد ، وتوصيل الخراج إلى القسطنطينية «استانبول» ومنع كلا من الأعضاء العلو على صاحبه ، وجعل لأعضاء المجلس مزية نقض أوامر الباشا بأسباب تبدو لهم ، وعزله إن رأوا ذلك . والتصديق على جميع الأوامر التي تصدر منه في الأمور الداخلية ، وجعل حكام المديريات الأربع والعشرين من المماليك وخصهم بمزية جمع الخراج في البلاد ، وقمع العربان ، وصدهم عنها ، والمحافظة على مافي داخلها ، وكل ذلك ،بأوامر تصدر لهم من المجلس وجردهم عن التصرف من أنفسهم ، ولقب أحدهم المقيم بالقاهرة بشيخ البلد ثم رتب الخراج وقسمه أقسامًا ثلاثة ، وجعل من القسم الأول ماهية عشرين ألف عسكري بالقطر من المشاه ، واثنى عشر ألفًا من الخيالة . والقسم الثاني يُرسل إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة ، والقسم الثالث يرسل إلى خزينة الباب العالي .. ومن هذا الترتيب تمكنت الدولة العلية من إبقاء الديار المصرية تحت تصرفها نحو مائتي سنة ، ثم أُهملت بعد ذلك القوانين التي وضعها السلطان سليم ...»(٣٤) .

وكان فتح العثمانيين لسوريا والحجاز ومصر قد تم بسهولة خلال عامين ، إذ أن انتصارهم في مرج دابق ضمن لهم حكم سوريا والحجاز ، وانتصارهم في الريدانية أدخل مصر أيضًا تحت حكمهم ، وقضى على دولة المماليك القضاء المبرم(٣٥) ومن الملاحظ على الفتح العثماني لبلاد الشام والحجاز ومصر ، أن الشعب لم يقاوم العثمانيين ولم يدافع في الوقت نفسه عن المماليك ، بسبب ظلمهم السابق ، بل كانوا يرحبون بمقدم العثمانيين بسبب ما عُرِفَ ونُشر عنهم من الجهاد في سبيل نشر الإسلام وأنهم سيعاملون السكان المحليين ، بما فيهم الفلاحين باللين ، في محاولة منهم لكسب الأهالي والتفريق بينهم وبين المماليك(٣٦) وإن كان قد أبقى الكثير منهم كموظفين في مناصب الكشوفيات ، وكذلك في إمارة الحج والدفتردارية .

واستمر شيخ قبيلة الهوارة في إمارة الصعيد ، وأبقى على أصحاب الاقطاعات والأوقاف

يتمتعون بامتيازاتهم ، وأرسل السلطان سليم عددًا من الفنيين وأصحاب الحرف والصنايع إلى استانبول للمساهمة في نشاطاتها وتجميلها[٣٧] كما فعل سابقًا عندما فتح تبريز عاصمة الصفويين رغبة منه في إظهار حاضرة العالم الإسلامي بالمظهر اللائق ..

وقد أبقى العثمانيون كذلك على كثير من مظاهر الإدارة المملوكية في بلاد الشام لفترة مؤقته ، وعينوا مناصريهم كـ «جان بردى الغزالي» واليًا على دمشق والأمير **محمد بن قورقوماز الشركسي** على البقاع ، وأبدى سليم اهتمامًا بسلامة قافلة الحج الشامي[٣٨] .

الفتح العثماني للعـــراق :

كان طبيعيًا بعد أن احتلت الدولة العثمانية بلاد الشام ومصر أن تتطلع إلى فتح مركز الخلافة الآخر ، بغداد ، فتجمع بذلك بلاد المشرق العربي تحت سلطتها وتحول دون محاولات الصفويين الاستيلاء على العراق ، وكان العثمانيون في أعقاب انتصاراتهم في **چالديران ١٥١٤ م** ، قد فرضوا نفوذهم على الموصل وديار بكر وماردين وعينوا حاكمًا من قبلهم عليها ..

عين العثمانيون **الصدر الأعظم إبراهيم باشا** قائدًا على الجيش المتجه لفتح العراق ، **وغادر استانبول في ٢ ربيع الآخر سنة ٩٤٠ هـ تشرين الأول** ، (أكتوبر) **سنة ١٥٣٣ـ م** ، **واحتل تبريز في محرم سنة ٩٤١ هـ ١٣ تموز (يوليو) سنة ١٥٣٤ م** ، **ولحق السلطان سليمان القانوني بالصدر الاعظم في تبريز** ، **ثم اتجها معًا نحو بغداد** ، **ووصلها الصدر الأعظم في ٢٤ جمادي الثاني سنة ٩٤١ هـ الموافق ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٥٣٤ م** ، **وبعده بيومين دخلها السلطان سليمان** ، وسط مظاهر الحفاوة الشعبية[٣٩] وأصدر السلطان أوامر مشددة إلى جنده بعدم التعرض للأهالي ، وحاز على رضاهم أيضًا بزيارته الأماكن المقدسة في بغداد ورصده المال لها ، سواء السُنية منها أو الشيعية وقام بجهد خاص لاكتشاف قبر **أبي حنيفة** ، وأمر ببناء قبة عنده . وكذلك قبر **عبد القادر الجيلاني مؤسس الطريقة القادرية** ، كما قام بزيارة الأماكن المقدسة لديهم في النجف وكربلاء[٤٠] ..

وهرع زعماء القبائل والأعيان إلى بغداد لتقديم ولائهم للسلطان . وكان من بينهم أمير البصرة ، **راشد بن مغامس** ، الذي كان قد استقل بها ، فأبقاهم السلطان كما هم . وهكذا

خضعت البصرة للعثمانيين ، وترتب على ذلك مسئوليات دفاعية جديدة ، وبخاصة ضد البرتغاليين في منطقة الخليج[٤١] .

وقد قسمت العراق إلى أربع ولايات ، بغداد وفيها ثمانية عشر سنجقًا ، الموصل وفيها ستة سناجق ، البصرة بدون سناجق ، وشهر زور وفيها عدد من السناجق بلغت أحيانًا العشرين ، بما فيها القلاع . وعين القانوني ، سليمان باشا والي ديار بكر واليًا على بغداد ..

وفي ٢ نيسان (أبريل) سنة ١٥٣٥ م قرر العودة إلى استانبول ، ووصلها في **٨ يناير سنة ١٥٣٦ م** ، **بعد أن أمضى في الطريق ستة أشهر توقف خلالها في آذربيجان وأصلح من شئونها الداخلية**[٤٢] كما توقف في مدينة تبريز التي وصلها في الرابع من محرم سنة **٩٤٢** هـ الموافق الخامس من تموز (يوليو) سنة **١٥٣٥** م، وأقام بها **١٥** يوماً قضاها في تعيين الولاة على المدائن المفتتحة حديثاً وترتيب الشئون الداخلية أيضاً[٤٣] .

دخول الجزائر وتونس تحت الحكم العثماني :

أما دخول الجزائر تحت الحكم العثماني فقد تم بدون حرب ، بل بمحض إرادة حاكمها **خير الدين** المعروف ب «**بارباروس**» وكان قد تكون هناك نوع من الحكومة البحرية تملك أسطولاً قويًا يشتغل بالقرصنة ضد قراصنة أوربا.

وصار **خير الدين** يتغلب على أساطيل الأسبان ويسيطر على غرب البحر المتوسط ومع هذا فقد رأى أن يقدم خدماته وأساطيله للدولة ، وبهذا انضمت الجزائر ، إلى الدولة (**١٥١٦ م**) ..

ثم قام خير الدين ومن جاء بعده بحركات حربية أدت إلى إدخال تونس وطرابلس أيضًا إلى حوزة الدولة العثمانية ، وما إن حلت سنة **١٥٥٦ م** حتى أصبح شمال أفريقيا كله تابعاً للدولة العثمانية بما فيه وهران وتلمسان[٤٤] ..

واحتل العثمانيون في عام ١٥٥٠ م القطيف في منطقة الخليج ، ثم مدوا نفوذهم إلى الاحساء التي فتحوها سنة **١٥٥٢**[٤٥] ..

أما **سليمان باشا** والي مصر فكان قد فتح مدائن عدن ومسقط وكل إقليم اليمن وجعله ولاية عثمانية سنة **١٥٣٨ م**[٤٦] ..

وهكذا فقد استولت الدولة العثمانية على معظم البلاد العربية ، فيما عدا المغرب الأقصى من جهة وقلب الجزيرة العربية من جهة أخرى – خلال القرن السادس عشر ، وفي مدة لا تتجاوز الأربعين عامًا(٤٧) وبقيت هذه البلاد تحت الحكم العثماني – بالرغم من بعض الثورات التي حدثت في تواريخ مختلفة – حتى القرن التاسع عشر..



• السلطان سليم الأول •

لقد كان جل اهتمام الدولة العثمانية هو توجيه نشاط دولتهم نحو الحرب والجهاد لفتح الأقاليم البيزنطية ، وإدخالها في حوزة الإسلام . وإقدامهم على «الجهاد» بهذه الصورة صار يجذب إليهم عددًا غير قليل من المتطوعين من مختلف الامارات التركية الاسلامية التي قامت على أنقاض الدولة السلجوقية . وكل فتح من فتوحاتهم في «بلاد الكفر» – حسب تعبير ذلك الزمان – كان يرفع من مكانتهم في أنظار المسلمين ويقوى تيار المتطوعين لخدمتهم ..

وقد كان **سلاطين آل عثمان** يحرصون على نشر أخبار انتصاراتهم في مختلف البلاد الإسلامية ، فقد كانوا يرسلون وفودًا خاصة لابلاغ الأمر إلى ملوك المسلمين ، ومن جملتهم سلاطين المماليك في مصر..

وكانت هذه المخابرات والاتصالات والمكاتبات مع الدول المشار إليها تجرى باللغة العربية ، حتى عهد السلطان سليم . وقد حفظت لنا التواريخ العثمانية طائفة من هذه المكاتبات(٤٨) ..

والمدقق لهذه المكاتبات يتبين «**النزعة الدينية الشديدة**» التي كانت تلازم أعمال الدولة العثمانية وفتوحاتها ، كما تعطي فكرة صريحة عن مبلغ اهتمام سلاطينها بإذاعة أخبار «**انتصاراتهم على الكفار**» . **وفتوحاتهم في** « **بلاد الكفر**» على مختلف الأقطار الإسلامية بوجه عام والبلاد العربية بوجه خاص(٤٩) ..

● **بعض مظاهر الإدارة في الولايات العربية :**

كان السلطان العثماني الذي تلقب بـ«**خونكار**» **Hûnkâr** أحيانًا وأحيانًا بـ«**پادشاه**» و«**همايون**» يرأس الإدارة العثمانية المركزية ، وكان الابن الأكبر يخلف أباه ، واعتاد السلطان العثماني تعيين أبنائه حكامًا على الولايات مما أكسبهم خبرة إدارية أفادتهم في الحكم .. وظل ذلك الوضع إلى أن صدر فرمان سنة **١٦١٧ م** الذي يعطي السلطة لأكبر الأعضاء الذكور سنًا وقلل هذا كثيرًا من نصيب الابن في تولي السلطة بعد أبيه(٥٠) ..

وكان الصدر الأعظم أو الوزير الأعظم حتى فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م ، يعين من المسلمين الأحرار ، ثم أصبح يعين من نتاج الدوشيرمة(٥١) **Devşir_me** وضمن السلطان بذلك ولاءه وطاعته ، وبازدياد مسئولياته ، في أعقاب انقطاع السلطان إلى القصر ، أصبح للصدر الأعظم مقر خاص به منذ عام **١٦٤٥ م** عرف بالباب العالي **Sublime Porte** من قبل **السلطان محمد الرابع** الذي جعله مقرًا رسميًا لوزيره الأعظم **درويش محمد باشا**(٥٢) حيث صرف شئون الدولة ، التي كانت من قبل تتم في قصر السلطان .. وبالتدريج أطلق اسم المكان على ساكنه . وقد نافسه على السلطة في فترة من الفترات الـ«**قيزلر آغاسي**»(٥٣) نظرًا لانقطاع السلطان إلى حياة القصر..

وهكذا أصبحت السلطة ثنائية في استانبول وانعكس أثر ذلك على الولايات .

ويمثل السلطة العثمانية في مركز كل ولاية حاكم يلقب عادة **بالباشا**(٥٤) وكانت رتبته في البداية **بَكلربَكي** **Beğler Beği** **أي بك البكوات**(٥٥) وكانت له شارتان تعلقان على رايته ، وحين مُنح لقب وزير إلى كثير من أصحاب الحظوة وعينوا على الولايات ، عُلِّقَ على راية كل منهم ثلاثة أطواخ(٥٦) .

وتنقسم بعض الولايات إلى أقسام إدارية أصغر ، تُعرف بالسنجق ، وحاكمها أمير اللواء ، وتضم عدة سناجق لتشكل ولاية أو أيالة يرأسها بك البكوات ..

ومن المؤسسات العثمانية الرئيسية «**الدفترخانة**» التي تعنى بالشئون المالية والجدير بالذكر أن أراضي الدولة التي عرفت عادة باسم الأراضي الأميرية أو الميرية كان يوزع قسم منها على شكل إقطاعات بينما يجيء ضرائب القسم الآخر بواسطة الملتزمين(٥٧) .

وكانت الاقطاعات على ثلاثة أنواع ، التيمار والزعامت ، ثم إقطاع خاص . وقد أُعطيت التيمارات للجند السباهية[٥٨] ليعيشوا منها ، ويجندوا آخرين من وارداتها ، ومنحت الزعامت لضباط السباهية وكبار الموظفين ، بينما منح الاقطاع الخاص إلى أفراد الأسرة الحاكمة والمقربين إليهم . كما أُلحق ببعض المناصب الإدارية لينفق أصحابها من وارداته . ويتمتع صاحب الاقطاع به مدى الحياة ، ولا يورث ، بل يعود إلى الدولة في حالة وفاة صاحبه . ويرأس الدفتر أمين الدفترخانه[٥٩] التي تعنى بشئون الاقطاع ، ويساعده موظفان ، واحد يعنى بأمور التيمار ويسمى **دفتر دار التيمار** وآخر يعنى بأمور الزعامات ويسمى **كاخيا الدفتر**[٦٠] وبانحطاط الاقطاعات واصحابها وخاصة الجنود السباهية ، انحطت الدائرة التي تعنى بالشئون المالية ، أي حساب واردات ومصروفات الدولة ، وتسمى الدفتردارية ، ويرأسها الدفتر دار ، وفي البدء كان هناك دفتر داران في الدولة العثمانية : واحد في الأناضول وآخر في الروميلي وحتى نهاية حكم السلطان سليمان القانوني وجد هناك دفتر دار واحد لولايات بلاد الشام والعراق مركزه حلب ، ولقب بدفتر دار عرب وعجم ، ثم أقيم دفتر دار خاص بكل ولاية نظرًا لتشعب الأمور المالية بها ، ويعطي حق جمع الضرائب إلى المقاطعجية[٦١] أو الملتزم ، ويرأس الملتزمين موظف يسمى المحصل ، وهو مسئول عن جمع الضرائب منهم ، وكان منصب المحصل ـ في بعض الأحيان ـ مندمجًا مع منصب الوالي في الولاية ، كما هو الحال في ولاية الشام مثلاً أو منفصلاً عنه كما في ولاية حلب[٦٢] .

عندما ازداد الاعتماد على الانكشارية[٦٣] تمركز آغاها في إستانبول ، وكان مسئولاً عن تعيين آغا الحامية الانكشارية في مركز كل ولاية . وكانت هذه الحامية تقيم في القلعة عادة ، وتعهد إليها بحراسة أسوار وأبواب المدينة وفي بعض الأحيان الاشتراك في حملات الوالي المحلية ، أو حملات السلطان على الجهات الرئيسية ..

وقد قسمت الانكشارية ، في الدولة العثمانية إلى **١٩٦** فرقة ، تسمى إحداها «**اورطة**» ولما كانت كل فرقة تقيم عادة في غرفة «**أوضه**» فقد استخدمت هذه الكلمة كبديل عن «**اورطه**» ويختلف عدد أفراد الأورطه حسب المكان والزمان والحالة السياسية ، ويتراوح في مختلف هذه الحالات بين خمسين وخمسمائة ، والحقت الطريقة البكداشية بالأورطة التاسعة والتسعين ..

وإلى جانب **السباهية والانكشارية وجد الجند الخاص أو المرتزقة** ، واستخدمهم حكام

الولايات ، بصورة خاصة ، وكانت تدفع نفقاتهم عادة من واردات الولاية ، وقد ازداد اعتماد الولاة عليهم بازدياد الفوضى في صفوف السباهية والانكشارية ..

واختلف أنواع الجند المرتزقة باختلاف الزمان والمكان . وأقدمهم السكبان(٦٤) وقد اطلق هذا التعبير على الجنود الذين استأجرهم العثمانيون أو السلاطين في القرن الخامس عشر وسلحوهم بالبنادق ، واشتهروا في القرن السادس عشر كرديف للجيش العثماني ، واعتبروا مع الانكشارية . أقوى عناصره ، وكانوا يتقاضون الرواتب في أيام الحرب فقط ، أما في أوقات السلم فقد كانوا يهيمون في الأناضول يبيعون خدماتهم لمن يطلبها ..

ولم تكن أنواع الجند المرتزقة في مصر كما كان الحال في بلاد الشام وذلك لطبيعة تكوين مختلف القوات في مصر ، فالطوائف العسكرية السبع في مصر كانت كافية نسبيًا للمحافظة على الأمن(٦٥) ..

● التقسيمات الإدارية للولايات العربية :

إن أشمل الوثائق عن التقسيمات الإدارية في الدولة العثمانية هي رسالة تركية عنوانها «**قوانين آل عثمان فيما يتضمنه دفتر الديوان**» وقد ألفها «**عين على أفندي**» الذي كان أمينًا للدفتر الخاقاني ، ولذلك كان مطلعًا على جميع سجلات الدولة المتعلقة بالأمور المالية والإدارية ..

ويتبين مما جاء في الرسالة أن الدولة العثمانية كانت تنقسم في ذلك التاريخ إلى ٣٢ آيالة منها ١٤ كانت عربية .

ومن استقراء هذه الرسالة يتضح أن هذه التقسيمات لم تجر على أساس تمييز البلاد عن غيرها إداريًا ، بل سنجد أن بعض المدن العربية كانت تتبع ولايات غير عربية أحيانًا ، كمدينة نصيبين التي تقع في سوريا حاليًا كانت مركز لواء يتبع آيالة ديار بكر ، وسنجار التابع للعراق حاليًا كان تابعًا لديار بكر كذلك ..

وفيما يلي أسماء هذه الآيالات والألوية التابعة لها مع مخصصات أمرائها وعدد التيمارات والزعامات الموجودة في كل منها ..

١ ـ آيالة الشـام :

تنقسم إلى ١١ لواء ، تضم الآيالة ١١٢ مقاطعة من درجة «زعامت» و٨٦٨ مقاطعة من درجة «**تيمار**» وعدد الجند المفروض على أصحاب المقاطعات ٢٦٠٠ جندي ..

٢ ـ آيالة طرابلس الشام :

تنقسم إلى ٥ ألوية ، وتضم ٦٣ زعامت و٥٧١ تيمارًا والجند المفروض ١٤٠٠ جندي ..

٣ ـ آيالة حلب :

تنقسم إلى ٧ ألوية ، وتضم ١٠٤ مقاطعة من درجة زعامت و٧٩٩ مقاطعة من درجة تيمار .. والعساكر المفروضة على أصحاب المقاطعات ٢٥٠٠ جندي ..

٤ ـ آيالة رِقة أو الرها :

تنقسم إلى ٦ ألوية وتضم ٣١ زعامت و٥٣٠ تيمارا ، ومجموع العساكر المفروضة عليها ١٦٠٠ جندي .

٥ ـ آيالة الموصل :

تنقسم إلى ٦ ألوية و٢٧١ تيمارًا وزعامت ..

٦ ـ آيالة بغداد :

تنقسم إلى ١٨ لواء . ويتقاضى والى «**باشا**» الأيالة الذي يكون بدرجة **ميرميران** «**بَكلربَكي**» راتبًا معينًا «**سالیانه**» وأما أمراء سائر الألوية فيتصرفون بمقاطعات من درجة «خاص» .

أما الأيالات التالية فلم تقسم إلى مقاطعات من درجة «**خاص**» أو «**زعامت**» أو «**تيمار**» وكانت ضرائبها وتكاليفها المختلفة تجبى باسم خزينة الدولة مباشرة أو عن طريق الإلتزام ، وكان يخصص لأمرائها ورؤسائها «السنوية» أو «الحولية» .. الـ «سالیانه» ..

٧ـ آيالة البصرة :

تبلغ السليانه المخصصة لها ١٠٠٠٠٠٠ (مليون آقجة)

٨ ـ آيالة الحسا : أو الأحساء :

كان يرسل إليها «ميرميران»يتقاضى سليانه قدرها ٨٨٠ ألف آقجة ..

٩ ـ آيالة اليمن :

تضم ٩ ألوية ، ويقول مؤلف الرسالة أن هذه الآيالة تقع تحت سيطرة الأئمة من وقت إلى آخر ولم يحدد قيمة السليانه المخصصة لها ..

١٠ ـ آيالة مصر :

تضم ١٣ لواء وكانت سليانتها تبلغ ٤٨٢ كيسة مصرية ..

١١ ـ آيالة حبش أو الحبشة :

وكانت جدة ملحقة بهذه الأيالة التي تبلغ سليانتها ١,١٨٠٠٠٠ آقجة ..

١٢ ـ آيالة تونس

١٣ ـ آيالة طرابلس الغرب .

١٤ ـ آيالة جزائر الغرب .

ولم تصف الرسالة أي معلومات عن هذه الأيالات الثلاث ..

١٥ ـ إمارة مكة المكرمة :

وقد كانت مستقلة عن التشكيلات الإدارية المذكورة وإنما كانت تختص بالشرفاء .

ومما تجب ملاحظته أن العشائر كانت تُتْرك هي الأخرى خارج نطاق النظم الإدارية والمالية المعتادة . وكان يعهد بشئونها إلى أمراء وشيوخ يعينون وفقًا للتقاليد المعروفة بين العشائر . ولذلك كان هناك بجانب الـ «**ميرميران**» والـ «**ميرلوا**» موظفون يعرفون باسم «**مير عشيرت**» أي أمير العشيرة ..

إلاَّ أننا في بداية القرن العشرين ، وحسب ما هو مستخرج من (سالنامة دولت عليه عثمانيه) الكتاب السنوي للدولة العلية العثمانية الصادر في سنة ١٣٢٢ هـ ـ ١٩٠٤ م نرى أن الدولة

العثمانية كانت مقسمة إلى ولايات والولاية إلى ألوية والألوية إلى أقضية والأقضية إلى نواح ، وكان على رأس الإدارة في كل لواء متصرف ، وفي كل قضاء «قائمقام» وفي كل ناحية «مدير ناحية» وكانت البلاد العربية تقسم إلى تسع ولايات وأربع متصرفيات مستقلة ، وآيالتين ممتازتين ..

وكان ترتيبها في الحولية المذكورة كما يلي :

١ ـ ولاية الحجاز :

تضم متصرفتين ، وخمسة أقضبة وست نواح .. وكان يعهد بمنصب ولاية الحجاز إلى أحد كبار رجال الجيش ، ليجمع بين يديه سلطة الولاية مع قيادة الجيش ..

وكان متصرف لواء المدينة يسمى «محافظ المدينة المنورة» وأما متصرف لواء جدة ، فكان يسمى «قائمقام الوالي» وكان يتبع لواء المدينة أربعة أقضبة هي : **ينبع البحر ، الوجه ، سوار قبة ، وعقبة ، ويتبع لواء جدة قضاء واحد هو : معمورة الحميد** ..

إمارة مكة المكرمة :

كان في الحجاز منصب سام ، يسمى «**إمارة مكة المكرمة**» .

وكان أميرها يُنصَّب من بين الشرفاء ، بفرمان خاص ، ويتولى الإشراف على شئون الحجاج ، والنظر في قضايا العشائر ..

وكان أمير مكة المكرمة يتمتع ـ في التشريفات ـ بأسمى مقام ، وترسل إليه عطايا السلطان كل عام مع أمين الصرة الشريفة وسط تشريفات واحتفالات يحضرها السلطان بنفسه[٦٦] .

٢ ـ ولاية اليمن :

كانت تضم أربعة ألوية ، هي : صنعاء ، حديدة ، عسير ، تعز ..

٣ ـ ولاية البصرة :

كانت تضم أربعة ألوية : **البصرة ، منتفك ، نجد ، عمارة** .

٤ ـ ولاية بغداد :

كانت تضم ثلاثة ألوية هي : **بغداد** ، **كربلاء** ، **ديوانية** ..

٥ ـ ولاية الموصل :

كانت تضم ثلاثة ألوية هي : **الموصل** ، **كركوك** ، **السليمانية** .

٦ ـ ولاية حلب :

كانت تضم ثلاثة ألوية ، هي : **حلب** ، **أورفه** ، **مرعش** .

٧ ـ ولاية سوريا :

وكانت تضم أربعة ألوية هي : **الشام الشريف** ، **حماه** ، **حوران** ، **كرك** ..

٨ ـ ولاية بيروت :

وكانت تضم أربعة ألوية ، هي : **بيروت** ، **عكا** ، **طرابلس** ، **اللاذقية** .

٩ ـ ولاية طرابلس الغرب :

كانت تضم خمسة ألوية ، هي : **طرابلس الغرب** ، **الجبل الغربي** ، **حمص** ، **فزان** ، **غات** .

١٠ ـ متصرفية القدس الشريف :

كانت متصرفية مستقلة ، تتخابر مع وزارة الداخلية مباشرة دون أن تتبع ولاية من الولايات . وكانت تضم أربعة أقضية . هي : **يافا** ، **غزة** ، **بئر السبع** ، **خليل الرحمن** .

١١ ـ متصرفية بنغازي :

كانت متصرفية مستقلة ، تتبعها ثلاثة أقضية. هي: **درنة**، **مرج**، **جالة**، **أوجالو**..

١٢ ـ متصرفية الزور :

كانت متصرفية مستقلة ، تضم أربعة أقضية ، هي : **رأس العين** ، **عشارة** ، **البوكمال** ، **عربان** ..

١٣ ـ متصرفية جبل لبنان :

كانت متصرفية ممتازة ، تدار وفق نظام خاص ، وكانت تضم ثمانية أقضية (لا تذكرهم الحولية) .

١٤ ـ آيالة مصر :

تذكر الحولية الرسمية أسماء الخديوي ، والقاضي ، ومأمور المصالح التلغرافية ، وتبين رتب كل واحد منهم وأنواع الأوسمة العثمانية الممنوحة لهم ، ولكنها لا تزيد على ذلك أية معلومات أخرى .. وذكرت أن رتبة الخديوي ، هي رتبة الصدارة العظمى ..

١٥ ـ آيالة تونس :

وتكتفي الحولية الرسمية بذكر اسم هذه الأيالة دون إعطاء أية معلومات أخرى ..

● الإدارة العسكرية حتى أوائل القرن التاسع عشر :

كانت الممالك العثمانية تقسم من الوجهة العسكرية إلى سبع دوائر كبيرة ، في كل واحدة منها جيش كامل من المشاة والخيالة والمدفعية ..

وكانت الجيوش تسمى طبقًا لتسلسل هذه الدوائر ، الجيش الأول ، الجيش الثاني ..

وقد كان مركز قيادة الجيش الأول في استانبول ، وقد كان هذا الجيش يسمى أيضًا «**الخاصة الهمايونية**» ومركز الجيش الثاني في أدرنه والثالث في مناستر والرابع في أرزنجان والخامس في دمشق والسادس في بغداد أما الجيش السابع فقد كان في اليمن ..

يتبين مما سبق أن مركز قيادة ثلاثة من هذه الجيوش السبعة كانت في البلدان العربية ..

وفضلاً عن ذلك ، كان هناك ثلاث دوائر عسكرية فرعية ، تقدم بعض الفيالق ، دون أن تكون جيشًا كاملاً ، هذه الدوائر كانت في طرابلس الغرب وكريت والحجاز ..

ويتبين من ذلك أيضًا أن اثنين من هذه الدوائر الفرعية الثلاث أيضًا كانت في البلاد العربية .

كانت الخدمة العسكرية إجبارية للمسلمين من التبعية العثمانية ، ولمدة عشرين عامًا ، تبدأ من سن العشرين ، وتستمر حتى الأربعين ، وكان الأفراد خلال السنوات الست الأولى من

مكلفيتهم العسكرية يدخلون في عداد «**العساكر النظامية**» فيقومون بالخدمة الفعلية ، ولكن في السنوات الثماني التي تلي ذلك يعتبرون من صنف «**العساكر الرديفة**» ويدعون إلى الخدمة ، عند مسيس الحاجة ، وأما في السنوات الست الباقية ، فيعتبرون من «**العساكر المستحفظة**» فلا يدعون إلى الخدمة الفعلية إلا عند الحاجة القصوى ..

وكان كل جيش من الجيوش التي ذكرت آنفًا يضم العساكر النظامية مع ضباطهم من جهة ، والضباط الذين تحتاج إليهم العساكر الرديفة والمستحفظة ـ عند الاقتضاء ـ من جهة أخرى ..

ولما كانت المكلفية العسكرية منحصرة في المسلمين ، فقد كان غير المسلمين «معفيين من الخدمة العسكرية» ولكن في مقابل ذلك كانوا مكلفين بضريبة خاصة ، تسمى البدل العسكري . يدفعونها عند وصولهم السن العسكرية ..

ومع هذا فإن الأهالي المسلمين في بعض الولايات أيضًا كانوا يعفون من الخدمة العسكرية ، كآهالي ولايات : إستانبول وكريت ، وجزر البحر الأبيض ، وطرابلس الغرب ، واليمن والحجاز ..

ويتضح مما سبق ، أن المسلمين من أهالي البلاد العربية ، باستثناء الولايات الثلاث التي ذكرت كانوا يؤدون الخدمة العسكرية مثل سائر تبعة الدولة ..

وقد كانت كل فرقة في الجيش العثماني تضم لواءين من المشاه في كل منهما طابور قناصة ..

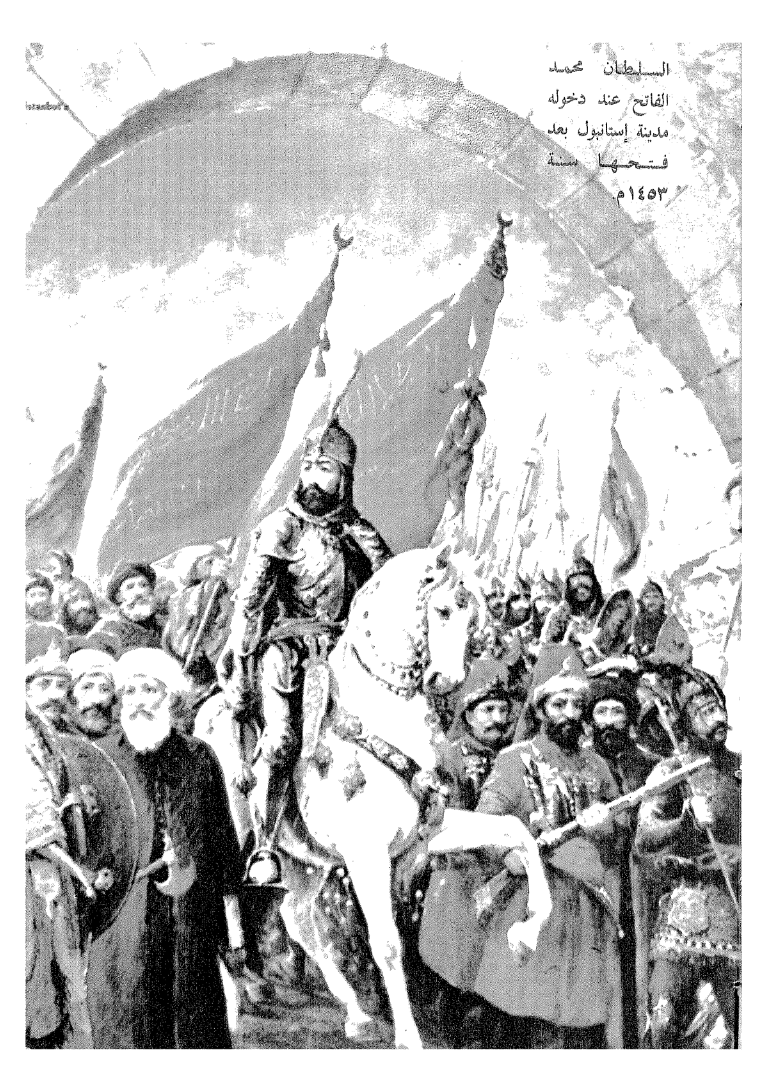
وكل فرقة تنقسم إلى لواءين . وكل لواء إلى آلايين ، وكل آلاي يتألف من أربعة طوابير ..

أما الجيوش التي كانت في البلاد العربية فبيانها كالتالي :

● **الجيش الخامس=بشنجي اوردى :**

دائرة هذا الجيش كانت تضم ولايات الشام وبيروت وحلب وأضنه ، ومتصرفتي دير الزور والقدس المستقلتين ..

وكان هذا الجيش موزع بين مدن دمشق ، عكا ، حلب ، القدس ، طرابلس الشام ، أورفه ، أضنه ، مرعش ونابلس ..



السلطان محمد الفاتح عند دخوله مدينة إستانبول بعد فتحها سنة ١٤٥٣م.

● الجيش السادس= التنجي اوردى :

دائرة هذا الجيش كانت تضم ولايات بغداد ، والموصل ، والبصرة ، .. وكانت وحداته موزعة على المدن التالية :

بغداد ، الناصرية ، السليمانية ، خانقين ، كركوك ، روافدوز ، الموصل ، أما الخيالة والمدفعية فقد كانت محتشدة في بغداد وكركوك والديوانية ..

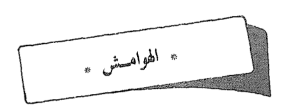
● الجيش السابع «يدنجى اوردى» :

وقد كان خاصًا بولاية اليمن ، وكل وحداته ، كانت تتألف من عساكر نظامية ، وكانت فرقة الحجاز عبارة عن ثلاثة آلايات مشاة ونصف آلاي خيالة ، وبطارية مدفعية ، أما فرقة طرابلس الغرب فكانت عبارة عن لواءى مشاة ، وآلايين خيالة ، وطابور واحد قناصة ..

وهكذا فإن الدولة العثمانية لم تكن تنظر إلى الولايات العربية نظرة تعال أو استعمار ، بل هي التي كانت تحاول التقرب من شعوبها وعلمائها تستصدرهم الفتاوى ، وتجل الأماكن المقدسة صارفة الجهد والمال لرعايتها وصيانتها ، مستفيدة من الخبرات والكفاءات الفنية والعلمية ، مجلة للغة العربية ومراكزها العلمية ، فقد كان جل علمائها يتلقون علومهم العقلية والنقلية في مراكز الدراسات بالولايات العربية .

وإذا كان العثمانيون قد احتفظوا لأنفسهم بالمناصب العسكرية والإدارية في بعض الفترات فإنهم قد أسلموا قيادتهم الدينية والعلمية والثقافية للعنصر العربي على طول الخط ،باذلين كل الجهد لخلق تكتل إسلامي يستطيع أن يجابه التكتل الصليبي آنذاك ..





* الهوامش *

(١) **محمد فؤاد كوبرلي** ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمة أ. د. أحمد السعيد سليمان ، **القاهرة سنة ١٩٦٧** .

(٢) Ismail Haki Uzunçarşili Osmanli Devletinin Ilmiye teşkilati. Ankara, 1965, S. 7.

(٣) **مستقيم زاده سليمان سعد الدين** ، دوحة المشايخ مع ذيل ، جاغرى يابنلرى **استانبول ١٩٧٨ م** ص ٢٣ .

(٤) I. H. Uzunçarşılı, O. D. Ilmiye teşkilâti, S. 39.

(٥) A. Adivar, Osmanli Türklerinde ilim, 1943, 17.

(٦) أ. **د. عبد العزيز محمد الشناوي** ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ١ القاهرة ، ١٩٨٠ ص ٥٤ .

(٧) **الـ«قاضيعسكر» من أرفع المراكز العلمية في الدولة العثمانية ، وقد كان منصب قاضي الجند أو العسكر موجودا في الدولة العباسية ، والخوازرمية ، ولدى سلاجقة الأناضول والأيوبيين والمماليك في مصر والشام. ويعد مراد الأول هو أول سلطان عثماني أوجد هذا المنصب في بلاده ، وكان «جاندارلي قره خليل»** هو أول من شغل هذا المنصب في الدولة العثمانية . وفي عهد **محمد الفاتح** تشعب المنصب إلى قاضيعسكر الروميلي وقاضيعسكر الأناضول . وبعد فتح بلاد الشام وديار بكر ومصر في عهد سليم الأول استحدث منصب «قاضيعسكر العرب والعجم» وعين فيه المؤرخ المشهور «ادريس البتليسي» .

وكان مكانهم في التشريفات بعد الوزراء مباشرة ، ويجلسون في صدر الديوان عند انعقاده ، ويستقبلون بمثل استقبال الوزراء . ويدخلون على السلطان أربعة أيام أسبوعيًا كالوزراء ، ويقف لهم السلطان عند استقبالهم في الأعياد والمناسبات الدينية ، ولهم الحق في الدخول على السلطان بدون إذن في وقت الحرب ، وترتب لهم العلوفات = المرتبات «ويعقدون الديوان العسكري ، ويخصص لهم مساعدون ، ويشتركون في مناقشات الأمور الدينية التي كانت تعقد في الباب العالي : انظر :

Mehmet Zeki Pakalin, Osmanli Tarih Deyimleri ve terimleri söslügü, 1st. 1971.

(٨) **د. عبد الكريم رافق** ـ العرب والعثمانيون ، دمشق ، ١٩٧٤ . ص ٥٢ .

(٩) **نقيب الأشراف** : منصب عرفته الحضارة الإسلامية ، وهو يتولى أمور المنتسبين إلى آل بيت رسول الله ﷺ ويتثبت من نسبهم ، ويقوم على سجلاتهم ، وتوزيع حصصهم من المغانم ، وقد كان بمثابة الوصى على كل المنتسبين إلى أهل البيت ..

وقد كان منصب نقيب الأشراف من المناصب الرفيعة في الدولة العثمانية ، ومكانه في التشريفات بعد السلطان مباشرة ..

تم الأخذ بهذا النظام منذ عهد بايزيد (١٣٦٠ ـ ١٤٠٣ م) ومنذ عهد بايزيد الثاني (١٤٤٧ ـ ١٥١٢ م) صار يعين لهم ، وكيل نقيب الأشراف «في الايالات والمقاطعات الاخرى» .

وقد كان نقيب الاشراف هو الذي يقلد السلطان السيف ويقوم بمراسيم تتويجه في الاحتفال الذي كان يقام في مسجد أبي أيوب الانصاري لتنصيب واعلان السلطان الجديد . وكان هو الذي يقوم بالدعاء للسلطان في المناسبات ، وكان يتقاضى راتبًا من الدولة ، بل اقامت له الدولة قصرًا بالقرب من قصر السلطان للإقامة به «هامر . جلد ٢ . ص ٢٥٥» .

(١٠) **د. عبد الكريم رافق** ، المرجع السابق . ص ٥٢ .

(١١) **محمد جميل بيهم** : العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب ، المطبعة الوطنية ، بيروت ١٩٥٧ . ص١٢٥ .

(١٢) د. **عبد العزيز الشناوي** . مرجع سبق ذكره . ص ٢٥ .

(١٣) المرجع السابق ص ٥٧ .

(١٤) **قوافل الحج الأربع هي** : **قافلة الحج الشامي** : وتضم حجاج بلاد الشام والجزيرة وكردستان واذربيجان والقوقاز والقرم والاناضول والبلقان وحجاج استانبول نفسها . وكاد عددها يتراوح بين ثلاثين وخمسين ألفًا .. **قافلة الحج المصري** : وتضم حجيج مصر وشمالي أفريقيا .. **قافلة الحج العراقي** : وتضم حجاج العراق وفارس .. **قافلة الحج اليمني** : وتضم حجيج اليمن والهند وماليزيا واندونيسيا .

(١٥) **سردار = سرعسكر بمعنى رئيس الجيش ، قائد الجيش** : وهو لقب عسكري قد اطلق على قائد الجيش العثماني بعد تخلي السلطان عن قيادته . وبعد إلغاء الانكشارية لقب قائد الجيش بهذا اللقب أيضًا . وإذا ما عينه الصدر الأعظم يسمى بـ «سردار اكرم» وكثيرًا ما كان الصدر الأعظم يجمع بين اللقبين إذا ما قاد الجيش بنفسه فيطلق عليه : وزيرى اعظم وسردار اكرم .

(١٦) **وثيقة رقم** 3738 A الأرشيف التركي ، ٤٧٧/٢/١ ارشيف المركز الوطني السعودي ..

(١٧) **محمد فؤاد كوبريلي** ، قيام الدولة العثمانية ص ١٦٨ .

(١٨) **ابن بطوطة** ، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار ، الانجلو المصرية ، القاهرة سنة ١٩٦٨ . جـ ١ ص ١٥٦ — ١٦٦ .

(١٩) **عبد الكريم رافق** ، العرب والعثمانيون ، ص ٦٣ — ٦٧ .

(٢٠) **مجلة العربي** عدد سبتمبر سنة ١٩٨١ م .

(٢١) **عبد العزيز الشناوي** . مرجع سبق ذكره . ص ٦٠ .

(٢٢) Ord. Prof.: I. Haki Uzunçarşili Mekke-I Mukerreme Emirleri. Ankara, 1972. 6. 19.

(٢٣) **ساطع الحصري** ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٢٤١ ..

(٢٤) أسعد أفندي ، تشريعات قديمة ، جاغري يا ينلري ، استانبول ١٩٧٩ م ، ص ٢٤ .

(٢٥) **الجبرتي** ، **الشيخ عبد الرحمن** : عجائب الآثار في التراجم والاخبار ، القاهرة مطبعة بولاق ، ١٢٩٧ . جـ ١ . ص ٢١ .

(٢٦) Enver Behnan sapolyo, Osmali Sultanlari. istanbul 1961, S. 127.

(٢٧) المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

(٢٨) **ساطع الحصري** . مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠ .

(٢٩) **محمد فريد** ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٣ .

(٣٠) **ابن اياس** ، **محمد بن أحمد** ، **بدائع الزهور في وقائع الدهور** ، **تحقيق** : محمد مصطفى : جـ ٥ ، **القاهرة ١٣٨٠ هـ — ١٩٦٠ م** ، ص ١٩٢ .

(٣١) **محمد فريد بك** : مرجع سبق ذكره . ص ١٩٤ .

(٣٢) Osmanli Sultanlari tarihi. S. 148.

(٣٣) Mehmed zilli oğlu Evliya, çelebi, Evliya, çelebi Seyahatnâmesi, Zuhuri Danişman, Z. Danişman yayinevi. Istanbul 1971, Cet 14, S. 144-145.

-(٣٤) **علي باشا مبارك** ، **الخطط الجديدة التوفيقية لمصر القاهرة** ، **ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة** ، المطبعة الاميرية ، بولاق -

١٣٠٥ هـ جـ ٧ . ص

(٣٥) **ساطع الحصري** ، مرجع سبق ذكره . ص ٤٠ .

(٣٦) Jnalcik, The Rise of the Ottoman Empire. The Camb. His. of Islam, vol. I, p. 319.

(٣٧) **ابن اياس** ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٥ .

(٣٨) **د. عبد الكريم رافق** . مرجع سبق ذكره . ص ٦٧ .

(٣٩) المرجع السابق ص ٦٨ .

(٤٠) Resimli Mufassal Osmanli Tarihi, cilt 3, 1958, S. 880.

(٤١) **د. عبد الكريم رافق** . مرجع سبق ذكره ص ٦٨ .

(٤٢) Namik Kemal, Osmanli Tarihi, cilt. 3. 1974. S. 198.

(٤٣) **محمد فريد بك** : مرجع سبق ذكره . ص ٢٢٣ .

(٤٤) **ساطع الحصري** . مرجع سبق ذكره ص ٤١ .

(٤٥) **العرب والعثمانيون** ، ص ٦٨ .

(٥٦) **محمد فريد بك** : الدولة العلية ص ٢٤٠ .

(٤٧) سوريا ، الأردن ، لبنان ١٥١٦ ، فلسطين ومصر ١٥١٧ ، الكويت ١٥٢٢ ، العراق ١٥٣٤ ، اليمن ١٥٣٨ ، شمال أفريقيا . وهران وتلمسان ١٥٥٦ .

(٤٨) **فريدون بك** ، منشآت فريدون جـ ١ ويحتوي على المكاتبات التالية :

(أ) كتاب من **السلطان مراد الثاني** إلى «**عزيز مصر**» **الملك الأشرف برسباي** . يبشره بفتح قلعة «**كوكرجينلك**» في نهر الدانوب تاريخه ٨٣١ هـ = ١٤٢٧ م .

(ب) هناك تسع رسائل متبادلة بالعربية بين مراد الثاني وبرسباي .

(جـ) رسالة من مراد الثاني إلى «عزيز مصر» عند فتح سلانيك باليونان رجب سنة ٨٣٢ هـ .

(د) رسالة من السلطان محمد الفاتح إلى «شريف مكة المكرمة» بمناسبة فتح استانبول ، يبشر بالفتح ، ويطلب الدعاء ويرسل هدايا من الغنائم ..

(هـ) رسالة من «شريف مكة المكرمة» إلى السلطان محمد الفاتح ردًا على الرسالة السابقة ومعبرًا عن بهجة المسلمين بفتح القسطنطينية .

(٤٩) **ساطع الحصري** ، مرجع سبق ذكره ص ٢٨ .

(٥٠) **د. عبد الكريم رافق** ، مرجع سبق ذكره ص ٤٣ .

(٥١) **الدوشيرمه** Devşirme :

تعبير يطلق على ابناء المسيحيين الذين كانوا يجمعون من البلدان المسيحية عند فتحها ، وينشّأون على التعاليم الإسلامية ، واللغة والعادات والتقاليد التركية ، ثم يتولون الخدمة في القصر الهمايوني والقيام باعمال البستنة والأمور الإدارية في معسكرات الإنكشارية ، وأخذوا يحلون محل الأسرى في سائر أعمال الدولة رويدًا رويدًا . ثم صدر «قانون الدوشيرمة» في عهد السلطان مراد الثاني (١٤٢١ ـ ١٤٥١ م) الذي أباح جمع الأطفال في سن السابعة والثامنة لتنشئتهم في معسكرات خاصة ، واصبح يطلق عليهم «عجمي أو غلان» أولاد الاعاجم ، وقد انحصر ذلك على الارناؤوط والبلغار والأرمن والبوسنويين . وكان لا يؤخذ قط أحد أبناء المسلمين أو حتى من أولاد أهل الذمة الذين يختتنون. ثم بدأ بتصاعد عمر من يؤخذون حتى وصل إلى سن العشرين مالم يكن قد تزوج . وكان التركيز على أولاد القساوسة والعائلات المسيحية الكبيرة . وكان يؤخذ من كل والد صاحب ولدين اشدهما واحسنهما مظهرًا ، وإذا كان ولدًا واحدًا

يترك لخدمة والديه ، ولم يدخل اليهود قط في الحسبان لاشتغالهم بالتجارة .

وعلى العموم لقد ظل يعمل بهذا القانون حتى منتصف القرن الثاني عشر الهجري وقد تخرج في معسكرات الدوشيرمه العديد من رجالات الدولة العثمانية الذين شغلوا أرقى مناصبها سواء في ميدان الجيش أو الخدمات المدنية . انظر :

I. H. Uzunçarşili, Osmanli Devleti teşkilatindan Kapukulu ocaklari. cilt I. S. 16-"

(٥٢) **د. عبد الكريم رافق** ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦ ـ ١٧٩٨) . الطبعة الثانية . دمشق ١٩٦٨ ، ص ٦٤ .

(٥٣) **قيزلر آغاسي** :

أحد المراكز المهمة في داخل القصر السلطاني ، وقد ورثه العثمانيون عن العباسيين والمماليك وكانت مهمته الاشراف على الحرم السلطاني ، وفي العادة كان من المستخدمين السود . وكان مكانه في التشريفات بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام مباشرة . وفي عهد السلطان عبد الحميد تولى الاشراف على المخابرات والتحكم فيمن يدخل قصر يلديز سراي حيث يقيم السلطان . انظر :

Mehmet zeki pakalin, O. T. D. ve terimleri sözlüğü cilt. 2.

(٥٤) **الباشا** : Paşa

لقب كان يمنح لكبار الموظفين في الدولة العثمانية ، سواء من المدنيين أو العسكريين ويقول هامر ، إنها تدل على الشخص الذي ينيبه السلطان في إدارة أمر ما ، على اعتبار أن السلطان يعتبر موظفي الدولة بمثابة قدمه الراسخ في انحاء البلاد . وكان السلطان يحب تشبيه موظفيه ببعض أعضاء جسده ، فالموظفون الكبار عينيه ورجال الشرطة اذنيه ورجال المالية يديه والجنود قدميه .. وكان هذا اللقب يمنح لبعض العلماء والفنيين تعظيمًا لهم وتقديرًا لدورهم .. وفي بعض فترات التاريخ العثماني أوقف هذا اللقب على الوزراء والصدر الأعظم فقط ..

(٥٥) **بكلر بكي** : **بك البكوات** : Beyler Beyi أي أمير الأمراء . وهو لقب إداري وعسكري ورثه العثمانيون عن الدولة السلجوقية . والإمارة من الوظائف المهمة في التشكيلات الإدارية والعسكرية في الدولة العثمانية . وقد استخدم هذا اللقب منذ عهد مراد الأول (١٣٦٠ ـ ١٣٨٩) وإن كان المستشرق هامر يذكر أن أول من تلقب بهذا اللقب هو تيمورطاس (هامر جلد ١ ص ١٣٧) . وهو يوازي الوالي في العصر الحديث .

(٥٦) **طوغ ـ طوخ** : إشارة كانت تصنع من شعر ذيل الخيل ثم تزين اطرافها بالذهب وتدل على الأصالة والنجابة ، وقد عرفها الهنود والصينيون كما عرفها الترك . وتستخدم للدلالة على الرتبة العسكرية في تشكيلات الجيش العثماني .

(٥٧) **د. عبد الكريم رافق** ، العرب والعثمانيون . ص ٤٥ .

(٥٨) **السباهية ـ سباهي** : Sipahi

اصطلاح عسكري يطلق على جنود الخيالة الذين يتولون الاشتراك في الحرب هم ومن معهم من الجنود نظير اراضي الثيمار التي تعطى لهم من قبل الدولة ، ويتولون الدفاع والمحافظة على الحدود ويشتركون مع المشاة في صد غزوات الاعداء ، كما يقومون بالهجوم إذا طلب منهم ذلك ، يرى بعض المؤرخين أنهم وجدوا في الجيش العثماني منذ عهد أورخان ويرى البعض الآخر أنهم ظهروا في عهد مراد الأول . والسباهي ملزم بإعداد وتدريب جند حسب دخل تيماره . ومن يزيد دخل تيماره عن ثلاثة آلاف اقجه ، كان يرتدي عمامة تميزه عن غيره من السباهية ..

ومن حق أمير الأمراء التفتيش عليهم أثناء الحرب ، ومن لم يشترك ينزع منه الثيمار أو تجبى حاصلاته لصالح الدولة .

وقد استفادت منهم الدولة طالما كانوا منضبطين ، وقد حلوا محل الانكشارية بعد إلغاء معسكراتهم في الاناضول والروميلي ، ثم انضموا إلى النظام الجديد .

والخيالة السباهية يحلقون ذقونهم ويتركون شواربهم هشة شعثة . مقهرة في ركوب الخيل واستخدام السيف ورمي الرماح والاقراس . انظر محمد ياك آلين .

(٥٩) **الدفترخانه** :

اصطلاح مالي يدل على المكان الذي تحفظ فيه السجلات المالية الخاصة بالدخول والمصاريف وتسجل وتم فيه كل المعاملات الخاصة بالأراضي ، وتحفظ فيها السجلات الخاصة بالزعامت والتيار والاقطاعات الخاصة ، وهي تقابل بيت المال قديمًا أو وزارة المالية حديثًا . وكان يرأس إدارتها «دفترامييني» وتغير هذا الاسم بعد التنظيمات سنة ١٨٣٩ م إلى «دفتر خاقاني ناظري» أي ناظر الدفتر الخاقاني . ثم أمين الدفتر الخاقاني ثم مدير عام الطابو .

(٦٠) **كاخيا أو كتخدا الدفتر** :

لقب يمنح للموظفين المكلفين باعمال الزعامت في الولايات ، وأول سجل رسمي يسجل «دفتر كتخداس» هو قانوننامه محمد الفاتح ، وقد سجل في هذا القانون درجاتهم وكان كتخدا دفتر الروميلي اعلاهم منزلة ، ومن مهام وظائفهم هو المحافظة على سجلات مالية الولاية .

(٦١) **مقاطعجي** : اصطلاح مالي يطلق على الموظف المكلف بأمور المقاطعة . وأول سجل رسمي يمر به هذا المصطلح هو قانوننامه محمد الفاتح ، كان تعيينه وعزله منوط بالدفتر دار . وعقب الاصلاحات التي تمت بعد اعلان التنظيمات سنة ١٨٣٩ الغي هذا النظام وانيط بمهامه إلى موظفي الجمارك والمالية ..

(٦٢) **د. عبد الكريم رافق** ، العرب والعثمانيون . ص ٤٧ .

(٦٣) **الانكشارية** : لغويًا يكيْ جرى : تلفظ الكاف نونًا وتكتب الكلمتان معًا هكذا «يكْچرى»= يني جرى = يني تشرى ويطلق عليهم الأربيون Janiser أما عسكريًا فهو اسم يطلق على فرق المشاة النظاميين التي كونها الترك العثمانيون في القرن الرابع عشر الميلادي . واصبحت اكبر قوة عندهم مكنتهم من الفتوح الواسعة التي قاموا بها ..

ويلطق عليهم أحيانًا اسم «قابي قولي» عبيد الذات السلطانية أو الرقيق السلطاني نظرًا لارتباطهم بالسلطان شخصيًا .

وكانت هذه التشكيلات العسكرية موجودة عند السلاجقة والماليك ، ولكن العثمانيون ادخلوا عليها الكثير من التنظيم والانضباط خاصة في عهد السلطان مراد الأول (**١٣٦٠ ـ ١٣٨٩ م**) وكان تدريبهم وتعليمهم العسكري يركز على الطاعة وتحمل الجوع والعطش والتعب ، وترقيتهم مبنيه على الشجاعة والطاعة ولذلك اثبتت الانكشارية وجودها في كل فتوحات الدولة العثمانية سواء في آسيا أو في أوربا .

أما لباس الرأس عندهم فهو قلنسوة من الصوف الأبيض تتدلى من خلفها قطعة من القماش رمزًا للبركة التي منحها إياهم مرشدهم حاجي بكداش كما يعتقدون . وعلى لباس الرأس شارة عبارة عن ملعقة من الخشب . أما القاب الضباط فكانت مرتبطة بمختلف مرافق المطبخ كالجورباجي باشي (رئيس طهاة الحساء) وآشجي باشي (رئيس الطهاة) وأهم الأشياء في الكتيبة هو القدر الكبير (القازان) يجتمعون عنده لا لتناول الطعام فقط بل للتشاور أيضًا ، وقد كان قلب القدر دلالة على العصيان .

وكانت الفرقة منهم تسمى أوجاق (المعسكر ـ الموقد) وتنقسم إلى وحدات حربية تسمى كل منها «أورطه» فرقة وهي ثابتة العدد مختلفة القوة ، تتراوح وفقًا للظروف من ١٠٠ ـ ٥٠٠ ـ ٣٠٠٠ جندي ، وهذه الفرقة تقيم في ثكنات تسمى «اوضه» = غرفة .. أما في ميدان القتال فكانت الفرق تقيم في سكنات عبارة عن خيام واسعة مستديرة نقشت عليها شاراتهم المميزة لهم .

وكان يرأس الفرقة قائد رتبته «يكجري» آغاسي ، آغا الانكشارية ، وهو يتولى فوق عمله الخاص أمر الشرطة وحفظ النظام في المدينة ..

وقد تنوعت اسلحتهم الحربية في دفاعهم وهجومهم تبعًا للزمن . ولكن كثرة مشاكلهم وعصيانهم في فترات ضعف

الدولة ومعارضتهم لكل تطوير في الجيش بحجة أن هذا بدعة وكل بدعة ضلالة ـ عندما ارادت الدولة أن تأخذ بالنظام الجديد . مما دفع بالسلطان محمود الثاني القضاء عليهم في ٩ ذو القعدة سنة ١٢٤١ هـ = ١٠ يونيه سنة ١٨٢٦ م في «آت ميداني ، = ميدان الخيل بالاستانه في مذبحة شبيهة بمذبحة المماليك بالقلعة في مصر» انظر :

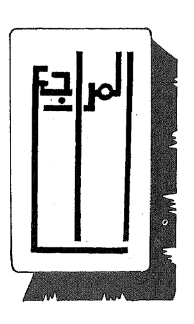
دائرة المعارف الإسلامية ، ومحمد زكي باق آلين ، عثمانلي تاريخ ده يملري وته ريملري سوزليكي» .

(٦٤) **السكبان** :

فرقة من فرق الانكشارية ، كانوا في بداية نشأتهم في عهد محمد الفاتح مكلفين برعاية وتربية وتدريب كلاب الصيد ، ثم انخرطوا في صفوف الانكشارية واصبحوا من عمدة المشاة في الجيش العثماني وكانت اورطتهم موزعة إلى ٣٥ بلوك . وعلى رأس كل بلوك ضابط ورئيسهم يسمى «سكبان باشي» .

(٦٥) **د. عبد الكريم رافق** . العرب والعثمانيون ص ٥٠ .

(٦٦) **اسعد افندي** ، تشريفات قديمة ص ٢٦ ، ٢٧ ..



أولاً المراجع العربية :

١ ــ **ابن إياس** ، محمد بن أحمد ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، جـ ٥ . القاهرة ١٣٨٠ = ١٩٦٠ م.

٢ ــ **ابن بطوطة** : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، الأنجلو المصرية . جـ ١ القاهرة ١٩٦٨ م.

٣ ــ **الجبرتي** ، **الشيخ عبد الرحمن** : عجائب الآثار في التراجم والأخبار . جـ ١ القاهرة ١٢٩٧ هـ .

٤ ـ **ساطع الحصري** : البلاد العربية والدولة العثمانية ، دار العلم للملايين ، بيروت (بدون تاريخ) .
٥ ـ **عبد العزيز محمد الشناوي** (دكتور) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ ١ القاهرة ١٩٨٠ م .
٦ ـ **عبد الكريم رافق** (دكتور) العرب والعثمانيون ، دمشق ١٩٧٤ .
٧ ـ **عبد الكريم رافق** (دكتور) بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦ ـ ١٧٩٨) ، دمشق ١٩٦٨ .
٨ ـ **علي باشا مبارك** : الخطط الجديدة التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة الشهيرة . جـ ٧ . بولاق سنة ١٣٠٥ هـ .
٩ ـ **مجلة العربي** عدد سبتمبر سنة ١٩٨١ م .
١٠ ـ **محمد جميل** ، العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب . المطبعة الوطنية ، بيروت ١٩٥٧ م .
١١ ـ **محمد فؤاد كوبرلي** (دكتور) قيام الدولة العثمانية ، ترجمة أ. د. أحمد السعيد سليمان . القاهرة ١٩٦٧ .
١٢ ـ **محمد فريد بك** ، الدولة العلية العثمانية ، دار النفائس . تحقيق إحسان حقي . بيروت ١٩٨١ م ..

ثانيًا : الكتب العثمانيـة :

١ ـ **أسعد أفندي** : تشريفات قديمة ، جاغري ياينلرى ، استانبول سنة ١٩٧٩ م .
٢ ـ **عين على افندي** : قوانين آل عثمان در مضامين دفتر ديوان ، درسعادت ١٠١٨ هـ = ١٦٠٩ م .
٣ ـ **فريدون بك** : فريدون بك منشآتي جلد ١ .
٤ ـ **فون هامر** : عثمانلي تاريخي ، عطا بك ترجمه سىجـ ١ ، جـ ٢ .
٥ ـ **مستقيم زاده سليمان سعد الدين** : دوحة المشايخ مع ذيل ، جاغري ياينلري استانبول سنة ١٩٧٨ م .
٦ ـ **وثائق تركية** : ٣٧٣٨/ ١/ ٢/ ٤٧٧ .

ثالثًا : الكتب التركية :

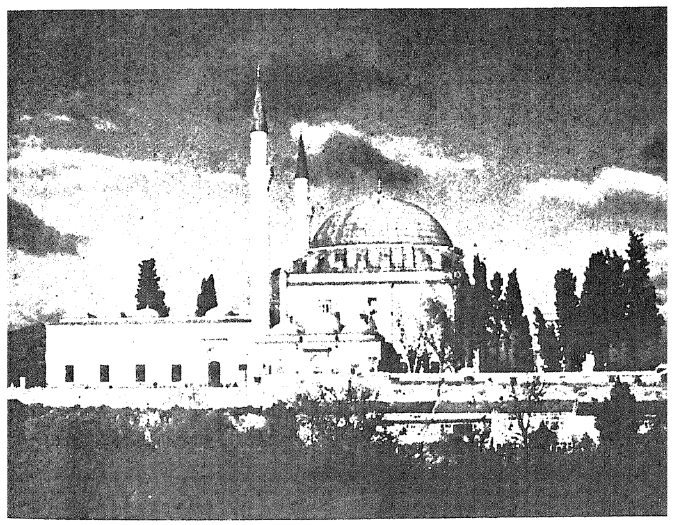
1. **A. Adivar Osmanli** Türklerinde ilim. Ank. 1943
2. **Enver Behman Sapolyo,** Osmanli, Sultanlari Istanbul **1961.**
3. **I. H. Uzunçarşili,** Osmanli Devletinin ilmiye Teşkilâti. Ankara **1965.**
4. **I. H. Uzunçarşili,** Osmanli Devletinden Kapukulu Ocaklari cilt. I.
5. **I. H. Uzunçarşili,** Mekke-I Mukerreme Emirleri Ankara **1972.**
6. **Mehmet Zeki Pakalin,** Osmanli tarih Deyimleri ve terimleri sözlüğü, Ist. **1971.**

m. **Mehmet Zilli Oğlu,** Evliyâ, Çelebi Seyahatnâmesi, Zuhurî Danisman, Ist. **1971** cilt. 14.

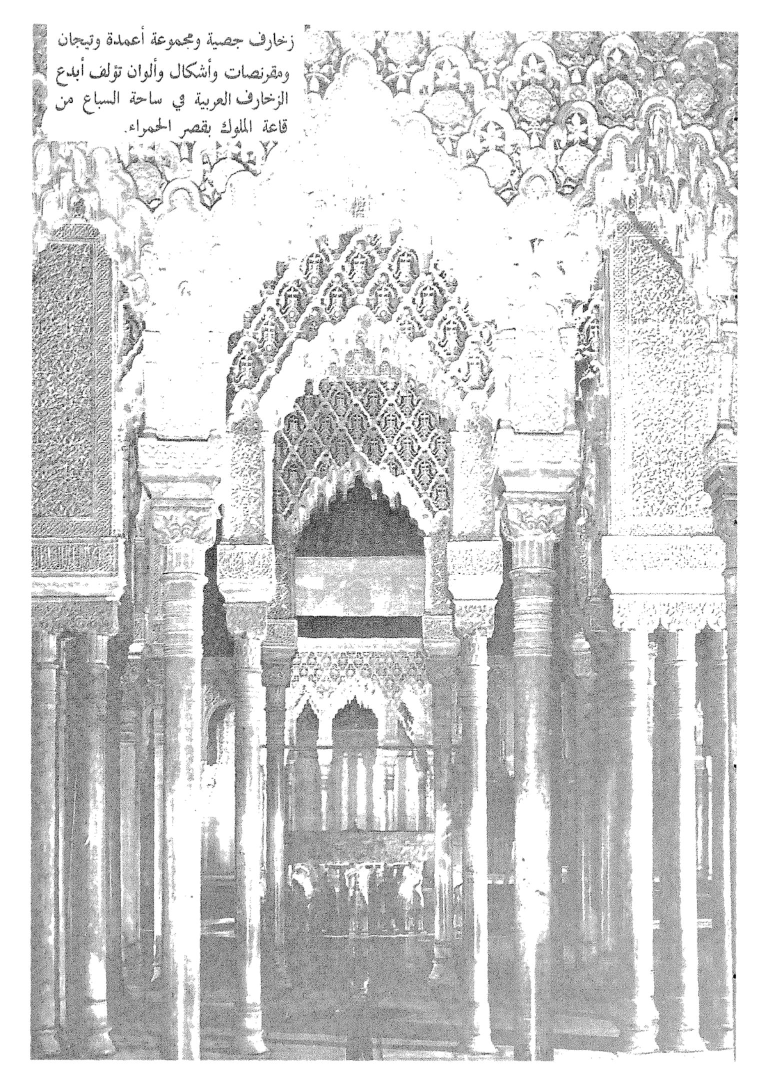
8. **Namik Kemal:** Osmanli tarihi, cilt. 3. **1974.**
9. **Resimli Mufassal tarihi,** cilt. 3. **1958.**

رابعًا : المراجع الإنجليزية :

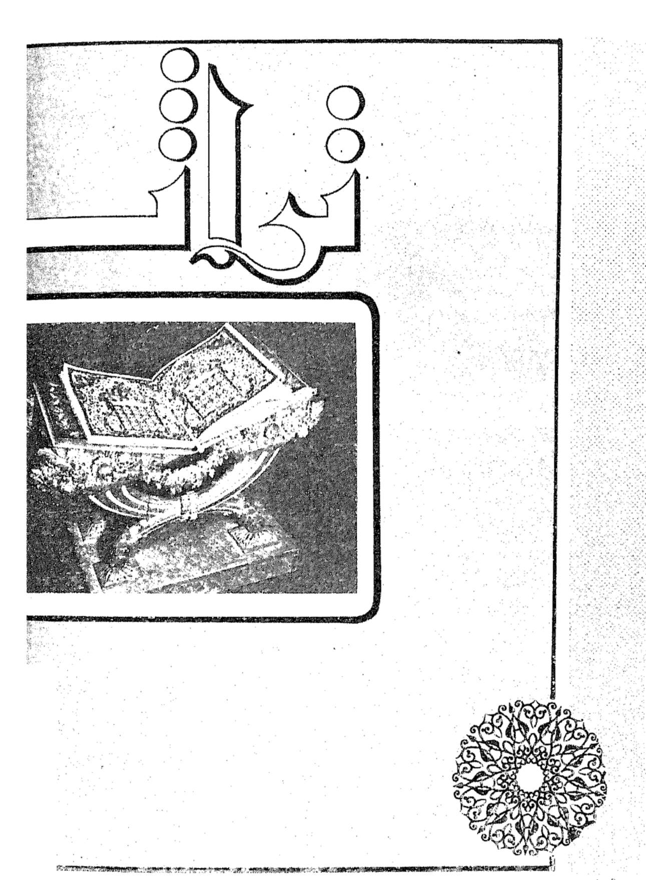
1. Donald Edgar Pitcher, An Historical Geography of the Ottoman Empire, Leiden E. J. Brill. 1972.
2. **Inalcik,** The Rise of Ottoman Empire. The Camb. His. of Islam. V. I.



جامع السلطان سليم



زخارف جصية ومجموعة أعمدة وتيجان ومقرنصات وأشكال وألوان تؤلف أبدع الزخارف العربية في ساحة السباع من قاعة الملوك بقصر الحمراء.


تراث

الفردوس المفقود

لعل الفن الأندلسي المغربي من أعرق الفنون التي خلفتها العصور الوسطى ، فمنذ القرن الثاني الهجري وقف عبد الرحمن الداخل مؤسس جامع قرطبة مشدوهًا معجبًا أمام مآثر الرومان الرائعة التي لقيها حين مر بالبلاد الأسبانية،فحاول أن يثبت في هذا المسجد ما راعه في الفن الجديد الذي ما لبث أن تطعم بالعناصر الطريفة الواردة من قادة اليونان،أو عن طريق العلماء والفنانين البيزنطيين، وهذا الفن الذي نشأ عام ٧٨٦ م — كما يقول طيراس — مازال يعيش ضمن الحرف والمهن في كبريات الحواضر المغربية (١) ، فهوفن منبثق من حضارةواحدةولدت في أسبانيا وترعرت في الحواضر الافريقية؛ولذا فهو وليد المدنية الأندلسية بقدر ما هو منبعث من معطيات الإسلام ..

الفن الأندلسي

بقلم الاستاذ : عبد العزيز بنعبد الله

وقد أصدر الأمير الأموي عبد الرحمن الأول أمره بالشروع في بناء جامع قرطبة عام ١٧٠هـ، غير أن المنية عاجلته بعد سنتين فاستأنف **ولده هشام** هذا المشروع الضخم الذي لم يتم على شاكلته الحالية إلا بعد قرنين ونصف قرن، ولكن المعالم الأولى التي خطها الأمير عبد الرحمن ظلت سائدة في التوسيعات المتوالية، بحيث يمكن القول: بأن فنًا جديدًا انبثق في الغرب منذ عام ١٧٠ هـ **(أي ٧٨٦ ميلادية)** مستمداً تنميقاته وموادّه المرمرية وسواريه من بقايا الرومان، ولكن رسومه مقتبسة من جامع دمشق وجامع بغداد والمسجد الأقصى.

ويُشكل هذا المسجد الآن مربعًا (طوله ١٨٠ مترا وعرضه ١٣٠ مترا) ثلثا أروقته للصلاة والثلث الباقي صحن، وهو محاط بسور مسنن مدعم الجوانب، فتحت في أضلاعه أبواب رائعة، أغلق اليوم معظمها لوقوعها في أجنحة هذا المعبد الكبير الذي أصبح كنيسة، وقد أُسس الجامع على حافة الطريق المؤدية إلى قنطرة[٢] الوادي الكبير قبالة القصر الملكي، حيث لم تتسع مساحته تدريجيًا إلا نحو الجنوب والشرق.

وكان هذا المسجد كنيسة أول الأمر، فحذا الأمير حذو الخليفة عمر بن الخطاب في الاقتسام، وجرى في قرطبة ما جرى بالنسبة لكنيسة القديس جان بدمشق، حيث اقتطع المسلمون نصف الكنيسة وتركوا الباقي للمسيحيين، إلا أن رحاب الجامع الجديد ضاقت بعد أن أصبحت قرطبة عاصمة الخلافة الأموية في الغرب الإسلامي، فقرر عبد الرحمن الأول بعد نصف قرن اقتناء النصف الآخر.

وقد ورد في (منهاج الفكر): ان قنطرة قرطبة إحدى أعاجيب الدنيا، بنيت زمن عمر بن عبد العزيز على يد عبد الرحمن الغافقي وطولها ٨٠٠ باع، وعرضها ٢٠ باعًا وارتفاعها ٦٠ ذراعًا وعدد حناياها ١٨ حنية وعدد أبراجها ١٩ (نفح الطيب ـــ المجلد الأول ـــ القسم الأول طبعة ليد عام ١٨٥٥ م، ص ٣١٤.

ونقل المقرى عن صاحب المغرب عن **ابن بشكوال أن الحاكم المستنصر** استحضر العلماء للمشورة في تحريف قبلة جامع قرطبة إلى نحو المشرق حسبما فعله والده الناصر في قبلة جامع الزهراء، فقال له الفقيه أبو إبراهيم: إنه قد صلى إلى هذه القبلة خيار هذه الأمة فأخذ الخليفة برأيه (النفح ج ١ ص ٣٦٩).

وقد صرف الأمير من غنائم (ناربونة) مائة ألف مثقال، ثم زاد نجله هشام الأول سقائف للنساء وحوضًا للوضوء ومنارة، ويظهر أن البناء توقف في عهد الحكم الأول واستوقف عام ٢١٨ هـ في أيام عبد الرحمن الثاني؛فأقيمت تسع بلاطات جديدة مدعمة بثمانين سارية في ظرف ١٥ عامًا،ومن سنة ٢٣٤ هـ إلى منتصف القرن الرابع تم نقش وترخيم طرز المسجد وبناء المقصورة ومستودع لأموال الأحباس وتجديد الحوض والسقائف، وأقيم ساباط بين القصر والجامع، أما عبد الرحمن الناصر فقد اهتم بالمنشآت العسكرية والمدنية أكثر مما اعتنى بالمؤسسات الدينية، ومع ذلك فقد صرف على الجامع نحو ربع ما أنفقه على قصر الزهراء (المغرب جـ٢ ص ٣٤٤) حيث هدم مثلاً منارة هشام الأول وأقام مكانها صومعة جميلة.

وقد كان للحكم الثاني اهتمام خاص بالجامع حتى أشرف بنفسه على رسم تصميم التوسيع بحضور فقهاء ومهندسين وبنى بلاطات ومحرابًا جديدًا وأقام قببا في البلاط (٣) المركزي والبلاط الجانبي قبالة المحراب مع تطريزها بالمرمر المنحوت والفسيفساء،وهو الذي «جلب الفسيفساء عام ٣٥٤ هـ من ملك الروم اقتداء بالوليد في بناء مسجد دمشق» حيث أوفد رسلا إلى إمبراطور بيزنطة (**نيسفور فوكاس**) فرجع الوفد بالصانع ومعه من الفسيفساء ٣٢٠ قنطارًا هدية» فرتب جملة من المماليك لتعلم الصناعة، فأبدعوا وأربوا على الصانع الذي صدر راجعًا عند الاستغناء عنه (٤).

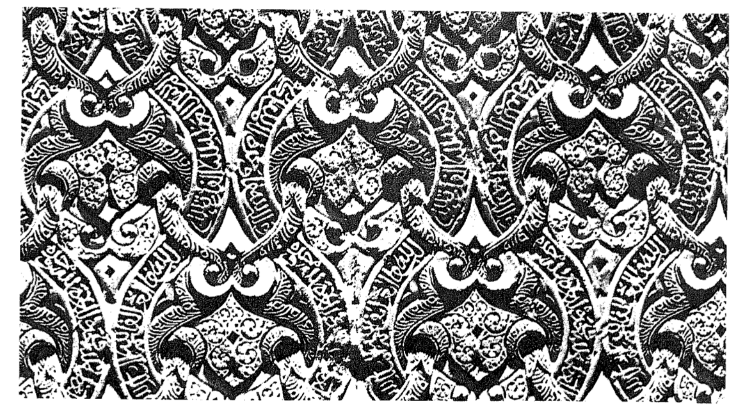
وفي عام ٣٥٦ هـ أجرى الخليفة إلى سقايات الجامع ماء عذبًا من عين بجبل قرطبة «خرق له الأرض وأجراه في قناة من حجر متقنة البناء محكمة الهندسة أودع جوفها أنابيب الرصاص».

وقد هدم منبر الجامع عام ١٥٧٢ م (٥) ولكن الجامع احتفظ منذ تسعة قرون بروائه وثرائه ووميض نقوشه ومناعة هيكله (٦).وفي عام ٣٢٩ هـ جرى الماء من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة وعلى الحنايا المعقودة إلى بركة عليها أسد بديع الصنعة من الذهب الابريز،وعيناه جوهرتان لها وميض، يجوز هذا الماء إلى عجز الأسد فيمجه في البركة وتسقى من مجاجه جنان القصر (النفح جـ١ ص ٣٧٢).

أما استعمال وسائل (**علم الحيل**) للنقل فقد ذكر ابن بشكوال (**النفح جـ١ ص٣٦٥**) أن الحاكم المستنصر أجرى الماء من سفح جبل قرطبة إلى سقايات اتخذت بأبواب المسجد بجهاته الثلاث،وهي عبارة عن ثلاث جوابي من حياض الرخام استقطعها بمقطع (المسمتين) بسفح جبل

قرطبة واحتفرها الرخامون بمناقيرهم حتى استوت في صورها البديعة،وحملت كل واحدة منها «فوق عجلة اتخذت من ضخام خشب البلوط على فُلك موثقة بالحديد محفوفة بالحبال،قرن لجرها سبعون دابة من أشد الدواب، وقد أفاض مؤرخو الإسلام في وصف الجامع الأموي، فنقل **ابن عذارى** عن الرازي (المغرب جـ٢ ص ٣٤٢ — ٣٤٣) أنه لما عمرت قرطبة ونزلها أمراء العرب بجيوشهم ضاق المسجد وجعلوا يعلقون منه سقائف،فلما دخل عبد الرحمن بن معاوية اشترى من أعاجم قرطبة بقية الكنيسة وأباح لهم بناء كنائسهم المهدمة وقت الفتح فأتم في عام ١٧٠ هـ بناء الجامع الذي كمل بلاطه واشتملت أسواره في عام واحد،وزاد ابنه صومعة ارتفاعها ٤٠ ذراعًا وبنى سقائف للنساء، ثم أضاف **عبد الرحمن بن الحكم** عام ٢٣٤ هـ زيادة طولها ٥٠ ذراعًا وعرضها ١٥٠ وعدد سواريها ٨٠. وأمر ولده محمد بإتقان طرز الجامع وتنميق نقوشه وإقامة المقصورة، ثم زاد المنذر بيت المال في الجامع وجدد السقاية والسقائف، وزاد أخوه الأمير عبد الله ساباطًا معقودًا على حنايا يتصل بالمقصورة، وذكر ابن سعيد نقلاً عن ابن بشكوال أن طول الجامع من القبلة إلى الجوف ٣٣٠ ذراعًا،والصحن المكشوف عنه ٨٠ ذراعًا، وعرضه من الغرب إلى الشرق ٢٥٠ ذراعًا،وعدد أبهائه عند اكتمالها أيام المنصور بن أبي عامر ١٩ وعدد الأبواب ٢١.والمنبر مؤلف من أكارم الخشب ما بين أبنوس وصندل ونبع وبقم **(نوع من الخشب يصلح للطلاء الأحمر)** وهو مركب من ٣٦٠٠٠ وَصْل قام كل واحد منها بسبعة دراهم فضة وسمرت بمسامير الذهب والفضة وفي بعضها نفيس الأحجار (النفح جـ١ ص ٣٦٢).وقد شاع في جامع قرطبة نحو ٣٦٠ طاقًا على عدد أيام السنة، وأن الشمس تدخل كل يوم من طاق إلى أن يتم الدور ثم تعود،إلا أنه لم يقف على ذلك في كلام المؤرخين (نفح الطيب طبعة ليد ١٨٥٥ جـ١ ص ٣٢٠).

وأكد الادريسي في نزهة المشتاق (الجزء المقتبس من النزهة والمطبوع في ليدن سنة ١٨٦٤ م ص ٢٠٨) أنه ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقًا، وتحدث عن سماوات السقف فأكد أنها من عيدان الصنوبر مسطحة فيها ضروب الصنائع المنشأة من الضروب المسدسة والفص والدوائر والمداهن،كل سماء مكثف بما فيه من صنائع لا يشبه بعضها بعضًا، قد أحكم ترتيبها وأبدع تلوينها «فأنواع الحمرة الزنجفرية والبياض الاسفيذاجي والزرقة اللازوردية والزرقون الباروقي والخضرة الزنجارية والتكحيل النقسي» **(النقس هو المداد)**، ولكل عمود رأس رخام وقاعدة رخام وعقد بين العمود والعمود على أعلى الرأس قسي غريبة فوقها قسي آخر على عمد من الحجر المنجور



زخارف جصية تحت رواق قاعة السفراء بقصر الحمراء

«وركبت عليها نتواءات مستديرة بينها ضروب صناعات الفص،وتحت كل سماء منها إزار خشب كتبت فيه آيات القرآن، ومحرابها من الفسيفساء المذهب الملون، على وجهه سبع قسى قائمة على عمد،والقسى مزججة،وعلى الكل كتابان بين بحرين من الفسيفساء المذهب في أرض الزجاج اللازوردي وتحتها كتابان كذلك وعلى وجه المحراب أنواع من التزيين والنقش وفي عضادتي المحراب أعمدة اثنان أخضران وآخران زرزوريان وعلى رأس المحراب خصة رخام واحدة مشبوكة محفورة منمقة،وعلى يمين المحراب المنبر الذي ليس بمعمور الارض مثله صناعة، خشبُه أبنوس وبقس (**نوع من الشجر دائم الاخضرار**) وعود المجمر،وعن يمينها باب يفضي إلى القصر بين حائطي الجامع في ساباط متصل له ثمانية أبواب، وللجامع عشرون بابًا مصفحة بصفائح النحاس وكواكب النحاس.

ولاحظ (المقري) في محل آخر أن عدد الأعمدة **١٢٩٣** من الرخام وأن (باب المقصورة) من الذهب وكذلك جرار المحراب وما يليه،اجرى فيه الذهب على الفسيفساء،وثريات المقصورة فضة محضة،وارتفاع الصومعة التي بناها عبد الرحمن بن محمد ٧٣ ذراعاً إلى أعلى القبة المفتحة التي يستدير بها المؤذن، وفي رأس هذه القبة تفافيح اثنتان من ذهب ابريز،وواحدة فضة وتحت كل واحدة سوسنة هندست بأبدع الصنعة، ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزج (نفح الطيب جـ ١ ص ٣٦٠)(٧).

نقل عن بعض المؤرخين أن قرطبة كانت تتكون من خمس مدن،يتلو بعضها بعضا،وبين المدينة والمدينة سور عظيم وحصن حاجز،وكل مدينة مستقلة بنفسها، وفيها ما يكفي أهلها من الحمامات والأسواق والصناعات (النفح جـ ١ ص ٣٦٧).

أما مدينة الزهراء فقد بُديئ في بنائها أيام الناصر أول سنة ٣٢٥ هـ وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ست آلاف صخرة سوى التبليط في الأسس،وجلب إليها الرخام من قرطاج وكان فيها من السواري ٤٣١٣ جلب من أفريقية ١٠١٣ وأهدى إليه ملك الروم ١٤٠ والباقي من رخام الأندلس.

والحوض المنقوش جلبه ربيع الأسقف من القسطنطينية،وكان عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعًا بالدر النفيس،وبلغ عدد الدور داخل الزهراء أربعمائة دار، بينما كانت عدة الدور داخل قرطبة ١٣٠٠٠٠ دار و٣٠٠٠[8] مسجد و٢٨ ربضا،منها مدينتان «الزهراء والزاهرة»،وأما اليتيمة التي كانت في المجلس البديع فإنها من تحف قيصر اليوناني صاحب القسطنطينية أهداها للناصر (**المغرب جـ ٢ ٣٤٥**).

وقد جلب الناصر حسب رواية المقري رخام الزهراء الأبيض من المرية والمجزع من رية والوردي والأخضر من أفريقية والحوض المنقوش من الشام،وقيل من القسطنطينية،وفيه نقوش وتماثيل وبنى فيها قصر الخلافة وسمكه من الذهب والرخام الغليظ، وفي وسطه اليتيمة المهداة من (ليون) ملك القسطنطينية، وقرامد هذا القصر من الذهب والفضة، وفي وسط هذا المجلس صهريج مملوء بالزئبق، وفي كل جانب منه أبواب انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي. فإذا أراد الأمير أن يفزع أحدًا من أهل مجلسه أمر بتحريك الزئبق فيظهر فيه كلمعان البرق من النور فيخيل للناظر أن المجلس قد طار مادام الزئبق يتحرك، وقد قارن المقري الزهراء بالقصر الذي شاده ملك طليطلة **المأمون بن ذي النون** بها حيث صنع في وسطه بحيرة وفي وسطها قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب،وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطًا بها ويتصل بعضه ببعض،فكانت قبة الزجاج في غلالة من ماء سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجري،والمأمون قاعد فيها لا يمسه الماء وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر عجيب (**نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٧**).

وقد اشتملت الزهراء على ٤٠٠٠ سارية و١٥٠٠٠ باب وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه وقد وقع الشروع في بناء الزهراء عام ٣٢٥ هـ،واستعملت كل يوم ستة آلاف من الصخر المنحوت المعدل عدا الصخر المصرف في التبليط (النفح جـ ١ ص ٣٧٣) وكان عدد السواري المجلوبة من أفرقية ١٠١٣ سارية.

وذكر صاحب المطمح أن المنذر بن سعيد أنكر على الناصر إسرافه في البناء؛لأنه اتخذ لسطح القبيبة التي كانت مائلة على الصرح الممرد المشهور شأنه بقصر الزهراء قراميد ذهب وفضة أنفق عليها مالاً جسيمًا،وقرمد سقفها صفرًا فاقعة إلى بيضاء ناصعة تسلب الأبصار بأشعة نورها (ص ٣٧٧).

وقد لاحظ طيراس(٩) أن أساليب النقش في مدينة الزهراء مقتبسة من اليونان والبيزنطيين في حين أن محراب قرطبة(١٠) شبيه بباب خزانة مسجد سيدي عقبة، ومعلوم أنه في الوقت الذي وسع فيه الحكم الجامع الأموي؛كانت قد مرت أزيد من مائة وعشرين سنة على اقامة مسجد القيروان الذي كان يعتبر إذ ذاك أوسع وأجمل مسجد في الغرب الإسلامي، ويلاحظ كذلك التأثير العراقي العباسي في مؤسسات قرطبة؛كالقسى المفلوقة أو المفصصة على غرار ورق الأشجار،وكذلك في نقش السقوف الهندسي والقباب المنمقة في شكل عروق وأضلاع.

أما الرسوم الزهرية فالظاهر أنها من ابتكار الأندلسيين(١١)،وتتجلى التقاليد الأسبانية الصرف في رءوس الأعمدة المرمرية التي توجد بقاياها خارج قرطبة في الكتبية بمراكش وفي مسجد أشبيلية وفي المتاحف.وقد نحت الرخامون القرطبيون عددًا من أجمل هذه العمد في العصور الوسطى.

وتظهر المجالس الثانوية للفن الأموي في القلاع والأسوار (مدينة الزهراء وطليطلة)ومعلوم أن خلفاء بني أمية كانوا من كبار بناة الحصون،ولعل مبانيهم العسكرية تفوق في ضخامتها ما أسسوه من مساجد وقصور.

وقد استمر الطابع الأموي العام في أيام حجابة المنصور حيث زاد ابن أبي عامر بشرقي الجامع بلاطات تمتد طولها من أول المسجد إلى آخره، وقصد من هذه الزيادة المبالغة في الانفاق والوثاقة دون الزخرفة (المغرب لابن عذارى جـ ٢ ص ٤٢٩) وبلغ عدد السوارى ١٤١٧،وعدد

الثريات ٢٨٠ وعدد خدام الجامع ١٥٩ شخصًا وعدد القومة ٣٠٠ (النفح جـ١ ص ٣٦٢ نقلاً عن ابن شكوال).

وفي عام ٣٦٨ أمر المنصور ببناء الزاهرة بطرف البلد على نهر قرطبة، فتمت في عامين فنزلها بخاصته واتخذ فيها الدواوين وأقام خلالها المنازل وجليلات القصور والأسواق فاتصلت أرباضها بأرباض قرطبة (النفح جـ ص ٣٨٠).

وتتسم النقوش العامرية بالطابع النباتي غير أن الرموز الحيوانية اتخذت مكانة جُلى في فن النحوت المرمرية،وتوجد جفنتان من المرمر،إحداهما بمتحف مدريد والأخرى بمدرسة ابن يوسف بمراكش،تحمل اسم عبد الملك نجل المنصور،ومن جملة صور الحيوانات المنقوشة في هذا المرمر النسور والعقبان والظباء والأسود والفهود والطيور،وهذا يدل على أن الاستمداد من الطبيعة لم يكن خاصًا بالنقوش الخزفية أو العاجية،وقد خلف لنا الأندلس الأموي مجموعة من التحف العاجية تعتبر من أجمل ما يوجد في العالم(١٢) وما زالت **(تغزوت)** بشمال المغرب تصنع إلى الآن نماذج رائعة من هذه العلب والصناديق والأغشية العاجية، ولعل الفن الأموي يستمد هذه البدائع من الفنيين العباسي والفاطمي، ويمكن القول بأنه إذا كان الأثر البيزنطي جليًا في مدينة الزهراء وإذا كان التأثير العباسي قد بدأ يظهر في الصنائع أيام الحكم الثاني فانه استقى نقوشه الخزفية وصوره العاجية وقسما من نقوشه الهندسية من العراق ولكنه أضفى عليها طابعه الخاص.

وهكذا ظل الفن الأندلسي من القرن الثاني إلى القرن الرابع الهجري موصولاً بالأسر الأموية المالكة وبعاصمة قرطبة،ثم انتشر في باقي ربوع الأندلس وحدود قشتالة؛فاستعملت الأساليب المعمارية والنقوش القرطبية في مساجد كبريات المدن وقصورها وقلاعها، وبعد سقوط الخلافة الأموية والحجابة العامرية تمزقت وحدة الأندلس ونشأت مصانع في مدن لم يكن لها سابق نشاط. وفي عهد ملوك الطوائف غرست البلاطات الإقليمية ووجد جذور الفن الأندلسي في المدن الصغرى حيث عاش طوال قرون ثم مالبث الغزو المرابطي الأندلسي أن فتح باب أفريقيا الشمالية في وجه الفن الاندلسي الذي سادت معالمه في المدن المغربية، غير أنه لم يبق شيء الآن من مؤسسات ملوك الطوائف باستثناء القصور الجعفرية التي أقامها بنو هود في سرقسطة(١٣) والتي تدل على مدى المجهود الذي بذله النقاشون في هذا العصر **(تزايد النقوش الزهرية في شكل دقيق وظهور القسى المتقطعة واتساع الأشكال الهندسية).**

وقد عرف المرابطون كيف يقتبسون من الفن الأندلسي، وينقلون إلى المغرب بدائع هذا الفن،ويعتبر محراب تلمسان وروائع القرويين أجمل ما أهداه المرابطون إلى الأفارقة، وإذا كان المرابطون قد شجعوا انتشار الفنون الأندلسية دون مساس بروحها، فإن الموحدين تمكنوا من إضفاء طابع خاص على مجموعها، ولعل ذلك راجع إلى أن ملك المرابطين لم يدم طويلاً وأن دولتهم استؤصلت في عنفوانها، ومع ذلك فقد مهدوا الطريق للموحدين وفتحوا مدن أفريقيا على مصاريعها في وجه الفن الأندلسي. ذلك لأن ظهور دولة الموحدين غيرت الظروف التي عاش فيها الفن الأندلسي، فاتسع نطاق هذا الفن وانفسح مجاله مع تبلور وسائله واتساق مظاهر كماله. وإذا كان عبد المؤمن قد اتجه وبخاصة إلى إقامة مؤسسات بالمغرب (تازة ومراكش) فإن الأندلس احتلت المكانة الأولى في عهد أبي يعقوب الذي جدد أسوار اشبيلية، وأقام قصبة انخسفت إليها أنوار قصور بني عياد،وبنى أكبر مسجد في الأندلس[١٤] ضاهى به جامع قرطبة وكتبية مراكش التي بناها والده كما نافس قصور القصبة بمراكش.

ثم جاء المنصور فأتم جامع أشبيلية ومنارته العجيبة ومعماريات القصبة بمراكش وبنى رباط الفتح (قرب قصبة الودايا التي هي من مخلفات جده) وشرع في بناء جامع حسان،ثم واصل ولده نشاط الأسرة المعماري،فأسس أسوارًا جديدة بفاس ووسع جامع الأندلس،ولكن هزيمة الموحدين بالأندلس فتحت أبواب أسبانيا في وجه الصليب،على أن الهندسة المعمارية العسكرية الموحدية لم تتطور في العدوتين إلا في ميدان النقش حيث استعيض عن الحجر المنجور وعن الرخام بمزيج من الملاط (الطين الذي تطلى به الجدران)[١٥] والرمل والماء وهو الأسلوب الاقتصادي السريع في البناء،مما أثر تأثيرًا سيئًا في مناعة الحصون وفي قيمتها الاستراتيجية، غير أن استمرار الخطر المسيحى في الأندلس أمد الموحدين أنفسهم إلى نوع من العناية بالهندسة العسكرية،وواصل بنو نصر جهودهم في تجديد الأساليب العتيقة بالاستعداد من الأجهزة المسيحية.

ويمكن القول بأن الطابع العام في المعماريات الموحدية هو الفخامة والأصالة مع مهارة المهندسين في فن التشكيلات والتصويرات،ولذلك اتسم الفن الاندلسي المغربي بأعظم وأروع مما اتسمت به الفنون الأخرى.

وفي خصوص الفن الشرقي نلاحظ تقارب الأساليب المغربية الأندلسية مع المناهج الفاطمية سواء في المظاهر الهندسية أم النقوش (بالرغم من استعمال الآجر في المغرب والحجر والعقود والقباب المحدودبة في مصر)، وقد تباعدت طرائق التزيين المصرية السورية عن الاتجاهات العراقية لتقترب من المنازع المغربية ففي الكتبية ومسجد الحكم الفاطمي بالقاهرة مثلاً توجد حجرية وأقواس مسندة بأعمدة من الآجر ونقوش على الجبس وتوريقات زهرية.

وقد استطاع الفن الأندلسي في عهد الموحدين الاستمداد من مصر عن طريق (بني زيرى) ولكن غزو الأعراب الهلاليين قلص من هذا التبادل الفني بين الشرق والغرب الإسلامي أيام الأيوبيين والماليك، بحيث ظل الفن الأندلسي منعزلاً يتطور بسرعة خارقة في إطار مُقفل تبلورت أشكاله ومعالمه، فلم يضف إليه المرينيون ولا الغرناطيون اكتشافات جديدة، وإنما هي تلوينات طريفة في إطار عتيق زادتها جمودًا حركة الغزو المسيحي للأندلس.

وقد تأثر الأسبان المسيحيون الذين عاشوا بين ظهراني المسلمين بالأندلس بالفن العربي الذي ظهرت بعض معالمه في بناء الكنائس (ابهاء أشبه بمحاريب — قسي — قباب مورقة) كما احتفظ المدجنون[١٦] **بصنائعهم واساليبهم الفنية**، ولكن الدولة لم تستخدمهم إلا في المؤسسات البسيطة، بينما استعمل الأسبان الواردون من الشمال في بناء القصور والمعابد الضخمة بالإضافة إلى عملة من الشمال أو من فرنسا ثم من الفلاندر وألمانيا، وبذلك يرى البعض أن الفن المسيحي في أسبانيا فن أجنبي مستورد من الخارج، ويلاحظ وجود عنصرين في فن المدجنين الفن الاندلسي القديم والفن المجلوب. ففي طياته يتسم الفن المقتبس بالطابع الأموي بينما يصطبغ فن المدجنين في اراغون — وهو أبرز أنواع هذا الفن — بالطابع الموحدي لا سيما في نقوش المنارات (الآجر والفسيفساء) وحتى العناصر المستوردة تتقارب من الفن الموحدي في النحت والتزيين.

وبعد سقوط طليطلة وقرطبة وبلنسية وأشبيلية أصبحت غرناطة حاضرة لأعظم مملكة إسلامية في أسبانيا والتفت حول بلاط محمد بن الأحمر أبرز عناصر[١٧] **المعرفة والثروة والفن والصناعة (غراسات بلنسية ومصانع مرسيةللأوانى المذهبة والأسلحة والمرصعات)** ولا توجد الآن في غرناطة أية مؤسسة مهمة أقدم من قصر الحمراء، باستثناء حماماتها التي يرجع عهدها إلى العصر العربي الأول، فبعد ما احتل أمير قشتالة أشبيلية شرع ابن الأحمر في بناء **(قلعة الحمراء)** وتحدث الادريسي عن الحرف الصناعية فذكر (في الجزء المقتبس من النزهة طبعة ليدن ٢٠٨)

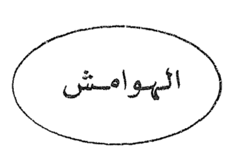
أن مدينة المرية مثلاً كان بها ٨٠٠ طرَّاز يقومون بعمل الحلل والديباج والستور المكللة والخمر وصنوف الحرير وصنوف آلات النحاس والحديد، وليس في بلاد الأندلس أحضر من أهلها نقدًا ولا أوسع أحوالاً؛ فيها ٩٧٠ فندقًا وفي شاطبة (ص١٩٢) تصنع ثياب بيض من أبدع الثياب عتاقة ورقة حتى لا يفرق بينها وبين الكاغد في الرقة والبياض. ثم واصل محمد الثاني بناء الحصون والقصور ثم أسس ولده عبد الله جامعًا فخمًا رائق الهندام مزدانًا بالفسيفساء المنمقة، ومسندًا بأعمدة رائعة برءوسها وقواعدها المفضضة ثم اكتملت بهجة الحمراء أيام الغني بالله لا سيا في ساحة الأسود وردهة السفراء[١٨]

وفي عهد أخيه أبي الحجاج انتظمت آخر النقوش والنحوت ونافس الاثرياء بدائع الحمراء بقصورهم الفاخرة ومبانيهم المنتشرة في سهول غرناطة وما زالت (قيسارية) المدينة إلى الآن شبيهة بقيساريات فاس.

وتعتبر ساحة الأسود وردهات الأختين وبنى سراج من أروع ما حفظه الحدثان في الحمراء وتقوم وسط الساحة فسقية تتفتح في دائرتها اثنا عشر أسداً،أهم وأكمل نموذج للنقش العربي في الأندلس.



باحة الآس وتبدو فيها البركة
وسط أشجار الآس بالرواق الجنوبي لقصر الحمراء



(١) **الفن الأسباني المويسكي** — هنري طيراس — باريس — المجلد الخامس والعشرون من نشرات معهد الدروس العليا — المقدمة.

(٢) **المغرب** جـ ٢ ص ٣٤١.

(٣) استعمل الأمير بعض مواد المحراب القديم من أربع أسطوانات اثارت بعد قرنين اعجاب الشريف الأدريسي (المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مقتبسين من نزهة المثاق طبعة ليد عام١٨٩٢ م ص ٢١٠).

(٤) كتاب المؤرخ الأسباني موراليس حول تاريخ أسبانيا.

(٥) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى — بيروت عام ١٩٥٠ جـ ٢ ص ٣٥٤.

(٦) المندسة المعارية عند العرب والمغاربة في أسبانية وصقلية وبلاد البربر بقلم جيرول دوفرانجي باريس عام ١٨٤١ ص ٤٩.

(٧) كان للصومعة التي جددها عبد الرحمن الناصر عام ٣٢٠ هـ مطلعان فصل بينهما البناء فلا يلتقي الراقون فيها إلا بأعلاها (النفح جـ ١ ص ٣٦٩ عن ابن بشكوال).

(٨) ذكر المقري أن دور قرطبة وارباضها بلغت أيام ابن أبي عامر ١٣٠٧٧ هـ دارا للرعية و٦٠٣٠٠ دار للاكابر و٨٠٤٥٥ حانوتًا (نفح الطيب جـ ١ ص ٣٥٦).

(٩) كتاب الفن الأسباني المغربي — باريس ١٩٣٢ ص ٩٦.

(١٠) ص ١١٠.

(١١) ص ١٤١.

(١٢) طيراس — الفن الأسباني المغربي ص ١٧٣.

(١٣) طيراس ص ١٩٧ (في عهد ابي جعفر المقتدر ص ٢٠٢).

(١٤) طيراس ص ٢٨٠.

(١٥) قوى استعمال الآجر في المساجد والقصور باستثناء جامع حسان حيث تكثر السواري الحجرية وكذلك في تلمسان أيام بني مرين.

(١٦) وقيل المدحلون وهم المسلمون فن لكم الافرنج عند المغاربة (عن ابن فضل الله العمرى) المكتبة الصقلية ص ١٥٠.

(١٧) ردهة السفراء في أشبيلية لاتحاذي الحمراء في روعتها ولكنها مع ذلك من أجمل ما خلفه الفن المورسيكي.

(١٨) (٢) شيدها أبو الحجاج عام ٧٤٩ هـ حسب التاريخ المسجل في باب الشريعة.

(١٩) المندسة المعارية عند العرب والمغاربة — جيرول دوفرانجي طبعة ١٨٤١ ص ١٥٣ راجع في قسمه الأخير نماذج رائعة من الكتابات المعارية مع صور خلابة تمثل بدائع النقش في قصور غرناطة ألوانها الحقيقية.


بلاد الأندلس
"تقلص الدولة الإسلامية"
خليج بسكاي
شنت يعقوب
الليون
جليقية
جبال البرت
قشتالة
نافار
قطالونية
نهر وادي دويرة
الخلافة الأموية
الأرغون
برشلونة
طرطوشة
مدريد
نهر وادي تاجة
طليطلة
البرتغال
المحيط الأطلسي
الموحدية
الخلافة
بلنسية
منورقة
ميورقة
يابسة
الأرك
العقاب
نهر الوادي الكبير
قرطبة
إشبيلية
غرناطة
جبل شلير
خلافة بني الأحمر
المرية
مالقة
رندة
البحر الأبيض المتوسط
الجزيرة الخضراء
سبتة
طنجة
تطوان
الرباط
الحدود الشمالية لامتداد الخلافة الاموية
الحدود الشمالية لامتداد الخلافة الموحدية
الحدود الشمالية لامتداد خلافة بني الأحمر



د. رمضان عبد التواب

جلال الدين السيوطي

في كتابه

المزهر

علوم اللغة وأنواعها

كتاب

«المزهر في علوم اللغة وأنواعها» أشهر كتب جلال الدين السيوطي اللغوية ، بل إنه أشهر كتب فقه اللغة في العربية ، جمع فيه مؤلفه حصاد القرون الطويلة التي سبقته في الدراسات اللغوية عند العرب ، واستوعب فيه كل ما وصلت إليه يده من مؤلفات السابقين ، في القضايا التي أثارها في كتابه ، بدءًا من حديثه عن أصل اللغة ونشأتها ، ومرورًا بطرق تحمل العلم باللغة ، ومعرفة الفصيح والمطرد والشاذ والنادر ، والمعرّب والمولّد ، وخصائص العربية في ظواهر الاشتقاق والحقيقة والمجاز ، والمشترك والتضاد والترادف ، والإتباع والإبدال ، والقلب والنحت ، والمثنى والمكنى والمبني ، والملاحن والألغاز ، والأشباه والنظائر... وانتهاء بالحديث عن آداب اللغوي ، ومعرفة ما ينتاب كتابة اللغة من التصحيف والتحريف ، وطبقات اللغويين وأسمائهم وكناهم وألقابهم وأنسابهم ، وأغلاط الشعراء والرواة وأكاذيب الأعراب ، وما إلى ذلك .

ولقد بلغت مصادر السيوطي في هذا الكتاب مائتي مصدر ، يعود أقدمها إلى القرن الثاني الهجري ، كالعين للخليل بن أحمد الفراهيدي ، وأحدثُها إلى الفيروز آبادي المتوفى (سنة ٨١٧ هـ) قبل السيوطي بحوالي قرن من الزمان .

وقد أتى السيوطي على الكثير من محتويات بعض هذه الكتب ، فنقلها إلى مزهره ، فقد نقل أكثر ما في كتاب «الإبدال» لابن السكيت ، ثم قال : «هذا غالب ما أورده ابن السكيت ، وبقيت منه أحرف أخرى ، أخّرتها إلى النوع السابع والثلاثين والذي يليه . وفات ابنَ السكيت ألفاظ جمة مفرقة في كتب اللغة . ومن أهم ما فاته الإبدال بين السين والصاد ، نحو : السراط والصراط [(١)] » .

ومعنى هذا النص أن السيوطي ، لم يكن ينقل ما في مصادره ، نقلاً عشوائيًا ، وإنما هو نقل واع يتبع منهجًا وتخطيطًا بالغ الدقة .

ومثل ذلك أيضًا نقلُه ما ذكره الفيروز آبادي من أسماء العسل في كتابه : «**ترقيق الأسل لتصفيق العسل**» ، وقوله بعد أن انتهى منه : «قلت : ما استوفى أحد مثل هذا الاستيفاء ، ومع ذلك فقد فاته بعض الألفاظ[٢]» ، ثم استكمل هذه الألفاظ من أمالي القالي ، وأمالي الزجاجي[٣] .

ويشبه هذا أيضًا صنيعه مع كتاب «المثنى والمبني» لابن السكيت ؛ فقد نقل منه عشر صفحات كاملة ، ثم قال : «هذا ما أورده ابن السكيت في هذا الباب ، وقد جمع فأوعى ، ومع ذلك فقد فاته ألفاظ[٤]». وقد استدرك السيوطي هذا الفائت من ديوان الأدب ، والغريب المصنف ، والجمهرة ، وغيرها .

وأحيانًا ينقل السيوطي فصولاً كاملة من مصادره ،كما فعل ذلك حين نقل الفصلين الرابع والخامس من كتاب «**لمع الأدلة**» لأبي البركات بن الأنباري (٨٣ ـ ٨٤) بالحرف الواحد[٥] . وكما فعل في باب : «ذكر ما جاء في فُعالة» ؛ إذ نقله كله من «**الغريب المصنف**» لأبي عبيد ، وقال في آخره : «**هذا جميع ما في الغريب المصنف**[٦]».

وفي بعض الأحيان يلخص السيوطي ما في مصادره تلخيصًا شديدًا ، كما فعل حين لخص كتاب : «مراتب النحويين» لأبي الطيب اللغوي ، في عشرين صفحة ، وقال في آخرها : «انتهى كلام أبي الطيب في كتاب مراتب النحويين ملخصًا[٧]» . وهو لا يغفل الإشارة إلى ما لخصه من نصوص مصادره ، كما رأينا في العبارة السابقة ، وكقوله في موضع آخر مثلاً : «**انتهى كلام ابن جني ملخصًا**[٨]».

وقد نثر السيوطي كثيرًا من مسائل «**الصاحبي**» لابن فارس ، و«**الخصائص**» لابن جني ، في مزهره ؛ فقد نقل عن الأول ست صفحات كاملة في أحد المواضع ، ثم قال : «**هذا كله كلام ابن فارس**[٩]» . كما أكثر من النقل عنه في افتتاحيات كثير من أبوابه[١٠] . وقد نص السيوطي على استفادته الكاملة من هذا الكتاب ، فقال مرة : «**قلت** : قد رأيت نسخة من هذا الكتاب مقروءة على المصنف ، وعليها خطه ، وقد نقلت غالب ما فيه في هذا الكتاب[١١]» . كما نقل

عن «الخصائص» كثيرًا كذلك ؛ إذ نقل منه ست صفحات في أصل اللغة ، وقال في آخرها : «**هذا كله كلام ابن جني**[١٢]» . وهناك نقل آخر في سبع صفحات في موضوع : المهمل والمستعمل ، قال بعده : «انتهى كلام ابن جني[١٣]». وفي باب : سقطات العلماء ، نقل عنه اثنتي عشرة صفحة ، وقال : «**انتهى ما أورده ابن جني**»[١٤] .

ومن أمثلة النقل المطوّل عن المصادر ، نقلُه رسالة في حوالي ثلاثين صفحة[١٥] ، من ديوان رسائل الشريف أبي القاسم علي بن الحسين المصري ، في الألغاز اللغوية ، ثم نقلُه المقامة الثانية والثلاثين في الألغاز من مقامات الحريري كاملة[١٦] .

ومع تطويله النقل عن بعض المصادر على هذا النحو ، نراه لا يستخدم في بعض الأحيان كل الكتب المتخصصة في الموضوع الذي يكتب فيه ، ففي موضوع «**المشجر**» مثلاً ، لم يستخدم السيوطي كتاب «**المداخل**» لأبي عمر الزاهد (**٣٤٥ هـ**) ، ولا كتاب : «**المسلسل**» لأبي الطاهر التيمي (**٥٣٨ هـ**) . وفي موضوع «**الإتباع**» لم يستخدم كتاب «**الإتباع**» لأبي الطيب اللغوي (**٣٥١ هـ**) . وكذلك في موضوع «**الإبدال**» لم يفد من كتاب «**الإبدال**» لأبي الطيب اللغوي شيئًا . ونراه كذلك في موضوع «**الأمثال**» لا يستخدم بعض الكتب المهمة ؛ مثل : «**جمهرة الأمثال**» لأبي هلال العسكري (**٣٩٥ هـ**) و«مجمع الأمثال» للميداني (**٥١٨ هـ**) و«**المستقصى**» للزمخشري (**٥٣٨ هـ**) وغير ذلك .

* * *

وتنقسم مصادر السيوطي في مزهره ، إلى أنواعٍ شتى من حيث التخصص ، على النحو التالي :

١ ـ كتب في فقه اللغة ، كالصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ، والخصائص لابن جني .

٢ ـ معاجم عربية مرتبة على الموضوعات ؛ مثل : الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام ، وفقه اللغة للثعالبي[١٧] . أو مرتبة على المخارج ؛ مثل : العين للخليل بن أحمد ،

ومختصره لأبي بكر الزبيدي ، وتهذيب اللغة للأزهري ، والمحكم والمحيط الأعظم لابن سيدة ، واستدراك الغلط الواقع في كتاب العين للزُّبيدي . أو مرتبة ترتيبًا هجائيًا أو على المباني ؛ مثل : الصحاح للجوهري ، والقاموس المحيط للفيروز آبادي ، والعباب للصاغاني ، وجمهرة اللغة لابن دريد ، وديوان الأدب للفارابي ، والمجمل لابن فارس .

٣ ـ كتب لغوية متخصصة في موضوع واحد ؛ مثل : **الإبدال لابن السكيت ، والأيام والليالي للفراء ، وما اتفق لفظه واختلف معناه للمبرد ، والمقصور والممدود لابن ولاد ، والأضداد لأبي بكر بن الأنباري ، والإتباع لابن فارس ، وشجر الدر لأبي الطيب اللغوي ، والمقصور والممدود لأبي علي القالي ، وما جاء على فعال للصاغاني ، والمثنى لأبي الطيب اللغوي ، والموازنة لحمزة بن الحسن الإصفهاني ، وخلق الإنسان للصاغاني ، والأجناس للأصمعي ، والمقصور والممدود لابن السكيت ، والفروق لأبي الطيب اللغوي ، والأصوات لابن السكيت ، والليل والنهار لأبي حاتم السجستاني .**

٤ ـ كتب في النحو الصرف ؛ مثل : الكتاب لسيبويه ، وأصول النحو لابن السرّاج ، وارتشاف الضرب لأبي حيان ، والتسهيل لابن مالك ، ولمع الأدلة لأبي البركات بن الأنباري ، وشرح التسهيل لأبي حيان ، وسفر السعادة للسخاوي ، والإنصاف لأبي البركات ابن الأنباري ، وشرح فصول ابن معط لابن إياز ، والغرة في شرح اللمع لابن الدهان ، وشرح المفصل للسخاوي ، وشرح الشافية للجاربردي .

٥ ـ كتب في لحن العامة ؛ مثل : إصلاح المنطق لابن السكيت ، وتهذيبه للخطيب التبريزي ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وشرحه للجواليقي والزجاجي ، والفصيح لثعلب ، وشروحه لابن درستويه والمرزوقي وابن خالويه والبطليوسي ، وذيله للموفق البغدادي .

٦ ـ كتب الأمالي ؛ مثل : أمالي ثعلب المعروفة بمجالس ثعلب ، والأمالي لأبي علي القالي ، وأمالي الزجاجي ، وأمالي ابن دريد ، وأمالي أبي عبيد .

٧ ـ كتب النوادر ، كالكتب التي ألفها كل من أبي زيد الأنصاري ، وأبي محمد اليزيدي ، وابن الأعرابي ، ويونس بن حبيب ، وأبي عمرو الشيباني ، والنُّجَيْرَمي .

٨ ـ دواوين الأدب والمجاميع الشعرية ، مثل : يتيمة الدهر للثعالبي ، والأغاني لأبي الفرج الإصفهاني ، والكامل للمبرد ، وشرح المعلقات لأبي جعفر النحاس ، وربيع الأبرار للزمخشري ، ومقامات الحريري ، ونشوار المحاضرة للتنوخي ، وشرح شعر هذيل للسكري ، والحمقى والمغفلين لابن الجوزي ، وجمهرة أشعار العرب لمحمد بن أبي الخطاب ، وأيام العرب لأبي عبيدة ، وشروح المقامات للمطرزي والنحاس وسلامة الأنباري ، وشرح كامل المبرد لأبي إسحاق البطليوسي .

٩ ـ مجاميع أمثال العرب ، مثل : الزاهر في معاني كلمات الناس لأبي بكر بن الأنباري ، وجامع الأمثال لأبي علي أحمد بن إسماعيل القمي .

١٠ ـ كتب في البلاغة والنقد القديم ، مثل : الإيضاح للقزويني ، ومنهاج البلغاء لحازم القرطاجني ، وسر الفصاحة لابن سنان ، والعمدة لابن رشيق ، وعروس الأفراح لبهاء الدين السبكي ، والطريق إلى الفصاحة لابن النفيس .

١١ ـ كتب في الأصول والفقه ، مثل : شرح منهاج الأصول للإسنوي ، والمحصول لفخر الدين الرازي ، والوصول إلى الأصول لأبي الفتح بن برهان ، وشرح منهاج البيضاوي لتاج الدين السبكي ، وشرح المحصول للقرافي ، والملخص في أصول الفقه للقاضي عبد الوهاب السبكي ، والروضة للإمام النووي .

١٢ ـ كتب في التفسير ، مثل : تفسير الطبري ، والبحر المحيط للزركشي ، والتفسير لوكيع ، والتفسير لابن جزيّ .

١٣ ـ كتب في الحديث ، مثل صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، والمستدرك للحاكم ، وشعب الإيمان للبيهقي ، وغريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام ، والأدب المفرد

للبخاري ، ومسند أحمد بن حنبل .

١٤ ـ كتب في التراجم والطبقات ؛ مثل : طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، وأخبار النحويين البصريين للسيرافي ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ، ومراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ، ومن سمي عمرًا من الشعراء لابن الجراح ، والمؤتلف والمختلف للآمدي .

١٥ ـ كتب تاريخية ؛ مثل : تاريخ دمشق لابن عساكر ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وتاريخ حلب للكمال بن العديم ، وتاريخ المسعودي (مروج الذهب) ، وذيل تاريخ بغداد لابن النجار .

* * *

هذه هي جمهرة المصادر التي رجع إليها جلال الدين السيوطي ، في تأليف موسوعته اللغوية : «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» . وبعض هذه المصادر مفقود لا وجود له الآن ؛ مثل : الأجناس للأصمعي ، والأصوات لابن السكيت ، والليل والنهار لأبي حاتم السجستاني ، والفروق لأبي الطيب اللغوي ، وشرح الفصيح لابن خالوية ، وأيام العرب لأبي عبيدة ، والنوادر لأبي عمرو الشيباني ، والنوادر ليونس بن حبيب .

وهذا الكتاب الأخير كان قليل الوجود في عصر ابن مكتوم (٧٤٩ هـ) ؛ إذ قال عنه السيوطي في المزهر : «وفي النوادر ليونس ، رواية محمد بن سلام الجمحي عنه ـ وهذا الكتاب لم أقف عليه ، إلا أني وقفت على منتقى منه ، بخط الشيخ تاج الدين بن مكتوم النحوي ، وقال عنه : إنه كتاب كثير الفائدة قليل الوجود[١٨]» .

وبعض مصادر السيوطي في مزهره ، لايزال مخطوطًا ينتظر من يحققه وينشره ، وينفض غبار الزمن عنه ، مستعينًا على تحقيقه بالنصوص التي اقتبسها السيوطي منه ، مثل الموازنة لحمزة ابن الحسن الاصفهاني ، وشرح المفصل للسخاوي ، وذيل تاريخ بغداد لابن النجار . ومن

المصادر المخطوطة ما هو تحت الطبع ، بعد أن اشتغل بتحقيقها بعض المعاصرين ؛ مثل : العين للخليل بن أحمد ، والمقصور والممدود للقالي ، والغريب المصنف لأبي عبيد ، وارتشاف الضرب لأبي حيان ، وسفر السعادة للسخاوي ، والأمالي لابن دريد ، والنوادر لابن الأعرابي .

ومن المصادر ما رآه السيوطي ، ثم افتقده في أثناء تأليفه للمزهر ، كهذا الكتاب الذي ذكره في النوع السابع والثلاثين ، في معرفة ما ورد بوجهين بحيث يؤمن فيه التصحيف ؛ فقال : «وقد رأيت من عدة سنين في هذا النوع مؤلفًا في مجلد ، لم يكتب عليه اسم مؤلفه ، ولا هو عندي الآن حال تأليف هذا الكتاب . ورأيت لصاحب القاموس تأليفًا سماه : تحبير الموشين فيما يقال بالسين والشين ، ولم يحضر عندي الآن ... فأعملت فكري في استخراج أمثلة ذلك من كتب اللغة[١٩]» .

وكتاب : **«فتيا فقيه العرب» لابن فارس ، الذي نشره حسين على محفوظ بدمشق سنة ١٩٥٨ م ، كان عند السيوطي كذلك ، ثم افتقده عند تأليف المزهر ، فقال : «وقد ألف ابن فارس تأليفًا لطيفًا في كراسة ، سماه بهذا الاسم (فتيا فقيه العرب) رأيته قديمًا ، وليس هو الآن عندي ... فنذكر ما وقع من ذلك في مقامات الحريري ، ثم إن ظفرت بكتاب ابن فارس ، ألحقت ما فيه[٢٠]»** . ويبدو أن السيوطي لم يظفر بهذا الكتاب مرة أخرى ، حتى مات رحمه الله .

ومثل ذلك يتحدث السيوطي عن كتاب : «ليس في كلام العرب» لابن خالويه ، فيقول في باب : معرفة الأشباه والنظائر[٢١] : «هذا نوع مهم ينبغي الاعتناء به ، فيه تعرف نوادر اللغة وشواردها ، ولا يقوم به إلا مضطلع بالفن واسع الاطلاع ، كثير النظر والمراجعة . وقد ألف ابن خالويه كتابًا حافلاً ، في ثلاثة مجلدات ضخمات ، سماه : كتاب ليس ، موضوعه : ليس في اللغة كذا إلا كذا . وقد طالعته قديمًا ، وانتقيت منه فوائد ، وليس هو بحاضر عندي الآن . وأنا أذكر إن شاء الله في هذا النوع ، ما يقضي الناظر فيه العجب ، وآت فيه ببدائع وغرائب ، إذا وقف عليها الحافظ المطلع ، يقول : هذا منتهى الأرب» .

وهذا أحد المواضع التي يظهر فيها أسلوب السيوطي ، في التقديم لأبواب المزهر المختلفة . أما الفوائد التي انتقاها من كتاب «**ليس**» لابن خالويه قديمًا ، فتظهر منثورة هنا وهناك في المزهر ، ومنها في أحد المواضع اثنتا عشرة صفحة ، قال في آخرها : «**هذا آخر المنتقى من كتاب ليس لابن خالويه**(٢٢)» .

وبعض مصادر المزهر كانت عند السيوطي بخطوط مؤليفها ؛ فقد ذكر أنه رأى تاريخ حلب للكمال بن العديم بخطه(٢٣) ، كما كانت عنده تذكرة الشيخ تاج الدين بن مكتوم القيسي بخطه(٢٤) ، وكانت عنده ثلاثة كتب للنجيرمي كلها بخطه ، وهي : التعليق(٢٥) ، والفوائد(٢٦) ، والنوادر(٢٧) ، كما نقل «من خط الشيخ بدر الدين الزركشي في كراسة له سماها : عمل من طَبَّ لمن حَبَّ(٢٨)» .

وتبلغ نسبة النصوص المنقولة عن كتب مفقودة ، في المزهر حوالي ٤٠ ٪ من حجم الكتاب . ومن هنا تبدو قيمة كتاب المزهر للسيوطي ، الذي حفظ لنا نصوصًا كثيرة ، ضاعت أصولها ولم تصل إلينا . وهو في مثل هذه النصوص يعدّ مصدرًا أصيلاً في البحث العلمي .

وتختلف معاملة السيوطي لمصادره من مؤلِّف إلى مؤلف ، فهو أحيانًا ينقل نقلاً حرفيًا ما أمامه من نصوص في مصادره ، مثلما ذكرناه من قبل ، من نقله الفصلين الرابع والخامس من كتاب : «لمع الأدلة» لابن الأنباري ، بالحرف الواحد .

وأحيانًا يتصرف ، ويقدم ويؤخر ، ويحذف ويختصر ، كما فعل في باب «الأضداد(٢٩)» الذي نقله من كتاب : «الغريب المصنف» لأبي عبيد القاسم بن سلام ؛ فإننا إذا طالعنا هذا الكتاب الأخير ، رأينا أبا عبيد يروي في باب الأضداد منه عن أبي زيد ، ثم عن اليزيدي ، ثم عن أبي زيد مرة ثانية ، ثم عن الأصمعي ، ثم عن أبي عبيدة ، ثم عن الكسائي ، ثم عن أبي زيد مرة ثالثة ، ثم عن الكسائي مرة ثانية ، ثم عن الأموي ، ثم عن الأصمعي مرة ثانية ، ثم عن عبيدة مرة ثانية ، ثم عن أبي عمرو ، ثم عن أبي عبيدة مرة ثالثة ، ثم عن الأحمر ، ثم عن الأصمعي مرة ثالثة ، ثم عن أبي عبيدة مرة رابعة ، ثم عن الأصمعي مرة رابعة ، ثم عن أبي

عبيدة مرة خامسة ، ثم عن الكسائي مرة ثالثة . وهكذا ينتهي الباب .

أما السيوطي فإنه جمع آراء كل عالم بعضها إلى بعض ، فبدأ بأبي زيد ، فالأصمعي ، فأبي عبيدة ، فالكسائي ، فالأموي ، فأبي عمرو ، فالأحمر . أما أبو عبيد فإنه كان ـ فيما يبدو ـ يدوّن في غريبه المصنف ، ما سمعه من شيوخه ، حسبما كان يقع إليه هذا المسموع يومًا بعد يوم . هذا إلى أن السيوطي ، حذف كلام اليزيدي ، والشواهد الشعرية المختلفة ، التي يمتلئ بها الغريب المصنف ، في هذا الباب .

* * *

وبعد ... فماذا للسيوطي في كتابه : «المزهر» ؟ إن له أوّلاً فضلَ جمع الجزئيات الصغيرة من هنا وهناك ، في الموضوع الذي يكتبه . وهو يعزو كل قول إلى صاحبه في أمانة علمية فائقة . وإذا كانت تلك عادته في كل نقوله هنا وهناك ، فإننا لا ندري السرّ الذي جعله يجهّل مصدره في تلك المواضع القليلة جدًا في كتابه ، كقوله مثلاً : «وقال بعضهم(٣٠) » ، أو : «وفي بعض المجاميع (٣١) » أو : «قال أهل الأصول(٣٢) » ، أو : «قال المعري في بعض كتبه(٣٣) » ، أو : «قال صاحب زاد المسافر(٣٤) » ، أو : «رأيت لهذه الأبيات شرحًا في كراسة(٣٦) » .

ولم يخل كتاب : «المزهر» بالإضافة إلى هذا الجمع الدءوب ، والترتيب المعجب الرائق ، من خطرات هنا وهناك للمؤلف تعزى إليه وحده ، وهي في بعض الأحيان رأي له ، واجتهاد وصل إليه بثاقب فكره ، وطول خبرته باللغة .

فهو يدخل أحيانًا بجمل اعتراضية ، تفسر مبهما ، أو تشرح غامضًا ، أو تضيف جديدًا ؛ كقوله مثلاً : «وقال ابن جني في الخصائص ـ وكان هو وشيخه أبو علي الفارسي معتزليين(٣٦) » ، وتوضيحه اسم إسماعيل بن القاسم البغدادي ، بأنه «هو أبو علي القالي»(٣٧) » ، وتعليقه على تعليم آدم للملائكة أسماء الأشياء ، بأن «في هذا فضيلة عظيمة ،

ومنقبة شريفة لعلم اللغة[٣٨]» ، ووصفه الراغب الإصفهاني بأنه «من أئمة السنة والبلاغة[٣٩]» ، وتعليقه على قول السيرافي إن الخليل بن أحمد عمل أول كتاب العين ، بأن «هذه العبارة من السيرافي صريحة في أن الخليل لم يكمل كتاب العين ، وهو الظاهر لما سيأتي من نقل كلام الناس في الطعن فيه ، بل أكثر الناس أنكروا كونه من تصنيف الخليل[٤٠]».

وليست كل تعليقات السيوطي على هذا النحو من الاختصار . وهذه تعليقة طويلة ، يعرفنا فيها بقراءته لكتاب : «استدراك الغلط الواقع في كتاب العين للزُّبيدي» ويذكر لنا محتواه ، فيقول : «قلت : وقد طالعته إلى آخره ، فرأيت وجه التخطئة فيما خُطِّئَ فيه ، غالبه من جهة التصريف والاشتقاق ، كذكر حرف مزيد في مادة أصلية ، أو مادة ثلاثية في مادة رباعية ونحو ذلك . وبعضه ادّعى فيه التصحيف . وأما أنه يخطَّأ في لفظه من حيث اللغة ، بأن يقال : هذه اللفظةُ كذب ، أو لا تعرف ، فمعاذ الله . وحينئذ لاقدح في كتاب العين ، لأن الأول الإنكار فيه راجع إلى الترتيب والوضع في التأليف ، وهذا أمر هيّن ؛ لأن حاصله أن يقال : الأَوْلى نقل هذه اللفظة من هذا الباب ، وايرادُها في هذا الباب ، وهذا أمر سهل ، وإن كان مقام الخليلُ ينزَّه عن ارتكاب مثل ذلك ، إلا أنه لا يَمنع الوثوقَ بالكتاب والاعتماد عليه في نقل اللغة . والثاني : إن سُلِّم ما ادُّعِيَ من التصحيف ، يقال فيه ما قالته الأئمة : ومن ذا الذي سلم من التصحيف؟ مع أنه قليل جدًّا[٤١]» .

ولا تخلو تعليقات السيوطي من الرد على ما لم يعجبه من آراء العلماء ، وتفنيدها بالحجج والبراهين ، مثلما ردّ على ابن جني قدحه في جمهرة اللغة لابن دريد ، فقال : «قلت : مقصوده الفساد من حيث أبنيةُ الصرف ، وذكرُ المواد في غير محالّها .. ولهذا قال : أعْذِرُ واضعَه فيه لبعده عن معرفة هذا الأمر ، يعني أن ابن دريد قصيرُ الباع في التصريف ، وإن كان طويل الباع في اللغة . وكان ابن جني في التصريف إمامًا لا يشق غباره ، فلذا قال ذلك »[٤٢]» .

وكما رد على الأزهري قدحه في ابن دريد ، ورمَيهُ بافتعال العربية وتوليد الألفاظ ، وأنه سأل عنه نفطويه ، فلم يعبأ به ولم يوثقه في روايته ، فقال : «قلت : معاذ الله ! هو بريء مما

رمي به . ومن طالع الجمهرة رأى تحرِّيَهُ في روايته ، وسأذكر منها في هذا الكتاب ما يعرف منه ذلك . ولا يقبل فيه طعن نفطويه ؛ لأنه كانت بينهما منافرة عظيمة .. وقد تقرر في علم الحديث أن كلام الأقران في بعضهم لا يقدح(٤٣)».

وكذلك رد على الفخر الرازي ، حين ذكر أن أهل اللغة أهملوا البحث عن أحوال اللغات ورواتها جرحًا وتعديلاً ؛ فقال : «وأقول : بل الجواب الحق عن هذا ، أن أهل اللغة والأخبار ، لم يهملوا البحث عن أحوال اللغات ، ورواتها جرحًا وتعديلاً ، بل فحصوا ذلك وبينوه ، كما بينوا ذلك في رواة الأخبار . ومن طالع الكتب المؤلفة في طبقات اللغويين والنحاة وأخبارهم ، وجد ذلك . وقد ألف أبو الطيب اللغوي كتاب : مراتب النحويين ، بيّن فيه ذلك ، وميّز أهل الصدق ، من أهل الكذب والوضع(٤٤)».

وحين قال أبو الطيب في هذا الكتاب ، عن أبي عبيد القاسم بن سلام : «**ولا نعلمه سمع من أبي زيد شيئًا**» ، ردّ عليه السيوطي فقال : «**قلت : قد صرّح في عدة مواطن من الغريب المصنف ، بسماعه منه**(٤٥)».

وتبدو سعة علم السيوطي ، حين يهمل مصدره تفسير شيء ما ، فيعثر عليه السيوطي مفسرًا في كتاب آخر فيذكره ، كقوله مثلاً : «وقال ابن ولاد في المقصور والممدود : عُشُورا ، بضم العين والشين ، زعم سيبوية أنه لم يُعلم في الكلام شيء على وزنه ، ولم يذكر تفسيره ... قلت : ذكر القالي في كتاب : المقصور والممدود أن العشورا : العاشوراء . قال : وهي معروفة(٤٦)» .

وهو كثير التخريج لنصوص مصادره ، من أجل توثيقها ؛ فقد خرج من أحد المواضع مجموعة من الأخبار التي نقلها من كتاب : «الصاحبي» لابن فارس ، في المصاحف لابن أشتة ، والمستدرك للحاكم ، والأوائل لأبي هلال العسكري ، والطيوريات لأبي طاهر السلفي ، والمصاحف لأبي بكر بن أبي داود ، ومسند أحمد بن حنبل(٤٧) . وفي موضع آخر ، خرج حكاية رواها عن تصحيف العسكري ، في معجم الأدباء لياقوت ، والحمقى والمغفلين لابن الجوزي(٤٨) .

وهو في تعليقاته حريص كل الحرص على توثيق نقوله ، بذكر خطوط العلماء الذين نقل عنهم ؛ كقوله مثلاً : «وجدت هذه الحكاية ، مكتوبة بخط القاضي مجد الدين الفيروز آبادي صاحب القاموس ، على ظهر نسخة من العباب للصغاني ، ونقلها من خطه تلميذه أبو حامد محمد بن الضياء الحنفي ، ونقلتها من خطه(٤٩)». بل إنه ليعلمنا في بعض هذه التعليقات ، بملكيته لنسخة ثمينة من جمهرة اللغة مقروءةً على العلماء ؛ فيقول : «قلت : ظفرت بنسخة من الجمهرة بخط أبي النمر أحمد بن عبد الرحمن بن قابوس الطرابلسي اللغوي ، وقد قرأها على ابن خالويه ، بروايته لها عن ابن دريد ، وكَتَب عليها حواشيَ من استدراك ابن خالويه على مواضع منها ، ونبه على بعض أوهام وتصحيفات(٥٠)» . وهو في أحد المواضع يقابل نسختين من كتاب الجمهرة ؛ فيقول : «وقال ابن دريد في الجمهرة : باب ما تكلمت به العرب من كلام العجم حتى صار كاللغز . وفي نسخة : حتى صار كاللغة(٥١)» .

ويبدو في بعض تعليقات السيوطي ، استدراكه المكمل لبعض المؤلفات السابقة ، فقد استدرك على القاموس المحيط أشياء وقال : «قلت : ومع كثرة ما في القاموس من الجمع للنوادر والشوارد ، فقد فاته أشياء ظفرت بها في أثناء مطالعتي لكتب اللغة ، حتى هممت أن أجمعها في جزء مذيلاً عليه(٥٢)» . كما استدرك على كتاب : «الاتباع» لابن فارس ، وقال : «وقد ألف ابن فارس تأليفًا مستقلاً في الإتباع ، وقد رأيته مرتبًا على حروف المعجم ، وفاته أكثر مما ذكره . وقد اختصرت تأليفه وزدت عليه ما فاته ، في تأليف لطيف سميته : الإلماع في الإتباع(٥٣)».

وهو أحيانًا يذكر الأقوال المناظرة لما هو فيه . فبعد أن ذكر عن «الصاحبي» لابن فارس ، أن ابن خالويه قال : جمعت للأسد خمسمائة اسم وللحية مائتين . قال : «قلت : ونظير ذلك في فقه اللغة للثعالبي : قد جمع حمزة بن الحسن الإصبهاني من أسماء الدواهي ما يزيد على أربعمائة ، وذكر أن تكاثر أسماء الدواهي من الدواهي . قال : ومن العجائب أن أُمّةَ وَسَمَت معنى واحدا بمئين من الألفاظ(٥٤)» .

ونرى من بعض تعليقات السيوطي ، كيف أن علمه ـ رحمه الله ـ كان ينمو بكثرة الاطلاع على المصادر المختلفة بمرور الأيام ؛ فهذه فائدة استفادها من جمهرة اللغة ، كان قد سئل عنها فلم يعرفها ، يقول : «وهذه فائدة لطيفة ، لم أرها إلا في الجمهرة ، فكانت العرب تسمي : صفر الأول وصفر الثاني ، وربيع الأول وربيع الثاني ، وجمادى الأولى وجمادى الآخرة ، فلما جاء الإسلام وأبطل ما كانوا يفعلونه من النسيء ، سماه النبي ﷺ شهر الله المحرم .. وبذلك عرفت النكتة في قوله : شهر الله . ولم يرد مثل ذلك في بقية الأشهر ولا رمضان . وقد كنت سئلت من مدة عن النكتة في ذلك ، ولم يحضرني فيها شيء ، حتى وقفت على كلام ابن دريد هذا[٥٥]».

وهذه فائدة أخرى وجدها السيوطي عند ثعلب ، بعد أن طال سؤاله عنها ؛ فقد قال بعد أن روى عن ثعلب في أماليه شرحًا للمثل : «لا يدري الحيّ من الليّ» أي لا يعرف الكلام البيّن من الكلام غير البيّن : «قلت : رضي الله عن سيدي عمر بن الفارض ، ما كان أوسعَ عِلمَهُ باللغة ! قال في قصيدته اليائية :

صار وصفُ الضر ذاتيًّا له ... عن عناء والكلامُ الحيّ ليّ

ولما شرحت قصيدته هذه ما وجدت من يعرف منها إلا القليل . ولقد سألت خلقًا من الصوفية عن معنى قوله : والكلام الحيّ ليّ ، فلم أجد من يعرف معناه ، حتى رأيت هذا الكلام في أمالي ثعلب[٥٦]» .

ولم تخل بعض تعليقات السيوطي من الوهم . ومن ذلك اعتقاده أن كلمة : «السبت» تعني في أصل اللغة : «الدهر» ؛ فقال في موضوع العام الذي خصص : «ثم رأيت له مثالاً في غاية الحسن ، وهو لفظ : السبت ، فإنه في اللغة : الدهر ، ثم خصص في الاستعمال لغة بأحد أيام الأسبوع وهو فرد من أفراد الدهر[٥٧]» . والحقيقة أن «السبت» كلمة معربة عن العبرية שַׁבָּת Šabbāṯ ومعناها : الراحة !

ولكن مثل هذا الوهم نادر ولا يقلل البتة من قيمة الفوائد الجليلة ، التي نثرها في صفحات كتابه الضخم ؛ كقوله مثلاً : «فائدة : حيث أَطلق أبو عبيد في الغريب المصنف وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ، ولا من تغلب **واليمن** ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم **للقبط** والفرس(٥٨)» .

ويقف المرء حائرًا أمام هذا النص ؛ إذ كيف يمكن لليمن أن تكون بالجزيرة مجاورة لليونان ؟ ثم كيف لبكر أن تمتد بجناحيها في شمالي الجزيرة العربية ، فتجاور في الشرق الفرس في ايران ، كما تجاور في الغرب القبط في مصر . وصواب العبارة كما في المصادر : «ولا من تغلب **والنمر** فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية ، ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين **للنبط** والفرس(٥٩)» . فانظر كيف حرفت كلمة : «النمر» فصارت في نشرة المزهر : «اليمن» ، كما حرفت أختها : «النبط» ، فصارت في هذه النشرة كذلك : «القبط» !

(ج) روى السيوطي النص التالي عن ابن درستويه ؛ فقال : «قال ابن درستويه في شرح الفصيح : قول العامة : نحوي لغوي ، على وزن : جهل يجهل ، خطأ أو لغة رديئة(٦٠)» . وفي هامشه تعليقًا على عبارة : «نحوي لغوي» ، قال محققو المزهر : «لم نقف على ضبط هذه العبارة» !

وهذا الذي لم يقف على ضبطه محققو الكتاب ، موجود على الصواب في مصدره : تصحيح الفصيح لابن درستويه ، وهو قوله : «فتقول : غَوِيَ يَغْوَى ، على نحو : جهل يجهل(٦١)» .

* * *

وبعد .. فقد بلغ السيوطي في تآليفه شأوا لا يدرك ، وجهدًا تقصر دونه الخطى .. وكتابه : «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» تاج على رءوس هذه المؤلفات ، وغرة في وجه هذه التصانيف ، يشهد له بطول الباع في الدراسات اللغوية العربية ، والصبرِ والجلد في القراءة والجمع . رحم الله السيوطي رحمة واسعة ..

* الهوامش *

(١) المزهر ١/ ٤٦٩ .
(٢) المزهر ١/ ٤٠٩ .
(٣) في الأصل : «الزجاج» وهو تحريف .
(٤) المزهر ٢/ ١٨٢ .
(٥) المزهر ١/ ١١٣ - ١١٤ .
(٦) المزهر ٢/ ١١٩ - ١٢٠ .
(٧) المزهر ٢/ ٣٩٥ - ٤١٤ .
(٨) المزهر ١/ ٣٥٩ .
(٩) المزهر ١/ ٦٦ - ٧١ .
(١٠) المزهر ١/ ٣٢١ - ٣٤٥ .
(١١) المزهر ١/ ٤٠٣ .
(١٢) المزهر ١/ ١٠ - ١٦ .
(١٣) المزهر ١/ ٢٤٠ - ٢٤٧ .
(١٤) المزهر ٢/ ٣٦٩ - ٣٨١ .
(١٥) المزهر ١/ ٥٩١ - ٦٢١ .
(١٦) المزهر ١/ ٦٢٢ - ٦٣٥ .
(١٧) يلاحظ أن السيوطي لم يستخدم معجمًا مهمًا من معاجم الموضوعات ، وهو «المخصص» لابن سيدة .
(١٨) المزهر ٢/ ٢٨٩ .
(١٩) المزهر ١/ ٥٣٧ .
(٢٠) المزهر ١/ ٦٢٢ .
(٢١) المزهر ٢/ ٣ .
(٢٢) المزهر ٢/ ٧٨ - ٩٠ .
(٢٣) المزهر ٢/ ٢٢٥ .
(٢٤) انظر : المزهر ١/ ٢٧٥ ؛ ١/ ٤٢١ .
(٢٥) المزهر ١/ ٣٨٢ .
(٢٦) المزهر ٢/ ٣٠٤ .
(٢٧) المزهر ٢/ ٢٩١ .
(٢٨) المزهر ٢/ ٣٦٦ .
(٢٩) المزهر ١/ ٣٨٩ - ٣٩١ .
(٣٠) المزهر ١/ ٩٤ ؛ ١/ ٢٧٤ ؛ ٢/ ٢٨٦ وفي الموضع الأخير ذكر السيوطي قصيدة توجد في المقامة السادسة والأربعين من

مقامات الحريري ، وهي المقامة الحلبية . ولا ندري السرّ في إغفاله مصدره هنا ؟!

(٣١) المزهر ٢/ ٣٦٨ .

(٣٢) المزهر ١/ ٣٦٨ ؛ ١/ ٣٨٧ ؛ ١/ ٤٠٥ .

(٣٣) المزهر ٢/ ١٠٥ .

(٣٤) المزهر ٢/ ٣٥١.

(٣٥) المزهر ١/ ٣٨٠ .

(٣٦) المزهر ١/ ١٠ .

(٣٧) المزهر ١/ ٨٣ .

(٣٨) المزهر ١/ ٣٠ .

(٣٩) المزهر ١/ ٢٠١.

(٤٠) المزهر ١/ ٧٦ .

(٤١) المزهر ١/ ٨٦ .

(٤٢) المزهر ١/ ٩٣ .

(٤٣) المزهر ١/ ٩٣ ـ ٩٤ .

(٤٤) المزهر ١/ ١٢٠ .

(٤٥) المزهر ٢/ ٤١٢ .

(٤٦) المزهر ١/ ١٦٩ .

(٤٧) المزهر ٢/ ٣٤١ ـ ٣٤٣ .

(٤٨) المزهر ٢/ ٣٥٤ .

(٤٩) المزهر ١/ ٩٥ .

(٥٠) المزهر ١/ ٩٥ .

(٥١) المزهر ١/ ٢٧٩ وفي الجمهرة ٣/ ٤٩٩ : «كاللغة» .

(٥٢) المزهر ١/ ١٠٣ .

(٥٣) المزهر ١/ ٤١٤ ويحمل قوله (١/ ٤٢٠) : «وفي كتاب إلماع الإتباع لابن فارس» على السهو ! .

(٥٤) المزهر ١/ ٣٢٥ .

(٥٥) المزهر ١/ ٣٠٠ ـ ٣٠١ .

(٥٦) المزهر ١/ ٥٠١ .

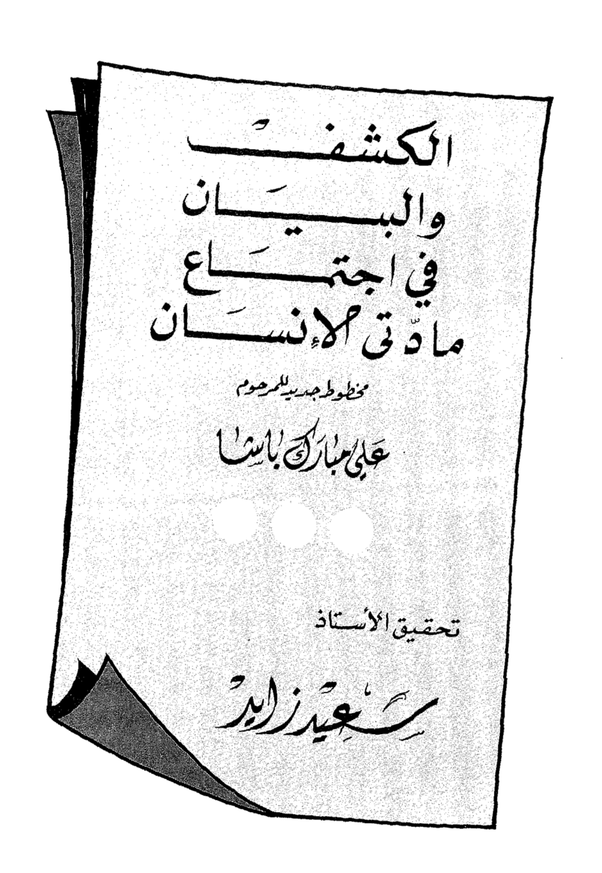
(٥٧) المزهر ١/ ٤٢٧ .

(٥٨) المزهر ١/ ٢١٢ .

(٥٩) الاقتراح ١٩ وانظر الحروف للفارابي ١٤٧ .

(٦٠) المزهر ١/ ٢٢٥ .

(٦١) تصحيح الفصيح ١/ ١١٩ .


الكشف
والبيان
في اجتماع
مادّتي الإنسان
مخطوط جديد للمرحوم
علي مبارك باشا
تحقيق الأستاذ
سعيد زايد

قرأت في تاريخ حياة «علي مبارك» الذي كتبه المرحوم الدكتور محمد دري الحكيم ، أن لعلي مبارك كتابًا اسمه «آثار الإسلام في المدنية والعمران» ، وقد قال عن هذا الكتاب : إنه «آخر عمل له مبرور وخاتمة سعيه المشكور ، فإنه نعم الكتاب ، شرح فيه كل ماأدخله الإسلام من العمران في الممالك ، وما ترتب عليه من المدينة والنظام ، وماتضمنه من الحكم والعلوم البالية ؛ بعبارات تكفل بيان المطلوب على وجه صحيح مقبول . إلا أن هذا الكتاب لم يطبع إلى الآن ، والذي نعرفه من أمره أنه لما أكمله تأليفًا وتبييضا ، أعطاه لأحد أفاضل العلماء الأزهريين ليعيد نظره عليه ، ويُدقِّق في مراجعة أصول الأحاديث النبوية التي فيه . فكان كذلك ، وقرأه هذا الأستاذ لآخر حرف فيه ، وكتب بما رآه من بعض ضبط الروايات في الحديث عدة أوراق ألحقها بذلك الكتاب ، وها هو ذا باق فيما نعلم بخزانة مؤلفه رحمه الله ، ينتظر من أهل العلم والعرفان التفاته إلى طبعه لتعم به الفائدة ، ويعرف فضل الإسلام في تقدم البلدان» .

هذا ما قاله الدكتور الحكيم . ولكني — بعد بحث طويل — لم أعثر عليه ، بل عثرت على مخطوط آخر لعلي مبارك هو «الكشف والبيان في اجتماع مادتي الإنسان» .

وهذا الكتاب الأخير يقع في ٦٢ صفحة من القطع المتوسط ، مكتوبة بخط نسخ جيد ، على ورق توجد به ثقوب كثيرة على حوافه . ونُرجح أن علي مبارك كان قد أعطى أصوله لأحد الخطاطين ليكتبها له بخط حسن ، أوكان قد أملاه عليه ، ثم قرأ الكتاب مرة ثانية ، فحذف بعض العبارات ، واستبدل بها عبارات أخرى ، مما يظهر جليًا في هوامش بعض الصفحات . ويبدأ علي مبارك كتابه بالبسملة ، ثم ببعض آيات القرآن الكريم ، ثم يتلو ذلك بالدعاء للنبي صلى الله عليه وسلم . ويذكر أنه قد لخص كتابه عن «كلام بعض الأعيان» ثم لا يزيد شيئًا على ذلك مما يبين لنا أسماء هؤلاء الأعيان . ويُنهي علي مبارك كتابه بكلمة (تم) ، ولايذيله بغير ذلك ، ولا بأية عبارة تدل على تاريخ التأليف . ولعله لم يفعل ذلك لأنه كان لايريد أن يحتفظ به مخطوطًا ، بل كان يريد أن يدفع به إلى المطبعة على الفور ليحتل مكانه في عالم المؤلفات . وهذا يدعونا إلى القول بأنه وضع هذا الكتاب في آخر أيام حياته مثل كتاب «آثار الإسلام في المدَنية والعمران» .

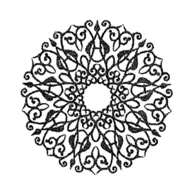
وهذا هو الكتاب محققاً ، ولقد أضفت إليه بعض الكلمات كي يستقيم النص ، كما هو واضح في الهوامش . أما ما استدعاه الأمر إلى تصحيح بعض الأخطاء الإملائية والنحوية ، فلم أشر إليه ، لأني على ثقة تامة أن على مبارك لو قدر له أن يعيش حتى يطبع كتابه لما ظهر وجودٌ لهذه الأخطاء .

بسم الله الرحمن الرحيم

« اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .

ناديتك اللهم بلسان ساكن طلق ، وقلب ثابت قلق ، أن تفيض سوابغ النعم على روح سيدنا محمد ينبوع الحِكم وآله وأصحابه ، منتخب العالم ولبابه .

أما بعد ، فيقول خادم الحق تبارك ، فقير ربه علي مبارك : لما وقفت على كلام بعض الأعيان في قوام نوع الإنسان ، ووجدته في غاية من الإتقان ، **لابتنائه** على واضح البرهان ، فاشتاقت نفسي لتخليصه على قدر الإمكان ، وعنونته بالكشف والبيان في اجتماع مادتي الإنسان ، وأقول : وبالله التوفيق ، وهو نعم الرفيق ،



زعم بعض الحكماء ، أن الشرف والكمال إنما هو للروح ، والجسم حبس لها . وقيد مانع عن ارتقائها إلى درجات كمالها ، وسبب في بقائها في عالم الطبيعة . وزعم آخرون أن لا كمال ولا فضل سوى تحسين الجسم وإعطائه لوازمه . والعلم والفضيلة وسيلة إلى هذا ، وليسا غرضًا مقصودًا كما يقول الأولون . ولكل من المذهبين ناقض ومعارض ، كما له ناصر ومعين . وقد عوّل حكماء هذا العصر على الأول قائلين : لايعتبر قدر الرجل إلا بالفضل والكمال ، لا بالظرف والجمال مع النقص والخبال . والحق أن الميل إلى إحدى الجهتين بالمرة خطأ ، بل الواجب أن نسلك سبيلاً بين السبيلين ، ولا نجعل كل الفضيلة للجهة العقلية دون الجهة الجسمية ، ولا العكس ، بل نجتهد في إعطاء كلٍّ حقها ببيان ما تحتاج إليه الروح من الجسم في أعمالها ، وما يخص المجموع الإحساسي الحيواني من تلك الأعمال . وقبل أن نبحث عن الغايات الكمالية المكتسبة بمساعدة الجسم ، يلزمنا أن نقرر ضرورة لزومه ، وأن نتفق على بعض الأمور الأساسية لهذا المبحث ، ولذا لزمنا البدء بالكلام على اجتماع مادتي الإنسان.

في الإنتاج الطبيعي للمادتين
في أعمال الروح والقوى الغذائية والتناسلية

جميع التدابير البشرية لا يقصد منها غير كمال الإنسان . فالمادية والمعنوية منها مُوصلة لذلك ، ويمكن التعبير عنها بقضية كلية بأن يقال : إن كمال الإنسان يكون في استعمال قواه في هذا العالم . وحيث أنه لا بد من المناسبة بين أفعال القوى ومنفعلاتها ، كان غاية الكمال في استعمال غاية الممكن من القوى ، مع بقاء انقيادها لبعضها . ثم لأسباب سنبينها ، نشاهد ارتباط همم النفس البشرية بالهمم المادية ، وقبل أن يتنبه في النفس من الإنسان إدراك ما ، يتهيأ الشيء المدرَك بواسطة قوى مخصوصة هي الحواس ، ويصل إلى النفس ، وما وصل إليها : تهيئه قوى أخرى مخصوصة تتوسط بين النفس والعالم الظاهر فيظهر . وتقابل القوى السابقة المذكورة إحساسات في مركز الإحساس العام . وجميع هذه القوى والإحساسات هي أعمال الروح .

ولما كان البدن هو مقر الحركة التي هي منشأ للتقلبات والتغيرات على الدوام ، لـذا يحصل في ذلك البدن التحلل والتفرق . فلو لم يكن له مايعوض بدل المتحلل والمتفرق لزم انمحاقه وذهابه في يسير من الزمن . بخلاف الروح ، فليس يلزمها ذلك ، كما هو معلوم . فلابد حينئذ من أن يكون في البدن قوى بها يعوض له مازال عنه لما أنه عرضة للتلف . فبتلك القوى يحفظ دوامه ، ويبقى قوامه . فجعل الله سبحانه وتعالى في البدن تلك القوى لأجل ذلك التعويض المذكور، من أجل حفظ البدن . وتلك القوى هي ماتعرف بالقوى الغذائية .

ولما كان قد يعرض لتلك القوى بكثرة الأعمال ضعف ، حتى لاتقوى على تعويض مثل ماذهب ، فلا يزال البدن في التفرق شيئًا فشيئًا حتى يبلغ غاية الضعف فيموت الإنسان . فلو ترك أمر الإنسان وتلك القوى ، لزم ذهاب النوع من أصله ، وانمحاقه من الأرض . فاقتضت حكمة الصانع لأجل بقاء النوع ، أن يجعل في البدن قوة بها يكون الشخص سببًا في وجود غيره من جنسه ، كيلا يذهب هذا النوع من أصله وتخلو الأرض من ساكنيها ، وهذه القوة هي المسماة بالقوة التناسلية . وبهذه القوة ، مع القوى السابقة ، تم نظام هذا النوع من حيث ذاته ومن حيث أشخاصه وجزئياته .

في الجسم الآدمي

تنقسم قوى الجسم الإنساني إلى قسمين : الأول ما لا نصل إلى معرفة حقيقته كإحساس الأعصاب وتهيّج العضلات ، وبعضهم عبر بأن الإحساس حاصل من سيّال موجود في تجاويف الأعصاب يفوق الأثير والكهربة في اللطف والسرعة ، وبأن التهيج من مادة تسمى بالإفرنجية نيزوس من شأنها تنقبض وتقرب أطراف الألياف العضلية عنـد وقـوع تأثيرٍ غريب عليها . وهذان الأمران : أعني الإحساس والهيجان هما مايتميز بهما التركيب الحيواني فيهما . خاصية الثاني هي القوى المعروفة المعبر عنها بأسماء مخصوصة، ويدخل فيها جميع قوى الحركة، وتدابير البدن التي تنشأ عنها الحياة النباتية، فإذا تبين لك هذا، فالحياة النباتية بانضمامها مع الحركة، وامتزاجها الامتزاج التام تحصل الحياة الطبيعية الحيوانية لجسم الآدمي.

الحياة الحيوانية

لما كان مقر البدن عالم الطبيعة الذي هو مقر المضادات والمنازعات ، كان هذا البدن عرضة لما يطرأ عليه في هذا العالم ، فوجب أن يكون للروح ادراك ذلك حتى تدفعه عنه . وإذا كان من لوازمه جلب ما يقوّم قوامه ، وجب أن يكون لها ادراك ما ينفعه حتى تجلبه إليه . فهي حينئذ يجب أن تكون عالمة بلذاته وآلامه ، فتنعم بلذاته وتتألم بآلامه . ومن هنا ظهر اشتراك الروح في منافع الجسم ، واستدل على أن الحياة الحيوانية أعلى مرتبة من الحياة النباتية . ولاتظن أن هذا الحكم في الجنس الحيواني على قانون واحد وسيلة ومقصدًا ، بل ذلك في الحيوان تلذذاته وتنعمَاته بقدر ما يتعيش به ويحفظ بدنه ، فيأكل اليوم كما أكل أمس ، ويشرب كما شرب ، هذا غاية منتهى سيره في أعماله وأطواره . بخلافه في الإنسان ، فإن هذا له ، لكن لأعلىَ أنه مقصدٌ ينتهي إليه سيره ، بل ليكون وسلية له إلى معالي الأمور وكسب الفضائل والمكارم ، وحينئذ فلا يقصد الحيوان من الحياة غيرها ، بخلاف الإنسان ، فإن حياته واسطة توصل لكماله . ففي الحيوان ، الواسطة والغرض واحد ، وفي الإنسان ، الواسطة والغرض شيئان متباينان . وهذا مايميز الإنسان عن الحيوان .

ثم لأجل إتمام أعمال الروح ينبغي كمال الصحة والسلامة في الحياة الحيوانية ، إذ كل مايضر بها يضر بتلك الأعمال . ومن هنا يلزم أن تكون الروح تحت حكم قوة تحكمها حتى تستديم في أعمالها ، ولايصح أن تقول : إن تلك القوة هي القوة

الفكرية ، بمعنى أن الشعور بالملائم والمنافر تحت تصرف الفكرة والنظر ، لأن العقل في كثير من الأحوال تستولي عليه الغفلة والغباوة عند الانهماك في جلب اللذائذ ، ودفع المنافر ، ويلحقه الخمول أيضًا لقلة العمل ، ونحوذلك . فلو كانت تلك القوة تحت تصرفه ، لم يكن منه ماذكر . وحينئذ فلا مدخل له في ذلك ، بل لابد من قوة اخرى تحكمه ، وهذه القوة هي الإحساس الحيواني . وحيئذ ينبغي أن نشرح ذلك الإحساس ونبيِّن سببه .

الإحساسات الحيوانية

الإحساس الحيواني ، هو شعور الجسم بما يطرأ عليه من الملذات والمؤلمات ، وسببه التركيب لـلأعضاء ، والخاصية الملازمة للتركيب المذكور ، ومنه تتنبه الإرادة بالقوة والسرعة نحو الرغبة أو الرهبة ، وتحيط بالنفس كإحاطة الظرف بمظروفه فيحصل شعورها بإحساسات معنوية متفرعة عنها (ما)[1] حصل للأجزاء الحيوانية المعرضة للتلف أو البقاء . بمعنى أن الباري سبحانه وتعالى جعل في مقابلة الحالة الحافظة لسلامة الجسم وصحته إحساسًا نفسيًا تتلذذ منه الروح ، وجعل في مقابلة الحالة الموجبة لتلفه وفنائه إحساسًا مكروهًا تتألم منه . وحينئذ فالإحساسات الحيوانية تتولد من أمرين : **الأول من التركيب الحالي للجسم والثاني من خاصية الإحساس** .

ويفهم مما سبق تغلب الإحساسات الحيوانية على الروح ، ووقوعها في الشهوات بقوة قهرية ، وأنها في أكثر الأحوال فائقة الإحساسات النفسية . لأن الإحساسات النفسية المذكورة أحدثتها الروح بالفكر ، فيمكنها إزالتها أو نقصها به أيضًا . بخلاف الإحساسات الحيوانية ، فإنه محكوم بها على الروح بالقانون الطبيعي الجِبلّي ، فلا يقوى الفكر على إزالتها ، لأنه لم يكن المحدث لها . وإن كان في إمكانه تنقيص سَوْرتها ، بتوجيهها في الجهة المخالفة .

فالمرتاض الذي جعل نفسه عرضَةً لنوع من العذاب، لا يصح له أن ينكر الألم ، ولكن بصرفه الفكر في مقصده الذي هو عنده بحسب نظرة أعلى من دفع هذا لألم ، بل من جلب اللذائذ الحسية ، تنكسر سورة هذا الألم عنده ، بل يصير من جملة حظوظه المرغوبة ، فتستولي حينئذ اللذة الروحانية على الجسمانية . فمسّوس الروماني الموضوعة يده على الجمر الملتهب ، متألم بلا شك ، لكنه ليس الألم عنده بدرجة تبلغ بها أن يظهر الفزع والضجر ، بل ينظر إلى عدوه بعين الحقارة ، لأن فكره لرومة وطنه ، وما يحصل له فيه من التعظيم والاحترام ، قد ملأ روحه ، وتسلط على حواسه ، فكأن الألم الجسماني لا يجد قوة تفسر هذه الفكرة . فالألم حاصل له كغيره ، ولكن غاية الفرق بينه وبين دنيء الهمة ضعيف الفكرة ، المبالاة بذلك وعدم المبالاة .

وليس العقل وعلو الهمة وقوة البأس بمبطل لتلك الأحكام رأسًا ، بل الأمر كما علمت .

وليكن في علمك أن تسلط هذه الإحساسات المادية على القوة العاقلة من لطف الحكيم البارئ تعالى ، إذ لو لم يكن كذلك فلربما نظر العقل إلى قدسية ذاته وجمال صفاته ، فاشتغل بملاذه الروحانية عن أداء حق البدن وقضاء لوازم بقائه ، فاقتضت حكمة الحكيم أن يجعل لتلك القوى نوعًا من التسلط على القوة العاقلة ، حتى أن العالم الحكيم المشتغل بمغالي الأفكار ، الآخذ في استمداد الأنوار بأدنى ألم من شوكة فما فوقها ، رجع من عالم أفكاره إلى حضيض تذكاره ، وأخذ يدافع ما اعتراه ، وطفق يبث شكواه ، كي يعلم بهذا الرجع العنيف أنه واسطة بين الحيوان والملك . فإذا اشتد توغل النفس في عالم الإحساسات الحيوانية ، ولم تلتفت إلى عالم المجردات الروحانية ، ضعفت قوتها العاقلة على حسب ذلك التوغل . ولاتزال كذلك حتى تكون تحت حكم الإحساس المحض ، فلا تميز الحسن من القبيح ولا الفاسد من الصحيح ، بل كل ما ألفه الحس ألفته ، وكل ما نفر عنه الحس تركته . وبذلك تقتحم المحرم وتوافيه ، وتنكص عن الحلال وتعاديه .

ولا يخفى عليك أن جميع تلك الأفاعيل تابعة لسلامة الآلات واعتدال المزاج . إذ على قدر الخلل يكون الكلل . فقد بان لك من جميع ما قدمناه أنه لابد من ارتباط المادة بالروح ، وإلا لم يكن بقاء البدن ، لعدم المتصرف فيه . ولم يكن للروح أن تحصل كمالاتها ، لعدم آلاتها . فالبدن يحتاج إلى الروح في إفاضة التدبير . والروح تحتاج إليه في استكمال أحوالها بالحركات والإحساسات . وبها أيضًا يكون تدبير الروح للبدن . فهي حينئذ أس جميع آلات الروح التي عليها مدار تصرفها وتسهيل مقاصدها . فقد ظهر كيفية الارتباط بين الروح والبدن . فافهم .

ما اعترض به على هذا الاتحاد

بفرض عدم المعارضة فيما تقدم . وأن لهذا الحد ينتهي أمر اتحاد الجسم بالروح . يقال: إنه يكون لها بعد ذلك صاحبٌ خمولٌ، ورفيقٌ مضطرة على مزاحمته وممانعته، تعطل ضرورياته اشتغالها بالجو، لأنه في الأمور العالية مُقعِد لها عن الارتقاء

في درجات مكارمها ، مُميل لها عن التصورات العالية والتصديقات السامية ، ومُلحق لها بعالم الأجسام ، وموقع لها في الارتباطات الطبيعية الخسيسة ، فتقع في الحيرة ، وتحجب مبدأها ، وتنزل عن حقيقتها ، وتقرب من الحيوان ، وتكون في ربقة أسر الماديات ما بقيت . فأي داع إلى هذا الاتحاد الموجب لهذه النقائص . وأيضًا كيف يمكن اتحاد الروح المجردة البسيطة القائمة بنفسها الغنية عن المادة ؛ مع الدين الواقع تحت حكم المادة التي هي منشأ للتركيب والتكثر المعرض للتغيرات على حسب حكم الضرورات !؟

ولكن لا يخفى على المتأمل أن في هذا الاتحاد من بدائع الحكم ولطائف التدابير ، ماتطمئن به النفوس ويدفع النكير .

في الاتحاد المعنوي

الميل الحيواني يقوي الميل الروحاني ويمده . وبيانه أننا لو فرضنا تجرد الروح عن البدن . مع فرض بقاء قوة الإدراك للأمور الطبيعية ففي هذه الحالة كيف تتمكن من الدخول في الأعمال التي يقتضيها ذلك الإدراك ، وكيف تتمكن من توسيع المجال والترقي في درجات الكمال . ويحتاج في إيضاح هذه المسائل إلى أن ننظر أولاً في تربية شخص بخصوصه ، ثم فيما يلزم النوع بتمامه ، وليس لنا في هذا المطلب إلا قوة الإدراك والإرادة ، وقوة الفعل والاتصال بين الروح والعالم ، وبالعكس . فالمسألة الأولى كيف يكون الدخول في الأعمال ؟

الروح منفصلة عن الجسم

لا يمكن فرض أي تصور إلا بعد سبق إرادة عليه ، وكل إرادة تستلزم سبق تجربة تحقق ثبوت ثمرة سابقة ، يعني أن كل إرادة تستلزم الإحساس بثمرة مَا ، ويفرضنا بعد الجسم . امتنع الإحساس الجسماني ، ولم يبق إلا الإحساس الروحاني الذي هو التصور . وعلى ذلك كل تصور محتاج إلى سبق تصور عليه ، وهكذا . فلم يبق إلا تصورات صِرْفة . لا يصحبها فعل .

ولنعتبر الطفل مع بقاء الفرض السابق ، يعني : روحاني متمتع بمزية التصور ، ولكنه

يروم استعمال هذه المزية أول دفعة فنقول : ما الذي جعله يميل إلى التفكر ، غير شعوره باللذة التي تحدث له ؟ ومن أين له علم تجربة الشعور باللذة ؟ وقد قدّمنا أن ذلك لا يكون إلا بالتفكير ، وهو لم يتفكر إلا في هذه الدفعة . وأيضًا فما الذي يحمله على الميل إلى الاشتغال بهذه الدنيا غير التجربة ونظره لما تحدث له من اللذة وكفاية التطلبات ؟ وكذلك ما الذي يحثه على عمله بقواه إلا علمه بها فيه ؟ وجميع ذلك لم يحصل عنده إلا في هذه الدفعة ، وحينئذ ينبغي أن يكون عالمًا من الأزل ، وهذا ضد الفرض ، أو أنه لا يعمل شيئًا ، ويكون هو والجسم في عدم الحركة والعمل ، ما لم يكن بقوة تضطره للفعل .

الروح مرتبطة بالجسم

فلو ألحقنا الجسم بالروح وجعلناهما ممتزجين امتزاجًا تامًا كما هي حالتهما الحقيقية ، وأن هناك أمرًا لا يفهم بخصوصه الآن وهو ناشئ من التركيب البدني عامر لأعضاء الإحساس ، فإن فرضنا في هذه الحالة أن الروح في حالة الألم المادي ، ففي الحال يحدث أول منبه إلى جميع القوى البدنية ويحصل الإحساس الذي لم يكن في الحالة السابقة . وبالإحساس المذكور تزول جميع الصعوبات التي مضت ، لأنه عند فرض تجرد الروح لم يكن هناك إلا مجرد تصورات ، وفي الحالة الراهنة ما حصل من التغيرات والتكيف في الأعضاء عوض التصورات المذكورة . والذي حرك جميع آلات أعمال الروح هو الإحساس الحيواني . وحيث أن المرور من الألم إلى الكراهة قانون أصلي للروح ، وأن الإرادة فعالة دائمًا ، ففِعل قوة واحدة كفى لتحريك جميع القوى الأخرى .

●●●

ما علم من تاريخ شخص بعينه في اتحاد الروح بالجسد

ولنقتف الآن في الشخص الواحد السير الروحاني في تقدماته . وننظر كيف تظهر جميع إحساساته الباطنية من إحساس حيوان واحد .

سن الطفولة

في هذا السن لايكون الطفل إلا في درجة الحيوانية إلا أنه يترقى في درجة الحيوانية شيئًا فشيئًا. فليس درجته ورتبته محض الحيوانية الصرفة ، بل الحيوانية مع قبول الترقي ، لأنه حيوان بشري ، وسيكون بدرجة له فيها الفكر بالفعل . وهو في هذه السن أقل حظًا من الحيوان ، لأنه مجرد عن الغريزة ، وأنثى الحيوان يستغنى عنها نتاجها في أقل من زمن استغناء ولد الإنسان عن أمه . والطفل وإن تأثر بالألم في هذه السن ، فلا يهتدي إلى السبب الذي حدث منه ، وهو وإن تلذذ بلبن الأم ، فلا يدرك بأي طريق كان التلذذ ، فهو مجرد عن الأفكار بالكلية ، ففكرته ليست بأعلى من الإحساس ، وعلمه منحصر في التألم بالجوع والتلذذ بالشبع ، وجميع قواه الموكول إليها حفظه في حبس الرق ولم تشتغل بالتصرف .

حبة الثانية من الطفولية

في هذه السن يأخذ في الفكر وملاحظة الأسباب ، لكنه لا يشغتل إلا بلوازم الحياة الحيوانية ، فيبتدئ الطفل في معرفة أحوال بني جنسه ، وعلى حسب ما يحصل عنده من جهتهم من اللذات تكون معاملته لهم . فحبه للاشتغال والأهل والأحباب ، لايتمكن من قلبه إلا بواسطة الآثار المحسوسة ، فالإحساس مصباح تستضيء به حكيه تلقوى فتبعث أشعتها علي النفس فيدرك منها مايُدرك . فالطفل في هذه السن يستعمل العقلَ وطرقَه الروحانية ، لبلوغ أغراض مادية ، فليس للعقل عنده فضل إلا كونه واسطة للحصول على الأغراض المادية . ومن اجتماع هذه الافكار وتواردها وتماديها مرة بعد أخرى ، تصير بعد كونها حالا من الأحوال ، ملكة وعادة . ومن استعمالها في تأدية أغراضه ، ينتهي به الأمر إلى درجة كمال الفكر بمجرد عروض أمر له يأخذ في التفكر في أحواله وما ترتب عليه . فحينئذ يصل نور أشعة كماله الروحاني إلى قلبه،فيملأه نورا وتتسع دائرة بصيرته .

ومن إدراكه أفعال قواه وآثارها يزداد نوره ويستديم سرورة ، فيقوى عنده حب المعرفة ، ويحل منه عمل الغرض الأول ، ويميل إليها كل الميل ، وكلما كثرت أفكارُه قويت معرفتُه وزاد استبصارُه ، ويعلم بذلك مقدار اللذائذ الروحانية ، وتنقلب الواسطة غرضًا حقيقيًا .

ومن تأمل في أحوال الشخص تحقق أن هذا السير في درجات الكمال من **دقائق** الحكمة ، ووضع الشيء على الوجه الذي ينبغي . فقد جعل الباري تعالى التلذذات المادية وغريزة التحفظ ، سبيلاً إلى تنبه القوى الروحانية . فيبتدئ بعلم ما يعلمه الناس ، وتكون معاملته معهم على حسب مع علمه منهم . كلما كثر الفكر استعد لقبول الفيض ، وكلما طال الطريق كانت أغراضه في غاية التدقيق ، حتى يبلغ درجة كماله وذروة إجلاله . وهذا أول مميز بينه وبين الحيوان . إن قلت : قد نشاهد في الحيوانات المختلفة الجنس ، القليل منها لا يرتكب الطرق والوسائط المستصعبة في استحصال ما يقوم به معاشه ، والأغلب منها لايكون له ذلك إلا بعد معاناة الصيد وملاحظة الاحتراسات لتحرى مايأكله . فعلى ماذكرت كان الحيوان الصائد مثلا بكثرة توارد هذه الإلهامات عليه ، يبلغ من درجة الفكر مايبلغه الإنسان . فنقول : **نعم يحصل لها ارتكاب تلك المشاق ، لكن مع ذلك لاتعاني مايعانيه الإنسان في التوسل لهذا الغرض ، إذ قبل الوصول لغرضه يجتدى طرقًا طويلة ويعتسف أعمالاً شاقة ، حتى أن العامل والزراع لو لم يقصد من عمله إلا خصوص المأكل والمشرب والملبس ، لم يتمكن منه إلا بكثير من الطرق** . فإذا حصل عنده كثير من طرق الحفظ بتشكيل الجمعية البشرية ، ووصل إلى كثير من وسائط التمتع ، واتسعت دائرة تصوره ، وعلم بمبادئ أفكاره ، يرى في نفسه غاية لأعماله . ويشاهد أنه وإن لم ينقصه شيء من لوازم المطعم والملبس ، فقد بقى عليه أمر ينبغي أن يدركه . وهو أدق مما هو فيه ، وأن اعماله الظاهرة التي يتوصل بها إلى ضرورات المعاش انعكاسات أشعة قوى باطنية ، وأنها مشتملة على ماهو أعلى وأرقى من ذلك .

ومن هذا الالتفات يشترك مع أبناء نوعه البشري ، فيسعى في إصلاح هذا التعيش ، ويعلم أن القدرة العلية قد وهبته هذه القوى ليرى ما يرى من الحظوظ والتلذذات . لكن ليس ذلك مبلغ المصلحة ، بل لتكون وسيلة إلى تهذيب نفسه ، والتخلق بالجميل ، والتخلي عن القبيح . فحينئذ يستعد لنزول الفيض من مبدأ الفيض ، فتنطبع نفسه على الرأفه الذاتية والإحسان وعلو الهمة ولطف السير . فعند ذلك ينظر إلى العالم بنظر غير الأول . فإنه إنما كان ينظر إليهم بالمحبة على حسب ما كان يصل إليه منهم من اللذائذ ، وبالبغض على حسب ما كان يصل إليه من منافراته . أما في هذا النظر ، فقد استوى عنده المحسن والمسيء إذ كانت الرأفة

والإحسان خلفة ، فلا يتخلى عنه في حال من الأحوال ، وهذا غاية منتهى السير ، إذ صارت محاسنه ذاتية ، وذاته روحية .

في سير الروح مع البدن بالنظر إلى أحوال النوع البشري

من تأمل حال النوع الإنساني على تعاقب المَلَوَان ، من مبدئه إلى هذا الآن ، يتضح له حقيقةالأمر بأوضح بيان . ففي المبدأ لما كانت الحاجة إلى المطعم والملبس أخطر ، دعت الإنسان لأن يصير قناصًا أو راعيًا أو زارعًا ، ثم إن الشهوة النسلية أوجبت أن يكون للشخص عائلة ، ولدواعي الضعف وعدم المقاومة للمدافعة كان تأسيس الجمعية . ومن هذا الحين ظهرت أصول اللوازم البشرية ، ومن تزايد الأفراد وكثرتها ضاقت عليهم الأرض ولم تقم بأمور تعيشهم ، فتفرق الأفراد من ألم الجوع في أقطار بعيدة مختلفة ، فصرفوا قواهم في استحصال وسائط النفع بمحصولاتها ، ليتخلصوا مما هم فيه من العناء ، وما استنبطوه وأدركوه ، وإن كان قليلاً ، انتقل منهم بالرواية لذراريهم جيلاً بعد جيل ، فاتسعت دائرة تلك المعلومات البسيطة ، واهتدى الإنسان إلى طرق الأعمال والحيل ، وانتهى أمره إلى أن جعل القوى الطبيعية طوع يده فيتصرف بها في نفس الطبيعة وحصلت عنده مبادئ الفنون والصنعة ، ولم يكن غرضه من ذلك إلا كفاية الضروريات الحيوانيةإذ ذاك . كل ذلك من نظره إلى ما بين يديه ، فمن نظره فعل النار في شوى ما اصطاده من الأنهار والبحار ، ووصل إلى مزج الاجسام ، وبعد زمن انتقل إلى معرفة أعضاء الحيوانات بتشريحها بآلات ابتدعها ، بعد نظره في السكين المتخذ للقتل في زمن جهله ، ومن استعمال البيكار في المقادير الأرضية ، توصل إلى قياس أبعاد الكواكب وأجرامها . ففي ذلك كان الجسم هو الذي قهر القوة العاقلة وألجأها إلى الانتباه إلى الحادثات المحيطة به ، والتأمل فيها بإظهاره له لوازم هذه الدار ، وتبين لذتها وأهميتها . ولأن السير في الأرض لم يساعدهم على تتميم تلك الملاذ ، اخترعوا مركبًا يسيرون عليه في البحر لأجل تتميم أغراضهم وقضاء أوطارهم ، فساروا عليها في الأبحر والخلجان مهتدين بالنجوم ، حتى وصلوا إلى أقطار وبقاع اتخذوها مساكن وأوطانا . ومن تأملهم في أحوالها وشئونها الجديدة حصل لهم ضروريات جديدة تولد عنها أفكار جديدة . وبسبب قيام

الشهوات الحيوانية فيهم تحزبت الأحزاب . واستخرج من المعدن أسلحة القتل ، فأظهرت من الناس الشجعان والأقوياء ، ومن ثم ظهرت الظلمة ورجال العدوان . ومن حدوث المدن والحصون نشأت الممالك والدول ، وظهرت القوانين والواجبات والحقوق والفنون ، وبهذا السبب بعينه شرّع الله الشرائع ودّين الأديان .

ولما حل الزهو والزينة محل الضرورة وأخذت الأحوال في اتساع المجال ، فتح الإنسان جوف الأرض واستخرج ما في قاع البحر ، وتوصل بصنعة التجارة إلى نقل محصولات البقاع من الشرق إلى الغرب ، وبالعكس ، فنقل النباتات العطرية وغيرها من الأقطار الحارة إلى الباردة . وبطرق مخترعة جمع محصولات الأقطار المختلفة في بقعة واحدة ، ووصل إلى استكشاف ما أودعه الخالق في أفراد الخلقة ، فاستنبط علم الألحان والأنغام واستعملها ، فأنعش بسماعها القلوب المتوحشة ، ومن حسن النظام ، لطفت الأخلاق ورقت الأذواق ، ونشأ عن التفنن العلمْ والفضيلةُ ، ووصل الإنسان لإزالة الصخور المعطلة له عن السير ، وحوّل البرك مزارع . وبواسطة حفر القنوات واستنباع العيون توصل إلى انفصال الولايات أو ضمها ، وبتحيلاته جمع المنابع والعيون الصغيرة ، فصارت نهرًا جاريًا ، حوّله إلى الصحاري القفرة فأخصبت بعد أن كانت عقيمًا لا تنبت ، وجمع فيها من نباتات الأقطار المختلفة . وكأن العناصر طوع يده ، فالرياح والحرارة والبرودة والرطوبة وباقي العوارض ، لاتصده عن مقصده . إذ بتدبيره فاق فعله فعلها ، فاستعملها في منافعه بعد أن كانت متسلطة على ضَرَره . ومن إزالته الغابات المظلمة ، نقصت رطوبة الجو وبرودة الشتاء ، وتمكن من نظر السماء بعد حَجْب نظره عنها وتمتع بصفائها . وبإزالته مياه الغدران الراكدة ، تخلص من سموم ريحها وضررها ، وصفا عقله بصفاء القطر . وفي المملكة اشتغل الإنسان باللازم لضرورات المعيشة والتمتع . ومن الاجتهاد في الأعمال تحصلت المملكة في الداخل والخارج على الأمن والراحة ، فاشتغل أصحاب الفكر ورجال الفنون مع الطمأنينة ، في توسيع دائرة أفكارهم واستعمال آلات فنونهم ،فأخذت الفنون في طريق الارتقاء وازدياد العلوم حتى بلغت أوج الكمال ، وذهبت الوساوس والأوهام عن عقول الرجال ،واستبدت الأكاذيب الخرافية بالاطلاع على الواقعيات الحقيقية . فلو اطلع الإنسان على ما كان في بدايته ، لأخذه العجب من سفهه في ذلك الزمان، وحمقه وجهالته. ولما كان مآل الزينة

والزهو، الانقلاب إلى التهور والفجور، والتحلل والاسترخاء، كان ذلك موجباً لتولد أمراض وعاهات بانفعالات الجسد عن جاذبات الجو فتضرر بالإنسان ونوعه، اجتهدوا وأكثروا البحث في أنواع الخلقة ، فتحصلوا على ما به تنقص آلامه أو تزول ، وبهذا السبب وصل إلى معرفة خواص قشور شجر الكينا ومنفعة الأفيون[٢] ، واهتدى لفوائد الزئبق ، فحثه ذلك على البحث مع الدقة في كل شيء ، فوجد علم الكيمياء ، وبها توصل لتحليل الأجسام ، ووقف على أسرار أبدت له الأشياء في صور جديدة ، واخترع النظارات المعظمة فعلم الأعمال الحقيقية للخالق في تدبير المخلوقات ، فدعاه ذلك إلى ازدياد الجولان فكشف أعظم الأسرار . يعني علّم نفسه ، وبهذا الطريق كان الشر هو الواسطة في وصوله لأعظم الطيبات . فقد نشأ من المرض والموت علم الإنسان نفسه ، فلولا الأمراض ما كانت الحكمة والحكماء ، كما أنه لولا المحاربات لما كانت رجال الضرب والطعن ، وكذلك نشأ من تطلبات الضروريات الحيوانية كمال الروح . وإن جميع الحظوظ ، وإن فاقت الحد ، تساعد الترقي الإنساني والمحاربات والزهو وغير ذلك . وإن كان بحسب الظاهر يخرج عن الطريق الذي ينبغي ، لكنها على أي حال توصل إلى الغرض اللازم في زمن أقل من الزمن الذي كان يصير الوصول إليه فيه لو بقى السير على منهج القانون الطبيعي .

ومن تأمل في النسبة بين القرون الماضية وعصرنا هذا ، رأى أن الضرورات في تلك الأزمان وإن كانت جزئية سهلة الحصول تبين[٣] كيف كان جهل أهل تلك القرون . والآن اتسعت دائرة العلم وانكشفت المعلومات ، فوجد الإنسان ، لكفاية ضرورياته المتعددة ، طرقًا ولو طويلة لكن تدل على شرفه لوفور قدرته واستكمال قوته .



ومن جميع ما مضى ، يعلم أنه ينبغي للإنسان أن يكون حيوانًا أولاً ، حتى يعلم أنه روح ، ويلزمه أن يدب على وجه الأرض ويتفكر في ما بين يديه قبل أن يحوم حول الأكوان العالية . فالجسد حينئذ أول منبه لقوة العمل في الإنسان ، وأن الإحساسات هي سلم الارتقاء إلى أوج الكمال .

الاحساسات الحيوانية تسير مع الاحساسات الروحانية

لايخفى أن إدراك الآدمي مُنتهٍ إلى حَدٍّ لا يتعداه ، فجميع ما يحدث منه كذلك . ولأجل اتساع دائرته وازدياد القوة الدافعة للإرادة نحو الكمال ، والمبعدة لها عن الشر ، لزم أن تكون المادة الروحانية سائرة مع المادة الحيوانية مع الموافقة التامة ، بحيث كل ما يحصل لأحدهما يحصل للآخر ، ويكونان متعاضدين ، وينشأ عن ذلك قانون أصلي يمكننا التعبير عنه بقولنا : وظائف المادة الروحانية تقابل وظائف المادة الجسمانية ، بمعنى أنه كل ما حصل في القوى الروحانية يحصل مثله في القوى الجسمانية ، فكأنهما في توازن تام . وأن انتظام أحوال قوى المادة الروحانية ، وهو من انتظام أحوال المادة الجسمانية ، فكل ما وقع في قوى النفس يصل إلى ما يقابله من قوى البدن . وخمول النفس يتبعه بطء في حركة الجسد ، وغفلتها عن العمل مبطل لجميع أعماله ، وحيث كان الكمال يصحب بالحسن ، والنقص يصحب بالقبح ، فقد يمكن التعبير عن هذا القانون بقضية كلية بأن يقال : كل لذة نفسية مصاحبة لِلَذة مادية ، وكل ألم نفسي مصاحب لألم مادي .

حظ النفس يساعد سلامة الجسد

بناء على ماتقدم : كل إحساس يتمكن في النفس ، يتمكن في الجسد كله من غير تفاوت ، بمعنى أن القلب والدم والعروق والأعصاب ، وسواء أكانت الشرايين شرايين الحياة التي في القلب أو الصغيرة المحركة لشعر الجلد ، تشترك في ذلك وتكون الحركة في مجموع الجثة . فإن كان الإحساس مما يرتاح منه ، حصل لجميع أجزاء البدن نشاط وزيادة القوة ، فيضرب القلب ضربات قوية منتظمة ، ويتحرك الدم في مجاريه من غير مانع بالخفة أو السرعة ، على حسب قوة إحساس النفس . فيكون للهضم والدفع وغيرهما سير منتظم طبيعي ، وتشتغل الشرايين والأعصاب مع الراحة والنشاط . وهذا هو السبب في كون أوقات راحة النفس هي أوقات راحة الجسد . وبقدر مايوجد من الوظائف الصغيرة الجزئية الكثيرة العدد في الجسد ، تكون

إحساسات كثيرة خفية . كل واحد منها دليل للنفس على كمال حالة البدن . ومن مجموع الإحساسات الجزئية الخفية ، يكون الإحساس الكلي الدال على اعتدال أحوال البدن . فبحصول لذة نفسية ينشأ عنها في البدن لذائذ عديدة على حسب تعدد الإحساسات ، يرشدك إلى ذلك أحوال المرضى إذا أخذوا في مبادئ الشفاء ، تسهل عليهم أسباب الصحة في جميع أبدانهم . والغريب الذي نهكته الغربة وآلامها ، متى رجع إلى وطنه ، اكتسب الصحة والعافية وعاد إلى شبابه . والمسجون الذي ذهبت صحته ونحل جسمه طول مكثه في السجن مع عفونته ، لو بشرته بالإخراج ترى السرور تهلل في وجهه وأحاطت به دواعي الصحة ، وردت إليه الحياة التي كانت عما قليل تفارقه . والوصول إلى البر يورث القوة والصحة للملاحين الذين كابدوا المشقات ، حيث ضلوا في طريقهم ، وطال بهم زمان يهمون في لجج البحار لا يعلمون أين يتوجهون ، وانتحلهم من ذلك الألم والمرض . والنظر إلى وجه عزيز يبطئ سرعة طلوع الروح ، ويجدد القوة لحظة مّا للمريض الذي يكابد غمرات الموت . كل ذلك مشاهد ، بل قد يحصل من الفرح للمجموع العصبي قوة ونشاط لا يحصلان له من جميع الأدوية .

ومن جميع ما سبق ، يعلم أن النفس مكيفة بحيث يمكنها استخراج اللذة من كل حادثة ، ودفع ثورة الألم بنظرها في كمال نظام هذا العالم ، فهي حينئذ أكبر مساعد لوظائف البدن . وما به تصل لتمام هذا الغرض هو المعرفة المكسبة للفضل والكمال .

الألم المعنوي يتلف صحة الجسم

متى حصل للنفس تألم حصل للجسم تألم ، ولك أن تقول : مايحدث من التصورات عند اشتداد الغضب والغيظ ، عبارة عن اختلاج أعضاء الإدراك . وأن الاختلاجات المذكورة تسري بسرعة في المجموع العصبي ، فتجعل جميع القوى في التضاد وعدم الانتظام ، فيبطل التوازن الذي عليه نظام الجثة . ومن ذلك تضطرب ضربا القلب ، وتخرج عن حد الانتظام ، ويحبس الدم في الرئتين ، ولا يكون منه في الأطراف غير قليل ، فلا يكفي لتحريك النبض . وبتضاد جميع أعمال التركيب الجسماني يحصل الإسراع في عملية الإبراز والإفراز ، فلا تتوجه المائعات المفروزة إلى

جهاتها ، ويتوجه النافع إلى غير محله وغير النافع من شأنه الخروج إلى خارج الجسم مع الابرازات ، يرجع إلى القلب ويختل النظام . وعلى ذلك يكون أعظم أمراض الجسم وألمه تابعًا لأعظم ألم النفس . وعلم النفس بالحالة المنافرة للجسم يصل إليها من إحساسات جزئية فتفيض عليها حالة الألم العام — الذي بإضافته إلى الألم المعنوي الذي هو أصل المرض — يحده ويقويه .

تمثيـــل

آلام النفس الشديدة المزمنة ، تنتهك الجسم ، وتضرّ بدواعي الحياة ، خصوصًا إذا أخذت تلك الآلام بالقوة المفكرة فتنحصر فيها ، كما هو مشاهد فيمن يصاب بهذه الآلام ، يرى باهت اللون ، نحيل الجسم ، وليس ذلك إلا من الآلام الكامنة في الجسم . بخلاف السليم من تلك الآلام النفسية ، فهو ينام ليله وينموجسمه ويتهلل وجهه ، وما ذاك إلا لخلو البال والراحة وعدم الاشتغال . وتسلط الخوف وعدم الطمأنينة وظلمة السريرة ليس بأقل تأثيراً من أشد الحميات ، فإن المهموم يسرظناً منه أنّ السرور يزيل همه ، ولا يكسبه ثمرة ، لأن ألمه لم يكن معنويًا صرفًا ، بل حاصل من إحساس مؤلم أصله من القلب يشبه الإحساس المشعر بالحمى بلا تفاوت . ومرتكب الذنوب والقبائح من غير مبالاة من الخالق والخلق ، قد يفزع من رؤيا رآها في نومه فينتبه مصفر اللون مكروب النفس غريقًا في عرقه ، مما رأى من أهوال المضايق الإنية التي كان ربما يسمعها مرارًا عديدة ولا يعبأ بها من جهله . فكأنها كانت نائمة ، فانتبهت ، أو مستترة ، فظهرت له في رؤياه. وذلك **لأن الصور الخيالية عند طرآنها على الخيال ليست ثابتة إلا بثبوت ظلي ليس إلا مجرد تصور مدلولات الألفاظ الاسمية ، فلا يزال العقل مترددًا . ولكن متى برزت له الصور في عالم خياله ، وتجلت له في رؤياه ، تنبهت منه جميع الإحساسات ، واضطربت جميع القوى الفكرية** . فحينئذ تفيض النفس على الأعضاء أنواع الآلام على حسب الاستعداد ، فارتبكت النفس حينئذ في الكرب والهم الشديد . والرعشة التي تعتري الإنسان عند مباشرة أمر ذميم ، أو بعده ، ليست إلا ما يحصل للمحموم ، أو شارب الدواء المكروه بعد شربه . والضرر الذي يعتري ضعفاء القلوب ومضطربي السرائر ، يكون دائمًا مستتبعًا لشدة

النبض وسرعته ، هو بنفسه حمى مستجمعة الصفات حاصلة من اشتراك الروح والبدن . فبناء على ذلك يكون الأحمق الغضوب يستجلب السم في جميع أحوال معيشته ، والحاقدون الذين يطلبون التشفي ممن أساء إليهم ، الصارفون أوقاتهم في هذه الأفكار ، لايزالون في ضنك أفكارهم وضيق أنظارهم ، وأرباب الحسد الذين يتمنون زوال نعمة الغير ، لايزالون في آلام شاقة ، إذا بلغهم وصول الخير إلى إخوانهم . فهؤلاء أعداء لصحة أنفسهم . فإن لم يكن في الرذائل سوى ضياع الصحة والسعادة ، فهو كاف في وجوب كراهتها والتجنب عنها .

استثناء

قد شوهد أن تأثير الفرح الشديد قد أوجب الموت ، وتأثير الغم المفرط قد أوجب الشفاء من المرض ، والحال في الأمرين محقق بالتجربة . فهل أخل ذلك بالقانون المتقدم؟ فنقول : إن الفرح إذا بلغ حد الذهول ، يوجب زهاق الروح ، لأن الطبيعة البشرية لا تتحمل التأثير الحاصل للمجموع العصبي في لحظة يسيرة دفعة واحدة ، إذ لم تكن حركة المخ حينئذ على القانون الطبيعي ، بل بشدة عنيفة غير مألوفة ، فتضر بالجسم ، لأنها أخرجته عن الغاية المجعولة للصحة . فإن صحة الجسم مرتبطة بطبع معين في الحركات المعتادة . فالفرح كالغم له قدر معلوم إن تعداه حصل التلف .

والحالة الثانية ، أعني الشفاء من المرض بواسطة شدة الغم ، فأمثاله كثيرة وقد شوهد أن درجة لطيفة من الغضب تنبث مع اللطف فيحصل بعد انصرافها تخلص المريض من آلام السدد المزمنة. مثلاً قد شوهد أن الخوف أو الرعب الذي حصل من الحريق خلّص من أمراض روماتزمية مزمنة قديمة، ومن الضملة بعد اليأس من الشفاء. والإسهال خلّص من السدد الحاصلة في الوريد الباب. والجرب خلص من السوداء أو المليخليا، ومعلوم أن الجرب مرض، والإسهال لم يكن من شروط اعتدال الصحة.

خدر النفس يورث
ثقل حركة الجسم.

قد ذكر بعض الحكماء أن همة النفس في الأعمال اليومية . ينشأ عنها زيادة إسراع في ضربات الشرايين في الليل ، فإن صح ذلك فهل يبعد أنه يحصل بطء في حركاته ، إن حصل للنفس خدر أو كسل ، وتنعدم الضربات إن غفلت أو تخلت عن العمل . ولوأن دورة الدم لاتتعلق بالنفس تعلقاً كليًا ، ولكن يمكننا أن نحكم بأن القلب في جميع الأحوال يأخذ أغلب قواه من المخ . فان تأبت النفس عن مساعدته في تحركه ، نشأ عن ذلك ضياع كثير من قواه . فمن البلغم يحصل للنبض فتور وبطء في الحركة ، وتكثر ميوعة الدم ، وتتعطل حركة دورة الدم في البطن السفلى . وعند بعض البله والمخلولين يحصل عسر وبطء في التنفس ، وفقد شهوتي الأكل والشرب ، وتكاسل عن الإبرازات ، وثقل حركة النبض حتى تبلغ الندرة . وجميع قوى البدن تقع في الضعف والخمول ، ومايحصل من خدر النفس عقب الخوف والحيرة ، وما يشبه ذلك ، يلازمه في بعض الأحيان ضياع جميع همة الجسم . فهل النفس هي السبب في حصول هذه الحالة ، أو الجسم هو الذي سبب هذا الخدر في النفس ؟ والجواب عن هذا لا محل له هنا ، فإنه يخرجنا عن الموضوع

قانون ثان

كما انه يحصل من الآلام النفسية آلام جسمانية . يحصل أيضًا من الآلام الجسمانية آلام نفسية ، وأن الشَّره والإفراط ينشأ عنه أمراض وآلام للجسم ، وتلك الآلام هي العقاب العاجل . وينبغي أن تكون تلك الآلام واردة على النفس مؤثرة في ماهيتها ، حتى ترتدع من شدة الألم ، فتجعل لشهواتها حدودًا تقف عندها، كما أن حالة الصحة البدنية المحسوسة تشعر الإنسان بصلاح معنوي حقيقي يحصل له من بقاء صحته على استقامة، فيجتهد في بقاء هذه الحالة للبدن. فمن هنا يعلم أصل آخر ينشأ من اجتماع المادتين، وهو أن كمال الأعضاء وبلوغها غاية من الصحة، يترتب عليه استكمال النفس في أعمالها لاستحكام آلتها حينئذ. وخلل الأعضاء يوجب خلل أعمال النفس، وأن اللذات الجسمانية ينشأ عنها لذات نفسية، كما أن الآلام الجسمانية ينشأ

عنها آلام نفسية فكأن النفس والبدن كآلتين ذواتي أوتار محكمتين متلاصقتين فمتى تحرك وتر إحداهما وحدث عنه صوت مّا، تحرك في الحال الوتر المقابل له في الأخرى، وحدث صوت يماثل الصوت الأول، وإن كانت قوته أقل. فكذلك الإنسان: وتر اللذائذ في الجسم متصل بوتر اللذائذ في النفس، فمتى تحرك أحدهما تحرك الآخر، ووتر الآلام في الجسم متصل بوتر الآلام في النفس، متى تحرك أحدهما تحرك الآخر. ومن هذه الارتباطات العجيبة والإتقانات الغريبة صارت الأمور المختلفة المتضادة في الإنسان كالأمر الواحد. فالإنسان ليس بسجم فقط ولا بروح فقط، بل هو امتزاج الأمرين جميعاً امتزاجاً تاماً.

جميع أحوال الجسم تصحبها أحوال مثلها في النفس

من ذلك أن الثقل والتنحي عن التفكر وسوء الخلق، تتبع امتلاء المعدة والتغالي في الشهوات، وكذا ما يحصل عقب شرب النبيذ عند من يشرب منه بالخفة واللطف. فإنه يتبعها تخيلات وأوهام غير صحيحة بنشاط القوة، وسهولة الفكر، وقوة العزيمة، وسرعة الإقدام. وكذا ما يحصل من حسن الخلق والاعتدال، عند صفاء الجو وخلوص الهوى. فإن هذه الحالات، وإن كانت بمشاركة التصورات، ولكن لاينكر أن أصلها ناشئ من أن الوظائف الطبيعية ليست بمعطلة. فالمتمتع بهذا الأوصاف، إذا سألته عن نفسه، يجيب بأنه بخير لأنه يكون في هذه الأحوال كثير الرغبة في الأعمال العقلية، والميل إلى المكارم والأعمال الزكية(٤).

وكذلك يحصل في طباع الأمم، فسكان الأقاليم الكدرة يكون في طبائعهم ما في طبيعة أرضهم، فيكون الإنسان وحشيًا في الأقاليم المستوحشة الكثيرة الرعود والصواعق، ويكون بشوشًا رقيقًا في الأقاليم اللطيفة، ويكثر ميله إلى الإحسان والشفقة موافقة لصفاء الجو. **وفي الأقطار المعتدلة، يكثر أصحاب العقول والنفوس العالية والأفكار الوقادة، وفي غيرها كبلاد اللابونيا الواقعة في شمال أوربا المتسلط عليها العوارض الجوية كالبرد الشديد والثلوج المجمدة وظلمة الضباب، قلّ أن يوجد فيها من تكمل فيه صفات الرجولية، بل يندر ذلك ولا يوجد فيها من ذوى الفطنة**

أحد . وفي بعض البلدان كبلاد الألمان مثلاً حين ما كانت مغشاة بالغابات المتسعة المظلمة ، كان توحش ساكنيها بقدر توحّش الحيوان المتعيشين بصيده ، وبعد أن كشفت تلك الغابات بأيدي الإنسان ، تقدمت تلك البلدان ، وانكشف عنها ظلمة الجهالة والتوحش . وبالجملة فليس طبع ساكني القطر مكتسبًا من طبع القطر فقط ، بل لابد مع ذلك من صفاء الجو وانحدار الأضواء ، وبقدر ما يحصل في الجسم من الاختلال ، يحصل مثل ذلك في جميع قوى الكمالات الروحانية ، فتحدث طريقًا للشهوات الرديئة . ومن غلبته شهواته حتى جردته ، لا يعسر عليه اقتحام المهالك وسواد الحوالك في السير في تلك المسالك ، ويبذل جهده ويشد عضده لأجل أدنى خسيسة يريد أن يجلبها لنفسه . بخلاف من يستبقى صحة جسمه ، فإنك تراه بصيرًا في أمره ، حكيمًا في سيره .

فقد بان أنه على حسب صلاح الجسم ، يكون صلاح الروح ، وعلى حسب الفساد ، يكون الفساد . فلا تسكن الروح الخبيثة إلا في الجثة الخبيثة ، ولا الطيبة إلا في الطيبة . فالشريرون الذين يسعون في إفساد الشبان لمعرفتهم أحوال الطبيعة البشرية ، يبدأون أولاً بما يوجب إفساد أجسامهم للحصول على فساد أحوال أرواحهم ، لينضموا إليهم ويكونوا من حزبهم . ومن المشاهد عمومًا أن الأرواح المسيئة تسكن في الأجساد المتمرضة ، ويظهر ميلها لذلك في أوقات اشتداد المرض ، خصوصًا في الأمراض الشاقة والخبيثة الحاصلة من تركيب البطن السفلى ، مثل الحميات الخبيثة والبثرات والجمرات وغير ذلك . فإنها تكون مصاحبة لسوء الخلق والطبع ، ويكون سريان الأمراض في انعطافات التركيب الجسماني خفية ، فتحلل قوى الأعصاب البدنية ، فلا تشعر الروح بذلك إلا عند اقتراب خراب الجسد بإشارات دقيقة كالارتعاش . وفي هذه الأحوال تظهر الشراسة ، والعدول عن المألوف ، وكراهة المحبوب ، بغير سبب ظاهر ، ويصير الحليم سفيهًا ، وكثير الضحك والمباسطة كظوما ، ومحب الأعمال والاختلاط بالناس محبًا للعزلة . وفي خلال هذه الأحوال ، يكون المرض كامنًا تحت سترها ، يستعد بجميع قواه ليسطو على الجسم سطوة الجبار فيهدمه ، فيتحقق للإنسان صحة تمام ارتباط الروح بالجسد ، لأن الشعور بخلل الأعضاء الحاصل من ألوف من التأثيرات الصغيرة في المجموع الجسمي

يحصل منه خلل هائل لمجموع قوى النفس ، ويتمكن الرعب والخوف الشديد من قلوب أهل القسوة الذين لم تمس الرحمة قلوبهم من ثورة الآلام البدنية . وعند خروج الروح واليأس من الحياة يكثرون الاضطراب والعويل ، وتميل الروح إلى الانطماس والخفية في بحر الظلمة الحالكة ، وتنفر مما يسلي أو يكون فيه اطمئنان أو راحة ، ويشتد الخوف حتى لايرى غيره ، ومن اشتداد ألم النفس الحاصل من خلل الجسم تتسع دائرة الخلل المذكور فيعم البدن .

ويخرج عما سبق

وقد شوهد كثير من المرضى يصبرون على آلام الجثة بغير ضجر ولا ملل ، وغيرهم يقولون : أين طعنات حراب الموت وهم متقلبون في شدائده يعانون سكراته . فهل يقال : إن العلم والحكمة لم يكسبا صاحبهما ما به يستعين على تحمل اشتداد الآلام البدنية ، أو أن الدين لم يقدر أن يَقِي أتباعَه وأهله ويصونهم عن سطوات المادة . أو بعبارة أخرى : هل تجلد النفس وصبرها على مايؤلمها عند وقوع الخلل في حركات الحياة ، حاصل من ارتباطها بحالتها السابقة ؟ نعم ، الحكمة المتقوية بالدين والعقل الثابت يعينان على الصبر والتجلد ويهونان على المريض تأثيرات آلام المادة ، ويجعلان النفس كأنها انفصلت عنها ، واشتغال الفكر بأن الله تعالى موجود ، فعّال في الموت وفي الوجود ، وانتظام أحوال الحياة السابقة استشعار الأمل في الآتي بالسعادة الأبدية ، يفيض على تصوراته الأضواء. وأصحاب الزيغ تفيض الآلام البدنية على أرواحهم ، فتغمسها في غياهب الظلمات ، وأصحاب العقيدة السليمة ، واليقين الصادق ، إذا تحكم المرض فيهم ، يجدون من سلامة العقيدة وصدق اليقين ما به يتحول الألم لذة ، فيغشاهم الفرح ، ويدومون فيه إلى خروج الروح ومفارقة الدنيا. والصحو الذي يظهر قبل الموت في الأمراض الشديدة المميتة ، تارة يكون سببه أمراً مادياً يجب على الطبيب معرفته. وكثيراً ما تكون هذه الحالة مصاحبة لعلامات كاذبة ، موهمة للسلامة ، لا يُرى ما يدل عليها ، فلا ينبغي الاطمئنان إليها إذ هي أمارة سوء . وأن الأعصاب فقدت الإحساس مما حصل لها في هيجان المرض. ومعلوم أن الأجزاء الدينية الملتهبة ، متى وقعت في الغنغرة ، تنقطع آلامها ، فيخطئ من يحكم بانقطاع دورة الالتهاب. فإن التهيج يفارق الأعصاب الميتة ، ويحصل في البدن خدر بتوهم

حصول شفاء عاجل، وتنغمس النفس في لذة بانفصالها عن الآلام الشديدة التي كابدتها مدة المرض. وهذا الانفصال وانقطاع الآلام ليس مترتباً على رجوع انتظام أعضائها، بل من عدم إحساسها بالخلل الحاصل لها، ومتى حصل انفصال المادتين بطل الائتلاف بينهما.

بعض توضيحات زيادة على ما سبق

ولو أردنا توسيع هذه المادة وتكلمنا على الجنون والذهول والنقطة والصرع، وما أشبهها من الأمراض التي يكون فيها العقل تحت حكم البطن السفلى، وشرحنا ما يحصل من أمراض الرحم والداءات السوداوية المعبر عنها بالابيوكندري، وما ينشأ من الأمزجة المختلفة، أو نقلنا ما لاحظه الحكماء وكشفوه بالتجربة في معالجة تلك الأمراض وغيرها، لملأنا بذلك أسفارًا. وجميع ذلك يدل على ماتقدم ذكره. ولكن فيما ذكرناه كفاية على دلالة امتزاج المادتين امتزاجًا تامًّا، وأن هذا الامتزاج المذكور هو حقيقة الوجود الإنساني.

الأحوال الجسمانية مبينة لحركة النفس.

وما يسمونه بعلم الفِراسة متأسس على قاعدة امتزاج المادتين الماضي ذكرهما، بسبب مقارنة الأعصاب يحصل اتصال الانفعالات وتظهر الحركات الخفية الدقيقة للنفس على سطح الجسم، ويظهر من خلف أستار النفاق كامنات الشهوة. فكل حالة من أحوال النفس لها مظهر في البدن، فهو الإشارة الدالة عليها، ولسان حالها المبين لأحوالها. فكلما كانت مدارك النفس زكية طاهرة، كان البدن متهللاً ومشرقًا، وكلما كانت سيئة خبيثة كان البدن كثيفًا قريبًا من أجسام البهائم. وبقدر ما بعدت المدارك عن الكمال الرباني، قربت الصورة الظاهرة من شبه الحيوان، المشاركة له في صفته الغالبة عليه.

فإنا نرى مَنْ ظاهرهُ الشفقة والرحمة ينجذب إليه الفقير المحتاج، ومَنْ ظاهرهُ التعاظم والغضب تنفر منه جميع الخلق. وهذه الإشارات من أهم الدلالات لنا على

الأحوال السابقة ، ثم إن المناسبة بين الأخلاق النفسية والحركات البدنية من الأهم معرفتها . فالشجاعة والبسالة تملأ العروق والأعصاب بالحياة والقوة ، فتقدح العينان بالشرر ، ويتسع الصدر ويتمدد ، وجميع أجزاء البدن تصير آخذة في التهيؤ والاستعداد للمقاومة ، ويكون الإنسان كالأسد . **والخوف والرعب يطفئان نور العين ، ويوهنان البدن ، ويحصل للأعصاب ارتخاء مع ضعف وثقل ، فكأن النخاع تجمد في العظام . والأفكار الجليلة العالية توجبنا[٥] أن نقف على أطراف الأصابع ، ونرفع الرأس ، ونطلق اللسان ، ونحدق النظر في الآفاق والأطراف ، والفكر في اللانهايات ، وامتداد النظر إلى متسع الفضاء والبحار ، وما شابه ذلك ، يبعثنا على مد السواعد طالبين الانتشار في متسع الكون ، فنريد أن نصعد نحو السماء مرتفعين كالجبال ، وننطلق مرعدين كالعواصف والرعود وأمواج البحار ، والنظر من الشواهق المرتفعة إلى أسفلها يورث الدوران والميل إلى الوقوع فيها** . والحقد يظهر في البدن قوي التنافر ، بخلاف ما يحصل من المحبة والمودة ، كما تراه عند مصافحة المتحابين وتعانقهم . فإنك ترى أن الأبدان تميل إلى التداخل والامتزاج كالأرواح . والعزة توجب انبساط النفس وسعتها واعتدال الجسم واستقامته ، بخلاف الجبن فإنه يخفض الرأس ويورث الأعضاء الاسترخاء ، والخوف الدنيء يظهر في الجسم التذلل والحقارة . وتصور الألم يوجب انكماش الوجه ، وتصور اللذة والفرح ينوّر الجسم . وكثيرًا ما قطع الغيظ حبال المودة ، وأوصلت الضرورة إلى ما كان يظن استحالته .

إذا تقرر هذا ، فسؤالنا بأي كيفية تترجم الحركات الجسمية المحدودة عن الانفعالات النفسية ، وأن العضو الفلاني أو الفلاني يتغير من هذه الانفعالات ، هو كسؤالنا عن كيفية حصول التشنج في الفك الأسفل ، إذا حصل جرح في أغشية الأربطة .

فإن حركة النفس المنبهة لحركة في الجسم ، إذا كانت متجددة بحيث تصير عادة لها ، يتبعها في ذلك حركة الجسم ، فإذا استمرت وثبتت صارت طبعًا للنفس ، وصار أثرها في الجسم متمكنًا منه حتى كأنه من مركباته . وهذا هو السر في كون البدن البشري ينتهي به الأمر إلى أنه لا يمكنه أن يتخلى عن اعتياده ، فيكون تحويل الجسم عن اعتياده أصعب من تحويل النفس عن أخلاقها . فكأن الحاصل أن النفس نظمت للبدن صورته ، وأن مدة أول العمر أحكمت تقاطيع الوجه لباقي مدة الحياة ، وصيرت ذلك أساسًا لطبع الإنسان . وتجرد النفس عن السحنة ناشئ عن الضعف

والخمول وعدم تأثير الشهوات ، أو عن بله أصلي . فتقاطيع الوجه لا تتغير وتبقى كما خلقت في الطفل ، ولو يمت بسبب التعري ، وتكون الملاسة في الوجه بسبب قلة فعل الشهوات عليه ، وتحفظ الحواجب انحناءها لأنه لم يحصل لها ما يخرجها عن تقوسها ، ولا تتغير استدارة أعضاء الجسم بسبب اطمئنان الشحم في الأخلية ، ويحفظ الوجه صورته وربما بلغ الجمال ، لكن يتأسف على النفس .

ويمكن وصف أحوال الأعضاء ومعرفة صورها وأشكالها ومقاديرها مثلاً ، كالأنف والعين والفم والأذن وغيرها ، وإن كان هذا عملا طويلا ، لكن ذلك لا يجدي شيئًا ، ولو ألف فيه أضعاف ما ألف ، لأن أحوال النفس في كل فرد من أفراد الخليقة كثيرة متنوعة لا يمكن حصرها تحت قانون معين ، ولربما صار من يتعرض لشرح أحوال طائفة الأشرار من الناس معدودًا منهم .

قد يكون وهن الطبيعة الحيوانية منبعًا للكماليّات

قد علمت مما تقدم أن البدن آلة للنفس وموصل لها أغراضها ، فلعلك تقول : إن البدن أيضًا سبب في مضارها وانحطاطها عن درجة كمالها . وذلك لأن أفعال النفس مرتبطة بأعضائها ، وتابعة لها في قوة العقل وضعفه . فمتى حصل لها تراخ أو تعطيل في الحركة ، حصل مثله في النفس أيضًا كالنوم مثلاً ، فإن من المعلوم أنه يضيع من العمر ثلثه بالأقل وغير ذلك . فإن الأفكار والاعمال العقلية مرتبطة أيضًا بالأحكام البدنية ، فيمل الجسم بملل البدن ويقف لوقوفه ، وربما كان ذلك في اللحظة التي قد كاد العقل أن يعثر على مطلوبه فيها ، واستقام في الطريق الموصلة إليه وقرب من التمكن من مطلوبه ، فيمتنع الجسم عن إعانته ويتكاسل عن العمل . فبعد أن كانت أوتار الأفكار مشدودة وسهامها محدودة ، تتلاشى بأجمعها عند نكوص البدن ، ولا شيء أضر من المانع عند أشد الاحتياج . فهل يقال إن الانسان كان يبلغ من التقدم والثمرات مبلغًا وافرا ، لو استمرت فكرته في قوة عملها على حالة واحدة ، ويتمكن من امتحان جميع تصوراته مع غاية الدقة ، ويصل إلى غامض ما اشتملت عليه الحوادث ، ولكن ليس الأمر كذلك كما سيتبين فيما سيأتي :

ضرورة وهن البدن

وما سيأتي يوصلنا إلى الحقيقة :

اولاً : لزوم الإحساس باللذة لـلإنسان لأجل أن تبعثه وتحثه على أن يبلغ كمالات ذاته.. ثم وكيف يكون لـلإنسان كمال إذا لم يتمتع باللذات ؟

ثانيًا : طبيعة ذات المخلوق المحدودة لابد لها من الإحساس بما ينفر ، والفلاسفة تراه من الكمال .

ثالثاً : **طبيعة ذات المخلوق المركبة تستصحب معها وجود الألم ، لأنه مستندها في أكثر أحوالها. وحينئذ فالألم واللذة أمران ضروريان لابد منهما بناء على ما سبق.** وغير ما تقدم نذكر أمرين صحيحين ، وإن بعد صدقهما فيما يظهر . الأول ، من خاصة كل ألم ولذة أن يزيد إلى غير النهاية . الثاني ، كل ألم ولذة في الذات المركبة يبعث على تلفها .

توضيحات

وبيان توضيح القانونين الأخيرين ، أن قانون اشتراك الإحساسات الضروري من مقتضاه أن كل إحساس أو فكر تنبه ينضم في الحال إلى آخر من نوعه فيقوى بالانضمام ، وكلما قوي الإحساس باقترانه بغيره نبه إحساسات من نوعه ، وكذلك الأفكار ، وهكذا تزيد حتى تكون هى المتسلطة وتكسو الروح . فعلى هذا كل إحساس يزيد بنفسه ، وكذا كل إدراك ، وكل حالة حالية لـلإدراك تنبئ عن حالة مستقبلة تشبهها ، ولكن أعظم منها ، وهذا ظاهر . وقد علمنا أن كل إحساس وحركة من حركات النفس ، قليلاً أو كثيرًا ، مستلزم لحركة عصبية تناسب في القوة والسعة لتلك الحركة . أو بعبارة أخرى : كل إحساس من إحساسات النفس مرتبط بمقدار من الحركات العصبية فعلها مناسب وموازن لفعله ، فإذن يتعين أن حركات المجموع العصبي تزيد بقدر زيادة حركات النفس ، وهذا ظاهر أيضًا .

ونعلم من علم الباثالوجيا (**علم طبائع الأمراض الباطنية**) أن أي عصب من الأعصاب لا يتأثر وحده ، فينبني على ذلك أن القوة متى غلبت في جهة نقصت في

جهة أخرى. فتبين مما تقدم أن كل حركة عصبية تقوى بنفسها . وحيث سبق أن حركات المجموع العصبي تؤثر في النفس وتقوى الإدراكات النفسية ، ومتى قويت الإدراكات أو الحركات النفسانية ، قويت بحسب تلك الحركات العصبية واشتدت ، فينتج ذلك أن كلاً منهما يقوى الأخر . فالإدراكات والحركات النفسية في ازدياد على الدوام ، وحركات الأعصاب كذلك على الدوام . وحيث أن الحركات البدنية التي ينشأ عنها فساد الجسم ، والحركات التي ينشأعنها صحته متضادة ، وأن الصحة لابد فيها من قانون منتظم لتلك الحركات . فإذا بلغت الحركات الشدة ، وخرجت عن الحد نشأ عن ذلك المرض . ولأن المرض لا يمكن أن يمتد إلى غير النهاية . فلابد أن ينتهي الأمر في تلك الحركات إلى فناء الجسم ، فقد ثبت أن منتهى الألم هو تلف الذات وفناؤها .

إن قلت : هل يقال بناء على ما يفهم مما مضى : إن حركات الأعصاب في حالة إحساس اللذة تكون منتظمة ومساعدة لبقاء البدن ، وإن الحالة التي يحصل للنفس فيها كمال اللذة هي الحالة التي يبلغ الجسم فيها غاية الصحة ، فإذن يكون كل إحساس من إحساسات اللذة يوجب دوام صحة الجسم إلى غير النهاية ؟..

قلت : لا يصح القول بهذا لأن الحركات العصبية داخلة تحت قانون معين ، كما سمعت . فإن كانت بتلك الدرجة نشأ عنها الصحة الحقيقية للجسم ، فإن تعدت الحركات هذا القانون المعين، فهي وإن كانت لذته حينئذ أتم ولكن قد تجاوزت حد الصحة ، فإن الصحة ليست إلا الحالة المتوسطة التي تنشأ عنها هذه الأفعال الطبيعية المتسببة في نفسها لأفعال آتية تماثلها . يعني ليست الصحة إلا بالحركات التي توجب الحفظ ، وبقاء الأفعال القابلة المذكورة . فالبقاء موقوف على الصحة . والصحة لاتكون إلا من الحركة المتوسطة . والمنهمك في شهواته المائل إلى طرف الأفراط يكون قد بلغ غاية اللذة ، ولكن في الوقت فقط . وبعد ذلك يحصل للجسم الفتور والخلل العام . فهذا دليل على أن الإفراط في اللذة ليس من الصحة في شيء . ومن هنا يمكنك أن تحكم بأن الإفراط في الأفعال الجسمانية ينشأ عنه المرض . والمرض ينشأ عنه التحليل في البدن فيفضي إلى الموت .

فقد ظهر أن كلا من اللذة والألم يوقعنا في الموت والهلاك ، إن لم يكن هناك ما يجدد غير المتحلل .

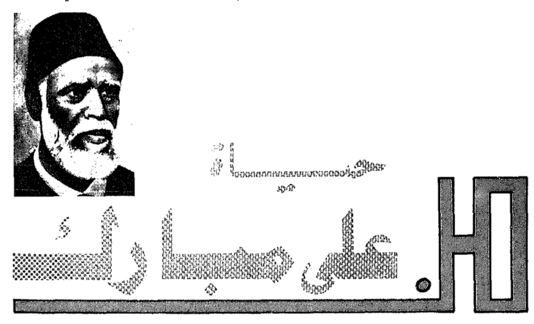
فوائد وهن البدن

ووهن الطبيعة الحيوانية هو السبب الموصل إلى المنافع والفوائد للبدن . وذلك أن القيود الملازمة للجسم ، وإن جعلها بعضهم دليلاً على قصوره عن بلوغ كماله ، هي المستوجبة تلطيف ما يحدث عن التركيب الجسماني من الأمور المضرة بالبدن والضعف والاسترخاء الحاصل للاعضاء ، ومنه يتأذى بعض أصحاب الأفكار ، هو المانع لثورة القوى البدنية من أن تتلفه في زمن يسير ، والمانع أيضًا لازدياد الإحساسات على مايلزم ، لئلا يترتب عليه تلف الجسم . وبحسب القوى يتعين لكل إحساس دوره في منشئه وبلوغ غايته وانحطاطه ، بل وزواله عند الارتخاء العام للبدن . وعلى الانحطاط المذكور يترتب عَوْد القوى الروحانية إلى نظامها ، وتملك الأعضاء البدنية راحتها ؛ ولذا كان أعلى الدرجات في بذل الهمة يستوجب الملل ، وفي الخوف يستلزم الضعف ، وفي الغيظ يستتبع الإغماء والغياب عن الحس .

والنوم يحصل منه أعظم من ذلك لأنه المخلص من الكروب والأوهام ، وغامر لمشاق الأعمال في مياه الصحة ، فكأنه يلد لكل يوم حياته ، وبه تأخذ القوى البدنية أحوال التوازن اللازم لقوام البنية ، وفيه تغيب جميع الأفكار والتصورات الاضطرابية المتعبة للبدن مسافة النهار ، فتكون كأنها انطمست في الفتور الذي اعتري القوى الحاسة . ويترتب على ذلك انتظام أعمال الروح ، ويكون الإنسان وقت قيامه من نومه كالمتصافح مع غده .

وإن نظرنا لانتظام أحوال الجمعية ، نجد أن هذا التراخي والفتور لايقوّم بقيمة ، لأن نتيجة هذا النظام تقضي بأن طوائف من الخلق تبقى في العناء والقهر مدة حياتهم ولا يتمتعون كغيرهم بالراحة . وأن طوائف أخرى تنقضى أعمارهم في مشغولية الفكر والتدبير لدوام راحة العموم، وأضف إلى ذلك المرضى والبهائم. فالنوم يغمض عين الألم ويخفف على الأمير والحاكم أثقال الحكم، ويبثّ في عروق بدن المريض قوى الحياة ، ويجلب إلى الروح المضطرب الراحة والاطمئنان ، ويخلص العامل من مشقة عمله وقهر سائقة ، وينفلت حيوان العمل من يد ظالمة وهو الإنسان . فالنوم قبر لجميع الأهوال والشدائد ، والمنظم والمنشئ للقوى الجديدة اللازمة لمقاومة وتحمّل

ومتى حلّ الوقت الموعود التي تصل النفس فيه إلى غايتها ، يكون في داخلنا أمر لانعلمه ، يمنع الجسم عن أن يكون في طوع النفس . وجميع التدابير التي صارت إلى هذا الوقت لجعل الجسم في أكمل أحواله لم يكن الغرض منها إلا وصوله إلى هذا الحد . ويظهر أن الحكمة العلية من حين النشأة الأولى جعلت قوى التحليل في أمر تدبير البدن غالبةعلى قوى الاستعواض . وينبت الموت من الحياة ، كما ينبت العود من الحبة . ويصير تحليل المادة المركبة إلى بسائطها ، وتنتشر في صور بكيفيات جديدة في عموم الخلقة لمقاصد أخر . وتستمر النفس وماكسبت في مساكن أخرى غير هذه . وتشاهد الكون في هيئات جديدة . **ويمكن أن يقال : إنها لم تبلغ غاية هذه ، وكان يمكن أن تستديم بها حتى تصل غاية كمالها . ولكن من يحكم بأنها فقدت نظر هذه بالكلية ، فإنا ندع كتاب كذا الآن ، لعدم فهمنا اياه ، وربما نفهمه فيما بعد ...**



وبعـد ، فعلي مبارك عالم جليل من علماء القرن الناسع عشر الميلادي . أحب العلم حتى تغلغل في نفسه ، وملك عليها جل مشاعرها ، ووهب إرادة قوية استهانت بالصعاب ، وعزيمة جبارة اقتحمت الحواجز التي وقفت في طريقها . وكان ذا نفس هادئة وبصيرة نافذة ، ونظرة واقعية إلى أحوال المجتمع . **وضع مجد مصر نصب عينيه ، فبذل الجهد المتواصل** ، ودأب على العمل بهمة لا تعرف الملل ولا يدركها الكلل . وكان ــــ رحمه الله ــــ قوى البنية ، حاد الذهن ، طويل القامة ، عريض

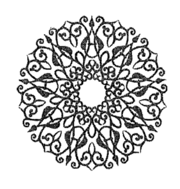
المنكبين ، أسمر اللون ، تلوح على وجهه الملامح المصرية الصميمة ، كاد أن يكون الوزير الوحيد الأصيل في مصريته في الوقت الذي عاش فيه . وكان بعيد الآمال قويّ الإرادة ، شديد الثقة بنفسه ، راسخ الإيمان بالله ، قوي الملاحظة ، واسع الفكر ، خصيب الإنتاج ، شغوفًا بالتجديد ، شعاره الدقة وحسن النظام ، بصيرا بأقدار الرجال ، بارًّا بأهله ، شفيقا بالضعفاء والفقراء .

تولى الوزارة أكثر من مرة ، فكانت له إصلاحات نافذة في كل مجال تولاه ، وبخاصة في مجال التعليم ، فإن المؤرخ إذا أراد أن يؤرخ للتعليم في مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فلا يكاد يخرج عن حياة علي مبارك .

ولد في سنة ١٢٣٩ هـ (١٨٢٣ م) في قرية صغيرة تدعى «برنبال الجديدة» تابعة لمركز دكرنس في مديرية الدقهلية (محافظة الدقهلية الآن) وتلقى تعليمه في مصر وفي فرنسا . وتوفي في ٥ من جمادي الأولى سنة ١٣١١ هـ (١٤ من نوفمبر ١٨٩٣ م) .

وقد ألف علي مبارك كتبا كثيرة في العلوم ، والرياضيات ، والأدب ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والاجتماع . فبرز فيها جميعاً ، وترك وراءه آثاراً نافعة أفادت المشتغلين بهذه الفنون . كل هذا إلى جانب تشجيعه لترجمة الكتب التي رأى فيها فائدة لطلاب العلم والمثقفين .

رحم الله علي مبارك رحمة واسعة ، بقدر ما أسدى إلى العلم وطلابه من أياد بيضاء .



من النظم التاريخي

إذا كان نقّاد الأدب قد قالوا إن الشعر العربي هو صحيفة العرب الراصدة لأحداثهم ، المعبرة عن مجريات أمورهم ..

فإننا في الجزيرة هنا نلمس كثيرًا من ذلك فيما رصد من أشعار عربية وعامية ..

ـ فالشيخ ابن غنام (... ـ ١٢٢٥ هـ) قد رصد لنا في تاريخه أشياء تسجل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود رحمهما الله ..

ـ ويعتبرما ذكره ابن بشر (١٢١٠ ـ ١٢٩٠ هـ) من أشعار ، وأبيات متقطعة شواهد تنبئ عن تسجيل تاريخي لأحداث بعينها ..

أرجوزة أحمد بن علي بن دعيج

د./محمد بن سعد الشويعر

ذلك أن الشعر أسهل في الحفظ ، وأمكن في الإثبات ، في مجتمع يعتمد على الذاكرة والحفظ ، أكثر من اعتماده على التدوين والرصد .

ـ أحمد بن مشرف (... ـ ١٢٨٥ هـ) الذي رصد أحداث الدولة السعودية الثانية .

ـ والشيخ سليمان بن سحمان (١٢٦٦ ـ ١٣٤٩ هـ) الذي لقبه بعضهم بحسّان الدعوة ، يصح أن نعتبر شعره مرجعًا مهمًا في تفاصيل سيرة الملك عبد العزيز .. لأنه يتحدث عن كل مناسبة في حينها .. ومثله في ذلك الشاعر محمد بن عثيمين (... ـ ١٣٦٣ هـ) في قصائده الحديثة .

ـ ثم الشيخ محمد بن بليهد (١٣٢٠ ـ ١٣٧٧ هـ) في ديوانه الشعري ..

ولقد لفت نظري أثناء بحثي في تاريخ شقراء قصيدتان ، فيهما إضافات تاريخية لم تدونها كتب التاريخ التي رصدت تلك الأحداث ..

ذلك أن الشعر لم تكن سمة الإطالة .. وإنما المحلل للأحداث هو الذي يجمع المعلومات التي أنبأت عنها الإشارة من الشاعر .

هاتان القصيدتان هما :

ـ منظومة الشيخ أحمد بن علي بن دعيج التي سرد بها الأحداث التاريخية إبان حملة إبراهيم باشا (١٢٠٤ ـ ١٢٦٤ هـ) على نجد وهدمه الدرعية عام ١٢٣٣ هـ وبعد القضاء على الدولة السعودية الأولى ، وبعثه بالإمام عبد الله بن سعود (... ـ ١٢٣٤ هـ) إلى مصر ثم الآستانة بتركيا .

ـ وقصيدة سليمان بن سحمان الرائية ، التي أوضح فيها الخطوات الأولى في انتصارات الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل (١٢٩٧ ـ ١٣٧٣) في العامين الأولين من مبدأ مسيرته ..

وفي هذا اليوم سيكون حديثنا عن المنظومة الأولى .. ولن نتعرض لمقارنة ما جاء بها من أحداث تاريخية ، بما رصد في كتب التاريخ .. وهذا ما سوف نفرد له بإذن الله مجالاً آخر ..

في هذه الحلقة سنحرص على إبانة الخطوات التي أوصلتنا إلى هذه القصيدة ، والتي لم تنشر حتى الآن ..

لقد لفت نظري حيالها الشيخ عبد الله بن جماز ، وهو من المعمرين ـ أطال الله في عمره ـ حيث قال عن نفسه بأنه ولد عام ١٣٠٧ هـ .. وقال بأن الشاعر تعرّض فيها إلى حرب شقراء مع إبراهيم باشا بأكثر من عشرة أبيات..

كما أنه يتوقّع بأنها تجئ في ١٥٠ بيتًا أو تزيد ، وأنه كان يحفظها منذ أكثر من سبعين سنة .. وقد أملاني من ذاكرته تسعة وأربعين بيتًا ..

لقد رجعت إلى ترجمة القائل عند الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن بسام ، في كتابه من علماء نجد في ستة قرون ، فرأيته يقول عن هذه القصيدة بعد إيراد أبيات منها : وهو رجز طويل سجل فيه بعض أخبار هذه الحادثة الكبرى عن عيان ومشاهدة ، وهو رجز لا يخلو من الخلل في وزنه ونحوه[1] .

ثم لما تتبعت التراجم التي أوردها الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن بسام في كتابه هذا والتي هي مظنة إيراد بعض أبيات من القصيدة .. وجدت :

١ ـ في ترجمة الشيخ أحمد بن دعيج المشار إليها ، قد أورد من هذه القصيدة : تسعة وعشرين بيتاً[2] .

٢ ـ في ترجمة حياة الشيخ قرناس بن عبد الرحمن (١١٩٠ ـ ١٢٦٢ هـ) أورد بيتين[3] .

٣ ـ في ترجمة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الحصين (١١٥٤ ـ ١٢٣٧ هـ) أورد سبعة أبيات [4] .

ـ ثم عدت لكتاب روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين ، فرأيت مؤلفه الشيخ محمد بن عثمان القاضي قد أورد في ترجمة سيرة الشيخ أحمد بن علي بن دعيج ثمانية أبيات من هذه القصيدة مستقيمة الوزن والنطق[5] .

ـ لقد اتصلت ببعض المهتمين علميًا من أسرة الشيخ مستوضحًا عن هذه الأرجوزة ، لعل

حلقاتها تتصل ، وما نقص منها يكتمل ، فلم نظفر بما أمّلنا ، ولم نجد ما يروي الغليل خاصة وأن مثل الشيخ أحمد الدعيج له شهرة في قصائد أخرى:

ـ فقد ذكر له الشيخ ابن بسام نظمًا سماه : كتاب العقد الثمين ، عقيدة الموحدين .. يوضح الاعتقاد الذي عليه أهل نجد .. ومطلع ذلك النظم:

بـاسمه أبـد كـل أمري تبركًا وحفظًا له لا يعتريه جذامها(٦)

ـ وذكر له الشيخ عبد الرحمن بن زيد العنزي قصائد في الإمام فيصل بن تركي يصفه بالعفة والصلاح بدأه بقوله :

ومـا بـدأت الـنظـم إلا محبة ومـا مقصـودي بـه الـتـنـولا(٧)

ومحنة الدرعية لم تحرك الشاعر ابن دعيج وحده ، بل حركت غيره كثيرين فالشيخ علي بن الشيخ حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب المتوفي عام ١٢٥٧ هـ له قصيدة لامية مؤثرة في رثاء الدرعية ..

وأهمية قصيدة ـ أو منظومة ـ ابن دعيج أنها طويلة ولم تنشر ، وتسجل أحداثًا تاريخية مهمة ، وأتوقع أن وجودها كاملة سينتج عنه :

- تصحيح كل خلل في الوزن واللغة .
- إضافة شيء جديد في السرد التاريخي ..

ومن هنا جاءت الرغبة في البحث عسى أن نصل لنتيجة مرضية .. ولما كان الشيخ عبد الله ابن جماز قد أكدّ لي أنه حفظ جزءًا كبيرًا منها هو والشيخ محمد بن علي البيز (١٣١٠ ـ ١٣٩٢ هـ) منذ أكثر من سبعين عامًا ، عندما كانا يطلبان العلم في حلقة الشيخ ناصر بن سعود ابن عيسى (١٢٨٥ ـ ١٣٥٠ هـ) في جامع شقراء .. وأن الشيخ محمد البيز يحتفظ بها مكتوبة ضمن محتويات مكتبته .

فقد اتصلت بمن آلت إليهم بعض محتويات مكتبة الشيخ البيز ، لكن لم نهتد إلى شيء يعطي أملاً في العثور ، علاوة على طرقي كل باب أظن فيه مدخلاً لمطلبي فانسدت السبل .

حتى كان لي حديث مع معالي الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ وزير التعليم العالي ذلك الرجل الذي حباه الله دماثة خلق ، وسعة أفق ، وحُبًّا في البحث والمساعدة ففتح لي صدره وبسط جاهه ، وقال : من تظن نجدها عنده .. فقلت لا أتوقع غير فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام عضو هيئة التمييز بمكة المكرمة للأسباب التالية :

١ ـ اهتمام فضيلته بمثل هذه الأشياء ، وبكتب التأريخ التي تبحث في تأريخ الجزيرة إذْ نسمع أن لديه أشياء لم تر النور بعد ، ومجتمعنا في حاجة إلى إماطة اللثام عنها ليستفيد منها الدارس والباحث .

٢ ـ أنه ذكر بعض أبياتها في ترجمة حياة الناظم ، وقال عن هذه القصيدة بأنها رجز طويل يخلو من خلل في وزنه ونحوه .

٣ ـ أن بيد الشيخ محمد البيز رحمه الله ، والشيخ عبد الله بن بسام صداقة حميمة ، وعلاقة متينة .. والروايات تثبت اهتمام الشيخ محمد البيز بهذه القصيدة التي كانت مكتوبة عنده منذ كان شابًا يافعًا ..

تجاوب معالي الشيخ حسن جزاه الله خيرًا فكتب للشيخ عبد الله البسام طالبًا هذه القصيدة .. فبعث إليه بصورة عنها .. أرسلها إليَّ معالي الشيخ حسن بخطاب ينم عن حب للمعرفة .. وتشجيع للعلم ، وبذل للجاه والنفس في سبيله ..

صفات هي من أخلاق العلماء التي يجب أن نسجلها عرفانًا بالجميل ، وإشادة بفضل المحسن لإحسانه ، والمتواضع لتواضعه ..

وقبل أن أورد ما وصل إلى علمي من هذه القصيدة نقلاً عن الشيخ عبد الله بن بسام فإنني سألفت النظر إلي :

١ ـ قد يساورني الشك من الخلل في الوزن والنحو رغم أن ما نثبته هنا يؤكد ما أشار إليه الشيخ عبد الله بن بسام .. لان :

ـ الشيخ أحمد بن دعيج كان من جامعة الدرعية ، ومدرسة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وأبناء هذه المدرسة لهم اهتمام كبير بعلمي النحو والأوزان الشعرية ـ اللغة العربية عمومًا

وعلومها .

ذلك أن الشيخ أحمد بن علي بن دعيج قد ولد بمرات عام ١١٩٠ هـ .. وكانت فترة تحصيله العلم هي الفترة الذهبية في العلم وطلبه في نجد عمومًا وفي الدرعية بصفة خاصة .. ولاّه الإمام عبد الله بن سعود قضاء مرات بعد قتل قاضيها إبراهيم بن مشرف عام ١٢٣٢ هـ أي قبل نكبة الدرعية بعام ..

وقد استمر في هذا المنصب للإمامين تركي بن عبد الله (... ـ ١٢٤٩ هـ) ، وفيصل بن تركي (... ـ ١٢٨٢ هـ) ، حتى توفي في بلدة مرات وهو على رأس عمله عام ١٢٦٨ هـ .

ـ لعل هذا الخلل جاء من النقلة .. خاصة وأنني لمست اختلافًا بسيطًا فيما نقلته بالرواية عن الشيخ عبد الله بن جماز ، وما وجدته بالكتابة في النسخة المرسلة من الشيخ عبد الله البسام وأن بعض الأبيات يقوّمها حذف حرف أو اثباته ، أو تعديل في النطق والحركة .

ـ إن ذكر هذه الأرجوزة مع ما فيها من خلل سيلفت النظر ، ويحرك من يملك ولو بعضها بالتصحيح : تغييرًا أو إضافة ، أو استدراكًا .. وبذلك يتحصل الباحث على ما يعنيه ، ويجد القارئ فائدة مضافة ..

وهذا أيضًا مما يهم الشيخ عبد الله البسام كما يهمّ غيره ..

٢ ـ لا أحد ينكر ما قدّمه الشيخ عبد الله بن بسام في كتابه : علماء نجد في ستة قرون من فائدة جديدة للقارئ ـ وأنا واحد ممن يدين له بذلك .

ولكن لما كان الشيخ هاويًا ومحبًا للتأريخ والبحث ، بحيث وقع تحت يده ما لم يقع تحت يد غيره .. ألا يجدر به ـ جزاه الله خيرًا ـ أن يتحف المكتبة المحلية بذلك نشرًا أو تحقيقًا ..

وإن من ضمن ما طرق سمعي عن الكتب المخطوطة التي يملكها الشيخ عبد الله ، ولم تتيسر للقارئ المطلع ، ولا للراغب منهم ، الكتب التالية :

(أ) تاريخ الشيخ أحمد بن محمد بن بسام .. ويقع في عشرين صفحة ، من عام ١٠١٥ هـ إلى عام ١٠٣٩ هـ .

«وبصرف النظر عن مآثره المعمارية في القلعة التي اهتم بها على الرغم من أنه نقل العاصمة السياسية — إلى بجاية — واستقر بها، فقد كانت له مآثر في بجاية من أبرزها قصره الذي وصفه **ابن حمديس الصقلي**، وتحدث عن ساحاته المرخمة وتربه المخضب بالدر، وأضوائه التي تحول ليله نهاراً، وأسوده التي يخرج الماء من أفواهها على جانبي الأحواض، وثمراته البديعة، وأشجاره الذهبية الساحرة، وصهاريجه وأبوابه المصحفة المزخرفة وسفنه ذي النضرة السماوية[٦٠]. ويبدو أن هذا القصر كان ينسب إلى المنصور، وأنه سوى قصوره الأخرى المقامة ببجاية، وهي قصور الخلاص والنجمة والميمون[٦١]. وقد حاولت من تتبع أوصاف هذه القصور ومن تتبع الأوصاف التي ذكرها ابن حمديس أنْ أصل إلى أنه أحد هذه القصور، لكن لم توجد أية قرائن جازمة — من ناحية الأوصاف — ترجح أحدها، على الرغم من ورود بعض الأبيات في قصيدة ابن حمديس ترجح أنه قصر النجمة كقوله:

فلك من الأفلاك إلا أنه
حقر البدور فأطلع المنصورا
أبصرته فرأيت أبدع منظر
ثم انثنيت بناظري محسورا

وعلى الرغم من وصف «**كتالوج بجاية**» له نقلاً عن «مخطوط البجاوي» بأنه قصر مشرق يشبه إشراق الشمس مرسلة حزمها الضوئية، وأنه كان ذا أبواب تسعة كل واحد منها بمصراعين من الخشب المحفور بإتقان[٦٢]. وهي أوصاف وردت — على نحو ما — في قصيدة **ابن حمديس الصقلي** — لكنها أوصاف ليست جازمة في تحديد أنه قصر النجمة، ومن المحتمل وجودها في قصوره كلها.

وقد ابتنى المنصور في بجاية مسجداً زينته منارة ارتفاعها ستون قدماً وبواجهته سبع عشرة باكية.

ولا زالت أطلال كثيرة من هذه الآثار باقية في خرائب بجاية. وهي شاهد حيّ على ما كان لبجاية الحمادية من شأن في التاريخ الجزائري الإسلامي، ذلك التاريخ العظيم الذي انتصر على كل عوامل التغريب والفرْنسة ... وعاد — بعد معركة مجيدة — يستأنف رحلته الكريمة في طريق الحضارة الإسلامية العريق والخصب والممتد..



هوامش

(١) الكامل ٤٦/١٠.

(٢) نهاية الأرب ٦٧/٢٢ (المجلد الثاني).

(٣) الاستبصار ١٢٨، ١٦٨.

(٤) تاريخ الجزائر للميلي ٢٢٥/٢، وتاريخ الجزائر العام للجيلالي ٣٧٠/١.

(٥) ابن الأثير في الكامل ٤٧/١٠، وياقوت في معجم البلدان ٦٢/٢، (مادة بجاية).

(٦) ابن الخطيب أعمال الأعلام ٦٤/٣.

(٧) دائرة المعارف الإسلامية ٣٥١/٣ ورابح بونار المغرب العربي ص ٢١١.

(٨) المجتمع المغربي للدكتور ابراهيم العدوى ٢٧٣.

(٩) يذهب الدكتور ابراهيم العدوى إلى أن بناء بجاية كان بسبب خطة رآها الناصر لمواجهة النورمان (أنظر المجتمع المغربي ٢٨٠)، وبالنظر إلى أن بناءها كان سنة ٤٦٠ هـ بعد هزيمة الناصر في سبيبة وتهديد دولته بالضياع على يد العرب الذين عاشوا فيها، وبالنظر إلى أن الحماديين كانوا يواجهون بقوى متعددة داخل الإطار المغربي كالزيريين وزناتة والقبائل العربية بالإضافة إلى المرابطين، بالنظر إلى هذا نستبعد أن يكون الحماديون قد مدوا الطرف إلى هذا الأفق — السياسي البعيد — أيْ بناء بجاية لمواجهة النورمان — في هذه المرحلة على الأقل، وهذا لا يمنع أن تكون بجاية قد حققت أهدافاً في مواجهة النورمان.

(١٠) يذهب صاحب الاستبصار (ص ١٢٨) ويوافق عبد الهادي التازي محقق المنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة (ص ١٣٠ هامش) إلى أن المنصور هو الذي بنى بجاية وأنها سميت المنصورية، والمنصور لم يكن له إلا فضل الامتداد العمراني والانتقال — بدوره — إلى بجاية، بدلاً من القلعة، والغريب أن الاستاذ التازي ذكر أنه اعتمد في ذلك على ابن خلدون — (٣٥٧/٦) وبالرجوع إلى نفس الصفحة من نفس الطبعة — وُجد أن ابن خلدون ذكر أن بانيها هو الناصر، وأنها سميت الناصرية !!!

(١١) صفة المغرب ص ٩٠ للإدريسي.

(١٢) دائرة المعارف الإسلامية ٣٥٠/٣ مادة بجاية، موجز التاريخ العام للجزائر الكعاك ٢٥٩، وكتاب الجزائر للمدني ١٨٤ وكتالوج بجاية ١٦، ١٩.

(١٣) أنظر

(١٤) أنظر:

(١٥) صورة الأرض لابن حوقل ص ٧٧.

(١٦)

(١٧) العبر ٣٥٧/٦.

(١٨) كتالوج بجاية وزارة الأخبار الجزائرية سنة ١٩٧٠ ص٨، ومعجم البلدان ٦٢/٢ (مادة بجاية).

(١٩) أنظر صفة المغرب ٩٠.

(٢٠) معجم البلدان ٦٢/٢، والقاموس الإسلامي المجلد الأول ٢٧٣ — أحمد عطية الله.

(٢١) تقويم البلدان ١٣٧، المعجب للمراكشي.

(٢٢) أنظر صفة المغرب ٩٠

(٢٣) كتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي ١٤٢.

(٢٤) أنظر صفة المغرب للإدريسي ٩١.

بعد هذه المقدمة جاءت القصيدة التي نوردها فيما يلي مراعين إثبات ما توفر من زيادة عن نص الشيخ عبد الله البسام ، أو الإختلاف في الرواية .. من باب أمانة النقل:

الحمـــد لله على مـــا أنـــعما ... حمـدًا به يجلو من القلب العمى
ثم الصلاة بـــعـــد والسلام ... على نـــبـيّ ديـــنـــه الإسلام[٩]
يـقـول عـبـد أصـلـه من مـاءِ ... الحنـــــبلي المذهب المرائي
بـفـتـح ميم أصح لا تضـمـهـا ... فضـمـهـا يا صاح غاية ذمّها[١٠]
دخـيـل مولاه الـفـقير أحـمـدا ... أمّـــل يهديـــه طـــريق محمـــدا
واسمح لـــه مســـاويًـــا نســاهـا ... عـــتـيـد في كـتـابـه أحصـاهـا
بـالجود والـعـفـو وبـالـغـفـران ... مـع الـرضـا والـفـوز بـالجنـان
ووالـــديـــه وســامــع مؤّمــنــا ... ومن سعى في نفعنا داعٍ لنا
أول مـــا أبـــدأ بـــه المبـــاني ... بـــاسم ذيـــالمواهب المنـــانِ
والحمـد فـهـو الله مسـتـحـقّـهْ ... حمـدًا كـثيرًا عنـه يعجز خلقه
مسـتـغـرقًـا لـلـحـمـد والمحامِـدِ ... جـمـيـعـهـا وهو عـلـيها زائـد
نـحَـمـدْ مـعـبودنـا والـرب ... سـبـحـانـه فـهـو لـنـا مـرب
ثم الصلاة والسلام بـــــالوفي ... على الـنبي الـعـربي المصـطـفى
محمـد -المختـار سـيـد الـبشر ... مـال لـه الإيوان وانشق الـقـمر
وآلـــه وصـــحـــبـــه كلاهمـــا ... وتـــابـــع يـــتـبـــع ومن والاهما
مـا هـلّت السحب من الأمطار ... وســجــعت ألحانها الأطـــيـــار
وبـعـد ذا ذكـر وقـايـع عصرنـا ... لـطـالـب يسـأل ويـأتي بـعـدنـا
لـعـلـه يـدعولـنـا بـالمغـفـرة ... والـفـوز أخرى مع وجوه مسفره
فـلـعـل من يـلـحق يصـبـه بلاء ... فـيـظـن أن الـغـرّ أول مـبـتلاء[١١]
فـيـسـمـع الـتـأريخ أو يـطـالـع ... فيرى الحوادث فـيـه والقـوارع[١٢]
على الأوائـل والأواخِرْ قد جرتْ ... من بعد آدم كـل شيء أتبعتْ
فـيـسـكـن لـذلك روعـه ويطمئن ... وسـاخـط المقـدور بـالقـلوب فمن
مـطـالـع التـأريخ صاعـد سلمن ... يشرف على ما قد جرى فيعلمن[١٣]

وهذا جيل تظهر العجائب ... وتملأ الاوس بالغرائب
فاسمع وخذ تاريخ قرن ثالث ... وما جرى فيه من الحوادث
منه ثلاث مع ثلاثين مضت ... من قرننا المذكور والبلوى دهت(١٤)
من بعد الف قد مضى وقد جرى ... من هجرة شرّفها خير الورى
بنجد أذكر ما جرى تجميلاً ... وأترك التبعيض والتفصيلا
ومغفلاً يا صاح للصغيرة ... وواسمًا للمحنة الكبيرة
وهي العساكر مع وزير مصرا ... أضرم على نجد بنار حمرا(١٥)
وقبله كأنها عروسا ... والخير ذكره يملأ الطروبا(١٦)
أميرها السميدع المحامي ... بنفسه عن حوزة الإسلام(١٧)
عبد العزيز أمير أول عصرنا ... فضائله تزكو نعتنا(١٨)
يسوس بالقرآن والآثار ... ونهجه طريقة المختار(١٩)
من بعده قام ابنه سعود ... وعقد الرايات والبنود(٢٠)
وأحسن السيرة والسلوكا ... وأرهبت موهبته الملوكا
في عصره ترعى الضعيفة وحدها ... والثعلب أدرك حقه من فهدها
وعمت الراعي مع الرعيّة ... هشيم والأشراف بالسويّة(٢١)
وجنّد الجنود للجهادِ ... ودوّخ الحضار والبوادي
في عصرهم أيامهم بواسم ... هبائب العز لهم نواسم
ونعمة الإسلام ذاك الوقت ... كل رآها غير أهل المقت
وبعدهم قام الإمام البارع ... وكم له في الترك من وقائع
عبد الإله الليث أبو سعد ... ولد سعود الندب مثل الفهد
في نحره قام أفندم باشا ... وفوّق السهم له وراشا
بعساكر السلطان ومحمد علي ... وكم قبله الوادي يطم على القرى
أتى بكيد ما رأينا مثله ... واجْلبْ علينا خيله ورجله
وشاب نار الحرب فوق الرس ... ثلث السنه يضربهم بالقبس
وصبروا وصبرهم قد بانا ... أصبر في الهيجاء من أبانا
رجال صدق في اللقا والبأس ... أعيانهم وشيخهم فرناس(٢٢)

ساورهم ففدينا بكل فن ... نعم بأهل الرس وطوه الرس
وعلى عنيزة مع بريدة حلاّ ... فراعهم منه سواد الظِّلاّ
ومالت أرياهم وضاق المخرجا ... والذل في قلوبهم تولجا
وابتهجوا بالصلح والأمان ... وهم رجال الحرب والطعان
وشقراء عليها شب نار الحرب ... بالقبس ضربًا رجم الشهب
نهارهم يشبه مهب عاصف ... وليلهم بالوصف رعد قاصف(٢٣)
في ليلة ثلثمائة مدفع ... صوت القبوس مفزع وموجع(٢٤)
ثلاثة أيام عليهم طالت ... وأفزعت قلوبهم وهالت
بلادهم بالسور قد أحيطت ... وبالحصون المحكمة أشيدت(٢٥)
وخندق دوّار للبلاد لمّتْ ... فزادت المصائب وعمت(٢٦)
وفنيت الأسباب والأسوار ... ولم يبق إلا خندق دوّار
والتفت الأتراك والشباك ... وأيقنوا بالعطب والهلاك(٢٧)
وحوّمت عليهم المنيّة ... وأنجاهم الباري بصدق نيّة
ودار رحى الحرب على الحمادة ... وخصهم مولاي بالشهادة
نرجو لهم من ربنا غفرانًا ... لصبرهم والفوز بالجنانا
وباقي القرى تسابقوا وقابلوا ... وأعرابهم فارحلوا وعاملوا
أفٍ لهم خافوا علوج الدوي ... والصبر من نفوسهم معدوي
ونازل العوجا بحرب صارم ... لكن تطنطن دونها الأراقم(٢٨)
حاصرهم بالروم سبعة أشهر ... أبو سعد سكّانها والأنجر(٢٩)
أبوابها جده مع اجتهاده ... لكن مولانا له مراده
بضربة القلوب منهم بالوهن ... حاشا مشاهير وفيصل ماجن
وبعض على الباشا فهم تهافتوا ... وآخرين بالمكاتب خافتوا(٣٠)
وأهل السهل جميعهم فاهلسوا ... وأدخلوا العسكر عليه دلّسوا
والنصف من أهل الطريف ناروا ... وصفقوا جناحهم وطاروا(٣١)
وخلفوه بقصره وحيدا ... وقضى الإله فليس عنه محيدا(٣٢)
واخرجوه من منيع أوطانه ... فعزّ من لا ينقضي سلطانه(٣٣)

ولا يرام ولا يكيده كائد ... ولا يبيد وكل شيء بائد
مالك جميع الملك حي دائم ... سواه مملوك وأنفه راغم
وملكه جديد ثابت الأركان ... ولا يضام ولا له أعوان
كم قبلنا أباد ربي من أمم ... من بعد نوح مثل عاد أو أرم
فيما مضى كم دولة قد دالتْ ... ثم انقضت مدتها وزالتْ
كم في المقابر من أشم المعطسا ... رماه سهم حادث فقرطسا
سكان نجد في حساب الناس ... كقطرة في البحر بالقياس
مصير دنيانا إلى المحاق ... ثم البقا للواحد الخلاّق
وذا يعزينا عن آل سعود ... وعن كل محبوب لنا مفقود[٣٤]
وبعدهم أهل الظنون الفاسدة ... تيقنوا النعمة عليهم خالدة[٣٥]
فانقلبت أيامهم دواهي ... وبُدِّلَتْ دروسهم ملاهي
بيوتهم ملاعب للبوم ... يُسْمَعْ بها صوت الصدا الموهومِ
فيا لها من بيضة تَفلّقتْ ... حدائق بعد التفاف قطّعَتْ
وطالما كانت محل آنس ... ورحب ساحات بها مجالس
وكم بها من ملك غطريف ... وشيخ علم جهبذ ظريف
ومن نوى نزال الملك من رجالها ... كل تبين ثم قال أنا لها
وسادنا منهم حسين مع حسن ... وأتباعهم من نجد يابئس الزمن[٣٦]
توازروا بالقتل والمصادرة ... الله يكفينا وجوه باسرة
والسبل فالأعراب قطعوها ... بالختل والأموال نهبوها
فاضطربت أيامنا واختلّتْ ... سبع سنين سقمت واعتلّتْ
وأظلمتْ نجد وثارتْ الفتن ... واستنسر البعوض والثعلب فتن
فانتدب الشهم الموفق تركي ... وجرّد الأجرب نظام الملكي[٣٧]
وأورد الأعدا بحار الهلكِ ... وقظّ من نجد قصور التركِ
ولاح بدر طالعًا في السعد ... وكفّ شرًّا واستقَرتْ نجد
فانصلحتْ به الأمور الفاسدة ... وأرغم الله تعالى حاسده
واستنقذ الملّة والخلافة ... وناف فعلاً عن فعال أسلافه

يـارب توهن من نوى خلافـه   تبـقـيه ذو عز لنا سنينا[٣٨]
....   باسا معًا للنظم قل آمينا
بدعى صدور النظم والقوافي   حُبًّا لأهل العدل والإنصاف
وليس مقصودي وليس شاني   أطلب به شيئًا من المعاني
فخير والٍ عادلاً بصيرًا   شبيه عمر ويحسن التدبيرا
يقدم الوجيه فيها عالمًا   وعن الرعية يرفع المظالما
وموفيًا للعهد والذمامِ   وحاميًا لحوزة الإسلام
يجهز الجيوش للمغازي   ويقمع أهل الشين والمخازي
وينصر المظلوم والحدودا   يقيمها ويكرم الوفودا
وينصب القضاة أهل العلم   منفذًا لقولهم في الحكم
مفتقدًا للضيف بالإكرام   وفي الحروب ماهر مقدامِ
يقرّب أهل الخير والأمانة   يجعلهم شعارهْ والبطانه

ويبعد أهل الشر من ناديه   ويقصهم لو كانوا من ذويه
ميزان أفعاله على هدى النبيّ   بخٍ له فذاك عنقا مغرب
والحمد حقًّا أوله وآخره   لمالك الدنيا مليك الآخرة
معبودنا أهل الثنا والمجد   جزل العطايا مستحق الحمد

موجد جميع الخلق من بعد العدم   سبحانه وهو المربي بالنعم
وإن تعدوا النعم لا تحصوها   يا معشر العباد فاشكروها
فالحمد والشكر عليكم فرضًا   جزاؤه فهو عليه قرضًا
وتمت المباني الحربية   أبياتها غرائس مجلية

أعيذها من طعن شامخ بأنفه   وهو الغبيّ والجهالة وصفه
عسى عليها الستر والقبول   بجاه طه السيد الرسول[٣٩]
الهاشمي المصطفى التهامي   وآله وصحبه والكرامِ
صلى عليهم ربنا وسلّما   ما دارت الأدوار أفلاك السما

واغفر لنا يارب وامنحنا الرضاء وعافنا واكفنا سوء القضاء
والأهل والجيران والأقارب والصحب حاضر أو غائب
أبياتها سبع حساب متقنًا فلا تمل عنه هنا أو هاهنا

وعلى هذا فإنني أعتقد أن هذه الأرجوزة لا زال لها بقية ، سواء تخللت أبياتها لأن القارئ يحس في بعض أبياتها انقطاع في المعنى . .

أو في نهايتها للأسباب التالية :

١ ـ آخر بيت قوله : أبياتها سبع حساب متقنا .. فلابد أن يذكر ما فوق هذا الرقم إذ بلغ ما دون هنا منها ١٢٨ بيتًا فهن أبيات لم تكن في النص الخطي كما أشرنا .. ولعله يريد بسبع أن أبياتها سبعمائة بيت ولذا تعتبر تاريخًا متكاملاً .

٢ ـ إنني سمعت ممن يعرفها أو سمع عنها أنها أكثر من ١٥٠ بيتًا .

٣ ـ أن الناسخ كثير إضافة بعض الحروف التي تخلّ بالوزن والجري الشعري .

٤ ـ أن الراجز قصر الأحداث في أرجوزته على بداية عهد الإمام تركي بن عبد الله الذي اعتبره من عام ١٢٤٠ هـ .. حيث قال : سبع سنين سقمت واعتلّت» بينما ابن بشر يرى أن خروجه في عرفه ، ومحاربته لأهل الرياض ، ثم استيلاءه على ضرماء كان في عام١٢٣٩ هـ .. أي بعد ست سنوات .. (٤٠) .

وتركي بعد أن استتب الأمر له في نجد أبقى الشيخ أحمد بن علي بن دعيج على قضاء بلده مرات حتى توفى الإمام تركي مقتولاً عام ١٢٤٩ هـ .

ثم أبقاه ابنه الإمام فيصل بن تركي إلى أن توفى وهو في قضاء بلده عام ١٢٦٨ هـ . وعلى هذا يكون قد بقي في الأحداث التاريخية المليئة بما يروي النهم ، ويسد حاجة الراغب في التدوين «٢٨» عامًا .. ما كان الراجز ليغفل عنها أو يتناساها وإن ترك آخرها باعتباره قال القصيدة قبل تقدم السن به فما كان ليترك هذه المدة الطويلة .

٥ ـ أميل إلى أن هذه الأرجوزة قيلت في فترات متقطعة ، بمعنى أن القائل لم ينهها في جلسة واحدة .. ولذا فإن هناك أحداث قريبة منه ما كانت لتند عنه :

ـ مثل إقامة خورشيد باشا في ثرمداء .. والضرائب التي كان يفرضها على أهالي الوشم خاصة وقرى ومدن نجد عامة .

ـ المظالم التي كانوا يقومون بها وإهانتهم بل قتلهم العلماء والناس .

ـ دعوة حسين بك لأهل الدرعية : من أراد بلدًا ينزلها فليأتنا نكتب له كتابا يرحل إليها .. فلما حضروا عنده وعددهم نحو (٢٣٠) رجلاً بنسائهم وأطفالهم قتلهم جميعًا بسنابك الخيل في ثرمداء[٤١] .

مثل هذه الأشياء التي تحرك المشاعر لا أتوقع أن الشيخ ابن دعيج سيغفلها من أرجوزته هذه التي وسمها في مقدمته بأنها ذات عبرة وعظة : فلعل من يأتي بعدنا في آخر الزمان يصيبه بلاء ، فيظن أنه أول مبتلي ..

أما قوله في المقدمة : وتركنا ذكر سواها من الوقايع بنجد .. فهذا يرد عليه ما جاء بعد البيت ٨٧ حيث استمر في سرد الحالة في نجد وحسن وحسين وهم من القواد الأتراك الذين مر ذكرهم عند ابن بشر..

وذكر خروج الإمام تركي ، وعن السبع سنين التي ماجت فيها نجد وانحلت فيها العرى وهي الفترة الزمنية بين تركي واستقراره ... وبين هدم الدرعية عام١٢٣٣ هـ . كل ذلك يقوي العزم بأن للأرجوزة بقايا نأمل أن نراها لنسير مع أحداثها مع رجل عاصر تلك الأحداث وعاشها ساعة بساعة .

أما استطراده فهذا بالدعاء من تأثير العقيدة الدينية ، وانعكاس للخلفية العلمية ، والنظرة الاجتماعية ..

وهذه سمة يلمسها كل من يقرأ نظمًا لعلماء نجد إلى عهد قريب ، ذلك أن القضاء يضفي على أصحابه مهابة ووقارًا ..

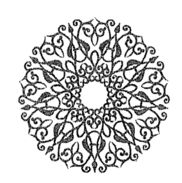
والاستطراد عنده ليس علامة النهاية فقد استطرد في هذه القصيدة أكثر من مرة ثم يرجع لموضوعه ..

ولعل مما يؤيد حدس ما ذهبنا إليه أن الأبيات التي أورد الشيخ **محمد بن عثمان القاضي** مع قلتها .. فهي أصح وزناً ولغة من الأبيات نفسها كما جاءت هنا ..

وسأورد تلك الثمانية التي جاءت ضمن ترجمة حياة الشيخ أحمد بن دعيج ، رغم أنها غير منتظمة في التسلسل مع الأصل الذي أوردناه ..

وهدفنا هنا حثّ القارئ للمشاركة فيما لديه من هذه الأرجوزه ليكتمل عقدها .. أورد محمد القاضي هذه الأبيات منها :

فاسمع وخذ تاريخ قرن ثالث ... من بعد ألف نكبة الحوادث
نتلو ثلاث مع ثلاثين مضت ... أتت على نجد بنارٍ أوقدت
وقبله كأنها عروس ... والخير في أركانها يميس
أميرها السميدع المحامي ... بنفسه عن خدمة الإسلام
كم قبلها أباد ربي من أمم ... من بعد نوح مثل عاد وإرم
مصير دنيانا إلى المحاق ... ثم البقا للواحد الخلاّق
فيالها من بيضة تفلّقتْ ... حدائق بعد التفاف قطّعتْ
وطالما كانت محل أنس ... ورحب ساحات لهمٍّ تنسى(٤٢)





الهوامش

(١) راجع ترجمته في الجزء الأول من ص ١٧٧ - ص ١٧٩ .

(٢) انظر المرجع السابق : ١٧٧ - ١٧٩ .

(٣) انظر المرجع السابق ٣ : ٧٦٧ .

(٤) انظر المرجع السابق ٢ : ٤٨٠ .

(٥) انظر هذا الكتاب جـ ١ ص ٦٧ .

(٦) انظر علماء نجد ١ : ١٧٩ .

(٧) انظر الكتاب المنتخب في ذكر قبائل العرب ص ١٠٣ .

(٨) سورة هود آية ١٢٠ .

(٩) هذان البيتان زيادة عن النص رواية عن الشيخ عبد الله بن جماز .

(١٠) رواية الشيخ ابن جماز «غاية ذلّها» .

(١١) لعل الأقرب إلى الوزن :

لعل من يلحق يصيبه البلاء   يظن أن الصغرّ أول مبتلاء

(١٢) لعل الأقرب إلى الوزن .... فيدرك الحوادِثْ منه والقوارع

(١٣) سلمن خطأً في النطق وإنما جاءت منوّنه من أجل القافية .

(١٤) هذا البيت زيادة عن النص في رواية الشيخ عبد الله بن جماز ، وموقعه عند ابن بسام بعد ثلاثة أبيات .

(١٥) في رواية البسام التي أثبتها في ترجمة حياة الشيخ ابن دعيج قال : «أتت على نجد بنار حمرا» جـ ١ ، ص ١ : ١٧٨ .

(١٦) في رواية البسام أيضًا في ترجمة ابن دعيج قال : كأنها عروس ، والخير في أركانها يميس» ١ : ١٧٨ .

(١٧) رواية ابن بسام في ترجمة ابن دعيج قال : «بنفسه عن خدمة الإسلام» نفس المصدر .

(١٨) رواية ابن بسام في ترجمة ابن دعيج قال : «وفضله يزكو تعبير ثقتنا» نفس المصدر .

(١٩) رواية ابن بسام في ترجمة ابن دعيج قال : «يفوز بالقرآن» نفس المصدر .

(٢٠) رواية الشيخ ابن جماز «وأحكم الرايات والبنود» .

(٢١) هذا البيت والذي قبله من رواية الشيخ ابن جماز في هذا الموضع وفي النص بعد ثلاثة أبيات مع تقديم الثاني على الأول ورواية الأول «سارت به الأنثى الضعيفة وحدها» .

(٢٢) رواية الشيخ ابن جماز «نعم بأهل الرس بين الناس   أميرهم وشيخهم قرناس» .

(٢٣) رواية الشيخ ابن جماز :

نهارهـم يشـبـه هب الـعـاصـف   والـليل بالوصف كرعد قاصف

(٢٤) هذا البيت زيادة عن النص في رواية الشيخ ابن جماز .

(٢٥) ، (٢٦) هذان البيتان زيادة عن النص في رواية الشيخ ابن جماز .

(٢٧) رواية الشيخ ابن جماز :

وفــنــيـت الأشراك والشـبــاك   وأيــقـنوا بـالـعـطب والهلاك

(٢٨) رواية الشيخ ابن جماز : لكن نظن دونها الأراقم ، والشيخ ابن بسام في ١ : ١٧٨ لكن نقبض دونها الأراقم .

(٢٩) رواية الشيخ ابن جماز : أبو سعد أسيرها والأنجر . والشيخ ابن بسام في ١ : ١٧٨ : حاصرها بالدوم .

(٣٠) رواية الشيخ ابن جماز :

منهـم أنـاس على الـباشا تهافتوا   وآخـرون بـالمكـاتب خـافـتوا

(٣١) في رواية ابن بسام : ١ : ١٧٨ : والنصف من أهل الطريق ثاروا .

(٣٢) رواية الشيخ ابن جماز :

وخـلـفوا بـقصره وحـيـدا   قضى الإلـه لـيس دونـه محيدا

ورواية الشيخ ابن بسام ١ : ١٧٨ :

....   وقضى الإلـه لـيس عـنـه محيـدا

(٣٣) رواية الشيخ ابن جماز :

وأخـرجوه من مـنـيـع داره   ....

(٣٤) رواية الشيخ ابن بسام ١ : ١٧٨ .

وذا يـقـيـنـا عن آل سـعود   ومن كـل محبوب لـنـا مـفـقود

(٣٥) رواية الشيخ ابن بسام ١ : ١٧٩ :

....   تيبقوا النقمة عليهم خالدة

(٣٦) هذا البيت وما بعده يحكي من جاء بعد إبراهيم باشا وما وحل في نجد من الفوضى .. ويبدو أن بينه وما قبله انقطاع قد يكون جزءًا من الأرجوزه لم يصل إلينا . وحسين وحسن من قادتهم .

(٣٧) الأجرب اسم سيف الإمام تركي بن عبد الله .

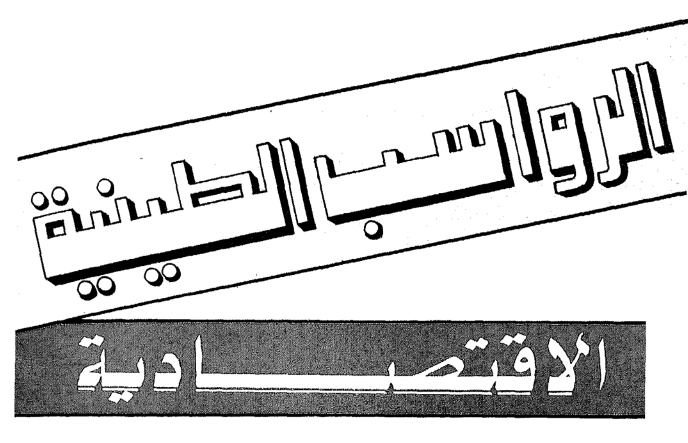
(٣٨) يلاحظ القارئ اختلاف القافية هنا مما يدل على سقوط الشطر الثاني .. وإن هذا الشطر هو أول البيت الذي يليه .

(٣٩) استبعد هذا منه لمخالفته صراحة التوحيد ولأنه ممن ألف في العقيدة منظومة أشرنا إليها .

(٤٠) راجع عنوان المجد لابن بشر جـ٢ ص٢٥٢ ، وفي ص٢٥١ قال إنه خرج من الخلوة عام ١٢٣٨ هـ .

(٤١) راجع عن هذه الحكاية عنوان المجد لابن بشر أحداث عام ١٢٣٦ هـ جـ١ ص٢٢٣ .

(٤٢) انظر روضة الناظرين ١ : ٦٧ .



بالمملكة العربية السعودية

التركيب المعدني والتوزيع الجغرافي

الدكتور : أحمد عبد القادر المهندس

١٨٠ الدارة

تمهيد

كلمة طين على مواد التربة المبتلة ، وتستعمل كلمة طين أو (CLAY) في المجالات العلمية والتجارية . ويمكن تعريف الطين بأنه مادة قابلة لامتصاص الماء وإنتاج عجينة لزجة ولدنة القوام ، قابلة للتشكيل ، ويمكن أن تستعيد تماسكها وصلابتها إذا جفت في الهواء[1] . والطين ليس معدنًا نقيًا بل هو مجموعة من المعادن الطينية والمواد الترابية . ونظرًا لدقة حبيبات الطين فإنه لا يمكن تمييز مكوناته إلا بواسطة المجهر الإلكتروني (Electron Microscope) وذلك بتكبير الحبيبات إلى حوالي خمس آلاف مرة



وتتميز بللورات معادن الصلصال (CLAY) بالشكل الصفيحي أو الأنبوبي أو الشريطي أو الخيطي . ولهذه الأشكال أهمية كبيرة في تحديد المادة الطينية وخصائصها . وتختلف معادن الصلصال عن بعضها البعض اختلافًا كبيرًا من الناحية البللورية ، ولكنها لا تختلف كثيرًا من ناحية تركيبها الكيميائي . ويمكن تقسيم المواد الطينية حسب تكوينها المعدني إلى :

١ ـ الكاولين أو طين الصين : ويتميز بالبياض ، ومعادلته الكيميائية هي :

$$Al_2(Si_2O_5)\ (OH)_4$$

ويضم معادن الكاولينايت ومعادن الهالويسايت والانديلايت والناكرايت

Kaolinite, Halloysite, Dickite, Endellite and Nacrite.

٢ ـ طين الكرة : ذو لون أبيض ، عالي اللزوجة واللدونة ويحتوي على كمية من المواد الغروية ، ويتميز بتماسكه ، ويتكون أساسًا من الكاولين ومعدن السيريسايت .

٣ ـ الطين الناري : ويتكون أساسًا من معدن الكاولينايت ، ويخلو من المواد الصهّارة (**Fluxes**) ، وهو مقاوم للحرارة .

٤ ـ الطين العادي والطين الصفحي : ويتكون من مواد طينية أو شبيهة بالطين . ويتميز الطين العادي عن الصفحي بلدونة كافية تسمح له بالتشكيل ، أما الطين الصفحي فهو يتكون من معادن طينية ولا يكون لزجًا في الحالة الطبيعية . وقد اكتسب هذا الطين خاصية التصفح نتيجة للضغط المتجه من الرواسب التي تعلوه وترتيب المعادن الصفائحية عموديًا على الضغط .

ويحتوي الطين العادي والطين الصفحي على مجموعات من المعادن الطينية أهمها **الإلايت Illite** **والكلورايت Chlorite** **والمونتمور يللونايت Montmorillonite** **بالإضافة إلى الكاولين**. ويتميز الطين العادي والطين الصفحي بوجود المواد والأتربة القلية والمعادن الحديدية التي تكسب الطين اللون الأحمر بعد الحرق . ويحتوي الطين العادي والطين

الصفحي عليه كمية أقل من **مادة الألومينا** Al_2O_3 مما يحتوي عليه طين الكرة والطين الناري والكاولين .

٥ ــ **الأتربة القاصرة** : وهي مواد ترابية تشبه الطين العادي إلا أنها لا تتصف باللدونة ، وتتميز بقدرتها على قصر الألوان ، كما تتميز بأشكال إبرية . وتشتمل على معدن الأتابولفايت **Attapulgite** أو معدن **البالفور سكايت** **Palygorskite** وهي معادن تتكون من سيليكات الألمنيوم والمغنسيوم المائية بالإضافة إلى معادن المونتموريللونايت . وغالبًا ما تحتوي هذه الأتربة على الأوبال أو السيليكا الغروية .

٦ ــ **البنتونايت** **Bentonite** : ويتكون أساسًا من معادن المونتموريللونايت والبرولايت . ويمكن أن يحتوي على معدن السمكاتايت أو الطين الأخضر . ويتميز البنتونايت الصودي بقابليته على امتصاص الماء والانتفاخ إلى أضعاف حجمه الأصلي .

- **لمحـــة تاريخيـــة :**

عرفت الحضارات الشرقية خصائص الرواسب الطينية أو المواد الصلصالية من حيث استعمالها ، وقد اتخذت منها مواد لصنع الأواني المختلفة والمصابيح والآجر . واتسع مجال استعمالات المواد الطينية المحروقة وغير المحروقة في **حضارات وادي النيل وما بين النهرين** . ولعل الحضارات الصينية القديمة كانت من أول الحضارات في مجال استخدام أنواع من الصلصال الأبيض النقي ثم انتقل استعمال هذا النوع من الصلصال إلى خارج الصين حاملاً معه اسم **موقع صيني شهير هو كاولنغ Kaoling أي الجبال الشاهقة**(٣) .

ولا يزال الطين مادة بناء أساسية في كثير من الأقاليم الجافة من العالم وكان الطين هو المادة الرئيسة في البناء في كثير من المدن والقرى بالمملكة العربية السعودية ، إذ كان يستعمل بديلاً عن الأسمنت بعد خلطه بالجير أو التبن لإكسابه بعض التماسك لمقاومة عوامل التجوية الفيزيائية . ولا تزال كثير من البيوت المبنية من الطين (أو اللبن) تقاوم مرور الزمن وعوامل التجوية في بيوت

الطين الموجودة بالرياض والدرعية وغيرها من مدن وقرى المملكة العربية السعودية .

وتتميز هذه البيوت المبنية من الطين بجمالها المعماري وبانخفاض درجة حرارتها خلال فصل الصيف وببعض المزايا البيئية التي تحتاج إلى دراسة تفصيلية (انظر الصور رقم ١ ، ٢ ، ٣) .

● رواسب الطين الاقتصادية بالمملكة العربية السعودية :

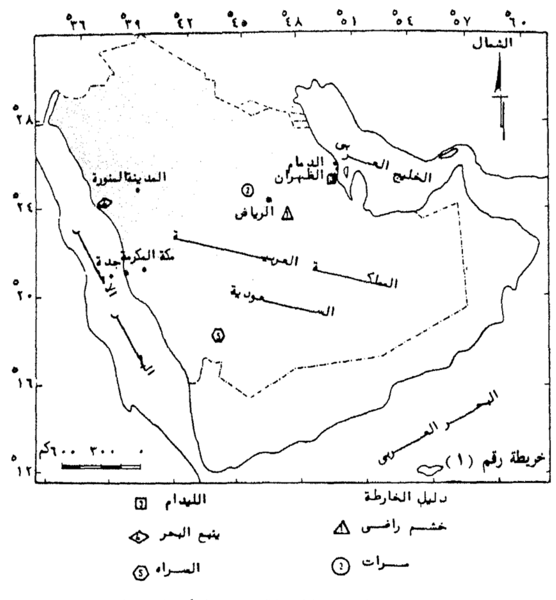
بدأت دراسة رواسب الطين وبخاصة رواسب الصلصال ما بين عامي ١٣٩١ و١٣٩٢ هـ وذلك بواسطة مركز الأبحاث والتنمية بالرياض ووزارة البترول والثروة المعدنية .

إن الغرض من هذا المقال هو استعراض بعض المعلومات المتعلقة بالتركيب المعدني لرواسب الطين الهامة بالمملكة العربية السعودية وتوزيعها الجغرافي .

ويركز هذا المقال على النواحي المعدنية والجيولوجية لرواسب الطين الهامة وبخاصة الرواسب الصلصالية ، بالرغم من أن هناك بعض المناطق التى تحتوي على الصلصال أول الرواسب الطينية والتي لم أتناولها بالدراسة نظرًا لعدم أهميتها من الناحية الاقتصادية والجيولوجية أو لعدم وجود أبحاث كافية لمعرفة مكوناتها المعدنية وطبيعتها الجيولوجية .

وتوجد رواسب الطين الاقتصادية في عدة مواقع بالمملكة العربية السعودية ، وقد قام مركز الأبحاث والتنمية بالرياض بدراسة اقتصادية على رواسب الطين ، وبخاصة رواسب الصلصال من أجل صناعة الخزف بالمملكة ، ونتيجة لذلك فقد شجعت وزارة البترول والثروة المعدنية باحثيها لدراسة رواسب الطين المعروفة بالمملكة ، كما أن بعض الباحثين بجامعة الملك سعود قد قاموا ببعض الأبحاث العلمية لدراسة النواحي الفيزيائية والجيولوجية لهذه الرواسب الهامة .

وتوجد رواسب الطين ذات القيمة الاقتصادية في الوقت الحاضر في المواقع التالية : **(انظر الخريطة رقم ١)** :



خريطة جغرافية لرواسب الطين الاقتصادية بالمملكة العربية السعودية.

١ ـ رواسب الصلصال بخشم راضي بمنطقة الرياض.

٢ ـ رواسب اللايترايت في جبال السروات بمنطقة عسير.

٣ ـ رواسب الطين بمتكون الليدام بالمنطقة الشرقية.

٤ ـ رواسب الطين بمنطقة ينبع البحر.

٥ ـ رواسب الطين والصلصال بمتكون مرات، منطقة الرياض.

رواسب الصلصال بخشم راضي :

يعد موقع خشم راضي حوالي ٤٥ كيلو مترًا شرق مدينة الخرج ويتميز موقع خشم راضي بوجود متكوني الوسيع والعرمة بشكل ظاهر وجيد . توجد ثلاثة آفاق من رواسب الصلصال في متكون الوسيع ، ويمكن الرجوع إلى باورز ومجموعته (٤) لمعرفة جيولوجية موقع خشم راضي . وقد قام الباحث فيوجي من البعثة اليابانية بدراسة جيولوجية مفصلة لرواسب الصلصال بخشم راضي .

ونتيجة لهذه الدراسة قسم فيوجي (٥) رواسب الصلصال بخشم راضي إلى خمس طبقات كالتالي :

١ ـ الصلصال الأبيض .

٢ ـ الصلصال الأبيض والذي يحتوي على رمل دقيق الحبيبات .

٣ ـ الصلصال الرقائقي الرمادي .

٤ ـ حجر رملي دقيق غريني أبيض رمادي .

٥ ـ صلصال أبيض رمادي مع حجر رمل غريني دقيق الحبيبات .

قام الباحث الياباني فيوجي بتحليل عينات الصلصال بواسطة حيود الأشعة السينية X-RAY DIFFRACTION وقد استخدم أنبوبة إشعاع نحاسية مع فلتر من النيكل .

عُرضت عينات الصلصال المواجهة نسبيًا للأشعة السينيةمن ٢° إلى ٤٠° 2 Θ عند معدل يبلغ (٢° 2 Θ) في الدقيقة . وقد أثبتت نتائج التحليل الاشعاعي بواسطة حيود الأشعة السينية أن الصلصال الأبيض هو عبارة عن صلصال أوكاولين نقي . وتدل الدراسة الإشعاعية أن إنعكــاس **المستويات البللورية هـ ك ل** (**hkl**) ما بين درجات [٢٠° إلى ٢٢° 2 Θ] هي انعكاسات منفصلة بشكل واضح جدًا ، مما يدل على أن هذا المعدن هو معدن **الكاولينايت Kaolinite** المنتظم من الناحية البللورية . أما طبقات الصلصال الأخرى فهي

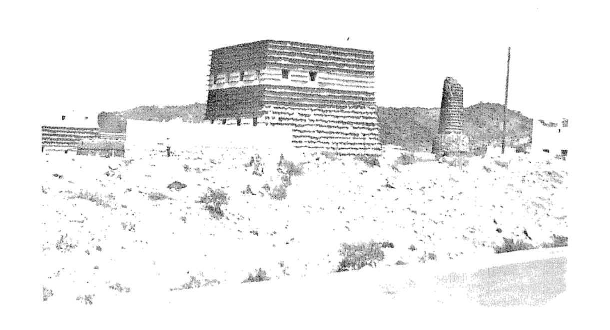
تتكون من معدن الكاولينايت والكوارتز مع كمية قليلة من المعادن الأخرى مثل **السيدرايت والفلسبار**. وحيث أن انعكاسات المستويات البللورية هـ ك ل (**hkl**) ما بين درجات [**٢٠° إلى ٢٢°**] غير موجودة ، فإن هذا يدل على معدن الكاولينايت في طبقات الصلصال الأخرى من النوع الغير منتظم بللوريًا .

وقد قام الباحث الهيثي ومجموعته[٦] وهم من جامعة الملك سعود بفحص عينات الصلصال من موقع خشم راضي وذلك لدراستها من الناحية الفيزيائية . وقد أثبتت دراستهم التي اعتمدوا فيها على حيود الأشعة السينية بأن العينات الصلصالية تتأثر بالحرارة تأثرًا واضحًا . فعند فحص العينات التي سخنت لدرجة **٦٠٠° مئوية** قبل تعريضها للأشعة السنية ، وجد أن هذه العينات تبدي خطوطًا مميزة لمعدن لا ـ كوارتز ، وعند درجة **١٠٠٠° مئوية** تعطي خطوطًا لا ـ الومينا **و** β ـ كريستوبالايت ، وخطوطًا أوضح من مادة **الملايت** وعند درجة ١٤٠٠° مئوية فإن خطوط **الملايت و** β **ـ كريستوبلايت** قد أزيحت .

أما الباحث مشرف[٧] وهو أيضًا من **جامعة الملك سعود** فقد خلل عينات الطين والطين الصفحي من مكونات البويب والبياض والوسيع والتي تشمل موقع خشم راضي (انظر الشكل رقم ٢) . وقد دلت الدراسة التي استخدم فيها حيود الأشعة السينية أن معدن الكاولينايت هو المعدن الرئيسي في رواسب الصلصال بمتكوني البياض والوسيع مع كمية قليلة من **معادن الإلايت والمونتوريللونايت** .

٢ ـ رواسب اللاتيرايت بمنطقة عسير :

تقع رواسب **اللاتيرايت** ذات الألوان المختلفة ، والتي تتراوح ألوانها مابين الأحمر والأصفر والأبيض تحت صخور البازلت في جبال السرات **بمنطقة عسير في جنوب غرب المملكة العربية السعودية ما بين خطي عرض ١٧° و٤٥° ، ١٨° و٢٠َ شمالاً ، وخطي طول ٤٣° و٣٠َ شرقًا ، وتغطي رواسب اللايترايت مساحة تقدر بحوالي ١٠٠٠ كم٢ . وتوجد معادن الصلصال كمكون رئيسي لرواسب اللايترايت في جبال السرات بمنطقة عسير. وقد درست رواسب اللايترايت**



صورة رقم (١)

منظر لبعض المساكن الطينية في المنطقة الجنوبية من المملكة العربية السعودية . انظر أيضًا برج المراقبة المتداعي أو الحصن الذي كان يستخدم لتخزين الحبوب وغيرها ولأغراض الحرب . لاحظ التناسق المعماري لهذه المساكن ، ووجود الرقف الذي يحمي هذه البيوت من شدة الأمطار في ذلك الجزء من المملكة العربية السعودية .

بواسطة التحليل الحراري التفاضلي **Differential Thermal Analysis** **بالإضافة إلى التحليل** بواسطة حيود الأشعة السينية . وقد قام بهذه الدراسة الباحث أوفر ستريت ومجموعته[٨] من البعثة الجيولوجية الأمريكية .

إن نتائج التحاليل المختلفة عن رواسب اللايترايت تدل على أن مجموعة الكاولينايت هي المكون الرئيسي لرواسب اللايترايت ، كما أن معدن الكوارتز يوجد بكميات كبيرة في بعض العينات . أما معدن **المونتموريللونايت** فهو ذو تبللور غير واضح وغير منتظم . ويوجد معدن

الإلايت بكمية قليلة في قليل من العينات التي لم تتعرض للتعرية الشديدة .

٣ ـ رواسب الطين بمتكون الليدام . المنطقة الشرقية :

تقع رواسب الطين بمتكون **الليدام** ، جنوب غرب مدينة الدمام بالمنطقة الشرقية ، وتبعد حوالي ٧٠ كيلومترًا عنها . وقد لخص باورز ومجموعته(٩) جيولوجية المنطقة . وقد أثبت الحفر بمتكون الليدام أن هناك طبقتين من الطين يبلغ سمكها حوالي ثمانية أمتار ، وتنفصل الطبقتان عن بعضهما بطبقة من الحجر الرملي يبلغ سمكها من **١ ـ ٣ أمتار** وذلك لتغير السمك من مكان لآخر .

وقد أثبتت التحاليل بواسطة حيود الأشعة السينية تشابهًا كبيرًا في المعادن في طبقتي الطين المنفصلتين . وتتكون الرواسب الطينية هنا من معدن الإلايت كمعدن رئيسي بالإضافة إلى معدن **الكاولينايت** الإضافي ومعدني **الإلايت ـ سمكتايت** ، كما تحتوي هذه الرواسب الطينية على كمية أقل من معدن **الكوارتز والدولومايت**(١٠)

٤ ـ رواسب الطين بمنطقة ينبع البحر :

تقع رواسب الطين شمال مدينة ينبع البحر ، وتبعد حوالي سبعة كيلو مترات عنها . وتوجد هذه الرواسب على شرفة حصباوية والتي ترتفع حوالي ستة أمتار فوق السهل الرملي المحيط بها . وتُغطى رواسب الطين بطبقة من الرسوبيات في الوادي .

وتظهر تحاليل حيود الأشعة السينية أن رواسب الطين تتكون من معدني المونتموريللونايت والكاولينايت بالإضافة إلى كمية قليلة من معادن **الإلايت والكورايت والكوارتز**(١١) . وتدل التحاليل الحرارية التفاضلية على أن معظم الرواسب الطينية في منطقة ينبع البحر تتكون من معدن المونتموريللونايت والذي يتميز بإعطاء كمية كبيرة من الماء ما بين درجتي حرارة ٨٠ و٢٠٠° مئوية ، كما يتميز بفقدان ماء التلور خلال التفاعل الاندوثيرمي عند حوالي درجة **٥٣٠°**

مئوية . كما تبين التحاليل الحرارية التفاضلية **DTA** وجود معدن الإلالايت مع بعض أكاسيد الحديد . ولا توجد أي آثار مميزة لمعدن **الكاولينايت** .

٥ ـ رواسب الطين بمرات . منطقة الرياض :

يتميز متكون مرات الأوسط (**العصر الجوراسي السفلي**) بأنه يتكون من الأحجار الرملية والطينية ذات اللون الأحمر الداكن . ويوجد أقصى سمك للأحجار الطينية عند قرية مرات وما حولها ، حيث يكون السمك هناك حوالي **٥٧ مترًا** (**انظر الصورة رقم ٤**) . **وتبعد قرية مرات حوالي مائتي كيلو مترًا غرب مدينة الرياض** . أما جيولوجية المنطقة فيمكن معرفتها بالرجوع إلى باورز ومجموعته(١٢) . والأشعة(١٣) (انظر خريطة رقم ٣) . وفي **مدينة مرات** يمكن ملاحظة طبقات الطين الصلصالية التي يمكن استغلالها لصناعة منتجات الصلصال للبناء واستخراج الألومينا ، كما يتضح هذا من تقرير لورينت والحبشي ، ويمكن أن يصل الاحتياطي لهذه الرواسب حوالي **١٠٠٠ مليون طن**(١٤) .

ويعتقد عابد(١٥) بأن الطبقات الحمراء التي تتميز بها الرواسب الطينية الصلصالية في متكون مرات قد نتجت عن عملية لترتة **Laterization** كاملة أو جزئية في منطقة استوائية رطبة . وعلى هذا فإنه أمكن بعملية الترتة للأجسام الجرانيتية بالدرع العربية إلى الغرب من **قرية مرات** أن تنتج تربة اللايترايت التي تكونت حول وفي داخل **البحر التوآرسي Toarcian Sea بالعصر الجوراسي** .

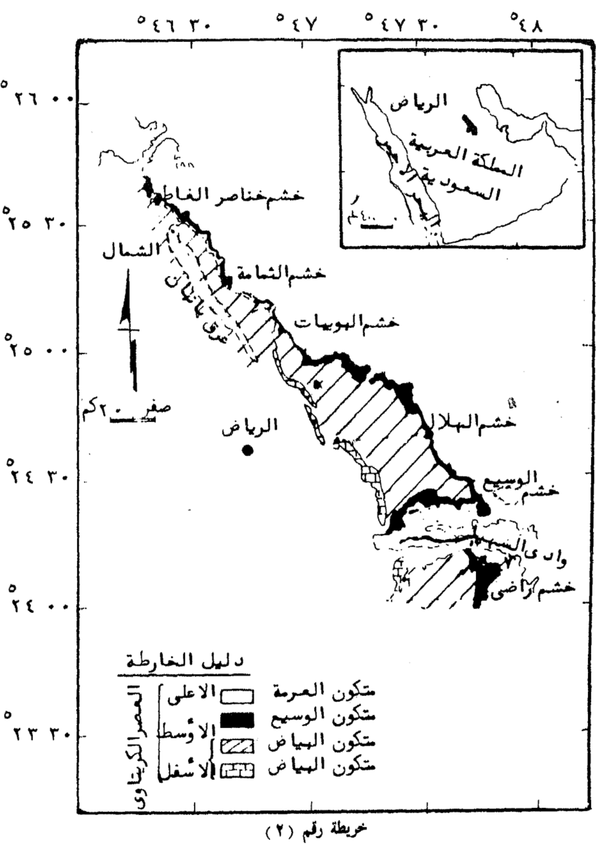
ويقوم كاتب هذا المقال بدراسة رواسب الطين الصلصالية بمتكون مرات من النواحي المعدنية والجيوكيميائية لمعرفة المميزات المعدنية والجيوكيميائية لهذه الرواسب . وقد دلت النتائج الأولية لتحاليل حيود الأشعةالسينية . انظر الجدول رقم ١ والتحاليل الحرارية التفاضلية أن رواسب الصلصال في متكون مرات تتكون من معدن الكاولينايت كمعدن رئيسي مع كمية قليلة من معدني الإلايت/ مونتمور يللونايت كطبقات متداخلة ، بالإضافة إلى **معدني الكوارتز والهيماتايت**(١٦) .



صورة رقم (٢) منزل طيني قديم في حي الفوطة بالرياض . لاحظ تناسق البنيان المعماري . ولاحظ أيضًا وجود شق رأسي في المبنى الطيني نتيجة لتقادم العهد وللتجوية الفيزيائية .

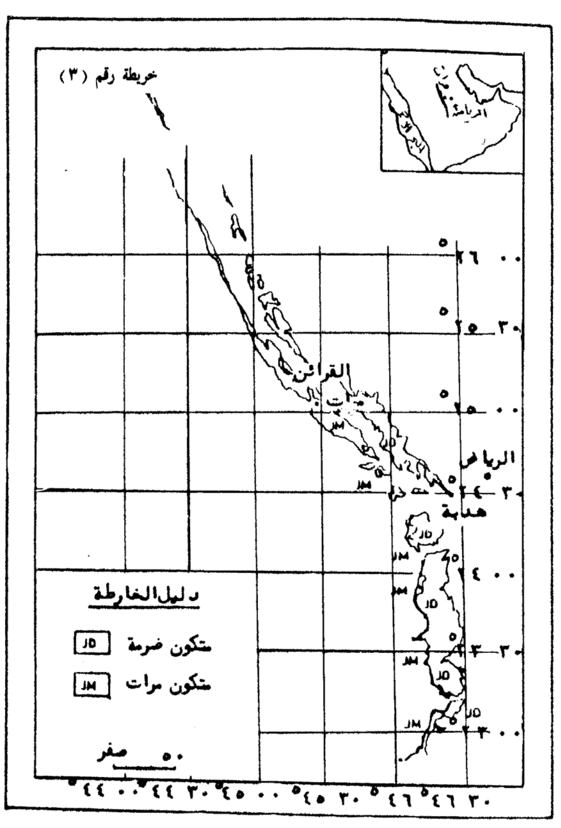
• الاستنتاجات :

يتضح من هذا المقال أن أهم الرواسب الطينية الاقتصادية توجد في خمسة مواقع في الوقت الحاضر ، وربما يُكتشف في المستقبل المنظور المزيد من هذه الرواسب الاقتصادية في مواقع أخرى من المملكة العربية السعودية .



خريطة رقم (٢)

خريطة جغرافية وجيولوجية لرواسب الطين الصلصالية بخشم راضي مع المتكونات الجيولوجية المختلفة (معدلة عن مشرف ، ١٩٧٩ م) .



خريطة جغرافية وجيولوجية لمتكوني مرات وضرمة. وتوجد معظم رواسب الطين الاقتصادية في متكون مرات (معدلة عن الاسعد، ١٩٧٣م).

والواقع أن إنشاء صناعة الخزف واستخراج مادة الالومينا وتطور البحث العلمي في الجامعات والمعاهد سوف يدعم الأبحاث التطبيقية لرواسب الطين الصلصالية بالمملكة العربية السعودية . وتقوم البعثة الفرنسية للدراسات الجيولوجية والمعدنية بدراسة الرواسب الطينية الصلصالية من الناحية الصناعية في مناطق مختلفة من المملكة .

إن الرواسب الطينية الصلصالية بالمملكة لازالت تنتظر كثيرًا من الدراسات المختلفة لاكتشاف كمياتها وأحجامها بالتحديد وامتداداتها الجيولوجية وحجم الاحتياطي منها والقيمة الاقتصادية لها . وهناك بعض المواقع في مناطق مختلفة من الدرع العربية تنتظر مزيدًا من الدراسات لاستغلالها .



«صورة رقم ٣»

• آثار منازل طينية بمدينة الدرعية الأثرية •

أما الأبحاث المختلفة عن الرواسب الطينية وبخاصة **التربة Soil** من أجل الأغراض الزراعية والهندسية ، فإن هناك أبحاثًا على مناطق مختلفة من المملكة مثل منطقة القصيم والمنطقة الشرقية والمنطقة الجنوبية . ويقوم بهذه الأبحاث سعوديون متخصصون من الجامعات والمعاهد المختلفة .

إن مستقبل صناعة الخزف واستخراج مادة الألومينا لإنتاج الالومنيوم سيكون مستقبلاً مزدهرًا في المملكة العربية السعودية من حيث الاكتفاء الذاتي ، وسوف تنتج المملكة ما يكفيها من هذا الخام لاستخدامه في صناعة الخزف وغيره من الصناعات التي تعتمد على هذه الرواسب الهامة .



«صورة رقم ٤»

• الصورة تمثل جزءًا من جبل الكميت في مواجهة مدينة مرات ، ويتمثل في هذا الجبل الجزء الأوسط من متكون مرات . ويمكن ملاحظة رواسب الطين الصلصالية ذات اللون الأحمر البني •

حيود الأشعة السينية لعينة مواجهة
من الطين الصلصالي بمتكون مرات (مدينة مرات)

القيمة رقم	2Θ	Θ	$\sin\Theta$	المسافات بين السطوح الذرية بالانجستروم $\mathring{A}$
١	١٠,٣	٥,١٥	,٠٨٩٧	٩,٩٧
٢	١٣,٨	٦,٩	,١٢٠١	٧,٤
٣	١٤,٥	٧,٢٥	,١٢٦١	٧,١
٤	٢٣,٤	١١,٧	,٢٠٢٧	٤,٤١
٥	٢٤,٤	١٢,٢	,٢١١٣	٤,٢٣
٦	٢٥,١	١٢,٥٥	,٢١٧٢	٤,١٢
٧	٢٧,٥	١٣,٧٥	,٢٣٧٦	٣,٧٦
٨	٢٩,٢	١٤,٦	,٢٥٢	٣,٥٥
٩	٣١,٤	١٥,٧	,٢٧٠٦	٣,٣١
١٠	٣٤,٣	١٧,١٥	,٢٩٤٨	٣,٠٣

1. **Grim, R. E., 1962.** Applied Clay Mineralogy, New York, Mc Graw-Hill.
2. **Grim, R. E., 1968.** Clay Mineralogy, New York, Mc Graw-Hill.
3. **Fares, M., 1981.** Kaolin Deposits in the Arab World, Arab Mining Journal, Vol. 1, No. 3, 1981.
4. **Powers, R. W., Ramirez, L. F., Redmond, C. D., and Elgerg, Jr., 1966.** Geology of the Arabian Peninsula, Sedimentary Geology of Saudi Arabia: U. S. Geol. Survey Prof. Paper 570-D, 147 pp.
5. **Fujii, N., 1977.** Kaolin Clay Deposits, Khasm Radi Area, Wasia Quadrangle, Kingdom of Saudi Arabia. TR-1977-11, Jeddah, 26 pp.
6. **El-Hiti, A. S., Issa, M. A., and Elboragy, M. H., 1978.** X-ray Identification of Saudi Arabian Clay. Dirassat, J. Coll. Education, Riyadh Univ., 2nd Issue, pp. 65-69.
7. **Moshrif, M. A., 1979.** Depositional Environments of Buwaib-Biyad -Wasia Rocks Deduced by X-ray Diffraction Analysis. J. Fac. Sci., Riyadh Univ., Vol. 10, pp. 123-141.
8. **Overstreet, W. C., Stoeser, D. B., Overstreet, E. F., and Goudarzi, G. H., 1977.** Tertiary Laterite of the As Sarat Mountain, Asir Province, Saudi Arabia, Bulletin No. 21, DGNR, Jeddah, 30 pp.
9. **See Reference No. 4.**
10. **Roger, J. and Al Habshi, A., 1977.** Al Lidam Clay Deposit, Drilling and Test for Structural Clay Products, BRGM, 77 Jeddah 37, 20 pp.
11. **Elkholy, M., 1977.** Yanbu Construction and Industrial Materials, Geological Study, Tr 1977-1, Jeddah, 61 pp.
12. **See Reference No. 4.**
13. **Ass'ad, G. M., 1973.** Biostratigraphical Studies on Jurassic Rocks at Marrat City and Adjacent Areas, Saudi Arabia. M. Sc. Thesis, Ain Shams University, Cairo (Unpublished).
14. **Laurent, D. and Al Habshi, A., 1976.** Durma-Marrat Clay-Shale Deposit and its Economic Potential : BRGM, Open-File Report, 76 JED-21, Jeddah.
15. **Abed, A. M., 1979.** Lower Jurassic lateritic Redbeds from Central Abrabia. Sedimentary Geology, Vol. 24, pp. 149-156.
16. **Almohandis, A., 1983.** Mineralogical Study of the Marrat Clay Deposit. (In Preparation).

في المكتبات

الأستاذ عبد الله حمد الحقيل

في كل أمة عنوان وعيها ودليل رقيها وتطورها، كما أنها مقياس لتقدم تلك البلاد ونهوضها؛إذ هي من أهم ركائز المعرفة ودعامات العلم فهي زاد لاينضب تتحف القارئ والباحث والطالب والمعلم ورواد العلم والآداب والفنون بروافد ثرة وينابيع متدفقة من الفوائد والمعارف والعلوم .. ولقد أتيح لي خلال وجودي في لندن زيارة مكتبة المتحف البريطاني وهي من أكبر المكتبات في العالم وأحفلها ولها من الشهرة والمكانة ما هو معروف لدى الباحثين والدارسين . وعند الباب الداخلي وجدت خارطة توضح أقسام المتحف المتعددة، وعند الدخول إلى المكتبة يحتاج الإنسان إلى المرور بمكتب الأمن العام لتعبئة بعض النماذج والأوراق وذلك للحصول على بطاقة تعطيك حق الدخول إلى المكتبة مع تحديد للأيام التي تحتاج إليها في ارتياد المكتبة .

مكتبة المتحف



ولقد رأيت العديد من رجال العلم والمعرفة والباحثين والدارسين قد جاءوا من مختلف البلدان وشتى الجامعات ومراكز البحوث وغيرهم من الطلاب الذين يعدون الرسائل العلمية ..

وفي هذه المكتبة تشاهد أصنافًا شتى من الناس وبعد استكمال إجراءات الدخول وزعوا علينا مجموعة من النشرات تحمل بعض الملاحظات للقراء والزائرين عن كيفية استخدام غرف القراءة وقاعة المكتبة والتنظيمات التي تحكم السلوك داخل الغرف وكيفية الحصول على الكتب وطريقة إعادتها في نهاية اليوم. وفي حالة الرغبة في الاحتفاظ بالكتاب في اليوم الثاني لابد من كتابة الاسم على ورقة صغيرة موجودة مع الكتاب حتى تتمكن من الحصول عليه غدًا بيسر وسهولة، ومتى أراد القارئ حجز كتاب لليوم التالي فلابد من إعطاء الاسم ورقم المقعد حتى يصل إليه الكتاب .. **أما الوثائق والخرائط والمخطوطات فيوجد لها دليل خاص. وللحصول على ما يريد الباحث لابد من الاستعانة بأحد المرشدين في المكتبة. أما المراجع العلمية فهي موجودة بجوار المقصورات المعزولة صوتيًا في داخل المكتبة.**

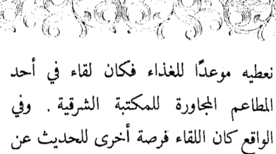
أما القراء الذين يرغبون في استخدام المايكروفيلم أو المايكروفيشات أو المايكروكارد فإن عليهم أن يتقدموا بطلباتهم إلى الموظف المختص بقاعة المكتبة ومن ثم يقدم ما يطلبه القارئ بسرعة وسهولة ..

وفي هذه المكتبة تتم الخدمات الاعلامية باستخدام الكمبيوتر فيمكن للقارئ الحصول على المعلومات التي يحتاجها من معرفة بقوائم الكتب أو الحصول على مقالات وبحوث حول موضوعات معينة ..

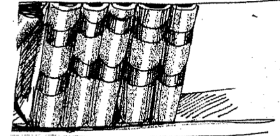
كل ذلك يتم بطريقة معينة عن طريق الحاسب الإليكتروني ، وفي مقابل بعض الرسوم لتلك الخدمات.

وفي قاعة المطالعة شاهدت مئات المجلدات التي تشتمل على قوائم الكتب المقيدة لدى المكتبة وهي مرتبة ترتيبًا أبجديًا تحت رءوس موضوعات . ولقد لاحظت أن أغلبها منذ عام ١٨٨١ م إلى ١٩٦٠ أما الكتب الأخرى فهي مدونة على شريط في الفترة من عام ١٩٦١ م إلى ١٩٧٥ م كما يوجد شريط يحتوي على جميع الكتب والمراجع التي اقتنتها المكتبة منذ عام ١٩٧١ م إلى ١٩٧٥ م .

وخلال زيارتي للمتحف توجهت لزيارة القسم الشرقي من مكتبة المتحف وهناك التقيت بمدير القسم العربي الدكتور ياسين الصفدي فأخبرته برغبتي في الاطلاع على قوائم الكتب العربية المطبوعة والموجودة لديهم وكذا المخطوطات العربية فيسر لي الاطلاع على بعض الكتب والمخطوطات . ولقد اطلعت على فهرس الكتب العربية الموجودة في المتحف.. ثم تحدثنا عن الكتب العربية والمؤلفات والمخطوطات وعن الاستشراق والمستشرقين ودورهم في نشر التراث واطلعت على بعض المخطوطات ومن ذلك كتاب لأحد المستشرقين بعنوان «يوميات من ينبع إلى القطيف» وهذا الكتاب في طريقه لأحد الناشرين في الكويت ، وأبى كرم الأستاذ الصفدي إلا أن



نعطيه موعدًا للغذاء فكان لقاء في أحد المطاعم المجاورة للمكتبة الشرقية . وفي الواقع كان اللقاء فرصة أخرى للحديث عن المكتبة العربية والمخطوطات وعن جهود الناشرين لكتب التراث وعن المكتبة الشرقية



وما تقدمه من تسهيلات للباحث ، وتحدثت عن أهمية العناية بهذه المخطوطات ووضع فهارس شاملة لها وتوزيعها على المهتمين بذلك ونشر دراسات وافية عن نوادر المخطوطات ..

إن القسم العربي في المكتبة يحتوي على أكثر من مائتي ألف مطبوع وحوالي عشرة آلاف مخطوط وغير ذلك من الوثائق .

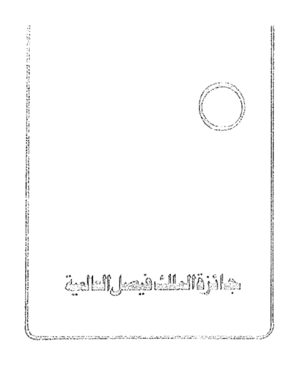
ورغم الساعات الطويلة التي أمضيتها في رحاب المتحف البريطاني وقاعاته المختلفة التي تحتوي على بعض الآثار والمقتنيات الشرقية والرومانية وكذا بعض الرسوم الفنية فلم أتمكن من مشاهدة ورؤية الكثير مما يشتمل عليه المتحف .. وخرجت وأنا أحمل شتى الانطباعات وأجمل الذكريات وهي جديرة أن تذكر في سجل أوائل المكتبات ..



إعـــداد

الأستاذ مصطفى .أمين جـاهين

هـذا الباب
ننشر فيه كل جديد من الآداب والعلوم والفنون
نحن في هذا الباب معكم وبكم
وهو لذلك منكم وإليكم





شرّف جلالة الملك فهد بن عبد العزيز المفدى، مساء الثلاثاء ١٦ من جمادى الأولى ١٤٠٣ هـ الموافق أول مارس ١٩٨٣ م، الحفل الكبير الذي أقامته الأمانة العامة لهيئة جائزة الملك فيصل العالمية، بقاعة الملك فيصل بالرياض حيث تم توزيع الجوائز على الفائزين بالجائزة هذا العام.

وقد حضر الحفل صاحب السمو الملكي الأمير **سلطان بن عبد العزيز** النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران، وصاحب السمو الملكي الأمير **سطام بن عبد العزيز** نائب أمير منطقة الرياض، وصاحب السمو الملكي الأمير **خالد الفيصل** مدير عام مؤسسة الملك فيصل الخيرية ورئيس هيئة الجائزة، وعدد كبير من الأمراء ومعالي الوزراء، وكبار المسئولين، وبعض الشخصيات العربية والإسلامية.

وتفضل جلالته بتقليد «**جائزة خدمة الإسلام**» مناصفة لكل من:

- **فضيلة الشيخ/ حسنين محمد مخلوف «مصر».**
- **معالي السيد/ تانكو عبد الرحمن «ماليزيا».**

كما تفضل جلالته بتقليد كل من:

- **فضيلة الشيخ الدكتور/ محمد عبد الخالق عضيمة «مصر»** «جائزة الدراسات الإسلامية».
- **الأستاذ الدكتور/ شوقي ضيف «مصر» «جائزة الأدب العربي».**
- **الأستاذ الدكتور/ والاس بيترز «انجلترا» «جائزة الطب».**

وقد تجلت رسالة الجائزة في أهدافها الآتية:

١ ـ العمل على خدمة الإسلام والمسلمين في المجالات الفكرية والعلمية والعملية.
٢ ـ تحقيق النفع العام للمسلمين في حاضرهم ومستقبلهم والتقدم بهم نحو ميادين الحضارة للمشاركة فيها.
٣ ـ الإسهام في تقدم البشرية وإثراء الفكر الإنساني.
٤ ـ تأصيل المثل والقيم الإسلامية في الحياة الاجتماعية وإبرازها للعالم.

ولذلك جاءت الجائزة تمد يدها للعاملين من المصلحين الصالحين، ومن العلماء والمفكرين لتشاركهم في مسيرتهم في كل ما يعود على البشرية بالازدهار والنماء.

منذ أن ظهرت الحضارات الإنسانية على وجه الأرض وعُمان مكان التقائها وتمازجها ، لأنها تقوم على الطرق التجارية بين الشرق والغرب ، وأفريقيا والهند .

وقد التقت تأثيرات بلاد ما بين النهرين وإيران واليمن وفينيقيا جميعاً في الماضي البعيد لتشكل الأمة العمانية ، وقد جعل البحر لتاريخ عمان طابعاً خاصاً وتأثيراً على حياة الناس،التجار والبحارة والمكتشفين والمدافعين عن الإسلام والعزة العربية ضد الاعتداءات المتكررة من الخارج .



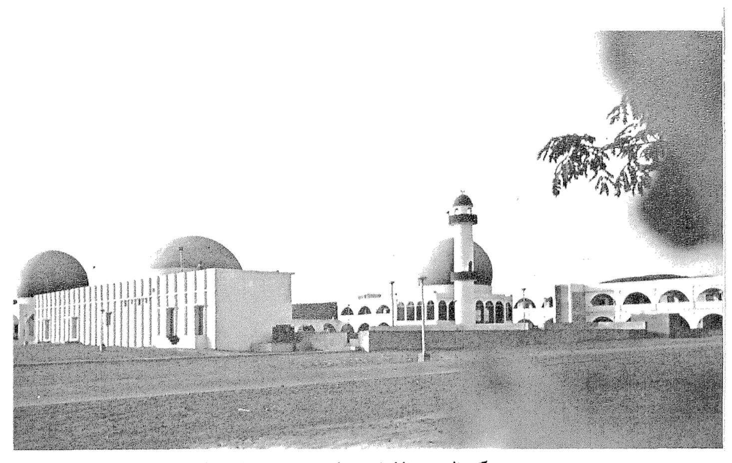
ماغان :

ما يزال الغموض يكتنف تحديد منطقتين من المناطق القديمة وهما «**ماغان** ، **وبونت**» ، إلا أنه من المحتمل أن عُمان هي منطقة «**ماغان**» المذكورة في الألواح السومرية . كما أن «**بهك**» كانت قديماً عاصمة لعمان ، لها أسوار تمتد سبعة أميال وتحف بأراض تشبه الوركاء ، دولة المدينة التي ينتمي إليها البطل السومري «**جيلجاميش**» .

اقترنت «**ماغان**» دائماً في الألواح السومرية بدولتين أخريين وهما «**دلمون** ، **وملوحة**» ، وكانت الأولى منهما أقرب إلى بلاد ما بين النهرين ، والأخرى أبعدهما عنها ، ولقد أصبح معروفاً الآن أن «**دلمون**» هي «**البحرين**» ، أما ملوحة فلعلها كانت تقع على الساحل الغربي لشبه القارة الهندية في منطقة السند ووادي السند ، أو كانت على الأقل في الألفين الثاني والثالث قبل الميلاد ، ولكنها أصبحت تعنى بلاد النوبة أو ساحل أفريقيا الشرقي في الألف الأول قبل الميلاد ، وتقع ماغان في مكان ما بين هاتين المنطقتين ، وتعنى كلمة «**ماغان**» في اللغة السومرية القوم الذين يركبون البحر ، فقد خصت السجلات السومرية بالذكر عام **٢٠٥٠ ق.م**. بنائي السفن من «**الماغان**» ، وكانت مركزاً تجارياً هاماً لتوزيع بضائع كل من آسيا وأفريقيا مثلما كانت «**عُمان**» في فترات كثيرة من تاريخها ، وأن بحارة «**ماغان**» ذوي الخبرة الواسعة يشبهون إلى حد كبير العثمانيين الذين أبحروا فيما بعد ، قاطعين طريقاً طويلاً حتى وصلوا إلى الصين ، وفتحوا ساحل أفريقيا الشرقي للتجارة .

العرب الأوائل :

تتردد أساطير كثيرة عن الفترة بين عصر ما قبل التاريخ الذي كشفت عنه الحفريات حتى الآن والتاريخ المدون ، ويذكر النسابون العرب أن أول من سكن شبه الجزيرة العربية هم العرب العاربة ، ويتداول العرب حكايات عن الأبطال القدماء ذوي القامات الضخمة ، شأنهم في ذلك شأن معظم الأمم الأخرى .



• مركز الشئون الإسلامية في الوطية بسلطنة عمان •

ولعل دوائر الحجارة الضخمة الموجودة في مناطق مختلفة في عمان ترجع إلى تلك الأيام الأسطورية ، وأشهر هؤلاء الأبطال «**عاد**» الذي كان يعيش حسب القول المشهور ، في منطقة الكثبان الرملية بين «**عُمان وحضرموت**» ، و«**ثمود**» موجودة حتى الأزمنة الكلاسيكية ، وترد إشارات صريحة لها في كتابات بعض المؤلفين من أمثال «**سترابو**» ، كما أطلق اسما بطلتين شقيقتين وهما «**طسم ، وجديس**» على قبيلتين من القبائل العربية ، وقد استقر أحفادهما في منطقة «**البريمي**» . ومن القبائل القديمة التي أطلقت أسماؤها على بعض الأماكن في عمان قبيلة «**صحار**» ، التي ورد أنها كانت تسكن الباطنة ، و«**أوبال**» أو «**وبال**» التي يوجد مكانان مسميان باسمها أحدهما في «**وادي بني رواحة**» ، والآخر قرب «**الرستاق**» ، و« **باهلة**» التي أطلق اسمها على مدينة «**بهلا**» ، و«**عك**» التي أطلق اسمها على «**وادي عك**» . وتذكر إحدى الروايات

أن «**سام بن نوح**» عليه السلام ، سكن المناطق الممتدة من الحجاز حتى عُمان ، وأن حفيده «**سهيل**» هو الذي أنشأ مدينة «**صحار**» ، وتتحدث الروايات القبلية كذلك عن الصلات القديمة بين عمان والمملكة الحميرية في جنوب الجزيرة واليمن ، ومن هذه الروايات رواية تذكر أن ملكة سبأ في جنوب الجزيرة قد حكمت المنطقة .

الاسلام :

ما لبثت دعوة محمد بن عبدالله صلوات الله عليه وسلامه ، أن أحدثت أثرها على مجرى الأحداث في عُمان وعلى مستقبلها كله ؛ ففي حوالي السنة التاسعة الهجرية «**٦٣٠م**» وصل «**عمرو بن العاص**» إلى عمان حاملاً رسالة إلى عبد وجيفر ابني الجلند بن مستنصر ، اللذين كانا يحكمان معاً المنطقة العربية من عمان ، ولم يلبث العمانيون أن اعتنقوا الدين الجديد وتأصلت العقيدة الإسلامية في وقت قصير بينهم .

البرتغاليون :

منذ فجر الإسلام والعرب يتحكمون في تجارة الشرق التي تعود بالأرباح الوفيرة ، وذلك على الرغم من النزاعات الداخلية : فقد كان البحارة والتجار العرب يحتكرون تجارة التوابل ، غير أن البرتغاليين نجحوا في إنهاء هذا الاحتكار .

وفي عام «**١٥٠٦ م** انطلق «**الفونسو دا البوكيرك**» إلى الشرق كنائب للملك «**مانسيل**» على الهند ، وكان له مطامع شخصية في تأسيس امبراطورية عظيمة في المشرق ، فبعد استيلائه على «**سوكوتا**» وجعلها قاعدة لحصار البحر الأحمر ، سعى إلى الاستيلاء على «**هرمز**» التي كانت تسيطر على نصيب الأسد من تجارة الخليج ، وقد ظل البرتغاليون مدة تقرب من مائة عام يتمتعون بالسيادة العليا على الخليج والمحيط الهندي ، رغم مواجهتهم تحديات كبيرة من خصومهم .

الدول الأوربية الأخرى :

تبع الهولنديون البرتغاليين في البحث عن كنوز الشرق وثرواته بأن أرسلوا أول بعثة هولندية عام «**١٠٠٣ هـ**» «**١٥٩٤م**» ، وكانت للبريطانيين والفرنسيين أطماع مماثلة .

زنجبار :

أعاد السيد سعيد بن سلطان إلى الحياة الاهتمام العماني القديم بشرق أفريقيا ، ولعل صلات عمان مع زنجبار تعود إلى العهود الغابرة ، وقد علق «**ابن بطوطة**» على استيطان العمانيين هناك في القرن الرابع عشر الميلادي .

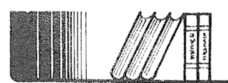
وهكذا توالى السلاطين حكم البلد ما بين حروب أهلية وخلافات ، وتدخل أجنبي في الشئون الداخلية ، ثم الثورة التي اشتعلت في «ظفار» عام ١٣٨٤ هـ «١٩٦٥ م» فكانت النتيجة الحتمية أحداث عام «١٣٩٠ هـ» «١٩٧٠م» وتولى السلطان قابوس الحكم .

وتعتبر عمان من أكثر بلاد العالم تنوعاً في التضاريس ، فهي بلاد تجمع المتناقضات ؛ فترى فيها المرتفعات الصخرية في جبال «حجار» ، والرمال الجرداء في الربع الخالي ، وتلال ظفار التي تصبح خضراء بعد هطول الأمطار الموسمية ، ثم السهول المنبسطة المترامية ، ثم ترى المنحدرات الصخرية الشاهقة في الجنوب ، والقرى الأنيقة التي تقوم في وديان قاحلة ، وتقوم على مقربة منها مزارع النخيل .

ولعمان كذلك خط ساحلي يمتد عدة مئات من الأميال يتفاوت بين الشطآن الرملية المنبسطة والمنافذ الصخرية عند «مسندم ومسقط». وفي هذه البلاد الجميلة يعيش الناس ، وتعيش الحيوانات البرية الكثيرة المتعددة جنباً إلى جنب في انسجام رائع .



مئذنة مسجد
مسقط بسلطنة عمان



كتب حديثة

المملكة العربية السعودية

النفوذ البرتغالي في الخليج العربي

في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي

نوال حمزه يوسف الصيرفي

بحث نالت به درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

الرياض
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

٣١ - مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز

يحتوي هذا البحث على مقدمة وأربعة فصول وخاتمة؛ احتوت المقدمة على دراسة نقدية لأهم المصادر التي اعتمد عليها البحث.

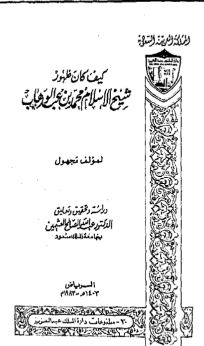
ففي الفصل الأول تتناول الباحثة فيه دراسة «الخليج العربي قبل النفوذ البرتغالي».

وفي **الفصل الثاني** تقدم دراسة مستفيضة عن «كشف طريق رأس الرجاء الصالح ووصول البرتغاليين إلى الهند والخليج العربي».

وفي **الفصل الثالث** عالجت الباحثة عدة نقاط عن «النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري وموقف العثمانيين والصفويين».

أما الفصل الرابع فقد تضمن «نتائج النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري» حيث ألقت الباحثة الضوء على حملات البرتغاليين في جنوب شبه الجزيرة العربية ومدخل البحر الأحمر وتوغلهم حتى جدة...

وفي **خاتمة** البحث ناقشت الباحثة أهم النتائج التي تم التوصل إليها والتي أثارت انتباه بعض القوى الأوربية لثروات وخيرات الشرق وأهمية موقع الخليج العربي كمعبر لتجارة الشرق.

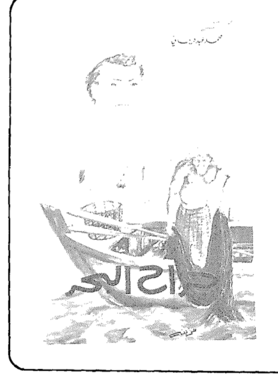


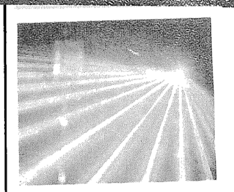
قيمة هذا الكتاب الذي تقوم الدارة بنشره، والذي لا يزال مؤلفه مجهولاً، نابعة من كونه قد ألف قبل تاريخي ابن بشر، والفاخري، لأن الفترة الزمنية التي تناولتها أحداثه لا تمتد إلا بعد عام ١٢١٨هـ، بسنوات قليلة.

وهذه المخطوطة تقع في تسعة وثلاثين فصلاً بذل محققها جهداً كبيراً في دراستها وتحقيقها والتعليق عليها، وكيف عالجها بالمنهج العلمي للتحقيق.

تضم هذه المجموعة القصصية «٥ قصص» بقلم معالي الدكتور محمد عبده يماني وزير الإعلام؛ فالمجموعة تصوير فني للواقع، والفنية فيها تقوم على الإبداع في اختيار شرائح من الواقع، وبلورتها وصياغتها بصورة تحقق الهدف الذي يسعى إليه المؤلف

وقد ساهم الكاتب في قصصه الخمس من زاوية البيئة السعودية بما فيها من خصائص متميزة، قد لا نجدها في بيئات أو مجتمعات أخرى.





تكنولوجيا
أشعة الليزر

هي حزمة من الأشعة الضوئية المكثفة تكثيفًا شديدًا جدًا بحيث تبدو كخط رفيع ،وقد أصبحت أداة لا غنى عنها في شتى الميادين .

وأصل كلمة «**الليزر**» إنجليزية ، إذ أن كلمة «LASER» تتكون من الحروف الأولى لكلمات هذه العبارة التي تصف طريقة عمل هذا الشعاع ، وقد ظهر الليزر في أواخر عام ١٩٦٠ م على يد عالم الفيزياء الأمريكي «**تيودور هـ . ميمان**» الذي بنى جهازًا لذلك الشعاع استعان فيه بنتائج الأبحاث التي قام بها «**تشارلز هـ. تاونز**» .

ولقد تطورت تكنولوجيا الليزر تطورًا سريعًا وتزايد استخدام هذه الأشعة في الصناعة والطب والعلوم .. ولا يزال المستقبل أمامها مليئًا بالامكانيات العظيمة التي لم تخطر ببال أحد حتى مؤلفي روايات الخيال العلمي .

التصوير الفضائي

في عام ١٩٦٥ م، بدأت «ناسا» بتنفيذ «**برنامج مسح موارد الأرض**» بقصد التقاط صور لسطح الأرض مرات متعددة متتالية من نقطة واحدة معينة في الفضاء .. لذا أطلق أول قمر صناعي عام **١٩٧٢ م**، وكانت النتيجة كشفًا غير متوقع ، فقد بدت الأرض من مسافة **٥٠٠ ميل** في الفضاء رائعة غنية بوفرة ألوانها وتعرجات قشرتها.

ومن هذه اللقطات الفضائية صورة للربع الخالي الذي يغطي مساحة تبلغ ربع مليون ميل مربع تقريبًا في جنوب **المملكة العربية السعودية**، كما أنه من أشق الصحاري في العالم وأعمرها ، ولا يقوى على الحياة فيه غير القليل من النباتات والحيوانات ، وكذلك لا توجد فيه أماكن مأهولة بصورة دائمة.



●● أول ...

★ ان «**الجهشياري**» كتب أول مسودة في منتصف القرن العاشر في العراق لما سمي بعد ذلك بكتاب «**ألف ليلة وليلة**»، عن أصل فارسي قديم يسمى «**هزار أفسانة**» أي «ألف حكاية» ترجع الى أصل هندي، وقد أضاف حكايات أخرى نقلها عن بعض القصاص من مواطنيه؟.

★ ان اليابان تحتل المرتبة الأولى في العالم في مجال صناعة السفن، إذ يقدر حجم إنتاجها بأكثر من ثلث الانتاج العالمي؟.

★ أول الأمراء على مصر كان «**عمرو بن العاص**» لمدة أربع سنوات.

★ كان «**عتاب بن أسيد**» أول الأمراء على «مكة المكرمة» حيث ولاه الرسول ﷺ حين خرج الى حجة الوداع.

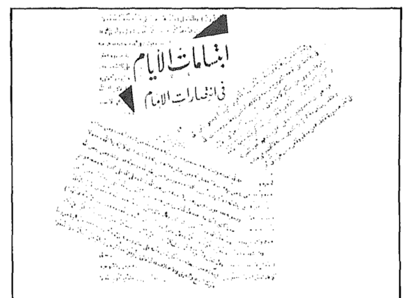
★ «**أسعد الحميري**» أحد ملوك اليمن، أول من كسا الكعبة في الجاهلية، كما قام بعمل باب لها.

●● أقدم ...

★ أقدم جريدة اسمها «**تشينغ باو**» وهي جريدة صينية ظهرت عام ٤٠٠م، وتوقفت عن الصدور عام ١٩٣٤م.

حـــول

رسالة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى أهل المغرب



تعقيب الأستاذ محمد بن عبد الله الحميدان

تعجُبي

كتابات (أبو تراب الظاهري) وتعمقه في الحديث واللغة و(ألفاظه) اللغوية .. ولذا بادرت بشراء كتابيه (كبوات اليراع) و(لجام الأقلام) اللذين صدرا مؤخراً عن (تهامة).

وقد اطلعت ـ متأخراً ـ على بعض أعداد ـ فاتني الاطلاع عليها من قبل ـ من مجلة (دارة الملك عبد العزيز). وكان مما اطلعت عليه العدد الأول من السنة السابعة شوال ١٤٠١هـ واستوقفتني رسالة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى أهل المغرب التي وجدها الشيخ أبو تراب مخطوطة بالخزانة الملكية بالرباط ، وذكر أنها نشرت ناقصة في كتاب (الدرر السنية في الأجوبة النجدية) ، وفي سلسلة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي نشرتها جامعة الإمام محمد بن سعود..

وحيث أن مجلة (الدارة) تولت مقارنة المخطوطة بما نشرته الجامعة فلم تجد فيه نقصاً .. فقد قمت من جانبي بمقارنة نص الرسالة مع ما نشر في كتاب (الدرر السنية) فوجدت أن نص ما نشر في الكتاب أوفى من نص المخطوطة بعكس ما زعمه أبو تراب (عفا الله عنه). وهاك ـ أيها القارئ ـ بيان ذلك:

١ ـ في السطر الخامس من الصفحة الأولى جاء (**ونعوذ بالله من شر الفسقاء**) والذي في (**الدرر**) هو (**ونعوذ بالله من شرور أنفسنا**) وهذا أقرب للصواب لأنه هو التعبير السائد في رسائل علماء الدعوة..

٢ ـ جملة (**وصلى الله على سيدنا محمد**) جاءت في (**الدرر**) (**وصلى الله على محمد وآله**

وصبحه وسلم).

٣ ـ في الآية الكريمة (**قل هذه سبيلي** ...» جاء (**ومن اتبعني**) بالياء . ولعل زيادة الياء من المطبعة.

٤ ـ في السطر **١٦** من نفس الصفحة (وأمرنا بلزوم ما أنزل عليه) وبعد كلمة (أنزل) زيادة عما في (**الدرر**) هي (**إلينا في ربنا وترك البدع والتفرق والاختلاف فقال تعالى «اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكّرون**»..

٥ ـ في الحديث (**حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه** ..) جاءت تكملته في (**الدرر**) قالوا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟

٦ ـ في السطر **٢١** (**أنه ستفرق أمته ثلاثاً وسبعين**) في الكتاب (**أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين**).

٧ ـ في السطر الذي يليه (**من كان مثل ما أنا عليه**) في الدرر (**من كان على مثل ما أنا عليه**).

٨ ـ في السطر **٢٣** (**فمعلوم ما جئتم به من حوادث الأمور**) في الدرر (**فمعلوم ما عمت به البلوى من حوادث الأمور**).

٩ ـ في السطر **٢٤** (**أعظمت الإشراك بالله**) في الدرر (**أعظمها الإشراك بالله**).

١٠ ـ في السطر **٢٦** (**بالزيارة**) وفي الدرر (**بالنذور**) و(**القربات**) بالتاء في الدرر (**القربان**) بالنون. (**الاستعانة**) في الدرر (**الاستغاثة**).

١١ ـ في السطر **٢٩** (**أغنى الأغنياء**) في الدرر (**أغنى الشركاء**).

١٢ ـ بعد الكلمة الأخيرة (**خالصا**) في السطر نفسه جاء في (**الدرر**): «كما قال تعالى (**فاعبد الله مخلصا له الدين، ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذبٌ كفّار**) فأخبر سبحانه أنه لا يرضى في الدين إلا ما كان خالصا..».

١٣ ـ في السطر الأخير من هذه الصفحة وهي رقم **٧** جاءت كلمة (**ليقربهم**) وفي الدرر (**ليقربوهم**) بصيغة الجمع.

١٤ ـ في السطر الخامس من الصفحة الثامنة جاءت كلمة (**بوسم الشفاعة**) وفي الدرر (**يسألهم الشفاعة**) وفي نفس السطر (**وأشرك به**) وفي الدرر (**وأشرك بهم**) وفي السطر نفسه أيضاً (**وإذا كانت الشفاعة كلها لله**) صحتها كما جاءت في الدرر: (**وذلك أن الشفاعة كلها لله**).

١٥ ـ الآية (**مَنْ ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه**) سبقت في الدرر بـ(**كما قال تعالى**).

١٦ ـ في السطر التاسع في نفس الصفحة زيادة في الدرر هي: «..(**ولا يشفعون إلا لمن ارتضى**) وقال تعالى (**قل ادعو الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له**) فالشفاعة حق ولا تطلب في دار الدنيا إلا من الله تعالى .. كما قال تعالى...» وهذه الزيادة قبل الآية (**وأن المساجد لله**).

١٧ ـ في السطر **١٣** (**لا يشفع إلا بإذنه**) في الدرر (**لا يشفع إلا بإذن الله**).

١٨ ـ في السطر الذي يليه جاء (**فيحمد إنعامه بمحامد نعمه أياما فيقول له**) الجملة وردت في (**الدرر**) هكذا (**فيحمده بمحامد يعلمه إياها ثم يقال**) وهذا هو الأصح.

١٩ ـ في السطر الذي بعده وبعد (**ارفع رأسك**) جاء في الدرر (**وقل يُسمع**).

٢٠ ـ جاءت كلمة (**حدائد**) في السطر **١٥** بينما هي في الدرر (حداً).

٢١ ـ جاءت هذه الجملة في السطر **١٦** (**لا يخالف فيه أحد من المسلمين .. قد أجمع**) وفي الدرر جاءت (**لا يخالف فيه أحد من علماء المسلمين، بل قد أجمع**).

٢٢ ـ في السطر **٢٠** (**الصدقة**) تقابلها في الدرر كلمة (**السدنة**).

٢٣ ـ في السطر **٢٤** (**حمى حماية الدين**) هذه لم ترد في الدرر.

٢٤ ـ في السطر الذي يليه (**ووسم كل طريق**) في الدرر (**وسد كل طريق**).

٢٥ ـ في السطر **٢٦** (**من طريق جابر**) في الدرر (**من حديث جابر**) و(**تثبت فيه لفظ أنه بعث**) جاءت في الدرر (**وثبت فيه أيضاً أنه بعث**).

٢٦ ـ في السطر **٢٧** (**ولا عاليا إلا طمسة**) في الدرر (**ولا تمثالا إلا طمسه**).

٢٧ ـ في السطر الأخير من هذه الصفحة (**ممثلين قوله**) وفي الدرر (**ممتثلين لقوله**).

٢٨ ـ في السطر الأول من الصفحة التاسعة (**وتعالى**) وفي الدرر (**سبحانه وتعالى**).
٢٩ ـ في السطر الثاني من هذه الصفحة (**دعونا بالسيف**) وفي الدرر (**قاتلناه بالسيف**).
٣٠ ـ في السطر الرابع من الصفحة نفسها (**وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد .. إلى إقام الصلاة**) وفي الدرر (**وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز**) وندعو الناس إلى إقام الصلاة في الجماعات على الوجه المشروع.
٣١ ـ في السطر السابع (**فهذا الذي نعتقده**) وفي الدرر (**فهذا هو الذي نعتقده**).
٣٢ ـ في السطر الثامن (**فمن عمل ذلك**) وفي الدرر (**فمن عمل بذلك**).
٣٣ ـ خاتمة الرسالة في الدرر (**وصلى الله على محمد**).

هناك اختلاف طفيف في كلمات أو تركيبات لم أتطرق إليه. وجامع الدرر السنية هو الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وليس ابن عاصم كما ذكر أبو تراب ولعله سبق قلم .. ومرفق صورة (**فوتوغرافية**) للرسالة كما جاءت في الدرر السنية .. والسلام عليكم.

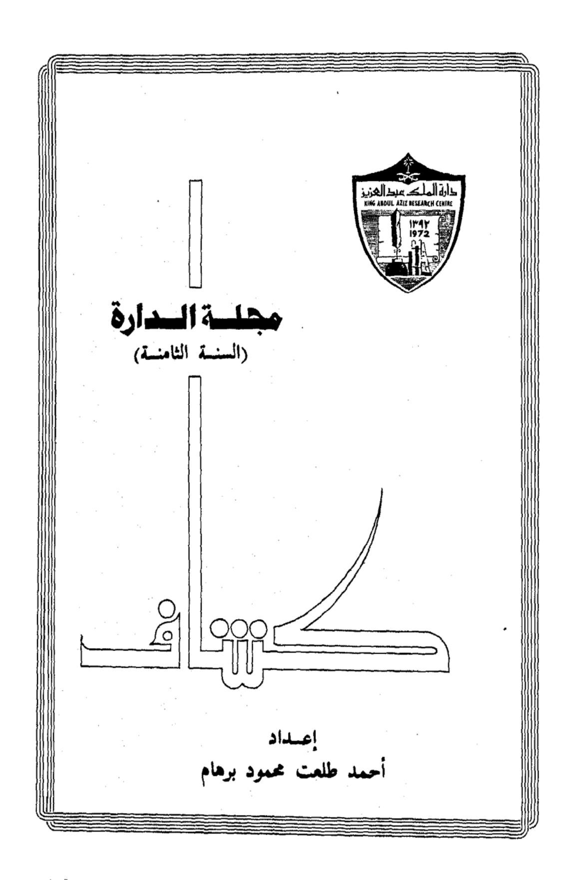
حول قصيدة ابن بليهد :

كما نشرت مجلة (الدارة) قصيدة محمد بن بليهد التي مطلعها :

لنجلك السعد قبل اليوم مشهود ... وفي لواء أطيد العز معقود

وهي التي نشرت في جريدة أم القرى.

أقول .. إن هذه القصيدة نشرت ضمن قصائد ديوان الشيخ ابن بليهد (ابتسامات الأيام في انتصارات الإمام) صفحة ٢١٥ وهذا الديوان طبع قبل عام ١٣٦٧ هـ وصفحاته ٣٦٣ ومرفق صورة من غلاف الديوان ومن القصيدة منشورة فيه ..


دارة الملك عبد العزيز
KING ABDUL AZIZ RESEARCH CENTRE
١٣٩٢
1972
مجلة الدارة
(السنة الثامنة)
كشاف
إعداد
أحمد طلعت محمود برهام

ينقسم الكشاف إلى قسمين .. في القسم الأول منه فهرس المقالات؛ ويشتمل على البيانات الببليوجرافية للمقالات المنشورة في أعداد المجلة الأربعة للسنة الثامنة. وقد صنفت المقالات حسب موضوعاتها تحت رءوس موضوعات محددة، ورتبت هجائيًا تحت كل موضوع وفقًا للعنوان، يليه اسم الكاتب، ثم رقم العدد الذي نشر فيه وتاريخه وأرقام الصفحات. وقد أعطيت أرقام مسلسلة للمقالات داخل هذا القسم. وفيما يلي بيان هذه الموضوعات وأرقام المقالات الداخلة تحتها:

• الاجتماع	١ ـ ٦	• الدين	٤٦ ـ ٤٩
• الأدب العربي	٧، ٨	• الشعر العربي	٥٠ ـ ٥٣
• الأنساب	٩، ١٠	• عرض ونقد الكتب	٥٤، ٥٥
• التاريخ	١١ ـ ٢١	• العلوم	٥٦ ـ ٥٩
• التراجم	٢٢ ـ ٢٩	• العلوم العسكرية	٦٠
• الجغرافيا والرحلات	٣٠ ـ ٣٨	• اللغة العربية	٦١ ـ ٦٤
• الدارة	٣٩ ـ ٤٣	• المؤتمرات والندوات	٦٥ ـ ٦٨
• دراسة الخطوط	٤٤، ٤٥		

أما القسم الثاني، فيشتمل على كشاف عام للعنوان والمؤلف والموضوع في ترتيب هجائي واحد؛ وقد اتبعت فيه قاعدة قلب الاسم بالنسبة لأسماء المؤلفين. وهذا الكشاف يدل الباحث على الرقم المسلسل للمقال المطلوب، فيسهل عليه الوصول إلى بياناته في القسم الأول.

هذا وقد استخدمت بعض الرموز اختصارًا في البيانات .. وفيما يلي مدلولاتها:

ع : عدد المجلة.

ص : الصفحة.

ص ص : من صفحة ـ إلى صفحة.

= : انظر.

أولاً — فهرس المقالات

الاجتماع:

(١) **الترويح والمجتمع**/ أبو بكر باقادر — ع٣ (ربيع الثاني ١٤٠٣هـ: يناير ١٩٨٣م). ص ص ٣٨ — ٤٨.

(٢) **السلوك الإنساني والفهم العالمي**/ رسمية علي خليل — ع٣ (ربيع الثاني ١٤٠٣هـ: يناير ١٩٨٣) ص ص ١٩٢ — ١٩٨.

(٣) **السمات الديموغرافية للمجتمع السعودي، التركيب النوعي**/ محمد محمود السرياني — ع١ (شوال ١٤٠٢هـ: يوليو ١٩٨٢) ص ص ٢٠ — ٤٩.

(٤) **القبلية ونظرية الذوبان الاجتماعي**/ بكر عمر العمري — ع٣ (ربيع الثاني ١٤٠٣هـ: يناير ١٩٨٣م) ص ص ١٤٠ — ١٥٧.

(٥) **«الكشف والبيان في اجتماع مادتي الإنسان»**: مخطوط جديد للمرحوم علي مبارك باشا/ تحقيق سعيد زايد — ع٤ (رجب ١٤٠٣هـ: أبريل ١٩٨٣م) ص ص ١٣١ - ١٦١.

(٦) **مفهوم الترويح ونظرياته في المجتمعات الحضرية المعاصرة**/ اسحق يعقوب القطب — ع١ (شوال ١٤٠٢هـ: يوليو ١٩٨٢م) ص ص ٥٠ — ٧٤.

الأدب العربي:

(٧) **السرعة وبلاغة العمل الأدبي**/ فتحي عبد القادر فريد — ع١ (شوال ١٤٠٢هـ: يوليو ١٩٨٢م) ص ص ٢١٥ — ٢٢٤.

(٨) **من أدب الدعوة في الجنوب**/ محمد بن أحمد العقيلي — ع١ (شوال ١٤٠٢هـ: يوليو ١٩٨٢م) ص ص ١٥١ — ١٦٤.

الأنساب :

(٩) **علاقة عائلة الباز الكويتية بعائلة الباز السعودية (من رسائل القراء)..**/ رد رئيس التحرير على رسالة القارئ على فهد حمود الباز من الكويت — ع١ (شوال ١٤٠٢ هـ: يوليو ١٩٨٢ م) ص ٢٤١.

(١٠) **مع جهينة في مصر والسودان**/ ابراهيم محمد الفحام — ع٣ (ربيع الثاني ١٤٠٣ هـ: يناير ١٩٨٣ م) ص ص ٥٩ — ٧٣.

التاريخ :

(١١) **البحرين في التاريخ** (باب علوم وفنون)/ مصطفى أمين جاهين — ع٣ (ربيع الثاني ١٤٠٣ هـ: يناير ١٩٨٣ م) ص ص ٢١٦ — ٢١٨.

(١٢) **بداية الامتيازات الأمريكية في الشرق الأوسط**/ عبد العزيز عبد الغني ابراهيم — ع١ (شوال ١٤٠٢ هـ: يوليو ١٩٨٢ م) ص ص ٩١ — ١٠٦.

(١٣) **رد وتحقيق وتمحيص على وثيقة تاريخ حضرموت** المنشورة بمجلة الدارة العدد الثالث السنة السابعة/ سقاف على الكاف — ع٣ (ربيع الثاني ١٤٠٣ هـ: يناير ١٩٨٣ م) ص ص ١٧١ — ١٧٦.

(١٤) **الصراع حول البحر الأحمر منذ أقدم العصور حتى القرن الثامن عشر**/ يوسف فضل حسن. — ع٣ (ربيع الثاني ١٤٠٣ هـ: يناير ١٩٨٣ م) ص ص ١٠٣ — ١٢٨.

(١٥) **صفحات مشرقة من تراث الحضارة العربية والإسلامية؛ الأسطول الإسلامي**/ محمد محمد التهامي المليجي — ع٢ (محرم ١٤٠٣ هـ: أكتوبر ١٩٨٢ م) ص ص ٦٧ — ٨٩.

(١٦) **علاقة نجد بالشام في الفترة من ١١٥٧ إلى ١٢٢٥ هـ ... (٢)**/ عبدالله حمد الحقيل — ع١ (شوال ١٤٠٢ هـ: يوليو ١٩٨٢ م) ص ص ١٠٧ — ١١٤.

(١٧) **عُمان في التاريخ** (باب علوم وفنون)/ مصطفى أمين جاهين — ع٤ (رجب ١٤٠٣ هـ: ابريل ١٩٨٣ م) ص ٢٠٤

(١٨) **الفن الأندلسي**/ عبد العزيز بن عبد الله .. ع٤ (رجب ١٤٠٣ هـ، أبريل ١٩٨٣م) ص ص ١٠٠ — ١١٣.

(١٩) **نظر في التاريخ** (باب علوم وفنون) / مصطفى أمين جاهين — ع٢ (محرم ١٤٠٣هـ: أكتوبر ١٩٨٢م) ص ص ٢٤٢ — ٢٤٤.

(٢٠) **المرينيون في المغرب الإسلامي والعروبة في ضوء الدراسات الأنثروبولوجية**/ عبد الباقي على قصة — ع١ شوال ١٤٠٢هـ: يوليو ١٩٨٢م) ص ص ٢٢٥ — ٢٣٧.

(٢١) **الوثائق العثمانية بدير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء؛ دراسة تاريخية**/ محمد محمود السروجي — ع٢ (محرم ١٤٠٣هـ: أكتوبر ١٩٨٢م) ص ص ١٠٥ — ١٢٥.

التراجم :

(٢٢) **خالد بن عبد العزيز الملك الإنسان ١٣٣٣ — ١٤٠٢ هـ ١٩١٤ — ١٩٨٢ م** (التحرير) — ع١ (شوال ١٤٠٢ هـ: يوليو ١٩٨٢ م) ص ص ٤ — ٩.

(٢٣) **سيد أحمد خان (١٨١٧ — ١٨٩٨ م) والمصير السياسي لمسلمي الهند**/ خليل عبد الحميد عبد العال. ع٢ (محرم ١٤٠٣هـ: أكتوبر ١٩٨٢م) ص ص ١٩٠ — ٢٢٣.

(٢٤) **شمس الدين الذهبي**/ معالي عبد الحميد حمودة — ع٣ (ربيع الثاني ١٤٠٣هـ: يناير ١٩٨٣م) ص ص ٢٠٠ — ٢١٢.

(٢٥) **الشيخ حمد بن فارس**/ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ — ع١ (شوال ١٤٠٢هـ: يوليو ١٩٨٢ م) ص ١٢٨.

(٢٦) **في مناهج البحث العلمي : رأي في التفكير المنهجي عند عبد القاهر الجرجاني**/ أحمد حمدي الخولي .. ع٤ (رجب ١٤٠٣ هـ: أبريل ١٩٨٣ م) ص ص ٣٦ — ٥٠ .

(٢٧) **المحلل لعلم الطب على بن عباس الأهوازي**/ علي عبدالله الدفاع — ع٣ (ربيع الثاني ١٤٠٣هـ: يناير ١٩٨٣ م) ص ص ٢٤٢ — ٢٥٤.

(٢٨) **مشروع دليل الشخصيات المعاصرة في الخليج والجزيرة العربية** (باب علوم وفنون)/ مصطفى أمين جاهين — ع٣ (ربيع الثاني ١٤٠٣هـ: يناير ١٩٨٣ م) ص ٢٩.

(٢٩) **من مشاهير المسلمين: ابن حزم الأندلسي** (باب علوم وفنون)/ مصطفى أمين جاهين — ع٢ (محرم ١٤٠٣ هـ: أكتوبر ١٩٨٢ م) ص ص ٢٢٩ — ٢٣١.

الجغرافيا والرحلات :

(٣٠) **بجاية الجزائرية وربيبة القيروان وحاضرة المغرب العربي لثلاثة قرون**/ عبد الحليم عويس — ع٣ (ربيع الثاني ١٤٠٣هـ: يناير ١٩٨٣م) ص ص ١٥٨ — ١٧٠.

(٣١) **تعليق على دراسة الدكتورة نوال اسماعيل «التغير في المنطقة المركزية لمدينة الرياض»**/ عبدالله الصالح العثيمين — ع٣ (ربيع الثاني ١٤٠٣هـ: يناير ١٩٨٣م) ص ص ١٧٧ — ١٨٣.

(٣٢) **التغير في المنطقة المركزية لمدينة الرياض «المملكة العربية السعودية»**/ نوال محمد عبدالله اسماعيل — ع٢ (محرم ١٤٠٣هـ: أكتوبر ١٩٨٢م) ص ص ٦ — ٦٠.

(٣٣) **جزيرة تاروت بين الحاضر والغابر**/ علي ابراهيم الدرورة — ع٢ (محرم ١٤٠٣هـ: أكتوبر ١٩٨٢م) ص ص ١٧٨ — ١٨٩.

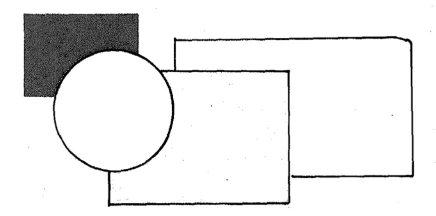
(٣٤) **الشمال والجنوب**/ أحمد محمد الحوفي — ع٣ (ربيع الثاني ١٤٠٣هـ: يناير ١٩٨٣م) ص ص ١٢٩ — ١٣٩.

(٣٥) **في مكتبة المتحف البريطاني**/ عبدالله حمد الحقيل — ع٤ (رجب ١٤٠٣هـ: أبريل ١٩٨٣م) ص ص ١٩٨ — ٢٠١.

(٣٦) **الجمعة بين الغابر والحاضر— تعقيب**/ عبدالله بن ادريس — ع١ (شوال ١٤٠٢هـ: يوليو ١٩٨٢م) ص ص ١٨٤ — ١٩٥.

(٣٧) **المعالم التاريخية لمدننا بين الذكرى والنسيان**/ عبدالله حمد الحقيل — ع٢ (محرم ١٤٠٣هـ: أكتوبر ١٩٨٢م) ص ص ٢٢٤ — ٢٢٨.

(٣٨) **منطقة حائل**/ إعداد عبد الرحمن سبيت السبيت، طه عثمان الفرا وعبد الرحمن سعود الهواوي — ع٣ (ربيع الثاني ١٤٠٣هـ: يناير ١٩٨٣م) ص ص ٧٤ — ١٠٢.



الدارة :

(٣٩) **افتتاحية العدد/** بقلم رئيس التحرير — ع١ (شوال ١٤٠٢ هـ: يوليو ١٩٨٢ م) ص ص ١٠ — ١١.

(٤٠) **افتتاحية العدد/** بقلم رئيس التحرير — ع٢ (محرم ١٤٠٣ هـ: أكتوبر ١٩٨٢ م) ص ص ٤ — ٥.

(٤١) **افتتاحية العدد/** بقلم رئيس التحرير — ع٣ (ربيع الثاني ١٤٠٣ هـ: يناير ١٩٨٣ م) ص ص ٤ —٥.

(٤٢) **افتتاحية العدد/** بقلم رئيس التحرير — ع٤ (رجب ١٤٠٣ هـ: ابريل ١٩٨٣ م) ص ص ٦ — ١١

(٤٣) **الأمير سلمان في زيارة الدارة** (باب علوم وفنون)/ مصطفى أمين جاهين — ع٢ (محرم ١٤٠٣ هـ: أكتوبر ١٩٨٢ م) ص ٢٣٦.

دراسة الخطوط :

(٤٤) **الأبجدية العربية — لمحة ونظرة/** أحمد شوقي النجار — ع٢ (محرم ١٤٠٣ هـ: أكتوبر ١٩٨٢ م) ص ص ١٥٨ — ١٧٧.

(٤٥) **دور أسلاف عرب شمال الجزيرة العربية في نشأة الخط المسند اليمني القديم/** عبد المنعم عبد الحليم سيد. — ع١ (شوال ١٤٠٢ هـ يوليو ١٩٨٢ م) ص ص ٢٠٣ — ٢١٤.

الدين :

(٤٦) **تصحيح وإيضاح عن مقال للدكتور محمد عمارة في مجلة «الهلال» بعنوان دعوات التجديد السلفية/** محمد كمال جمعة — ع٣ (ربيع الثاني ١٤٠٣ هـ: يناير ١٩٨٣ م) ص ص ١٨٤ — ١٩١.

(٤٦م) **حول رسالة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى أهل المغرب/** محمد بن عبد الله الحمدان. — ع٤ (رجب ١٤٠٣ هـ : أبريل ١٩٨٣ م) ص ص ٢١٤ — ٢١٨.

(٤٧) **الشاهد العدل في الشرع الإسلامي؛ دراسة تاريخية مع نشر وتحقيق أسجال عدالة من عصر سلاطين المماليك/** محمد محمد أمين — ع٢ (محرم ١٤٠٣ هـ: أكتوبر ١٩٨٢ م) ص ص ١٢٦ — ١٥٧.

(٤٨) **محمد بن عبد الوهاب ودعوته إلى التوحيد/** التهامي نقرة — ع٣ (ربيع الثاني ١٤٠٣ هـ: يناير ١٩٨٣ م) ص ص ٦ — ١٩.

(٤٩) **نشاط الإرسالية الأمريكية العربية للتبشير في شرقي الجزيرة العربية/** عبدالله ناصر السبيعي — ع١ (شوال ١٤٠٢ هـ: يوليو ١٩٨٢ م) ص ص ١٢٩ — ١٥٠.

الشعر العربي :

(٥٠) **الجزيرة العربية وماضيها التاريخي العربي والإسلامي والإنساني — شعر**/ عبد السلام هاشم حافظ — ع٢ (محرم ١٤٠٣هـ: أكتوبر ١٩٨٢م) ص ص ٦٢ — ٦٦.

(٥١) **الشعر والغناء في الشعر العربي**/ جعفر الخليلي — ع١ (شوال ١٤٠٢هـ: يوليو ١٩٨٢م) ص ص ١٩٦ — ٢٠٢.

(٥٢) **الغزل في شعر ابن المقرب**/ عبده عبد العزيز قلقيلة — ع١ (شوال ١٤٠٢هـ: يوليو ١٩٨٢م) ص ص ١١٥ — ١٢٧.

(٥٣) **من النظم التأريخي؛ أرجوزة أحمد بن علي بن دعيج** (١١٩٠ — ١٢٦٨هـ)/ محمد بن سعد الشويعر ع٤ (رجب ١٤٠٣هـ: أبريل ١٩٨٣م) ص ص ١٦٢— ١٧٩.

عرض ونقد الكتب:

(٥٤) **كتاب «العرب والمسرح»** تأليف محمد كمال الدين/ (عرض) عبد الرحمن شلش — ع١ (شوال ١٤٠٢هـ: يوليو ١٩٨٢م) ص ص ٢٤٨ — ٢٥٤.

(٥٥) **«المقتبس» لابن حيان الأندلسي**/ (عرض) محمد عبد الحميد عيسى — ع٣ (ربيع الثاني ١٤٠٣هـ: يناير ١٩٨٣م) ص ص ٤٩ — ٥٨.

العلـوم:

(٥٦) **الرواسب الطينية الاقتصادية بالمملكة العربية السعودية**/ أحمد عبد القادر المهندس — ع٤ (رجب ١٤٠٣هـ: ابريل ١٩٨٣م) ص ص ١٨٠— ١٩٧ .

(٥٧) **الطائرة العمودية «الهليكوبتر» (باب علوم وفنون)**/ مصطفى أمين جاهين — ع٢ (محرم ١٤٠٣هـ: اكتوبر ١٩٨٢م) ص ٢٤٥.

(٥٨) **الطب النفسي في التراث الإسلامي**/ عبد الرحمن محمد العيسوي — ع٢ (محرم ١٤٠٣هـ: أكتوبر ١٩٨٢م) ص ص ٩٠ — ١٠٤.

(٥٩) **مقدمة في الحاسبات الإلكترونية/** محمد إبراهيم رحمو ـــ ع٣ (ربيع الثاني ١٤٠٣ هـ: يناير ١٩٨٣ م) ص ص ٢٢٤ — ٢٤١.

العلوم العسكرية :

(٦٠) **الفن الحربي الإسلامي في فتح مكة/** محمد جمال الدين محفوظ ـــ ع٣ (ربيع الثاني ١٤٠٣ هـ: يناير ١٩٨٣ م) ص ص ٢٠ — ٣٧.

اللغة العربية :

(٦١) **دلالة ألفاظ القرآن الكريم عند ابن القيم/**عبد الفتاح لاشين السيد. ـ ع٤ (رجب ١٤٠٣ هـ: أبريل ١٩٨٣ م) ص ص ١٢ — ٣٥.

(٦٢) **الدلالة المعنوية في اللغة العربية بين الأصالة والمعاصرة/** أحمد عبد الرحيم السايح ـــ ع١ (شوال ١٤٠٢ هـ: يوليو ١٩٨٢ م) ص ص ٧٥ — ٩٠.

(٦٣) **العربية الفصحى لغة التعبير الإعلامي/** عبد العزيز محمد شرف ع١ (شوال ١٤٠٢ هـ: يوليو ١٩٨٢ م) ص ص ١٦٥ — ١٨٣.

(٦٤) **مصادر جلال الدين السيوطي في كتابه «المزهر في علوم اللغة وأنواعها/** رمضان عبد التواب ـــ ع٤ (رجب ١٤٠٣ هـ: ابريل ١٩٨٣ م) ص ص ١١٤ — ١٣٠.

المؤتمرات والندوات :

(٦٥) **حول توصيات الدورة السادسة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية** ـــ ع١ (شوال ١٤٠٢ هـ: يوليو ١٩٨٢ م) ص ص ١٢ — ١٩.

(٦٦) **حول مؤتمر الولايات العربية ومصادر وثائقها في العصر العثماني المنعقد بتونس من ١٣ إلى ١٨ سبتمبر ١٩٨٢ م/** عبد الجليل التميمي ـــ ع٤ (رجب ١٤٠٣ هـ: أبريل ١٩٨٣ م) ص ص ٥٢ — ٦٧

(٦٧) الدارة تشارك في المؤتمر الخامس للجنة العالمية للدراسات ما قبل العهد العثماني والفترة العثمانية (باب علوم وفنون)/ مصطفى أمين جاهين ــ ع٢ (محرم ١٤٠٣ هـ: أكتوبر ١٩٨٢ م) ص ص ٢٣٧ ــ ٢٣٩.

(٦٨) الدولة العثمانية والولايات العربية : بحث مقدم من دارة الملك عبد العزيز للاشتراك في المؤتمر الخامس للجنة العالمية للدراسات العثمانية.../ الصفصافي أحمد المرسي. ـ ع٤ (رجب ١٤٠٣هـ: أبريل ١٩٨٣م) ص ص ٦٨ ــ ٩٨.



ثانياً ــ الكشاف العام للمؤلفين والعناوين والموضوعات



The English Section



إلى ...
كتاب "الدارة" الكرام !!

ترجو مجلة الدارة من كتابها الكرام أن يبعثوا إليها بحوثهم وموضوعاتهم ومقالاتهم وقصائدهم باسم رئيس التحرير ص.ب / ٢٩٤٥
الرياض - المملكة العربية السعودية

١ - أن تكون مكتوبة بخط واضح أو مطبوعة على الآلة الكاتبة حتى تخرج سليمة من الأخطاء.
٢ - أن يزود المجلة بالصور والخرائط الأصلية أو الشرائح الملونة، - إذا احتاج البحث ذلك - حتى تخرج البحوث والموضوعات بصورة جيدة ترضي القراء.
٣ - ألا تزيد صفحات البحث الواحد عن عشرين صفحة للتنوع ونشر أكبر عدد ممكن من البحوث والموضوعات، وكذا ملخصاً للبحث في عشرة أسطر، وترجمتها إلى اللغة الإنجليزية - إن أمكن -
٤ - أن تزود المجلة بصورتين شمسيتين وبيانات عن حياة الكاتب العلمية. وذلك لمرة واحدة إذا كان الكاتب دائم الكتابة بالمجلة.
٥ - أن يكون عنوان وهاتف الكاتب واضحاً ومفصلاً للاتصال به عند اللزوم. ولإرسال مطبوعات الدارة
٦ - ألا يبعثوا بنسخة أخرى من البحث إلى مجلة أو جريدة أخرى.
٧ - البحث أو الموضوع أو المقال الذي يتم إجازته، يخطر كاتبه بذلك. أما البحث الذي لم يتم إجازته لا يرد له، ولكن يخطر أيضاً بذلك.
٨ - في حالة "عرض كتاب ما ..." نأمل تزويد المجلة بنسخة منه أو بصورة واضحة للغلاف.

من بحوث الأعداد القادمة

- الدلالة عند ابن جني.

د. عبد الكريم مجاهد عبد الرحمن

- الصورة الشعرية عند أبي دُؤاد الإيادي.

د. ابراهيم الضحيان

- اللغة العربية في أفريقيا.

الاستاذ محمد جلال عباس

- زرقاء اليمامة.

الاستاذ عبدالله السيد شرف

- المغول والوحدانية.

د. سعد حذيفه الغامدي

- جمال الدين الأفغاني ورأيه في التصوف.

د. علي عبد الحليم محمود

The present investigation attempts to summarize studies on the important clay deposits in the Kingdom of Saudi Arabia. The most important and economic clay deposits occur in the following areas :-

1. **The Khashm Radi area, Riyadh region.**

2. **The laterite of the As Sarat mountains, Asir region.**

3. **Al Lidam area, the Eastern region.**

4. **Yanbu Al Bahr area.**

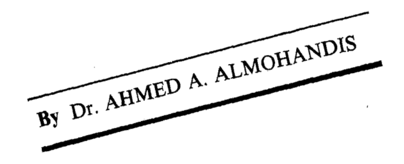
5. **The Marrat area, Riyadh region.**

X-ray diffraction technique was used to examine all the above clay deposits. Some clay samples were subjected also to other techniques such as differential thermal analysis.

Kaolinite is the major clay mineral in the Khashm Radi, As Sarat laterite and the Marrat areas, while the major clay mineral in the Al Lidam clay deposits is illite. The Yanbu Al Bahr clay deposits is composed mainly of montmorillonite and Kaolinite.

The establishment of the Saudi Ceramic Industry will support the scientific research,on Saudi Arabian clay deposits, to provide local resources for such industry. **Furthermore, the possible extraction of alumina from such deposits will encourage the economic exploitation to a large extent.**

ECONOMIC CLAY DEPOSITS IN SAUDI ARABIA: THEIR MINEROLOGICAL COMPOSITION AND GEOGRAPHIC DISTRIBUTION



Clay deposits are essentially a weathering products of the disintegration and chemical decomposition of igneous rocks and some types of metamorphic rocks. Clay is a natural material of very fine texture, usually plastic when wet, and hard and compact when dry. Clay consists mainly of fine mineral particles. It is believed that ancient Chinese people were the first to use white clay from near a high ridge of Kaoling in the Chinese language, and written now as Kaolin. **The ancient Middle East had realized the importance of clay materials. They used clay materials to make many types of articles, such as pots, bricks and lamps ... etc.**

Clays are of various types, including white clays, fire clays, and ball clay etc. Aluminium oxide and silica are the main constituents of clays which range in size downward from 0.002 mm (2 microns). Fineness of grain size and other physical properties result in stickiness as well as plasticity when wet. **These properties have been made use of in numerous cultural and industrial applications.**

A second point is that the pool of manpower is expanding. The number of secondary school graduates equalled 13,144 students in 1979-1980, this number will rise to 21,141 students by 1984-1985; for middle school graduates it was 32,274 in 1979-1980 and will rise to 47,926 by 1984-1985. Having said that shipping is one of the most important industries to Saudi Arabia, it requires only the recruitment of 1 to 1.5% of the graduates of the two levels per year. There is, I would say, no major industry with such a relatively low investment of manpower which could become so important to Saudi Arabia. In terms of capital investment in training, the cost per student would be $ 50,000. This is less than the training costs of several other professions in Saudi Arabia, all real costs having been taken into account.

6. Conclusion

In conclusion, then, conventional ways of education and training are not sufficient in themselves to meet the requirements of producing the indigenous human resources capable of controlling and operating technology during a period of ambitious development. Thus, they should be supplemented by creating an industry with the kind of special characteristics which may produce a high level of technological and managerial skill.

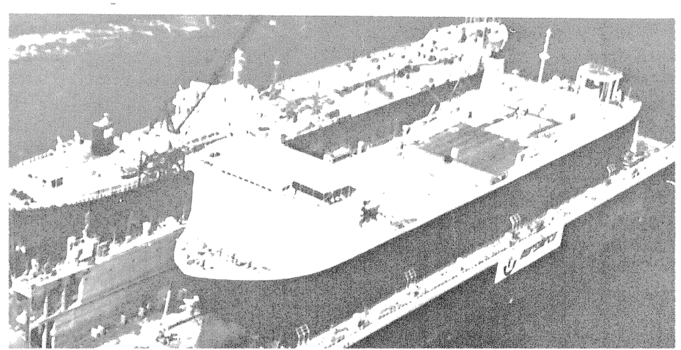
A comprehensive shipping industry could, for Saudi Arabia, play this rôle, and so aid the transfer of technology and the internalization of the industrial growth process. Saudi youth could be attracted to this if they are made aware of the importance of the maritime industry and the basis it provides for transfer of technological skills. This will require comprehensive planning.

It will take no more than thirty years to realise such internalization: only then will we see the establishment of Saudi Arabian national industries that are truly Saudi Arabian in character.

realistic to work towards *partial* occupation of (mainly) key positions?

In answer to this last point I would argue that Saudi Arabia must make the eventual target *full* Saudi complement, but this will take time to achieve. In the meantime, carefully selected foreign manpower must be engaged for duties on board ships, whilst a systematic 'Saudiization' of manpower is being planned. This is no great disadvantage, because foreign manpower on board Saudi ships does not cause many of the problems which are encountered with residential foreign workers on land projects.

Will it, however, be possible to find the required number of Saudis? The answer to this is (probably) 'yes'. But in order to achieve this we have to curtail any waste in using scarce native manpower. This aim is possible if preference and encouragement is given only to those industries which are of high national importance—defence, agriculture—industries which are connected directly with the essential survival of the nation. Shipping should come within this category as far as manpower allocation is concerned. It could be argued that only by avoiding the use of Saudi manpower in unnecessary projects will *real* Saudi industries emerge.



efforts. It is often more convenient to 'buy in' expertise, and to administer, rather than carry out, tasks and decisions.

A modern ship is a highly complex unit. it has advanced equipment, hazardous cargoes, is a difficult environment to cope with, and poses many managerial problems. Ship's officers have to learn self-reliance, discipline and co-operation. As 'sea-going' need not be more, these days, than a temporary phase in a seaman's life, when the seaman comes ashore to work, he can bring with him the values referred to above. It can be argued that, were this important economic unit (the Saudi merchant fleet) to be created, it would well form the basis for a desirable manpower development, one that is transferable to many other industries.

5. Manning A Saudi Arabian Fleet

Having discussed the size of the fleet and the importance of shipping, it is necessary to consider how to attract Saudi youth to shipping and how to 'Saudiize' a comprehensive shipping industry.

Most Saudi youth show at present little awareness of the sea. Nevertheless, the self-image of the individual youth is that he is courageous and does not fear being abroad—and away from his family—for long periods. This characteristic makes him suitable for a maritime career. But several problems exist.

A Saudi youth at present has little desire to follow what appears to be a difficult, and virtually unknown, career on board a ship when he has the opportunity of a more comfortable (and more predictable) occupation in many other fields on land, mainly in administration and commerce. It must also be decided whether the idea of full Saudi complements on ships, and complete occupation of posts on land by Saudis, is really feasible. Would it not be more

that can, even in the case of the oil exports reduction to the level of 3 million a day, still remain within, more or less, about the 40% of the shipping which could be allocated for the producers to carry on their own vessels.

It is suggested as a realiable objective, one which meets such criteria as these, that Saudi Arabia should aim for the establishment of a tanker fleet of 12,500,000 dwt. This capacity is represented by 50 tankers of the standard size we have used in this discussion of 250,000 dwt. We will, for simplicity, call this fleet the 'model tanker fleet'.

In the case of dry cargo, the numbers of ships will inevitably be larger than that of the tanker fleet due to the smaller size of vessel. The supporting activities normally required by a general cargo fleet are also greater. Large numbers of shipping agencies are already established in Saudi Arabia which serve the general cargo fleet. All these factors indicate that a fleet of more than 100 ships can be safely acquired. But for the sake of simplicity I will concentrate on the model tanker fleet of 50 standard tankers, since we know for sure that the well-organized development of a tanker fleet will, by necessity, *support* and *strengthen* the development of the general cargo fleet. It should be remembered, however, that, according to the *Venture* agreement of the United Arab Shipping Company, there is an upper limit of 120,000 dwt for a national general cargo fleet.

4. Shipping In the Transfer of Technology

One of the main problems in fully and satisfactorily transferring technology into the 'hearts, minds and hands' of the people, is the lack of incentive displayed by them to make the necessary

investigating whether it is feasible for empty Saudi tankers to bring fresh water on their return voyages to Saudi Arabia. New tankers could be built in conformity with the IMCO regulations (MARPOL 1973) requiring segregated ballast tanks, that were specifically designed for the dual purpose of carrying oil outwards and fresh water in their return. The importance of this water facility should not be under-estimated; if such a method of bringing water is found feasible, one could argue that Saudi vessels should be used in order to minimize the risk of political pressure. Until such time comes when better methods of supplying Saudi Arabia with fresh water are found, perhaps by cheaper desalination from the sea, this idea should not be discounted.

The required capacity of a Saudi fleet is not, of course, determined mechanically by formula; rather, it is the capacity that most assists in the internalization of the country's industrial growth process. The following criteria may be used:

- **(i) Secure a 'continuous shipping activity'. Saudi Arabia will continue to have shipping as one of the major elements in her economy for the forseeable future.**
- **(ii) Ensure it is large enough to generate and plough back expertise and know-how. A wide variety of commercial and industrial activities are possible, as well as other sectors of shipping (liners, bulk etc.), ports, administration, the off-shore industry, fishing, research and development.**
- **(iii) Ensure it is large enough to justify forward linkages. Examples are freight forwarding, agencies, broking, repairs, tank cleaning, and so on.**
- **(iv) Give flexibility to shipping activities in case of possible reduction on oil exports to the level of 3 million barrels a day. The shipping capacity should be within a flexible level**

from collapse. Clearly Saudi Arabia should view the tanker market as potentially vital (and therefore profitable) for many reasons.

3. Shipping is A Leading Sector

It might be argued by the non-shipping (or 'stay-out-of-shipping') proponents that, as long as Saudi Arabia still has a comparatively long period of producing and exporting large amounts of oil, and especially if more reserves are discovered (as is likely), the strategy should be to wait for a much longer period—if at all—before considering any large scale shipping scheme. Leaving aside the main value of shipping for technology transfer, the answer to this question can be summarized as follows:

(a) Shipping is required not simply for itself, but because of the benefits it ploughs back to the whole industrialization and economic development process. It has numerous forward and backward linkages.

(b) The time is opportune for ship acquisition. The world shipping industry is suffering from a lack of orders and it is much cheaper to build new ships than previously.

(c) Saudi Arabia has many of the important elements that can contribute to a successful shipping industry beyond one dependent on oil exporting, since she is now exploring her other mineral wealth. Deposits of iron ore, phosphate and other minerals are continuously being discovered and so form an additional basis for a bulk shipping sector.

The amounts of imports Saudi Arabia generates is also of a great magnitude. Many of these imports are associated with the development plans. New industries like aluminium rely on importing raw materials from countries such as Brazil. This could justify the utilization of OBO type ships carrying crude oil outwards and ore inwards. Saudi Arabia also needs water; it could be worth

Such reasoning is, in fact, very much in line philosophically with the government strategy which has in mind a greater emphasis on the tasks of 'internalizing' the Saudi economy. This internalization cannot, of course, rely on oil projects alone, which depend, inevitably, on the availability of abundant oil. Tanker shipping is, of course, dependent in some senses, but will, even at a very low export rate of 3,000,000 barrels per day, maintain its continuity and play the rôle envisaged for it in the development process. It will also constitute the basis of a future shipping industry by transferring tanker fleet management and technical skills to other sectors of shipping—bulk, ferry, passenger, liner, fishing—and the development of many new raw material conversion industries reliant on home and imported raw materials and overseas markets.

The tanker market will, in the course of time, become attractive to Saudi investors. While it is not particularly attractive to the private investor at present, it will not remain depressed. It can be confidently asserted that the period of market slump is a temporary one, although it is, admittedly taking a very long time to recover. This optimism is based on the fact that the world economy will have to adjust in this sector to allow an adequate rate of profitability to this industry in the coming years. If this does not happen, the whole tanker industry, especially the independent sector, may collapse, since tanker owners cannot afford to continue operating at great losses for an indefinite period of time. Without any doubt, the recovery will come; but it will be at the expense of some owners who will in turn have to scrap vessels, or convert their tankers to other uses, so that the market can regain its balance. This is an absolute necessity, because the tanker business is not just essential for the tanker owner, but for the world markets, which must somehow react to contribute to save this important industry

It should be noted that Saudi Arabia will be entitled morally, and according to an almost acceptable international code of 40 : 40 : 20, to an allocation of dry cargo to Saudi flag ships : this may also be ultimately applicable to hydrocarbons. If we were, for simplicity, to limit our argument merely to the entitlement of oil, then we could say that Saudi Arabia can acquire a fleet of a total capacity of around 25,400,000 dwt, or 138 tankers of the standard size mentioned above as a maximum. In practice, of course, should Saudi Arabia adopt such a formula, the actual number of tankers would differ according to the size of the tankers which she chooses to acquire to suit her purposes, overseas markets and port conditions.

A newly built fleet of such a magnitude would cost at current (1981) prices over seven billion US dollars. If it were to be acquired from the existing idle world fleet, and that is the most likely way to proceed for a large portion of the capacity, it would cost around four billion dollars. Saudi Arabia can clearly handle an investment of such magnitude, if it was distributed over a period of several years.

If such a policy were to be adopted it would involve government investment, since there are few attractions to the private sector to invest in tankers because, under present conditions, this business is not very profitable in terms of rate of return compared with many alternative types of investment. For the Saudi government, on the other hand, there is every incentive to invest in tankers and gass carriers. Shipping is required not only for its own sake, its strategic value, and its significance for the economy, but also, I would argue, for the leading rôle it will play in stimulating many related industrial activities and for the effective transfer of technology to Saudi nationals, as will be demonstrated in a later part of this paper.

What is being sought then, are ways of transferring technology over and above the purely conventional. The hypothesis I am advancing here is that shipping qualifies as a decisive and effective supplementary element in the total process of technology transfer. To test this hypothesis, and to illustrate the point more fully, I intend to concentrate on Saudi Arabia. But countries which share similar conditions to Saudi Arabia may find these concepts applicable to their own developmental experience.

2. The Basis of Possible Shipping Developments in Saudi Arabia

Let us consider first the importance of shipping to the Saudi Arabian economy. This may be appreciated from the volume of shipping activity required to export oil and import commodities. Saudi Arabia produces oil at a rate of 10 million barrels per day. If we translate this into ship requirements then the generation of shipping activities by Saudi Arabia is very substantial. At this daily level of production, Saudi Arabia exports about 487,000,000 tons per year. The transportation of this amount of oil to its normal destinations, via the Cape loaded, and returned by the Suez Canal in ballast, requires at a 'rough and ready' estimate 354 tankers of a standard size of 250,000 dwt making 5.5 round trips per year. This means that the carriage of such a quantity of crude oil to the normal world markets, at current levels of demand, requires a tanker fleet with a capacity of about 88,500,000 dwt.

Saudi Arabia can continue, theoretically at least, to export such a quantity every year for about forty years as its proven resources are given as 169,500,000,000 barrels equalling 22,600,000,000 tons, according to official Saudi Arabian statistics. If more oil is found on land and offshore, the potential for export will obviously exceed 40 years. It is also expected that refining will be carried out in Saudi Arabia for export, as will gas exports, requiring an additional and greater capacity of shipping.

Ambitious attempts at rapid technological development in Saudi Arabia have shown us how difficult it is to acquire indigenous technological expertise. We can measure this by the simple fact that, in order to carry out these ambitious schemes—the Five Year Development Plans—we have had to act as a host to a foreign manpower force nearly two million strong. This happens, ironically, when we have an almost equal untapped potential in our own national manpower force. In a country like Saudi Arabia, where the ratio of foreign manpower to the native population has become almost 1 to 4, it is imperative that we find a practical solution to this major problem of transferring technology: not only on a superficial level, but into the hearts and minds—and hands—of Saudi nationals. Without this kind of transfer, it is difficult to claim that we have achieved all the success we are seeking in our developmental effort. This type of ineffective transfer could all too easily become a heavy burden on any developing country finding itself in a similar situation.

What we are accustomed to see, in effect, is a developing country trying to achieve rapid development by seeking help from overseas and through higher education. No-one would deny that such approaches as these are necessary, but are they always sufficient? What could rightly be said is that such vast, unprecedented programmes of industrial development as seen in Saudi Arabia require some unconventional methods to *supplement* the indisputably important rôle played by conventional methods, which are, after all, fully effective only in situations where long time scales are tolerable. In Saudi Arabia, it is vital for the country to manage, run and operate its own industrial projects with its own national manpower *within two or three decades*. Only when we achieve this can we say that we are actually *transferring* technology—in an adequate way, with adequate quality, and with adequate speed and amounts—so that the ambitions of the country are satisfied.

In the Middle East the adoption of 'technology' is considered to be a prerequisite to development, and therefore an issue which affects many different spheres of life. Scholars, politicians, and the ubiquitous 'man in the street' are no different in this respect. All refer, in one way or another, to this idea of technology and its acquisition. This universal concern with technology is a strong indication that most people realise the benefits it offers and are aware that technology, amongst several other important elements, is a precursor to sound industrial growth.

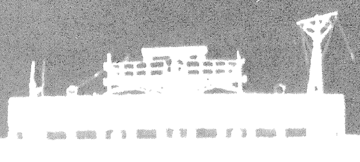
The question posed in many discussions on this topic is how to transfer technology from one region to another in a decisive and effective manner : that is not merely to acquire the 'trappings' of technology but to incorporate the knowledge and skill it demands at managerial and operational levels. An analysis of this issue is pertinent, given that the Middle East is rapidly developing the infrastructure of technology and (in a country like Saudi Arabia) attempts are now being made to catch up with rapidly advancing technological progress in the developed world. Saudi Arabia is, in fact, accused of technological 'overdevelopment'. This might be so were we to look at the issue of technological development from a theoretical standpoint alone. But since we, in Saudi Arabia, have major contributions to make (whether on an international economic level as the main source of world energy resources, or on the Arab World level as the centre of Islam), we must mobilise, in an effort to attain and present a model of sound development by combining technological advances with our cultural, natural and human resources.

SHIPPING

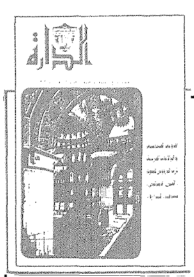
and the transfer of TECHNOLOGY

Dr. Baha Bin Hussein Ázzee

SHIPPING







Cover Picture:

Inside the Mosque of Sultan Ahmed III, (1673-1736 A.M.), Istanbul, Turkey.

The writers' views do not necessarily reflect those of the magazine.

Article are arranged technically regardless of the writer's prestige.

Annual Subscriptions:

- Saudi Arabia: 15 Riyals.
- **Arab Countries:** The equivalent of **15** Riyals.
- **Non-Arab Countries:** US $ **6.**

Articles are not to be returned to owners whether published or not.

PRICE PER ISSUE

— **Saudi Arabia**	:	**2** Riyals
— **Kuwait**	:	**250** Fils
— **U. A. E.**	:	**4** Dirhams
— **Qatar**	:	**4** Riyals
— **Egypt**	:	**25** Piastres
— **Morocco**	:	**4** Dirhams
— **Tunisia**	:	**350** Milliemes
— **Germany**	:	**2** Marks
— **Non-Arab Countries**	:	**1** U.S. $

DISTRIBUTORS

Saudi Arabia: Al-Greisy Distributing Est., P.O. Box 1405, Riyadh, Tel.: 4022564.
Kuwait: Al-Rabian Co., Al-Safath, P.O. Box 25401, Tel.: 449998.
Abu-Dhaby: P.O. Box 3778, Abu-Dhaby, Tel.: 323011.
Dhubai: Dar-Al-Hikma Library, P.O. Box 2007, Tel.: 228552.
Qatar: Dar- Al-Thakafa, P.O. Box 323, Tel.: 413180.
Bahrain: Al-Hilal Distributing Est.,Manama, P. O. Box 224, Tel.: 262026.
Egypt: Al-Ahram Distributing Est., Al-Gataa Street, Cairo, Tel.: 755500.
Tunisia: The Tunisian Distributing Company, 5, Nahg Kortai.
Morocco: Al-Sharifia Distributing Company, P.O. Box 683, Casablanca, 05.

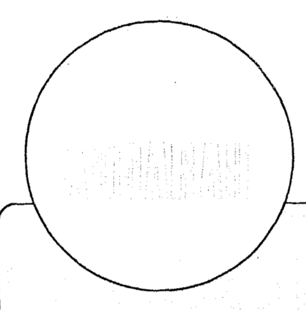


All correspondence should be directed to the Editor-in-Chief. Tel.: 4417020

Editorial Director: Tel.: 4413944

Annual Subscriptions are to be directed to the Secretary General of - **'Addarah'** Tel.: 4414681

Editorial Board: Tel.: 4412316-4412317-4412318-4412319



IN THE
NAME OF ALLAH,
THE MERCIFUL,
THE BENEFICENT

Quarterly magazine issued by King Abdul Aziz Research Centre

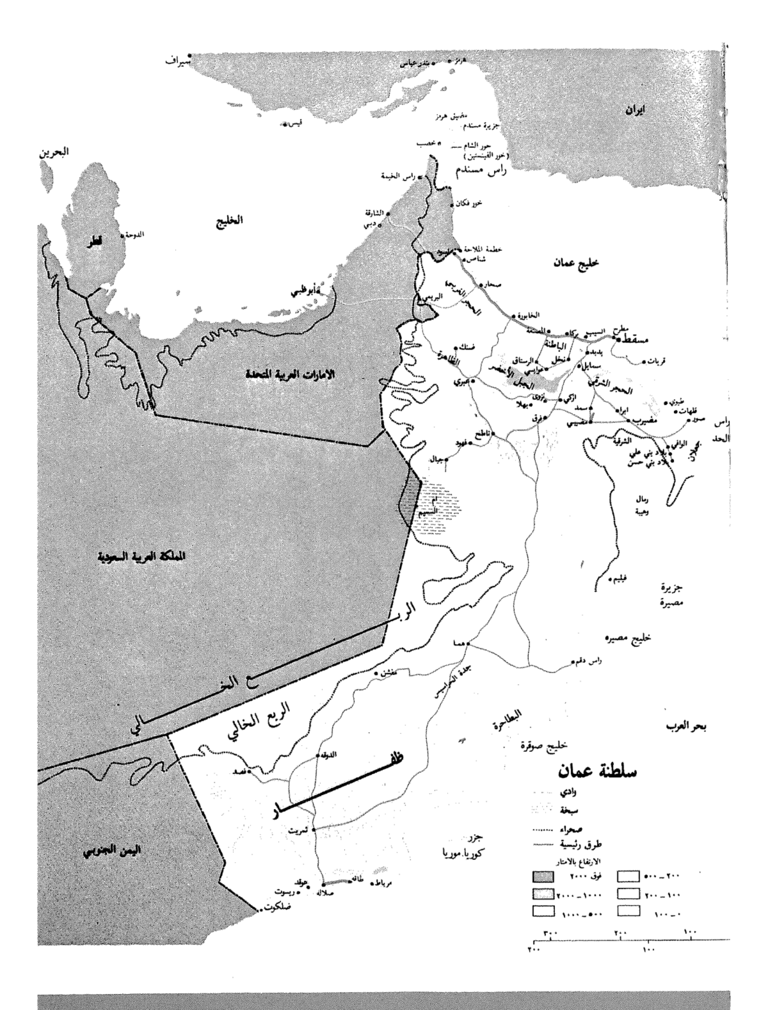
Rajab 1403 *A.H./April* 1983 *A.D.* | *Eighth Year* | *No.* **4**

King Abdul Aziz Research Centre

— Established by a Royal Decree No. M/45 dated 5/8/1392 A.H. as an autonomous body with independent juristic identity.
— Run by a Board of Directors vested with full authority to have its objectives materialized.

Objectives:
— To further studies pertaining to the history of the Kingdom, its geography, literature, intellectual and cultural heritage in particular as well as those of the Arab and Islamic world in general.
— To issue a cultural magazine carrying its name **'ADDARAH'.**
— In accordance with the Royal approval No. 5/12608 dated 20/5/1396 A.H. the Centre has become the home of the 'National Saudi Archives and Manuscripts.'

P.O. Box 2945 *Riyadh* 11461 *Kingdom of Saudi Arabia*



خريطة سلطنة عُمان



No. 4 - *Year* 8 - *Ragab* 1403 - *Abril* 1983 *A. D.*

